الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم
برؤية موضوعية

قال تعالى :

{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (29) سورة الفتح

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
أما بعد :
فإن الله تعالى شاء أن يجعل هذه الرسالة الخاتمة في بني إسماعيل ، وخص بها العرب أولا ثم باقي الخلق
قال تعالى :
{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (32) سورة فاطر
وقال تعالى مادحا ذلك الجيل : {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (110) سورة آل عمران
وقال تعالى :
{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (100) سورة التوبة
وقال تعالى :
{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (22) سورة المجادلة
وقال تعالى :
{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (29) سورة الفتح
وغير ذلك من الآيات القرآنية
وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « اللهَ اللهَ فِى أَصْحَابِى اللهَ اللهَ فِى أَصْحَابِى لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِى فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّى أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِى أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِى وَمَنْ آذَانِى فَقَدْ آذَى اللهَ وَمَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ ».أخرجه الترمذي وهو حديث حسن
وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه

وسلم - « لا َ تسبُوا أصْحَابِى ، فَلَوْ أنّ أحَدَكَمْ أنقَقَ مِثْلَ أحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدّ أحَدِهِمْ وَلا َ نَصِيفَهُ » أخرجه البخاري

وعَنْ أبِي مُوسَى ، قَالَ : صَلَيْنَا مَعَ النّبِيّ صلى الله عليه وسلم المَغْرِبَ ، ثُمّ قُلْنَا : لَوِ انْتَظَرْنَا حَتَى نُصَلِّيَ مَعَهُ العِشَاءَ ، فَانْتَظَرْنَاهُ ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا ، فَقَالَ : مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا ، قَالَ : قُلْنَا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قُلْنَا : نُصَلِّي مَعَكَ العِشَاءَ ، قَالَ : أحْسَنْتُمْ أوْ أصَبْتُمْ ، ثُمّ رَفَعَ رَأسَهُ إلَى السّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأسَهُ إلَى السّمَاءِ ، قَالَ : النّجُومُ آمِنَةٌ لأ َهْلِ السّمَاءِ ، فَإذَا ذَهَبَتِ النّجُومُ أتَى أهْلُ السّمَاءِ مَا يُوعَدُونَ ، وَأنَا أمَنَةٌ لأ َصْحَابِي ، فَإذَا ذَهَبْتُ أتَى أصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ ، وَأصْحَابِي أمَنَةٌ لأ ُمّتِي ، فَإذَا ذَهَبَ أصْحَابِي أتَى أمّتِي مَا يُوعَدُونَ أخرجه مسلم

وعَنْ عَبْدِ اللهِ - رضى الله عنه - أنّ النّبِىّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « خَيْرُ النّاسِ قَرْنِى ، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمّ يَجِىءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ » . أخرجه مسلم

وهذا الجيل الذي نزل عليه القرآن الكريم يعتبر أطهر وأزكى وأفضل جيل عرفته البشرية على الإطلاق

، ومع هذا فهذا الجيل ليس معصوما كأفراد عن الوقوع في الخطأ .

وهذه الفتنة التي حدثت بين الصحابة رضي الله عنهم ، ما هي إلا من قبل أعداء الإسلام ، الذين دخلوا في هذا الدين ليتآمروا عليه من الداخل ، وهم أشد أعداء الإسلام على الإطلاق .

وقد كُتب عن الفتنة في هذا العصر الكثير الكثير ، ولكن غالب هذه الكتابات يحمل في طياته السم الزعاف ، والأباطيل ، على ذلك ذلك الجيل المثالي الذي زكاه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم

{... وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا ً} (122) سورة النساء

والذين كتبوا فيه بشكل دقيق :

1- أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم
2- منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
3- ابن خلدون رحمه الله وابن كثير رحمه الله في تواريخهم
4- تاريخ الجنس العربي لمحمد عزة دروزة وهو خير من كتب في هذا الموضوع
5- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر رحمه الله وهو نفيس في بابه ، وغيرهم كثير والحمد لله ،

هذا وقد قمت بالكلام عن هذا الموضوع مفصلا ، وبشكل دقيق ، ومن المصادر الموثقة في هذا الباب .

وقد قسمته للمباحث التالية :

أولا- مقدمة هامة عن جيل الصحابة

ثانيا- الفتنة الكبرى

ثالثا- أسباب الفتنة وبواعثها

رابعا- مقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
خامسا- الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه
سادسا- الفتنة في عهد علي رضي الله عنه
سابعا- بعض الدروس والعبر من الفتنة
وتحت كل بند منها مباحث
هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره في الدارين آمين .
قال تعالى :
{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (10) سورة الحشر
وجمعه
الباحث في القرآن والسنة
علي بن نايف الشحود
في 16 صفر 1428 هـ - الموافق ل 2007/3/6 م



أولا- مقدمات هامة عن جيل الصحابة

1- عدالة الصحابة ومكانتهم في الإسلام

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: " إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ "
إن عدالتهم عند أهل السنة من مسائل العقيدة القطعية، ومما هو معلوم من الدين بالضرورة ويستدلون لذلك بأدلة لا تحصى من الكتاب والسنة.
ففي القرآن يقول عز و جل: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم تريهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإ نجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال - سبحانه -: {لَقدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلوبِهِمْ فَأنزَلَ السّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}.
قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: " كنا ألفا وأربعمائة ".
(ومن رضي عنه - تعالى -لا يمكن موته على الكفر، لأن العبرة بالوفاء على الإ سلام، فلا يقع الرضا منه - تعالى -إلا على من علم موته على الإسلام، وأما من علم موته على الكفر فلا يمكن أن يخبر الله - تعالى -بأنه رضي عنه.
ومما يؤكد هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله يقول: أخبرتني أمُّ مبشر أنها سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول عند حفصة: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها "
وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ".
وروى الإمام أحمد في الفضائل وصححه الألباني عن عبد الله بن عمر: "لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعةً خير من عمل أحدكم عمرَه "، وفى رواية: " خير من عبادة أحدكم أربعين سنة "وقال ابن حزم: " فمن أخبرنا الله - عز وجل - أنه علم ما في قلوبهم، و-رضي الله عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم، أو الشك فيهم ألبتة ".
وفي مسند البزار رجاله موثوقون من حديث سعيد بن المسيب عن جابر ق

ال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين)
وقال الإمام أحمد: " فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال "
وإلى وصف دقيق لحالهم من أحدهم بل ومن خيارهم وهو صهر رسول الله - عليه السلام - علي بن أبي طالب حيث يروي لنا ابن أبي الدنيا والحافظ ابن كثير عن أبي أراكة قال: " صليت مع علي بن أبي طالب رضي الله - تعالى -عنه صلاة الفجر فلما انتفل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى ركعتين ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا، بين أعينهم كأمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفترا يضحك حتى قتل - رضي الله عنه - "
ولقد كان بينهم من المحبة والوئام والألفة قدر كبير وجليل مع ما حدث بين بعضهم من القتال إلا أن المحبة في قلوبهم لبعضهم كالجبال الرواسي، وهذا من أعجب العجب، ولكنه يزول حين نعلم أن أولئك هم تلاميذ محمد بن عبد الله، يأتي أحدهم إلى علي بن أبي طالب فيقول ما تقول فيمن قاتلوك (يعني معاوية وطلحة والزبير ومن كان معهم من الصحابة) فيقول: إخواننا بغوا علينا.
ويروي لنا أبو نعيم في الحلية عن أبي صالح قال: " دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له: صف لي عليا ؟ فقال: أو تعفني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك قال: أما إذا ولا بد فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارة نجومه، يميل في محرابه قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا إلي تغررت؟ إلي تشوفت؟ هيهات هيهات، غري غيري، قد بتتك ثلاثا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق، فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق

القوم بالبكاء فقال معاوية - رضي الله عنه -: كذا كان أبو الحسن - رحمه الله -، كيف وجدك عليه يا ضرار؟ قال: وجد من ذبح واحدها في حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها ثم قام فخرج ".
هكذا كان أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -، فحق لأمة أن تفخر بهم وتباهي سائر الأمم:

أولئك أصحاب النبي وحزبُه *** ولولاهم ما كان في الأرض مسلم
ولولاهم كادت تميد بأهلها *** ولكن رواسيها وأوتادُها هم
ولولاهم كانت ظلاما بأهلها *** ولكن هم فيها بدور وأنجم[1]

اللهم اجمعنا بهم في أعالي الجنان واغفر لنا ولهم أجمعين والحمد لله رب العالمين،،،

----

[1] من أبيات لابن القيم في ميميته الشهيرة
المصدر: http://saaid.net
عبد الله بن محمد العسكر
=================

2-عقيدة أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

المبحث الأول: وجوب محبتهم رضي الله عنهم:

من عقائد أهل السنة والجماعة وجوب محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم والأخذ بآثارهم، وحرمة بغض أحد منهم، لما شرفهم الله به من صحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه لنصرة دين الإسلام والهجرة في سبيله، وقد دلت النصوص الصحيحة الصريحة على هذا المعتقد في كثير من الآيات والأحاديث منها:

1- قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لّلَّذِينَ ءامَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر:10].

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره قال مالك: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين ثم قرأ: {وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ}[1].

2- عن عبد الله بن مغفل المزني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه))[2].

3- عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار))[3].

4- عن عدي بن ثابت قال: سمعت البراء يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأنصار: ((لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله))[4].

5- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر))[5].

المبحث الثاني: الدعاء والاستغفار لهم:

من حق الصحابة الكرام رضي الله عنهم على كل من جاء بعدهم من عباد الله المؤمنين أن يدعو لهم ويستغفر لهم ويترحم عليهم، وقد دل على هذا كم كبير من نصوص الوحيين منها:

1- قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لّلَّذِينَ ءامَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ}.

2- عن عروة قال: قالت لي عائشة: يا ابن أختي، أُمروا أن يستغفروا لأ صحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم[6].
قال النووي: "قولها: (أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم) قال القاضي: الظاهر أنها قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام في علي ما قالوا، والحرورية في الجميع ما قالوا، وأما الأمر بالاستغفار الذي أشارت إليه فهو قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِإِ لإيمَانِ}"[7].
3- عن قتادة بن دعامة السدوسي أنه قال بعد قراءته لقوله تعالى: { وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ}: "إنما أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمروا بسبهم"[8].

المبحث الثالث: الشهادة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ الجنة منهم:

من عقائد أهل السنة والجماعة أنهم يشهدون لمن شهد له المصطفى صلى الله عليه وسلم بالجنة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فهناك أشخاص أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة، وهناك آخرون أخبر ببعض النعيم المعد لهم في الجنة، والكل يشهد له أهل السنة والجماعة بـ الجنة تصديقاً منهم لخبر الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، فلقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن عشرة من المهاجرين بأنهم من أهل الجنة وسماهم بأعيانهم، وهؤلاء العشرة هم المذكورون في حديث سعيد بن زيد.
وتبشير هؤلاء لا ينافي تبشير غيرهم، فلقد جاء تبشير عدد من الصحابة في غير ما حديث، ومن أمثلة أولئك:
1- بلال بن رباح رضي الله عنه:
عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال))[9].
2- حارثة بن سراقة رضي الله عنه:
عن أنس رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع، فقال: ((ويحك أوَهبلتِ؟! أوَجنة واحدة؟ إنها جنات كثيرة وإنه في جنة الفردوس))[10].

المبحث الرابع: إثبات عدالتهم رضي الله عنه:

تعريف العدالة لغة واصطلاحاً:
العدالة لغة: قال ابن منظور: "رجل عدل بين العدل والعدالة: وصف بالمصدر معناه ذو عدل"[11].
وقال الفيروز آبادي: "العدل ضد الجور وما قام في النفوس أنه مستقيم كـ

العدالة والعدُولة والمِعدلة والمعدَلة"[12].
العدالة اصطلاحاً: أما تعريف العدالة في الاصطلاح فقد تنوعت فيها عبارات العلماء والمحدثين والأصوليين، وهي وإن تنوعت عباراتها إلا أنها ترجع إلى معنى واحد، وهو: أن العدالة ملكة في النفس تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، ولا تتحقق إلا بالإسلام والبلوغ والعقل والسلامة من الفسق.
دلالة القرآن على لعدالة الصحابة:
1- قوله تعالى: {وَكذالِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:143]، ووجه الاستدلال بهذه الآية على عدالة الصحابة رضي الله عنهم أن وسطاً بمعنى (عدولا ً خياراً)[13] ولأنهم المخاطبون بهذه الآية مباشرة.
2- قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ}.
3- قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:100].
4- قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} [الفتح:18].
5- قوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلا ً مّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الفتح:29].
قال القرطبي: "فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة، وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، ومنهم من فرّق بين حالهم في بداءة الأ مر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث، وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله: {مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك، وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم إذ كانت تلك المرور مبنية على الا جتهاد"[14].
أما دلالة السنة على تعديلهم رضي الله عنه:

عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب))[15].
قال ابن حبان: "وفي قوله صلى الله عليه وسلم: ((ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب)) أعظم دليل على أن الصحابة كلهم عدول ليس فيهم مجروح ولا ضعيف، إذ لو كان فيهم أحد غير عدل لاستثنى في قوله صلى الله عليه وسلم وقال: ((ألا ليبلغ فلان منكم الغائب))، فلما أجملهم في الذكر بالأمر بـ التبليغ من بعدهم دل ذلك على أنهم كلهم عدول، وكفى بمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً"[16].
وقد مرت الآيات والأحاديث الدالة على تعديلهم في الفصلين الثالث والرابع فيرجع إليها.

المبحث الخامس: ترتيب الصحابة في الفضل والإمامة:

تعريف الإمامة لغة:
قال ابن منظور: "والإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين... والجمع أئمة... وإمام كل شيء قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وإمام الجند قائدهم... وأممت القوم في الصلاة إمامة وائتم به أي: اقتدى به، وإمام الغلام في المكتب ما يتعلم كل يوم. ويقال فلان إمام القوم معناه هو المتقدم لهم، ويكون الإمام رئيساً كقولك: إمام المسلمين"[17].
تعريف الإمامة اصطلاحا:
عرفها العلماء بتعريفات مختلفة من حيث اللفظ، متحدة في المعنى، ومضمون تعريفاتهم: أنها سياسة الإمام التي يجب أن تكون وفق الشريعة الإسلامية الغراء التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون بعيداً عن الحكم بالهوى والشهوة في كل حال ولا بد أن يكون حكمه بالشرع في كل الأمور الدينية والدنيوية، حتى يصدق عليه أنه نائب عن الرسول صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا بالقيام بشرع الله الذي أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من كتاب وسنة، ولفظ الإمام والخليفة والأمير ألفاظ الحديث النبوي[18].
عقيدة أهل السنة في ذلك:
وعقيدة أهل السنة والجماعة في ترتيب الخلفاء الأربعة في الإمامة كترتيبهم في الفضل، فالإمام بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم أبو السبطين علي رضي الله عنهم أجمعين، فأهل الحق يعتقدون اعتقاداً جازماً لا مرية فيه ولا شك أن أولى الناس بالإمامة والأحق بها بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روى أبو عمر بن عبد البر بإسناده إلى عباد السماك قال: سمعت سفيان الثوري يقول: الأئمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وما سوى ذلك فهم منتزون[19]. قال أبو عمر: "قد روى

عن مالك وطائفة نحو قول سفيان هذا، وتأبى جماعة من أهل العلم أن تفضل عمر بن عبد العزيز على معاوية لمكان صحبته"[20].

----

[1] الجامع لأحكام القرآن (32/18).

[2] أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب: فيمن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (3862) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي برقم (808) وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

[3] أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب: علامة الإيمان حب الأنصار (17)، ومسلم في كتاب الإيمان باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه (74).

[4] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه (76).

[5] أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب: حب الأنصار (3783)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه (75).

[6] أخرجه مسلم في كتاب التفسير باب حدثنا يحي بن يحي.. (3022).

[7] شرح النووي على صحيح مسلم (159-158/18).

[8] أسنده الطبري في جامع البيان (45-44/28).

[9] أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3679).

[10] أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب فضل من شهد بدراً (3982).

[11] لسان العرب (430/11).

[12] القاموس المحيط (13/4).

[13] انظر: جامع البيان للطبري (7/2)، الجامع لأحكام القرآن (153/2)، تفسير القرآن العظيم (335/1).

[14] انظر: الجامع لأحكام القرآن (399/16).

[15] أخرجه البخاري في كتاب العلم باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب (105) وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والدبات باب: تغليط تحريم الدماء والأعراض والأموال (1679).

[16] انظر: الإحسان بترتيب صحيح بن حبان (91/1).

[17] لسان العرب (24/12)، وانظر: القاموس المحيط (78/4)، وتاج العروس (193/8).

[18] انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة للدكتور ناصر الشيخ (504/2).

[19] أي متغلبون.

[20] جامع بيان العلم وفضله (227-226/2)، وانظر: عقيدة أهل السنة و

الجماعة في الصحابة (514/2).
====================
2- تحريم سب الصحابة

المبحث الأول: تحريم سبهم بنص القرآن:
1- قال تعالى: {إِنّ الّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِى الدّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدّ لَهُمْ عَذَاباً مّهِيناً E وَالّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مّبِيناً} [الأحزاب:58].
ووجه دلالة الآية على تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم أنهم في صدارة المؤمنين، فإنهم المواجهون بالخطاب في كل آية مفتتحة بقوله: {ياأَيّهَا الّذِينَ ءامَنُواْ} ومثل قوله: {إِنّ الّذِينَ ءامَنُواْ} في جميع القرآن فالآية دلت على تحريم سب الصحابة؛ لأن لفظ المؤمنين أول ما ينطلق عليهم لأن الصدارة في المؤمنين لهم رضي الله عنهم، وسبهم والنيل منهم من أعظم الأذى[1].
قال الحافظ ابن كثير: "ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم"[2].
2- وقوله تعالى: {مّحَمّدٌ رّسُولُ اللّهِ وَالّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاء عَلَى الْكُفّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً ً مّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً}.
قال أبو عبد الله القرطبي: "روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية: {مّحَمّدٌ رّسُولُ اللّهِ وَالّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاء...} حتى بلغ: {يُعْجِبُ الزّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّارَ}، فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية"، ثم قال: "لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين"[3].
المبحث الثاني: دلالة السنة على تحريم سبهم:
1- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه))[4].
قال النووي: "واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام، من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون"[5].
2- وعن أبي سعيد أيضاً قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أحداً من أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه))[6].

3- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أصحابي، لعن الله من سب أصحابي))[7].
4- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين))[8].

المبحث الثالث: من كلام السلف في تحريم سب الصحابة:

1- روى ابن أبي حاتم بإسناده إلى يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي رضي الله عنه على أهل البصرة فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيْئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ} [الأحقاف:16]، قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً، قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه قال: آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه[9].
2- وعن جابر رضي الله عنهما قال: قيل لعائشة: إن ناساً يتناولون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبا بكر وعمر فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر[10].
3- عن محمد بن علي بن الحسين بن علي أنه قال لجابر الجعفي: يا جابر، بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني آمرهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده، لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن استغفر لهما وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[11].

المبحث الرابع: حكم سابّ الصحابة وعقوبته:

اختلف أهل العلم في الحكم والعقوبة التي يستحقها من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جرحهم، هل يكفر بذلك وتكون عقوبته القتل أو أنه يفسق بذلك ويعاقب بالتعزير.
1- ذهب جمع من أهل العلم إلى القول بتكفير من سب الصحابة رضي الله عنهم أو انتقصهم وطعن في عدالتهم وصرح، ببغضهم وأن من كانت هذه صفته فقد أباح دم نفسه وحل قتله إلا أن يتوب من ذلك ويترحم عليهم.
قال الطحاوي في عقيدته: "وحبهم ـ أي الصحابة ـ دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان"[12].
وقال الذهبي: "فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة

المسلمين، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحق فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في ا لأصل والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته"[13].

واستدل أصحاب هذا القول بأمور منها:

أ) أن سب الصحابة وانتقاصهم والطعن فيهم إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقاص له وحط من مكانته عليه الصلاة والسلام لأنهم أصحابه الذين رباهم وزكاهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأذى الله ورسوله كفر موجب للقتل"[14].

ب) أن الطعن في الصحابة والتجريح لهم مفاده إبطال جميع أحكام الشريعة الإسلامية إذ هم نقلتها والمبلغون لها.

قال القرطبي: "فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين"[15].

ج) أن الطعن في الصحابة يؤدي إلى إنكار ما قام عليه الإجماع قبل ظهور المخالف من فضلهم وشرفهم ومصادقة المتواتر من الكتاب والسنة الدالين على أن لهم الزلفي إلى ربهم[16].

2- وذهب فريق آخر من أهل العلم إلى أن ساب الصحابة لا يكفر بسبهم بل يفسق ويضلل ولا يعاقب بالقتل بل يعزر تعزيراً شديداً.

قال إسحاق بن راهويه: "ومن شتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعاقب ويحبس"[17].

وقد استدل أصحاب هذا القول بأدله منها:

أ) ما رواه الشيخان في صحيحيهما من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد بن الوليد وقد سب عبد الرحمن بن عوف ((لا تسبوا أصحابي...)).

ب) ما رواه الإمام أحمد بإسناده إلى أبي برزة الأسلمي قال: أغلظ رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: فقال أبو برزة: ألا أضرب عنقه قال: فانتهره ، وقال: ما هي لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[18].

ج) أن الله ميز بين مؤذي الله ورسوله ومؤذي المؤمنين فجعل الأول ملعوناً في الدنيا والآخرة وقال في الثاني: {فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِينا} [النساء:112]، ومطلق البهتان والإثم ليس بموجب للقتل وإنما هو موجب للعقوبة في الجملة.

----

[1] انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة (833/2).

[2] تفسير ابن كثير (515/5).

[3] الجامع لأحكام القرآن (296/16).

[4] أخرجه البخاري في المناقب باب: لو كنت متخذاً خليلا ً (3673).

[5] شرح النووي على صحيح مسلم (16/).
[6] أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (2541).
[7] أخرجه الطبراني في الأوسط (94/5) والكبير (434/12) وقال الهيثمي في إسناد الأوسط: "رجاله رجال الصحيح غير علي بن سهل وهو ثقة" مجمع الزوائد (21/10).
[8] أخرجه الطبراني في الكبير (174/3) وحسنه بمجموع طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة (2340).
[9] ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (283/6).
[10] انظر: جامع الأصول (409-408/9).
[11] انظر: البداية والنهاية (349/9).
[12] شرح الطحاوية (528).
[13] الكبائر (235).
[14] الصارم المسلول على شاتم الرسول (580).
[15] الجامع لأحكام القرآن (299/16).
[16] الأجوبة العراقية (49).
[17] انظر الصارم المسلول (568).
[18] المسند (9/1).

==================

3- المنحرفون في هذا الباب

المبحث الأول: الشيعة والرافضة:

إن الرافضة وقفوا من الصحابة موقفاً لم ترضه اليهود في أصحاب موسى، ولم ترضه النصارى في أصحاب عيسى، فلقد اجترؤوا على الصحابة الكرام وتناولوهم بالطعن والقدح:

فمن مطاعنهم في الصحابة عموماً أن أكثرهم انفضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العير التي جاءت من الشام وتركوه وحده في خطبة الجمعة وتوجهوا إلى اللهو واشتغلوا بالتجارة وذلك دليل على عدم الديانة.

ومن مطاعنهم في الصحابة أنهم يعتقدون فيهم أنهم ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بدعوى أنهم جحدوا النص على إمامة علي وبايعوا غيره بالخلافة.

ومن مطاعنهم أيضاً أنهم حرفوا القرآن وأسقطوا منه كلمات، بل آيات، وأن القرآن الموجود لدى السبعة كما يزعمون يعادل ثلاث مرات من القرآن الموجود بين أيدينا، ومطاعنهم في الصحابة عموماً أنهم يقولون: إن كثيراً منهم فروا يوم الزحف في غزوتي أحد وحنين والفرار من الزحف أكبر الكبائر.

ومن مطاعنهم زعمهم أن الصحابة آذوا علياً وحاربوه وقد قال صلى الله

عليه وسلم: ((من آذى علياً فقد آذاني)).
وهناك عشرات المطاعن غير ما ذكرنا وبخصوص بعض الصحابة مما يندى له الجبين نسأل الله العافية[1].

المبحث الثاني: الخوارج:

لقد امتاز الخوارج عن الشيعة الرافضة بإثباتهم إمامة الصديق والفاروق رضي الله عنهما فهم يعتقدون أن إمامة أبي بكر وعمر إمامة شرعية وأنها كانت برضى المؤمنين وهذا المعتقد للخوارج تجاه الشيخين حالفهم فيه السداد والصواب، لكنهم هلكوا فيمن بعدهما حيث كادهم الشيطان وأخرجهم عن الحق والصواب في اعتقادهم في عثمان وعلي رضي الله عنهما، فأنكروا إمامة عثمان رضي الله عنه في المدة التي نقم عليه أعداؤه فيها كما أنكروا إمامة علي رضي الله عنه بعد التحكيم، بل أدى سوء معتقدهم إلى تكفيرهما وتكفير طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وأم المؤمنين عائشة وابن عباس وأصحاب الجمل وصفين[2].
قال أبو الحسن الأشعري: "والخوارج بأسرها يثبتون إمامة أبي بكر وعمر وينكرون إمامة عثمان في وقت الأحداث التي نقم عليه من أجلها، ويقولون بإمامة علي قبل أن يحكم، وينكرون إمامته لما أجاب إلى التحكيم ويكفرون معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري"[3].
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكان شيطان الخوارج مقموعاً لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان فلما افترقت الأمة في خلافة علي رضي الله عنه وجد شيطان الخوارج موضع الخروج، فخرجوا وكفروا علياً ومعاوية ومن والاهما، فقاتلهم أوْلى الطائفتين بالحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه"[4].

المبحث الثالث: النواصب:

النواصب إحدى طوائف أهل البدع التي أصيبت في معتقدها بعدم التوفيق ل لاعتقاد السديد في الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فقد زين لهم الشيطان اعتقاد عدم محبة رابع الخلفاء الراشدين وأحد الأئمة المهديين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحملهم على التدين ببغضه وعداوته، والقول فيه بما هو بريء منه، كما تعدى بغضهم إلى غيره من أهل البيت كابنه الحسين وغيره، وسُمّوا بالنواصب: لنصبهم العداء لآل البيت الأطهار.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الخوارج الذين يكفرون علياً والنواصب الذين يفسقونه يقولون: إنه كان ظالماً طالباً للدنيا، وإنه طلب الخلافة لنفسه وقاتل عليها بالسيف، وقتل على ذلك ألوفاً من المسلمين حتى عجز عن انفراده بالأ مر، وتفرق عليه أصحابه وظهروا عليه فقاتلوه"[5].
وبعد أن كان مذهب النصب له وجود في دمشق فإنه تلاشى واضمحل حتى عدم نهائياً، قال الذهبي: "كان النصب مذهباً لأهل دمشق في وقت، كما كان الرفض مذهباً لهم في وقت، وهو في دولة بني عبيد ثم عدم ـ ولله الحمد ـ النصب، وبقي الرفض خفيفاً خاملاً "[6].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،
----
[1] انظر: هذه المطاعن بالتفصيل والردود عليها في عقيدة أهل السنة و الجماعة في الصحابة (889/3) وما بعدها.
[2] انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (1157/3).
[3] مقالات الإسلاميين (204/1).
[4] مجموع فتاوى شيخ الإسلام (89/19).
[5] منهاج السنة النبوية (162/1).
[6] ميزان الاعتدال (76/1).
===================

5- الجيل القرآني الفريد[1]

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان . وأن يقفوا أمامها طويلا ً . ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .
لقد خرّجت هذه الدعوة جيلا ً من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلا ً مميزًا في تاريخ الإسلام كله وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى ..
نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمّع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة .
هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغي الوقوف أمامـه طويلا ً ، لعلنا نهتدي إلى سرّه
إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا ، وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه العملي ، وسيرته الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أيدي ذلك الجبل الأول ، الذي لم يتكرر في التاريخ ..
ولم يغب إلا شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهل هذا هـو السر ؟
لو كان وجود شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتميًا لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض ، إلى آخر الزمان
ولكن الله - سبحانه - تكفل بحفظ الدِّكر ، و علم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويمكن أن تؤتي ثمارها . فاختاره إلى جواره بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الرسالة ، وأبقى هذا الدِّين من بعده إلى آخر الزمان ..
وإذن فإن غيبة شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تفسر تلك

[1] - معالم في الطريق للسيد قطب رحمه الله ص 5 فما بعدها

الظاهرة ولا تعللها
فلنبحث إذن وراء سبب آخر . لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول ، فلعل شيئاً قد تغير فيه . ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه ، فلعل شيئاً قد تغير فيه كذلك .
كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع . فعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها - عن خُلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : " كان خُلقه القرآن " ( ) .
كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا مؤلفات ، ولا دراسات .. كلا ! فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه ، أو على امتداده . وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم . وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك . وحضارات أخـرى قاصية ودانية : حضارة الهند وحضارة الصين إلخ . وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة .. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيـل على كتاب الله وحده .. في فترة تكونه .. وإنما كان ذلك عن " تصميم " مرسوم ، ونهج مقصود . يدل على هذا القصد غضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى في يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – صحيفـة مـن التوراة . وقوله : " إنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني " ( ) .
وإذن فقد كان هناك قصد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل .. في فترة التكون الأولى .. على كتاب الله وحده ، لتخلص نفوسهم له وحده . ويستقيم عودهم على منهجه وحده . ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستقي من نبع آخر .
كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور . خالص الشعور . خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم .
ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده . فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد ..
ثم ما الذي حدث ، اختلطت الينابيع . !
صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير

ذلك من رواسب الحضارات والثقافات . واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والأصول أيضًا . وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبدًا .
وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملا ً أساسيًا من عوامل ذلك الاختلاف البيّن بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد .
هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع . ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد ..
إنهم - في الجيل الأول - لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية و الفقهية محصولا ً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه !
ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ ..
كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف ، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوّل خط سير الحياة .
إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ - وإن كان هذا كله من محتوياته - إنما جاء ليكون منهاج حياة . منهاجًا إلهيًا خالصًا . وكان الله سبحـانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقًا ، يتلو بعضه بعضًا : { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا ً } [الإسراء : 106]
لم ينزل هذا القرآن جملة ، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطّرد في الأفكار والتصورات ، والنمو المُطّرد في المجتمع والحياة ، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم ، وتصوّر لهم ما هم فيه من الأمر ، وترسم لهم منهج العمل في الموقف ، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم في هذا

كله بالله ربهم ، وتعرّفه لهم بصفاته المؤثرة في الكون ، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى ، تحت عين الله ، في رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهـج الإلهي القويم .
إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول . ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرّج الأجيال التي تليه . وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل .

لقـد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديدًا ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام !
وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبته عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة ..
شعر في الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني .
كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيًا ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .
وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرْفُها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته
وكان هذا مفرق الطريق ، وكان بدء السير في الطريق الجديد ، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي ، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه . ولم يكن هناك إلا ما يلقاه المسلم من أذى وفتنة ، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى ، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي ، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل .
نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية ..
تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم

وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم . حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيرًا إسلاميًا ..
هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!
لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا ، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة .
فلا بد إذن - في منهج الحركة الإسلامية - أن نتجرد في فترة الحضانة و التكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها . لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال ، النبع المضمون أنه لم يختلط ولم تشبه شائبة . نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ، وجود الله سبحانه ..
ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة ، وقيمنا وأخلاقنا ، ومناهجنا للحكم و السياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة .
ولا بد أن نرجع إليه - حين نرجع - بشعور التلقي للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع . نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ، لنكون . وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائع في القرآن ، وبمشاهد القيامة في القرآن .. وبالمنطق الوجداني في القرآن ..
وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع . ولكننا سنلتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول . إن هدفنا الأول أن نعرف :
ماذا يريد منا القرآن أن نعمل ؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور ؟
كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة ؟
ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية و التقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية ..
في خاصة نفوسنا ..
ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين بالولاء له ، فهو بهذه الصفة ..
صفة الجاهلية ..
غير قابل لأن نصطلح معه . إن مهمتنا أن نغيّر من أنفسنا أولا ً لنغير هذا المجتمع أخيرًا .
إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه . هذا الواقع الذي يصطدم اصطدامًا أساسيًا بالمنهج الإسلامي ، وبالتصور الإسلامي ، والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش .
إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي

وقيمه وتصوراته ، وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا ً أو كثيرًا لنلتقي معه في منتصف الطريق . كلا ! إننا وإياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلقى في هذا عنتًا ومشقة ، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي ، ونصره على منهج الجاهلية .

وإنه لمن الخير أن ندرك دائمًا طبيعة منهجنا ، وطبيعة موقفنا ، وطبيعة الطريق الذي لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..

================

6- حملة رسالة الإسلام الأولون وما كانوا عليه من المحبة والتعاون على الحق والخير وكيف شَوّه المغرضون جمال سيرتهم[2]

محب الدين الخطيب

روى الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"، (قال عمران بن حصين: ف لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً) "ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن".

وروى البخاري مثله بعده عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث ابن مسعود هذا عند الإمام أحمد أيضاً في مسنده، وفي صحيح مسلم، وفي سنن الترمذي. وروى مسلم مثله في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فالهدى كل الهدى، مما لم تر الإنسانية مثله -قبله ولا بعده- هو الذي تلقاه الصحابة عن معلِم الناس الخير. وكان الصحابة به خيَر أمةِ محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته هُوَ لَهم؛ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الذين يدّعون خلاف ذلك فهم الكاذبون.

إن الخير كل الخير فيما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الدين كل الدين ما اتبعهم عليه صالحو التابعين، ثم نشأ على آثارهم التابعون لهم بإحسان.

ومن أحطِّ أكاذيب التاريخ زَعْمُ الزاعمين أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضمر العداوة بعضهم لبعض، بل هم كما قال الله سبحانه عنهم في سورة الفتح: (أَشِدَّاءُ على الكُفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم) وكما خاطبهم رَبُّنا في سورة الحديد: (وَلِلَّهِ مِيراثُ السماواتِ والأرضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ

---

[2] - في مقدمة العواصم من القواصم لابن العربي

مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَذينَ أنْفَقوا مِنْ بَعْدُ وقاتلوا وَكَلا ً وَعَدَ اللّه ُ الحُسْنى) ولا يخلف اللّه وعده. وهل بعد قول اللّه عز وجل في سورة آل عمران: (كُنْتُم خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ) يبقى مسلماً من يكذِّب ربّه في هذا، ثم يكذّب رسوله في قوله: "خَيرُ أمّتي قرني، ثم الذين يلونهم .."؟!

في صدر هذه الأمة حفظ اللّه كتابه بحفظته أميناً على أمين، حتى أدوا أمانة ربهم بعناية لم يسبق لها نظير في أمة من الأمم، فلم يفرطوا في شيء من ألفاظ الكتاب على اختلاف الألسنة العربية في تلاوتها ونبرات حروفها، وتنوّع مدودها وإمالاتها، إلى أدق ما يمكن أن يتصوره المتصور، فتم بذلك وعدُ اللّه عز وجل في سورة الحجر: (إنّا نحنُ نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافِظون).

ومن صدر هذه الأمة تفرّغ فريق من الصحابة فالتابعين وتلاميذهم لحمل أمانة السنة، فكانوا يمحِّصون أحاديثَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ويذرعون أقطار الدنيا ليدركوا الذين سمعوها من فم النبي صلى اللّه عليه وسلم فيتلقوها عنهم كما يتلقون أثمن كنوز الدنيا. بل كانت دار الإمارة في المدينة المنورة منتدى الفقهاء الأولين في صدر الإسلام يجتمعون إلى أميرهم مروان بن الحكم، فإذا عزيت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سنة غير الذي كان معروفاً عندهم أرسل مروان في تحقيق ذلك إلى من نسبت تلك السنة إليه من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم أو أزواجه، حتى يرد الحق إلى نصابه.

وبينما كان حفظة القرآن وحملة السنة المحمدية يجاهدون في حفظ أصول الشريعة الكاملة، كان آخرون من أبناء الصحابة وأبطال التابعين يحملون أمانة الإمامة والرعاية والجهاد والفتوح، ويعملون على نقل الأمم إلى الإسلام: يعربون ألسنتهم، ويطهرون نفوسها، ويسلكونها في سلك الأخوة الإسلامية لتتعاون معهم على توحيد الإنسانية تحت راية الهدى، وتوجيهها إلى أهداف السعادة.

وقد بارك اللّه لهؤلاء وأولئك بأوقاتهم، وأتمّ على أيديهم في مائة سنة ما يستحيل على غيرهم -من أهل الطرائق والأساليب الأخرى- أن يعملوه في آلاف السنين.

هؤلاء هم الذين أخبر عنهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأنهم خير أمته، وقد صح ما أخبر به، فإن الإسلام إنما رأى الخير على أيديهم، فبهم حفظَ اللّه ُ أصوله، وبهم هدى اللّه الأمم. والبلاد التي دخلت في الإسلام على أيديهم نبغ منها في ظل طريقتهم وعلى أساليبهم كبار الأئمة كالإمام البخاري والإمام أبو حنيفة والليث بن سعد وعبد اللّه بن المبارك، فكانت الأمم تقبل على هذه الهداية بشغف وتقدير وإخلاص، لما ترى من إخلاص دعاتها وصدقهم وإيثارهم الآجلة على العاجلة، والأمة التي تولت الدعاية لهذه الهداية تستقبل نوابغ المهتدين بصدر رحب، وتبوىء المستأهلين منهم المكانة التي هم أهلٌ لها.

هكذا كانت الحال في البطون الثلاثة الأولى التي امتدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفها بأنها خير أمته. أما العصور التي أتت بعدهم فإن المسلمين يتميزون فيها بمقدار اتباعهم للصدر الأول فيما كان عليه من حق وخير. وهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم: "مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره." رواه أحمد في مسنده و الترمذي في سننه عن أنس، ورواه ابن حبان والإمام أحمد في مسنده أيضاً من حديث عمار، ورواه أبو ليلى في مسنده عن علي بن أبي طالب، ورواه الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو، كل هؤلاء الصحابة رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم. فأمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى خير في كل زمان ومكان ما تحرّت الطريق الذي مشى فيه هداة القرون الثلاثة الأولى وتابعوهم فيه. بل يرجى لمن يقيم الحق في أزماننا كما أقامه الصحابة والتابعون في أزمنتهم أن يبلغوا منزلتهم عند الله ويعدوا في بقيتهم، ولعلهم المعنيون بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد والدارمي والطبراني من حديث أبي جمعة قال: قال أبو عبيدة: يا رسول الله، أأحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجهدنا معك. فقال صلى الله عليه وسلم: "قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يَروني." وإسناده حسن، وصححه الحاكم. واحتج الحافظ أبو عمر بن عبد البر بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار في الأرض ، وصبرهم على الهدى وتمسكهم به، إلى أن عَمّ بهم في أرجائها. قال ابن عبد البر: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن، كانوا أيضاً عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك. ويشهد له ما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء."

ومن غربة الإسلام بعد البطون الثلاثة الأولى ظهور مؤلِفين شوّهوا التاريخ تقرباً للشيطان أو الحكام؛ فزعموا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إخواناً في الله، ولم يكونوا رحماء بينهم، وإنما كانوا أعداء يلعن بعضهم بعضاً، ويمكر بعضهم ببعض، وينافق بعضهم لبعض، ويتآمر بعضهم على بعض، بغياً وعدواناً. لقد كذبوا. وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي أسمى من ذلك وأنبل، وكانت بنو هاشم وبنو أمية أوفى من ذلك لإسلامهما ورحمهما وقرابتهما وأوثق صلة وأعظم تعاوناً على الحق والخير.

حدثني بعض الذين لقيتهم في ثغر البصرة لما كنت معتقلا ً في سجن الإنجليز سنة 1332هـ أن رجلا ً من العرب يعرفونه كان يتنقل بين بعض قرى إيران فقتله القرويون لما علموا أن اسمه (عمر)! قلت: وأي بأس يرونه باسم (عمر)؟ قالوا: حباً بأمير المؤمنين علي. قلت: وكيف يكونون من شيعة علي وهم يجهلون أن علياً سمى أبناءه -بعد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية- بأسماء أصدقائه وإخوانه في الله (أبي بكر) و(عمر) و(عثمان)

رضوان الله عليهم جميعاً، وأم كلثوم الكبرى بنت علي بن أبي طالب كانت زوجة لعمر بن الخطاب ولدت له زيداً ورقية، وبعد مقتل عمر تزوجها ابن عمها محمد بن جعفر بن أبي طالب ومات عنها فتزوجها بعده أخوه عون بن جعفر فماتت عنده. وعبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن أبي طالب سمى أحد بنيه باسم (أبي بكر) وسمى ابناً آخر له باسم (معاوية)، ومعاوية هذا - أي ابن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب- سمى أحد بنيه (يزيد). وعمر بن علي بن أبي طالب كان من نسل عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب اشتهر بالمبارك العلوي وكان يكنى (أبا بكر). والحسن السبط بن علي ابن أبي طالب سمى أحد أولاده باسم أمير المؤمنين (عمر) تيمناً وتبركاً. ولِعمر هذا ذرية مباركة منهم العلماء والشرفاء. والحسن السبط كان مصاهراً لطلحة بن عبيد الله، وإن أم إسحاق بنت طلحة هي أم فاطمة بنت الحسين بن علي. وسكينة بنت الحسين السبط كانت زوجاً لزيد بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي. وعقد لها قبله على الأسبغ ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي. وأختها فاطمة بنت الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كانت زوجة عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت قبل ذلك زوجة الحسن المثنى، وله منها جدُنا عبد الله المحض. وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر ذي الجناحين بن أبي طالب كانت زوجة لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ثم تزوجها علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب. وأم كلثوم بنت جعفر ذي الجناحين كانت زوجة للحجاج بن يوسف وتزوجها بعد ذلك أبان بن عثمان بن عفان. والسيدة نفيسة المدفونة في مصر (وهي بنت حسن الأنور بن زيد بن الحسن السبط) كانت زوجة لأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وولدت له. وعلي الأكبر ابن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب أمه ليلى بنت مرة بن مسعود الثقفي وأمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب الأموي. والحسن المثنى بن الحسن السبط أمه خولة بنت منظور الفزارية وكانت زوجة لمحمد بن طلحة بن عبيد الله، فلما قتل يوم الجمل -ولها منه أولاد- تزوجها الحسن السبط فولدت له الحسن المثنى. وميمونة بنت أبي سفيان بن حرب جدة علي الأكبر ابن الحسين ابن علي لأ مه. ولما توفيت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم تزوج علي بعدها أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن أمية.

فهل يعقل أن هؤلاء الأقارب المتلاحمين المتراحمين الذين يتخيرون مثل هذه الأمهات لأنسالهم، ومثل هذه الأسماء لفلذات أكبادهم، كانوا على غير ما أراده الله لهم من الأخوة في الإسلام، والمحبة في الله، والتعاون على البر و التقوى؟

لقد تواتر عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه كان يقول على منبر الكوفة: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر". روي هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهاً، ورواه البخاري وغيره، ولا يوجد في تاريخ في الدنيا، لا تاريخ الإسكندر المقدوني، ولا تاريخ نابليون، صحت أخباره كصحة هذا

القول -من الوجهة العلمية التاريخية- عن علي بن أبي طالب. وكان كرم الله وجهه يقول: "لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حدّ المفتري" أي أن هذه الفرية توجب على صاحبها الحدّ الشرعي، ولهذا كان الشيعة المتقدمون متقفين على تفضيل أبي بكر وعمر. نقل عبد الجبار الهمداني في كتاب (تثبيت النبوة) أن أبا القاسم نصر بن الصباح البلخي قال في (كتاب النقض على ابن الراوندي): سأل سائل شريك بن عبد الله فقال له: أيهما أفضل أبو بكر أو علي؟ فقال له: أبو بكر. فقال السائل: تقول هذا وأنت شيعي؟ فقال له: نعم، من لم يقل هذا فليس شيعياً. والله لقد رقي هذه الأعواد علي فقال: "ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر" فكيف نردّ قوله؟ وكيف نكذبه؟ والله ما كان كذاباً. وفي ترجمة يحيى بن يعمر العدواني من (وفيات الأعيان) للقاضي ابن خلكان أن يحيى بن يعمر كان عداده في بني ليث لأنه حليف لهم، وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل آل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم. ثم ذكر قصة له مع الحجاج، وإقامته الحجة على أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم من آية (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) إلى قوله تعالى: (وزكريا ويحيى وعيسى). قال يحيى بن يعمر: وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد صلى الله عليه وسلم فأقرّه الحجاج على ذلك وكبر في نظره وولاه القضاء على خراسان مع علمه بتشيعه. وأنت تعلم أن الحجاج هو ما هو، ومع ذلك فقد كان -مع فاضل متجاهر بشيعيته المعتدلة محتج للحق بالحق- أكثرَ إنصافاً من هؤلاء الكذبة الفجرة الذي جاءوا في زمن السوء، فصاروا كلما تعرضوا لأهل السابقة و الخير في الإ ٍسلام، ومن فُتحت أقطار الأرض على أيديهم، ودخلت الأمم في الإسلام بسعيهم ودعوتهم وبركتهم، وكلهم من أهل خير القرون بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وما منهم إلا من يتصل ببني هاشم وآل البيت بالخؤولة أو الرحم أو المصاهرة؛ وبالرغم من كل ذلك يتعرضون لسيرتهم بالمساءة كذباً وعدواناً، ويرضون لأنفسهم بأن يكونوا أقل إنصافاً وإذعاناً للحق حتى من الحجاج بن يوسف. وإني أخشى عليهم لو أنهم كانوا في مثل مركز الحجاج بن يوسف كانت فيهم مآخذ كل الصالحين عليه، مع التجرد من كل مزاياه وفضائله وفتوحه التي بلغت تحت رايات كبار قواده وصغارهم إلى أقصى أقطار السند، وغشيت جبال الهند وما صاقبها.

وإن خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في نعت صديقه وإمامه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر يوم وفاته من بليغ ما كان يستظهره الناس في الأجيال الماضية. وفي خلافة عمر دخل علي في بيعته أيضاً وكان من أعظم أعوانه على الحق، وكان يذكره بالخير ويثني عليه في كل مناسبة، وقد علمتَ أنه بعد أخيه وصهره سمّى ولدين من أولاده باسميهما ثم سمى ثالثاً بعثمان لعظيم مكانته عنده، ولأنه كان إمامه ما عاش ، ولولا أن عثمان -بعد أن أقام الحجة على الذين ثاروا عليه بتحريض أعداء

الله رجال عبد الله بن سبأ اليهودي- منع الصحابة من الدفاع عنه حقناً لدماء المسلمين، وتضييقاً لدائرة الفتنة، ولما يعلمه من بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم به بالشهادة والجنة، لولا كل ذلك لكان علي في مقدمة من في المدينة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا كلهم على استعداد للدفاع عنه ولو ماتوا في سبيل ذلك جميعاً. ومع ذلك فإن علياً جعل وليده الحسن و الحسين على باب عثمان، وأمرهما بأن يكونا طوع إشارته في كل ما يأمرهما به ولو أدى ذلك إلى سفك دمهما، و أوعز إليهما بأن يخبرا أباهما بكل ما يحب عثمان أن يقوم له به. وكذبٌ على الله وعلى التاريخ كلٌ ما اخترعه الكاذبون مما يخالف ذلك ويناقض وقوف الحسن والحسين في بابه واستعدادهما لطاعته في كل ما يأمر. ولقد كان من عادة سلفنا أن يدوّنوا أخبار تلك الأزمان منسوبة إلى رواتها، ومن أراد معرفة قيمة كل خبر على طريقة (أنى لكَ هذا؟) فرجع إلى ترجمة كل راوٍ في كل سند لتمحّصت له الأ خبار، وعلم أن الأخبار الصحيحة التي يرويها أهل الصدق والعدالة هي التي تثبت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كلهم من خيرة من عرفت الإنسانية من صفوة أهلها، وأن الأخبار التي تشوّه سيرة الصحابة وتوهِمُ أنهم كانوا صغار النفوس هي التي رواها الكذبة من المجوس الذين تسموا بأسماء المسلمين.

ولعلك تسألني: إذن ما هو أصل التشيع، وهل لم يكن لعلي شيع ة في الصدر الأول؟ وما هي وقعة الجمل، وما الباعث على وقوعها؟ وما هي حقيقة التحكيم؟

إن الجواب على هذه الأسئلة بالأسانيد التي ترتاح إليها قلوب المنصفين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم، يحتاج إلى كتابة تاريخ المسلمين من جديد، وإلى أخذه -عند كتابته- من ينابيعه الصافية، ولا سيما في المواطن التي شوهها أهل الذمم الخَرِبَة من ملقِّقي الأخبار. وأعيد هنا ما قلته غير مرة، وهو أن الأمة الإسلامية أغنى أمم الأرض بالمادة السليمة التي تستطيع أن تبني بها كيان تاريخها، إلا أنها لا تزال أقل أهل أمم الأرض عناية ببناء تاريخها من تلك المواد السليمة، والناس الآن بين قارئ لكتب قديمة أراد مؤلفوها أن يتداركوا الأخبار قبل ضياعها فجمعوا فيها كل ما وصلت إليه أيديهم من غثّ وسمين، منبهين على مصادر هذه الأخبار وأسماء رواتها ليكون القارئ على بينة من صحيحها وسقيمها، ولكن لبعد الزمن وجهل أكثر القراء بمراتب هؤلاء الرواة ودرجتهم في الصدق والكذب، وفي الوفاء للحق أو الميل مع الهوى، تراهم لا يستفيدون من هذه المصادر، ولا من الكتب التي اعتمدت عليها بلا تمحيص وتحقيق. وهنالك كتب قديمة أيضاً ولكنها دون هذه الكتب، لأن أصحابها من أهل الهوى، وممن لهم صبغات حزبية يصبغون أخبارهم بألوانها، فهي أعظم ضرراً، ولعلها أوسع من تلك انتشاراً. أما الكتب الحديثة كمؤلفات جرجي زيدان، والبحوث التي يستقيها حملة الأقلام من مؤلفات المستشرقين على غير بصيرة بدسائسهم، فإنها ثالثة الأثافي

وعظيمة العظائم، ولذلك باتت هذه الأمة محرومة أغزر ينابيع قوتها وهو الإ يمان بعظمة ماضيها، في حين أنها سليلة سلف لم ير التاريخ سيرة أطهر ولا أبهر ولا أزهر من سيرته.

ومع أن كثيراً من أمهات الكتب النفيسة فَقِدَت في كارثة هولاكو، ثم في الحروب الصليبية واكتساح الأندلس، وما تلا ذلك كله من انحطاط المستوى العلمي في القرون الأخيرة، إلا أن كثيراً من تحقيقات لمحققين لا تزال منبثة في مطاوي الكتب الإسلامية. والأمل عظيم في قيام نهضة جديدة لبعث ماضي هذه الأمة المجيد على ضوء ما تركه علماؤها من نصوص وتوجيهات.

وأعود بعد هذا إلى الأسئلة التي تقدمت آنفاً عن أصل الفتن والتشيع، فقد زعم الزاعمون لعليٍّ -كرم الله وجهه- ما لم يكن له به علم: زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم عيّنه للخلافة بعده يوم استخلفه على المدينة وهو متجه إلى الشام في غزوة تبوك، وقال له يومئذ: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي". ورجال الحديث مختلفون في درجة هذا الخبر من الصحة، فبعضهم يراه صحيحاً، وبعضهم يراه ضعيفاً، وذهب الإمام أبو الفرج بن الجوزي إلى أنه موضوع مكذوب.[3] ونحن إذا رجعنا إلى الظروف التي قالوا إنها لابست هذا الحديث نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله له أن يتوجّه نحو تبوك- أمر علياً بأن يتخلف في المدينة، وكان رجالها والقادرون على الحرب من الصحابة قد خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فوجد علي في نفسه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "أتجعلني مع الناس والأطفال والضعفة؟" فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تطييباً لنفسه: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟" أي في استخلاف موسى أخاه هارونَ لما ذهب إلى الجبل ليعود بالألواح. فهذا الاستخلاف لم يكن في نظر سيدنا علي -كرم الله وجهه- هذا المعنى الوهمي الذي اخترعه المتحزبون فيما بعد، بل هو على عكس ذلك كان يراه حرماناً له من مكانة أعلى وهي مشاركة إخوانه الصحابة في ثواب الجهاد لتكوين الكيان الإسلامي المنشود. زِدْ على ذلك أن هذا النوع من الاستخلاف لم ينفرد به علي كرم الله وجهه، بل تكرر من النبي صلى الله عليه وسلم استخلاف ابن أم مكتوم على المدينة نفسها، وكان ابن أم مكتوم يتولى الإ مامة بالناس في المدينة مدة خلافته عليها. وقد ناظر كبارُ الشيعة في هذا الحديث علا ّمةَ العراق السيد عبد الله السويدي عندما جمعه بهم نادر شاه في النجف سنة 1156 هـ فأفحمهم السويدي وخذل باطلهم، كما ترى ذلك فيما دوّنه رحمه الله بقلمه عن هذه الواقعة وأثبتناه في رسالة طبعناها بعنوان (مؤتمر النجف).

فالإمام علي كرم الله وجهه كان يعلم أن الخلافة الحقة هي التي انضوى

---

[3] -قلت : هذا الحديث متواتر بلا خلاف ، ولكن لعل ابن الجوزي رحمه الله أنكر بعض طرقه التي فيها إضافات ليست صحيحة ، انظر نظم المتناثر في الحديث المتواتر برقم(233)

فيها إلى إجماع إخوانه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قدّر الله لها بحكمته ما شاء، وقضي فيها بعدله ما أراد. وما كان لمسلم من عامة المسلمين -فضلا ً عن مثل علي في عظيم مكانته في الأولين والآخرين- أن يسخط لقدر الله، أو يتمرد على قضاءه، أو يرضى غير الذي ارتضاه إخوانه من الصحابة، أو يداجي في إجماعه معهم على ما فيه صلاح المسلمين. ومن الافتئات عليه والانتقاص من قدره والتشويه لجمال الإسلام وتاريخه الشكُّ في إخلاص علي أو في اغتباطه بما بايع عليه خليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق وصاحبيه من بعده عمرَ وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن المزايا التي تفرّد بها عليّ وطبقته ممن ولي الخلافة أو دخل في بيعتها في الصدر الأول أنهم كانوا يرون ولاية هذا الأمر واجباً يقوم به الواحد منهم إذا وجب عليه كما يقوم بسائر واجباته، ولا يرونها حقاً لأحدهم يعادي عليه المسلمين، ويعرّض دماءهم للخطر والشر، ليستأثر بها على غيره.

وجميع الوقائع -إذا جرّدت من زيادات أهل الأهواء- تدل على هذه المكانة السامية لعلي وإخوانه، فلما شُوّهت الوقائع وأخبارها بما دسّه فيها المتزيّدون من أكاذيب لا مصلحة فيها لعلي وآله، كانت بها لعلي وبنيه صورة قبيحة لا تنطبق على الحقيقة والواقع، وظن المخدوعون بها أن تلك الطبقة -الممتازة على جميع أمم الأرض بعفّتها وطهارة نفوسها وترفّعها عن الصغائر- إنما كانت على عكس ذلك: تتنازع كالأطفال والرعاع على توافه الدنيا وسفاسف العاجلة. فالخلافة كانت في نظر الراشدين عِبئاً يتولى الواحد منهم حمله بتكليف من المسلمين أداءً للواجب، ولم تكن عند أحد منهم متاعاً ولا مأكلة حتى يتنازع غيره عليها. ولما تآمرت المجوسية واليهودية على سفك دم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأبقى الله من حياته بقيّة يدبر فيها للمسلمين أمرهم بعده، جعل الأمر شورى، واقترح عليه بعض الصحابة أن يريح المسلمين من ذلك فيعهد إلى ابنه عبد الله بن عمر -ولم يكن عبد الله بن عمر دون أبيه في علم أو حزم أو بعد نظر أو إخلاص لله ورسوله و المؤمنين- رفض عمر ذلك وقال: "بحسب آل الخطاب أن يليها واحد منهم؛ فإن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان رزءاً فقد قمنا بنصيبنا فيه." وعبد الله بن عمر نفسه عرضت عليه الإمامة فيمن عرضت عليهم عند مقتل عثمان في ذي الحجة سنة 35 هـ فهرب منها كما كان يهرب منها طلحة و الزبير وعلي، ولم يتولها عليّ إلا قياماً بواجب، ولم يستمدّها من خرافات المتحزّبين وسخافاتهم، بل من إرادة الأمة في ذينك اليومين (الخميس ذي الحجة والجمعة منه) ما أعلن ذلك على رءوس الأشهاد وهو واقف على أعواد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليٌ إلى تلك الساعة لم تكن له شيعة خاصة به يعرفها وتتصل به، ولم يخطر على باله أن يجعل أحداً من الناس شيعة له، لأنه هو نفسه وسائر إخوانه من الصحابة كانوا شيعة الإسلا م الملتقة حول خلفاء نبيها صلى الله عليه وسلم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان.

ولو حدّثته نفسه باتخاذ شيعة خاصة به غير جمهور الأمة الذي يتشيع للبيعة العامة لكان ذلك نقضاً منه لما عقد عليه صفقة يمينه لإمامه، وما طُوّق به عنقه من بيعة الإسلام لأصحابها. ولا شك أنه استمر على ذلك إلى عشية الخميس 24هـ من ذي الحجة سنة 35 للهجرة، وكان أهلا ً لأن يستمر على ذلك بأمانة وإخلاص. ولو لم يكن علي كذلك لما كان في هذه المنزلة السامية عند الله والناس. ومن الثابت عنه في عشية ذلك اليوم أنه كان يدافع الخلافة عن نفسه، ويحاول أن يقنع أخاه طلحة بن عبيد الله - أحد العشرة المبشرين بالجنة- بأن يتولى هو هذا الأمر عن المسلمين، بينما طلحة أيضاً كان يدافعها عن نفسه ويحاول إقناع علي بأن يكون هو حاملَ هذا العبء القائمَ على المسلمين بهذا الواجب. وانظر الحوار بينهما في ذلك كما رواه عالم من كبار علماء التابعين وهو الإمام محمد بن سيرين على ما أورده أبو جعفر الطبري في تاريخه: فيقول علي لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك. فيقول له طلحة: أنت أحق، فأنت أمير المؤمنين، فابسط يدك. وكاد الثائرون من جماعة الفسطاط والكوفة والبصرة يثبون بعلي وطلحة والزبير فيقتلونهم لهربهم من ولاية الأمر وتعففهم جميعاً عن قبول الخلافة، فانتهى الأمر بقبول علي، وارتقى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي (الجمعة 25 من ذي الحجة سنة 35هـ) فخطب خطبة حفظ الطبري لنا نصها، فقال: أيها الناس عن ملأ وأذن، إن هذا أمركم، ليس لأحد فيه حق إ لا من أمّرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر (أي على البيعة له) فإن شئتم قعدتُ لكم، وإلا فلا أجد على أحد. وبذلك أعلن أنه لا يستمد الخلافة من شيء سبق، بل يستمدها من البيعة إذا ارتضتها الأمة.

ومن مزايا الطبقة الأولى في الإسلام التي صحبت النبي صلى الله عليه وسلم وتأدبت بأدبه وتشبعت بسنته أنها كانت ترى الاعتدال ميزان الدين، و الرفق جمال الإسلام؛ لأن نبيها صلى الله عليه وسلم كان يقول لها: إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نُزِع من شيء إلا شانه. وكان يقول لها: من يحرَم الرفق يحرَم الخير كله. ويقول: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق. ويقول: إياكم والغلوّ في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ فيه. فلما نشأت الطبقة الثانية في حياة الطبقة الأولى أدّب الآباء بنيهم بهذا الأدب. ولكن أكثر ما كانت هذه الطريقة ناجحة في الحجاز ونجد والشام. وكان في ناشئة الكوفة والبصرة والفسطاط من أخذ بهذه الطريقة، كما أن فيهم من شبّ على الغلوّ في الدين. ومن أكبر المصائب في الإسلام في ذلك الحين تسلّط إبليس من أبالسة اليهود على الطبقة الثانية من المسلمين فتظاهر لها بالإسلام وادّعى الغيرة على الدين والمحبة لأهله، وبدأ يرمي شبكته في الحجاز والشام فلم يعلق بشيء بسبب تشبُعهم بفطرة الإسلام في اعتداله ورفقه، وحذَرهم من طرفي الإفراط والتفريط. فذهب الملعون يتنقل بين الكوفة والبصرة والفسطاط ويقول لحديثي السن وقليلي التجربة من شبابها: عجباً لمن يزعم أن عيسى يرجع ويكذّب بأن محمداً يرجع، وقد قال

عز وجل: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. وكان يقول لهؤلاء الشبان: كان فيما مضى ألف نبي، ولكل نبي وصي، وإن علياً وصي محمد. ويقول لهم: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم ا لأوصياء. ثم يقول لهم محرضاً على عثمان، وكان ذلك في أواخر خلافة عثمان سنة 30: ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، وممن يثب على عليّ وصيّ رسول الله وينتزع منه أمر الأمة. ويقول لهم: إن عثمان أخذ الخ لافة بغير حق، وهنالك علي وصي رسول الله فانهضوا فحركوه وأظهروا الأ مر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس.

إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء، وكان يسمى ابن السوداء وكان يبث دعوته بخبث وتدرُّج ودهاء. واستجاب له ناس من مختلف الطبقات، فاتخذ بعضهم دعاة فهموا أغراضه وعوّلوا على تحقيقها. واستكثر أتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين في الدين المتنطعين في العبادة ممن يظنون الغلوّ فضيلة والاعتدال تقصيرا[1]. فلما انتهى ابن سبأ من تربية نفر من الدعاة الذين يحسنون الخداع ويتقنون تزوير الرسائل واختراع الأكاذيب ومخاطبة الناس من ناحية أهوائهم، بث هؤلاء الدعاة في الأمصار -ولا سيما الفسطاط والكوفة والبصرة- وعُني بـ التأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح، فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلوّ من المتنطعين جماعاتٌ كان على رأسهم في الفسطاط الغافقي بن حرب العكي، وعبد الرحمن بن عديس البَلَوي التُّجيبي الشاعر، وكنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، وسودان بن حمران السكوني، وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعروة بن النباع الليثي، وقتيرة السكوني. وكان على رأس من استغواهم ابنُ سبأ في الكوفة عمرو بن الأصم، وزيد بن صوحان العبدي، والأشتر مالك بن الحارث النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم. ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدي، وحُكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح، والحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش بن عبد عمرو الحنفي. أما المدينة فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر وهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس، وعمار بن ياسر. ومن دعاء ابن سبأ ومكره أنه كان يبثُ في جماعة الفسطاط الدعوة لعلي (وعلي لا يعلم ذلك)، وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير، وليس هنا موضع تحليل نفسيات المخدوعين بدعوة هذا الشيطان، ولا نريد أن ننقل ذمّ علي وطلحة والزبير لهم وما قالوه فيهم يوم نزل الثائرون في ذي خُشُب والأعوص وذي المروة، وكيف زوّر ابنُ سبأ وشياطينه رسالة على لسان علي بدعوة جماعة الفسطاط إلى الثورة في المدينة، فلما واجهوا علياً بذلك قالوا له: أنت الذي كتبتَ إلينا تدعونا، فأنكر عليهم أنه كتب لهم، وكان ينبغي أن يكون ذلك سبباً ليقظتهم ويقظة علي أيضاً إلى أن بين المسلمين شيطاناً

يزوِّر عليهم الفساد لخطة مرسومة تنطوي على الشر الدائم والشرر المستطير ، وكان ذلك كافياً لإيقاظهم إلى أن هذه اليد الشريرة هي التي زوّرت الكتاب على عثمان إلى عامله بمصر بدليل إن حامله كان يتراءى لهم متعمِّداً ثم يتظاهر بأنه يتكتم عنهم ليثير ريبتهم فيه، فراح المسلمون إلى يومنا هذا ضحيةَ سلامة قلوبهم في ذلك الحين. إن دراسة هذا الموضوع الآن على ضوء القرائن القليلة التي بقيت لنا بعد مضي ثلاثة عشر قرناً تحتاج إلى من يتفرغ لها من شباب المسلمين، وسيجدون مستندات الحق في تاريخهم كافية لوضع كل شيء في موضعه إن شاء الله.

فأول فتنة وقعت في الإسلام هي فتنة المسلمين بمقتل خليفتهم وصهر نبيهم الإمام العادل الكريم الشهيد ذي النورين عثمان بن عفان رضوان الله عليه. وقد علمتَ أن الذين قاموا بها وجنوا جنايتها فريقان: خادعون ومخدَعون. وقد وقعت هذه الكارثة في شهر الحج، وكان عائشة أم المؤمنين قد خرجت إلى مكة مع حجاج بيت الله ذلك العام، فلما علمت بما حدث في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أحزنها بغي البغاة على خليفة نبيهم. وعلمت أن عثمان كان حريصاً على تضييق دائرة الفتنة، فمنع الصحابة من الدفاع عنه، بعد أن أقام الحجة على الثائرين في كل ما ادعوه عليه وعلى عمّاله، كان الحق معه في كل ذلك وهم على الباطل، وكان هو المثل الإنساني الأعلى في العدل وكرم النفس والنزول على قواعد الإسلام واتباع سننه، وكان في مدة خلافته أكرم وأصلح وأكثر إنصافاً بالحق واتباعاً للخير مما كان هو عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعت عائشة بكبار الصحابة، وتداولت الرأي معهم فيما ينبغي عمله -وقد عرف القراء ما كانوا عليه من نزاهة، وفرار من الولاية، وترفّع عن شهوات النفس- فرأوا أن يسيروا مع عائشة إلى العراق ليتفقوا مع أمير المؤمنين علي على ا لاقتصاص من السبئيين الذي اشتركوا في دم عثمان وأوجب الإسلام عليهم الحد فيه، ولم يكن يخطر على بال عائشة وكل الذين كانوا معها -وفي مقدمتهم طلحة والزبير المشهود لهما من النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة- أنهم سائرون ليحاربوا علياً، ولم يكن يخطر ببال علي أن هؤلاء أعداء له وأنهم حرب عليهم. وكل ما في الأمر أن أولئك المتنطعين الغلاة الذين انخدعوا بدعوة عبد الله ابن سبأ واشتركوا في قتل عثمان انغمروا في جماعة علي، وكان فيهم الذين تلقنوا الدعوة له وتتلمذوا على ذلك الشيطان اليهودي في دسيسة أوصياء الأنبياء ودعوى خاتم الأوصياء، فجاءت عائشة ومن معها للمطالبة بإقامة الحد على الذين اشتركوا في جناية قتل عثمان، وكان علي -وهو ما هو في دينه وخلقه- ليتأخر عن ذلك، إلا أنه كان ينتظر أن يتحاكم إليه أولياء عثمان. وقبل أن يتفق الفريقان على ذلك شعر قتلةُ عثمان بأن الدائرة ستدور عليهم، وهم على يقين بأن علياً لن يحميهم من الحق عند ظهوره، فأنشب هؤلاء حرب الجمل، فكانت الفتنة الثانية بعد الفتنة الأولى. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري معتمداً على كتاب

(أخبار البصرة) لعمر بن شبة، وعلى غيره من الوثائق القديمة التي جاء فيها عن ابن بطال قولُ الملهب: ... إن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة، وإنما أنكرت هي ومن معها على علي منعَه مِن قَتْلِ قتلة عثمان وترك القصاص منهم. وكان علي ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتصّ منه، فاختلفوا بحسب ذلك وخشي من نُسِبَ إليهم القتل أن يصطلحوا على قتلهم، فأنشبوا الحرب بينهم (أي بين فريقي عائشة وعلي) إلى أن كان ما كان.

ونجح قتلة عثمان في إثارة الفتنة بوقعة الجمل، فترتب عليها نجاتهم وسفك دماء المسلمين من الفريقين، وإنك لتجد الأسماء التي سجلها التاريخ في فتنة عثمان يتردد كثير منها في وقعة الجمل، وفيما بين الجمل وصفّين، ثم في وقعة صفين وحادثة التحكيم، وفي هذه الحادثة الأخيرة اتسعت دائرة الغلوّ في الدين، فكثر المصابون بوبائه، وتفننوا في مذاهبه، إلى أن انتهى بانشقاق الخوارج عن علي، وتميّز فريق من المتخلِفين مع علي باسم الشيعة، ولم يقع نظري على اسم للشيعة في حياة علي كلها إلا في هذا الوقت سنة 37 هـ. ومن الظواهر التي تسترعي الأنظار في تاريخ هذه الفترة أن الغلاة من الفريقين -فريق الشيعة وفريق الخوارج- كانوا سواء في الحرمة للشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تبعاً لما كان عليه أمير المؤمنين علي نفسه، وما كان يعلنه على منبر الكوفة من الثناء عليهما و التنويه بفضلهما. أما الخوارج فإنهم والإباضية ظلوا على ذلك لم يتغيروا أبداً، فأبو بكر وعمر كانا عندهم أفضل الأمة بعد نبيها، استرسالا ً منهم فيما كانوا عليه مع علي قبل أن يفارقوه. وأما الشيعة فإنهم عندما جددوا بيعتهم لعلي بعد خروج الخوارج إلى حروراء والنهروان قالوا له أوّلا ً: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت. فشرط لهم -كرم الله وجهه- سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي يوالوا من والى على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعادوا من عادى على سنته صلى الله عليه وسلم، فجاء ربيعة بن أبي شداد الخثعمي -وكان صاحب راية خثعم في جيش علي أيام الجمل وصفين- فقال له علي: بايع على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال ربيعة: وعلى سنة أبي بكر وعمر. فقال علي: لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونا على شيء من الحق. أي أن سنة أبي بكر وعمر إنما كانت محمودة ومرغوباً فيها لأنها قائمة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فبيعتكم الآن على كتاب الله وسنة رسوله تدخل فيها سنة أبي بكر وعمر.

هكذا كان أمير المؤمنين من أخويه وحبيبيه خليفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر وعمر في حياته كلها، وهكذا كانت شيعته الأولى: من خرج عليه، ومن جدد البيعة له بعد التحكيم.

وحكاية التحكيم هذه كانت مادة دسمة للمغرضين من مجوس هذه الأمة

أتاحت لهم دسّ السموم في تاريخنا على اختلاف العصور، وأول من شمّر عن ساعديه للعبث بها وتشويه وقائعها أبو مخنف لوط بن يحى، ثم خلف خلفٌ بعد أبي مخنف بلغوا من الكذب ما جعل أبا مخنف في منزلة الملائكة بـ النسبة إلى هؤلاء الأبالسة، وأبو مخنف معروف عند ممحِّصي الأخبار وصيارفة الرجال بأنه أخباريٌّ تالف لا يُوثق به. نقل الحافظ الذهبي في (ميزان الاعتدال) عن حافظ إيران ورأس المحققين من رجالها الرازي رحمه اللّه أنه تركه وحذّر الأمة من أخباره، وأن الدار قطني أعلن ضعفه، وأن ابن معين حكم عليه بأنه ليس بثقة، وأن ابن عدي وصفه بأنه شيعيٌّ محترَق.

ومن براعة هؤلاء المغرضين في تحريف الوقائع ودس أغراضهم فيها، وتوجيهها بحسب أهوائهم، لا كما وقعت بالفعل، أنهم كانوا يعمدون إل حادثة وقعت بالفعل فيوردون منها ما كان يعرفه الناس، ثم يلصقون بها لصيقاً من الكذب والإفك يوهمون أنه من أصل الخبر ومن جملة عناصره، فيأتي الذين من بعدهم فيجدون الخبر القديم مختصراً فيحكمون عليه بأنه ناقص، ويقولون: من حَفِظَ حُجّةٌ على من لم يحفظ. ويتناولون الخبر بما لصق به من لصيق مفترى، حتى تكون الرواية الجديدة وما في بطنها من الإ ثم هي المتداولة بين الناس. وقد يعمد هؤلاء المغرضون إلى موهبة من مواهب النبوغ عرف بها أحد أبطال التاريخ الإسلامي وعظماء الدعاة الفاتحين، ولم يعرف عنه استعمالها إلا في سبيل الحق والخير، فيطلعون على الناس بأكاذيب يرتبونها على تلك الموهبة، ويوهمون أن رجل الحق و الخير الذي حلا ّه اللّه بتلك الموهبة ولم يستعملها إلا في نشر دين اللّه وتوسيع نطاق الوطن الإسلامي، قد انقلب بزعمهم مع الزمن، وسخّر نبوغه للباطل والشر؛ فإذا أخذ المحققون في تمحيص ذلك، وتحرّي مصادر هذه التهم التي لا تلتئم مع ما تقدمها من سيرة ذلك البطل المجاهد، وجدوها من بضاعة الكذّابين ومفترياتهم، ولكن قلّما يُجدي ذلك بعد أن يكون (قد قيل ما قيل إن صِدقاً وإن كذباً).

هذا أبو عبد اللّه عمرو بن العاص بن وائل السهمي بطل أجنادين، وفاتح مصر، وأول حاكم ألغى نظام الطبقات فيها، وكان السبب الأول في عروبتها وإسلام أهلها، وشريك مسلميها في حسناتهم من زمنه إلى الآن لأنه الساعي في دخولهم في الإسلام - هذه الرجل العظيم عرفه التاريخ بالدهاء ونضوج العقل وسرعة البادرة، وكان نضوج عقله سبب انصرافه عن الشرك ترجيحاً لجانب الحق واختياراً لما دلّه عليه دهاؤه من سبيل الخير، فجاء مزيّفو الأ خبار من مجوس هذه الأمة وضحاياهم من البلهاء فاستغلّوا ما اشتُهر به عمرو من الدهاء استغلالا ً تقرُّ به عين عبد اللّه بن سبأ في طبقات الجحيم.

يقول قاضي قضاة أشبيلية بالأندلس الإمام أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن العربي المعافري (المولود في أشبيلية سنة 468 والمتوفّى بالمغرب سنة 543) في كتابه (العواصم من القواصم) ص177 بعد أن ذكر ما شاع بين

الناس في مسألة تحكيم عمرو وأبي موسى، وما زعموه من أن أبا موسى كان أبله وأن عمْراً كان محتالا: هذا كله كذب صراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة، ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع. وإنما الذي روى الأئمة الأثبات أنهما -يعني عمراً وأبا موسى- لما اجتمعا للنظر في الأمر، في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر، عزّل عمروٌ معاوية. ذكر الدار قطني بسنده عن حضين بن المنذر أنه لما عزل عمرو معاويةَ جاء (أي حضين) ضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية، فأرسل إليه فقال: إنه بلغني عن هذا (يعني عمرو بن العاص) كذا وكذا (يعني اتفاقه مع أبي موسى على عزل الأميرين المتنازعين لحقن دماء المسلمين ورداً للأمر إليهم يختارون من يكون به صلاح أمرهم). فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه. قال حضين: فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولقد قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه النفر الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض. قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يُسْتَعَنْ بكما ففيكما معونة، وإن يُسْتَغْنَ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. فقال: فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه. فأتيته (أي أن حضيناً أتى معاوية) فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه. أي أن الذي بلغ معاوية من أن عمراً وأبا موسى عزلاه هو كما بلغه، وأنهما رأيا أن يرجع في الاختيار من جديد إلى النفر الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض. ثم ذكر القاضي أبو بكر بن العربي بقية خبر الدارقطني عن إرسال معاوية رسولا -وهو أبو الأعور الذكواني- إلى عمرو بن العاص يعاتبه، وأن عمراً أتى معاوية وجرى بينهما حوار وعتاب، فقال عمرو لمعاوية: إن الضجور قد يحتلب العلبة. وهو مثل معناه أن الناقة الضجور التي لا تسكن للحالب قد ينال الحالب من لبنها ما يملأ العلبة. فقال له معاوية: وتربذ الحالب فتدق عنقه وتكفأ إناءه.

فرواية الدار قطني هذه -وهو من أعلام الحديث- عن رجال عدول معروفين بالتثبت، ويقدرون مسئولية النقل، هي التي تتناسب مع ماضي عمرو وأبي موسى وأيامهما في الإسلام ومكانتهما من النبي صلى الله عليه وسلم وموضعهما من ثقة الفريقين بهما واختيارهما من بين السادة القادة المجربين. وأما الافتئات على أبي موسى والإيهام بأنه كان أبله فهو أشبه ب الرقعة الغريبة في ردائه السابغ الجميل. يقول القاضي أبو بكر بن العربي (ص174): وكان أبو موسى رجلا تقياً ثقفاً فقيهاً عالماً أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مع معاذ، وقدّمه عمر بن الخطاب وأثنى عليه ب الفهم. وزعمت الطائفة التاريخية أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعاً في القول. ثم ردّ هذه الأكاذيب وأحال في تفصيل الرد على كتاب له اسمه سراج المريدين.

وبعد فإن صحائف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت كقلوبهم نقاء وسلامة وطهراً. وما نتمناه من تمحيص التاريخ أول ما يشترط له فيمن يتولاه أن يكون سليم الطوية لأهل الحق والخير، عارفاً بهم كما لو كان معاصراً لهم، بارعاً في التمييز بين حملة الأخبار: من عاش منهم بالكذب و الدس والهوى، ومن كان منهم يدين لله بالصدق والأمانة والتحرز عن تشويه صحائف المجاهدين الفاتحين الذي لولاهم لكنا نحن وأهل أوطاننا جميعاً لا نزال كفرة ضالين.

================

7- نظرة إلى الجيل الفريد[4]

ذلك الجيل الذي قال عنه رسول الله : "خيركم قرني "[(5)].

والذي استحق استحقاقا كاملا ً وصف الله سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [سورة آل 110/3].

إنه الجيل الذي فيه اللقاء بين المثال والواقع, فترجم مثاليات الإسلام إلي واقع, وارتفع بالواقع البشري إلي درجة المثال.

والمثالية الواقعية, أو الواقعية المثالية من أبرز خصائص هذا الدين.

فلا هو يضع مُثُلا ً روحانية عسيرة التطبيق, تهمل ضرورات الإنسان وواقعه المادي, وتشد الناس إلي أعلا شدا بلا هوادة فتعلقهم في الفضاء, كما تصنع الهندوكية والبوذية والرهبانية, ولا هو إذ يلتفت إلي مطالب الجسد وعالم المادة يحبس الإنسان في نطاق ضروراته, ويقعد به عن التحليق في ا لآفاق العليا التي يتحقق فيها المثال, بل يأخذ بهذه وتلك في آن واحد علي توازن واتساق, ومن ثم تلتقي فيه المثالية التي لا تهمل الواقع, بالواقعية التي لا تهمل المثال, ويكون من نتائجها -في أعلا حالاتها- ذلك الجيل المتفرد في التاريخ.

ونحن في حاجة ملحة لأن نتعرف علي هذا الجيل, لنعرف مكان الأسوة لنا في واقعنا المعاصر, ولنقيس علي ضوئه مدي قربنا أو بعدنا عن حقيقة الإس لام.

ونريد -قبل أن نرسم السمات الفريدة لذلك الجيل المتفرد- أن نتعرف علي العوامل التي أثرت فيه, فرفعته إلي القمم السامقة التي وعاها التاريخ.

لقد كان العرب شتيتاً متناثراً لا يتجمع علي شيء, رغم وجود مقومات

---

[4] - من كتاب واقعنا المعاصر للعلامة محمد قطب حفظه الله ص 8 فما بعدها

([5]) أخرجه الشيخان.

التجمع الأرضية كلها من وحدة الأرض, ووحدة الأرض, ووحدة اللغة, ووحدة الثقافة, ووحدة التاريخ, ووحدة المصالح... تلك التي يقول علم الا جتماع الجاهلي إنها هي التي تنشئ "الأمة". ولكن الأمة مع ذلك لم تنشأ رغم مرور الزمن المديد علي هذا الشتيت المتناثر وهو يحمل تلك المقومات. بل كانوا قبائل متناحرة تأكلها الحروب والثارات, وتأكلها قبل كل شئ جاهليتها التي تعيش فيها مجافية للهدي الرباني.

ومن هناك رفعها الإسلام, لا أفرادا ولا قبائل, ولكن "أمة" هي أعظم أمة في التاريخ بشهادة الله مخرجها إلي الوجود: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [سورة آل 110/3].

فمن أي شئ تكونت هذه الأمة الفذة, وما العوامل التي أثرت في تكوينها ونشأتها؟.

لا شك أن خامتها هي ذات الخامة التي كانت تعيش في ذات الأرض قبل هذا الحدث العظيم لعدة قرون. ولكن شيئاً ما -فعله كفعل السحر- قد أنشأ من هذه الخامة في سنوات قليلة نسيجاً غير مسبوق لا ملحوق... فما هو يا تري ذلك الشيء العجيب التأثير, الذي أخرج ذلك النسيج الفذ من تلك الخامة التي ظلت لقًي مهملا ً عدة قرون؟ أ !!

لا شك -بادئ ذي بدء- أنه القرآن... ذلك الكتاب العظيم الذي نزل ليعيد بناء البشرية علي هدي الوحي الرباني:

{إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [سورة الإسراء 9/17].

{وَإِنّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)} [سورة الزخرف 4/43].

ماذا يفعل القرآن في النفوس؟ هل يغير خامتها فيخرجها من بشريتها لتكون خلقاً آخر؟ كلا! فقد نزل للبشر, لا ليبدل فطرتهم, بل ليعيدهم إلي فطرتهم التي فطرهم الله عليها يوم خلق الإنسان {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين 4/95].

{فِطْرَةَ اللهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30)} [سورة الروم 30/30].

أرأيت حين تمرر المغنطيس لي قطعة من الحديد, أتراه يغير طبيعتها؟ كلا! ولكنه يعيد ترتيب ذراتها فتصبح شيئاً آخر غير قطعة الحديد المبعثرة الذرات! تصبح كياناً جديداً له طاقة مغناطيسية كهربائية لم تكن له من قبل! وكذلك يفعل في نفوس البشر هذا الدين المنزل في كتاب الله. إنه يتخلل النفوس البشرية فيعيد ترتيب ذراتها, فتصبح قوي كونية وطاقات, بعد أن كانت مبعثرة من قبل, ضائعة في التيه.

فأي شيء في هذا الكتاب العظيم هو مصدر ذلك السر الذي يحول الخامات المبعثرة الضائعة إلي طاقات؟ أهو نسقه اللغوي المعجز؟ أهو قوة بيانه؟ أهو

وضوح معاينة؟ أهو حديثه عن اليوم الآخر وما فيه من مشاهد تهتز لها أوتار القلوب؟ أهو تشريعاته وتوجيهاته وتنظيماته؟ أهو قصصه وأمثاله وعبره؟ أهو تذكيره الدائم بعظمة الله جل جلاله وقدرته المعجزة التي لا تحدها حدود؟!.

إنه ولا شك كل ذلك.... فكل حرف في هذا القرآن له دلالته في مكانه, وله جانبه من التأثير.

ولكننا لا نكون مخطئين إن قلنا إن أوسع موضوعات القرآن جميعاً هو موضوع الألوهية.... هو قضية لا إله إلا الله.

ولقد قلت في غير هذا المكان[6], إنه يخطر لنا لأول وهلة أن تركيز القرآن -وخاصة في السور المكية- علي هذه القضية سببه أن القرآن كان يخاطب بادئ ذي بدء قوماً مشركين, يشركون مع الله آلهة أخري, فكان من المناسب التركيز علي قضية "لا إله ألا الله" لتصبح عقائد أولئك المشركين... ولكن استمرار القرآن في الحديث عن هذه القضية في السور المدنية, وفي الكلام الموجه للمؤمنين خاصة, الذين آمنوا واستقر الإيمان في نفوسهم حتى أنشأوا أمة مسلمة ودولة مسلمة, وجيشاً مسلماً يقاتل في سبيل الله, قاطع الدلالة علي أن القضية لها أهميتها الذاتية, حتى لو كان المخاطبون مؤمنين! فالتركيز عليها ليس ناشئاً من إنكار المخاطبين بهذا القرآن أول مرة, إنما هو ناشئ من أنها هي المفتاح الذي القلوب البشرية للخير, وينشئ فيها الخير, ويربيها علي الخير, ويُنْتِجُ منها الخير! وأنه لا يوجد مفتاح لهذه القلوب, يهيئها لما تهيئه لها لا إله إلا الله!.

وحين تكون القلوب منكرة تخاطب بهذه القضية لتتفتح للحق والخير... وحين تكون مؤمنة تخاطب بها كذلك ليتعمق الإيمان فيها ويتجدد, لأنه الزاد الذي لا زاد سواه. انظر إلي هذا التوجيه للمؤمنين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [سورة النساء 136/4].

إنه يقول للذين آمنوا آمنوا! وهم مؤمنون بذات الأمر الذي يراد منهم الإيمان به! وذلك لكي يزدادوا إيماناً ويحرصوا علي ما في قلوبهم من الإيمان!.

ولقد فعل الإيمان بـ "لا إله إلا الله" فعله في نفوس أولئك المشركين, فأنشأهم نشأة جديدة كأنها ميلاد جديد.... ثم فعل فعله في نفوسهم بعد أن آمنوا فأصبحوا ذلك الجيل الفريد الذي نزل في وصفه هذا التقرير الرباني:

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران 110/3].

نعم... إنها "لا إله إلا الله" مفتاح القلوب, مفتاح الطريق لهذه القلوب حين تتجه الوجهة الصحيحة وتهتدي بنور الله.

([6]) في كتاب دراسات قرآنية.

ذلك أن الإنسان-كما قلنا في أكثر من موضع- عابد بفطرته.... وإنما يختلف المعبود الذي يتوجه إليه بالعبادة.

وعلي حسب المعبود يكون منهج الحياة....

فحين يكون المعبود هو الله يكون منهج الحياة هو المنهج الرباني المبين فيه الحلال والحرام, والحسن والقبيح, والمباح والغير مباح.... وحين يكون المعبود شيئاً آخر, يكون منهج الحياة هو الذي يمليه ذلك الشيء المعبود, سواء كان هو الهوي صراحة دون مواربة أم كان هو الهوي من وراء أستار وشعارات وعناوين ومن ثم تتعدد الصور في الجاهليات المختلفة وتلتقي في أنها كلها هوي... إن يكن هوي فرد بعينه أو مجموعة أفراد أو هوي كل الناس مجتمعين.... فكلها في النهاية أهواء.

والمنهج الرباني هو الذي يُصلح الحياة البشرية والنفس البشرية لأنه منزل من عند اللطيف الخبير الذي يعلم من خلق ويعلم ما يصلحه وما يصلح له, ومنزل من عند تصرف قد يقع اليوم يحيط علمه بكل شيء فلا تخفي عليه خافية, ولا يغفل عن أثر تصرف قد يقع اليوم ولكن أذره لا يظهر إلا بعد فترة من الزمن لا يستوعبها عمر الفرد؛ ومنزل من عند الحكم العدل الذي لا تميل بعدله الأهواء, الغنّي الذي لا تؤثر في حكمه المصالح الذاتية و الحاجات.... وذلك كله فضلا عن أنه هو الله الذي يحق له وحده أن يقرر منهج الحياة للإنسان, لأنه هو خالقه وخالق هذا الكون كله, فبما أنه صاحب الخلق فهو صاحب الأمر:

{أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأ َمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ (54)} [سورة الأعراف 54/7].

ولن يستقيم الإنسان للمنهج الرباني حتى يعلم صدقا ويقينا أنه لا إله إ لا اللّه. عندئذ يسلم نفسه لله الواحد الأحد؛ حين يستيقن أنه هو الرزاق ذو القوة المتين, وأنه الضار النافع, وأنه هو المحيي المميت, وأنه هو مدبر أمر الكون كله, وهو صاحب المشيئة النافذة فيه, وأن كل ما عداه لا يملكون شيئاً علي الحقيقة, وكل ما يملكونه في الظاهر يملكونه بمشيئة من اللّه وبقدر من اللّه.

عندئذ "يسلم" الإنسان! أي يسلم قيادة لله, فيتقبل قدره ومشيئته, ويتقبل أوامره ونواهيه, ويتقبل منهجه في الحياة.

ثم إن إقامة هذا المنهج في الأرض لا تتم بمجرد رغبة الناس في إقامته, أو إسلام أنفسهم له. فقد سبق في مشيئة اللّه وقدره ألا يكون الناس أمة واحدة.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إلا ّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود 11/118-119].

فهناك إذن من لا يؤمن بلا إله إلا اللّه, ومن يكرهها ويحاربها ويحارب أهلها ويقاوم منهجها.... ومن ثم تحتاج إقامة هذا المنهج في الأرض إلي مجاهدة أولئك الكافرين بلا إله إلا اللّه, الكارهين لمنهج اللّه.

والجهاد من أجل إقامة المنهج الرباني في الأرض يعرض الإنسان للأذى, ويعرضه للموت, ويعرضه للحرمات من متاع الأرض.

ويحتاج القلب البشري لكي يدخل معمعة الجهاد بشتى أنواعه وشتى مخاطره أن يؤمن مرة أخري أنه لا إله إلا اللّه! وأن اللّه هو الذي يحيي ويميت, وهو الذي يضر وينفع, وهو الذي يقبض الرزق ويبسط... وإلا تزلزلت قدماه علي الطريق عند أول اهتزازة تحدث في هذا الإيمان!.

لحظة واحدة يهتز فيها الإيمان القلبي الداخلي بأن اللّه -وحده- هو الذي يحرك الأقدار بمشيئته, وهو الذي يقدر النفع أو الضر أو الحياة أو الموت أو بسط الرزق أو قبضه... تختل الخطي علي الطريق, وينكص صاحبها علي عقبيه, إلا أن يتولاه اللّه برحمته, فيثبت إيمانه, فتثبت خطاه من جديد!.

ومن أجل ذلك كانت لا إله إلا اللّه هي الإعداد للجهاد كما كانت من قبل هي مفتاح الإسلام. إسلام القلب لله.

وحتى في السلم... في البحبوحة والراحة... فهناك هذه الثقلة التي تقعد بِ القلب البشري عن "الاستقامة" علي الطريق.... ثقلة الشهوات المزينة المحببة للناس: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأ َنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة آل 14/3].

ولن يصمد القلب البشري لهذه الثقلة, بكل ما تحمله من إغراء وجذب, إلا أن يؤمن إيمان اليقين أنه لا إله إلا اللّه, وأن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف.

الإيمان باللّه -حين يعمر القلب البشري- يبعث فيه الخشية والتقوى التي تؤهله لطاعة اللّه فيما يأمره به وينهاه عنه. والإيمان بأن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف, وأن هناك بعثاً ونشوراً, وحساباً وجزاءً, ونعيماً وعذاباً, هو الذي يغير موازين الحياة كلها, وقيمها ومستوياتها, فلا يعود المتاع الحسي هو غاية الحياة, ولا يعود الاستغراق فيه هو الشغل الشاغل ولا اللّهم المقعد المقيم, كما يكون الحال في الجاهليات, حين يؤمن الإنسان أن الحياة فرصة واحدة محدودة بجدود العمر القصير, وكل يوم ينقضي لا يعود.... فتكون الحكمة "الواقعية" حينئذ أن ينتهب أكبر قدر من اللذات في هذا العمر المحدود قبل أن تفوت إلي غير رجعة! ولا يكون للحلال والحرام عنده يومئذ معني, إنما يكون اهتبال الفرص المتاحة هو الغاية التي تسوق الناس سوقاً فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام!.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)} [سورة محمد 12/47].

أما حين يؤمن بالبعث والجزاء, والنعيم المقيم والعذاب الفظيع المتجدد:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [سورة النساء 56/4-57].

عندئذ يسهل عليه أن ينضبط في الحدود التي رسمها الله دون أن يشعر بـالحرمان, لأنه يعلم أن كل متاع زائد يشتهيه في الأرض ثم يمتنع عنه طاعة لله, لن "يضيع" ولن يذهب بغير عودة, إنما هو "طاعة" تحسب له في الميزان, فينال عليها نعيماً خالداً في الجنان.... فتكون الحسبة بذلك رابحة, ولا تذهب نفسه حسرات علي المتاع الفائت الذي تركه طاعة لله. ومن جهة أخري فإن تصور العذاب الفظيع جزاء علي المخالفة التي يهم بها انسياقاً وراء شهواته, يجعله يري أن الامتناع عنها هو الصفقة الرابحة, وليس الانغماس فيها بلا انضباط علي طريقة الحيوان... ومن هنا تتأكد التقوى و الخشية التي يبعثها الإيمان بـالله.

من أجل ذلك كان الكتاب الذي يرسم منهج الحياة للناس في الأرض مرتكزاً كله علي الإيمان بـالله واليوم الآخر, وكانت التوجيهات والتشريعات و التنظيمات الواردة في الكتاب, كلها موصولة بالإيمان بـالله واليوم الآخر, أعظم محورين يدور حولهما الكتاب.

وليس هنا مجال تفصيل الموضوعات الواردة في كتاب الله وأثرها في بناء النفس البشرية, فقد تحدثت عن ذلك في غير هذا الكتاب(7). ولكني أذكر هذه النبذة السريعة فقط في مجال بيان العوامل التي أنشأت ذلك الجيل المتفرد علي غير مثال, لأقرر أن القرآن بما يحويه من إشارات وتوجيهات, وتنظيمات وتشريعات, كان العامل الأكبر والأعظم في بناء النفوس المتفردة في التاريخ.

وحين نذكر القرآن نذكر السنة بلا شك, فهي المكملة والشارحة للكتاب المنزل, هي بيان ما أنزل الله وتفصيله:

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [سورة النحل 44/16].

وموضوعات السنة هي موضوعات القرآن مع اختلاف النسبة بينهما. فلئن كان القرآن قد توسع في شرح قضية الألوهية من جميع أبعادها وأقطارها,

(7) انظر إن شئت كتاب دراسات قرآنية الفصول الأولي بعنوان الإيمان بـالله, الإيمان باليوم الآخر, الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين, قصص الأنبياء, آدم والشيطان, أخلاقيات لا إله إلا الله, وكذلك فصل كيف تربت الجماعة الأولي, من كتاب منهج التربية الإسلامية الجزء الثاني.

ودخل بها إلي النفس البشرية من جميع مداخلها, من الحب والكره والخوف والرجاء والحسي والمعنوي والإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب.....[8] وخاطب النفس في جميع أحوالها, في الإقبال أحوالها, في الإقبال والإدبار, في رغبة والرهبة, في الارتفاع والهبوط, في السكون والحركة, في الطمأنينة والفزع, في الرخاء والشدة, في الوحدة وفي التجمع.

لئن كان القرآن قد توسع في هذه القضية ذلك التوسع فقد أجملت السنة, وإن كانت قد جاءت بما لا غناء عنه في تحديد المفاهيم الإيمانية, وتمييز الناس علي أساسها في الحياة الدنيا, والأحكام المتعلقة بذلك في المجتمع ا لإسلامي, ولئن كان القرآن قد أجمل في كثير من مواضع التشريع, فقد توسعت السنة وفصلت حتى أنت بالدقائق التي توضح للناس حلالهم وحرامهم في شتي تعاملاتهم.

ولئن كان القرآن قد توسع في ذكر اليوم الآخر بمشاهده الأخاذة فقد توسعت السنة مقابل ذلك فيما يعرف بالترغيب والترهيب, أي الترغيب في الأعمال التي تقرب الإنسان من الجنة, والترهيب من الأعمال التي تعرض الإنسان للنار.

وهكذا حين نتحدث عن أثر القرآن في إنشاء ذلك الجيل المتفرد نتحدث عن السنة في ذات الوقت. ولكنا نريد أن نضيف عنصراً آخر شديد التأثير في رفع نفوس الناس في ذلك الجيل إلي أقصي طاقاتها, والاستواء بها علي تلك القمم السامقة التي وصلت إليها, ذلك هو وجود الرسول بشخصه الكريم بين ظهرانيهم. فلا شك أن كان لهذا الوجود أثره الكبير في الوفرة الملحوظة في النماذج السامقة من بين أولئك المحيطين بالرسول , مع ارتفاع القمم التي وصلوا إليها, ذلك الارتفاع الشاهق الذي عجزت عنه البشرية في شتي أجيالها.

لقد كان التأثير المباشر لشخصية الرسول ذا أثر بالغ في بناء تلك النفوس التي أحاطت به, وأحبته, وتربت علي عينه في نفوس أتباعه ومحبيه أثر غير مكرر في التاريخ, ولا عجب في ذلك فإنها شخصية غير مكررة في التاريخ!.

إنها أكمل شخصية وأعظم شخصية في الوجود البشري كله من بدائه إلي منتهاه.

وليس هنا مجال التفصيل في شرح هذه العظمة الفائقة. فهي شخصية تحوي داخلها شخصيات, وعظمة تحوي داخلها عظمات, لو أصاب أي إنسان واحدة منها لعُدّ من عظماء التاريخ, فكيف بها مجتمعة في شخص الرسول علي سموق متفرد في كل واحدة منها؟ شخصية المربي, شخصية القائد السياسي, شخصية القائد العسكري, شخصية العابد الروحاني, شخصية

---

[8] انظر إن شئت فصل: خطوط متقابلة في كتاب منهج التربية الإسلامية الجزء الأول.

الزوج, شخصية الأب, شخصية الصاحب, شخصية الداعية... ثم كيف بها مجتمعة علي توزان بينها لا يجعل واحدة منها تطغي علي الأخرى, وعلي شمول وترابط لا يجعل واحدة منها تنفصل وتستقل عن الأخريات؟.

عظمة فذة في التاريخ, وتأثيرها كذلك في التاريخ.

وصف أبو سفيان -قبل إسلامه- جانباً من جوانب هذه العظمة, وجانباً من عمق تأثيرها فقال: "ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمداً".

وهو وصف صادق دقيق. فهي شخصية أخاذة من أحبها تعمق في حبها إلي أقصي الغاية (وكذلك من انطمست بصيرته فأبغضها لم يستطع أن يقف في بغضها عند حد!).

والذين أحبوه والتصقوا به وعايشوه عن قرب, قد تأثروا به ولا شك أعمق التأثير, فاستطاعوا أن ينهلوا من معين القرآن أكثر, وأن يكون استواؤهم علي القمة السامقة أيسر. ذلك أن القرآن معني لا نضب, ولكنه يعطي كل إنسان علي قدر سعة الإناء الذي يغترف به. يحين تتسع القلوب وشف الأ رواح بمصاحبة ذلك الروح العظيم, تكون قدرتها علي تشرب روح القرآن أكبر, وقدرتها علي صحبة القرآن والعمل به أوسع وأعمق.

قال أحد الصحابة لرسول الله إنهم حين يكونون معه يكونون علي حال غير الذي يكونون به حين يعودون إلي شواغلهم ومعهود حياتهم, فقال : "و الذي نفسي بيده أن لو تدومون علي ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة علي فرشكم وفي طرقكم, ولكن يا حنظلة ساعة وساعة" [9].

وليس معني هذا أن تأثير صحبة الرسول كان ينتهي حين يخرجون من عنده, فمثل هذا التأثير لا يمكن أن يزول. إنما يدل تصريح الصحابة رضوان الله عليهم علي عمق أثر الصحبة المباشرة في نفوسهم, حتى ليحسون أنهم يصبحون خلقاً آخر غير ما يعهدون من أنفسهم.... وفي حالق إن الإشعاع الذي يتلقونه من الروح العظيم المشع يجعل أرواحهم شفافة رفافة محلقة, كما يشعر السابح بخفة جسمه وهو محمول علي الماء... فإذا خرجوا إلي واقع الحياة اليومي خف ذلك الإشعاع الذي امتلأت به أرواحهم, فأحسوا بـ الفرق بين حالتهم في صحبته وحالتهم في معتاد حياتهم. ولكن واقع التاريخ يقول إن الشحنة لم تذهب أبداً من أروحهم, وإن إحساسهم بالتغيّر بعد الخروج من عنده إن هو إلا شوق إلي مزيد من القدرة علي التحليق, ولكنه ليس فقداناً لتلك القدرة علي الإطلاق, فقد ظلوا يحلقون ويحلقون ويحلقون, علي آفاق لا عهد للبشرية بها من قبل.

ولسنا نقول مع ذلك إن وجود الرسول بشخصه شرط لإقامة هذا الدين

([9]) أخرجه مسلم.

في الأرض! فلو علم الله أن هذا شرط لا يقوم الإسلام في الأرض إلا به ما كلف سبحانه وتعالي الناس أن يقيموا الدين بعد رسول الله ، وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها.

إنما نقول إن شخص الرسول حاضر بسيرته وحاضر بسنته إلي الدرجة التي يقوم بها الإسلام في الأرض كاملا ً غير منقوص. ولكنا نحاول فقط أن نفسر واقعنا حدث بالفعل, هو الوفرة الملحوظة في النماذج الفائقة من بين المحيطين بالرسول ، وفرة لم تتكرر في التاريخ من بعد, وإن كانت لم تنقطع في صورة أفراد متناثرين من كل جيل يزخر بهم تاريخ الإسلام في الماضي وما زال يزخر إلي هذه اللحظة.

عنصر ثالث لا يمكن إغفال أثره في نشأة ذلك الجيل المتفرد, هو أثر النشأة الجديدة.

إن كل نشأة جديدة تكون أنشط وأكثر حيوية واكثر فاعلية من الأجيال السابقة.

وهذا مر له ما يفسره من طبيعة النفس البشرية, بل من طبيعة الكون المادي نفسه! فغاز الأوكسجين المحضر حديثاً في المعمل تكون له فاعلية (في المساعدة علي الإشعال) أكبر من الأوكسجين الموجود في الجو, مع أنه يماثله مماثلة تامة في التركيب!! كذلك النفوس التي تبدأ عهداً جديداً أو تشهد إنشاء جديداً تكون أكثر حيوية وأكثر فاعلية من غيرها من النفوس. ويمكن تفسير ذلك من ناحيتين:

الأولي: إن النشأة الجديدة - وخاصة علي النحو الذي صنعه الإسلام - تعيد تركيب النفوس علي صورة جديدة فتصبح نفوساً جديدة بالفعل, مذخورة الطاقة حادة الفاعلية كذلك الأوكسجين المحضّر لتوه في المعمل.

والثانية: أن التحديات التي يتلقاها جيل النشأة الجديدة هي أعنف التحديات وأشقها وأقساها.

ومن شأن التحديات دائماً أن تشحذ النفوس الحية وتستخلص منها أقصى طاقتها. فإذا اجتمع الأمران معا: جدة النفوس, وعنف التحديات فنستطيع أن نتصور الفاعلية الهائلة التي تكون لتلك النفوس, وهي تعمل في واقع الحياة.

يضاف إلي ذلك أن أصحاب النشأة الجديدة هم من ناحية أقدر الناس علي تقدير النعمة الجديدة حق قدرها, فقد عايشوا الجاهلية من قبل ثم انتقلوا إلي الإسلام, فأدركوا -بالممارسة الواقعة- عظم النقلة التي انتقلوها من الجاهلية إلي الإسلام, كما قال عمر : "لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية"! أي لا يقدره قدره إلا من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية... وهم من ناحية أخري أحرص الناس علي المحافظة علي البناء الجديد سليماً من

كل نقص يعتوره, فقد بنوه لبنة لبنة, وتعبوا في بنائه وعانوا المشققات, وظلوا يرقبون ارتفاعه يوماً بعد يوم حتى استوي علي أكمل صورة, فهم لا يطيقون أن يعبث به عابث, أو ينقص من رونقه منتقص, فقد اختلط بأعماق مشاعرهم فأصبح منهم وأصبحوا منه, واصحبوا يحسون وجودهم في وجوده.

وكذلك كان ذلك الجيل الفريد حريصاً علي الإسلام, حريصاً علي أن يظل البناء الذي شيدوه تحت قيادة الرسول وإشرافه سليما من كل نقص.

ولسنا نقول مع ذلك إن هذا شرط لازم لإقامة دين الله في الأرض... فلوعلم الله أنه شرط لازم ما كلف الناس فيما بعد جيل النشأة أن يقيموا هذا الدين!

ولكنا نحاول فقط أن نفسر ذلك الواقع التاريخي الذي تفرد في التاريخ.

وهذا يجرنا إلي سؤال نري من الضروري تحديد الإجابة عليه, لأنه يحيك في صدور بعض الناس حين ينظرون إلي ذلك الجيل المتفرد ثم ينظرون غلي ما بعده من الأجيال فيقول قائل منهم: إن الإسلام لم يعش ألا فترة قصيرة هي فترة الرسول والخلفاء الراشدين ثم انتهي بعد ذلك! ويجئ خبثاء المستشرقين وحواريوهم فيؤكدون علي هذا المعني لحدثوا في نفوس الناس يأساً من عودة الإسلام إلي حكم الحياة الواقعة كما حكمها من قبل.

إذا كان هذا الجيل المتفرد غير قابل للتكرار -أو هو علي الأقل لم يتكرر حتى اللحظة الحاضرة- فما قيمته؟ ما دوره بالنسبة للإسلام والمسلمين؟ أليكون مجرد ذكري لشئ لا يمكن أن يعود؟.

وإذا كانت هناك ظروف خاصة أحاطت بنشأة ذلك الجيل غير قابلة للتكرار, وكان لها أثر عميق في نشأته, كوجود الرسول بشخصه الكريم بين ظهرانيهم, وتأثير النشأة الجدية في نفوس الجيل الذي عاصر تلك النشأة, فأنّي يرجى أن تقوم للإسلام صورة في الواقع علي نسق تلك الصورة الأ خاذة التي قامت ذات يوم؟!.

وتحتاج الإجابة إلي تحديد واضح.

أي شئ في ذلك الجيل المتفرد هو غير قابل للتكرار, أو علي الأقل لم يتكرر حتى هذه اللحظة؟ أهو الخصائص الرئيسية التي تحقق الوجود الإسلامي في عالم الواقع, أم هي الدرجة العالية الفذة التي وصل إليها ذلك الجيل في تحقيق تلك الخصائص في عالم الواقع؟!!.

وتلك الظروف الخاصة التي أحاطت بنشأة ذلك الجيل ونقول إنها غير قابلة للتكرار.... ما دورها بالضبط؟ هل كان مجال تأثيرها هو إنشاء تلك الخصائص الرئيسية التي تحقق الوجود الإسلامي في عالم الواقع, أم هو في تلك الدرجة العالية الفذة التي وصل إليها ذلك الجيل في تحقيق تلك

الخصائص في عالم الواقع.

أحسب أن القضية الآن أصبحت واضحة.

إن الخصائص الرئيسية التي تحقق الوجود الإسلامي في عالم الواقع مستمدة بكاملها من القرآن والسنة, أي: من العنصرين الدائمين في حياة المسلمين, المحفوظين بقدر الله ومشيئته.

فقد تكفل الله بحفظ كتابه المنزل, بينما ضاعت الكتب السابقة وحرّفت:

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)} [سورة الحجر 9/15].

كما تكفل بحفظ سنة نبيه , بينما لم يبق من سنن الأنبياء السابقين إلا ما حفظه القرآن وحفظته سنة رسول الله .

وفي هذين المصدرين كل "المواد" اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة في أي عصر من عصور التاريخ يرغب المسلمون في البناء, ويعزمون علي بذل الجهد اللازم له.

أما الذي صنعته الظروف الخاصة فهو تلك الدرجة الفذة في تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي, المستمدة كلها من الكتاب والسنة.... وتلك الدرجة -لا الخصائص الرئيسية- هي التي لم تتكرر في التاريخ.

وتبقي الإجابة علي الشق الآخر من السؤال: إذا كانت تلك الدرجة التي تحققت بالفعل ذات يوم غير قابلة للتحقيق مرة أخري, لأنها نشأت من ظروف خاصة غير قابلة للتكرار, فما قيمتها في حياة الإسلام والمسلمين. أهي وجدت فقط لتظل حلما مهوّماً يعرّج عليه من أجل حلاوة الذكري ليس غير؟!.

كلا! إنها وجدت -بقدر من الله- لتظل نموذجاً يشد المسلمين إليه ليحاولوا تحقيقه في عالم الواقع.... وحين يحاولون فإنهم يرتفعون بالفعل, حتي وإن لم يصلوا -في مجموعهم- إلي ذات الدرجة التي وصل إليها هؤلاء؛ وإن كان التاريخ المشهود يقول إن أفراداً من كل جيل يصلون بالفعل إلي ذلك المستوي السامق الرفيع, أولئك الذين نتوهج قلوبهم بنور الإسلام فيستطيعون أن يقبسوا من شخصية الرسول وأحداث حيات مثل ما كان يقتبس الصحابة رضوان الله عليهم بالمعايشة المباشرة, وان يحسوا --في أعماق نفوسهم- بالنشأة الجديدة علي نحو ما أحس الذين عاشوها أول مرة... فينهلوا من الكتاب والسنة بمثل العمق الذي كان ينهل به الصحابة الكرام, ويحققوا في ذوات أنفسهم ما كانوا يحققون.

هؤلاء قلة في كل جيل -نعم- بينما كانوا كثرة ملحوظة في المحيطين برسول الله ... ولكن مجموع المسلمين -حين يحاولون- يرتفعون درجات من الارتفاع, حتي ولو لم يصلوا لذلك المستوي الرفيع, لأن المحاولة ذاتها توجه الناس إلي أعلي, بينما القعود يهبط بهم إلي أسفل, بحكم الثقلة التي

تجذب الناس أبداً إلي أسفل ما لم يحاولوا الارتفاع:

{وَالعَصْرِ (1) إِنّ الإ ِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلا ّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3)} [سورة العصر 103/1-3].

من هنا يظل لذلك الجيل المتفرد دوره في حياة الإسلام والمسلمين.

فوجود هذا النموذج الفذ في عالم الواقع, حقيقةً واقعةً, لا حلماً ولا خيالاً ولا شعارات, يظل يحفز الراغبين في تحقيق الإسلام لتحويل الرغبة إلي واقع, وبذل أقصي الجهد في هذا السبيل... وحين يحققون الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي في عالم الواقع, فلا عليهم بعد ذلك إن لم يصلوا إلي الدرجة الفذة التي وصل غليها الجيل الأول, فإن مجرد تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي -ولو في حدا الأدنى- هو قفزة هائلة إلي أعلي بالنسبة لكل جاهليات التاريخ, بما فيها الجاهلية المعاصرة, بل في مقدمتها الجاهلية المعاصرة! وتبقي الدرجات العليا مجالاً للتفاضل, ومجالاً للتطوع النبيل, لا تكلف نفس إلا وسعها, يبلغ منها كل إنسان بقدر ما يطيق, فتصل قلة قليلة إلي المستوي, ويقترب الباقون خطوات.

نعم, إن وجود هذا الجيل المتفرد واقعاً في التاريخ, لم يكن -في قدر الله- لمجرد أن يكون ذكري حلوة تشع نسماتها علي القلوب ساعة ثم تتبدد... بل ليكون واقعاً يتجدد.

فقد طلب الله من المسلمين في كتابه الباقي إلي يوم يرث الله الأرض ومن عليها أن يتأسوا برسول الله , وأن يقتفوا أثر ذلك الجيل الفريد ويصلوا أنفسهم به:

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً (21)} [سورة الأحزاب 33/21].

{وَالّذِينَ تَبَوّءُوا الدّارَ وَالإ ِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإ ِخْوَانِنَا الّذِينَ سَبَقُونَا بِالإ ِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا ً لِلّذِينَ آمَنُوا رَبّنَا إِنّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)} [سورة الحشر 59/9-10].

بل نقول أكثر من ذلك....

نقول إن حركة البعث الإسلامي المعاصرة هي أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجيل المتفرد, إن لم يكن علي ذات الدرجة من الوفرة وذات الدرجة من التمكن, فعلي درجات قريبة منها علي أي حال.

ذلك أن الإسلام اليوم يعيش غربته الثانية التي تحدث عنها رسول الله :

"بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ, فطوبى للغرباء" [10].

فإن لم تكن الغربة الثانية مطابقة تمام المطابقة للغربة الأولي في جميع حيثياتها فإنها ولا شك تشبهها في أمور كثيرة جوهرية, أهمها أن منهج الله ليس هو الذي يحكم حياة الناس, وأن الأمر يحتاج إلي دعوة الناس من جديد إلي الإسلام, لا لأنهم -في هذه المرة- يرفضون أن ينطقوا بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله كما كان الناس يرفضون نطقها في الغرة الأولي, ولكن لأنهم في هذه المرة يرفضون المقتضي الرئيسي ل- "لا إله إلا الله ",وهو تحيكم شريعة الله والامتثال لمنهج الله, وإن كان ألف مليون من البشر من المحيط إلي المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم: لا إله إلا الله محمد رسول الله! وهذه هي حقيقة "الغربة" التي يعانيها الإسلام اليوم في ا لأرض, رغم ملايين المصاحف التي تطبع, ومئات المحطات الإذاعية و التلفزيونية التي ترتل القرآن ن وتذيعه علي الناس, وتشرحه -في الأحاديث والدروس الدينية- لمن شاء من الناس الاستماع!.

وفي الغربة تكون الحركة إنشاء جديداً اكثر مما تكون مجرد إصلاح لما هو قائم بالفعل في نفوس الناس.

إن هذا الغثاء الذي يعيش بالملايين اليوم, والذي أشار إليه رسول الله في حديثه: "يوشك ان تداعي عليكم الأمم كما تداعي الأكلة إلي قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل.... " [11].

هذا الغثاء لا يحتاج إلي مجرد وعظه وإرشاده, وتقديم حقائق الإسلام إليه في الدروس الدينية سواء في المسجد أو الإذاعة أو الكتاب أو المحاضرة, إنما يحتاج إلي انتشاله في الجاهلية التي تحيطه وتضغط علي حسه بثقل " الأمر الواقع" وتنشئته نشأة جديدة علي حقائق الإسلام, ليعيشه بالفعل, لا "ليتحدث" عنه أو "يفكر" فيه أو "يعجب" به أو "يتمناه" وهو قاعد عن العمل لتحقيقه.

والذي تقوم به حركات البعث الإسلامي اليوم هو هذا في حقيقته. هو نشأة جديدة في وسط الغربة. ومن ثم يتحقق لهذه الحركات عنصر من العنصرين الخاصين اللذين أسهما في صنع الجيل الأول, ولم يتكررا خلال ثلاثة عشر قرناً من قبل, ويكون لهذا العنصر فاعليته الكاملة في نفوس الذين يعيشون هذه الحركات, ويجاهدون لإزالة الغربة الثانية كما جاهدت الجماعة الأولي من قبل لإزالة الغربة الأولي للإسلام.

أما العنصر الآخر وهو حضور الرسول بشخصه الكريم بين ظهراني الناس فهو بطبيعته لا يتكرر أبداً إلي قيام الساعة. ولكنا نستطيع أن نزعم أن الذين

([10]) أخرجه مسلم.
([11]) أخرجه أحمد وأبو داود.

يعيشون "النشأة الجديدة" بالعمق الحقيقي الذي تحدثته في النفوس, ولا تفتنهم جزئيات من حقائق الإسلام فتشغلهم عن جوهره, ولا عن حقيقة المعركة التي يخوضها "الغرباء" في الأرض, لإعادة هذا الدين إلي التمكن وحكم حياة الناس الواقعة من جديد... هؤلاء يتوهج الحق في قلوبهم إلي الحد الذي يعيشون فيه مع رسول الله -في سيرته وسنته- كأنهم يعايشونه ويتلقون عنه من قرب كذلك الجيل الأول المتفرد, وتكون هذه المعايشة -من خلال السيرة والسنة- كفيلة برفعهم غلي تلك الآفاق السامقة التي ارتادها الجيل الأول بجهد أيسر, وهم يتلقون الرفعة من الأثر المباشر لشخصية الرسول .

وخلاصة القول -كما أسلفنا- أن حركة البعث الإسلامي المعاصرة هي أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجيل المتفرد, إن لم تكن بنفس الوفرة وبنفس الدرجة من الرفعة, فعلي درجات قريبة منها علي أي حال. وإنها لتقدم بالفعل نماذج ترتفع إلي ذلك المستوي, وتذكر الناس به من جديد, سواء فقي التجرد لله, أو صدق الجهاد في سبيل الله, أو التقدم للشهادة بنفس راضية مستعلية علي كل متاع الأرض, متطلعة إلي ما عند الله, أو الثبات علي العذاب الذي لا تطيقه الأبدان ولا النفوس.

والخلاصة مرة أخري أن ذلك الجيل المتفرد, الذي تمثلت في واقعية الإسلا م ومثاليته, لم يوجد ليكون مجرد ذكري, وإنما وجد ليحاول المسلمون في كل الأجيال أن يصعدوا لمستواه, فإن حاولوا فقد ارتفعوا ونجوا من الهبوط, سواء وصلوا -في مجموعهم- إلي ذلك المستوي الرفيع أم لم يستطيعوا الوصول.

والخلاصة مرة ثالثة أن الذي تفرد به ذلك الجيل لم يكن هو الخصائص الأ ساسية للوجود الإسلامي, فهذه مطلوبة من كل جيل, وممكنة في كل جيل, ولازمة لإقامة الوجود الإسلامي الصحيح في الأرض, والناس محاسبون إن قصروا في أدائها, ويعتبرون آثمين في حق الله وحق أنفسهم إن قصروا فيها, ويتوقف وجودهم وثقلهم في الأرض علي القيام بها في صورتها الصحيحة.

إنما الذي تفرد به ذلك الجيل هو الدرجة العجيبة التي قاموا فيها بتحقيق هذه الخصائص في عالم الواقع, بعد قيامهم بتحقيقها في ذوات أنفسهم. وهذه درجة لم يفرضها الله فرضاً علي الناس, إنما فرض عليهم الحد الأدني الذي لا تستقيم الحياة بدونه, وترك الدرجات العلا للتطوع النبيل, الذي تقدر عليه النفوس حين تتربي التربية الصحيحة علي الإسلام, وتستضئ بنور الحق, وتعبد الله كأنها تراه [12], وتقتدي بالرسول كأنها تعايشه.

([12]) جاء في حديث هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم: قال: وما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك رواه الشيخان.

وحين يتحقق للناس الحد الأدنى من هذا الدين, تستقيم الحياة علي صورة تعجز عنها أي جاهلية من جاهليات التاريخ, وفي مقدمتها الجاهلية المعاصرة.... أما حين يتحقق ما فوق ذلك فهذا هو الفردوس الأرضي الذي تحقق ذات مرة علي يد ذلك الجيل المتفرد, والذي سيظل أملا ً جميلا ً يحاول المسلمون تحقيقه في أي قرن من القرون!!.

****

ثانيا- الفتنة الكبرى في عهد الصحابة رضي الله عنهم

إن التجارب الصعبة في حياة كل أمة ينبغي أن تبقى حيةً في سجلات ذاكرتها؛ لأنها ـ في الغالب ـ تحمل كمّا من الاعتبار والدروس أكبرَ مما تحمله التجارب واللحظات التاريخية الناجحة، فالتجارب الصعبة غالبا نتاجٌ لركام من السلبيات في الجسد الذي عانى منها، وربما كانت هذه السلبيات راجعةً إلى افتقاد جسد الأمة للحصانة ضد التآمر ومحاولات الهدم، أو راجعةً إلى التخالف في توجُهات البِنَى التي يتكو ّن منها المجتمع، بحيث يتحول التعاضُدُ والتعاون بينها لتحقيق هدف معين إلى تنافس وتخَالفٍ، فتصبح محصلة جهود المجتمع معه صفرا أو شيئا أقل من الصفر.
والفتنة التي وقعت أواخر عهد الخلفاء الراشدين - وتسمى أحيانا بالفتنة الكبرى - واحدةٌ من التجارب الصعبة الأليمة التي عاشتها الأمة الإسلامية.
ومع أثر هذه الفتنة السيئ على مسيرة المسلمين التاريخية، وظهورها كحادث غريب وسط الكثير من الإنجازات الإسلامية المجيدة التي أنتجها عصر الخلفاء الراشدين ـ مع هذا كله لا ينبغي نسيانُها، أو غضُ الطرف عنها، أو تأويل ما جرى فيها على اعتبار أن تاريخ َ المسلمين تاريخٌ معصوم ٌ.
بل يجب أن نحاول تصوير أحداثها بدقة، لنكون أكثر إدراكا لذاتنا، بَعِيدِينَ عن التمجيد الكاذب، ولنحرص على سد ِّ الثغور الذاتية ومعالجة العيوب الداخلية، أكثر َمن حرصنا على سب المتآمرين ولعن الحظوظ العاثرة!
إن دراسة ما خلفه عصر الخلفاء الراشدين من نجاح باهر في طرق الحكم و

الإدارة، وسياسة الفتح والانتشار، وتطوير المجتمع والدولة حتى بدا نموذجًا عظيمًا ، هذه الدراسة لا تقل أهمية عن دراسة نماذج الاختلاف السياسي، و التقاتل الداخلي الذي حدث في الفتنة الكبرى؛ لاستجلاء الفائدة واستهداف العبرة، لا لإحياء المعارك التاريخية والوقوف عندها وسفح العبرات وإراقة الحسرات على أطلالها.

لقد كره الإسلام الفتن أشد الكراهية، فأمر القرآن الكريم باتقائهاقال تعالى : {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (25) سورة الأنفال .

وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من شرورها، فعَنْ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ لَهُ فِى حَجَّةِ الْوَدَاعِ « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » فَقَالَ « لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » أخرجه البخاري ومسلم . لأنها تصيب قدرة العقلاء أنفسهم بالشلل تجاه ما يرون ويسمعون، فيعجزون وهم أصحاب العقل والحِلم عن تمييز الحق من الباطل والصواب من الخطأ، وهذا موت محقق للمجتمع كله لو لم تتداركه عناية الله!

وقد شملت الفتنة جزءا من خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وجميع خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى تنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة في عام الجماعة، فاستقرت الأمور، وهدأت الفتنة، وإن تركت جراحا ً عميقة ًة، وآثارا ً ونتائج سيئة.

ولم يكن هذا الحادث الضخم - أي الفتنة - منزوعا من سياق تاريخي غريب عنه تماما، بل كانت له جذوره ومقدماته وأسبابه وبواعثه فيما سبقه من أحداث، كما تهيأ له المناخ المناسب في الطبيعة القاسية لكثير من العرب البدو ، الذين دخلوا في الإسلام - بعد انتصاره على قريش واليهود -مع الداخلين، دون أن تُتاح الفرصة الكافية لتأديبهم بأدب الإسلام وخُلقه.

==============

حديث القرآن الكريم عن الفتنة

حين يرسم القرآن الكريم صورة لشيء ما، فإنه يضع عليها سمة الخلود؛ ذلك لأنه كتاب خالد للأجيال كلها إلى يوم القيامة، لذا تبدو الصورة القرآنية عامة َالتقاسيم، لا تتعرض للتفاصيل إلا في مساحة لا تمس خلود النموذج.

وقد تحدث القرآن عن الفتنة، وتناولها بعدة مفاهيم:

منها الاختبار والامتحان، في مثل قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (35) سورة الأنبياء .

وبمعنى صرف المؤمنين عن دينهم بالإيذاء أو غيره، كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ

عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (217) سورة البقرة وغير ذلك.
إلا أن المعنى القرآني للفتنة، الذي يُطرح في سياق الحديث عن الأحداث التي شهدها آخر عصر الراشدين - هذا المعنى هو الوارد في قول الله تعالى {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (25) سورة الأنفال ، حيث تعنى الفتنةُ ثوران النزاعات بين طوائف المجتمع، واشتداد الخلافات فيه، حتى يبدو الحق والباطل غير متمايزين، بل متداخلين لدرجة اختفاء المعالم الفاصلة بينهما.
ولا يتوقف النزاع في الفتنة عند حدود الخلاف في الرأي، بل يتجاوزه بمراحل إلى سفك الدماء، وتخريب المعمور من البلاد.

=============

الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من الفتنة

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يَحْذّر من الفتن على أمته، وكثيرا ما كان يحذرهم منها؛ لأن بأس الأمة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها ساءت حالها، وفسد نظامها، وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الإصلاح وا لاستقامة.
ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستشفّ من وراء الحجب تلك الا نعكاسات المنذرة بحدوث الفتنة، يقول أسامة بن زيد - رضي الله عنهما: أشرف النبي - صلى الله عليه وسلم - على أُطُم ـ أي مرتفع ـ من آطام المدينة، وقال: هل ترون ما أرى؟ قال أصحابه الذين كانوا معه: لا. قال: "فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر.. "!! أخرجه البخاري ومسلم
ويقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: إذا مشت أمتى المُطَيْطاء ـ أي الخيلاء ـ وخدمَتْها أبناء الملوك، فارس والروم، سُلِط شرارها على خيارها". أخرجه الترمذي وغيره من طرق وهو حديث حسن
وعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً وَيُمْسِى كَافِراً وَيُمْسِى مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى فَاكْسِرُوا قِسِيَّكُمْ وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَاضْرِبُوا بِسُيُوفِكُمُ الْحِجَارَةَ فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدِكُمْ بَيْتَهُ فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَىْ آدَمَ ». أخرجه أحمد وغيره وهو صحيح
إنه يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم، ويهيئ نفوسهم لتأخذ حِذْرها، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلّحها الإسلام به من فضائل وثبات.

****

ثالثا- أسباب الفتنة وبواعثها

لم تكن أسباب الفتنة وبواعثها ـ كما ظهرت في شكلها البسيط ـ ترجع إلى غضب جماعة من الرعية من تصرفات الخليفة أو عماله على الولايات، بل تعُودُ إلى تغيرات اجتماعية عميقة ظلت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر في النصف الثاني من خلافة عثمان رضي اللّه عنه ، وبلغت قمةَ فورانها في الثورة التي أدت إلى استشهاده، ولم تنته بقتله، بل ظلت تأثيراتها وظلالها تنسحب على الحياة الإسلامية في الفترة التي تلت ذلك.
لقد كانت تلك الأسباب نفسها وراء تململ عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه من رعيته وتململهم منه في أواخر حياته، وكانت وراء قتل عثمان رضي اللّه عنه ، كما كانت وراء بعض تصرفات علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه لما استُخلف، ووراء فشل سياسته في العراق، ووراء امتناع معاوية رضي اللّه عنه عن بيعته، والصراع بينهما.
إن التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في خريطة العالم المحيط به: في عقائده ونظمه ونفسيته لم يكن ليمر ّ دون أن يعكس آثاره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه، ممثّلا في دولته وفي مجتمعه، وممثلا بصفة خاصة في القادة والرواد الذين حملوا أكثر مِنْ سواهم أعباءَ هذا الانقلاب الضخم.
ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أول ظواهر هذا الانعكاس الخطير، وكان نذيرا واضحا بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الواسعة التى طوّرت من طبيعة الدولة الإسلامية، قد بدأت تنقّذ قانونها وسلطانها، خاصة مع عدم حدوث تغير في أسلوب الحكم يواكب هذا التطور.
وجاء الفتح بمشكلاته: من ثراء طارئ، ودنيا حافلة بالإغراء، واختلاط هائل بين أجناس وأمم وتقاليد طوّرت في المجتمع الإسلامي، وخلقت بمرور الوقت مناخا متوترا، خاصة من جانب هؤلاء الذين كان حظهم من تزكية الإ سلام للنفس ضئيلا وما حصلوا عليه من التربية الإيمانية ناقصا، في جوّ نما فيه دور القبائل العربية، ورفعت العصبية القبلية رأسها، حتى بدت رواسب ُ الجاهلية طافية فوق سطح المجتمع.

كلُّ هذا أسهم في إضافة نقاط سوداء إلى الثوب الإسلامي الأبيض، خاصة مع موت الكثير من الصحابة الكبار، وانتشار العديد منهم بعيدًا عن عاصمة الخلافة الراشدة.
وقد ساعد هذا الاختلال في صورة المجتمع المسلم لهذا العهد على تشجيع الدسائس وإنجاح المؤامرات، كهذه التي كان وراءها تلك الشخصية الغامضة عبد الله بن سبأ !!.

=================

1-تطور المجتمع

لقد عاش الإسلام أول عهده في مكة المكرمة مطارَدا، فكان لا يُقبل عليه حينئذ إلا من تعلقت نفوسهم بالحق ولم تبال أن ينالها الأذى من ذلك، ولم تطمع أن تنال مغنما دنيويا من وراء إيمانها بالله ورسوله.. وفي المدينة كافح المسلمون وسط غابة من الشرك وأهله، حتى لم يكن أحد يتبع هذا الدين المطارَد المحاصَر رغبة في غنيمة أو بحثا عن رياسة..
أمَا وقد انتصر المسلمون، ففتحوا مكة، وأرغموا أنف اليهود، وأخضعوا القبائل العربية النافرة بالجزيرة فقد أصبح في الانضمام إليهم مغنم.. بل صار هذا المغنم شيئا رائعا وضخما حين سَحَقَ الصحابةُ ومن ثبت معهم جموع المرتدين، ثم امتد بهم الأمر ليواجهوا الفرس والروم ويغنموا منهم ما لا يُحصى من الغنائم، وفق ما أمرهم الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .
إن هناك فرقا عميقا بين نفس دخلت في دين الله ـ تعالى ـ لأنه الحق الذي يرضاه الله، وترى فيه ذاتها سابحة في عالم من النقاء، ومسبِّحة مع مَنْ يسبح من الخلق، فلا تستطيع أن تعيش إلا بالحق وله، هناك فرق بين هذه النفس وبين نفس دخلت الدين في زحام الداخلين، وأخرى جذبتها الأضواء الباهرة والربح الدنيوي الذي صار المسلمون يجنونه في جولاتهم وملاحمهم الجهادية.
إن النفس التي دخلت الدين من أجل النفع تميل مع النفع حيث مال، وتسير معه حيث سار، والتي دخلت في زحام الداخلين لا تتقن اختيار ما ينفعها عند ربها، فتنجرف مع كل تيار، وتميل مع كل فتنة.
وقد تدفقت خيرات الدنيا على المسلمين مع موجات الفتوح القوية، فاتسع الثراء اتساعا هائلا، وصارت الثروة كأنها تهاجر من وطن إلى وطن، وتسافر من يد إلى يد. والثراء الضخم المفاجئ لا تنجو من أثره السالب إلا نفوس أفراد قلائل، هم خاصة المؤمنين المتميزة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا ذَرٍّ » . قُلْتُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ « الأ كْثَرُونَ هُمُ الأ قَلُّونَ إِلا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا » أخرجه البخاري، وكانوا - على أية حال - قلة في المجتمع، وبقيت الكثرة الكاثرة عرضة للتغير والتعلق بـ الدنيا، بل التصارع عليها والدليل على ذلك ما روي عن عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهْوَ حَلِيفٌ لِبَنِى

عَامِرِ بْنِ لُؤَىٍّ ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِى بِجِزْيَتِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَ ءَ بْنَ الْحَضْرَمِىِّ ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَ نْصَارُ بِقُدُومِ أَبِى عُبَيْدَةَ ، فَوَافَوْا صَلاَ ةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَىْءٍ » . قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّى أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » أخرجه البخاري.

ومع حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الفصل بين الجيوش المسلمة الفاتحة وبين أهل البلاد المفتوحة، فقد ازداد اختلاط المسلمين بالأعاجم مع مرور الوقت، ولكلّ فريق عاداته وأعرافه، وكان لابد من تبادل التأثير والتأثر، فالبدوي الذي قضى حياته بين الخيام والأغنام غير الرومي والفارسي اللذَيْن عاشا في المدن العامرة ووسط الأرض الخضراء و الحدائق الغنّاء، والعربي الذي عوّدته الحياة الصبر والحسم غيرُ الأعجمي الذي علّمته حياته العبث واللين.

لقد كان الزمن كفيلا بأن يخلط الأمم بعضها ببعض خلطا عجيبا، في هذه المنطقة من العالم التي شغلتها دولة الإسلام أيام الخلفاء الراشدين، وكان لهذا أثره الكبير في إحداث تفاعلات اجتماعية في الأعماق والأغوار البعيدة للمجتمع، كانت الثورة على سلطة المدينة أيام عثمان رضي الله عنه إحدى تجلياتها.

================

2-تطور طبيعة الدولة

في زمن الخلافة الراشدة، وبعد أن ظهر تأثير الفتوحات الاقتصادي والا جتماعي، حدث تطور تاريخي هائل؛ إذ اتسع سلطان المدينة - اتسع من حدود هذه المدينة المحصورة حتى شمل جزيرة العرب كلها وممالك العراق والشام ومصر وإفريقية وأرمينية وبلاد فارس وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط؛ فتحولت الحكومة الإسلامية من دولةِ مدينةٍ، أي دولة حدودُها محصورة بمدينة A City state إلى دولة عالمية A World state...

وما دامت طبيعة الدولة قد تحولت، وبدأ التغير في عناصر المجتمع، فقد كان من الواجب أن يتغير أسلوب الحكم، وتتطور أداته، حتى تصبح ملائمة لحاجات الظرف الجديد، ولكن الأسلوب الذي كانت تحكم به الدولة المدينةَ - مع عظمته لو كان عالم البشر مثاليا - ظل هو الأسلوب الذي يراد أن تسير به الدولة العالمية، فحصل صدام كان لابد أن يقع، وظهرت العقبات، وأطلت المشكلات برءوسها، وتوالت الأزمات التي جعلت الأيام الأخيرة من خلافة

عثمان - رضي الله عنه - مكدرة أيّ تكدير!

================

3-انتشار الصحابة رضي الله عنهم في الأمصار

كان عمر - رضي الله عنه - يمنع أعلام المهاجرين من قريش من الخروج من المدينة، وضيق عليهم في ذلك، حتى في الغزو، ويقول: "إني أخاف أن تروا الدنيا وأن يراكم أبناؤها". فلما ولي عثمان رضي الله عنه لانَ لهم، فانتزع الحقوق انتزاعا، ولم يعطل حقا، فأحبوه على لينه، ولم يشتد في معاملتهم كما كان يشتد عمر. ولم تمض سنة من إمارة عثمان حتى سمح لهم بالا نسياح في الأرض، والانطلاق حيث شاءوا إرضاء لهم، وتوسلا بمقامهم بين العامة إلى تسكين الأمور واتقاء الفوضى.

فلما رأوا الأمصار، ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، واتخذ رجال منهم أموالا في ا لأمصار، وكثرت أملاكهم، وبنوا المساكن والبيوت لأنفسهم في الأمصار - انقطع إليهم الناس، وثبتوا على ذلك سنوات، حتى أصبح كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم الخلافة، وصاروا يتقربون إليهم، وطمع كل قوم في ذلك، حتى ينالوا بمن يؤيدونه مكانة ودرجة، فكان ذلك أول ضعف دخل على المسلمين، وأول فتنة كانت في العامة، فاستعجلوا موت عثمان رضي الله عنه ، واستطالوا حياته..

وهكذا تغير المجتمع في عهد عثمان، أما هو - رضي الله عنه - فلم يتغير، ولم يبتعد عن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عن سنة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإنما أطمع الناس فيه لينُه وحبُّ ه لأقربائه وكرمه في العطاء.

لقد فقد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه رصيدا بشريا ثمينا، كان سندا للخلفاء من قبله، وذلك حين ازداد انتشار كبار الصحابة في الأمصار، وفي نفس الوقت كثر الموالي والأرقّاء في المدينة، مما شجع أصحاب الأهواء و الضلال على الاحتجاج والاعتراض على أمير المؤمنين، وهو ما تطور إلى الأ حداث الأليمة التي استُشهد فيها أمير المؤمنين عثمان.

=================

4-التربية الناقصة

جاءت الفتوحات أيام الراشدين فحملت العرب والمسلمين إلى الأمصار يجاهدون في سبيل الله، فمنهم من أقام في الثغور، ومنهم من استقر في البلاد التي مُصِّرت ليكون قريبا من ساحات القتال، وهناك يَبتني دارا، ويتخذ أسرة لنفسه، وليس هؤلاء كلهم من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين اهتدوا بهديه، وساروا على نهجه، وإنما كثير منهم من الأعراب - من تميم وكندة وقضاعة وكلب وباهلة وعبد القيس وبكر بن وائل - وكانت لهم في الفتوحات يد، فكانوا يشعرون بأن لهم منزلة لا تقل عن منزلة السابقين الأولين الذين جاهدوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم ونصروا الدين في مواقفه الصعبة ، ونسوا قول الله تعالى في حقهم : {... لَا

يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (10) سورة الحديد.
وفي الحقيقة، لم يكن الخير والتقوى في هذا المجتمع وقفا على الصحابة رضي الله عنهم - كما لم يكن الصحابة أنفسهم على درجة واحدة من الإيمان والتقوى، وإن كانوا جميعا عدولا أنقياء أمناء على الدين.. وجاءت آفة هذا المجتمع من أجلاف البدو الذين لم ينتفعوا من تهذيب الإسلام وتأديبه للنفس البشرية بالقدر الكافي، فعلمتهم حياة البادية والبيئة الخانقة كراهيةَ الحياة المستقرة، وقلةَ اتقاء الفتن؛ إذ لا يدركون خطرها الماحق، أو لا يهتمون بذلك أصلا ً.

=================

5-تفضيل السابقين في العطاء

نظّم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء المالي للمسلمين على أساس تفضيل السابقين إلى الإسلام، وأصحاب المواقف العظيمة في الجهاد المبكر في سبيل الله، ومن كانوا قريبين إلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلبه، كالعباس بن عبد المطلب وأمهات المؤمنين. وقد دل ذلك على مبلغ عناية عمر بهؤلاء النفر الذين يزيد الناس وينقصون هم، فهم ا لأسوة في المجتمع، وموضع الاقتداء لدى هذه الجماهير الحاشدة التى تقبل على الإسلام. وعلى هذا المقياس سيأتي يوم قريب أو بعيد لا يصبح فيه وجود لهذه الصفوة في المجتمع، وبالتالي يتساوى الناس في العطاء.
ولم يكن تفضيل السابقين إلى الإسلام على غيرهم عند عمر تقليلا من حق القوى الاجتماعية والسياسية الجديدة المتمثلة في رجال القبائل ذوي الوفرة العددية والنجدة، الذين أطاحت أسيافهم بعروش كسرى وقيصر، لكن السابقين إلى نصرة دين الله ـ تعالى ـ أقبلوا على الإسلام مبكرا، وحملوا دعوته وقت أن كفرت به الدنيا من حولهم، وضحوا في سبيله، وحاربتهم الدنيا، فصبروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تصبر الجبال، حتى نصره الله، ثم بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - وانتشار الردة والتنبؤ، قاتلوا وصبروا مثل صبرهم الأول، حتى منّ الله عليهم بنصره، ولولاهم بعد فضل الله تعالى - ما كان فتح ولا غزو، وهم قادة الجيوش الفاتحة، ولولاهم بعد كرم الله تعالى - ما كان فيء ولا غنيمة.
وبرغم ذلك، فقد أدى توزيع العطاء على أساس السابقة في الإسلام والقرابة من النبي - صلى الله عليه وسلم إلى إثارة ضغائن القبائل، التي نظرت إلى قريش على أنها استأثرت بالحكم والثروة معا، خاصة أنه لا ينكر فضل هذه القبائل في الجهاد والغزو وتوفير الغنائم والفيء في حروب فارس والروم.
وقد كان أمير المؤمنين الملهَم عمر رضي الله عنه يشعر بذلك، فكان يرى إمكانية التسوية بين الناس في العطاء بأن يزيد في عطاء الأقل ليلحق بالأ كثر، فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول والله لئن

بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلا واحدا وفي رواية عن زيد بن أسلم عن أبيه أنه سمع عمر بن الخطاب قال لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم وفي رواية عن عمر قال لئن عشت حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف ألف لكراعه وسلاحه وألف نفقة له وألف نفقة لأهله - أخرجه ابن سعد وهو صحيح

ولكن عمر لم يعش لينفذ خطته تلك، وورث عثمان تلك الأوضاع التى تفجرت في منتصف خلافته على نحو شديد القسوة.

================

6-نمو دور القبائل العربية

إن تغيرا كبيرا طرأ على حياة الناس بعد السنوات الأولى من عصر أمير المؤمنين عثمان؛ فالفتوح توقفت تقريبا؛ لأنها كانت قد وصلت إلى حد يجب أن تقف عنده قبل أن تستأنف، فلما توقفت ظهر تأثير طبقة جديدة من الناس على مسرح الحوادث، هي طبقة الأعراب الذين ارتدُّوا من قبل عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد كان أبو بكر بعيدَ النظر جدا حين رفض أن يرسل هؤلاء للمشاركة في الفتوح بعد أن رجعوا إلى الإسلام. وكان عمر بعيد النظر أيضا حين تشدد في منع إرسالهم ولم يتساهل إلا في أحيان، وكان لا يؤَمّرُهم. أما عثمان التقي الحَيِيُّ فقد اضطر إلى إرسال القبائل البدوية إلى الفتوح، ومعظمها من أهل الردة، وأحسن الظن بهم، فقد توسعت رقعة الفتح حتى لم يكن ممكنا أن يعتمد الفتح على الصحابة وحدهم مع القبائل التى حَسُنَ إسلامها وتمسكت بالدين.

ووجد عثمان الحاجة ماسّة لإشراك القبائل البدوية في تثبيت الفتوح التي أتمها السابقون الصادقون، فهرولوا إليها وهمهم الغنيمة والمال والرقيق. ولئن كان في تاريخ الفتوح عيب أو ملمَزٌ فإنه يأتي من هؤلاء، ولا يأتي من السابقين الأولين الذين ذهبوا إلى الفتوح نصرةً للدين وتأييدا له، لا سعيا وراء غنيمة، أولئك الذين قتل منهم في المواقع والحروب عدد كبير من سادتهم وفضلائهم، ولم يكن هناك بعد غنائم يطمعون فيها؛ بل عدو هائل القوة يُخْشَى فتكه وقوته.

وبدأ دور قبائل الأعراب ينمو، وتشعر بقوتها وقيمتها في المجتمع، وأصبحت كل قبيلة ترى أن دورها لا يقل عن دور قريش في الفتوح، وأخذوا يبحثون لأنفسهم عن دور على مسرح الأحداث، وفي صنع القرار، فظهرت العصبية القبلية من جديد، وأخذت نقمتهم على قريش ومكانتها تزداد يوما بعد يوم.

===================

7-العصبية القبلية

لقد حرك تفضيل أهل السابقة من المهاجرين والأنصار في العطاء كما فعل عمر، واختصاص قريش بالإمارة كما في عهد عثمان رضي الله عنه حرك ذلك كوامنَ الحقد والحسد في قلوب ضعاف الإيمان، وجعل القبائل تغَصُّ من

قريش ومكانتها، وتشكو من نفوذها، فالقبائل بنزعتها البدوية التى تكره الحكم المركزي لم ترض يوما عن سيادة قريش، ندرك ذلك في فلتات الألسن وخفايا الأنفس، فها هو رجل من عبد القيس يقول للزبير بن العوام في البصرة: "يا معاشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بايعتم رجلا منكم، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم، فجعل الله - عز وجل - في إمارته بركة، ثم مات رضي الله عنه - واستخلف عليكم رجلا منكم، فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا، فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر، فاخترتم عثمان، وبايعتموه من غير مشورة منا..تاريخ الطبري

================

8- رواسب الجاهلية

يعني الدخولُ في الإسلام أن يلقيَ الداخلُ على عتبة بابه كلّ ميراث الجاهلية الجائر، ولا يأخذَ من تجربته السابقة إلا ما يتناسق مع الدين ويتناسب مع الفطرة، وقد حدث هذا مع الصحابة تماما، وكان النبي - صلى اللّه عليه وسلم - يقاوم روح الجاهلية بقوة وشدة، ويرسّخ في نفوس أتباعه كراهية هذه الروح ومقاومتها.

ومع كل هذا فقد دخل في الإسلام أقوام ُ لم يتخلصوا من الميراث الجاهلي، فانبنت تصرفاتهم في الإسلام كما في الجاهلية - على العصبية العمياء والسعي وراء الفتنة وإثارة الخلافات.. فهذا يتعصب لقومه وذاك لموطنه، وذلك يمتدح بلاء قومه وأهله في الفتوح ويلوم الآخرين لأنهم لم يحققوا مثل إنجازهم، وكأنهم صنعوا النصر وحدهم!

إن الذي يسير في الحياة بهذه الروح قد يعمى عن كثير من الحق، وقد لا يكون سيره في طريقٍ ما إلا اندفاعا وراء تعصبه، ولن يتأخر عن التضحية بأمن الأمة كلها وسلامتها إذا وجد سبيلا لمناصرة من يتعصّب له. وقد كان هذا هو شأن من تعصبوا للزبير وطلحة في حياة عثمان رضي الله عنهم فحلت عصبية القبائل وأهل الأمصار لهؤلاء النفر من الصحابة محل عصبيتهم لأقوامهم؛ إذ رجوا أن يجدوا نفعا من وراء ذلك.

وفي الجهة الأخرى كانت القوى القديمة في البلاد المفتوحة قد تحطمت أمام جيوش الإسلام، ومع أنهم ظلوا مندهشين مما لحقهم من الهزيمة، إذ أشبه ما جرى لهم حلما سريعا في ليلة صائفة!! مع ذلك فإن المستفيدين من سلطة الروم والفرس الزائلة كانوا يتمنون لو سنحت لهم فرصة للثأر، لذلك استغلوا استشهاد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وقاموا بمحاولات حربية لاسترداد بعض ما سُلب منهم، لكنهم فشلوا تماما، وكان متوقعا إزاء ذلك أن يتحولوا إلى المؤامرات والدسائس، التي كان لها دور واضح في بعض الأحداث التي تلت عصر الخلفاء الراشدين.

================

9- دور اليهود في إشعال الفتنة: ((عبد الله بن سبأ))[13]

[13] - ابن سبأ اليهودي مؤسس فرقة الرافضة

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ بزوغ شمس الرسالة المحمدية ، ومن أول يوم كتبت فيه صفحة التاريخ الجديد ، التاريخ الإسلامي المشرق ، احترق قلوب الكفار وأفئدة المشركين ، وبخاصة اليهود في الجزيرة العربية وفى البلاد العربية المجاورة لها ، والمجوس في إيران ، والهندوس في شبه القارة الهندية الباكستانية ، فبدأوا يكيدون للإسلام كيدا ، ويمكرون بالمسلمين مكرا ، قاصدين أن يسدوا سيل هذا النور، ويطفئوا هذه الدعوة النيرة ، فيأبى الله إلا أن يتم نوره ، كما قال في كتابه المجيد : [يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ] سورة الصف .

ولكنهم مع هزيماتهم وانكساراتهم لم يتفلل حقدهم وضغينتهم ، فمازالوا داسين ، كائدين. و أول من دس دسّه هم أبناء اليهودية البغيضة ، المردودة ، بعد طلوع فجر الإسلام ، دسوا في الشريعة الإسلامية باسم الإسلام ، حتى يسهل صرف أبناء المسلمين الجهلة عن عقائد الإسلام ، ومعتقداتهم الصحيحة ، الصافية ، وكان على رأس هؤلاء المكرة المنافقين ، المتظاهرين بالإسلام ، والمبطنين الكفر أشد الكفر، والنفاق ، والباغين عليه ، عبد الله بن سبأ اليهودي ، الخبيث ، - الذي أراد مزاحمة الإسلام ، ومخالفته ، والحيلولة دونه ، وقطع الطريق عليه بعد دخول الجزيرة العربية بأكملها في حوزة الإسلام وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد ما انتشر الإسلام في آفاق الأرض وأطرافها ، واكتسح مملكة الروم من جانب ، وسلطنة الفرس من جهة أخرى ، وبلغت فتوحاته من أقصى افريقيا إلى أقصى آسيا ، وبدأت تخنق راياته على سواحل أوربا وأبوابها ، وتحقق قول الله عز وجل : [وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا] سورة النور.

فأراد ابن سبأ هذا مزاحمة هـذا الدين بالنفاق والتظاهر بالإسلام ، لأنه عرف هو وذووه أنه لا يمكن محاربته وجها لوجه ، ولا الوقوف في سبيله جيشا لجيش ، ومعركة بعد معركة ، فإن أسلافهم بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع جربوا هذا فما رجعوا إلا خاسرين ، ومنكوبين ، فخطط هو ويهود صنعاء خطة أرسل إثرها هو ورفقته إلى المدينة، مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعاصمة الخلافة ، في عصر كان يحكم فيه صهر رسول الله ، وصاحبه ، ورضيه ، ذو النورين ، عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فبدءوا يبسطون حبائلهم ، ويمدون أشواكهم ، منتظرين الفرص المواطئة ، ومترقبين المواقع الملائمة ، وجعلوا عليا ترسا لهم يتولونه ، ويتشيعون يه ، ويتظاهرون بحبه وولائه ، (وعلي منهم بريء) ويبثون في نفوس المسلمين سموم الفتنة والفساد، محرضيهم على خليفة رسول الله ، عثمان الغني - رضي الله عنه - الذي ساعد الإسلام والمسلمين بماله إلى مالم يساعدهم أحد ، حتى قال له الرسول الناطق بالوحي عليه السلام حين تجهيزه جيش العسرة "ما ضر عثمان ، ما عمل بعد اليوم" (رواه أحمد والترمذي) ، وبشره بالجنة مرات ، ومرات، وأخبره بالخلافة والشهادة.

وطفقت هذه الفئة تنشر في المسلمين عقائد تنافي عقائد الإسلام ، من أصلها، وأصولها، ولا تتفق مع دين محمد صلى الله عليه وسلم في شيء .

ومن هناك ويومئذ كونت طائفة وفرقة في المسلمين للإضرار بالإسلام ، والدس في تعاليمه ، والنقمة عليه ، والانتقام منه ، وسمت نفسها (الشيعة لعلي) ولا علاقة لها به ، وقد تبرأ منهم ، وعذبهم أشد العذاب في حياته ، وأبغضهم بنوه وأولاده من بعده ، ولعنوهم ، وأبعدوهم عنهم ، ولكن خفيت الحقيقة مع امتداد الزمن ، وغابت عن المسلمين ، وفازت اليهودية بعدما وافقتها المجوسية من ناحية ، والهندوسية من ناحية أخرى ، فازت في مقاصدها الخبيثة ، ومطامعها الرذيلة، وهي إبعاد أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن رسالته التي جاء بها من الله عز وجل ، ونشر العقائد اليهودية والمجوسية وأفكارهما النجسة بينهم باسم العقائد الإسلامية (ونتيجة ذلك لا يعتقد الشيعة بالقرآن الموجود، ويظنونه محرفا ومغيرا فيه).

وقد اعترف بهذا كبار الشيعة ومؤرخوهم ، فهذا هوالكشي (هو أبو عمرو بن عمر بن عبد العزيز الكشي - من علماء القرن الرابع للشيعة ، وذكروا أن داره كانت مرتعا للشيعة) كبير علماء التراجم المتقدمين - عندهم -الذي قالوا فيه : إنه ثقة، عين ، بصير بالأخبار والرجال ، كثير العلم ، حسن الاعتقاد ، مستقيم المذهب .

والذي قالوا في كتابه في التراجم : أهم الكتب في الرجال هي أربعة كتب ، عليها المعول ، وهي الأصول الأربعة في هذا الباب ، وأهمها ، وأقدمها ، هو"معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين المعروف برجال الكشي (انظر مقدمة "الرجال")

أحبتي في الله ، نقف هذه المرة لنتعرف على دور اليهود في إشعال الفتنة داخل الصف المسلم ، ومدى حقدهم على صحابة رسول صلى الله عليه وسلم ، وهو حقد ينم عن نفسية خبيثة كافرة بأنعم الله.
أو ليسوا هم الذين تجرأوا على الله سبحانه وتعالى وقالوا عنه : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأ

يقول ذلك الكشي في هذا الكتاب : وذكر بعض أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ، ووالى عليا عليه السلام ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصى موسى بالغلو، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي مثل ذلك ، وكان أول من أشهر القول بفرض إمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه ، وكفرهم ، ومن هنا قال من خالف الشيعة ، إن التشيع ، والرفض ، مأخوذ من اليهودية ("رجال الكشي " ص 101 ط مؤسسة الأعلمى بكربلاء العراق).
ونقل المامقاني ، إمام الجرح والتعديل ، مثل هذا عن الكشي في كتابه " تنقيح المقال " ("تنقيح المقال " للمامقاني ، ص 184 ج 2 ط طهران) .
ويقول النوبختي الذي يقول فيه الرجالي الشيعي الشهير النجاشي : الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي ، المتكلم ، المبرز على نظرائه في زمانه ، قبل الثلاثمائة وبعد . انظر " الفهرست للنجاشي" ص 47 ط الهند سنة 1317ه.
النوبختي : هو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث للهجرة - عندهم - وورد ترجمته فى جميع كتب الجرح والتعديل عند الشيعة، وكل منهم وثقه وأثنى عليه .
وقال الطوسى : أبو محمد، متكلم ، فيلسوف ، وكان إماميا (شيعيا) حسن الاعتقاد ثقة . . . وهو من معالم العلماء (فهرست الطوسي" ص 98 ط الهند 1835م).
ويقول نور الله التستري : الحسن بن موسى من أكابر هذه الطائفة وعلماء هذه السلالة، وكان متكلما، فيلسوفا، إمامي الاعتقاد. انظر "مجالس المؤمنين للتستري ص 77 ط إيران نقلا عن مقدمة الكتاب .
يقول هذا النوبختي في كتابه "فرق الشيعة" : عبد الله بن سبأ كان ممن أظهر الطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان ، والصحابة ، وتبرأ منهم ، وقال إن عليا عليه السلام أمره بذلك ، فأخذه علي ، فسأله عن قوله هذا ، فأقر به ، فأمر بقتله فصاح الناس إليه ، يا أمير المؤمنين ! ! أتقتل رجلا يدعو إلى حبكم ، أهل البيت ، وإلى ولايتكم ، والبراءة من أعدائكم ، فسيره (علي) إلى المدائن (عاصمة فارس آنذاك) ، (انظر أخي المسلم كيف كان حب علي رضي الله تعالى عنه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفقائه الثلاثة - الصديق والفاروق وذي النورين حتى أراد أن يقتل من يطعن فيهم !!).
وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام ، إن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ، ووالى عليا عليه السلام ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة ، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في علي عليه السلام بمثل ذلك ، وهو أول من أشهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه ، فمن هناك قال من خالف الشيعة أن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية .
ولما بلغ عبد الله بن سبأ نعي علي بالمدائن ، قال للذي نعاه : كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة ، وأقمت على قتله سبعين عدلا، لعلمنا أنه لم يمت ، ولم يقتل ، ولا يموت حتى يملك الأرض ". انظر "فرق الشيعة" للنوبختي ص 43 و44 ط المطبعة الحيدرية بالنجف ، العراق ، سنة 1379ه - 1959م.
وذكر مثل هذا مؤرخ شيعي في (روضة الصفا) " أن عبد الله بن سبأ توجه إلى مصر حينما علم أن مخالفيه (عثمان بن عفان) كثيرون هناك ، فتظاهر بالعلم والتقوى، حتى افتتن الناس به ، وبعد رسوخه فيهم بدأ يروج مذهبه ومسلكه ، ومنه ، إن لكل نبي وصيا وخليفته ، فوصيٌ رسول الله وخليفته ليس إلا عليا المتحلي بالعلم ، والفتوى، والمتزين بالكرم ، والشجاعة ، والمتصف بالأمانة ، و التقي ، وقال : إن الأمة ظلمت عليا، وغصبت حقه ، حق الخلافة، والولاية، ويلزم الآن على الجميع مناصرته ومعاضدته ، وخلع طاعة عثمان وبيعته ، فتأثر كثير من المصريين بأقواله وآرائه ، وخرجوا على الخليفة عثمان ". انظر تاريخ شيعي"روضة الصفا" في اللغة الفارسية ص 292 ج 2 ط إيران .

نقلا عن كتاب : الشيعة والسنة (ص15 -20) لإحسان إلهي ظهير - رحمه الله. بتصرف بسيط.

أنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد). (آل عمران : 181 – 182).
أو ليسوا هم الذين قالوا عن الله سبحانه وتعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إن تلك النفسية التي تعبد الهوى ، قد فضحها الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع من كتابه الكريم ، قال تعالى : (ولقد ءاتينا موسى الكتب وقفينا من بعده بالرسل وءاتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ً ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباء وا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم ءامنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) (البقرة : 87 – 93).
وقال سبحانه وتعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خ الدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خ الدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (سور البينة).
وحقيقة هذا الأمر أنه بعد ما فشل أعداء الإسلام في رهانهم على حركة الردة لوأد الإسلام داخل الجزيرة العربية لجأوا إلى الخيار العسكري الذي كان وبالا ً عليهم ، حيث انهارت جيوش الروم وفارس في اليرموك و القادسية ونهاوند وغيرها من المعارك التي كان من نتائجها سقوط دولة الفرس وطرد الروم من الشام ومصر ، عند ذلك أيقن سدنة الجاهلية بفشل الخيار العسكري في وقف مواكب الإيمان القادمة من جزيرة الإسلام ، فعمدوا إلى اغتيال الفاروق – رضي الله عنه - بمؤامرة نفذها أبو لؤلؤة المجوسي حتى تنشغل الأمة عن الجهاد بمشكلاتها الداخلية ، ولكن المخطط لم يسر كما أراد له أعداء الإسلام ، فقد بايع المسلمون عثمان بن عفان – رضي الله عنه – بعد استشهاد عمر – رضي الله عنه – وعادت رايات الجهاد في عهده كما كانت من قبل ، بل إن عهد عثمان – رضي الله عنه – شهد ركوب المسلمين البحر للمرة الأولى فأصبحوا يجاهدون المشركين في

البر والبحر معاً.
أمام هذه الفشل الذريع الذي حصده أعداء الإسلام في صراعهم مع المسلمين نجدهم يتجهون إلى تفعيل سلاحهم المفرق للصفوف والجماعات أ لا وهو سلاح النفاق ، حيث قامت طائفة منهم بزعامة اليهودي عبدالله بن سبأ ، بادعاء الإسلام من أجل هدمه من الداخل ، وهي الخطة نفسها التي طبقها اليهودي (بولس) من قبل مع أتباع عيسى عليه السلام ، وملخص ذلك أنه عن طريق الغلو في عيسى عليه السلام تمكن اليهودي (بولس) الذي انتحل النصرانية ، من إدخال الشرك على أتباع عيسى عليه السلام بعد أن رفعه الله سبحانه وتعالى إليه ، وبذلك تمكن من إفساد عقيدتهم ، وحرفهم عن ملة التوحيد.
هذا المخطط حاول ابن سبأ تطبيقه مع المسلمين ، وذلك عن طريق الغلو في علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – لكونه زوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووالد الحسن والحسين حفيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مدخل مهم لتنفيذ مخطط ابن سبأ.
=================

10-النموذج العظيم للحكم في العهد الراشدي[14]

---

[14] - مبادئ الحكم التي سار عليها نظام الحكم
في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده
1- سيادة القانون الإلهي: يعني خضوع الناس جميعاً لحكم الله تعالى، فلا حكم إلا لله.
2- العدل بين الناس: فهم متساوون في جميع أحكام الشرع من حيث : إقامة الحدود ، والفرائض ، والحلال والحرام.
3- المساواة بين المسلمين:لا فضل لعنصر، أو لون أو لغة على آخر، وتفاضلهم عند الله بالتقوى .
4- مسئولية الحكومة: وضع الرجل المناسب في المكان المناسب حفظاً للأمانات من السلطة والمال الذين هما لله.
5- الشورى: والتشاور يكون بين أهل الحل والعقد من أهل العلم والرأي سواء في تولية الحكم أو غيرها .
6- الطاعة في المعروف: أي أن أمر الحكومة واجب الطاعة ما دام في حدود المعروف، أما المنكر فلا .
7- طلب السلطة ممنوع: أي أنه لا يجوز لأي مسلم أن يطلب السلطة سواء أكانت الخلافة أو ما دونها للأدلة .
8- هدف وجود الدولة: إقامة نظام الحياة الإسلامي : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41]
9- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أي أن يكون ذلك حقاً لكل فرد يمارسه في المجتمع لنشر الخير والدعوة إليه ومحاربة المنكر هذا النمط من الحكم هو الذي عرف عند المسلمين (بالخلافة الراشدة) ومعنى ذلك أنه لا يحق إطلاق مثل هذا الوصف على أي نوع من الحكم إلا إذا قام على هذه المبادئ، وإنه عندما ينحرف عنها ، فإنه لا يستحق هذه التسمية .
خصائص الخلافة الراشدة :
1- خلافة انتخابية، ليست بالوراثة ولا بالقسر ولكن بالشورى .
2- حكومة شورى ، يشاور الحاكم أهل الشورى فيما طرأ عليه إن لم يجد له نصاً من كتاب أو سنة .
3- أمانة بيت المال، هو أن يأخذ الحاكم المال بوجهٍ شرعي، ثم لا يضعه إلا في حقه، فهو أمانة لله ولخلقه.
4- توضيح صورة الحكومة للناس عامة، أي بيان الهدف من قيام الحكومة ، وواجب الحاكم والوالي في الإسلام حتى لا يظلم أحد .

كان نظام حكم الخلفاء الراشدين فريدا في عصره، بل نموذجا رائعا للعلاقة

5- سيادة القانون، يستوي الحاكم وأدنى رجل في رعيته أمام القانون ، فلا محاباة، ولا مجاملة أمام القضاء .
6- حكومة بلا عصبية ، أي العمل على إذابة العصبية الجنسية والقومية والقبلية ونحوها ، والسلوك مسلك أبي بكر وعمر حيث لم يؤثر أحد من الخليفتين أحداً من أقاربه على غيرهم، كما لم يسلطا أقاربهما على رقاب الناس.
7- روح الديمقراطية: إعطاء الحرية الكاملة للنقد وإبداء الرأي، ومعاشرة، الخلفاء للناس في مناسبات عديدة دون تميز ولا احتجاب .
أ ـ الحاكم يطلب من الرعية التقويم عند الخطأ، والعون عند الإصابة .
ب ـ الحاكم لا يحابي أحداً لشرفه أو جاهه في الحق .
ج ـ الطاعة في المعروف دون المعصية .
د ـ لا يحق للحاكم أخذ أموال الناس بدون حق ، وأن يصرف ما يأخذه بحقه في حقه.
هـ- وصية الحاكم للوالي بتقوى الله ومراقبته ، وأن يكون بالناس رحيماً ، وأن يقبل منهم الظاهر ويكل السرائر إلى الله سبحانه .
و ـ تحذير الحاكم للوالي من ظلم الناس، وأنّ مهمته إقامة الصلاة بالناس، والقضاء بينهم بالحق، و القسم بينهم بالعدل .
ز ـ التحذير من الاحتجاب عن الناس.
ح ـ دعوة الرعية للاستفادة من العمال والولاة إن كانوا ظلموا أحداً منهم .
من خصائص الدولة الإسلامية الراشدة :
1- أن تأسيسها كان بعهد واعٍ من شعب حر، على أن يكون الوالي خليفة تحت سلطة الله العليا ، وأن يعمل طبق القوانين والأحكام التي أقرها الله في كتابه وأرسل بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .
2- أن تكون الحاكمية في هذه الدولة خالصة لله رب العالمين وحده .
3- أن تتكون الحكومة برأي الشعب، دون أن يكون ذلك الرأي نابعاً من فراغ أو هوى بل مضبوط بضوابط الشرع، وفي إطار القانون الإلهي الذي عاهد كل مؤمن الخضوع له والانصياع ، وهي الضوابط والقوانين التي لا طاقة لهيئة مهما كانت أن تخرج عن نطاقها، إلا عند رفض الإيمان بالله وحلّ عقده، وهذا من الفوارق بين الشورى والديمقراطية .
4- وهي دولة لا يقوم بها ولا يديرها إلا من يؤمن بدساتيرها وقوانينها ويحترم مبادئها ونظرياتها الأ ساسية .
5- وهي دولة ينصهر فيها كل أفراد الدولة، فهي لم تقم على أساس أسرة أو عصبية أو لون أو جنس، بل قامت على مبدأ هو الإسلام الذي لا يقرّ فارقاً من تراب أو عرق أو لون ، ومن حق كل مسلم أن ينتمي إليها أينما كان إذا قبل بمبادئها واحترام نظامها.
6- وهي دولة تتبع الأخلاق، وتسيّر الأمور على تقوى الله وخشيته ، والأولوية فيمن يستحق الحكم فيها لمن تفوق في الأخلاق والعلم والكفاءة الذهنية والبدنية، وكل شُعَب هذه الدولة تسير على الأ مانة والعدل والصدق والمساواة.
7- إن هذه الدولة ليست مهمتها قاصرة على رفع السوط في ظهور الناس وإرهابهم باسم حفظ النظام والاستقرار، بل دولة تستعمل كل وسائل السلم لاستئصال الشر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق العدل الاجتماعي، وتنمية الخير والخلق والفضيلة .
8- من الأهداف الأساسية لهذه الدولة الحرص على المساواة بين أفراد الأمة في الحقوق والمنازل و الفرص،وعلى تنفيذ القانون وإمضائه، وعلى أن يتعاون الجميع على البر والتقوى، وعدم التعاون على ا لإثم والعدوان وعلى شعور الجميع بالمسئولية أمام الله سبحانه .
هذه الدولة يقوم نظامها على إيجاد التوازن بين الحاكم والمحكوم، إذ أن هذا النظام لا يعطي الدولة السلطان المطلق على الفرد، بحيث يصير الفرد وكأنه عبد، ولا يعطى العبد كذلك الحرية المطلقة لينطلق في المجتمع فيفسد الحياة على نفسه وعلى الآخرين وإنما لزم الدولة باتباع القانون الأعلى – حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم – والتزام الشورى، كما أعطى الفرد حقوقه الأساسية، ولم يجعل للسلطة يداً على الفرد بدون حق يدان به ، كما أوجب على الفرد طاعة الدولة في حدود المعروف و الشرع .
.htm18http://www.jameataleman.org/msah/delame/delame

الصحيحة بين السلطة والأمة، فهو حكم يقوم على الشورى والمساواة و العدل، في حين كان الحكم الشائع في ذلك العصر حكم استبداد وسيطرة لفئة على فئة.. حتى شَكّلُ الاقتصاد في حكم الراشدين كان فريدا ومتميزا، ونموذجا طيبا منضبطا لدورة المال في الدولة، فهو اقتصاد مبنيٌ على توزيع مال الأمة على أفرادها جميعا، سواء منهم المقاتل في جبهات القتال، و المقيم الذي لا يستطيع القتال لسبب من الأسباب. ولم يكن ذلك الاقتصاد مألوفا آنذاك..

إنه حكم الخلفاء الراشدين في زهده وتواضعه وورعه، وفي تحمله الأمانةَ وحرصه على مصالح الرعية، فليس بين يدي الخليفة جيش أو شرطة أو جهازٌ أمنٍ خاص للدفاع عنه، ولا يسخّر إمكانات الدولة لحماية عرشه. و الخليفة لا يأخذ بالظن، ولا يقتل بالشبهة، ولا يتتبع عورات الناس، ولا يكشف سترهم، فهو يحسن الظن بهم، ويعاملهم على حسب ما يظهرونه، ويكِل إلى اللّه بواطنَهم وما يكتمونه.[15]

---

[15] - معالم من تاريخ الخلفاء الراشدين

محمد بن صامل السلمي

الخلفاء الراشدون هـم الأئـمـة الأربـعـة ، أبـو بـكـر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم أجمعين - ، وهم الذين خلفوا رسول الله -صلى الله عـلـيـه وسلم- فـي قيادة الأمة ، ومدة خـلافـتهم من انتقاله -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى في 12 ربـيـع الأول سـنـة 11هـ إلى مقتل علي بن أبي طالب في 17 رمضان سنة 40 هـ(1): تسع وعشرون سنة وستة أشهر وخمسة أيام.

وإذا أضـيـفـت لهـا خلافة الحسن بن علي (من مقتل أبيه عن تنازله لمعاوية بن أبي سفيان 25 ربيع الأول سـنة41هـ) (2) تكون ثلاثين سنة بالتمام ، وقد اختصوا بوصف الراشدين لصفات تميزوا بها في سلوكهم الذاتي وفي إدارتهم لشؤون الأمة ورعايتهم لدينها وعقيدتها وحفـاظهم على النـهـج الـذي جـاء بـه رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- مـن الـدعـوة، والجهاد ، وإقامة العدل ، والأمر بـ المعروف ، والنهي عن المنكر.

والرشـد ضـد الـغـي والهوى وهو الاستقامة الكاملة على المنهاج النبوي ، وقد جاء وصفهم بهذه الصفة فـي حـديـث العرباض بن سارية -رضي الله عنه-: "... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور" (3).

كما جاء وصف خلافتهم في بعض الأحاديث النبوية: أخرج الإمام أحمد في "مسنده" عن حذيفة-رضي الله عنه- قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-:"تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها..." الحديث(4).

وفي حديث سفينة -رضي الله عنه- تحديد لزمن الخلافة الراشدة ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء"(5)، قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر -رضي الله عنه-سنتين، وخلافة عمر -رضي الله عنه-عشر سنين ، وخلافة عثمان -رضي الله عنه-اثني عشر سنة ، وخلافة علي -رضي الله عنه-ست سنين(6).

وقد تميز عصرهم من بين سائر عصور الدول الإسلامية بجملة من المميزات التي تميزه عن غيره، وصار العصر الراشدي مع عصر النبوة معلماً بارزاً ونموذجاً مكتملا ً، تسعى الأمة الإسلامية وكل مصلح إلى محاولة الوصول إلى ذلك المستوى السامق الرفيع ، ويجعله كل داعية نصب عينيه فيحاول في دعوته رفع الأمة إلى مستوى ذلك العصر أو قريباً منه ، ويجعله معلماً من معالم التأسي و القدوة للأجيال الإسلامية ، ومن ثم صار كل مصلح وكل حاكم عادل وكل إمام مجتهد يقاس بهذا العصر ويوزن بميزانه ، حتى لقب كثير من العلماء الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (خامس الخلفاء الراشدين)(7)، ونسبوه إليهم، وذلك لأنه سار بسيرتهم ، وسلك طريقهم ، وأعاد في خلافته رغم قصرها (99-101هـ) معالم نهجهم ، وأحيا طريقتهم في الحكم والإدارة وسياسة الرعية.

وفي هذه المقالة نتعرف على بعض معالم عصر الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم-؛ لتكون مثالا ً

يحتذى وصدىً يهتدى بها في طريق الدعوة إلى الله.
1- توحيد مصدر التلقي:
ومـصـدر الـتـلـقـي هو الكتاب والسنة المطهرة، وهذه قضية مهمة جداً، فما وقع التفرق والاختلاف إلا عـنـدما قصّرَ المسلمون في فهم الكتاب والسنة وزاحموهما بمصادر ومقررات خارجية من فلسفات الأمم وأهواء النفوس ، والبشرية لا يمكن لها أن تتقارب وتتوحد إلا إذا وحدت مصادر فـهـمـهـا وتلقيها ، فإن الناظر في الفلسفات البشرية والمذاهب الفكرية والسياسات العملية يجد بينها بوناً شاسعاً واختلافاً كبيراً يصل إلى التضاد والتناقض ، ولذلك فإنه لا سبيل لوحدتها وإزالة ما بينها من اختلاف وتناقض ، ويبرأ من النقص والهوى ويخضع له الجميع سوى وحي الله المنزل في كتابه وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، لأنه من تشريع الله الخالق لكل شيء ، الحكيم الخبير الذي أحاط علمه بكل شيء ، قال تعالى: ((ومَا كانَ رَبُّكَ نَسِياً)) [مريم:64]، وقال تعالى: ((لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ)) [البقرة:255] ، وقال: ((وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)) [النساء:26] ، وقال تعالى: ((الَذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأ َرْضِ ولَمْ يَتَّخِذْ ولداً ولَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان:2] ، وقال تعالى: ((ولَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى ورَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) [الأعراف:52] ، وقال تعالى: ((واللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأ َرْضِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [الحجرات:16].
فما كان الخلفاء الراشدون يتلقون أو يأخذون نظمهم ولا سياستهم ولا مناهج علمهم وكافة أمورهم إلا من الكتاب المـنـزل من الله والسنة الموحى بها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ولم يكن الاقتصار منهم على الوحي الرباني عن فقر في العلوم والثقافة في عصرهم ولكنه عن علم وقصد واتباع لأمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، قال تعالى: ((ثُـمَّ جَـعَـلْـنَـاكَ عَـلَـى شَـرِيـعَـةٍ مِّنَ الأ َمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَذِينَ لا يَعْلَمُونَ)) [الجاثية:18].
فكل ما خالف الوحي فهو هوى وجهل وعمى ، وقال تعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ)) [الروم:30].
ولقد غضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما رأى في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة وقال:"لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"(7) ، وأقوال الخلفاء الراشدين بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومواقفهم توضح ذلك وتبينه.
قال الخليفة الأول صديق هذه الأمة بعد أن بويع بالخلافة في خطبة عامة: "إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني"(8).
وقال عمر الخطاب -رضي الله عنه-:" قد كنت أرى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سيدبر أمرنا- أي: يكون آخرنا - ، وإن الله قد أبقى فيكم الذي به هدى رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم (9) (يعني: أبا بكر).
وقال أيضاً:" إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ،فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله "(10). فالاعتصام بالكتاب والسنة والتلقي منهما قضية مسلمة لا تقبل النقاش ، ولقد استمرت الأمة على هذا الفهم قروناً ، ولكنها أصيبت في الأعْصُر المتأخرة بالانحرافات حتى جهلت المسلمات ووجد من أبنائها من يجادل في هذا ، بل وربما وجد فيمن ينتسبون إلى الدعوة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.
2- حماية جانب العقيدة:
لقد جاءت الشريعة بسد باب الذرائع المؤدية إلى الشرك ومحاربة البدع والمحدثات في الدين، ولهذا لم يكن الخلفاء الراشدون وظيفتهم تقف عند حفظ الأمن والحكم بين الناس، بل إنها تتعدى ذلك لتشمل كافة مصالح الأمة الدنيوية والأخروية ، ومن ثم قاموا على نشر العقيدة الصحيحة وسدوا كافة المنافذ المؤدية إلى الابتداع في الدين أو النقص منه أو الانحراف في فهمه، وقاوموا كل مبتدع أو مشكك في الدين ، وطبقوا قوله -صلى الله عليه وسلم-:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"(11).
والوقائع التاريخية والمواقف المنقولة عنهم في هذا المعنى ، كثيرة نذكر نماذج منها:
- موقف الصديق -رضي الله عنه-في الردة بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فقد واجه المرتدين بكل قوة وصلابة وحزم وشجاعة ، ورفض مهادنة مانعي الزكاة رغم قلة الجند الإسلامي ومشورة كثير من الصحابة له بذلك منهم عمر بن الخطاب ، فقال -رضي الله عنه- قولته الشهيرة: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه"

(12).
وقال لعمر بن الخطاب: "أجبار في الجاهلية ، خوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أوَ ينقص وأنا حي؟ (13).. فهو يعلم -رضي الله عنه-أن واجب الخليفة حراسة الدين من الزيادة و النقصان ، لذلك قال مستفهماً هذا الاستفهام: "أو ينقص وأنا حي؟ "أي:إن ذلك غير ممكن ولا أقبل به أبداً مادمت حياً، ولذلك قال أيضاً: "والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف في يدي ، ولو لم يبق في القرى غيري"(14).
- مواقف عمر بن الخطاب كثيرة: فقد كان -رضي الله عنه-شديداً على أهل الأهواء والبدع ، فقد ضرب صبيغ بن عسل التميمي بجريد النخل وعراجينه عندما أخذ يثير بعض الأسئلة المشككة ،حتى قال له: والله لقد ذهب ما أجد يا أمير المؤمنين ، ثم بعث به إلى والي البصرة أبي موسى الأشعري وأمره بمنعه من مخالطة الناس ، فحجز حتى تاب واستقام أمره وأقلع عن بدعته (15)
وقولته -رضي الله عنه- عند تقبيله الحجر الأسود:" إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقبلك ما قبلتك "(16)... دليل واضح على المتابعة الدقيقة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإبعاد لأي اعتقاد ينشأ عند بعض الناس بأن الحجر ينفع أو يضر بذاته.
وكذلك قطعه للشجرة التي بايع تحتها رسول -صلى الله عليه وسلم- أهل الحديبية بيعة الرضوان ، عندما بلغه أن بعض الناس يقصدها بعبادة كالصلاة عندها أو الدعاء والتبرك بها (17).
- موقف عثمان -رضي الله عنه- في سد باب الفتنة والاختلاف في القرآن الكريم: حيث سارع -عندما قدم عليه حذيفة بن اليمان من أرمينية وأخبره بما رأى من الاختلاف في قراءة القرآن- إلى الأمر بكتابة مصحف واحد من عدة نسخ ، وبعث إلى كل قطر وناحية نسخة ، وأمر بإحراق بقية النسخ و الصحف الموجودة عند الناس ، فجمع الناس على مصحف واحد ، وقطع الله بعمله هذا دابر الفتنة، وحقق الله على يديه صيانة كتابه وحفظه من الزيادة والنقصان (18).
- قتال علي -رضي الله عنه- للخوارج وللشيعة الذين غلوا فيه حتى ألهوه -رضي الله عنه- فنصحهم عن ذلك ، ثم لمّا لم ينتهوا أمر بإحراقهم بالنار ، وقال:" لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناراً ودعوت قنبراً"(19).

الهوامش:
1- تاريخ الطبري 217/3 ، 143/5 ، ويذكر قولا ً للمدائني في تاريخ قتل علي مقارب لهذا.
2- تاريخ الطبري 163/5 ويذكر ذلك عن بن شبة عن المدائني قال: سلم الحسن بن علي الكوفة إلى معاوية، ودخلها معاوية لخمس بقين من ربيع الأول، ويقال: من جماد الأول.
3- رواه أبو داود 201/4 ، والترمذي 44/5. وقال: حديث حسن صحيح ، وأحمد في المسند 126/4.
4- المسند 273/4 ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد 189/5:رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.وقد حسنه الشيخ الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم 5.
5- أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة وهذا لفظه. والترمذي في باب 16
6- انظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (باب في أنه من الخلفاء الراشدين المهديين) ،والنووي تهذيب الأسماء واللغات 17/2، والذهبي سير أعلام النبلاء 120/5.
7- رواه أحمد 3 / 387 ، من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله. وقال الحافظ في الفتح 13 / 234:رواه ابن أبي شيبة والبزار ، وسكت عنه. وقد صرح في "مقدمة الفتح" أن ما يسكت عنه هو حسن عنده. ويشهد لمعناه ما رواه البخاري في صحيحه 13 / 333 -الفتح- عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي انزل على رسول الله أحدث تقرؤونه محضاً لم يشب؟!.
8- تاريخ الطبري 3 / 224.
9- البداية والنهاية 6 / 301 وقال: إسناده صحيح.
10- رواه الحاكم في المستدرك 1/ 62 وقال: صحيح على شرطهما. وسكت عنه الذهبي.وقال الألباني: صحيح.
11 - رواه مسلم 3 / 1344 حديث رقم 1718 ، ط فؤاد عبد الباقي.
12- رواه مسلم في صحيحه 1 / 206 بشرح النووي.
13- قال في الرياض النضرة في مناقب العشرة ، ، 247:خرجه النسائي بهذا اللفظ ومعناه في

الصحيحين.
14- البداية والنهاية 6 / 304.
15- سنن الدرامي 1/ 54 ، 55 ، ومسند أحمد.
16- رواه الجماعة. انظر المنتقى من صحيح الأخبار ، حديث رقم (2536).
17- طبقات ابن سعد 2 / 100 ، وأخبار مكة للفاكهي 5 / 78.
18- انظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن.
19- ابن حزم ، الفصل 4 /186.

3- سيادة العدل والمساواة بمفهومها الإسلامي الصحيح :
وذلك أن التفاضل بين البشر قوامه الميزان الذي قرره الله في كتابه. قال تعالى :((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقاكمْ)) [الحجرات/13]،وق-ال رس-ول الله صلى الله عليه وسلم »لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى«(1).
والأدلة الواقعية والتاريخية على سيادة هذا ال-مبدأ في عصر الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصى ، فهذا الخليفة الأول أبي بكر الصديق يطلب في أول خطبة له من الرعية أن تقوّم ما ترى فيه من خطأ أو اعوجاج(2).
وهذا عمر بن الخطاب يتقاضى وهو خليفة مع أبي بن كعب الأنصاري عند قاض المدينة في عهده زيد بن ثابت ، فيأتي عمر وأبي ابن كعب إلى مجلس القضاء ، ويقول زيد لعمر: لو طلبتني يا أمير المؤمنين لأحضر عندك. فيرد ع-ل-ي-ه ع-م-ر : مق-رراً قاعدة مهمة من قواعد التقاضي وهي قاعدة المساواة:في بيته يؤتى الحكم.
ثم يحاول زيد-من باب الإكرام للخليفة-أن يدني مجلس عمر ، فيأبى عمر إلا أن يجلس مع خصمه على قدم المساواة ويقول لزيد : هذا أول الجور منك.
وبعد أن يدلى كل من الخصمين بحجته ، يحكم زيد باليمين ع-ل-ى ع-م-ر ثم يطلب من أبى بن كعب أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين لكن عمر أصر على تنفيذ ذلك ، ف-ي-ح-ل-ف كما حكم القاضي ، وبعد أن استحق الأرض المتنازع عليها قضاء وهبها عمر لأبي بن كعب(3).
وم__رة جاء رجل من المسلمين فقال لعمر : اتق الله ، فقال أحد الحاضرين : أتقول ذل-ك لأمير ال-م-ؤمنين ، فرد عليه عمر بقوله : دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم(4).
ومن مظاهر المساواة والعدل توزيع الفيء وأخماس الغنائم على كافة المسلمين فإن عمر رضي الله عنه لما دون ديوان العطاء جعل لكل مسلم حق في ذلك العطاء حتى المواليد ، فبمجرد ولادة طفل لأ حد المسلمين يسجل أسمه في الديوان ويفرض له عطاؤه وكان عمر يقول : لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه دون أن يسعى لطلبه (5). ويقول أيضاً : و الله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، ووالله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله (6).
وقد واسى رضي الله عنه الناس بنفسه في عام الرمادة فامتنع عن أكل اللحم والسمن حتى توفر ذلك لعامة الناس ومضت أزمة المجاعة وجاءهم الفرج من الله.
يقول أنس رضي الله عنه : غلا الطعام بالمدينة فجعل عمر. رضى الله عنه يأكل الشعير وجعل بطنه يصوّت فضرب بيده على بطنه وقال : والله مما هو إلا ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين(7).
وعن طاووس قال: جدب على عهد عمر فما أكل سمناً ولاسمينا حتى أخصب الناس (8).
4 - سيادة مبدأ الشورى قاعدة للتعامل بين الحاكم والمحكوم :
مبدأ الشورى من المبادئ الإسلامية الهامة التي توفر الأمن والطمأنينة للأفراد والاستقرار السياسي للدولة ، ويؤدي إلى إشاعة ء المحبة وبث روح التعاون والتناصح بين الحاكم والرعية ، وهو ضروري حتى لا ينفرد الحاكم بالأمر والرأي الذي قد لا يكون صواباً فإن رأي الجماعة خير م-ن رأي الواحد لأ نه يأتي بعد نظر ودراسة وتفكر في الأمر وعواقبه. ومن ثم ت-ض-م-ن الأم___ة أكبر قدر من إصابة الحق، قال ابن عطية: الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب (9).
وقد قال تعالى مثنياً على ال-م-ؤم-ن-ي-ن ومعدداً بعض صفاتهم : ((والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) [الشورى/38].
قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: ك___ان الأنصار قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا

أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم ع-م-ل-وا ع-ل-ي-ه فمدحهم الله به. ونقل عن الحسن البصري أنه قال : انهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلمتهم(10).
وقال تعالى مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ في الأ َمْرِ)) [آل عمران:159].
أخرج ابن أبى حاتم بسند حسن -كما قال الحافظ ف-ي الفتح (11) عن الحسن قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده.
فالشورى مشاركة في المسئولية وضمانة من الانحراف ول-ه-ذا بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بهاتين الآيتين باباً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (12).
وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري رحمه الله لأهمية الشورى وكون العمل بها اعتصام بالكتاب و السنة وبعد عن الانحراف والبدعة، م-م-ـا أح-وج دعاة الإسلام اليوم إلى تدبره وتفهمه لتسلم دعوتهم من القرارات العشوائية ، والاتجاه-ات الفردية. وقد وردت الآثار عن الأئمة في مدح الشورى وبيان فضائلها. قال الحسن البصري : ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم ، وفي لفظ : إلا ع-ـزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع (13).
وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قط !! إذا حزبني أمر شاورت قومي فعملت الذي يرون فإن أصبت فهم المصيبون وان أخطأت فهم المخطئون (14).
وقال البخاري: كان الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم "يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأ مور المباحة فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره" (15).
وقال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، ومسار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم إلا هدوا (16).
ولقد كانت سيرة رسول صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين من بعده تطبيق واقعي لمبدأ الشورى ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأتيه الوحي من الله يسدده يصفه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله. ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (17).
وقد شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمور العامة كما في القتال يوم بدر، وفي أسرى بدر وفى أحد والخندق والحديبية بل حتى في الأمور الخاصة ، كما في قصة حادثة الإفك.
أما الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم جميعاً فقد وقعت منهم في خلافتهم أمور كثيرة توضح التزامهم بهذا المنهج الشوري منها : تشاورهم في اختيار الخليفة ، ومنها استشارة أبى بكر رض الله عنه في قتال أهل الردة ، وقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر رض الله عنه إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به قض بينهم وإن علمه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم واستشارهم. وإن عمر كان يفعل ذلك(18). وقد كان القراء أصحاب مشورة عمر كهولا ً كانوا أو شباناً(19).
وقد شاور عمر الصحابة في الصحابة في إملاص المرأة(20) ، وأيضاً في قتال الفرس(21) ، وفى دخول الشام لما وقع الطاعون بها(22).
وقد ترك عمر الخلافة من بعده شورى.
وشاور عثمان رضى الله عنه الصحابة أول خلافته فيما يفعل بعبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان ظناً منه أن له في قتل أبيه مدخلا ً (23).. وشاور الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد ، قال علي بن أي طالب : "ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا "(24)...
فهذه الوقائع من تاريخ الخلفاء الراشدين توضح بما لا مزيد عليه التزامهم بمنهج الشورى في كافة الأ عمال المحتاجة إلى ذلك مثل بعث الجيوش واختيار القادة وحكام الأقاليم والولايات والاجتهاد في ا لأحكام الشرعية التي لا نص فيها بخصوصها.
وقد كانت الشورى طريقاً ومنهجاً في اختيار الخلفاء الأربعة للإمامة العظمى، وإن اختلفت صور المشاورة ، وقد قال عمر رض الله عنه: من بايع رجلا ً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو و لا الذي يبايعه(25). مما يدل على التزام الشورى في البيعة والخلافة.
5- قيام الجهاد والعلاقات الدولية في عهدهم على مقتضى الشرعية :
من المعلوم أن الدولة الإسلامية دولة متميزة في منهجها وتصورها وسياستها لأنها تأخذ أحكامها ونظمها من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ولذا فإن علاقتها مع غير المسلمين محكومة بتلك النصوص والأحكام.
ولقد أقام الخلفاء الراشدون علاقاتهم مع غير المسلمين على موجب تلك الأحكام. فالأرض إما.

1- دار إسلام : وتطبق فيها أحكام الشريعة على كافة المقيمين فيها سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، لأن غير المسلم لابد أن يدفع الجزية للأحكام الإسلامية التي شرعها الله في حق أهل الذمة ، وللشروط التي وضعها الخلفاء ، وهى مفصلة في كتب الفقه ومنها أن يلتزموا بآداب المسلمين الظاهرة ولا يرفعوا صليبا ولا يشربوا خمرا ولا يؤذوا مسلما ولا يبنوا كنيسة ولا يدعوا أحدا إلى دينهم ولا يرفعوا دورهم فوق دور المسلمين ، ولا يحتفلوا بأعيادهم ظاهراً ولا ينشروا شيئاً من كتبهم بين المسلمين (26).

ب - أو دار كفر ، وتنقسم هذه الدار إلى قسمين : دار صلح وعهد ، ودار حرب.

فأهل الصلح والعهد يوفى لهم بعهدهم إذا حصل منهم الوفاء ، والعهد والصلح لا يكون مستمراً إلى الأ بد بل لابد من توقيته بأجل ، ومن العلماء من جعل أطول مدة للعهد والصلح عشر سنين أخذاً من أطول مدة صالح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين في صلح الحديبية (27).

أما أهل الحرب فلا علاقة بينهم وبين المسلمين إلا السيف والقتال والأخذ بكل طريق ومرصد –إذا أقيمت عليهم الحجة وكان بالمسلمين قوة واستطاعة- لإرغامهم على الخضوع لله ولدينه وليكون الدين كله لله ، قال تعالى :((فَإِذَا انسَلَخَ الأ َشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدتُّمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [التوبة /5].

وقد طبق الخلفاء الراشدون هذه الأحكام بأعلى وأتم ما يكون التطبيق وكسرت في عهدهم أكبر دولتين في العالم في ذلك الزمن الدولة الفارسية والدولة الرومانية وأورث الله المسلمين أرضهم وأموالهم وأنفقت كنوزهما في سبيل الله وخضعت أراضيهم لحكم المسلمين وأصبحت دار إسلام ، ومن لم يسلم من أهل تلك المناطق طبقت عليه أحكام أهل الذمة وأخذت منه الجزية مقرونة بالذل و الصغار كما أمر الله تعالى :((قَاتِلُوا الَذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ)) [التوبة:29].

كما ضربوا العشور على تجار غير المسلمين إذا مروا بأرض الإس ـلام أما المسلمون فلا يؤخذ منهم عشور ولا ضرائب وإنما تؤخذ منهم الزكاة المفروضة، ووض ـع الخ ـل ـف ـاء ال ـراش ـدون الخراج على الأرض حسب التفصيلات المقررة في مواطنها.

أما جزيرة العرب فقد أخرجوا منها اليهود والن ـص ـارى ولم يبق فيها إلا مسلماً تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله ع ـل ـي ـه وس ـل ـم ووص ـي ـت ـه في آخر حياته حيث قال :»لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً«(28) ، وقوله: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب (29).

6- الحماس في نشر الإسلام:

وظيفة الدولة الإسلامية هي نشر الدين حتى ي ـع ـب ـد الله وح ـده، ولهذا عرف ابن خلدون الخلافة بقوله: هي نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا(30).

وال ـدول ــة تنفذ هذه الوظيفة بالجهاد وفتح البلدان وبالدعوة والتعليم لأوامر الدين ونواهيه وكافة أحكامه الشرعية. فحركة الجهاد والفتح العسكري لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا ال ـن ــاس في دينهم وهذا التلازم بين الفتح العسكري والتعليم أمر ضروري لابد منه لاستقرار الدع ــــوة والدولة ولابد من ملاحظة التوازن المطلوب في هذا الجانب، فبقدر التوسع في الأرض ي ـك ـــون التوسع في الدعوة والتعليم حتى لا يختل ميزان التربية وتحدث الخلخلة في ال ـص ـف الإ س ـلامي وتتوس ــع الفجوة بين الفاتحين وسكان الأراضي المف ـت ـوح ــة مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية.

وقد بذل الخ ـل ـف ـاء الراشدون ما استطاعوا في سبيل حدوث هذا التوازن بين حركة التوسع الأفقي في فتح البلدان وبين التوسع الرأسي في تعليم الناس وتفقيههم في ك ـت ـاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولكن رغم وجود البذل والحماس في ميدان التقليم والتربية على تعاليم هذا ال ـدي ـن إلا أن الملاحظ أن التوسع في الأرض كان سريعا وواسعا فقد فتحت العراق وما وراءها والشام ومصر في سنوات قليلة معدودة فلم ي ـك ـن ف ـي م ـق ــدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأ عداد الهائلة من سكان تلك المناط ــق وتعليمها كما لم يكن الزمن كافيا لرسوخ التعاليم الإسلامية في نف ــوس ك ـث ـي ـر منهم مما ساعد ـ مع غيره من العوامل ـ فيما بعد على وجود خلخ ـل ــة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامي مما سبب ظهور الفرق والأهواء المتشعبة.

وب ـع ـد ف ـه ـذه جمل ـة من أهم المعالم البارزة في تاريخ الخلافة الراشدة أردنا بالتنبيه إليها توجيه

رابعا- مقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه[16]

أنظار دعاة الإسلام إلى الاستفادة من هذا التاريخ المشرق والسير على منوالهم فإنهم القوم بهم يقتدى وبهديهم وسنتهم يسلك ويتبع، والله الموفق والهادي.

الهوامش :

1- المسند للإمام أحمد بن حنبل 411/5.
2- ابن هشام ، السيرة النبوية 661/2، والطبري 210/3.
3- أخرج القصة ابن شبه في أخبار المدينة 755/2-756 بإسـناد صحيح من طريقتين عن الشعبي.
4- ابن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،ص155.
5- ابن سعد : الطبقات الكبرى 299/3 ، ومسند أحمد حديث رقم 262 ، ط شاكر.
6- ابن سعد : الطبقات الكبرى 299/3.
7- ابن سعد : الطبقات الكبرى 1313/3، وابن شبه ، أخبار المدينة 742/2 ، ومنتخب كنز العمال 397/5.
8- وابن شبه ، أخبار المدينة 742/2.
9- المحرر الوجيز 280/2.
10- تفسير القرطبي 36/16.
11- فتح الباري 340/13.
12- انظر صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).
13- فتح الباري 340/13، وقال ابن حجر: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي حاتم بسند قوي.
14- تفسير القرطبي 37/16.
15- الصحيح ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).
16- أحكام القرآن 1868/4.
17- أشار إليه الترمذي في كتاب الجهاد من سنته بقول : ويروى عن أبي هريرة ، وقال الحافظ في الفتح 340/13 ، رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
19- ذكره الحافظ في الفتح 342/13.
20- صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).
21- صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب (25).
22- فتح الباري 342/13.
23- المصدر السابق.
24- ذكره الحافظ في فتح الباري 342/13، وقال رواه ابن سعد وغيره بسند حسن.
25- ذكره الحافظ في فتح الباري 342/13، وقـال أخـرجـه ابـن أبي داود فـي كـتـاب المصاحف ، وسنده حسن.
26- رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب (31).
27- انظر ذلك مفصلا ً في كتاب أحكام أهل الذمة للحافظ بن القيم.
28- حكى الطبري في كتاب اختلاف الفـقـهـاء (ص 14) الإجـمـاع على أن الصلح بين المسلمين و الكفار لا يكون إلى الأبد.
29- رواه مسلم 1388/3 ، حديث رقم (1767).
30- طرف من حديـث أخـرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة.
31- المقدمة /191.

Cd مجلة البيان

[16] - هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي القرشي، أبو حفص ولقبه النبي صلى الله عليه وسلم بالفاروق، أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة المخزومية وهي أخت أبي جهل عمرو بن هشام، وهو ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وكانت له السفارة فيهم، ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره، أسلم قبل الهجرة بخمس سنوات وشهد الوقائع مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم في عدة سرايا، بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر الصديق وبعهد منه، بعد استشارة الناس فيه فوافقوه، ولاه أبو بكر القضاء في عهده فكان أول قاض في الإسلام، ولم يأته مدة ولايته القضاء متخاصمان، لأن ط

مبادئ سامية، وقيم رفيعة، وانتصارات رائعة، واتساع عظيم وسريع للدولة لم يكن العالم في ذلك الوقت يتخيله، فإذا به واقعا يُعاش، والخليفة التقي في المدينة ما زال يسيّر دفة السفينة، دون أن تتجبر نفسه بما حققه الله على يد جنوده من انتصارات، ودون أن يجعل هذه الإنجازات مجدا شخصيا يدوس به رقاب العباد...

بينما الناس في ظل دولة الإسلام يعيشون هذا الجو المشرق بالصفاء، المليء بالعدالة والإنصاف، إذ فاجأهم حادث أليم، هو مقتل أمير المؤمنين عمر بيد أعجمي، فكان ذلك الحادث صدمة عنيفة روّعت المسلمين، وغيرت من شعور كثير منهم تجاه الأعاجم: مَنْ أسلم منهم ومَنْ لم يسلم، بعدما ظهرت أصابع الأعاجم ملطخة بدماء عمر..

فعَن ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : لمّا طعَنَ أَبُو لُؤْلُؤَةَ عُمَرَ ، طَعَنَهُ طَعْنَتَيْنِ ، فَظَنّ عُمَرُ أَنّ لَهُ ذَنْبًا فِي النّاسِ لا يَعْلَمُهُ ، فَدَعَا ابْنَ عَبّاسٍ وَكَانَ يُحِبُّهُ ويُدْنِيهِ ويَسْتَمِعُ مِنْهُ

لاوة الإيمان وأخوة الإسلام كانت تمنع الناس من التخاصم، فإذا اختلفوا استفتوا ونزلوا عند إفتاء من يفتيهم من الصحابة، قطع العطاء عن المؤلفة قلوبهم بعد اعتزاز الإسلام وقوة شوكته، أخضع أراضي البلاد المفتوحة عنوة للخراج ولم يقسمها بين الغانمين، لكي يستكملوا فريضة الجهاد، وأعادها إلى أصحابها الذين كانوا عليها وجعل خراجها حقا للمسلمين.

أول من بدأ التاريخ بسنة الهجرة النبوية، وأول من دون الدواوين في الإسلام، جعلها على الطريقة الفارسية، لإحصاء الأعطيات، وتوزيع المرتبات لأصحابها حسب سابقتهم في الإسلام، اتخذ بيت مال المسلمين، وكانت الدراهم على أيامه على نقش الكسروية، فزاد فيها (الحمد لله) وفي بعضها زاد (لا إله إلا الله)، وفي بعضها (محمد رسول الله)، رد النساء المسبيات في حرب الردة إلى عشائرهن، وقال: كرهت أن يصير السبي سبة على العرب، ضرب في شرب الخمر ثمانين جلدة، وكانت أربعين وحرم المتعة ونهى عن بيع أمهات الأولاد، اتخذ داراً للدقيق وجعل فيها الدقيق والتمر والسويق والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع، وكان يخرج إذا صلى الآخرة -أي العشاء- فيطوف بدرته على من في المسجد، فينظر إليهم ويعرف وجوههم ويسألهم هل أصابوا عشاء، وإلا خرج فعشاهم، كان له عيون يتقصى بها أحوال الجيش وأحوال عماله في الأمصار، وكان إذا أتاه وفد من مصر من الأمصار سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم، وهل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض، فإن قالوا نعم، حمد الله، وإن قالوا: لا، كتب إليه: أقبل، كان إذا بعث عاملا ً يشترط عليه أربعاً: ألا يركب البراذين، ولا يلبس الرقيق، ولا يأكل النقي، ولا يتخذ بواباً.

ومر يوماً ببناء يبنى بحجارة وجص، فقال: لمن هذا؟ فذكروا عاملا ً له على البحرين، فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله، في أيامه تم فتح الشام والعراق وافتتحت القدس و المدائن ومصر والجزيرة وخراسان وكرمان وسجستان وقبرص.

وانتصب في مدة خلافته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام، أنشأ سبلا بين مكة والمدينة ووفر بذلك على السالكين حمل الماء، قالت له أم حكيم بنت الحارث اتق الله يا عمر، فقام إليها أحد الحاضرين يريد لطمها، فمنعه عمر وقال له: دعها تقول، فوالله لا خير فيهم إن لم يقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها، كان عمر يقول: لو مات جمل ضياعا على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه، وكان يقول: أحب الناس إلي من أهدى إلي عيوبي، أجلى يهود خيبر إلى الشام ونصارى نجران إلى الكوفة وقال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، اغتاله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي غلام المغيرة بن شعبة في صبيحة يوم الأربعاء 25 ذو الحجة وهو يؤم الناس في صلاة الفجر، فمات ودفن إلى جانب أبي بكر في الروضة الشريفة التي دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله جعل الحق على لسان عمر، وقال أبو بكر إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر. ، توفي عن ثلا ث وستين من العمر.

، فَقَالَ لَهُ : أحَبُّ أنْ تعْلمَ عَنْ مَلأ ٍ مِنَ النَّاسِ كانَ هَذَا ؟ فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، فَجَعَلَ لا يَمُرُّ بِمَلإ ٍ مِنَ النَّاسِ إلا وَهُمْ يَبْكُونَ ، فَرَجَعَ إليْهِ ، فَقَالَ : يَا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ : مَا أتيْتُ عَلَى مَلإ ٍ مِنَ المُسْلِمِينَ إلا وَهُمْ يَبْكُونَ ، كأنَّمَا فَقدُوا اليَوْمَ أبكارَ أوْلادِهِمْ ، فَقَالَ : مَنْ قتَلَنِي ؟ قَالَ : أبُو لؤْلؤَةَ المَجُوسِيُّ عَبْدُ المُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَرَأيْتُ البِشْرَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : الحَمْدُ لِلهِ الذِي لمْ يَبْتَلِنِي بِقوْلِ أحَدٍ يُحَاجُّنِي بِقوْلِ : لا إلهَ إلا اللهُ ، أمَا إنِّي كنْتُ قدْ نَهَيْتُكمْ أنْ تجْلِبُوا إليْنَا مِنَ العُلوجِ أحَدًا ، فَعَصَيْتُمُونِي ، ثمَّ قَالَ : ادْعُوا لِي إخْوَانِي ، قَالُوا : وَمَنْ ؟ قَالَ : عُثمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلحَةُ ، وَالزُّبَيْرُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بن أبِي وَقاصٍ ، فَأرْسَلَ إليْهِمْ ، ثمَّ وَضَعَ رَأسَهُ فِي حَجْرِي ، فَلمَّا جَاءُوا ، قُلتُ : هَؤُلاءِ قدْ حَضَرُوا ، فَقَالَ : نعَمْ ، نظَرْتُ فِي أمْرِ المُسْلِمِينَ ، فَوَجَدْتُكمْ أيُّهَا السِّتَّةُ رُءُوسَ النَّاسِ ، وَقَادَتهُمْ ، وَلا يَكُونُ هَذَا الأ َمْرُ إلا فِيكُمْ ، مَا اسْتَقَمْتُمْ يَسْتَقِيمُ أمْرُ النَّاسِ ، وَإنْ يَكُنِ اخْتِلافٌ يَكُنْ فِيكُمْ ، فَلمَّا سَمِعْتُ ذِكرَ الاخْتِلافِ ، وَالشِّقَاقِ ظَنَنْتُ أنهُ كائِنٌ ، لأ َنهُ قَلَّ مَا قَالَ شَيْئًا إلا رَأيْتُهُ ، ثمَّ نزَفَ الدَّمَ ، فَهَمَسُوا بَيْنَهُمْ حَتَّى خَشِيتُ أنْ يُبَايِعُوا رَجُلا مِنْهُمْ ، فَقُلْتُ : إنَّ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ حَيٌّ بَعْدُ ، وَلا يَكُونُ خَلِيفَتَانِ يَنْظُرُ أحَدُهُمَا إلى الآخَرِ ، فَقَالَ : احْمِلُونِي ، فَحَمَلْنَاهُ ، فَقَالَ : تشَاوَرُوا ثلاثًا ، وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ صُهَيْبٌ ، قَالَ : مَنْ نُشَاوِرُ يَا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : شَاوِرُوا المُهَاجِرِينَ وَالأ َنصَارَ ، وسَرَاةَ مَنْ هُنَا مِنَ الأ َجْنَادِ ، ثمَّ دَعَا بِشَرْبَةٍ مِنْ لبَنٍ فَشَرِبَ ، فَخَرَجَ بَيَاضُ اللبَنِ مِنَ الجُرْحَيْنِ ، فَعُرِفَ أنهُ المَوْتُ ، فَقَالَ : الآنَ لوْ أنَّ لِيَ الدُّنيَا كلَّهَا لافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ المَطْلَعِ ، وَمَا ذَاكَ وَالحَمْدُ لِلهِ إنْ أكُونُ رَأيْتُ إلا خَيْرًا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَإنْ قُلتَ ذَلِكَ ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا ، ألَيْسَ قَدْ دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُعِزَّ اللهُ بِكَ الدِّينَ وَالمُسْلِمِينَ إذْ يَخَافُونَ بِمَكَّةَ ، فَلمَّا أسْلَمْتَ كانَ إسْلامُكَ عِزًّا ، وَظَهَرَ بِكَ الإ ِسْلامُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأصْحَابُهُ ، وَهَاجَرْتَ إلى المَدِينَةِ ، فَكَانَتْ هِجْرَتُكَ فَتْحًا ، ثمَّ لمْ تغِبْ عَنْ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قِتَالِ المُشْرِكِينَ مِنْ يَوْمِ كذَا وَيَوْمِ كذَا ، ثمَّ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، فَوَازَرْتَ الخَلِيفَةَ بَعْدَهُ عَلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَضَرَبْتَ مَنْ أدْبَرَ بِمَنْ أقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي الإ ِسْلامِ طَوْعًا أوْ كرْهًا ، ثمَّ قُبِضَ الخَلِيفَةُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، ثمَّ وُلِّيتَ بِخَيْرِ مَا وُلِّيَ النَّاسُ ، مَصَّرَ اللهُ بِكَ الأ َمْصَارَ ، وَجَبَى بِكَ الأ َمْوَالَ ، وَنَفَى بِكَ العَدُوَّ ، وَأدْخَلَ اللهُ بِكَ عَلَى كُلِّ أهْلِ بَيْتٍ مِنْ توَسُّعِهِمْ فِي دِينِهِمْ ، وتوَسُّعِهِمْ فِي أرْزَاقِهِمْ ، ثمَّ خَتَمَ لكَ بِالشَّهَادَةِ ، فَهَنِيئًا لكَ ، فَقَالَ : وَاللهِ إنَّ المغرورَ مَنْ تغُرُّونَهُ ، ثمَّ قَالَ : أتشْهَدُ لِي يَا عَبْدَ اللهِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : نعَمْ ، فَقَالَ : اللهُمَّ لكَ الحَمْدُ ، ألصِقْ خَدِّي بِالأ َرْضِ يَا عَبْدَ اللهِ ابْنَ عُمَرَ ، فَوَضَعْتُهُ مِنْ فَخِذِي عَلَى سَاقِي ، فَقَالَ : ألصِقْ خَدِّي بِالأ َرْضِ ، فَتَرَكَ لِحْيَتَهُ وَخَدَّهُ حَتَّى وَقَعَ بِالأ َرْضِ ، فَقَالَ : وَيْلكَ وَوَيْلَ أمِّكَ يَا عُمَرُ إنْ لمْ يَغْفِرِ اللهُ لكَ ، ثمَّ قُبِضَ رَحِمَهُ اللهُ ، فَلمَّا قُبِضَ أرْسَلُوا إلى عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ ،

فَقَالَ : لا آتِيكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ مُشَاوَرَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وسَرَاةِ مَنْ هَاهُنَا مِنَ الأَجْنَادِ ، قَالَ الْحَسَنُ : وَذُكِرَ لَهُ فِعْلُ عُمَرَ عِنْدَ مَوْتِهِ وخَشْيَتُهُ مِنْ رَبِّهِ ، فَقَالَ : هَكَذَا الْمُؤْمِنُ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً ، وَالْمُنَافِقُ جَمَعَ إساءةً وَغِرَّةً ، وَاللهِ مَا وَجَدْتُ فِيمَا مَضَى ، وَلا فِيمَا بَقِيَ عَبْدًا ازْدَادَ إِحْسَانًا إِلا ازْدَادَ مَخَافَةً وَشَفَقَةً مِنْهُ ، وَلا وَجَدْتُ فِيمَا مَضَى ، وَلا فِيمَا بَقِيَ عَبْدًا ازْدَادَ إساءةً ، إِلا ازْدَادَ غِرَّةً[17]

لقد اشتكى أبو لؤلؤة إلى أمير المؤمنين عمر أن سيده المغيرة بن شعبة يكلفه أكثر مما يستطيع، فرأى عمر أن دفع درهمين في اليوم ليس شيئا كثيرا على رجل يجيد ثلاث صنائع كأبي لؤلؤة، فبيّت العبد شرا، وأعد خنجرا له نصلان، ضرب به أمير المؤمنين وهو بين يدي ربه في الصلاة، فذهب شهيدا.

وبقي الحادث ليس أكثر من حقد وغل في قلب هذا العبد، إلا أنه كشف عن أخطار يمكن أن تأتي من جهة بعض الموالي الذين عاشوا في قلب دولة الإسلام بعد أن فتح المسلمون بلادهم ؛ لذا أسرع عبيد الله بن عمر في فورة الحزن على أبيه الراحل وقتل الهرمزان وجُفينة النصراني وابنةً لأبي لؤلؤة..

لقد كان مصرع الخليفة العادل مفاجأة محزنة للمسلمين، وسارة لغيرهم ممن وقفوا يقاومون الفاتحين، وفور سماع الفرس والروم خبر مقتل عمر ظنوا أن وفاته هي فرصتهم لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الفتوحات، لكنهم فشلوا في ذلك تماما.

****

17 - أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في السنن وابن حبان وأبو يعلى وغيرهم من طرق كثيرة فهو صحيح مشهور

خامسا- الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه[18]

[18] - إنه الصحابي الجليل عثمان بن عفان-رضي الله عنه-، بشره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، ووعده بالشهادة، ومات وهو راض عنه، وجهز جيش العسرة، وتزوج من ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم :، وكان ثالث الخلفاء الراشدين، واستشهد وهو يقرأ القرآن الكريم.
وقد ولد عثمان بعد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بست سنوات في بيت شريف، فأبوه عفان بن العاص صاحب المجد والكرم في قومه. وكان عثمان -رضي الله عنه- من السابقين إلى الإسلام، فحين دعاه أبو بكر إلى الإيمان بالله وحده، لبى النداء، ونطق بشهادة الحق.
ورغم ما كان يتمتع به عثمان -رضي الله عنه- من مكانة في قومه لا أنه تعرض للإيذاء من أجل إسلامه، وتحمل كثيرًا من الشدائد في سبيل دعوته، فقد أخذه عمه الحكم بن أبي العاص، وأوثقه برباط، وأقسم ألا يحله حتى يترك دينه، فقال له عثمان: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته وتمسكه بدينه؛ تركه وشأنه.
وكان عثمان من الذين هاجروا إلى الحبشة فارًا بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :، ثم هاجر إلى المدينة، وواصل مساندته للنبي (بكل ما يملك من نفس ومال.
ولما خرج المسلمون إلى بدر لملاقاة المشركين تمنى عثمان -رضي الله عنه- أن يكون معهم، ولكن زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضت، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبقى معها ليمرضها، وبعد أن انتصر المسلمون في المعركة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في توزيع الغنائم، فجعل لعثمان نصيبًا منها، ولكن زوجته رقية -رضي الله عنها- لم تعش طويلا ً، فماتت في نفس السنة التي انتصر فيها المسلمون في غزوة بدر.
وبعد وفاة رقية زوّج الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان من ابنته الأخرى أم كلثوم، ليجتمع بذلك الفضل العظيم لعثمان بزواجه من ابنتي الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقب بذي النورين.
ثم شهد عثمان-رضي الله عنه-مع النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا من المشاهد، وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة حينما أرادوا أداء العمرة ليخبر قريشًا أن المسلمين جاءوا إلى مكة لأداء العمرة، وليس من أجل القتال، ولكن المشركين احتجزوا عثمان بعض الوقت، وترددت إشاعة أنهم قتلوه، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ودعاهم إلى بيعته على قتال المشركين، فسارع الصحابة بالبيعة، وعرفت تلك البيعة ببيعة الرضوان، وعاد عثمان -رضي الله عنه-، وكان صلح الحديبية.
وفي المدينة رأى عثمان -رضي الله عنه- معاناة المسلمين من أجل الحصول على الماء في المدينة؛ حيث كانوا يشترون الماء من رجل يهودي يملك بئرًا تسمى رومة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "من يشتري بئر رومة فيجعل دلاءه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة" [الترمذي].
فذهب عثمان-رضي الله عنه-إلى ذلك اليهودي وساومه على شرائها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم، ثم خصص لنفسه يومًا ولليهودي يومًا آخر، فإذا كان يوم عثمان أخذ المسلمون من الماء ما يكفيهم يومين دون أن يدفعوا شيئًا، فلما رأى اليهود ذلك جاء إلى عثمان، وباع له النصف الآخر بثمانية آلاف درهم، وتبرع عثمان بالبئر كلها للمسلمين.
وفي غزوة تبوك، حثّ النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على الإنفاق لتجهيز الجيش الذي سمي بجيش العسرة لقلة المال والمؤن وبعد المسافة، وقال: "من جهز جيش العسرة فله الجنة" [الترمذي].
فبعث عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف دينار، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها ويدعو عثمان ويقول: "غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا" [ابن عساكر والدارقطني].
وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عن عثمان؛ فقال: "لكل نبي رفيق ورفيقي (يعني في الجنة) عثمان" [الترمذي].
وكان عثمان نعم العون لأبي بكر الصديق في خلافته، ومات وهو عنه راض، وكان كذلك مع عمر بن الخطاب حتى لقى عمر ربه، وقد اختاره عمر ضمن الذين رشحهم لتولي الخلافة من بعده، وبعد مشاورات بينهم تم اختياره ليكون الخليفة الثالث للمسلمين بعد عمر.
وظل عثمان خليفة للمسلمين ما يقرب من اثنتي عشرة سنة فكان عادلا ً في حكمه، رحيما بالناس، يحب رعيته ويحبونه، وكان يحرص على معرفة أخبارهم أولا ً بأول.
وعرف عثمان -رضي الله عنه- بالزهد والقناعة مع ما توفر من ثراء عظيم، ومال وفير، يقول عبد الملك بن شداد: رأيت عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يوم الجمعة على المنبر وعليه إزار عدني (من

لقد أسرع عثمان بن عفان رضي الله عنه بالاستجابة لصوت الحق الذي نادى به الرسول الهاشمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فما ترك عثمان الحقّ لأن الذي يدعوه إليه رجل من بني هاشم، الذين ينافسون عائلته على الشرف والرئاسة في مكة.

وظل عثمان رضي الله عنه طوال حياته في كتيبة الحق، ينشر معهم الخير، ويشيع الفضيلة، ويقاوم الوثنية والعصبية الجاهلية. وكم كان قريبا من النبي القائد صلى الله عليه وسلم وموضع ثقته طوال حياته، مجاهدا معه، وملاصقا له. وبعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم بقي عثمان قريبا من صاحبيه أبي بكر وعمر مساعدا ومستشارا أمينا.

وبعد وفاتهما جاء الدور على عثمان رضي الله عنه ليتولى بنفسه إمارة المؤمنين، متحملا هذه المسئولية الصعبة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية، وانفردت في العالم كأقوى قوة بشرية في هذا العصر.

لقد تولى الخليفة الراشد الثالث الأمرَ، وحَمَلَ الأمانة، وأعطى عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام، ومنهجُه في ذلك الرفق واللين، والعمل على راحة الرعية ، وإيثار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

عدن) غليظ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان-رضي الله عنه-يقيل (ينام وقت الظهيرة) في المسجد وهو يومئذ خليفة، وقد أثر الحصى بجنبه فنقول: هذا أمير المؤمنين! هذا أمير المؤمنين!

وقال شرحبيل بن مسلم: كان عثمان -رضي الله عنه- يطعم الناس طعام الإمارة، وعندما يدخل بيته كان يأكل الخل والزيت.

وكان رضي الله عنه يحث المسلمين على الجهاد، ويرغب فيه، قال يومًا وهو على المنبر: أيها الناس إني كتمتكم حديثًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية تفرقكم عني، ثم بدا لي أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يومًا فيما سواه من المنازل" [النسائي].

وواصل عثمان نشر الإسلام، ففتح الله على يديه كثيرًا من الأقاليم والبلدان، وتوسعت في عهده بلاد ا لإسلام، وامتدت في أنحاء كثيرة.

ومن فضائله -رضي الله عنه- وحسناته العظيمة، أنه جمع الناس على مصحف واحد، بعد أن شاور صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأتى بالمصحف الذي أمر أبو بكر -رضي الله عنه- زيد بن ثابت -رضي الله عنه- بجمعه، وكان عند السيدة حفصة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، ثم أمر بكتابة عدة نسخ ، فبعث واحدًا لأهل الشام وآخر لأهل مصر، وأرسل نسخة إلى كل من البصرة و اليمن.

فكان لعمله هذا فائدة عظيمة حتى يومنا هذا، وسميت تلك النسخ التي كتبها بالمصاحف الأئمة، ثم قام بحرق ما يخالفها من المصاحف، وأعجب الصحابة بما فعل عثمان، فقال أبو هريرة -رضي الله عنه - : أصبت ووفقت، وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- : لو لم يصنعه هو لصنعته.

وكان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- كثير العبادة، يداوم على قيام، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عثمان سوف يقتل مظلومًا وأنه من الشهداء، فذات يوم، صعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان جبل أحد، فاهتز الجبل بهم، فقال له النبي: "اسكن أحد، فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان" [البخاري].

وتحقق قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : وقتل عثمان -رضي الله عنه- ظلمًا، وهو يتلو آيات القرآن الكريم في يوم الجمعة (18) ذي الحجة سنة (35هـ).

وصلى عليه الزبير بن العوام ودفن ليلة السبت، وكان عمره يومئذ (82) سنة، وقيل غير ذلك، فرضي الله عنه.

وكان حياء عثمان رضي الله عنه الشهير مصحوبا بميل واضح نحو الرفق، وكراهية التشديد على الناس، وإن كان هذا مفيدا للنفوس السوية المستقيمة ، فإن النفوس النكدة التي لم تهذّب رغباتها وتطلعاتها بالدين، ولم تؤدّب سلوكياتها على ضوء الشريعة هذه النفوس تعده ضعفا وقلة خبرة..

لقد مرت الأعوام الستة الأولى من خلافة عثمان رضي الله عنه على خير وجه، حتى حقق المسلمون فيها الكثير من الإنجازات الرائعة، مثل: تثبيت الفتوحات في البلاد التي انتفضت عقب وفاة الفاروق عمر، وفتح بلاد جديدة، وبناء الأسطول الإسلامي..

أما ما بقى بعد ذلك من سنوات الخلافة الراشدة، فقد تحولت الريح الباردة الهادئة فيها من اعتراضات عادية إلى تمرد على الخليفة وولاته إلى عاصفة أخذت تتجمع شيئا فشيئا، وينادى بعضها بعضا حتى تحولت إلى إعصار كُتب على عثمان رضي الله عنه الخليفة الشيخ أن يواجهه وحده، في محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح، وارتفع بها تسامح الخليفة الشهيد وحكمته إلى القمة..!!

==============

الاعتراض على أمير المؤمنين عثمان

إن دور النصح الذي يجب على الأمة نحو أمرائها، ينبغي ألا يتحوّل إلى محرّك لأمواج الفتن؛ لأنها إذا ثارت لم تفرق بين الرعية والراعي، بل قد تقتلع في طريقها خيام الفقراء، وتدك منازل المعتزلين الذين يأبون الخوض في الفتن. وهذا شيء لم يراعه الذين أثاروا الاحتجاجات والاعتراضات في وجه الخليفة الجليل عثمان بن عفان، فلا صانوا هيبةَ الخلافةِ، ولا رَعَوْا أدب الخلاف، ولا حفظوا وحدة مجتمعهم وأمتهم!

وقد تلخصت اعتراضاتهم على الخليفة الراشدي[19] في أمور هي:

---

[19] - الاعتراض على الأمراء ليس جديدا في عهد عثمان رضي الله عنه ، وإنما بدأ منذ عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

فقد اعترض أهل حمص على واليه سعيد بن عامر

فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن خالد بن معدان قال: استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي ــ رضي الله عنه ــ. فلما قدم عمر بن الخطاب حمص قال: يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه ــ وكان يقال لأهل حمص الكُوَيفة الصغرى لشكايتهم العمال ــ قالوا: نشكوا أربعاً: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال: أعْظِم بها. قال: وماذا قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال: وعظيمة. قال: وماذا؟ قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا. قال: عظيمة. قال: وماذا ؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام ــ يعني تأخذه مُوتة ــ.

قال: فجمع عمر رضي الله عنه بينهم وبينه وقال: اللهمّ لا تفل رأيي فيه اليوم، ما تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال: والله إن كنت لأكره ذكره؛ ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم. فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال ما تقول؟ قال: إن كنت لأكره ذكره؛ إنّي جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عزّ وجلّ. قال: وما تشكون؟ قالوا: إنّ له يوماً في الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال: ما تقول؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبلها. قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام. قال: ما تقول؟ قال: شهدت مصرع خُبَيب الأنصاري رضي الله عنه بمكة، وقد بضّعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذعة فقالوا؛ أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أنّي في أهلي وولدي وأن محمداً

ادعاؤهم أنه عزل نفرا من الصحابة عن الإمارة، فصار ولاة عثمان من أقربائه الذين لم تكن لهم - أو لبعضهم على الأقل - سابقة ترفعهم إلى مستوى الولا ية على المسلمين!!!.

واتهامهم الأمويين باستغلال صلتهم وقرابتهم للخليفة، واستحواذِهم على

صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة، ثم نادى: يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم، وترْكي نُصرته في تلك الحال، وأنا مشرك لا أؤمن بـالله العظيم؛ إلا ظننت أن الله عزّ وجلّ لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً. قال: فتصيبني تلك الغنظة. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفل فراستي.

فبعث إليه بألف دينار وقال: إستعن بها على أمرك، فقالت إمرأته: الحمد لله الذي أعنانا عن خدمتك، فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها، قالت: نعم. فدعا رجلا ً من أهل بيته يثق به فصرّرها صرراً، ثم قال: إنطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى يتيم آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مُبتَلى آل فلان. فبقيت منها ذُهيبة. فقال: أنفقي هذه، ثم عاد إلى عمله. فقالت: ألا تشتري لنا خادماً؟ ما فعل ذلك المال. قال: سيأتيك أحوج ما تكونين.

واعترض أهل الكوفة على سعد رضي الله عنه وعلى المغيرة رضي الله عنه

فقد روى البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ - رضى الله عنه - فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا ، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّى ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّى قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّى كُنْتُ أُصَلِّى بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَا أَخْرِمُ عَنْهَا ، أُصَلِّى صَلاَةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِى الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِى الأُخْرَيَيْنِ . قَالَ ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ . فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً أَوْ رِجَالاً إِلَى الْكُوفَةِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ ، وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلاَّ سَأَلَ عَنْهُ ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا ، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِى عَبْسٍ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ ، وَلاَ يَعْدِلُ فِى الْقَضِيَّةِ . قَالَ سَعْدٌ أَمَا وَاللَّهِ لأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا ، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ ، أَصَابَتْنِى دَعْوَةُ سَعْدٍ . قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِى فِى الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ .

وكذلك ما فعله أهل البحرين

فقد أخرج البغوي من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال: استعمل عمر المغيرة على البحرين فكرهوه وشكوا منه فعزله فخافوا أن يعيده عليهم فجمعوا مائة ألف فأحضرها الدهقان إلى عمر فقال: إن المغيرة اختان هذه فأودعها عندي فدعاه فسأله فقال: كذب إنما كانت مائتي ألف فقال: وما حملك على ذلك؟ قال: كثرة العيال. فسقط في يد الدهقان فحلف وأكد الأيمان أنه لم يودع عنده قليلا ً و لا كثيراً فقال عمر للمغيرة: ما حملك على هذا؟ قال: إنه افترى علي فأردت أن أخزيه.

وفي البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله :

وفيها: حج بالناس عمر بن الخطاب، وكان عماله فيها على البلاد، وهم الذين كانوا في السنة قبلها.

وذكر: أن عمر عزل عماراً في هذه السنة عن الكوفة اشتكاه أهلها وقالوا: لا يحسن السياسة، فعزله وولى أبا موسى الأشعري، فقال أهل الكوفة: لا نريده، وشكوا من غلامه.

فقال: دعوني حتى أنظر في أمري، وذهب إلى طائفة من المسجد ليفكر من يولي. فنام من الهم، فجاءه المغيرة فجعل يحرسه حتى استيقظ.

فقال له: إن هذا الأمر عظيم يا أمير المؤمنين الذي بلغ بك هذا.

قال: وكيف وأهل الكوفة مائة ألف لا يرضون أمير المؤمنين، ولا يرضى عنهم أمير.

ثم جمع الصحابة واستشارهم هل يولي عليهم قوياً مشدداً أو ضعيفاً مسلماً؟

فقال له المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين، إن القوي قوته لك وللمسلمين وتشديده لنفسه، وأما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وإسلامه لنفسه.

فقال عمر للمغيرة - واستحسن ما قال له -: اذهب فقد وليتك الكوفة.

فرده إليها بعد ما كان عزله عنها بسبب ما كان شهد عليه الذين تقدم حدهم بسبب قذفه، والعلم عند الله عز وجل.

فالاعتراض وارد ، ولو كان في غير محله ، وقديم ، وليس جديدا كما يظن كثير من الناس

ما ليس لهم بحق، مما جعلهم يعترضون على سياسة الخليفة المالية !!!.
وموقف عثمان رضي الله عنه من بعض فضلاء الصحابة، كنفي أبى ذر ومنع عطاء ابن مسعود..
واجتهادات أمير المؤمنين عثمان الخاصة التي خالف فيها أبا بكر وعمر رضي الله عن الجميع.

===================

1-ولاة عثمان رضي الله عنه

إنما بلغت دولة الإسلام في خلافة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما الذروة في العزة، وكانت مضرب الأمثال في الفلاح الإنساني وسعادة المجتمع؛ لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يكتشفان بنور الله ـ عز وجل ـ خبايا السجايا في أهلها، وعناصر الرجولة في الرجال، فيوليانهم القيادة، ويبوئانهم مقاعد السيادة، ويأتمنانهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهما يعلمان أنهما مسئولان عن ذلك بين يدى الله ـ عز وجل.[20]
وقد سار على هذا النهج الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلم يولّ من أقاربه إلا من ولاه الخليفتان من قبله، أو ثبتت كفايته وتفوقه، فحققوا إنجازات ضخمة، ورفعوا راية الإسلام بما فتحوه من بلاد جديدة، وما قاموا به من نشر الأمن والعدل وتعاليم الإسلام في هذه البلاد المفتوحة، فعم ّ الرخاء ُ في جميع بلاد الإسلام، ونَعِمَ الناس ُ بالخيرات والثـراء الذي لم يشهـدوه من قبل.
ولما جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الخلافة ولّى هو أيضا من يثق فيه من أقاربه، ممن يراهم أهلا لتسيير الأمور فيما ولاهم عليه من البلا د.
وقد كانت ولاية الكوفة وولاية البصرة وولاية مصر صاحبة النصيب البارز في الاعتراض على أمير المؤمنين، أما ولاية الشام فكانت سياسة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فيها من الحكمة بمكان، حتى لم يرتفع منها صوت يعترض على عثمان ـ رضي الله عنه.
وتعدى الاعتراض أمراء الولايات ليشمل آخرين ممن ولاهم عثمان مسئوليات أخرى في الدولة الإسلامية، كمروان بن الحكم[21] الذي ولاه عثمان رضي الله

---

[20] - أخرج البخاري عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِ مَامُ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِى أَهْلِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْىَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِى مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . قَالَ فَسَمِعْتُ هَؤُلاَ ءِ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَأَحْسِبُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « وَالرَّجُلُ فِى مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »

[21] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 94)
12 - وأما قول القائلين في مروان والوليد فشديد عليهم ، وحكمهم عليهما بالفسق فسقٌ منهم .
مروان رجل عدل ، من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين . أما الصحابة فإن سهل بن سعد الساعدي روى عنه (1) . وأما التابعون فأصحابه في السن ، وإن جازهم باسم الصحبة في أحد

عنه الديوان.

===================

علي رضي الله عنه يولي أقاربه

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف بنظرته الملهَمة حب عثمان لأقاربه، كما عرف ذلك في علي رضي الله عنهما، وكان يخشى إن تولى أحدهما خلافة المسلمين أن يصل به بره بأهله إلى تفضيلهم على من سواهم وتقريبهم عمن عداهم، وحملهم على رقاب الناس، فحذرهما ذلك عند وفاته وفي وصيته لهما.[22]

غير أن عثمان رضي الله عنه بعد مضي فترة من خلافته، وعليا ـ رضي الله عنه ـ منذ بداية استخلافه ـ وليا أقاربهما، فولى علي في خلافته ابن عمه قثم بن العباس على مكة، وعبيـد الله بن العباس على اليمن، وعبد الله بن عباس أخاهما على البصرة، وولى ربيبه وابن زوجته محمد بن أبي بكر على مصر، وولى صهره وابن أخته جعدة بن هبيرة على خراسان، كما كان على عسكره ابنه محمد ابن الحنفية، وكان علي نفسه بالكوفة، وقد ناب عنه في الحج سنة ست وثلاثين عبد الله بن عباس، وسنة سبع وثلاثين قثم بن عباس، وسنة ثمان وثلاثين عبيد الله بن عباس، وهؤلاء أكثر ممن استعملهم

القولين (2) . وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه واعتبار خلافته ، والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم .

---

(1) وروايته عنه في صحيح البخاري وغيره .

(2) وفي طليعة من روى عنه من كبار التابعين زين العابدين بن علي بن الحسين السبط ، نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (2 : 123) ، والحافظ ابن حجر في الإصابة ، وترى تفصيله في طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي في ترجمة اللغوي الشهير أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر صاحب تهذيب اللغة (282 - 370) . وممن نص الحافظ ابن حجر على روايتهم عن مروان : سعيد بن المسيب رأس علماء التابعين ، وإخوانه من الفقهاء السبعة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعروة بن الزبير ، وأضرابهم كعراك بن مالك الغفاري المدني فقيه أهل دهلك وكان يصوم الدهر ، وكعبد الله بن شداد بن الهاد أحد الرواة عن عمر وعلي ومعاذ . وإن رواية عروة بن الزبير عن مروان في كتاب الوكالة من صحيح البخاري (ك 40 ب7 - ج3 ص 62) وفي مسند الإمام أحمد (الطبعة الأولى 4 : 321 و323 و326 و328 و5 : 189) . ورواية عراك عن مروان نقلها إمام أهل مصر الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب في مسند أحمد (4 : 328) ورواية عبد الله بن شداد بن الهاد عن مروان في مسند أحمد (7 : 317 و323) . والذي يتأمل الأحاديث المروية عن مروان يجد جملتها من الأئمة الثقات تتسلسل روايتهم عنه مدة جيلين وأكثر وكلهم أعلى مرتبة في الإسلام من الذين يبردون الغل الذي في قلوبهم بالطعن في مروان ومن هو خير من مروان ، بل في رواة أحاديث مروان عبد الرزاق إمام أهل اليمن وكانت فيه نزعة تشيع . وفي مسند أحمد (6 : 212) حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنه كان رسول مروان إلى أم المؤمنين أم سلمة في تحقيق بعض الأحكام الشرعية وفي 6 : 299 من مسند أحمد نموذج لعظيم عناية مروان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يمكن أن يصدر عن أئمة المسلمين وأمرائهم .

[22] - أخرج أبو داود عَنْ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ الْمُدْلِجِىِّ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ « خَيْرُكُمُ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ مَا لَمْ يَأْثَمْ »

فحب الأقارب إذا كان لا يخالف الشرع فغير مكروه بل محبوب ، وتوليتهم إذا كانوا أكفياء لا حرج فيها ،وإنما الكلام على الاعتراضات الموجهة لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

عثمان وهو يلي بلاد الإسلام كلها، مع أن عليا لما رفض معاوية وأهلُ الشام بيعته لم يكن يَحْكم سوى العراق والمشرق والحجاز، ولم يدم له حكم مصر ولا استقام له حكم الحجاز.

=================

ولاية الكوفة

كانت الكوفة من أعظم الأمصار شأنا في عصر الراشدين، اختطها سعد بن أبي وقاص لمائة ألف مقاتل، وكانت هذه المدينة أكثر الأمصار اعتراضا وشكاية في ولاتهم، فكانت أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الإسلام. فقد أتعبت هذه المدينة من قبل عمر بن الخطاب، فولى عليها ستة ولاة في فترة قصيرة ـ على الرغم من دقة عمر في اختياره وشدته في متابعة عماله ـ وكان أول وال عليها لعثمان: سعد بن أبي وقاص، لوصية عمر بذلك، فظل عليها سنة وأشهرا، ثم وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود عامل الخراج خلا ف، فعزل عثمانُ سعدًا، وولى مكانه الوليد بن عقبة سنة ست وعشرين، فظل أميرا عليها خمس سنين وليس على داره باب، وأدخل على أهل الكوفة خيرا كثيرا، فكان أحب الناس إليهم وأرفقهم بهم، حتى دبر له بعض المنحرفين منهم مؤامرة شهدوا فيها شهادة زور بأنه شرب الخمر، فأمر عثمان بجلده وعزله وولى مكانه سعيد بن العاص سنة ثلاثين. وحاول سعيد أن يقوم بعدة إصلاحات اجتماعية، نتج عنها انتشار الإشاعات على عثمان وولاته، ثم أحدثوا بعد ذلك أعمال شغب وتمرد انتهت بمنعهم سعيدا من دخول الكوفة، وعزلوه وولوا أبا موسى الأشعري مكانه، ثم خرج منهم بعد ذلك جماعة من المنحرفين على عثمان، فكان التغيير في الولاة استجابة سريعة لرغبات الناس وظروف إقليمهم، ولم يستعمل عثمان رضي الله عنه حقه في التغيير للولاة مُبادِئًا.

وهذا ما يسميه بعض الناس الذين تأثروا بالحضارة الغربية قمة الديمقراطية ،

ولكن الاستجابة لرغبات الناس قد لا تكون ذات نفع إذا لم تكن رغباتهم نابعة من الدين الحق ، والنظرة الصائبة ، والمصلحة العامة 0

===================

ولاية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على الكوفة[23]

[23] - إنه الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

وكان سعد قد رأى وهو ابن سبع عشرة سنة في منامه أنه يغرق في بحر الظلمات، وبينما هو يتخبط فيها، إذ رأى قمرًا، فاتبعه، وقد سبقه إلى هذا القمر ثلاثة، هم: زيد بن حارثة، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، ولما طلع الصباح سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى دين جديد؛ فعلم أن هذا هو القمر الذي رآه؛ فذهب على الفور؛ ليلحق بركب الساقين إلى الإسلام.

وتظهر روعة ذلك البطل عندما حاولت أمه مرارًا أن ترده عن طريق الإيمان عبثًا، فباءت محاولاتها بـ الفشل أمام القلب العامر بالإيمان، فامتنعت عن الطعام والشراب، ورفضت أن تتناول شيئًا منه، حتى يرجع ولدها سعد عن دينه، ولكنه قال لها: أماه إنني أحبك، ولكن حبي لله ولرسوله أكبر من أي حب آخر.

وأوشكت أمه على الهلاك، وأخذ الناس سعدًا ليراها عسى أن يرق قلبه، فيرجع عما في رأسه، فيقول لها سعد: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني فإن شئت كلي، وإن شئت لا تأكلي، وعندها أدركت الأم أن ابنها لن يرده عن دينه شيء؛ فرجعت عن عزمها، وأكلت، وشربت لينزل وحي الله -عز وجل- يبارك ما فعل سعد، قال تعالى: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) [لقمان: 15].
ولازم سعد -رضي الله عنه- رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر مع المسلمين ليكون بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في محاربة المشركين، ولينال شرف الجهاد في سبيل الله، وحسبه أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله وأول من أراق دماء الكافرين، فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها
سعد بن أبي وقاص إلى مكان في أرض الحجاز اسمه سابغ، وهو من جانب الجحفة، فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ بسهامه، فكان أول قتال في الإسلام.
ويوم أحد، وقف سعد يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :، ويحارب المشركين، ويرميهم حتى نالته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين رآه فسر منه وقال: "يا سعد، ارم فداك أبي وأمي" [متفق عليه]، فكان سعد يقول: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد قبلي، وكانت ابنته عائشة بنت سعد تباهي بذلك وتفخر، وتقول: أنا ابنة المهاجر الذي فداه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بالأبوين.
وذات يوم، مرض سعد، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوره، ويطمئن عليه؛ فتساءل سعد قائ لا ": إن قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا، فقال سعد: بالشطر (نصفه)، قال النبي صلى الله عليه وسلم لا. ثم قال صلى الله عليه وسلم : "الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فيّ (فم) امرأتك" [متفق عليه]، وقد رزق الله سعدًا الأبناء، فكان له إبراهيم، وعامر، وعمر، ومحمد، وعائشة.
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سعدًا، فعن جابر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :، إذ أقبل سعد، فقال صلى الله عليه وسلم : "هذا خالي، فليرني امرؤ خاله" [الترمذي و الطبراني وابن سعد].
وكان سعد مستجاب الدعوة أيضًا، فقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: "اللهم استجب لسعد إذا دعاك" [الترمذي].
وعين سعد أميرًا على الكوفة، أثناء خلافة الفاروق عمر -رضي الله عنه- الذي كان يتابع ولاته ويتقصى أحوال رعيته، وفي يوم من الأيام اتجه عمر -رضي الله عنه- إلى الكوفة ليحقق في شكوى أهلها أن سعدًا يطيل الصلاة، فما مر عمر بمسجد إلا وأحسنوا فيه القول، إلا رجلا واحدًا قال غير ذلك، فكان مما افتراه على سعد: أنه لا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية -يخرج بـ الجيش- فدعا سعد عليه قائلا ": اللهم إن كان كاذبًا، فأعم بصره، وأطل عمره، وعرضه للفتن، فكان ذلك الرجل يمشي في الطريق، ويغمز الجواري، وقد سقط حاجباه من عينيه لما سئل عن ذلك قال: شيخ مفتون، أصابته دعوة سعد.
وذات يوم سمع سعد رجلا ً يسب عليًا وطلحة والزبير، فنهاه فلم ينته، فقال سعد للرجل: إذن أدعو عليك؛ فقال الرجل: أراك تتهددني كأنك نبي؛ فانصرف سعد، وتوضأ، وصلى ركعتين، رفع يديه، وقال: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى؛ وأنه قد أسخطك سبه إياهم؛ فاجعله آية وعبرة؛ فلم يمر غير وقت قصير حتى خرجت ناقة هوجاء من أحد البيوت، وهجمت على الرجل الذي سب الصحابة؛ فأخذته بين قوائمها، وما زالت تتخبط حتى مات.
وحينما اشتد خطر الفرس على حدود الدولة الإسلامية أرسل إليهم الخليفة
عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جيشًا بقيادة سعد بن أبي وقاص، ليقابلهم سعد في معركة القادسية، واشتد حصار المسلمين على الفرس وأعوانهم، حتى قتل الكثير منهم، وعلى رأسهم القائد رستم، ودب الرعب في باقي جنود الفرس، فكان النصر العظيم للمسلمين يوم القادسية، ولم يكن لسعد هذا اليوم فقط في قتال الفرس، بل كان هناك يوم مجيد آخر للمسلمين تحت قيادته، في موقعة المدائن؛ حيث تجمع الفرس في محاولة أخيرة للتصدي لزحف المسلمين، وأدرك سعد أن الوقت في صالح الفرس، فقرر أن يهاجمهم فجأة، وكان نهر دجلة قد امتلأ عن آخره، في وقت الفيضان، فسبحت خيول المسلمين في النهر وعبرته إلى الضفة الأخرى لتقع المواجهة، ويحقق المسلمون نصرًا كبيرًا.
وعندما طعن أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، اختار عمر ستة من المسلمين ليتم

من السمات الواضحة في حكم الراشدين حرصهم على مصلحة الأمة حتى آخر أنفاسهم في الحياة، ولا يشغلهم عن ذلك ثقل الموت وشدته، فأبو بكر رضي اللّه عنه يوصي في لحظاته الأخيرة بدعم الجيوش المجاهدة على جبهة العراق، وعمر رضي اللّه عنه يوصي وهو يودع الدنيا باختيار خليفة من بين من بقي من كبار أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم وبأن يتولى سعد بن أبي وقاص أمر الكوفة؛ لأنه حين عزله من قبل لم يعزله عن عجز أو خيانة، وذكر هذا في وصيته ليدفع عنه أي تهمة.

فاستجاب عثمان رضي اللّه عنه لوصية عمر رضي اللّه عنه ، وسارع في تنفيذها، فكان أول عامل استعمله وبعث به إلى الكوفة، وعزل المغيرة بن شعبة، وجعل مع سعد عبد اللّه بن مسعود على الخراج. وقد حدث خلاف بين سعد وابن مسعود[24] حول دَيْنٍ لبيت المال كان على سعد، فلما رُفع إلى

اختيار خليفة منهم، وأخبر عمر أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم مات وهو عنهم راض، وكان من هؤلاء الستة سعد بن أبي وقاص -رضي اللّه عنه-، حتى قال عمر: لو كنت مختارًا للخلافة واحدًا، لاخترت سعدًا، وقال لمن حوله: إن وليها سعد فذاك، وإن وليها غيره فليستعن بسعد، فكان عثمان بن عفان يستعين به في كل أموره.

وحدثت الفتنة آخر أيام الإمام علي -رضي اللّه عنه- فكان سعد بعيدًا عنهم؛ واعتزلها، وأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها.

وعندما جاءه ابنه عامر يطلب منه أن يقاتل المتحاربين ويطلب الخلافة لنفسه، قال سعد في شفافية المسلم الصادق: أي بني، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا واللّه حتى أعطي سيفًا، إن ضربت به مسلمًا نبا عنه (أي لم يصبه بأذى)، وإن ضربت به كافرًا قتله، ولقد سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: "إن اللّه يحب الغني الخفي التقي" [أحمد ومسلم].

وفي سنة (55هـ) أوصى سعد أهله أن يكفوه في ثوب قديم، كان عنده، وياله من ثوب يشرف به أعظم أهل الأرض، قال لهم: لقد لقيت المشركين فيه يوم بدر، ولقد ادخرته لهذا اليوم.

وتوفي رحمة اللّه عليه بالعقيق، فحمل على الأعناق إلى المدينة، ودفن بها ليكون آخر من مات من العشرة المبشرين بالجنة وآخر من مات من المهاجرين -رضي اللّه عنهم-.

[24] - إنه الصحابي الجليل عبد اللّه بن مسعود -رضي اللّه عنه-، كان مولى لعقبة بن أبي معيط، يرعى غنمه في شعاب مكة، فمرّ عليه النبي صلى اللّه عليه وسلم ومعه الصديق -رضي اللّه عنه- ذات يوم، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم (يا غلام هل من لبن؟).

فقال عبد اللّه: نعم، ولكني مؤتمن، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : (فهل من شاة حائل لم ينز عليها الفحل). فقال: نعم، ثم أعطاه شاة ليس في ضرعها لبن، فمسح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ضرعها بيده الشريفة، وهو يتمتم ببعض الكلمات، فنزل اللبن بإذن اللّه، فحلبه الرسول صلى اللّه عليه وسلم بيده في إناء، وشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال النبي صلى اللّه عليه وسلم للضرع: (اقلص)، فجف منه اللبن، فقال عبد اللّه في دهشة وتعجب: علمني من هذا القول الذي قلته. فنظر إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في رفق ومسح على رأسه، وصدره وقال له: (إنك غليّم معلم)، ثم تركه وانصرف. [أحمد].

سرت أنوار الهداية في عروق ابن مسعود، فعاد إلى سيده بالغنم، ثم أسرع إلى مكة يبحث عن ذلك الرجل وصاحبه حتى وجده، وعرف أنه نبي مرسل، فأعلن ابن مسعود إسلامه بين يديه، وكان بذلك سادس ستة يدخلون في الإسلام، وذات يوم، اجتمع أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقالوا: و اللّه ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقام عبد اللّه، وقال: أنا. فقالوا له: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا ً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني، فإن اللّه سيمنعني. ثم ذهب إلى الكعبة، وكان في وقت الضحى، فجلس ورفع صوته بالقرآن، وقرأ مسترسلا ً: {بسم اللّه الرحمن الرحيم. الرحمن . علم القرآن} [الرحمن: 1-2]، فنظر إليه أهل مكة في تعجب ودهشة، فمن يجرؤ على أن يفعل ذلك في ناديهم؟ وأمام أعينهم؟! فقالوا في دهشة: ماذا يقول ابن أم عبد؟!

ثم أنصتوا جيدًا إلى قوله، وقالوا في غضب: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، ثم قاموا إليه، وضربوه ضربًا شديدًا، وهو يستمر في قراءته حتى أجهده الضرب، وبلغ منه الأذى مبلغًا عظيمًا، فكفّ عن القراءة، فتركه أهل مكة وهم لا يشكون في موته، فقام إليه أصحابه، وقد أثر الضرب في وجهه وجسده، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا (أي أفعل ذلك مرة أخرى)، قالوا: لا، لقد أسمعتهم ما يكرهون.
وهاجر ابن مسعود الهجرتين، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين الزبير بن العوام -رضي الله عنه- في المدينة، وكان ابن مسعود من أحرص المسلمين على الجهاد في سبيل الله، شارك في جميع غزوات المسلمين، ويوم بدر ذهب عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبشرًا له، وقال: يا رسول الله، أني قتلت أبا جهل، ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم :، ووهبه سيف أبي جهل مكافأة له على ذلك.
وكان ابن مسعود أعلم أصحاب رسول الله بقراءة القرآن، ومن أنداهم صوتًا به، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل) [البخاري].
وقال صلى الله عليه وسلم : (من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) [البزار].
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سماع القرآن منه، فقال له ذات مرة: (اقرأ عليّ)، فقال عبد الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (أني أحب أن أسمعه من غيري)، فقرأ ابن مسعود من سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا} [النساء: 14]، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (حسبك الآن) [البخاري].
وكان ابن مسعود يقول: أخذت من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة. وكان يقول عن نفسه كذلك: أني لأعلم الصحابة بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، وما في كتاب الله سورة ولا آية إلا وأنا أعلم فيما نزلت ومتى نزلت.
وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، وحضر ذلك عبد الله بن مسعود، فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل.
وقال حذيفة -رضي الله عنه-: لقد علم المحفظون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن مسعود كان من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة، وأعلمهم بكتاب الله. وكان عبد الله شديد الحب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وظل ملازمًا للنبي (، يسير معه حيث سار، يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، يلبسه نعله، ويوقظه إذا نام، ويستره إذا اغتسل.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويقربه منه، ويدنيه ويقول له: (إذنك عليّ أن يرفع الحجاب، وأن تستمع سوادي (أسراري) حتى أنهاك) [مسلم]. فسمي عبد الله بن مسعود منذ ذلك اليوم بصاحب السواد والسواك، وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكان يقول عنه: لو كنت مؤمرًا أحدًا (أي مستخلفًا أحدًا) من غير مشورة منهم لأمرت (أي استخلفت) عليهم ابن أم عبد) [الترمذي].
وقال صلى الله عليه وسلم : (وتمسكوا بعهد ابن مسعود) _[الترمذي]، وروي عنه (أنه قال: (رضيت لأ متي ما رضي لها ابن أم عبد) [الحاكم].
ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فلما رأى أصحابه ساقيه ضحكوا، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما تضحكون؟ لرِجْلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد)[أحمد وابن سعد وأبو نعيم].
وفي خلافة الفاروق -رضي الله عنه- أرسل عمر إلى أهل الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما-، وقال: عمار أمير، وابن مسعود معلم ووزير، ثم قال لأهل الكوفة: لقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي. وجاء رجل من أهل الكوفة إلى عمر في موسم الحج، فقال له: يا أمير المؤمنين، جئتك من الكوفة، وتركت بها رجلا ً يحكى المصحف عن ظهر قلب. فقال عمر: ويحك؛ ومن هو؟ فقال الرجل: هو عبد الله بن مسعود. فقال عمر: والله، ما أعلم من الناس أحدًا هو أحق بذلك منه.
وكان عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عالما حكيمًا، ومن أقواله المأثورة قوله: أيها الناس، عليكم ب الطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة. وكان -رضي الله عنه- يقول: أني لأمقت (أكره) الرجل إذ أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة.

عثمان عزل سعدا وولى على الكوفة الوليدَ بن عقبة[25].

ولاية الوليد بن عقبة[26]

وعندما مرض عبد الله بن مسعود مرض الموت، دخل عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يزوره، وقال له: أنأمر لك بطبيب؟ فقال عبد الله: الطبيب أمرضني. فقال عثمان: نأمر لبناتك بمال، وكان عنده تسع بنات، فقال عبد الله: لا، أني علمتهن سورة، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه الفاقة أبدًا) [ابن عساكر].
ويلقى ابن مسعود ربه على ذلك الإيمان الصادق، واليقين الثابت، طامعًا فيما عند الله، زاهدًا في نعيم الدنيا الزائف، فيموت -رضي الله عنه- سنة (32 هـ)، وعمره قد تجاوز (60) عامًا ويدفن بالبقيع. وقد روى ابن مسعود -رضي الله عنه- كثيرًا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :، وروى عنه بعض الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم-.

[25] - وفي البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 208)
وكان سبب عزل سعد أنه اقترض من ابن مسعود مالا ً من بيت المال، فلما تقاضاه به ابن مسعود ولم يتيسر قضاؤه تقاولا، وجرت بينهما خصومة شديدة، فغضب عليهما عثمان فعزل سعداً واستعمل الوليد بن عقبة - وكان عاملا ً لعمر على عرب الجزيرة - فلما قدمها أقبل عليه أهلها فأقام بها خمس سنين، وليس على داره باب، وكان فيه رفق برعيته.

[26] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 93)
11 - وأما تولية الوليد بن عقبة فإن الناس - على فساد النيات - أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات . فذكر الافترائيون أنه إنما ولاه للمعنى الذي تكلم به . قال عثمان : ما وليت الوليد لأنه أخي (1) ، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوأمة أبيه . وسيأتي بيانه إن شاء الله (2) .
والولايةُ اجتهاد (3) ، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص وقدم أقل منه درجة (4) .

---

(1) هو أخوه لأمه أروى بنت كريز ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .
(2) قد يظن من لا يعرف صدر هذه الأمة أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولاه الكوفة . أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله فيعلمون أن دولة الإسلام الأولى في خلافة أبي بكر تلقفت هذا الشاب الماضي العزيمة الرضيّ الخلق الصادق الإ يمان فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن توفي أبو بكر ، وأول عمل له في خلافة أبي بكر أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة 12 (الطبري 4 : 7) ، ثم وجهه مددا إلى قائده عياض بن غنم الفهري (الطبري 4 : 22) . وفي سنة 13 كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة ، ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد ، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد بن عقبة قائدا إلى شرق الأردن (الطبري 4 : 29 - 30) ، ثم رأينا الوليد في سنة 15 أميرا على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة (الطبري 4 : 155) يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام لئلا يؤتوا من خلفهم ، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ مسلمهم وكافرهم . وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه الجهة التي كانت لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان - مع جهاده الحربي وعمله الإداري - داعيا إلى الله يستعمل جميع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب . وهربت منه إياد إلى الأنضول وهو تحت حكم البيزنطيين ، فحمل الوليدُ خليفته عمرَ على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردهم إلى حدود الدولة الإسلامية ، حاولت تغلب أن تتمرد على الوليد في نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها ، فغضب غضبته المضرية المؤيدة بالإيمان الإسلامي ، وقال فيهم كلمته المشهورة : إذا ما عصبتُ الرأسَ مني بمشوذ فغيّكِ مني تغلب ابنة وائل وبلغت هذه الكلمة عمر ، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب فيفلت من يده زمامهم في الوقت الذي يحاربون فيه مع المسلمين حمية للعروبة ، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم . وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة له ، وكان من خير ولاتها عدلا ورفقا وإحسانا ، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة على ما سنذكره فيما بعد .

(3) للمؤلف في أواخر هذا الكتاب ص 243 فصل عنوانه (نكتة) أشار فيه إلى المعاني والحقائق التي يلاحظها ولي الأمر عند « اجتهاده » في تولية الولاة وعزلهم ، وذلك لفقه عظيم ومعارف بديعة بينها أئمة الإسلام وعلماؤه في الفصول التي عقدوها للإمامة وسياسة الدولة وفي كتبهم المصنفة في أصول الدين . وقد زعم طاغية الشيعة ومدلسهم الحسن بن المطهر الحلي في كتابه منهاج الكرامة أن عثمان ولى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية ، فأجابه شيخ الإسلام ابن تيمية في (منهاج السنة 3 : 173 - 176 والمنتقى منه للذهبي 382 - 383) أن عليا - رضي الله عنه - ولى زياد بن أبي سفيان وولى الأشتر النخعي وولى محمد بن أبي بكر وأمثال هؤلاء ، ولا يشك عاقل أن معاوية بن أبي سفيان كان خيرا من هؤلاء كلهم . قال : ومن العجب أن الشيعة ينكرون على عثمان أنه ولى أقاربه من بني أمية ، ومعلوم أن عليا ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه ، فولى عبيد الله بن عباس على اليمن ، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس ، وأما المدينة فقيل إنه ولى عليها سهل بن حنيف وقيل ثمامة بن العباس ، وأما البصرة فولى عليها عبد الله بن عباس ، وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره (لأنه تزوج أمه بعد وفاة أبي بكر وكان محمد صغيرا) . ثم إن الإمامية تدعي أن عليا نص على أولاده في الخلافة - أو على ولده ، وولده على ولده الآخر وهلم جرا - ومن المعلوم إن كان تولية الأقربين منكرا ، فتولية الخلافة العظمى أولى من إمارة بعض الأعمال . . . وإذا قال القائل : لعليّ حجة فيما فعله ، قيل له : وحجة عثمان فيما فعله أعظم . وإذا ادعى لعلي العصمة ونحوها مما يقطع عنه ألسنة الطاعنين ، كان ما يدعى لعثمان من « الاجتهاد » الذي يقطع ألسنة الطاعنين أقرب إلى المعقول والمنقول . . . ثم قال : إن بني أمية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعملهم في حياته ، واستعملهم بعده من لا يتهم بقرابة فيهم : أبو بكر وعمر ، ولا تعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من بني عبد شمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل النبي صلى الله عليه وسلم في عزة الإسلام على أفضل الأرض مكة عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج وعلى صنعاء واليمن حتى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وقرى عرينة ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ثم استعمله على البحرين فلم يزل عليها بعد العلاء الحضرمي (حليف بني أمية) حتى توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول عثمان : أنا لم أستعمل إلا من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم ومن جنسهم ومن قبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده . . . فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بني أمية بالنص الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة في واحد معين من بني هاشم بالنص ، لأن هذا كذب باتفاق أهل العلم بالنقل ، وذلك صدق باتفاق أهل العلم بالنقل (وانظر أيضا منهاج السنة 3 : 236 - 237) . والذي يستعرض حياة عمال عثمان وجهادهم وفضائلهم يراهم في الذروة العليا من رجال الدولة ، ولا يتردد في أنهم من بناة الأساس الأقوم من مجد الإسلام الإداري والعسكري ، ولهم ثواب نتائجه في الفتوح وانتشار دعوة الإسلام بما يعده التاريخ من معجزاته الخارقة للعادات .
(4) كان ذلك سنة 21 ، والذين تولوا بعد سعد : عبد الله بن عبد الله بن عتبان (وفي زمانه كانت وقعة نهاوند) ثم زياد بن حنظلة (وألح في الاستعفاء فأعفي) وولي بعدهما عمار بن ياسر (الطبري 4 : 246 وما قبلها) .

وأما حده في الخمر ، فقد حد عمر قدامة بن مظعون على الخمر وهو أمير وعزله ، وقيل إنه صالحه (1) .

وليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة (2) .

---

(1) قدامة بن مظعون الجمحي أحد السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين وشهد بدرا ، وكان صهر أمير المؤمنين عمر على أخته ، وقيل بل هو خال أم المؤمنين حفصة بنت عمر وأخيها عبيد الله . وفي إمارة قدامة على البحرين في خلافة عمر قدم الجارود سيد بني عبد القيس على عمر من البحرين وادعى أن قدامة شرب فسكر . فقال له عمر : من يشهد معك ؟ قال : أبو هريرة . فاستشهد أبا هريرة فقال : لم أره شرب ، ولكني رأيته سكران يقيء فقال له عمر : لقد تنطعت في الشهادة . واستقدم قدامة من البحرين ، فقال الجارود لعمر : أقم على هذا كتاب الله ، فقال له عمر : أخصم أنت أم شهيد ؟ فقال : شهيد . فقال عمر : قد أديت شهادتك . فصمت الجارود . ثم غدا على عمر فقال : أقم على هذا حد الله . فقال عمر : لتمسكن لسانك أو لأسوأنك . فقال : يا عمر ، ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءني . ثم جيء بزوجة لقدامة فأقامت الشهادة على زوجها . وأراد عمر أن يقيم عليه

الحد . فقال له الصحابة : لا نرى أن تحده ما دام مريضا ، ثم عاوده فقالوا له كما قالوا من قبل فقال عمر : لأن يلقى الله تحت السياط أحب إلي من أن ألقاه وهو في عنقي ، وجلده . فغاضبه قدامة . وعند قفولهما من الحج جيء به إلى عمر فكلمه عمر واستغفر له . ومن حسن حظ قدامة بن مظعون أنه قرشي من بني جمح . ولو أنه كان قرشيا من بني عبد شمس لانطلقت ألسنة السوء بالبذاءة عليه واختراع الأكاذيب فيه ما دام في الدنيا كذب .

(2) هذا حق ، ولكن في مثل ما تقدم عن قدامة بن مظعون ، وفي مثل ما هو مشهور عند الناس عن أبي محجن الثقفي الشاعر الفارس الذي كان له يوم أغر في حرب القادسية . أما الوليد بن عقبة المجاهد الفاتح العادل المظلوم (الذي كان منه لأمته كل ما استطاعه من عمل طيب ، ثم رأى بعينه كيف يبغي المبطلون على الصالحين وينفذ باطلهم فيهم ، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان في ضيعة له منقطعة عن صخب المجتمع ، وهي تبعد خمسة عشر ميلا عن بلدة الرقة من أرض الجزيرة التي كان يجاهد فيها ويدعو نصاراها إلى الإسلام في خلافة عمر) فقد آن لدسائس الكذابين فيه أن ينكشف عنها عوارها . ولا يضير هذا الرجل أن يتأخر انكشاف الحق فيه ثلاثة عشر قرنا ، فإن الحق قديم ولا يؤثر في قدمه احتجابه . أراد الوليد بن عقبة - منذ ولي الكوفة لأمير المؤمنين عثمان - أن يكون الحاكم المثالي في العدل والنبل والسيرة الطيبة مع الناس ، كما كان المحارب المثالي في جهاده وقيامه للإسلام بما يليق بالذائدين عن دعوته ، الحاملين لرايته ، الناشرين لرسالته . وقد لبث في إمارته على الكوفة خمس سنوات وداره - إلى اليوم الذي زايل فيه الكوفة - ليس لها باب يحول بينه وبين الناس ممن يعرف أو لا يعرف ، فكان يغشاها كل من شاء ، متى شاء ، من ليل أو نهار ، ولم يكن بالوليد حاجة لأن يستتر عن الناس : فالستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر وكان ينبغي أن يكون الناس كلهم محبين لأميرهم الطيب لأنه أقام لغربائهم دور الضيافة ، وأدخل على الناس خيرا حتى جعل يقسم المال للولائد والعبيد ، ورد على كل مملوك من فضول الأموال في كل شهر ما يتسعون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم . وبالفعل كانت جماهير الشعب متعلقة بحب هذا ا لأمير المثالي طول مدة حكمه . إلا أن فريقا من الأشرار وأهل الفساد أصاب بنيهم سوط الشريعة بـ العقاب على يد الوليد ، فوقفوا حياتهم على ترصد الأذى له . ومن هؤلاء رجال يسمى أحدهم أبا زينب بن عوف الأزدي ، وآخر يسمى أبا مورع ، وثالث اسمه جندب أبو زهير ، قبضت السلطات على أبنائهم في ليلة نقبوا بها على ابن الحيسمان داره وقتلوه ، وكان نازلا بجواره رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل السابقة في الإسلام وهو أبو شريح الخزاعي حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش خزاعة يوم فتح مكة فجاء هو وابنه من المدينة على الكوفة ليسيرا مع أحد جيوش الوليد بن عقبة التي كان يواصل توجيهها نحو الشرق للفتوح ونشر دعوة الإسلام ، فشهد هذا الصحابي وابنه في تلك الليلة سطو هؤلاء الأشرار على منزل ابن الحيسمان ، وأدى شهادته هو وابنه على هؤلاء القتلة السفاحين ، فأنفذ الوليد فيهم حكم الشريعة على باب القصر في الرحبة ، فكتب آباؤهم العهد على أنفسهم للشيطان بأن يكيدوا لهذا الأمير الطيب الرحيم . وبثوا عليه العيون والجواسيس ليترقبوا حركاته ، وكان بيته مفتوحا دائما . وبينما كان عنده ذات يوم ضيف له من شعراء الشمال كان نصرانيا في أخواله من تغلب بأرض الجزيرة وأسلم على يد الوليد ، فظن جواسيس الموتورين أن هذا الشاعر الذي كان نصرانيا لا بد أن يكون ممن يشرب الخمر ولعل الوليد أن يكرمه بذلك فنادوا أبا زينب وأبا المورع وأصحابهما ، فاقتحموا الدار على الوليد من ناحية المسجد ، ولم يكن لداره باب ، فلما فوجئ بهم نحى شيئا أدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه بلا إذن من صاحب الدار ، فلما أخرج ذلك الشيء من تحت السرير إذا هو طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه الوليد استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون من الخجل ، وسمع الناس بالحكاية فأقبلوا يسبونهم ويلعنونهم . وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان وسكت عن ذلك وصبر . ثم تكررت مكايد جندب وأبي زينب وأبي المورع ، وكانوا يغتنمون كل حادث فيسيئون تأويله ويفترون الكذب . وذهب بعض الذين كانوا عمالا في الحكومة ونحاهم الوليد عن أعمالهم لسوء سيرتهم فقصدوا المدينة وجعلوا يشكون الوليد لأمير المؤمنين عثمان ويطلبون منه عزله عن الكوفة . وفيما كان هؤلاء في المدينة دخل أبو زينب وأبو المورع دار الإمارة بالكوفة مع من يدخلها من غمار الناس وبقيا فيها إلى أن تنحى الوليد ليستريح ، فخرج بقية القوم ، وثبت أبو زينب وأبو المورع إلى أن تمكنا من سرقة خاتم الوليد من داره وخرجا . فلما استيقظ الوليد لم يجد خاتمه ، فسأل عنه زوجتيه - وكانتا في مخدع تريان منه زوار الوليد من وراء ستر - فقالتا : إن آخر من بقي في الدار رجلان ، وذكرتا صفتهما وحليتهما للوليد ، فعرف أنهما أبو زينب وأبو المورع ، وأدرك أنهما لم يسرقا الخاتم إلا لمكيدة بيّتاها ، فأرسل في طلبهما فلم يوجدا في

عزل عثمان سعدَ بن أبي وقاص عن الكوفة، لا شكًا في أمانته أو كفايته،

الكوفة ، وكانا قد سافرا توا إلى المدينة ، وتقدما شاهدين على الوليد بشرب الخمر (وأكبر ظني أنهما استلهما شهادتهما المزورة من تفاصيل الحادث الذي سبق وقوعه لقدامة بن مظعون في خلافة عمر) فقالا كنا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر . فقال عثمان : ما يقيء الخمر إلا شاربها . فجيء بالوليد من الكوفة فحلف لعثمان وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : « نقيم الحدود . ويبوء شاهد الزور بالنار » . هذه قصة اتهام الوليد بالخمر كما في حوادث سنة 30 من تاريخ الطبري ، وليس فيها - على تعدد مصادرها القديمة - شيء غير ذلك . وعناصر الخبر عند الطبري أن الشهود على الوليد اثنان من الموتورين الذين تعددت شواهد غلهم عليه ، ولم يرد في الشهادة ذكر الصلاة من أصلها فضلا عن أن تكون اثنتين أو أربعا . وزيادة ذكر الصلاة هي الأخرى أمرها عجيب ، فقد نقل خبرها عن الحضين بن المنذر (أحد أتباع علي) أنه كان مع علي عند عثمان ساعة أقيم الحد على الوليد ، وتناقل الناس عنه هذا الخبر فسجله مسلم في صحيحه (كتاب الحدود ب8 ح38 - ج5 ص126) بلفظ « شهدتُ عثمان بن عفان وأتي بالوليد قد صلى الصبح (ركعتين) ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ » . فالشاهدان لم يشهدا بأن الوليد صلى الصبح ركعتين وقال أزيدكم ، بل شهد أحدهما بأنه شرب الخمر وشهد الآخر بأنه تقيأ . أما صلاة الصبح ركعتين وكلمة أزيدكم فهي من كلام حضين ، ولم يكن حضين من الشهود ، ولا كان في الكوفة في وقت الحادث المزعوم ، ثم إنه لم يسند هذا العنصر من عناصر الاتهام إلى إنسان معروف . ومن العجيب أن نفس الخبر الذي في صحيح مسلم وارد في ثلاثة مواضع من مسند أحمد مرويا عن حضين ، والذي سمعه من حضين في صحيح مسلم هو الذي سمعه منه في مسند أحمد بمواضعه الثلا ثة ، فالموضعان الأول والثاني (ج1 ص82 و140 الطبعة الأولى - ج2 رقم 642 و1184 الطبعة الثانية) ليس فيهما ذكر للصلاة عن لسان حضين فضلا عن غيره ، فلعل أحد الرواة من بعده أدرك أن الكلام عن الصلاة ليس من كلام الشهود فاقتصر على ذكر الحد . وأما في الموضع الثالث من مسند أحمد (ج1 ص144 - 145 الطبعة الأولى - ج2 رقم 1229) فقد جاء على لسان حضين « أن الوليد صلى بالناس الصبح أربعا » وهو يعارض ما جاء على لسان حضين نفسه في صحيح مسلم ، ففي إحدى الروايتين تحريف ، الله أعلم بسببه . وفي الحالتين لا يخرج ذكر الصلاة عن أنه من كلام حضين وحضين ليس بشاهد ، ولم يرو عن شاهد ، فلا عبرة بهذا الجزء من كلامه ، وبعد أن علمت بأمر الموتورين فيما نقله الطبري عن شيوخه ، أزيدك علما بأمر حمران ، وهو عبد من عبيد عثمان كان قد عصى الله قبل شهادته على الوليد فتزوج في مدينة الرسول امرأة مطلقة ودخل بها وهي في عدتها من زوجها الأول ، فغضب عليه عثمان لهذا ولأمور أخرى قبله فطرده من رحابه وأخرجه من المدينة . فجاء الكوفة يعيث فيها فسادا ، ودخل على العابد الصالح عامر بن عبد القيس فافترى عليه الكذب عند رجال الدولة وكان سبب تسييره إلى الشام . وأنا أترك أمر هذا الشاهد والشاهدين الآخرين قبله إلى ضمير القارئ يحكم به عليهم بما يشاء ، وفي اجتهادي أن مثل هؤلاء الشهود لا يقام بهم حد الله على ظنين من السوقة والرعاع ، فكيف بصحابي مجاهد وضع الخليفة في يده أمانة قطر وقيادة جيوش فكان عند الظن به من حسن السيرة في الناس وصدق الرعاية لأمانات الله ، وكان موضع الثقة عند ثلاثة من أكمل خلفاء الإسلام أبي بكر وعمر وعثمان . وإن قرابة الوليد من عثمان التي يزعم الكذبة أنها سبب المحاباة منه لهم إنما كانت سبب التسامح من عثمان في عزلهم والقسوة عليهم لئلا يقول السفهاء إن له هوى في ذوي قرابته . وقد رأينا الذين يتسلون بأعراض الناس يتفكهون بأبيات ستة منسوبة إلى ماجن خسيس النفس وردت في ص85 من ديوانه ، ولا تحملهم سليقة النقد على الشعور بما في هذه الأبيات من التضارب والتعارض ، فأين مدحه فيها للوليد بقوله : ورأوا شمائل ماجد أنف يعطي على الميسور والعسر فنزعتَ مكذوبا عليك ولم تردد إلى عوز ولا فقر من بقية الأ بيات التي فيها : نادى وقد تمت صلاتهم أأزيدكم ثملا وما يدري فالذي يقول البيت الأخير لا يعقل أن يقول معه البيتين الأولين فيكون مادحا وذاما في قطعة واحدة لا تزيد على ستة أبيات . وقد كانت لي مقالة مطولة عن (التخليط في الشعر) ضربت فيها الأمثلة على دس أبيات غريبة في قصائد من وزنها ورويها لغير ناظمها . وعلى كل حال فالشهود الذين شهدوا بين يدي عثمان لم يدّعوا حكاية الص لاة ، مع أنهم لم يكونوا ممن يخاف الله واليوم الآخر . والآن أقولها لوجه الله صريحة مدوية : إن الوليد لو كان من رجال التاريخ الأوربي كالقديس لويس الذي أسرناه في دار ابن لقمان بالمنصورة لعدّوه قديسا ، لأن لويس التاسع لم يحسن إلى فرنسا كإحسان الوليد بن عقبة إلى أمته ، ولم يفتح للنصرانية كفتح الوليد للإسلام ، والعجب لأمة تسيء إلى أبطالها ، وتشوه جمال تاريخها ، وتهدم أمجادها كما يفعل الأشرار منا ، ثم ينتشر كيد هؤلاء الأشرار حتى يظن الأخيار أنه هو الحق .

ولكنه استكثر أن يتنازع اثنان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في بلد كالكوفة هما أميراه، وأهل البلد يفتحون إلى الجدال والخصام كل باب، و لا يهمهم أن تثور الفتن والنزاعات.

وأمّر عثمانُ الوليدَ بن عقبة مكان سعد، فقدم الوليد الكوفة سنة ست وعشرين من الهجرة، فأحسن معاملة أهلها، حتى أحبه الناس، وكانت سيرته فيهم أحسنَ سيرةٍ طيلة سنوات إمارته عليهم، ولم يتخذ لداره بابا حتى خرج من الكوفة، فما كان يحول بينه وبين الناس أحد، وكان يدخل عليه من شاء في ليل أو نهار.

ولأن بعض النفوس لا تهدأ إلا إذا اضطربت الأمور من حولها، فقد قام بعض الأشرار بالانتقام من الوليد لأنه أقام الحد على أبنائهم، وذلك بتدبير مؤامرة لعزله، فشهدوا عليه زورا بشرب الخمر، ونجحت مؤامرتهم، فعُزل الأمير الصالح عن الكوفة بعد جلده، وتولى مكانه سعيد بن العاص.

=================

ولاية سعيد بن العاص على الكوفة[27]

---

[27] - وفي البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 9 / ص 156)

توفي في هذا العام سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، قتل أبوه يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب، ونشأ سعيد في حجر عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكان عمر سعيد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، وكان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين.

وكان جده سعيد بن العاص - ويكنى: بأبي أجنحة - رئيساً في قريش، يقال له: ذو التاج، لأنه كان إذا أعتم لا يعتم أحد يومئذٍ إعظاماً له.

وكان سعيد هذا من عمال عمر على السواد، وجعله عثمان فيمن يكتب المصاحف لفصاحته، وكان أشبه الناس لحية برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في جملة الاثني عشر رجلا ً، الذين يستخرجون القرآن ويعلمونه ويكتبونه، منهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

واستنابه عثمان على الكوفة بعد عزله الوليد بن عقبة، فافتتح طبرستان وجرجان، ونقض العهد أهل أذربيجان فغزاهم ففتحها.

فلما مات عثمان اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقر الأمر لمعاوية وفد إليه فعتب عليه فاعتذر إليه فعذره في كلام طويل جداً، وولا ّه المدينة مرتين، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن عمر بن الخطاب، وعثمان، وعائشة، وعنه ابناه عمرو بن سعيد الأشدق، وأبو سعيد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير وغيرهم، وليس له في (المسند) ولا في الكتب الستة شيء.

وقد كان حسن السيرة، جيد السريرة، وكان كثيراً ما يجمع أصحابه في كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحلل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير، وكان يصر الصرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد.

قال ابن عساكر: وقد كانت له دار بدمشق تعرف بعده بدار نعيم، وحمام نعيم، بنواحي الديماس، ثم رجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات، وكان كريماً جواداً ممدحاً.

ثم أورد شيئاً من حديثه من طريق يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو سعيد الجعفي، ثنا عبد الله بن الأجلح، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه أن سعيد بن العاص قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية)).

وفي طريق الزبير بن بكار: حدثني رجل، عن عبد العزيز بن أبان، حدثني خالد بن سعيد، عن أبيه، عن ابن عمر قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببرد.

فقالت: إني نذرت أن أعطي هذا الثوب أكرم العرب.

فقال: ((أعطه هذا الغلام)) يعني - سعيد بن العاص - وهو واقف، فلذلك سميت الثياب السعيدية.
وأنشد الفرزدق قوله فيه:
ترى الغرّ الجحاجح من قريشٍ * إذا ما الخطب في الحدثان عالا
قياماً ينظرون إلى سعيد * كأنهم يرون به هلالا
(ج/ص: 92/8)
وذكر أن عثمان عزل عن الكوفة المغيرة وولاها سعيد بن أبي وقاص، ثم عزله وولاها الوليد بن عتبة، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، فأقام بها حيناً، ولم تحمد سيرته فيهم ولم يحبوه.
ثم ركب مالك بن الحارث - وهو الأشتر النخعي - في جماعة إلى عثمان وسألوه أن يعزل عنهم سعيداً فلم يعزله، وكان عنده بالمدينة فبعثه إليهم، وسبق الأشتر إلى الكوفة فخطب الناس وحثهم على منعه من الدخول إليهم، وركب الأشتر في جيش يمنعوه من الدخول.
قيل: تلقوه إلى العذيب، - وقد نزل سعيد بالرعثة - فمنعوه من الدخول إليهم، ولم يزالوا به حتى ردّوه إلى عثمان، وولى الأشتر أبا موسى الأشعري على الصلاة والثغر وحذيفة بن اليمان على الفيء.
فأجاز ذلك أهل الكوفة وبعثوا إلى عثمان في ذلك فأمضاه وسره ذلك فيما أظهره، ولكن هذا كان أول وهن دخل على عثمان.
وأقام سعيد بن العاص بالمدينة حتى كان زمن حصر عثمان فكان عنده بالدار.
ثم لما ركب طلحة والزبير مع عائشة من مكة يريدون قتلة عثمان ركب معهم، ثم انفرد عنهم هو و المغيرة بن شعبة وغيرهما، فأقام بالطائف حتى انقضت تلك الحروب كلها.
ثم ولاه معاوية إمرة المدينة سنة تسع وأربعين، وعزل مروان فأقام سبعاً ثم رد مروان.
وقال عبد الملك بن عمير: عن قبيضة بن جابر قال: بعثني زياد في شغل إلى معاوية، فلما فرغت من أموري قلت: يا أمير المؤمنين لمن يكون الأمر من بعدك؟
فسكت ساعة ثم قال: يكون بين جماعة، إما كريم قريش سعيد بن العاص، وإما فتى قريش حياء ودهاء وسخاء، عبد الله بن عامر، وإما الحسن بن علي فرجل سيد كريم.
وإما القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله مروان بن الحكم، وإما رجل فقيه عبد الله بن عمر، وإما رجل يتردد الشريعة مع دواهي السباع ويروغ روغان الثعلب فعبد الله بن الزبير.
وروينا أنه استسقى يوماً في بعض طرق المدينة، فأخرج له رجل من دار ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع فسأل عنه لِمَ يبيع داره؟
فقالوا: عليه دين أربعة آلاف دينار، فبعث إلى غريمه فقال: هي لك عليّ، وأرسل إلى صاحب الدار فقال: استمتع بدارك.
وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة.
فقالت له امرأته: إن أميرنا هذا يوصف بكرم، فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء.
فقال: ويحك ! لا تحلقي وجهي، فألحت عليه في ذلك، فجاء فجلس إليه، فلما انصرف الناس عنه مكث الرجل جالساً في مكانه.
فقال له سعيد: أظن جلوسك لحاجة؟
فسكت الرجل، فقال سعيد لغلمانه: انصرفوا، ثم قال له سعيد: لم يبق غيري وغيرك، فسكت، فأطفأ المصباح ثم قال له: رحمك الله لست ترى وجهي فاذكر حاجتك.
فقال: أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت.
فقال له: إذا أصبحت فالق وكيلي فلاناً، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل: إن الأمير قد أمر لك بشيء فأت بمن يحمله معك.
فقال: ما عندي من يحمله. (ج/ص: 93/8)
ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال: حملتيني على بذل وجهي للأمير، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله.
وما أراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام، ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله، ولأعطانيه.
فقالت له المرأة: فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذه، فرجع الرجل إلى الوكيل، فقال له الوكيل: إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك، فذهب الرجل.
فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم.
فقال للغلمان: ضعوا ما معكم وانصرفوا.
فقالوا: إن الأمير قد أطلقنا لك، فإنه ما بعث مع خادم هدية إلى أحد، إلا كان الخادم الذي يحملها من

جملتها.
قال: فحسن حال ذلك الرجل.
وذكر ابن عساكر: أن زياد بن أبي سفيان بعث إلى سعيد بن العاص هدايا وأموالا ً وكتاباً ذكر فيه أنه يخطب إليه ابنته أم عثمان من آمنة بنت جرير بن عبد الله البجلي.
فلما وصلت الهدايا والأموال والكتاب قرأه، ثم فرق الهدايا في جلسائه، ثم كتب إليه كتاباً لطيفاً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ! قال الله تعالى: {كلا إنّ الإنسانَ ليَطغَى * أنْ رَآهُ استَغنَى} [العلق: 6- 7] و السلام.
وروينا: أن سعيداً خطب أم كلثوم بنت علي من فاطمة، التي كانت تحت عمر بن الخطاب، فأجابت إلى ذلك وشاورت أخويها فكرها ذلك.
وفي رواية: إنما كره ذلك الحسين وأجاب الحسن، فهيأت دارها ونصبت سريراً وتواعدوا للكتاب، وأمرت ابنها زيد بن عمر أن يزوجها منه، فبعث إليها بمائة ألف.
وفي رواية: بمائتي ألف مهراً، واجتمع عنده أصحابه ليذهبوا معه، فقال: إني أكره أن أخرج أمي فاطمة، فترك التزويج وأطلق جميع ذلك المال لها.
وقال ابن معين، وعبد الأعلى بن حماد: سأل أعرابي سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة.
فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار ؟.
فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار.
فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي.
فقال له: مالك؟ ألم تقبض نوالك؟
قال: بلى والله ! ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك.
وقال عبد الحميد بن جعفر: جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل: له عليك بـ الحسن بن علي، أو عبد الله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس.
فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟
فقيل: سعيد بن العاص فقصده فذكر له ما أقدمه فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأ عرابي: ائت بمن يحمل معك.
فقال: رحمك الله ! إنما سألتك مالا ً لا تمراً.
فقال: أعرف، ائت بمن يحمل معك؟ فأعطاه أربعين ألفاً فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره.
وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني أجر لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أوجاءك مخاطراً لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته.
وقال سعيد: لجليسي علي ثلاث، إذا دنا رحبت به، وإذا جلس أوسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه.
وقال أيضاً: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فتهون عليه.
وفي رواية: فيجترئ عليك.
وخطب يوماً فقال: من رزقه الله رزقاً حسناً فليكن أسعد الناس به، إنما يتركه لأحد رجلين، إما مصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب أنت، والمصلح لا يقل عليه شيء، وإما مفسد فلا يبقى له شيء. (ج/ ص: 94/8)
فقال أبو معاوية: جمع أبو عثمان طرف الكلام.
وروى الأصمعي: عن حكيم بن قيس.
قال سعيد بن العاص: موطنان لا أستحي من رفقي فيهما والتأني عندهما، مخاطبتي جاهلا ً أو سفيهاً، وعند مسألتي حاجة لنفسي.
ودخلت عليه امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها، فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت المنة لك في أعناق الكرام، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لردها عليه.
وقد كان له عشرة من الولد ذكوراً وإناثاً، وكانت إحدى زوجاته أم البنين بنت الحكم بن أبي العاص - أخت مروان بن الحكم - ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه.
وقال لهم: لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يرد، فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه.
ثم أوصاهم بوصايا كثيرة منها: أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من ا لأكفاء، وأن يسودوا أكبرهم.

سعيد بن العاص اسم جديد يظهر في سماء الكوفة بعد أن عُزل الوليد بن عقبة.. اسم جديد يتولى إمارة المدينة المشاكِسة التي دعا عليها عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص والوليد ابن عقبة بسبب ظلمهم وافترائهم على أمرائهم..

فقدم سعيد الكوفة في خلافة عثمان أميراً، وخرج معه من مكة - أو المدينة - الأشتر وأبو خشّة الغفاريّ وجندب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثّامة - وكانوا فيمن شخص مع الوليد يعيبونه، فرجعوا مع هذا - فصعد سعيد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره؛ ولكنّي لم أجد بدّاً إذ أمرت أن أتّمر ألا إنّ الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها؛ ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تعييني؛ وإني لرائد نفسي اليوم. ونزل. وسأل عن أهل الكوفة، فأقيم على حال أهلها.

فكتب إلى عثمان بالذي انتهى إليه: إنّ أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة؛ والغالب على تلك البلا د روادف ردفت، وأعراب لحقت؛ حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها.

فكتب إلى عثمان: أمّا بعد؛ ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم؛ إلا ّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحقّ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكِّ منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقّ، فإنّ المعرفة بالناس بها يصاب العدل.

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيّام والقادسيّة، فقا: أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينبيء عن الجسد؛ فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي

فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق.

فلما دفنه بالبقيع، ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه قال: هل ترك من دين عليه؟

قال: نعم !

قال: وكم هو؟

قال: ثلاثمائة ألف درهم، وفي رواية: ثلاث آلاف ألف درهم.

فقال معاوية: هي عليّ !

فقال ابنه: يا أمير المؤمنين، إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه، فاشترى منه معاوية أراضي بمبلغ الدين، وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة فحملها له، ثم شرع عمرو يقضي ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عشرون ألفاً.

فقال له عمرو: كيف استحققت هذه على أبي؟

فقال الشاب: إنه كان يوماً يمشي وحده، فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله، فقال: أبغني رقعة من أدم، فذهبت إلى الجزارين فأتيته بهذه، فكتب لي فيها هذا المبلغ، واعتذر بأنه ليس عنده اليوم شيء.

فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئاً كثيراً، ويروى أن معاوية قال لعمرو بن سعيد: من ترك مثلك لم يمت.

ثم قال: رحم الله أبا عثمان، ثم قال: قد مات من هو أكبر مني ومن هو أصغر مني، وأنشد قول الشاعر:

إذا سار من دون امرئ وإمامه * وأوحش من إخوانه فهو سائر

وكانت وفاة سعيد بن العاص في هذه السنة.

الخلة. وأدخل معهم من يحتمل من مااللواحق والرّوادف؛ وخلص بالقرّاء و المتسمِّتين في سمره، فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار؛ فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم، وفشت القالة والإذاعة.
فكتب سعيد إلى عثمان بذلك، فنادى منادي عثمان: الصلاة جامعة! فاجتمعوا ، فأخبرهم بالذي كتب به إلى سعيد، وبالذي كتب به إليه فيهم؛ وبالذي جاءه من القالة والإذاعة، فقالوا: أصبت فلا تسعفهم في ذلك؛ ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها.
فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدّوا واستمسكوا، فقد دبّت إليكم الفتن.[28]
وأدخل معهم من يُحتاج إليه، ثم جمع القراء والعلماء واختصهم لنفسه، وجعلهم من أهل مجلسه وسمره. وسار سعيد بن العاص على هذه السياسة الرشيدة في الإدارة، وبث الجيوش والسرايا لاستكمال الفتوحات في طبرستان والباب حتى بلغ أذربيجان..
وسارت الأمور على ما يرام حتى سنة ثلاث وثلاثين الهجرية، حيث قام بعض المنحرفين بالكوفة بأعمال شغب انتهت بتسييرهم إلى الشام. وأصبحت الكوفة وكأنها حطب يابس اشتعلت فيه النيران، فانتشرت الشائعات بالقدح والذم في ولاة عثمان، بل وفي عثمان نفسه؛ لأنه هو الذي اختارهم وولاهم.
اختلف أهل السير في ذلك، فأما سيف فإته ذكر فيما كتب به إليّ السريّ عن شعيب عنه، عن محمد وطلحة، قالا: كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلا ّ نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسيّة وقرّاء أهل البصرة و المتسمِّتون، وكان هؤلاء دخلته إذا خلا، فأما إذا جلس للناس فإنه يدخل عليه كلّ أحد، فجلس للناس يوماً، فدخلوا عليه؛ فبينناهم جلوس يتحدّثون قال خنيس بن فلان: ما أجود طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد ابن العاص: إنّ من له مثل النّشاستج لحقيق أ، يكون جواداً؛ والله لو أنّ لي مثله لأ عاشكم الله عيشاً رغداً. فقال عبد الرحمن بن خنيس - وهو حدث: والله لوددت أنّ هذا الملطاط لك - يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة - قالوا: فضّ الله فاك! والله لقد هممنا قك، فقال: خنيس غلام ق لا تجازوه، فقالوا: يتمنى له من سوادنا! قال: ويتمنّى لكم أضعافه، قالوا: لا تيمنى لنا ولا له، قال: ما هذا بكم! قالوا: أنت والله أمرته بها، فثار إليه الأ شتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضائي؛ فأخذوه فذهب أبوه ليمنع منه فضربوهما حتى غشى عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون، حتى قضوا منهما وطراً، فسمعت بذلك بنو أسد، فجاءوا وفيهم طليحة فأحاطو بالقصر، وركبت القبائل، فعاذوا بسعيد، وقالوا: أفلتنا وخلّصنا.

[28] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 443)

فخرج سعيد إلى الناس، فقال: أيّا الناس، قوم تنازعوا وتهاووا،وقد رزق اللّه العافية. مثم قعدوا وعادوا في حديثهم، وتراجعوا فساءهم وردّهم، وأفاق الرّجلان؛ فقال: أبكما حياة؟ قالا: قتلتنا غاشيتك، مقال: لا يغشوني واللّه أبداً ، فاحفظ عليّ ألسنتكما ولاتجرّئا عليّ النسا. ففعلا ً ولما انقطع رجاء أولئك النفر من ذلك قعدوا في بيتوهم، وأقبلوا على الإذاعة حتّى لامه أهلالكوفة في أمرهم؛ فقال: هذا أميركم وقد نهاني أن أحرّك شيئاً، فمن أراد منكم أن يحرّك شيئاً فليحرّكه.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم، فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية. فأخرجوهم، فذلّوا وانقادوا حتى أتوه - هم بضعة عشر - فكتبوا بذلك إلى عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية: إنّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم؛ فإن آنست منهم رشداً فأقبل منهم؛ وإن أعيوك فازددهم عليهم فلما قدموا على معاوية رّحّب بهم وأنزلهم كنيسة تسمّى مريم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدّى ويتعشّى معهم، فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً؛ وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم، إنّ أئمتكم لكم إلى اليوم جنّة فلا تشدّوا عن جنّتكم؛ وإنّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة؛ واللّه لتنتهنّ أو ليتليئّكم اللّه بمن يسومكم؛ ثم لا يحمدكم على الصبر، ثمّ تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعيّة في حياتكم وبعد موتكم.

فقال رجل من القوم: أمّا ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوّفنا؛ وأما ما ذكرت من الجنّة فإنّ الجنّة إذا اخترقت خلص إلينا.

فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أنّ الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلا ً، أعظم علكي أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكرني الجاهلية! موقد وعظتك. وتزعم لما يجنّك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجنّة؛ أخزى اللّه أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم! افقهوا - ولا أظنكم تفقهون - أنّ قريشاً لم تعزّ في جاهلية ولا إسلا م إلا ّ باللّه عزّ وجلّ، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدّهم؛ ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً؛ وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس بأكل بعضهم بعضاً إلا ّ باللّه الذي لا يستذّل من أعزّ، ولا يوضع من رفع، فبوّأهم حرماً آمنا يتخطّف الناس من حولهم! هل تعرفون عرباً أن عجماً أو سوداً أو حمراً إلا ّ قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة؛ إلا ّ ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا ّ جعل اللّه خدّه الأسفل، حتى أراد اللّه أن ينتقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدّنيا وسوء مردّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلفه، ثم ارتضى له

أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم؛ ولا يصلح ذلك إلا ّ عليهم؛ فكان الله يحوطهم في الجاهليّة وهم علىكفرهم ب‍الله؛ أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الموك الذين كانوا يدينونكم؟ أفٍ لك ولأصحابك! ول أنّ متكلماً غيرك تكلم؛ ولكنك ابتدأت. فأمّا أنت يا صعصعة فإن قريتك شرّ قرى عربيّة؛ انتنها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشرّ، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا ّ سبّ بها؛ وكانت عليه هجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، والأمه أصهاراً، نزّاع الأمم؛ وأنتم جيران الخطّ وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ونكبتك دعوته؛ وأنت نزيع شطير في عمان، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأنتشرّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، وحملك على الأمم التي كانت عليك؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً؛ وتنزع إلى اللآمة والذلة. ولا يضع ذلك قريشاً، ولن يضرّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم؛ إنّ الشيطان عمم غير غافل، قد عرفكم بالشرّ من بين أمتكم، فأغرى بكم الناس؛ وهو صارعكم. لقد علم أنه لا يستطيع أن يردّ بكم قضاء قضاه الله، ولا أمراً أراده الله، ولا تدركون بالشرّ أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شرّاً منه وأخزى.

ثم قام وتركهم؛ فتذامروا. فتقاصرت إليهم أنفسهم، فلمّا كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم؛ لا والله لا ينفع الله بكم أحداً و لا يضرّه؛ ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرّة؛ ولكنكم رجال نكير. وبعد، فإن أردتم النجاة فألزموا جماعتكم؛ وليسعكم ما وسع الدّهماء، ولا يبطرتكم الإ نعام، فإن البطر لا يعتري الخيار؛ اذهبوا محيث شئتم، فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلمّا خرجوا دعاهم فقال: إني معيد عليكم. إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولا ّني، وأدخلني في أمره، ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولا ّني، ثمّ استخلف عمر فولا ّني، ثم استخلف عثمان فولا ّني.

فلم آل لأحد منهم مولم يولِني إلا وهو راضٍ عني؛ وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء؛ ولم يطلب لها أهل اللاجتهاد والجهل بها والضعف عنها؛ وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون ؛ فإنّ الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي لناس سارئركم؛ وقد قال عزّ وجل: " الم أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون " .

وكتب معاوية إلى عثمان: إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام، وأضجرهم العدل؛ لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجّة؛ إنما همّهم الفتنة وأموال أهل الذّمة؛ والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم؛ وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فإنه سعيداً ومن قبله عنهم؛ فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير.

وخرج القوم من دمشق فقالوا: لا ترجعوا إلى الكوفة، فإنهم يسمتون بكم، وميلوا بنا إلى الجزيرة، ودعوا العراق والشام. فأووا إلىالجزيرة، وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - وكان معاوية قد ولا ّه حمص وولى عامل الجزيرة حرّان والرّقة - فدعا بهم، فقال: يا آلة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أه لا ً! قد رجع الشيطان محشوراً وأنتم بعد نشاط؛ خسرر الله عبد الرحمن إن لم يؤدّ بكم حتى يحسركم. يا معش من لا أدري أعرب أم عجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكمتقولون لمعاوية؛ أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقيء الرّدة، والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذل ّ أنّ أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصّك لأطيرنّ بك طيرة بعيدة المهوى. فأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم، فإذا مرّ به صعصعة قال: يابن الحطيئة، أعلمت أنّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشرّ! مالك لا تقول كما كان يبلغني أنّك تقول لسعيد ومعاوية! فيقول ويقولون: نتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله! فما زالوا به حتى قال تاب الله عليكم.
وسرّح الأشتر إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم، إن شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا. وخرج الأشتر، فأتى عثمانب التوبة والندم ولانزوع عنه وعن أصحابه فقال: سلمكم الله. وقدم سعيد بن العاص، فقال عثمان للأشتر: احلل حيث شئت، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد؟ وذكر من فضله، ذاك إليكم، فرجعإلى عبد الرحمن.
وأمّا محمد بن عمر؛ فإنه ذكر أنّ أبا بكر بن إسماعيل حدّثه عنأبيه، عن عامر بن سعد، أنّ عثمان بعث سعيد بن العاص إلى الكوفة أميراً عليها، حين شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر من شهد عليه، وأمره أن يبعث إليه الوليد بن عقبة. قال: قدم سعيد بن العاص الكوفة، فأرسل إلى الوليد: إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن تلحق به. قال: فتضجّع أياماً، فقال له: انطلق إلى أخيك؛ فإنه قد أمرني أن أبعثك إليه، قال: وما صعد منبر الكوفةحتى أمر به أن يغسل، فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بني أميّة، وقالوا: إنّ هاذ قبيح؛ والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذبّ عنه؛ يلزمه عار هذا أبداً. قال: فأبى إلا ّ أن يفعل، فغسلهوأرسل إلى الوليد أن يتحوّل من دار ا لإمارة، فتحوّل منها، ونزل دار عمارة بنعقبة، فقدم الوليد على عثمان، فجمع بينه وبين خصمائه، فرأىأن يجلده، فجلده الحدّ.
قال محمّد بن عمر: حدثني شيبان، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قدم سعيد بن العاص الكوفة، فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده؛ وإنه سمر عنده ليلةً وجوه أهل الكوفة، منهم مالك بن كعب الأرجيّ، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النّخعيّان، وفيهم مالك الأشتر في رجال، فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش؛ فقال الأشتر: أتزعم أنّ السّواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم.
قال: فقال عبد الرحمن الأسديّ - وكان على شرطة سعيد: أتردّون على الأمير

مقالته! وأغلظ لهم، فقال الأشتر: من ها هنا! لا يفوتنّكم الرجل؛ فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديداً، حتى غشي عليه ثم جرّ برجله فألقى، فنضح بماء فأفاق، فقال له سعيد: أبك حياة؟ فقا: قتلني من انتخبت - زعمت - للإسلام، فقال: والله لا يسمر منهم عندي أحد أبداً، فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتموون عثمان وسعيداً؛ واجتمع الناس إليهم؛ حتى كثر من يختلف إليهم. فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك، ويقول: إنّ رهطاً من أهل الكوفة - سمّاهم له عشرة - يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبي و الطعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا؛ فكتب عثمان إلى سعيد: أن سيرّهم إلى معاوية - ومعاوية يومئذ على الشأم - فسيرّهم - وهم تسعة نفر - إلى معاوية؛ فيهم مالك الأشتر، وثايت بن قيس بن منقع، وكميل بن زياد النخعيّ، وصعصعة بن صوحان.

ثم ذكر نحو حديث السريّ، عن شعيب؛ إلا ّ أنه قال: فقال صعصعة: فإن اخترقت الجنّة أفليس يخلص إلينا؟ فقال معاوية: إنّ الجنة لا تخترق، فضع أمر قريش على أحسن ما يحضرك.
وزاد فيه أيضاً: إنّ معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكرهم، قال فيما يقول: وإني والله ماآمركم بشيء إلا قد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي وخاصّتي؛ وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ّ ما جعل الله لنبيّه نبيّ الرحمة صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله انتخبه وأكرمه، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلا أصفاه الله بأكرمها وأحسنها؛ ولم يخلق من الأخلاق السيّئة شيئاً في أحد إلا أكرمه الله عنها ونزّهه؛ وإني لأ ظن أنّ أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً. قال صعصعة: كذبت! قد ولدهم خير من أبي سفيان؛ من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البرّ والفاجر، والأحمق والكيّس. فخرج تلك الليلة من عندهم، ثم أتاهم القابلة، فتحدّث عندهم طويلا ً، ثم قال: أيّها القوم، ردّوا عليّ خيراً أو اسكتوا وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين؛ فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم. فقال صعصعة: لست بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله.
فقال: أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرّقوا! قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال: فإني آمركم الآن، إن كنت فعلت فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمّتكم وتدلوهم على كلّ حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم.
فقال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك؛ فإنّ في المسلمين من هو أحقّ به منك، قال: من هو؟ قال: من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك، وهو بنفسه

أحسن قدماً منك في الإسلام، فقال: والله إنّ لي في الإسلام قدماً، ولغيري كان أحسن قدماً مني؛ ولكنه ليس في زماني أحد أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعزل عملي؛ ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخطّ يده فاعتزلت عمله؛ ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت ألا يعزم له على ذلك إلا وهو خير؛ فمهلاً فإنّ في ذلك وأشباهه ما يتمنّى الشيطان ويأمر؛ ولعمري لو كانت الأمور تقضي على رأيكم وأمانيّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبّرها؛ وهو بالغ أمره؛ فعادودوا الخبر وقولوه.
فقالوا: لست لذلك أهلاً، فقال: أما والله إنّ لله لسطوات ونقمات، وإني لخائف عليكم أن تتايعوا في مطاوعه الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر، والخزي الدائم في الآجل.
فوثبوا عليه؛ فأخذوا برأسه ولحيته، فقال: مه؛ إنّ هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشأم ما صنعم بي وأنا أمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم. فلعمري إنّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً، ثمّ أقام من عندهم، فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت.
ثم كتب إلى عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن، فيشبّهون على الناس، وليس كلّ الناس يعلم ما يريدون؛ وإنما يريدون فرقة، ويقرّبون فتنة؛ قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكّنت رقي الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة؛ ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشأم أن يغرّوهم بسحرهم وفجورهم؛ فارددهم إلى مصرهم؛ فلتكن دارهم في مصرهم الذين نجم فيه نفاقهم؛ والسلام.
فكتب إليه عثمان يأمره أن يردّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردّهم إليه ، فلم يكونوا إلاّ أطلق ألسنة منهم حين رجعوا.
وكتب سعيد إلى عثمان يضجّ منهم؛ فكتب عثمان إلى سعيد أن سيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد؛ وكان أميراً على حمص.
وكتب إلى الأشتر وأصحابه: أمّا عبد؛ فإني قد سيّرتكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها؛ فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرّاً. والسلام.
فلما قرأ الأشتر الكتاب، قال: اللهمّ أسوأنا نظراً للرعيّة وأعملنا فيهم بِالمعصية؛ فعجِّل له النقمة.
فكتب بذلك سعيد إلى عثمان، وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص؛ فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد الساحل، وأجري عليهم رزقاً.[29]

---

[29] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 459) ذكر تسيير من سيّر من أهل الكوفة إليها

====================

ولاية البصرة

كانت ولاية البصرة إحدى الأمصار الإسلامية ذات الشأن في عصر الراشدين، واستقر مقام المسلمين بمنازلها في المحرم من سنة سبع عشرة للهجرة، ولم يكن حال أهل البصرة أفضل كثيراً من أهل الكوفة مع عمال عمر، فقد شكا بعضُ أهلها عاملهم المغيرةَ بنَ شعبةَ إلى الخليفة، واتهموه بالزنا، فعزله عمر وولى مكانه أبا موسى الأشعري سنة سبع عشرة للهجرة، فظل واليا عليها عدة سنوات، ثم صرفه عمر إلى الكوفة حين عزل عمار بن ياسر عنها، وطلب أهل الكوفة من أمير المؤمنين عمر أن يوليه عليهم، وولى مكانه على البصرة عمر بن سراقة المخزومي، ثم رد عمر أبا موسى إليها، فظل أبو موسى على البصرة وعلى صلاتها إلى أن مات عمر[30].

---

[30] - الإمام الكبير. صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم. أبو موسى الأشعري التميمي الفقيه المقرئ.
- وهو معدود فيمن قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم.
- أقرأ أهل البصرة ، وفقههم في الدين.
- ففي (الصحيحين) ، عن أبي بردة أبي موسى ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلا ً كريما).
- وقد استعمله النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذا على زبيد ، وعدن.
- وولي إمرة الكوفة لعمر ، وإمرة البصرة.
- وقدم ليالي فتح خير ، وغزا ، وجاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمل عنه علما كثيرا.
- قال سعيد بن عبد العزيز : حدثني أبو يوسف ، حاجب معاوية : أن أبا موسى الأشعري قدم على معاوية ، فنزل في بعض الدور بدمشق ، فخرج معاوية في الليل ليستمع قراءته.
- وقال العجلي : بعثه عمر أميرا على البصرة ، فأقرأهم وفقههم ، وهو فتح تستر ، ولم يكن في الصحابة أحد أحسن صوتا منه.
- قال حسين المعلم : سمعت ابن بريدة يقول : كان الأشعري قصيرا ، أثط – قليل شعر اللحية - خفيف الجسم.
- عن أبي موسى ، قال : خرجنا من اليمن في بضع وخمسين من قومي ، ونحن ثلاثة إخوة ، أنا وأبو رهم ، وأبو عامر : فأخرجتنا سفينتنا إلى النجاشي ، وعنده جعفر وأصحابه ، فاقبلنا حين افتتحت خيبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكم الهجرة مرتين ، هاجرتم إلى النجاشي ، وهاجرتم إلي).
- عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقدم عليكم غدا قوم هم أرق قلوبا للإسلام منكم) فقدم الأشعريون ، فلما دنوا جعلوا يرتجزون:
غدا نلقى الأحبة ****** محمد وحزبه
فلما أن قدموا تصافحوا ، فكانوا أول من أحدث المصافحة.
- عن عياض الأشعري ، قال : لما نزلت { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} (المائدة 57). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هم قومك يا أبا موسى ، وأومأ إليه).
- عن أبي موسى قال : لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين ، بعث أبا عامر الأشعري على جيش أوطاس ، فلقي دريد بن الصمة. فقتل دريد ، وهزم أصحابه ، فرمى رجل أبا عامر في ركبته بسهم ، فأثبته. فقلت: يا عم ، من رماك ؟ فأشار إليه ، فقصدت له ، فلحقته ، فلما رآني ، ولي ذاهبا. فجعلت أقول له : ألا تستحي ؟ ألست عربيا ؟ ألا تثبت ؟ قال : فكف ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا ضربتين ، فقتلته. ثم رجعت إلى أبي عامر ، فقلت : قد قتل الله صاحبك. قال : فانزع هذا السهم. فنزعته ، فنزا منه الماء. فقال : ابن أخي ، انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقره مني السلام ، وقل له : يستغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس ، فمكث يسيرا ، ثم مات. فلما قدمنا ، وأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، توضأ ، ثم رفع يديه ، ثم قال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر) حتى رأيت بياض إبطيه. ثم قال : (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك). فقلت : ولي

يا رسول الله ؟ فقال : (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلا ً كريماً).
- عن أبي موسى ، قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة ، فأتى أعرابي فقال : ألا تنجز لي ما وعدتني ؟ قال : (أبشر). قال : قد أكثرتَ من البشرى. فأقبل رسول الله علي وعلى بلال ، فقال : (إن هذا قد رد البشرى فاقبلا أنتما) : فقالا : قبلنا يا رسول الله. فدعا بقدح ، فغسل يديه ووجهه فيه ، ومج فيه ، ثم قال : (اشربا منه ، وأفرغا على رؤوسكما ونحوركما) ففعلا ! فنادت أم سلمة من وراء الستر أن فضّلا لأمكما ، فأفضلا لها منه.
- عن أبي بريدة ، عن أبيه ، قال : خرجت ليلة من المسجد ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم عند باب المسجد قائم ، وإذ رجل يصلي ، فقال لي : (يا بريدة أتراه يرائي) ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال: (بل هو مؤمن منيب ، لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود). فأتيته ، فإذا أبو موسى ، فأخبرته.
- عن مالك بن مغول : حدثنا ابن بريدة ، عن أبيه ، قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، وأنا على باب المسجد ، فأخذ بيدي فأدخلني المسجد ، فإذا رجل يصلي ، يدعو ، يقول : اللهم ، إني أسالك ، بأني أشهد أنك الله ، لا إله إلا أنت الأحد الصمد ،الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد. قال : (والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي أجاب). وإذا رجل يقرأ ، فقال : (لقد أعطى هذا مزماراً من مزامير آل داود). قلت : يا رسول الله ، أخبره ؟ قال : (نعم). فأخبرته. فقال لي : لا تزال صديقاً. وإذا هو أبو موسى.
- عن أنس : أن أبا موسى قرأ ليلة ، فقمن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يستمعن لقراءته. فلما أصبح ، أخبر بذلك. فقال : لو علمت ، لحبرت تجبيراً ، ولشوقت تشويقاً.
- عن أبي البختري ، قال : أتينا علياً ، فسألناه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. قال : عن أيهم تسألوني ؟ قلنا : عن ابن مسعود. قال : علم القرآن والسنة ، ثم انتهى ، وكفى به علماً. قلنا : أبو موسى ؟ قال : صبغ في العلم صبغة ، ثم خرج منه. قلنا : حذيفة ؟ قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين. قالوا : سلمان ؟ قال : أدرك العلم الأول ، والعلم الآخر ، بحر لا يدرك قعره ، وهو منا أهل البيت. قالوا : أبو ذر ؟ قال : وعي علماً عجز عنه. فسئل عن نفسه. قال: كنت إذا سألت أعطيت ، وإذا سكت ابتديت.
- وقال مسروق : كان القضاء في الصحابة إلى ستة : عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأبي ، وزيد ، وأبي موسى.
- عن صفوان بن سليم ، قال : لم يكن يفتي في المسجد زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير هؤلاء : عمر وعلي ، ومعاذ وأبي موسى.
- أيوب ، عن محمد ، قال عمر : بالشام أربعون رجلا ً ، ما منهم رجل كان يلي أمر الأمة إلا أجزأه ، فأرسل إليهم. فجاء رهط ، فيهم أبو موسى. فقال : إني أرسلك إلى قوم عسكر الشيطان بين أظهرهم. قال : فلا ترسلني، قال : إن بها جهاداً ورباطاً. فأرسله إلى البصرة.
- عن أنس : بعثني الأشعري إلى عمر ، فقال لي : كيف تركت الأشعري ؟ قلت : تركته يعلم الناس القرآن. فقال : أما إنه كيس ! ولا تسمعها إياه.
- عن أبي سلمة : كان عمر إذا جلس عنده موسى ، ربما قال له : ذكرنا يا أباموسى فيقرأ.
- قال أبو عثمان النهدي : ما سمعت مزماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري ، إن كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة ، من حسن صوته.
- عن مسروق ، قال : خرجنا مع أبي موسى في غزاة ، فجننا الليل في بستان خرب ، فقام أبو موسى يصلي ، وقرأ قراءة حسنة ، وقال : اللهم ، أنت المؤمن تحب المؤمن ، وأنت المهيمن تحب المهيمن ، وأنت السلام تحب السلام.
- وروى صالح بن موسى الطلحي ، عن أبيه ، قال : اجتهد الأشعري قبل موته اجتهاداً شديداً ، فقيل له : لو أمسكت ورفقت بنفسك ؟ قال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها ، أخرجت جميع ما عندها ، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك.
- عن أنس : أن أبا موسى كان له سراويل يلبسه مخافة أن يكتشف.
- لا ريب أن غلاة الشيعة يبغضون أبا موسى رضي الله عنه ، لكونه ما قاتل مع علي ، ثم لما حكمه علي على نفسه ، عزله ، وعزل معاوية ، وأشار بابن عمر ، فما انتظم من ذلك حال.
- عن أبي موسى : أن معاوية كتب إليه : أما بعد : فإن عمرو بن العاص قد بايعني على ما أريد ، وأقسم بالله ، لئن بايعتني على الذي بايعني ، لأستعملن أحد ابنيك على الكوفة ، والآخر على البصرة ، ولا يغلق دونك باب ، ولا تقضى دونك حاجة.
وقد كتبت إليك بخطي ، فاكتب إلي بخط يدك. فكتب إليه : أما بعد : فإنك كتبت إلي في جسيم أمر ا

ولما ولي عثمان أقره عليها، فظل أبو موسى الأشعري واليا عليها سنوات، ثم عاد أهل البصرة فاتهموا أبا موسى وشكوه إلى عثمان، وقالوا: قد أكل أرضنا، وأحيا أمر الجاهلية فينا، فعزله عثمان سنة تسع وعشرين للهجرة.
واستعمل عثمان على البصرة عبد الله بن عامر بن كُرَيز، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فكان فيهم حسن السيرة، مجاهدا ميمون النقيبة، ولم يزل و اليا عليها حتى قتل عثمان، وقد حقق أعظم الإنجازات، فوصلت الفتوحات على يديه إلى أقصى المشارق، وانتهت بتقويض ملك الإمبراطورية المجوسية ومقتل يَزْدَجِرْد الثالث آخر ملوكهم.

=================

إنجازات عبد الله بن عامر[31]

لأمة ، فماذا أقول لربي إذا قدمت عليه ، وليس لي فيما عرضت من حاجة ، والسلام عليك.
- قال أبو بردة : فلما ولي معاوية أتيته ، فما أغلق دوني باباً ، ولا كانت لي حاجة إلا قضيت.
- قلت : قد كان أبو موسى صواماً قواماً ربانياً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر ، لم تغيره الإمارة ، ولا اغتر بالدنيا.
- توفي سنة اثنتين وأربعين.
- عن أبي نضرة : قال عمر لأبي موسى : شوقنا إلى ربنا. فقرأ. فقالوا : الصلاة. فقال : أو لسنا في صلا ة.
- روى الزبير بن الخريت ، عن أبي لبيد ، قال : ما كنا نشبه كلام أبي موسى إلا بالجزار الذي ما يخطئ المفصل.
- عن أبي عمرو الشيباني ، قال : قال أبو موسى : لأن يمتلئ منخري من ريح جيفة أحب إلى من أن يمتلئ من ريح امرأة.
- عن عبد الرحمن ابن مولى أم برثن ، قال : قدم أبو موسى الأشعري وزياد على عمر رضي الله عنه. فرأى في يد زياد خاتماً من ذهب ، فقال : اتخذتم حلق الذهب ، فقال أبو موسى ، أما أنا فخاتمي من حديد. فقال عمر : ذاك أنتن ، أو أخبث ، من كان متختماً فليتختم بخاتم من فضة.
- وقال أبو بردة : قال أبي : ائتني بكل شيء كتبته ، فمحاه ، ثم قال : احفظ كما حفظت.
- عن الحسن : قال : كان الحكمان : أبا موسى ، وعمراً ، وكان أحدهما يبتغي الدنيا ، والآخر يبتغي الآ خرة.
- عن أبي مجلز : أن أبا موسى قال : إني لأغتسل في البيت المظلم ، فأحني ظهري حياء من ربي.
نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ، للدكتور محمد موسى 165/1

[31] - هو عبشمي الآباء ، هاشمي الخئولة . فإن . . . أروى بنت كريز أمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبي صلى الله عليه وسلم . ولما ولد أتي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبني عبد شمس : « هذا أشبه بنا منه بكم » ثم تفل في فيه فازدرده ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرجو أن يكون مسقيا » فكان لا يعالج أرضا إلا ظهر منها الماء ونشأ سخيا كريما شجاعا ميمون النقيبة كثير المناقب . افتتح خراسان كلها ، وأطراف فارس ، وسجستان ، وكرمان حتى بلغ أعمال غزنة ، وقضى على يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس . ويعتقد الإيرانيون أن سلسلة ملوكهم بدأت بآدمهم الذي يسمونه (جيومرث) فلم يزل ملك أولاده منتظما على سياق إلى أن كان القضاء الأخير عليه بسلطان الإسلام في خلافة أمير المؤمنين عثمان بجهاد هذا العبشمي الآباء الهاشمي الخئولة عبد الله بن عامر بن كريز . وهي حرقة في قلوب أهل النزعة المجوسية على الإسلام , وعلى عثمان ، وابن كريز ، فهم يحقدون على هؤلاء ويحاربونهم إلى اليوم بسلاح الكذب ، والبغض والدسائس ، وسيستمر ذلك إلى يوم القيامة . أما صادقو الإسلام ممن أنجبت إيران أيام كانت شافعية المذهب ، ولما كان ينبغ منها علماء السنة المحمدية قبل ذلك ، وفيهم كبار الأئمة والمحدثون والفقهاء ، فقد نزهوا قلوبهم عن أن يكون فيها غل للذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم حتى فتح الله الأقطار على أيديهم ، وهدى الأمم بسببهم ، فهم يحبونهم ويجلونهم على أقدارهم . ونحن لا ندعي العصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتوقع الخطأ من كل إنسان ، صحابيا كان أو من التابعين أو الذين يتبعونهم بإحسان . ولكن الذين ملأوا الدنيا بالحسنات كأنها كالجبال ، فإن الذي يعمى عنها ، ويدس

ها هي روح شابة تنال ثقة أمير المؤمنين عثمان، فيدفع بها إلى الصفوف الأ
ولى من تحمّل المسؤولية، فيتولى عبد اللّه بن عامر أمر المواجهة مع فارس وأمر إدارة شؤون البصرة ذات الموضع الاجتماعي المعقّد. وكم كانت كفاية عبد اللّه وقدراته تنمّ عن موهبة فذّة في الإدارة والجندية، وإنجازاته البارزة تثبت ذلك، فقد فتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسِجِسْـتان وكرمان حتى بلغ غَزْنة، وفي عهده قُتل يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفرس، الذي كان يفر هاربا في البلاد أمام جيوش عبد اللّه بن عامر حتى قتل.

ثم رجع ابن عامر بعد أن فتح هذه البلاد العظيمة، فقيل له: ما فتح اللّه على أحد مثل ما فتح عليك: فارس وكرمان وسجستان وخراسان، فقال: " لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج معتمرا من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور"، ووفى بنذره، وفرق أموالا كثيرة في أهل المدينة.

ومن منجزات عبد اللّه بن عامر أيضا أنه أتم حفر نهر الأبلة، ذلك المشروع الضخم الذي ابتدأ في ولاية سلفه أبي موسى الأشعري، وحفر غيره من الأ
نهار التي زودت مدينة البصرة بالماء اللازم لها، واتصلت تجارتها بالأقاليم المجاورة فدفع ذلك نموها وازدهارها.

وأسهم عبد اللّه بن عامر في تطوير البصرة بسياسته التي هدفت إلى تشجيع العمران بالمدينة، بمنح الإقطاعات للأشخاص ليتنامى الإنتاج، واتخاذ الأسواق وتأسيسها بالمدينة، فقام بشراء عددٍ من الدور وبنى في موضعها سوقا، لاسيما أن سوق المربد لم تعد قادرة على سد الحاجات الجديدة للمدينة.

((ولما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين، بلغه أن في عبد القيس رجلا ً نازلا ً على حكيم بن جبلة، وكان حكيم بن جبلة رجلا ً لصّاً، إذا قفل الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيغير على أهل الذّمة، ويتنكّر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمّة وأهل القبلة إلى عثمان. فكتب إلى عبد اللّه بن عامر: أن احبسه، ومن كان مثله فلا

أنفه في مرمى القاذورات ليستخرج منها ما يذم العظماء به ، وإن لم يجد يختلق ويكذب ، فإن من كرامة المسلم على نفسه أن يترفع عن الإصغاء لأمثال هؤلاء والانخداع لهم . ودع عنك فتوح عبد الله بن عامر بن كريز التي وصلت إلى أقصى المشارق ، وتقويضه آخر أمل للإمبراطورية المجوسية ، فإن حسناته الإنسانية أيضا جديرة بالتسجيل ، قال ابن كثير في البداية والنهاية (8 : 88) : إنه « أول من اتخذ الحياض بعرفة لحجاج بيت الله الحرام وأجرى إليها الماء المعين » . وقال عنه شيخ الإ
سلام ابن تيمية في منهاج السنة (3 : 189 - 190) : « إن له من الحسنات والمحبة في قلوب الناس ما لا ينكر » . ومثل هؤلاء الرجال لو كانوا من سلف الإنكليز أو الفرنيسين لخلدوا عظمتهم في كتب الدراسة والثقافة والتهذيب ، فتهافتت وزارات معارفنا على نقل ذلك من كتبهم إلى كتبنا المدرسية ، ليؤمن جيلنا بعظمة أسلاف المستعمرين . أما عظمة أسلافنا نحن فقد سلط الشيطان عليها قلوبا فاسدة تفيض بالسوء ، وصدّق أكاذيبها الأكثرون منا ، فأمسينا كالأمة التي لا مجد لها ، بينما هي نائمة على تراث من المجد لا تحلم الإنسانية بمثله .

هامش العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 92)

يخرجنّ من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً؛ فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها. فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرّح، فقبلوا منه، واستعظموه، وأرسل إليه ابن عامر، فسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام، ورغب في جوارك؛ فقال: ما يبلغني ذلك، اخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقرّ بمصر، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم.))[32]

================

ولاية مصر

تعد مصر أحد مواطن القوة الإسلامية ومصادر ثراء المسلمين منذ توجه إليها عمرو بن العاص[33] من قيسارية بفلسطين لفتحها في أواخر سنة ثماني

---

[32] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 463) تسيير عثمان من سيّر من أهل البصرة إلى الشام

[33] - إنه الصحابي الجليل عمرو بن العاص بن وائل السهمي -رضي الله عنه- أحد فرسان قريش وأبطالها، أذكى رجال العرب، وأشدهم دهاءً وحيلة، أسلم قبل فتح مكة، وكان سبب إسلامه أنه كان كثير التردد على الحبشة، وكان صديقًا لملكها النجاشي، فقال له النجاشي ذات مرة: يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقًا. قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال: أي والله، فأطعني. [ابن هشام وأحمد]. فخرج عمرو من الحبشة قاصدًا المدينة، وكان ذلك في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة، فقابله في الطريق خالد بن الوليد

وعثمان بن طلحة، وكانا في طريقهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فساروا جميعًا إلى المدينة، وأسلموا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم :، وبايعوه.

أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يومًا فقال له: (خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني)، فجاءه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك رغبة صالحة من المال). فقال: يا رسول الله، ما أسلمتُ من أجل المال، ولكنى أسلمتُ رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :. فقال صلى الله عليه وسلم : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) [أحمد].

وكان عمرو بن العاص مجاهدًا شجاعًا يحب الله ورسوله، ويعمل على رفع لواء الإسلام ونشره في مشارق الأرض ومغاربها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف لعمرو شجاعته وقدرته الحربية ، فكان يوليه قيادة بعض الجيوش والسرايا، وكان يحبه ويقربه، ويقول عنه: (عمرو بن العاص من صـ الحي قريش، نعم أهل البيت أبو عبد الله، وأم عبد الله، وعبد الله) [أحمد]. وقال صلى الله عليه وسلم : (ابنا العاص مؤمنان، عمرو وهشام) [أحمد والحاكم].

وقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى ذات السلاسل في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة، وجعل أميرها عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص واليًا على عُمان، فظل أميرًا عليها حتى توفي النبي صلى الله عليه وسلم . وقد شارك عمرو بن العاص في حروب الردة وأبلى فيها بلاءً حسنًا.

وفي عهد الفاروق عمر -رضي الله عنه- تولى عمرو بن العاص إمارة فلسطين، وكان عمر يحبه ويعرف له قدره وذكاءه، فكان يقول عنه: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا. [ابن عساكر]، وكان عمر إذا رأى رجلا ً قليل العقل أو بطيء الفهم يقول: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

وكان عمرو يتمنى أن يفتح الله على يديه مصر، فظل يحدث عمر بن الخطاب عنها، حتى أقنعه، فأمّره الفاروق قائدًا على جيش المسلمين لفتح مصر وتحريرها من أيدي الروم، فسار عمرو بالجيش واستطاع بعد كفاح طويل أن يفتحها، ويحرر أهلها من ظلم الرومان وطغيانهم، ويدعوهم إلى دين الله عز وجل، فيدخل المصريون في دين الله أفواجًا.

وأصبح عمرو بن العاص واليًا على مصر بعد فتحها، فأنشأ مدينة الفسطاط، وبنى المسجد الجامع الذي يعرف حتى الآن باسم جامع عمرو، وكان شعب مصر يحبه حبًا شديدًا، وينعم في ظله بالعدل و الحرية ورغد العيش، وكان عمرو يحب المصريين ويعرف لهم قدرهم، وظل عمرو بن العاص واليًا على مصر حتى عزله عنها عثمان ابن عفان -رضي الله عنه-، ثم توفي عثمان، وجاءت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما-، فوقف عمرو بن العاص بجانب معاوية، حتى صارت الخلافة إليه.

عشرة للهجرة، واكتمل فتحها سنة إحدى وعشرين، واستمر عمرو واليا عليها حتى وفاة عمر رضي الله عنهما.

ولما ولي عثمان الخلافة أقر عَمرا على مصر في صدر إمارته، يدير أمورها، ويسوس شؤونها، وكان عمرو يُحكم قبضته عليها، مما دفع بعض الأشرار و المنحرفين إلى أن يشكوه إلى عثمان، ولم يكن عثمان يعزل أحدا إلا عن شكاية أو استعفاء من غير شكاية؛ فنقل منه خراجَ مصر، وولى عليه عبد الله بن سعد بن أبي السرح[34] لمؤهلاته الشخصية.

فعاد عمرو إلى مصر مرة ثانية، وظل أميرًا عليها حتى حضرته الوفاة، ومرض مرض الموت، فدخل عليه ابنه عبد الله -رضي الله عنه-، فوجده يبكي، فقال له: يا أبتاه! أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ فأقبل بوجهه فقال: أني كنت على أطباق ثلاث (أحوال ثلاث)، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا ل رسول الله صلى الله عليه وسلم مني، و لا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال فقبضت يدي، فقال: (مالك يا عمرو؟) قال: قلت: أردت أن أشترط: قال: (تشترط بماذا؟) قلت: أن يغفر لي، قال: (أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟)، وما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا ً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأ نني لم أكن أملأ عيني منه إجلالا ً له، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالي فيها، فإذا أنا مت، فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا على التراب شنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور (الوقت الذي تذبح فيه ناقة)، ويقسم لحمها ؛ حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي) [مسلم].

وتوفي عمرو -رضي الله عنه- سنة (43 هـ)، وقد تجاوز عمره (90) عامًا، وقد روى عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم (39) حديثًا.

[34] - عبد الله بن سعد عبد الله بن سعد

ابن أبي سرح بن الحارث، الأمير ، قائد الجيوش ، أبو يحيى القرشي العامري ، من عامر بن لؤي بن غ الب . هو أخو عثمان من الرضاعة ، له صحبة ورواية حديث . روي عنه الهيثم بن شفي . ولي مصر لعثمان . وقيل : شهد صفين . والظاهر أنه اعتزل الفتنة ، وانزوى إلى الرملة .

قال مصعب بن عبد الله : استأمن عثمان لابن أبي سرح يوم الفتح من النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان أمر بقتله . وهو الذي فتح إفريقية . قال الدارقطني : ارتد ، فأهدر النبي دمه ، ثم عاد مسلما ، واستوهبه عثمان . قال ابن يونس : كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص ، وكان فارس بني عامرالمعدود فيهم . غزا إفريقية . نزل بأخرة عسقلان ، فلم يبايع عليا ولا معاوية . قال أبو نعيم : قيل : توفي سنة تسع وخمسين .

الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان ابن أبي سرح يكتب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأزله الشيطان ، فلحق بالكفار ، فأمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقتل ، فاستجار له عثمان .

علي بن جدعان ، عن ابن المسيب ; أن رسول الله أمر بقتل ابن أبي سرح يوم الفتح ، فشفع له عثمان .

أبو صالح ، عن الليث قال : كان عبد الله بن سعد واليا لعمر على الصعيد ، ثم ولاه عثمان مصر كلها ، وكان محمودا . غزا إفريقية ، فقتل جرجير صاحبها . وبلغ السهم للفارس ثلاثة آلاف دينار ، وللراجل ألف دينار . ثم غزا ذات الصواري ، فلقوا ألف مركب للروم ، فقتلت الروم مقتلة لم يقتلوا مثلها قط . ثم غزوة الأساود . وقيل : إن عبد الله أسلم يوم الفتح ولم يتعد ولا فعل ما ينقم عليه بعدها . وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم .

الواقدي : حدثنا أسامة بن زيد ، عن يزيد بن أبي حبيب قال : كان عمرو بن العاص على مصر لعثمان ، فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة والجند . واستعمل عبد الله بن أبي سرح على الخراج ، فتداعيا . فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان : إن عمرا كسر الخراج علي . وكتب عمرو : إن ابن سعد كسر علي مكيدة الحرب . فعزل عمرا ، وأضاف الخراج إلى ابن أبي سرح . وروى ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي

ولم يكتف هؤلاء الأشرار بذلك حتى سعوا بين عمرو وعبد الله بن سعد، وأوقعوا الخلاف بينهما، فبلغ ذلك عثمانَ فعزل عَمْرًا وجعل مصر كلها لابن أبي السرح، وقدم عمرو المدينةَ مُغضبًا.
وبذلك نجحت مكيدتهم في عزل عمرو عن مصر، فخلا لهم الجو وعاثوا فيها فسادا، وبثوا أفكارهم الهدامة بين الناس، وظهرت أولُ بوادر الفتنة في تحريض محمد بن أبي حذيفة [35] ومحمد بن أبي بكر [36] الناسَ على ذم عثمان

حبيب ، قال : أقام عبد الله بن سعد بعسقلان ، بعد قتل عثمان ، وكره أن يكون مع معاوية ، وقال : لم أكن لأجامع رجلا قد عرفته ، إن كان ليهوى قتل عثمان . قال : فكان بها حتى مات .
سعيد بن أبي أيوب : حدثني يزيد بن أبي حبيب ، قال : لما احتضر ابن أبي سرح وهو بالرملة ، وكان خرج إليها فارا من الفتنة ، فجعل يقول من الليل : آصبحتم ؟ فيقولون : لا . فلما كان عند الصبح ، قال : ياهشام ! إني لأجد برد الصبح فانظر . ثم قال : اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح ، فتوضأ ، ثم صلى ، فقرأ في الأولى بأم القرآن والعاديات ، وفي الآخرى بأم القرآن وسورة وسلم عن يمينه ، وذهب يسلم عن يساره فقبض -رضي الله عنه . ومر أنه توفي سنة تسع وخمسين والأصح وفاته في خلافة علي -رضي الله عنه- . الشبكة الإسلامية
[35] - محمد بن أبي حذيفة محمد بن أبي حذيفة
هو الأمير أبو القاسم العبشمي ، أحد الأشراف ، ولد لأبيه لما هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة . وله رؤية . ولما توفي النبي -صلى الله عليه وسلم- كان هذا ابن إحدى عشرة سنة ، أو أكثر .
وكان أبوه من السابقين الأولين ، البدريين . وكان جده عتبة بن ربيعة سيد المشركين وكبيرهم ، فقتل يوم بدر ، واستشهد أبو حذيفة يوم اليمامة ، فنشأ محمد في حجر عثمان .
وأمه هي سهلة بنت سهيل العامرية . وتربى في حِشْمَةٍ وبَأْوٍ ، ثم كان ممن قام على عثمان ، واستولى على إمرة مصر .
روى عنه عبد الملك بن مليل البلوي .
قال ابن يونس : وانبرى بمصر محمد بن أبي حذيفة على متوليها عقبة بن مالك ، استعمله عبد الله بن أبي سرح لما وفد إلى عثمان ، فأخرج عقبة عن الفسطاط ، وخلع عثمان .
وكان يسمى مشئوم قريش .
وذكره شباب في تسمية عمال علي -رضي الله عنه- على مصر ، فقال : ولى محمدا ، ثم عزله بقيس بن سعد .
ابن المبارك : حدثنا حرملة بن عمران ، حدثني عبد العزيز بن عبد الملك بن مليل ، حدثني أبي قال : كنت مع عقبة بن عامر جالسا بقرب المنبر يوم الجمعة ، فخرج محمد بن أبي حذيفة ، فاستوى على المنبر ، فخطب ، وقرأ سورة -وكان من أقرأ الناس- فقال عقبة : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : ليقرأن القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . فسمعها محمد بن أبي حذيفة ، فقال : والله لئن كنت صادقا -وإنك ما علمت لكذوب- إنك لمنهم .
قال ابن المبارك : حمل هذا الحديث أنهم يجمعون معهم ، ويقولون لهم هذه المقالة .
ابن عون ، عن ابن سيرين ; أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة وكعبا ركبا سفينة ، فقال محمد : يا كعب ! أما تجد سفينتنا هذه في التوراة كيف تجري ؟ قال : لا ، ولكن أجد فيها رجلا أشقى الفتية من قريش ، ينزو في الفتنة نزو الحمار ، لا تكون أنت هو .
ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، قال : انطلق ابن أبي حذيفة مع معاوية ، حتى دخل بهم الشام ، ففرقهم نصفين ، فسجن ابن أبي حذيفة وجماعة بدمشق ، وسجن ابن عديس وجماعة ببعلبك .
وقال ابن يونس : قتل ابن أبي حذيفة بفلسطين سنة ست وثلاثين وكان ممن أخرجه معاوية من مصر .
قلت : عامة من سعى في دم عثمان قتلوا ، وعسى القتل خيرا لهم وتمحيصا - الشبكة الإسلامية
[36] - محمد بن أبي بكر الصديق محمد بن أبي بكر الصديق
ولدته أسماء بنت عميس في حجة الوداع وقت الإحرام .
وكان قد ولاه عثمان إمرة مصر كما هو مبين في سيرة عثمان ، ثم سار لحصار عثمان ، وفعل أمرا كبيرا ، فكان أحد من توثب على عثمان حتى قتل ، ثم انضم إلى علي ، فكان من أمرائه ، فسيره على إمرة مصر سنة سبع وثلاثين في رمضانها ، فالتقى هو وعسكر معاوية ، فانهزم جمع محمد ، واختفى

ووالیه ابن أبي السرح، أثناء الخروج إلى معركة ذات الصواري[37]،
عن حنش بن عبد الله الصنعانيّ، قال: كان أوّل ما سمع من محمد بن أبي حذيفة حين ركب الناس البحر سنة إحدى وثلاثين، لمّا صلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالناس العصر، كبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً ورفع صوته حتى فرغ الإمام عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ فلما انصرف سأل: ما هذا؟ فقيل له: هذا محمد بن أبي حذيفة يكبّر، فدعاه عبد الله بن سعد، فقال له: ما هذه البدعة والحدث؟ فقال له: ما هذه بدعة ولا حدث؛ وما بالتّكبير

هو في بيت مصرية ، فدلت عليه ، فقال : احفظوني في أبي بكر ; فقال معاوية بن حديج : قتلت ثمانين من قومي في دم الشهيد عثمان ، وأتركك ، وأنت صاحبه ! فقتله ، ودسه في بطن حمار ميت ، وأحرقه .
وقال عمرو بن دينار : أتي بمحمد أسيرا إلى عمرو بن العاص ، فقتله ، يعني : بعثمان .
قلت : أرسل عنه ابنه القاسم بن محمد الفقيه . الشبكة الإسلامية

[37] - لما ولي معاوية بن أبي سفيان الشام ألح على عمر الفاروق في غزو البحر ، وكتب له معاوية : (إن قرية من قرى حمص ليسمعُ بنباح كلابهم ، وصياح دجاجاتهم) . فاحتار عمر وكتب إلى عمرو بن العاص واليه على مصر : (صف لي البحر وراكبه ؛ فإن نفسي تنازعني عليه) . فكتب عمرو : (إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين – بالنجاة – قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق) .
قرأ عمر الكتاب ثم كتب إلى معاوية : (والذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وبالله لمسلمٌ واحدٌ أحب إلي مما حوت الروم) .
ولما ولي عثمان الخلافة كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، وذلك بعد أن بدأ معاوية باستكمال الاستعدادت ، فوافق عثمان على طلبه ، وكتب إليه : (لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه) .
فبنى معاوية أسطولا ً إسلامياً ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي فاستطاع فتح قبرص .
وولى عثمان عبد الله بن سعد بن أبي السرح ولاية مصر فبدأ بغزو جنوب ليبيا ، ثم غزا بلاد النوبة ، با لإضافة إلى أن معاوية سيطر على الشواطىء في بلاد الشام وآسيا الصغرى ، فلما رأى الروم خسائرهم المتوالية في البر جمع قسطنطين بن هرقل أسطولا ً رومياً به ألف سفينة لضرب المسلمين ، فأرسل معاوية - بعد إذن عثمان - مراكب الشام بقيادة بُسر بن أرطاة ، واجتمع مع بن أبي سرح في مراكب مصر ، ومجموعها مائتا سفينة فقط ، وكانت المعركة التي يترجح أنها وقعت على شواطىء الاسكندرية ، سنة 32 للهجرة .
والتقى الجيشان في عرض البحر ، وطلب المسلمون من الروم : إن أحببتم ننزل إلى الساحل فنقتتل ، حتى يكتب لأحدنا النصر ، وإن شئتم فالبحر ، فأبى الروم إلا الماء ، وبات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر ، وقام المسلمون الليل يصلون ويدعون ويذكرون ، وبات الروم يضربون النواقيس .
ولما صلى المسلمون الفجر أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامسوها ، ونزل الفدائيون إلى الماء وربطوا السفن العربية بسفن الروم بحبال متينة ، وبدأ الروم القتال ، وصار قاسياً ، وسالت الدماء حتى احمرت صفحة المياه ، وترامت الجثث في الماء ، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل ، وقتل من المسلمين الكثير ، وقتل من الروم ما لا يحصى ، وصمد المسلمون ، فكتب الله لهم النصر بما صبروا ، واندحر الروم ، وكاد قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين ، لكنه فر مدبراً والجراحات في جسمه حتى وصل جزيرة صقلية ، فسأله أهلها عن أمره ، فأخبرهم فقتلوه حنقاً عليه.
والصواري جمع صار ، وهي الخشبة المعترضة وسط السفينة ، وسميت المعركة كذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعتها ، أو لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال في ذلك اليوم (1200 سفينة عربية وورمية) .
ذات الصواري ، للدكتور شوقي أبو خليل

بأس، قال: لا تعودنّ.
قال: فأسكت محمد بن أبي حذيفة، فلمّا صلّى المغرب عبد الله بن سعد كبّر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً أرفع من الأوّل، فأرسل إليه: إنّك غلام أحمق؛ أما والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوك. فقال محمد بن أبي حذيفة: والله مالك إلى ذلك سبيل؛ ولو هممت به ما قدرت عليه. قال: فكفّ خير لك؛ والله لا تركب معنا، قال: فأركب مع المسلمين؟ قال: اركب حيث شئت. قال: فركب في مركب وحده ما معه إلى القبط؛ حتى بلغوا ذات الصواري؛ فلقوا جموع الرّوم في خمسمائة مركب أو ستمائة فيها القسطنطين بن هرقل، فقال: أشيروا عليّ، قالوا: ننظر الليلة، فباتوا يضربون بالنّواقيس، وبات المسلمون يصلّون ويدعون الله.
ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين أن يقاتل، فقرّبوا سفنهم، وقرّب المسلمون فربطوا بعضها إلى بعض، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر، ووثبت الرّوم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها؛ فكانوا يقاتلون على غير صفوف. قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم إنّ الله نصر المؤمنين، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الرّوم إلاّ الشريد.
قال: وأقام عبد الله بذات الصواري أيّاماً بعد هزيمة القوم؛ ثم أقبل راجعاً؛ وجعل محمد بن أبي حذيفة يقول للرجل: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً، فيقول الرجل: وأيّ جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا، وفعل كذا وكذا حتى أفسد الناس. فقدموا بلدهم وقد أفسدهم، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به.
قال محمد بن عمر: فحدّثني معمر بن راشد، عن الزّهريّ، قال: خرج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر عام خرج عبد الله بن سعد، فأظهرا عيب عثمان وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر؛ وأنّ دم عثمان حلال. ويقولان: استعمل عبد الله بن سعد؛ رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره، وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً وأدخلهم، ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر. فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدوّ؛ وكانا أكلّ المسلمين قتالاً، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكّمه! عبد الله بن سعد استعمله عثمان، وعثمان فعل وفعل؛ فأفسدا أهل تلك الغزاة، وعابا عثمان أشدّ العيب. فأرسل عبد الله بن سعد إليهما ينهاهما أشدّ النّهي، وقال: والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما[38].
وقد شجع ذلك من في حلوقهم غصة على عثمان رضي الله عنه، حتى علت

[38] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 448) فما بعدها

الأصوات المنخفضة، وخرجت الفتن المختبئة، وخرج الناس على الخليفة، وذهبت جماعة منهم إلى المدينة، وكان ما كان من حصارهم له، ثم قُتل شهيدا ـ رضي الله عنه وأرضاه.

===============

ولاية الشام

الشام منذ أيامها الأولى في ظلال الإسلام وهي أعظم ولايات دولة الراشدين شأنًا، ففيها موطنٌ كبير للقوة الإسلامية، وامتدادٌ هام لدولة الإسلا م إلى الشمال يمثل ظهرا للفتوح في جهات أخرى عديدة.

وقد تولى عثمان - رضي الله عنه - الخلافةَ ومعاوية رضي الله عنه[39] أميرٌ

---

[39] - ومن هؤلاء الصحابة الكرام، الصحابي الجليل، الخليفةُ والملك القائد،صاحب الفتوحات الإسلامية، والقائد المُحنّك، وداهية زمانه: معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه.

من هو مُعاوية؟

هو: معاوية بن أبي سفيان، واسم أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، يكنى أبا عبد الرحمن.

أمه: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأمها: صفية بنت أمية بن حارثة بن الأقوص بن سليم.

كان أبيض طويلا ً ن أبيض الرأس واللحية، أصابته لقوةٌ (اللقوة: داء يصيب الوجه) في آخر حياته.

قال أسلم مولى عمر: قدِمَ علينا معاوية وهو أبيض الناس وأجملهم.

ولقد كان حليماً وقوراً، رئيساً سيداً في الناس، كريماً عادلا ً شهماً.

قال المدائني: عن صالح بن كيسان قال: رأى بعض منفرسي العرب معاوية وهو صغير، فقال: إني لأظن هذا الغلام سيسود قومه. فقالت هند- أم معاوية- ثكِلتُهُ إن كان لا يسود إلا قومه.

إسلامه

أسلم هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه يوم فتح مكة.

وروي عنه أنه قال: أسلمتُ يوم القضيّة- أي: يوم عمرة القضاء-، وكتمت إسلامي خوفاً من أبي.

قال معاوية: لمّا كان يوم الحديبية وصدّت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت، ودافعوه بالروحاء وكتبوا بينهم القضيّة، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة، فقالت: إيّاك أن تخالف أباك، وأن تقطع أمراً دونه فيقطع عنك القوت، وكان أبي يومئذ غائباً في سوق حُباشة.

قال: فأسلمت وأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وإني مصدقٌ به، وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرة القضية وأنا مسلم مصدق به، وعَلِمَ أبو سفيان بإسلامي فقال لي يوماً: لكن أخوك خير منك، وهو على ديني، فقلت: لم آل نفسي خيراً.

فضائله

1- كان أحد الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه كان يكتب الوحي، وفي هذه المسألة خلاف بين المؤرخين، وكان يكتب رسائل النبي صلى الله عليه وسلم لرؤساء القبائل العربية.

2- شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً، وأعطاه مائة من الإبل، وأربعين أوقية من ذهب وزنها بلال رضي الله عنه.

3- شهد اليمامة، ونقل بعض المؤرخين أن معاوية ممن ساهم في قتل مسيلمة الكذاب.

4- صَحِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة، في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد.

5- روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين.

ثناء الصحابة والتابعين عليه

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- بعد رجوعه من صفين: لا تكرهوا إمارة معاوية، والله لئن فقدتموه لكأني أنظر إلى الرؤوس تندرُ عن كواهلها.

وقال سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه-: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب- يعني معاوية-.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما-: ما رأيت رجلاً أخلَقَ للمُلك من معاوية، لم يكن بالضيّق الحصر.
وقال ابن عمر رضي الله عنهما: علمتُ بما كان معاوية يغلب الناس، كان إذا طاروا وقع، وإذا وقعوا طار.
وعنه قال: ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْوَدَ من معاوية- أي: من السيادة-، قيل له: ولا أبو بكر وعمر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خيراً منه، وما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْوَدَ من معاوية.
قال كعب بن مالك- رضي الله عنه-: لن يملك أحدٌ هذه الأمة ما ملك معاوية.
وعن قبيصة عن جابر- رضي الله عنه- قال: صحبتُ معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حلماً، ولا أبطل جهلاً، ولا أبعد أناةً منه.
عن أبي إسحاق قال: كان معاوية، وما رأينا بعده مثله.
حكم سب الصحابة
ينبغي لكل مسلم أن يعلم أنه لا يجوز له بحال من الأحوال لعنُ أحد من الصحابة، أو سبُه، ذلك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم نقلة هذا الدين.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » [متفق عليه].
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » [رواه البخاري ومسلم].
فهم رضوان الله تعالى عليهم خيرٌ من الحواريين أصحاب عيسى، وخير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا مع هود ونوح وغيرهم، ولا يوجد في أتباع الأنبياء من هو أفضل من الصحابة، ودليل ذلك الحديث الآنف الذكر [انظر فتاوى ابن عثيمين].
سئل شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- عمن يلعن معاوية، فماذا يجب عليه؟
فأجاب: الحمد لله من لعن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كمعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص ونحوهما، ومن هو أفضل من هؤلاء: كأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة ونحوهما، أو من هو أفضل من هؤلاء: كطلحة، والزبير، وعثمان، وعلي بن أبي طالب، أو أبي بكر الصديق، وعمر، أو عائشة أم المؤمنين، وغير هؤلاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه مُستحق للعقوبة البلغية باتفاق أئمة الدين، وتنازع العلماء: هل يُعاقب بالقتل، أم مادون القتل؟ كما بسطنا ذلك في غير هذا الموقع. [مجموع الفتاوى 35].
ولماذا يُصرُ البعض على الخوض فيما وقع بين علي ومعاوية- رضي الله عنهما- من خلاف، على الرغم من أن كثيراً من العلماء إن لم يكن جُلُهم، ينصحون بعدم التعرض لهذه الفتنة، فقد تأول كلٌ منهم واجتهد، ولم يكن هدفهم الحظوظ النفسية أو الدنيوية، بل كان هدفهم قيادة هذه الأمة إلى بر الأمان، كلٌ وفق اجتهاده- وهذا ما أقرّه العلماء-.
فمعاوية- رضي الله عنه- يعترف بأفضلية علي بن أبي طالب- رضي الله عنه، وأنه خيرٌ منه، أورد ابن عساكر- رحمه الله تعالى- في كتابه تاريخ دمشق ما نصه: جاء أبو موسى الخولاني وأناس معه إلى معاوية فقالوا له: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال معاوية: لا والله! إني لأعلم أن علياً أفضل مني، وإنه لأحق بالأمر مني، ولكنْ ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه؟ وإنما أطلب بدم عثمان، فأتوه فقولوا له، فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلِم له.
وإن من العقل والرؤية أن يُعرض المسلم عن هذا الخلاف، وأن لا يتطرق له بحال من الأحوال، ومن سمع شيئاً مما وقع بينهم فما عليه إلا الإقتداء بالإمام أحمد حينما جاءه ذلك السائل يسأله عما جرى بين علي ومعاوية، فأعرض الإمام عنه، فقيل له: يا أبا عبد الله! هو رجل من بني هاشم، فأقبل عليه فقال: اقرأ: { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [البقرة: 134] هذا هو الجواب نحو هذه الفتنة، لا أن يُتصدّر بها المجالس، ويُخطأ هذا، ويُصوّب ذاك!
فمعاوية رضي الله عنه صحابي جليل، لا تجوز الوقيعة فيه، فقد كان مُجتهداً، وينبغي للمسلم عند ذكره أن يُبيّن فضائله ومناقبه، لا أن يقع فيه، فابن عباس رضي الله عنه عاصر الأحداث الدّائرة بين علي ومعاوية، وهو أجدرُ بالحكم في هذا الأمر، وعلى الرغم من هذا، إلا أنه حين ذكر معاوية عنده قال: تِلادُ ابن هند، ما أكرم حسبه، وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض، ضنّاً منه بأحسابنا وحسبه.
كان معاوية من المشاركين في معركة اليرموك الشهيرة، وأورد الطبري- رحمه الله تعالى- أن معاوية كان من الموقعين على وثيقة استلام مدينة القدس بعد معركة اليرموك، والتي توّجها الخليفة عمر

على الشام، فأقره عليها لِمَا علم فيه من كفاية ونباهة، ولاستعمال أبي بكر وعمر له من قبْلُ، ولِمَا منحه الله من صفات أهّلتْه للقيادة والحكم والإدارة، فاستطاع بحسن سياسته أن يدير الشام إدارة حكيمة، حيث أحكم سيطرته عليها، فسهلت له قيادتها، وجعل منها أقوى ولاية إسلامية حينئذ، فنَعِمَتْ معه رعيته بالخير والبركة، وبرزت إنجازاته في هذه الولاية بوضوح.

ولم يكن معاوية ـ رضي الله عنه ـ يدع شيئا يزعزع استقرار بلاده، أو يهدد أمن ولايته إلا قضى عليه في مهده ودون مساعدة من الخليفة، إلا ما كان من أمر الخلاف مع أبي ذر رضي الله عنه[40] ومنهجه، حيث استعان بأمير

بحضوره إلى فلسطين، وكان معاوية واليا على الشام ذلك الوقت.

عن الإمام أحمد قال: إذا رأيت الرجل يذكر أحداً من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم بسوء، فاتهمْهُ على الإسلام.

وقيل لابن المبارك: ما تقول في معاوية؟ هو عندك أفضل أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لترابٌ في مِنْخَرَيْ معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ- أو أفضل- من عمر بن عبد العزيز.

فعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، مع جلالة قدره، وعلمه، وزهده، وعدله، لا يُقاس بمعاوية، لأن هذا صحابي، وذاك تابعي!، ولقد سأل رجل المعافى بن عمران- رحمه الله تعالى- قائلا ً: يا أبا مسعود! أين عمر بن عبد العزيز من معاوية؟ فغضب وقال: يومٌ من معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز عُمُره، ثم التفت إليه فقال: تجعل رجلا ً من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم مثل رجل من التابعين.

قال الإمام الذهبي- رحمه الله- حسبك بمن يُؤمِّرهُ عمر، ثم عثمان على إقليم- وهو ثغر- فيضبطه، ويقوم به أتمّ قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم قد تألم مرة منه، وكذلك فليكن الملك.

قال المدائني: كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه في ثنايا هذه الأسطر، أن يُبيّن أن كثيراً مما قيل ضِدّ معاوية لا حقيقة له، ولعله من دسّ الرافضة، الذين يحملون عليه، لا بسبب! إلا لامتناعه من التسليم لعليّ رضي الله عنه.

ولولا فضل معاوية ومكانته عند الصحابة لما استعمله أمير المؤمنين عمر خلفاً لأخيه يزيد بعد موته بِ الشام، فكان في الشام خليفة عشرون سنة، وملكاً عشرون سنة، وكان سلطانه قوي، فقد ورد على لسان ابن عباس أنه قال: ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْوَدَ من معاوية، قيل له: ولا أبو بكر وعمر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خيراً منه، وما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْود من معاوية- أي في السيادة-.

ثم إن معظم من ذكر معاوية- إما بسوء كالرافضة، أو الغُلاة الذين يُنابذونهم- قد طغوا في ذمهم إياه، أو مديحهم له بشكل غير مقبول البتة.

قال ابن الجوزي في كتابه الموضوعات: (قد تعصّب قوم ممن يدّعي السنة، فوضعوا في فضل معاوية أحاديث ليغيظوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمّه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح).

وما أجمل أن نختم هذه الأسطر بقول شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى-:

(ولهذا كان من مذهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة، فإنه قد ثبتت فضائلهم، ووجبت مو الاتهم ومحبتهم. وما وقع: مِنْه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الإنسان، ومنه ما تاب صاحبه منه، ومنه ما يكون مغفوراً. فالخوض فيما شجر يُوقع في نفوس كثير من الناس بُغضاً وذماً، ويكون هو في ذلك مُخطئاً، بل عاصياً، فيضر نفسه ومن خاض معه في ذلك، كما جرى لأكثر من تكلم في ذلك، فإنهم تكلموا بكلام لا يحبه الله ولا رسوله: إما من ذمّ من لا يستحق الذم، وإما من مدح أمور لا تستحق المدح).

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[40] - أخبار أبي ذرّ رحمه الله تعالى وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاثين - كان ما ذكر من أمر أبي ذرّ ومعاوية، وإشخاص معاوية إيّاه من الشأم إلى المدينة، وقد ذكر في سبب إشخاصه إيّاه منها إليها أمور كثيرة، كرهت ذكر أكثرها.

فأما العاذرون معاوية في ذلك، فإنهم ذكروا في ذلك قصّة كتب إليّ بها السريّ، يذكر أن شعيباً حدّثه

المؤمنين عثمانَ لما أعيتْه الحيَل، فأعانه. وعموما كانت رعيتُه أكثرَ الأمصارِ طواعيةً لأميرها، فلم تظهرْ فيها الفتنة، ولم يجد مثيرو الفتنة لهم فيها مكانا ، بل إن معاوية عرض على أمير المؤمنين عثمان أن يخرج معه إلى الشام عندما حدثت الفتنةُ، أو أن يرسل لحمايته بالمدينة بعضَ أجناد الشام، ولكن أمير المؤمنين رفض ذلك كلّه. ولما جاءهم نبأ حصاره خرج جيش منهم لنصرته، ولكن جاءهم خبر مقتله قبل أن يصلوا إلى المدينة.

===============

من إنجازات معاوية رضي الله عنه

عن سيف، عن عطيّة، عن يزيد الفقعسيّ، قال: لما ورد ابن السوداء الشأم لقي أبا ذرّ فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول: المال مال الله! ألا إنّ كلّ شيء لله كأنه يريد أنيحتجنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذرّ، فقال: ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال الله! قال: يرحمك الله يا أبا ذرّ؛ ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره! قال: فلا تقله، قال: فإني لا أقول: إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين.

قال: وأتى ابن السوداء أبا الدرّداء، فقال له: من أنت؟ أظنّك والله يهوديّاً! فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به، فأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذرّ؛ وقام أبو ذرّ بالشأم وجعل يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم. فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.

فكتب معاوية إلى عثمان: إنّ أبا ذرّ قد أعضل بي، وقد كان من أمره كيت وكيت. فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، فلم يبق إلا أن تثب. فلا تنكأ الفرح، وجهّز أبا ذر إليّ، وابعث معه دليلا ً وزوّده، وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت؛ فإنما تمسك ما استمسكت. فبعث بأبي ذرّ ومعه دليل؛ فلمّا قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع، قال: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار.

ودخل على عثمان فقال: يا أبا ذرّ، ما لأهل الشام يشكون ذربك! فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا ً. فقال: يا أبا ذرّ؛ عليّ أن أقضي ما عليّ، وآخذ ما على الرعيّة، ولا أجبرهم على الزّهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد.

قال: فتأذن لي في الخروج، فإنّ المدينة ليست لي بدار؟ فقال: أو تستبدل بها إلا شرّاً منها! قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعاً؛ قال: فانفذ لما أمرك به. قال: فخرج حتى نزل الربذة، فخطّ بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين، وأرسل إليه: أن تعاهد المدينة حتى لا ترتدّ أعرابياً؛ ففعل.

وكتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أبو ذرّ يختلف من الرّبذة إلى المدينة مخافة الأعرابيّة، وكان يحبّ الوحدة والخلوة. فدخل على عثمان، وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان: لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتى يبذلوا المعروف؛ وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألا ّ يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان، ويصل القرابات. فقال كعب: من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه. فرفع أبو ذرّ محجنه فضربه فشجّه، فاستوهبه عثمان، فوهبه له، وقال: يا أبا ذرّ، اتق الله واكفف يدك ولسانك، وقد كان قال له: يا بن اليهوديّة؛ ما أنت وما ها هنا! و الله لتسمعنّ مني أو لأدخل عليك.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأشعث بن سوّار، عن محمد بن سيرين، قال: خرج أبو ذرّ إلى الرّبذة من قِبَل نفسه لما رأى عثمان لا ينزع له، وأخرج معاوية أهله من بعده، فخرجوا إليه ومعهم جراب يثقل يد الرجل، فقال: انظروا إلى هذا الذي يزهّد في الدنيا ما عنده! فقالت امرأته: أما والله ما فيه دينار ولا درهم، ولكنها فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا.

ولما نزل أبو ذرّ الربذة أقيمت الصلاة، وعليها رجل يلي الصدقة، فقال: تقدّم يا أبا ذرّ، فقال: لا، تقدّم أنت، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: " اسمع وأطع، وإن كان عليك عبد مجدّع " . فأنت عبد ولست بأجدع - وكان من رقيق الصدقة؛ وكان أسود يقال له مجاشع.تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 444) فما بعد

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ بِحَدِيثٍ يَرْفَعُهُ قَالَ « النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ ». (رواه مسلم).
كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما رجلا ً معدنه الذهبُ في الإدارة والإمارة، ولعله ورث ذلك عن قومه من بني أمية الذين كانوا من زعماء مكة في الجاهلية...
لقد كانت شخصية معاوية الأموي في ظل الإسلام جديرة بأن تحقق إنجازات بارزة إذا أتيحت له الفرصة، وقد انفتح الباب أمامه واسعا حين ولاه عمرُ بعضَ الشام إلى أن أصبح واليا على الشام كله، وكذلك حين وثق فيه عثمان فأقره في موضعه، وسمح له بتنفيذ بعض المشاريع التي كان يعارضها عمر رضي الله عنه – كالحرب في البحر -، خوفا على المسلمين.
لقد كان جند الشام تحت قيادة معاوية في طليعة جيوش الجهاد والفتوح الظافرة الداعية إلى الله بأخلاقها وسيرتها وحكمة قادتها وصدق إسلامهم، فانتصروا على عدوهم في البر والبحر، كما كان تأسيس الأسطول الإسلامي والفتوح البحرية الأولى من عمل معاوية رضي الله عنه الذي ألحّ على الخليفة الرفيق عثمان رضي الله عنه كي يقوم بها، حتى سمح له أمير المؤمنين بذلك، ففتح قبرص، وغزا مضيقَ القسطنطينية.
وقد حفظ معاوية وجندُه الشامَ - بفضل الله - وحمى سواحلها من غارات الروم ومحاولاتهم لاستردادها، بل كان له في كل سنة غزوة في بلاد الروم في زمن الصيف تسمى الصائفة.
=================
عرض الأمر على أهل المدينة
في فترة حكم الخلفاء الراشدين كانت الخلافة في المدينة مفزع الأمراء دائما إذا اعترضتهم مشكلة أو نابتهم نائبة، فكتب سعيد بن العاص إلى أمير المؤمنين عثمانَ يخبره باعتراضات أهل الكوفة وشغبهم بعد تنفيذ الوصايا التي أمر بها.
فلما جاء الكتاب إلى المدينة أمر عثمان مناديه أن ينادي في الناس: الصلاة جامعة، ليستشيرهم في هذا الأمر الغريب، فاجتمع إليه أهل المدينة، وأخذ يعرض عليهم الأمر من كتاب سعيد إليه يصف الوضع بالكوفة، ومقالة السوء التي شاعت ضده وضد ولاته.
كل هذا والناس تعجب مما تسمع، حتى فرغ عثمان من حديثه، فقالوا له: "أصبتَ يا أمير المؤمنين، فلا تسعفهم في ذلك، ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها".
فلما سمع منهم ذلك وموافقتهم له أوصاهم قائلا: " يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا، فقد دبت إليكم الفتن "[41]. ونزل من فوق منبر الرسول ـ صلى

[41] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 443)

الله عليه وسلم ـ مهموما، ثم أوى إلى منزله، وأخذ يفكر في كيفية علاج ذلك الخلل الاجتماعي، وبالفعل حاول العلاج، وكانت لهذه المحاولة نتائجها ـ وإن كان ذلك في إطار ضيق.

=================

محاولة علاج الخلل

حاول عثمان رضي الله عنه علاج الخلل الاجتماعي الذي جرى في الكوفة، وعمل على محاصرته ليمنع استفحاله وامتداد أثره إلى مواضع أخرى من بلا د المسلمين، وذلك في إطار سياسته العامة القائمة على تقديم أهل السابقة والدين، فأراد أن يزيد عددهم في الكوفة، ويعزز أوضاعهم بها، ويوازن الا تجاه القبَلِيّ بها، فاقترح لذلك أن ينتقل من شاء من الصحابة إلى العراق، وأن يتخذوا بها معايش ثابتة؛ وذلك بأن يشتروا لهم أراضي هناك؛ إما بأموالهم السائلة أو باستبدال أرض من أهل العراق بما يمتلكون في الحجاز، فسُرّ بذلك الصحابة، وفتح الله عليهم به أمرا لم يكن في حسابهم، ووجدوا فيه فرجا لهم، وسمح لهم بالانتشار في مناطق العالم الإسلامي.

وكان ذلك نقلة كبيرة عن سياسة الفاروق عمر رضي الله عنه الذي حجزهم بجواره لحاجته إليهم، ولتخوفه من تشعب الأمر بانقسام الناس حولهم إن جاوروهم بالأمصار، وخشي من فتنتهم بهم... ومعنى ذلك أن بواعث الفتنة التي ظهرت بالعراق خاصة الكوفة، كانت تعود إلى أسباب اجتماعية وسياسية، وليس مجرد النقمة على ولاة عثمان رضي الله عنه ، لأنه ولى أقاربه كما يظن الكثيرون!!!.

===============

نتيجة علاج الخلل

لا ريب أن الاجتهاد السياسي لعثمان رضي الله عنه كان يتوخى تهدئة الأ وضاع في الكوفة، والإقلال من خطر الخلل الاجتماعي بها، لكن نجاحه في ذلك بدا محدودا، إذ وجد الذين لا سابقة لهم والطارئون على الكوفة والأ عرابُ أنه ليست لهم مكانة أدبية ولا مادية في المجتمع، وإنما ذلك لأهل السابقة والفضل، فأخذوا يعيبون التفضيل، ويجعلونه فجوة، وهم يخفون ذلك ولا يكادون يظهرونه؛ لأنه لا حجة لهم، ولو أعلنوه لثار الناس عليهم؛ فكان إذا لحق بالكوفة لاحِقٌ من أعرابيٍّ أو عبدٍ محرّرٍ، أعجبه كلامهم، وانضم إليهم، حتى قويت شوكتهم، وظلوا على احتجاجهم على عثمان وولا ته، يثيرون من حولهم الإشاعات، وكانوا في زيادة يوما بعد يوم، والناس في نقصان حتى غلب الشر ، وحدث التمرد بالكوفة.

وزاد من انتشار التمرد أن عثمان رضي الله عنه لما اقترح على الصحابة أن يشتروا أرض العراق بما لهم من أرض وأسهم بالمدينة وغيرها من أرض الجزيرة العربية، محاولة منه لزيادة عدد الصحابة بالعراق ليوازن الاتجاه القبَلِيّ بها، حدث ما لم يكن متوقعا، فقد التف رجال القبائل حول هؤلاء الصحابة، وجعلوا منهم مراكز قوى يتطلعون بها إلى مركز الخلافة... أضف

إلى ذلك أن نظام العطاء الذي سنه عمر رضي الله عنه كان سببا في زيادة تذمر القبائل في العراق؛ إذ إنه رتب الناس في العطاء بحسب قرابتهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسابقتهم في الدين، وهؤلاء جميعا من قريش؛ مما أدى إلى تفضيل قريش في العطاء، فكان أن نقمت القبائلُ على قريش استئثارَها بالفيء وكثرةَ الأموالِ بأيديها.

وذلك لعدم فهمهم للدين الحنيف ، ونسوا قول الله تعالى في تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (10) سورة الحديد

================

التحريض على عثمان رضي الله عنه

كان إنشاء الأسطول البحري الإسلامي الأول واحدا من إنجازات عهد عثمان بن عفان الكبيرة، وها هو الأسطول يخرج في أولى مهامه الحربية، يشترك فيه جنود المسلمين من مصر والشام، للاشتباك مع الأسطول الروماني الذي دانت له السيطرة في البحر المتوسط أو بحر الروم زمنا طويلا..

واحتفل البحر بالأسطول الإسلامي بمنظره المهيب في معركة ذات الصواري ، غير أن نفوسا تلوثت بالدنيا وبالحقد على المسلمين أبت إلا أن يشتمل العُرس على مقدمات لحزن طويل، فمحمـد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر شاركا في معركة ذات الصواري سنة إحدي وثلاثين مع جيش عبد الله بن سعد بن أبي السرح، الذي خرج من مصر، فأخذا يبثان في الناس أكاذيب وأفكارا ضالة، تزعم أن عثمان رضي الله عنه غيّر وبدل وخالف أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن دم عثمان حلال.

واتهماه بأنه استعمل عبدَ الله بنَ سعدٍ الذي كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أباح دمه، ونزل القرآنُ بكفره، وبأنه نزع أصحابَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستعمل سعيدَ بنَ العاص وعبدَ الله بنَ عامر.

وأخذا يتكلمان بذلك وغيره في أهل تلك الغزوة، وبلغ عبدَ الله بن سعد ما يحدثان به الناس، فاستدعاهما وقال لهما: لا تركبا معنا، ومنعهما من الركوب مع جيشه، فركبا في مركب ليس فيه أحد من المسلمين، ولما كان وقتُ لقاء العدو، كانا أقل المسلمين قتالا وأقلهم حماسا، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه..[42] وعثمان فعل وفعل، حتى أفسدا أهلَ تلك الغزوة.

==============

2-مروان بن الحكم ورئاسة الديوان[43]

[42] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 448)

[43] - مروان بن الحكم مروان بن الحكم (خ)

ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي .

لن تستطيع أن تحصل على الحقيقة كاملة حول شخصٍ ما إذا كان أعداؤه هم الذين يكتبون تاريخَه، خاصة إذا كانت لهذه الشخصية مشاركات في أحداث متشابكة، اختصم فيها الناس، وتوزعوا فرقا، كالذي جرى في الفتنة...

ولعل هذا ينطبق بصورة واضحة على مروان بن الحكم، ذلك الشاب الأموي الذي نال ثناء العديد من رجال عصره، كما نال ثقة أمير المؤمنين عثمان، فو لاه رئاسة الديوان، واتخذه كاتبا لرسائله الخاصة...

وقد كانت تولية عثمان لمروان وأشباهه من بني أمية ـ كعبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي ولاه مصر، وعبد الله بن عامر الذي ولاه البصرة، ومعاوية بن أبي سفيان الذي استبقاه أميرا على الشام ـ كان هذا مثارا للاعتراض على الخليفة- دون حق- ، مما استغله الثائرون على عثمان، بل ضخّموه.

وكام مروان فيه العديد من الفضائل والمواهب القيادية، ولم تكن تولية عثمانَ له مجاملة على حساب المسلمين.. لقد كان مروان نائبا بالمدينة، فإذا وقعت معضلة جَمَعَ مَنْ عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وعَمِلَ بما أجمعوا عليه.

ومروان هو الذي جمع الصّيعانَ (مفردها صاع، وهو كيل معروف)، فأخذ بأعدلها فنُسب إليه الصاع، فقيل: صاع مروان، وهى ليست بصاع مروان، إنما هى صاع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

================

3- سياسة عثمان رضي الله عنه المالية

وقيل : يكنى أبا القاسم ، وأبا الحكم .
مولده بمكة . وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر . وقيل : له رؤية ، وذلك محتمل .
روى عن : عمر ، وعثمان ، وعلي ، وزيد .
وعنه : سهل بن سعد -وهو أكبر منه- وسعيد بن المسيب ، وعلي بن الحسين ، وعروة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعبيد الله بن عبد الله ، ومجاهد بن جبر ، وابنه عبد الملك .
وكان كاتب ابن عمه عثمان ، وإليه الخاتم ، فخانه ، وأجلبوا بسببه على عثمان ، ثم نجا هو ، وسار مع طلحة والزبير للطلب بدم عثمان ، فقتل طلحة يوم الجمل ، ونجا -لا نجي- ثم ولي المدينة غير مرة لمعاوية .
وكان أبوه قد طرده النبي -صلى الله عليه وسلم- إلي الطائف ثم أقدمه عثمان إلى المدينة لأنه عمه .
ولما هلك ولد يزيد ; أقبل مروان ، وانضم إليه بنو أمية وغيرهم ، وحارب الضحاك الفهري ، فقتله ، وأخذ دمشق ، ثم مصر ، ودعا بالخلافة .
وكان ذا شهامة ، وشجاعة ، ومكر ، ودهاء ، أحمر الوجه ، قصيرا ، أوقص دقيق العنق ، كبير الرأس و اللحية ، يلقب : خيط باطل .
قال الشافعي : لما انهزموا يوم الجمل ، سأل علي عن مروان ، وقال : يعطفني عليه رحم ماسة ، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش .
وقال قبيصة بن جابر : قلت لمعاوية : من ترى للأمر بعدك ؟ فسمى رجالا ، ثم قال : وأما القارئ الفقيه الشديد في حدود الله ، مروان
قال أحمد : كان مروان يتتبع قضاء عمر .
جعفر بن محمد : عن أبيه ; كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان . . 000 = الشبكة الإسلامية

إن من لوازم الرئاسة، ومن شروط الشرف والمنزلة بين الناس أن يَرْخُصَ المال عند الإنسان، فيمنَحه بسخاء يدٍ، ويعطيَه بكرم نفسٍ. فإذا زُيّن ذلك بـ التقوى والإيمان صار للكرم وللسخاء معنى عند الله تعالى وعند الناس.
وقد كان الإمام التقي العادل عثمان بن عفان رضي الله عنه من هؤلاء السادة الكرماء، الذين رخُص المال عندهم، فبذله في سبيل الله، ووصل به أهلَه وإخوانه..
إلا أن ذلك لم يعجب الطائفة المعترضة على الخليفة، الثائرةَ عليه تستعجل وفاته، فاتهموا عثمانَ بسوء التصرف في مال المسلمين، والإنفاقِ من بيت المال على ذويه وأقاربه.
لقد كان عثمان رضي الله عنه ليّنا مع أهله، رفيقا بأقاربه، كما كان ليّنا مع الناس جميعا، بل إن ذوي رحِمِهِ وأقاربَه أولى برِفْقِهِ ولينه. وما أكثر ما كان عثمان ينفق لتجهيز الجيوش، والإعداد للغزو في وقت لم تكن للإسلام فيه شوكة، فلما قامت للإسلام دولة، وكانت الفتوحات، وجاءت الغنائم والفيء، أصبحت الدولة في أوج قوتها وثرائها، وكان أن أنفق عثمان على أقربائه، وأعطاهم من ماله هو يتقرب إليهم ويصلهم.
وكان مما فعله معهم أنه قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطيه منهم، فبدأ ببني أبي العاص، فأعطى آلَ الحكمِ رجالَهم عشرةَ آلافٍ عشرةَ آلافٍ، فأخذوا مائةَ ألفٍ، وأعطى بني عثمان مثلَ ذلك، وقسّم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب.
وزعم المعترضون أن الخليفة يمنحهم من مال المسلمين، وصاروا يعترضون على تصرفاته المالية، فإذا زوّج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم، وزوّج ابنته من ابن مروان بن الحكم، وجهّزهما من خالص ماله الذي كان واسعًا ووفيرا في الجاهلية والإسلام - قالوا: إنه جهزهما من بيت مال المسلمين!!
وإذا اقترض رجل بضعةَ آلافٍ من بيت المال ـ وكان من حق المسلمين أن يقترضوا من بيت مالهم ـ قالوا: إن الخليفة منحه إياها بغير حق!
وإذا توسع في المراعي التي كانت الدولة في عهد "عمر" تحميها لإبلِ الصدقةِ ولتنمية الثروة الحيوانية، قالوا: إنه حَمَى الحِمَى لكي يسمِّن إبلَه وماشيتَه..!!
ولقد حدث أن وَلّى الخليفة الحارثَ بنَ الحكم أمانةَ سوقِ المدينةِ، واستغل الحارث وظيفته، فراح يشترى النوى ويحتكره، ولم يكد الخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وسقهه، ثم عزله من فوره، فهذه أيضا نسجوا منها اتهاماتٍ..!!
وكانت الأرض البُور التي لا تجد مَنْ يزرعها ويستثمرها تملأ البلاد، لاسيما في ريف العراق، فراح الخليفة يُقطِع القطائع نفرًا من أثرياء الصحابة الذين يمكّنُهم ثراؤهم من الإنفاق عليها واستثمارها، فنسجوا من ذلك اتهاما..!!
وكان أمينُ بيتِ المالِ عبد الله بن أرقم قد تقدمت به السنُّ، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة، فرأى الخليفة أن يولي مكانه زيدَ بنَ ثابتٍ، فأطلق

المرجفون المتمردون قولتَهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم لأنه عارض إسرافَه، مع أنه ولى مكانه زيدَ بنَ ثابتٍ الذي ائتمنه أبو بكر وعمرُ على جمع القرآن... ومن قبلهما ائتمنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كتابة الوحي.

==============

4- موقف عثمان رضي الله عنه من بعض الصحابة

كانت الأ ُخُوّةُ في الله هي الجامع الأول الذي وحّد هؤلاء الصحابة من أقوام مختلفين وقبائل شتى، فصنعوا نسيجَ المجتمع الإسلامي الأول، الذي رافق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في رحلة الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والجهاد في سبيله..

ومع عظمة النفوس البشرية لهؤلاء الرجال، وسُمُوّ أغراضها وأهدافها، لم يكن منتظَرًا منهم أن يكونوا معصومين من الخطأ عصمةَ نبيّهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذا لا نعجب أن تقع بينهم بعض الخلافات الطفيفة، لكنهم كانوا دائما يعتصمون بمعاني الأخوّة في دين الله ـ تعالى ـ ما لم تتدخل يَدٌ شيطانيةٌ تزوّر الحقائقَ وتضخِّم الأحداثَ.

لقد أشاع المعترضون أن الخليفة عثمانَ رضي الله عنه وقف موقفا اتسم بـ الشدة تجاه بعض الصحابة الأجلاء: فنفى أبا ذر الغفاري، وضرب عبدَ الله بنَ مسعود ومنع عنه عطاءه، وضرب عمارَ بنَ ياسر.

================

1- نفي أبي ذر رضي الله عنه [44]

---

[44] - المجاهر بالحق كان أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) من الرجال الذين أحبهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووصفه بصفتين التصقا به وأصبحا يوجهانه في المواقف المختلفة ، وهما الصدق و الوحدة والتفرد ، ولقد دفع الصدق أبا ذر لأن يكون من أكثر الصحابة مجاهرة بالحق مهما عرضه ذلك للأذى فكان من القلائل الذين أعلنوا إسلامهم في قريش ، أما الوحدة والتفرد فقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة وحده).

من هو أبو ذر؟! هو أبو ذر جندب بن جنادة كان طوالا آدم وكان يتعبد قبل مبعث رسول الله وكان شجاعا ينفرد وحده فيقطع الطريق ويغير على الناس كأنه السبع. إسلامه أسلم بمكة قديما وقال كنت في الإسلام رابعا ورجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق ثم قدم المدينة.

ويروي أبو ذر قصة إسلامه في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس(رضي الله عنه)قال: ألا أخبركم بإسلام أبي ذر قال: قلنا بلى. قال: قال أبو ذر كنت رجلا من غفار فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي انطلق إلى هذا الرجل كلمه واتني بخبره فانطلق فلقيه ثم رجع فقلت ما عندك فقال والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر فقلت له: لم تشفني من الخبر فأخذت جرابا وعصا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد قال فمر بي علي فقال كأن الرجل غريب قال: قلت: نعم. قال فانطلق إلى المنزل قال فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. قال فمر بي علي فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد.

قال: قلت لا. قال: انطلق معي قال: فقال ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة قال: قلت له إن كتمت علي أخبرتك قال: فإني أفعل، قال: قلت له بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه. فقال له: أما إنك قد رشدت هذا وجهي إليه فاتبعني ادخل حيث أدخل فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامض أنت فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت له: اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني فقال لي يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل فقلت والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم فجاء إلى المسجد وقريش فيه

إن الزهد في الحياة، والأخذ منها بما يسد الضروريات أو يكاد ـ منهج في الحياة ترتضيه بعض النفوس، وتجد لديها إمكانية كبيرة للصبر عليه.. وهذا شيء لا عيب فيه، غير أن قليلين هم الذين يقدرون على هذا. كما أن الزهد بهذه الصورة ليس هو المنهج الوحيد الذي يمكن أن يعيش المسلم به في ظ لال الإسلام الحنيف، فيمكن أن يكون الزاهد ذا ثوبٍ حسنٍ ومنزلٍ رحْبٍ متسعٍ، يأكل من الطيبات التي أحلها الله، ولا يحرّمها على نفسه ولا على الناس ـ كل هذا دون أن تكون الدنيا غايتَه، ودون أن يسرف على نفسه، أو يستطيل على عباد الله بنعمة الله.

وقد كان الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ممن مالوا إلى الزهد بصورته الشديدة، فأخذ نفسَه بالعزائم الشديدة، وحرمها الكثيرَ من متعها، واكتفى من الدنيا بما يبلغه المسير إلى نهايتها.

ولم يكتف أبو ذر باختيار سبيل الزهد الذي اختاره، فأضاف إلى ذلك انتقاداتٍ شديدةً أخذ يوجهها إلى هؤلاء الذين توسعوا في متع الدنيا، فكان يقوم في الناس في الشام ويقول: " يا معشر الأغنياء واسُوا الفقراءَ.. بشِر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم ".(تاريخ الطبري) وكان ينتقد عُمّالَ عثمانَ لذلك، وينكر عليهم توسُعَهم في المراكب والملابس.

وانتشر كلام أبي ذر هذا حتى شكا الأغنياءُ ما يَلْقوْنَ من الناس بسببه إلى معاوية، وكادت أن تقع الفتنة، لولا أن معاوية تدارك الأمر وكتب إلى أمير

فقال يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا فضربت لأموت، فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار فأقلعوا عني فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت با لأمس فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس وأدركني العباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس قال فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله.

مناقبه

وردت أحاديث في كتب الصحاح في فضل أبي ذر ومناقبه ومنها: عن أبي حرب بن أبي الأسود قال سمعت عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله يقول "ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر" رواه الإمام أحمد وعن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ابن حجيرة الأكبر "عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها" (مسلم) وعن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم قيل يا رسول الله سمهم لنا قال علي منهم يقول ذلك ثلاثا وأبو ذر والمقداد وسلمان أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم" (رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك)

وعن المعرور بن سويد قال لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك فقال إني سابت رجلا فعيرته بأمه فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم "يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم"(مسلم)

وعن الأحنف بن قيس قال كنت بالمدينة فإذا أنا برجل يفر الناس منه حين يرونه قال قلت من أنت ق ال أنا أبو ذر صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال قلت ما يفر الناس قال إني أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

المؤمنين عثمان في ذلك، فأمره بأن يُرسل أبا ذر إليه مكرما، ومعه دليل في طريقه، ويزوده بالزاد، ويَرفق به.
فلما بلغ أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ المدينةَ، لقي الخليفة، فتحادثا برفق ومودة، واختار أبو ذر ـ بعد أن أحس أن تيار الفتوح قد غير الناس كثيرا ـ أن يعيش وحده في منطقة الرّبَذة خارج المدينة، فزوّده أميرُ المؤمنين عثمانُ بما يلزمه.
وعاش هناك منفردا حتى أدركه الأجل المحتوم، فمات وحده كما أخبره الرسول المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم.[45]
وقد حاول الثائرون على عثمان ـ رضي الله عنه ـ استغلالَ هذا الموقف، زاعمين أن الخليفة نفى أبا ذر بسبب اعتراضه عليه وعلى ولاته، وهو أمر لم يفعله الخليفة الصالح على الإطلاق.[46]

---

[45] - عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى تَبُوكَ جَعَلَ لاَ يَزَالُ يَتَخَلَّفُ الرَّجُلُ فَيَقُولُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تَخَلَّفَ فُلاَنٌ ، فَيَقُولُ : دَعُوهُ ، إِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ ، حَتَّى قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تَخَلَّفَ أَبُو ذَرٍّ ، وَأَبْطَأَ بِهِ بَعِيرُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : دَعُوهُ ، إِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ ، فَتَلَوَّمَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى بَعِيرِهِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ أَخَذَ مَتَاعَهُ فَجَعَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَاشِيًا ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ مَنَازِلِهِ ، وَنَظَرَ نَاظِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا رَجُلٌ يَمْشِي عَلَى الطَّرِيقِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : كُنْ أَبَا ذَرٍّ ، فَلَمَّا تَأَمَّلَهُ الْقَوْمُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ وَاللهِ أَبُو ذَرٍّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍّ يَمْشِي وَحْدَهُ ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ ، فَضَرَبَ الدَّهْرُ مِنْ ضَرْبَتِهِ ، وَسُيِّرَ أَبُو ذَرٍّ إِلَى الرَّبَذَةِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى امْرَأَتَهُ وَغُلاَمَهُ إِذَا مُتُّ فَاغْسِلاَنِي وَكَفِّنَانِي ، ثُمَّ احْمِلاَنِي فَضَعَانِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، فَأَوَّلُ رَكْبٍ يَمُرُّونَ بِكُمْ فَقُولُوا : هَذَا أَبُو ذَرٍّ ، فَلَمَّا مَاتَ فَعَلُوا بِهِ كَذَلِكَ ، فَاطَّلَعَ رَكْبٌ ، فَمَا عَلِمُوا بِهِ حَتَّى كَادَتْ رَكَائِبُهُمْ تَطَأُ سَرِيرَهُ ، فَإِذَا ابْنُ مَسْعُودٍ فِي رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا ؟ فَقِيلَ : جِنَازَةُ أَبِي ذَرٍّ ، فَاسْتَهَلَّ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَبْكِي ، فَقَالَ : صَدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : يَرْحَمُ اللهُ أَبَا ذَرٍّ يَمْشِي وَحْدَهُ ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ ، فَنَزَلَ فَوَلِيَهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَجَنَّهُ ، فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ ذُكِرَ لِعُثْمَانَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ وَمَا وَلِيَ مِنْهُ = أخرجه الحاكم في المستدرك وهو صحيح

[46] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 86)

5 - وأما نفيُه أبا ذرّ إلى الرّبذة فلم يفعل (1) ، كان أبو ذر زاهدا ، وكان يقرّع عمال عثمان ، ويتلو عليهم { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة 34] ، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم . قال ابن عمر وغيره من الصحابة : إن ما أديت زكاته فليس بكنز (2) ، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام (3) ، فخرج إلى المدينة ، فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق ، فقال له عثمان : " لو اعتزلتَ " . معناه : إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطا وللعزلة مثلها (4) ، ومن كان على طريقة أبي ذرّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلِم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة ، فخرج إلى الربذة زاهدا فاضلا ، وترك جلة فضلاء ، وكل على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا (5) فسبحان مرتب المنازل .

---

(1) وإنما اختار أبو ذر أن يعتزل في الربذة ، فوافقه عثمان على ذلك كما صح في حديث عبد الله بن الصامت عند ابن حبان (1549 : موارد الظمآن) ، وصح في ص76 ، فأكرمه عثمان وجهزه بما فيه راحته .
(2) انظر البيان الفقهي والتفصيل الشرعي لهذه المسألة في منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (3

: 198 - 199) ومقالتنا في مجلة الأزهر (شوال 1374) .
(3) نقل الطبري (5 : 66) وأكثر المصادر الإسلامية أنه لما ورد ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) الشام لقي أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول : « المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله » كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين . فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين « مال الله » ؟ قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله و الخلق والأمر أمره ؟ قال أبو ذر : فلا تقله . قال معاوية : فإني لا أقول أنه ليس لله ، ولكن سأقول « م ال المسلمين » : وأتى ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) أبا الدرداء ، فقال له (أبو الدرداء) : من أنت أظنك والله يهوديا . فأتى (ابن سبأ) عبادة بن الصامت ، فتعلق به (ابن الصامت) فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .
(4) وقد أحسن الكلام على ذلك أبو سليمان الخطابي في كتاب (العزلة).
(5) الذي تحصل عندي من تتبع نصوص الشريعة في أمر المال ، ومراقبتي لتطبيق هذه النصوص في سيرة السلف وعملهم بها ، أن المسلم له في نفسه وذويه من المال الذي يملكه ما يكفيه ويكفيهم بِ المعروف كأمثاله وأمثالهم من أهل العفة والقناعة والدين ، وما زاد عن ذلك فعليه أولا أن يؤدي زكاته الشرعية مباشرة بحسب اجتهاده إن لم يكن أداها للحكومة الإسلامية العاملة بأحكام الشرع وبعد أداء زكاته يكون صاحب المال في امتحان من الله كيف يحسن التصرف فيه بما يرضي الله ويزيد المسلمين قوة وسعادة وعزا ، فإن كان تاجرا فمن طريق التجارة أو مزارعا فمن طريق الزراعة ، أو صاحب مصنع فمن طريق الصناعة . والإسلام في دور قيامه استفاد من ثروة أغنياء الصحابة عونا ويسرا وقوة . وتجارة التاجر المسلم إذا أغنت المسلمين عن متاجر أعدائهم تعتبر قوة لهم بقدر ما يصدق صاحبها في هذه النية ، وكذلك مصنع الصانع المسلم ، وزراعة الزارع المسلم . والنية في هذه ا لأمور أمرها عظيم ، وميزانها العمل عندما تمس الحاجة إليه . وبالجملة فإن للمسلم أن يكون غنيا بلا تحديد . بشرط أن يكون ذلك من حله ، وأن يكتفي منه بما يكفيه بالمعروف ، محاولا دائما أن يحرر نفسه من العبودية والانقياد للكماليات فضلا عن توافه الحضارة وسفاسفها . وبعد أن يؤدي زكاة ما يملك يعتبر ما زاد عن حاجته كالأمانة لله تحت يده . فيتصرف فيها بما يزيد المسلمين ثروة وقوة ويسرا وعزا وسعادة ، أما طريقة أبي ذر في أن لا يبيت المسلم وعنده مال فليست الآن من مصلحة المسلمين ، وطريقة أغنياء المسلمين الآن - في أن يعيشوا لأنفسهم ومتعهم غير مبالين بعزة الإسلام وقوة دولته وحاجة أهله - فليست من الإسلام ، والإسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه . انظر مقالتنا (المال في نظام الإسلام) في أول جزء شوال 1374 من مجلة الأزهر .

ومن العجب أن يُؤخذ عليه في أمر فعله عمر ، فقد رُوي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) .

ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام ، وكان أبو ذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان ، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان - كما قدمنا - أن يَقدم المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان : أريد الربذة . فقال له : افعل . فاعتزل . ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته (2) .

(1) في كتاب الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (2 : 139) خبر مرسل رواه شعبة عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه (إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف) قال : قال عمر لابن مسعود ولأبي الدرداء ولأبي ذر « ما هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال : وأحسبه لم يدعهم أن يخرجوا من المدينة حتى مات . وقد نبه ابن حزم على أن هذا الخبر مرسل ولا يجوز الاحتجاج به ، وعلق عليه الشيخ أحمد شاكر بأن البيهقي وافق ابن حزم على أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف (المتوفى سة 66 أو 65 عن 75 سنة) لم يسمع من عمر . ولست أدري هل اعتمد ابن العربي في هذه الفقرة على هذا الخبر المرسل أم على خبر آخر لم نطلع عليه . وليس في الخبر - على ضعفه - ذكر السجن .
(2) وقد صح من حديث عبد الله بن الصامت عند ابن حبان (برقم : 1549 موارد الظمآن) أن أبا ذر هو الذي استأذن عند عثمان أن يقيم في الربذة . وذكر القاضي ولي الدين بن خلدون في العبر (بقية 2 : 139) أن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا » فأذن له ، ونزل الربذة وبنى بها مسجدا ، وأقطعه

===============

2- موقف عثمان من عمار بن ياسر رضي الله عنهما[47]

عثمان صرمة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه رزقا . وكان يتعاهد المدينة . وبين المدينة و الربذة ثلاثة أميال ، قال ياقوت : وكانت من أحسن منزل في طريق مكة .

[47] - إنه عمّار بن ياسر -رضي الله عنه-، كان هو وأبوه ياسر وأمه سمية بنت خياط من أوائل الذين دخلوا في الإسلام، وكان أبوه قد قدم من اليمن، واستقر بمكة، ولما علم المشركون بإسلام هذه الأسرة أخذوهم وعذبوهم عذابًا شديدًا، فمر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم: (صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة) [الطبراني والحاكم].

وطعن أبو جهل السيدة سمية فماتت، لتكون أول شهيدة في الإسلام، ثم يلحق بها زوجها ياسر، وبقى عمار يعاني العذاب الشديد، فكانوا يضعون رأسه في الماء، ويضربونه بالسياط، ويحرقونه بالنار، فمرّ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده الشريفة على رأسه وقال: (يا نار كوني بردًا وسلامًا على عمار كما كنت بردًا وسلامًا على إبراهيم) [ابن سعد].

وذات يوم، لقى عمار النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل (يمسح عن عينيه ويقول له: (أخذك الكفار فغطوك في النار) [ابن سعد]، واستمر المشركون في تعذيب عمار، ولم يتركوه حتى ذكر آلهتهم وأصنامهم بخير، وعندها تركوه، فذهب مسرعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما وراءك؟ قال: شرّ يا رسول الله، والله ما تركت حتى نلت منك (أي ذكرتك بسوء) وذكرت آلهتهم بخير، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

(فكيف تجدك؟)، قال: مطمئن بالإيمان، قال: (فإن عادوا فعد) [ابن سعد والحاكم]. ونزل فيه قول الله تعالى: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} _[النحل: 106].

وهاجر عمار إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وشارك مع النبي صلى الله عليه وسلم في جميع الغزوات، حتى إنه قال ذات يوم: قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن والإنس فسأله الصحابة: وكيف؟ فقال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلنا منزلا ً، فأخذت قربتي ودلوي لأ ستقي، فقال صلى الله عليه وسلم : (أما إنه سيأتيك على الماء آت يمنعك منه)، فلما كنت على رأس البئر إذا برجل أسود، فقال: والله لا تستقي اليوم منها، فأخذني وأخذته (تشاجرنا) فصرعته ثم أخذت حجرًا، فكسرت وجهه وأنفه، ثم ملأت قربتي وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم :، فقال: (هل أتاك على الماء أحد؟) قلت: نعم، فقصصت عليه القصة فقال: (أتدرى من هو؟)، قلت: لا، قال: (ذاك الشيطان).[ابن سعد].

وذات يوم استأذن عمار -رضي الله عنه- الرسول صلى الله عليه وسلم ليدخل فقال صلى الله عليه وسلم : (من هذا؟) قال: عمار، فقال صلى الله عليه وسلم : (مرحبًا بالطيب المطيب) [الترمذي و الحاكم].

وذات يوم حدث بين عمار وخالد بن الوليد كلام، فأغلظ خالد لعمار، فشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : (من عادى عمارًا عاداه الله، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله) [النسائي وأحمد]، فخرج خالد من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وما من شيء أحب إليه من رضا عمار، وكلمه حتى رضي عنه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن عمارًا مُلئ إيمانًا إلى مشاشه (أي إلى آخر جزء فيه)) [النسائي و الحاكم]. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتبعوا عمارًا ويقتدوا به، فقال صلى الله عليه وسلم : (اقتدوا باللّذين من بعدى أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد (عبد الله ابن مسعود)) [أحمد].

وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إن الله قد أمننا من أن يظلمنا، ولم يؤمنا من أن يفتنا، أرأيت إن أدركت الفتنة؟ قال: عليك بكتاب الله، قال: أرأيت إن كان كلهم يدعو إلى كتاب الله؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا اختلف الناس كان ابن سمية (عمار) مع الحق) [الحاكم].

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، اشترك عمار مع الصديق أبي بكر -رضي الله عنه- في محاربة المرتدين، وأظهر شجاعة فائقة في معركة اليمامة حتى قال ابن عمر -رضي الله عنه- في شجاعته: رأيت عمار بن ياسر -رضي الله عنه- يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟! أنا عمار بن ياسر، أمن الجنة تفرون؟! أنا عمار بن ياسر، هلمّ إليّ، وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب (تتحرك) وهو يقاتل أشد القتال.

إن الأخوّة والصحبة لا تمنعان من إقامة الحق والحرص عليه، فإذا كان عثمان بن عفان وعمار بن ياسر رفيقَيْن اصطحبا في خدمة الإسلام، فإن الخليفة لن يسمح لنفسه أن تُجامِل عمارا إذا كان الحق في غير صفه..
وها هو ذا عمار بن ياسر يتشاتم هو ورجل من المسلمين في لحظة غضب، فيعاقبهما الخليفة؛ إذ حوى كلامُهما قذفا وخوضا غاضبا في الأعراض أو ما يشبهه.
روى الطبري (5 : 99) عن سعيد بن المسيب أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب . قلت : وهذا مما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده ، وكم فعل عمر مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار بما له من حق الولاية على المسلمين . ولما نظم السبئيون حركة الإشاعات ، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال ، تناسى عثمان ما كان من عمار ، وأرسله إلى مصر ليكون موضع ثقته في كشف حالها . فأبطأ عمار في مصر ، والتف به السبئيون ليستميلوه إليهم ، فتدارك عثمان وعامله على مصر هذا الأمر ، وجيء بعمار إلى المدينة مكرما . وعاتبه لما قدم عليه فقال له - على ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (7 : 429) - : « يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أن قذفك . . . وغضبت علي أن أخذت لك بحقك وله بحقه . اللّهم قد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة ، اللّهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ولا أبالي . اخرج عني يا عمار » فخرج ، فكان إذا لقي العوام نضح عن نفسه وانتفى من ذلك ، وإذا لقي من يأمنه بذلك أظهر الندم ، فلامه الناس وهجروه وكرهوه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (3 : 192 - 193) : وعثمان أفضل من كل من تكلم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود ، وعمار ، وأبي ذر ، ومن غيرهم من وجوه كثيرة كما ثبت ذلك بالدلا

وبعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة، ولى عمارًا على الكوفة ومعه عبد الله بن مسعود وبعث بكتاب إلى أهلها يقول لهم فيه: أما بعد، فأني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرًا وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما.
وكان عمار متواضعًا زاهدًا سمحًا كريمًا فقد سبّه رجل وعيّره ذات مرة بأذنه التي قطعت في سبيل الله، وقال له: أيها الأجدع، فقال لها عمار: خير أذني سببت، فإنها أصيبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .: وكان يقول: ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الإيمان: الإنفاق في الإقتار، والإنصاف من النفس، وبذل السلام للعالم.
وفي يوم صفين كان عمار في جيش علي، وقبل بداية المعركة شعر عمار بالعطش، فإذا بامرأة تأتيه وفي يدها إناء فيه لبن فشرب منه، وتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم له: (آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن) [أحمد]، ثم قال في جموع المقاتلين: الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة، وقد فتحت أبواب الجنة، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمدًا وحزبه (أصحابه) ثم تقدم للقتال فاستشهد سنة(37هـ)، وكان عمره آنذاك (93) سنة، ودفنه الإمام عليٌ، وصلى عليه.

ائل ، فليس جعل كلام المفضول قادحا في الفاضل بأولى من العكس . وكذلك ما نقل من تكلم عمار في عثمان ، وقول الحسن فيه (أي في عمار) . نقل أن عمارا قال : لقد كفر عثمان كفرة صلعاء . فأنكر الحسن بن علي ذلك عليه ، وكذلك علي وقال له : يا عمار ، أتكفر برب آمن به عثمان ؟ قال ابن تيمية : وقد تبين من ذلك أن الرجل المؤمن الذي هو ولي لله قد يعتقد كفر الرجل المؤمن الذي هو ولي لله ، ويكون مخطئا في هذا الاعتقاد ولا يقدح هذا في إيمان واحد منهما وولايته . كما ثبت في الصحيح أن أسيد بن حضير قال لسعد بن عبادة بحضرة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم : إنك منافق تجادل عن المنافقين . وكما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة : دعني يا رسول اللّٰه أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى اللّٰه عليه وسلم : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل اللّٰه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فعمر أفضل من عمار ، وعثمان أفضل من حاطب بن أبي بلتعة بدرجات كثيرة ، وحجة عمر فيما قال لحاطب أظهر من حجة عمار ، ومع هذا فكلاهما من أهل الجنة ، فكيف لا يكون عثمان وعمار من أهل الجنة وإن قال أحدهما للآخر ما قال ؟ مع أن طائفة من العلماء أنكروا أن يكون عمار قال ذلك . . . ثم قال شيخ الإسلام : وفي الجملة ، فإذا قيل إن عثمان ضرب ابن مسعود أو عمارا فهذا لا يقدح في أحد منهم . فإنا نشهد أن الثلاثة في الجنة ، وأنهم من أكابر أولياء اللّٰه المتقين . وإن ولي اللّٰه قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية ، فكيف بالتعزير . وقد ضرب عمر بن الخطاب أبيّ بن كعب بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه وقال : « هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع » فإن كان عثمان أدب هؤلاء . فإما أن يكون عثمان مصيبا في تعزيرهم لاستحقاقهم ذلك ، ويكون ذلك الذي عزروا عليه تابوا منه وكفر عنهم بالتعزير وغيره من المصائب أو بحسناتهم العظيمة أو بغير ذلك . وإما أن يقال كانوا مظلومين مطلقا . فالقول في عثمان كالقول فيهم وزيادة ، فإنه أفضل منهم ، وأحق بـ المغفرة والرحمة اهـ.

ولعل نفس عمار أول الأمر كانت غاضبة من الخليفة، لكنه مع مرور الوقت تيقن أن عثمان حسن النية، جاد في حفظ حدود الدين، حتى لقد أشفق عمار على عثمان حين حاصره الثائرون، وقال: "يا سبحان اللّٰه!! أتمنعون الماء عمن اشترى بئر رومة، ووهبها المسلمين؟!".

وذهب المعترضون على الخليفة يصنعون من هذا الموقف تهمة كبيرة للخليفة المؤمن عثمان!

=================

3- موقف عثمان من ابن مسعود رضي الله عنهما[48]

[48] - إنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، كان مولى لعقبة بن أبي معيط، يرعى غنمه في شعاب مكة، فمرّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الصديق -رضي الله عنه- ذات يوم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (يا غلام هل من لبن؟).

فقال عبد الله: نعم، ولكني مؤتمن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فهل من شاة حائل لم ينز عليها الفحل). فقال: نعم، ثم أعطاه شاة ليس في ضرعها لبن، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرعها بيده الشريفة، وهو يتمتم ببعض الكلمات، فنزل اللبن بإذن الله، فحلبه الرسول صلى الله عليه وسلم بيده في إناء، وشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم للضرع: (اقلص)، فجف منه اللبن، فقال عبد الله في دهشة وتعجب: علمني من هذا القول الذي قلته. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رفق ومسح على رأسه، وصدره وقال له: (إنك غُليّم معلم)، ثم تركه وانصرف. [أحمد].

سرت أنوار الهداية في عروق ابن مسعود، فعاد إلى سيده بالغنم، ثم أسرع إلى مكة يبحث عن ذلك الرجل وصاحبه حتى وجده، وعرف أنه نبي مرسل، فأعلن ابن مسعود إسلامه بين يديه، وكان بذلك سادس ستة يدخلون في الإسلام، وذات يوم، اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: و الله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقام عبد الله، وقال: أنا. فقالوا له: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا ً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني، فإن الله سيمنعني. ثم ذهب إلى الكعبة، وكان في وقت الضحى، فجلس ورفع صوته بالقرآن، وقرأ مسترسلا ً: {بسم الله الرحمن الرحيم. الرحمن . علم القرآن} [الرحمن: 1-2]، فنظر إليه أهل مكة في تعجب ودهشة، فمن يجرؤ على أن يفعل ذلك في ناديهم؟ وأمام أعينهم؟! فقالوا في دهشة: ماذا يقول ابن أم عبد؟!

ثم أنصتوا جيدًا إلى قوله، وقالوا في غضب: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، ثم قاموا إليه، وضربوه ضربًا شديدًا، وهو يستمر في قراءته حتى أجهده الضرب، وبلغ منه الأذى مبلغًا عظيمًا، فكفّ عن القراءة، فتركه أهل مكة وهم لا يشكون في موته، فقام إليه أصحابه، وقد أثر الضرب في وجهه وجسده، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا (أي أفعل ذلك مرة أخرى)، قالوا: لا، لقد أسمعتهم ما يكرهون.

وهاجر ابن مسعود الهجرتين، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين الزبير بن العوام -رضي الله عنه- في المدينة، وكان ابن مسعود من أحرص المسلمين على الجهاد في سبيل الله، شارك في جميع غزوات المسلمين، ويوم بدر ذهب عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبشرًا له، وقال: يا رسول الله، أني قتلت أبا جهل، ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم :، ووهبه سيف أبي جهل مكافأة له على ذلك.

وكان ابن مسعود أعلم أصحاب رسول الله بقراءة القرآن، ومن أنداهم صوتًا به، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل) [البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم : (من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) [البزار].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سماع القرآن منه، فقال له ذات مرة: (اقرأ عليّ)، فقال عبد الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (أني أحب أن أسمعه من غيري)، فقرأ ابن مسعود من سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا} [النساء: 14]، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (حسبك الآن) [البخاري].

وكان ابن مسعود يقول: أخذت من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة. وكان يقول عن نفسه كذلك: أني لأعلم الصحابة بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، وما في كتاب الله سورة ولا آية إلا وأنا أعلم فيما نزلت ومتى نزلت.

وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، وحضر ذلك عبد الله بن مسعود، فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل.

وقال حذيفة -رضي الله عنه-: لقد علم المحفظون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن مسعود كان من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة، وأعلمهم بكتاب الله. وكان عبد الله شديد الحب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وظل ملازمًا للنبي (، يسير معه حيث سار، يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، يلبسه نعله، ويوقظه إذا نام، ويستره إذا اغتسل.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويقربه منه، ويدنيه ويقول له: (إذنك عليّ أن يرفع الحجاب، وأن تستمع سوادي (أسراري) حتى أنهاك) [مسلم]. فسمي عبد الله بن مسعود منذ ذلك اليوم بصاحب السواد والسواك، وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكان يقول عنه: لو كنت مؤمرًا

"بايعنا خيرَنا ولمْ نأل" ـ أي لم نقصر ـ هذا هو رأي ابن مسعود في عثمان، فما تولى الخلافة إلا وهو خير الموجودين وأجدرهم بها، كما يرى أكثر الصحابة.. وقد تولى عبد الله بن مسعود خراج الكوفة أيام عثمان حين كان سعد بن أبي وقاص أميرا عليها، فاختلف سعد وابن مسعود على قرض اقترضه سعد من بيت المال، فعزل عثمانُ سعدا وأبقى ابن مسعود.

إلى ذلك الوقت لم يكن بين ابن مسعود وخليفته إلا الصفو وكل خير، فلما عزم عثمان على تعميم مصحف واحد في العالم الإسلامي يُجْمِعُ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنه هو المصحف الكامل الموافق لآ خر عَرْضة عُرض فيها كتاب الله ـ عز وجل ـ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته، ودّ ابنُ مسعود أنْ لو كُلِّف هو بذلك، وأحب أن يبقى مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى، فجاء عمل أمير المؤمنين على خ لاف ما كان يودّه ابنُ مسعود في الحالين، فاختير زيدُ بن ثابت ليرأس بعضَ الصحابة في نسخ المصحف الذي جُمع أيام أبي بكر، وزيدٌ أولى بهذا الأمر؛ فقد اختاره أبو بكر من قبل لما هو أكبر من هذا العمل، وهو جمعُ القرآن في مصحفٍ واحدٍ.

وقد كان عثمان يعلم ـ كما يعلم سائر الصحابة ـ مكانةَ ابنِ مسعود وعلمَه وصدقَ إيمانه، وكان الخليفة على حق حين ألغى المصاحف الأخرى كلها، ومنها مصحف ابنِ مسعود، فذلك أبقى لوحدة الأمة، وراد للاختلاف في

أحدًا (أي مستخلفًا أحدًا) من غير مشورة منهم لأمرت (أي استخلفت) عليهم ابن أم عبد) [الترمذي].

وقال صلى الله عليه وسلم : (وتمسكوا بعهد ابن مسعود) _[الترمذي]، وروي عنه (أنه قال: (رضيت لأ متي ما رضي لها ابن أم عبد) [الحاكم].

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فلما رأى أصحابه ساقيه ضحكوا، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما تضحكون؟ لرِجْلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد)[أحمد وابن سعد وأبو نعيم].

وفي خلافة الفاروق -رضي الله عنه- أرسل عمر إلى أهل الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما-، وقال: عمار أمير، وابن مسعود معلم ووزير، ثم قال لأهل الكوفة: لقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي. وجاء رجل من أهل الكوفة إلى عمر في موسم الحج، فقال له: يا أمير المؤمنين، جئتك من الكوفة، وتركت بها رجلا ً يحكى المصحف عن ظهر قلب. فقال عمر: ويحك؛ ومن هو؟ فقال الرجل: هو عبد الله بن مسعود. فقال عمر: والله، ما أعلم من الناس أحدًا هو أحق بذلك منه.

وكان عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عالما حكيمًا، ومن أقواله المأثورة قوله: أيها الناس، عليكم بـ الطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة. وكان -رضي الله عنه- يقول: أني لأمقت (أكره) الرجل إذ أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة.

وعندما مرض عبد الله بن مسعود مرض الموت، دخل عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يزوره، وقال له: أنأمر لك بطبيب؟ فقال عبد الله: الطبيب أمرضني. فقال عثمان: نأمر لبناتك بمال، وكان عنده تسع بنات، فقال عبد الله: لا، أني علمتهن سورة، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه الفاقة أبدًا) [ابن عساكر].

ويلقى ابن مسعود ربه على ذلك الإيمان الصادق، واليقين الثابت، طامعًا فيما عند الله، زاهدًا في نعيم الدنيا الزائف، فيموت -رضي الله عنه- سنة (32 هـ)، وعمره قد تجاوز (60) عامًا ويدفن بالبقيع. وقد روى ابن مسعود -رضي الله عنه- كثيرًا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :، وروى عنه بعض الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم-.

كتاب الله تعالى، وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان.
ومع أن هذا خلاف وارد بين البشر، بل خلاف مشروع بين العقول، إلا أن مَنْ لا يفهمون ذلك ممن قاموا يعترضون على الخليفة أشاعوا أن عثمان ضرب ابنَ مسعود ومنع عنه عطاءه.[49]

================

5- الاعتراض على عثمان رضي الله عنه واجتهاداته

الاجتهاد باب من الأبواب التي يقوى بها تفاعل الدين مع الحياة والناس، إذ إن الزمان مع تغيره والحياة مع تطورها يقذفان الناس بقضايا جديدة وأمور لم تسبق لهم من قبل، فيتعامل عقل العالم مع روح الدين والقرآن والسنة ونصوصهما في محاولة الوصول إلى الحق.
وقد كان الخلفاء الراشدون جميعا يملكون أهليـة الفتوى والقدرة على الا جتهاد، وكانت لأبي بكر وعمر اجتهاداتهما الكثيرة.
غير أن الثوار الذين قاموا في وجه الخليفة عثمان رضي الله عنه سلبوه هذا الحق، واتخذوا بعض فتاواه سلاحا يُشْهِرونه للثورة عليه والتشهير به، بل شككوا في فضله وسابقته في الجهاد والإيمانِ بالله ورسوله.
لقد راحوا يتصيدون للخليفة الراشد ما حسبوه - بسوء تدبيرهم وخيبة فألهم - طعنًا سينال من ورع الخليفة وحسن طاعته لله ولرسوله، أو من قدره في نفوس المؤمنين والصالحين.
قالوا: إن الخليفة وحد المصاحف كلها في مصحف واحد، وجمع المصاحف ا لأخرى وأحرق أوراقها.
وقالوا: إن الخليفة ترَكَ قصرَ الصلاة بمنى أثناء حجه، بينما كان الرسول وصاحباه يقصرون الصلاة.
وقالوا: إن الخليفة لم يُقم حدّ القتل على عبيدِ الله بنِ عمر.

---

[49] - وعند ولاية عثمان كان ابن مسعود واليا لعمر على أموال الكوفة ، وسعد بن أبي وقاص واليا على صلاتها وحربها ، فاختلف سعد وابن مسعود على قرض استقرضه سعد - كما سيأتي - فعزل عثمان سعدا وأبقى ابن مسعود . وإلى هنا لا يوجد بين ابن مسعود وخليفته إلا الصفو . فلما عزم عثمان على تعميم مصحف واحد في العالم الإسلامي يجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه هو المصحف الكامل الموافق لآخر عرضة عرض بها كتاب الله - عز وجل - على رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته ، كان ابن مسعود يود لو أن كتابة المصحف نيطت به ، وكان يود أيضا لو يبقى مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى . فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يوده ابن مسعود في الحالتين : أما في اختيار عثمان زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأن أبا بكر وعمر اختاراه قبل ذلك لهذا العمل في خلافة أبي بكر ، بل إن أبا بكر وعمر اختارا زيد بن ثابت في البداية لأنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول صلوات الله عليه قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق في هذا ، وهو يعلم - كما يعلم سائر الصحابة - مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه . ثم إن عثمان كان على حق أيضا في غسل المصاحف الأخرى كلها ومنها مصحف ابن مسعود ، لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل ما كان في استطاعة البشر هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة ، وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان على ابن مسعود (انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية 3 : 191 - 192) . وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود ولم يمنعه عطاءه ، وبقي يعرف له قدره كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة .

وقالوا: إن الخليفة ردّ الحَكَمَ بنَ أبي العاص، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نفاه[50].

وقالوا: إن الخليفة علا على درجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر، وقد انحطّ عنها أبو بكر وعمر.

على أن الخليفة ـ رضي الله عنه ـ أمام المعارضة الأخرى النزيهة التي واجه بها أصحابُه بعضَ قراراته، لم يقف موقفَ المستعلِي على الرأي، ولا المستكبر عن الحق، بل وقف على ملأ من المسلمين في يوم الجمعة، يعترف بما عساه

---

[50] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 89)

7 - وأما ردّ الحكم فلم يصحّ (1) .

وقال علماؤنا في جوابه : قد كان أذن له فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال [أي عثمان] لأ بي بكر وعمر ، فقالا له : إن كان معك شهيد رددناه ، فلما ولي قضى بعلمه في رده ، وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان أباه ، ولا لينقض حكمه (2) .

---

(1) أي لم يصح زعم البغاة على عثمان أن عثمان خالف بذلك ما يقتضيه الشرع .

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (3 : 196) : « وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه (أي في نفي النبي صلى الله عليه وسلم الحكم) وقالوا : » ذهب باختياره . وقصة نفي الحكم ليست في الصحاح ، ولا لها إسناد يعرف به أمرها « ثم قال : » لم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة ، فإن كان طرده فإنما طرده من مكة لا من المدينة ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة . وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه كما تقدم وقالوا : هو ذهب باختياره . . . وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عزر رجلا بالنفي لم يلزم أن يبقى منفيا طول الزمان ، فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب ، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيا دائما . . . وقد كان عثمان شفع في عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقبل صلى الله عليه وسلم شفاعته فيه وبايعه ، فكيف لا يقبل شفاعته في الحكم ، وقد رووا أن عثمان سأله أن يرده فأذن له في ذلك . ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبد الله بن سعد بن أبي سرح . وقصة عبد الله ثابتة معروفة بالإسناد ، وأما قصة الحكم فإنما ذكرت مرسلة ، وقد ذكرها المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه ، فلم يكن هناك نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان . والمعلوم من فضائل عثمان ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم له وثنائه عليه وتخصيصه بابنتيه وشهادته له بالجنة وإرساله إلى مكة ومبايعته له عنه وتقديم الصحابة له في الخلا فة وشهادة عمر وغيره له بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنه راض وأمثال ذلك مما يوجب العلم القطعي بأنه من كبار أولياء الله المتقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه . فلا يدفع هذا بنقل لا يثبت إسناده ولا يعرف كيف وقع ويجعل لعثمان ذنب بأمر لا تعرف حقيقته . . . إلخ « وانظر أيضا 3 : 235 - 236 من منهاج السنة . ونقل الإمام أبو محمد بن حزم في كتاب (الإمامة و المفاضلة) المدرج في الجزء الرابع من كتابه » الفِصَل « ص 154 قول من احتج لعثمان على من أنكروا ذلك عليه : » ونفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن حدا واجبا ، ولا شريعة على التأبيد ، وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفي ، والتوبة مبسوطة ، فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام ، وصارت الأرض كلها مباحة « . ونقل مجتهد الزيدية السيد محمد بن إبراهيم الوزير اليمني (المتوفى سنة 840) في كتابه الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (1 : 141 - 142) قول الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي المتشيع في كتابه سرح العيون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في ذلك لعثمان . قال ابن الوزير : إن المعتزلة و الشيعة من الزيدية يلزمهم قبول هذا الحديث وترك الاعتراض على عثمان بذلك ، لأن راوي الحديث عندهم من المشاهير بالثقة والعلم وصحة العقيدة . ثم بسط ابن الوزير الكلام على هذا الموضوع بحجج واستدلالات - استغرقت ثلاث صفحات - دفاعا عن أمير المؤمنين عثمان في رده الحكم . وهذه الحجج من أئمة الزيدية ومجتهديهم - بعد روايته ذلك الحديث عن الإمام المعتزلي المتشيع - لها دلالتها الخاصة ، مع الذي سمعته من إمامي أهل السنة شيخ الإسلام ابن تيمية والقاضي ابن العربي ، ومن إمام أهل الظاهر أبي محمد بن حزم .

يكون وقع فيه من أخطاء، ويرفع ضراعته إلى الله مستغفرا وتائبا، باكيا ومبكيا جميعَ الذين كانوا هناك يستمعون إليه وينصتون..!!
وأمام موقفه العظيم هذا، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة، ذلك الهجوم الذي كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر، حيث كان يقيم العديد من القبائل اليمنية التي شاركت في الردة من قبل، وبقِيتْ على همجيتها الجاهلية، ولم يكن للنظام والاستقرار الاجتماعي في تفكيرها موضع.

================

6- طعن الثائرين في جهاد عثمان رضي الله عنه

لقد كان سجلا من الأعمال الرائعة هذا الذي كتب فيه صحابة محمد صلى الله عليه وسلم خُطا مسيرتهم.. وجاء مَن بعدهم يُجِل ُ ويحترم هذه المنزلة والمكانة الخاصة للصحب الكرام، خاصة السابقين منهم إلى نصرة الدين والعمل به وله. وكان الخليفةُ الراشدُ عثمانُ من هؤلاء السابقين، بل من خاصّتِهم، فحضر أعظم المشاهد، ووقف في نصرة الدين ومؤازرة الرسول أجلّ المواقف..
لكن عندما اشتعلت أصوات الاعتراض على الخليفة، لم يترك الثائرون بابا للعيب فيه إلا لمزوه منه، وعابوا عليه من خلاله، حتى حاولوا أن يَقلِبوا الحقائقَ، فاجتهدوا في التقليل من قيمة سَبْق عثمان رضي الله عنه إلى طاعة الله ورسوله ونصرة الدين، فقالوا: لم يحضر بدرا، وانهزم يوم أحد، وغاب عن بيعة الرضوان..
وأما انهزامه يوم حنين ، وفراره يوم أحد ، ومغيبه عن بدر وبيعة الرضوان ، فقد بين عبد الله بن عمر وجه الحكم في شأن البيعة وبدر وأحد . وأما يوم حنين فلم يبق إلا نفر يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لم يجر في الأمر تفسير من بقي ممن مضى في الصحيح ، وإنما هي أقوال : منها أنه ما بقي معه إلا العباس وابناه عبد الله وقُثَم ، فناهيك بهذا الاختلا ف ، وهو أمر قد اشترك فيه الصحابة ، وقد عفا الله عنه ورسوله ، فلا يحل ذكرُ ما أسقطه الله ورسوله والمؤمنون
روى البخاري عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ عُثْمَانَ ، فَذَكَرَ عَنْ مَحَاسِنِ عَمَلِهِ ، قَالَ لَعَلّ ذَاكَ يَسُوؤُكَ . قَالَ نَعَمْ . قَالَ فَأَرْغَمَ اللهُ بِأَنْفِكَ . ثمّ سَأَلَهُ عَنْ عَلِيٍّ ، فَذَكَرَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ قَالَ هُوَ ذَاكَ ، بَيْتُهُ أَوْسَطُ بُيُوتِ النّبِيّ - صلى الله عليه وسلم - . ثمّ قَالَ لَعَلّ ذَاكَ يَسُوؤُكَ . قَالَ أَجَلْ . قَالَ فَأَرْغَمَ اللهُ بِأَنْفِكَ ، انْطَلِقْ فَاجْهَدْ عَلَىّ جَهْدَكَ .
وروى البخاري عن عُثْمَانَ بْنِ مَوْهَبٍ - قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ مَنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجّ الْبَيْتَ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا ، فَقَالَ مَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ قَالَ هَؤُلاَءِ قُرَيْشٌ . قَالَ فَمَنِ الشّيْخُ فِيهِمْ قَالُوا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ . قَالَ يَا ابْنَ عُمَرَ إِنّى سَائِلُكَ عَنْ شَىْءٍ فَحَدّثْنِى هَلْ تَعْلَمُ أَنّ عُثْمَانَ فَرّ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ نَعَمْ . قَالَ تَعْلَمُ أَنّهُ تَغَيّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ قَالَ نَعَمْ . قَالَ تَعْلَمُ أَنّهُ تَغَيّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرّضْوَانِ فَلَمْ

يَشْهَدْهَا قَالَ نَعَمْ . قَالَ اللهُ أَكْبَرُ . قَالَ ابْنُ عُمَرَ تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنّ اللهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ ، فَإِنّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَكَانَتْ مَرِيضَةً ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - « إِنّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ » . وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عُثْمَانَ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - بِيَدِهِ الْيُمْنَى « هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ » . فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ ، فَقَالَ « هَذِهِ لِعُثْمَانَ » . فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ .[51]

==================

7- توحيد المصاحف[52]

[51] - فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ببشرى النصر في بدر مع زيد بن حارثة إلى عثمان في المدينة . قال أسامة بن زيد - فيما رواه الطبري2 : 286 - : « فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت عند عثمان بن عفان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفني عليها مع عثمان » ثم في ربيع الأول من السنة التالية لغزوة بدر تزوج عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدخلت عليه في جمادى الآخرة .
وقبل أن يبعث عثمان دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر : يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس في مكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . ولكني أدلك على رجل هو أعز مني فيها : عثمان بن عفان . فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش . ويوم تدوّن الدول الإسلامية تاريخ السفارات في الإسلام ، سيكون اسم عثمان أول سفراء الإسلام في التاريخ .
لأن عثمان لما أدى رسالته في السفارة التي بعث بها احتبس أياما . فلم يعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الموعد الذي كان يقدر له أن يعود فيه ، فوصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن سفيره قتل ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى بيعة الرضوان ، انتصارا لعثمان ، على نية أن يذهب بالصحابة إلى مكة فيناجز المشركين لما بلغه عن قتلهم عثمان . فبيعة الرضوان كانت رمزا من رموز الشرف لعثمان ، وأي شرف أعظم من اجتماع قوى الإسلام بقيادة الرسول الأعظم للأخذ بثأر هذا الرجل الحبيب إلى المسلمين ، والرفيع المنزلة عند سيد الأولين والآخرين ؟ ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم - في اللحظة الأخيرة التي اجتمع فيها الصحابة لعقد البيعة - أن عثمان حي ، مضى في إتمام البيعة على سنته صلى الله عليه وسلم في أنه إذا بدأ بخير يمضي في إكماله ولو ز ال سببه . وحينئذ كان لعثمان الشرف المضاعف بأن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم نابت عن يده في عقد البيعة عنه . فبيعة الرضوان كانت انتصارا لعثمان ، وجميع الصحابة بايعوا بأيدي أنفسهم إلا عثمان فإن أشرف يد بالوجود نابت عن يده في إعطاء بيعته . ولو لم يكن لعثمان من الشرف في حياته كلها إلا هذا لكفاه .
لو أن أمير المؤمنين عثمان كان من حواري المسيح عليه السلام ، وكانت له من سيدنا عيسى ابن مريم مثل هذه المنقبة التي كرمه الله بها من نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لعبدته النصارى لأجلها . فالعجب لأمة يكون فيها جهلة يعيبون على عثمان - في زمانه - غيبته عن بيعة الرضوان ، ويكون فيهم من يستشعر الشجاعة في نفسه عند الإقدام على سفك دم هذا الخليفة الرحيم لأمور هذا منها ، ثم يحمل مثل هذا الجهل في دماغه رجل جاء يعبد الله بأداء فريضة الحج فيواجه به جماعة الصحابة من قريش ورئيسهم عبد الله بن عمر . ثم تمس الحاجة إلى التعرض لبيان هذه الحقائق في عصر القاضي أبي بكر بن العربي ، ثم يشعر أمثالنا في عصرنا بأن عثمان لا يزال من بعض أمته في موقف يحتاج فيه إلى إنصافه ودفع قالة السوء عنه . حقا إننا أمة مسكينة . . . ولأمر ما بلغ بنا الحال بين الأمم إلى ما كنا فيه ، وإلى ما لا نزال غارقين فيه « إِنّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .(محب الدين الخطيب)

[52] - العناية التي بذلها عظيما الإسلام أبو بكر وعمر ، وأتمها أخوهما وصنوهما ذو النورين عثمان في

إن العناية التي بذلها عظيما الإسلام أبو بكر وعمر، وأتمّها أخوهما وصِنْوُهما ذو النورين عثمان مِنْ جمعِ القرآنِ وتثبيتِهِ وتوحيدِ رسمِهِ، كان لهم بها أعظم المنة على المسلمين، وبها حقق الله وعده بحفظ كتابه كما قال سبحانه: (إنا نحن نزلنا الذِّكْرَ وإنا له لحافظون) [الحجر: 9][53].

جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه ، كان لهم بها أعظم المنة على المسلمين ، وبها حقق الله وعده في قوله سبحانه إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين علي فأمضى عملهم وأقر مصحف عثمان برسومه وتلاوته ، في جميع أمصار ولايته ، وبذلك انعقد إجماع المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم ، بل نقل بعض علماء الشيعة هذا الإجماع على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . جاء في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني (ص46) من شيعة عصرنا أن علي بن موسى المعروف بابن طاوس (589 - 664) وهو من علمائهم نقل في كتابه (سعد السعود) عن الشهرستاني في مقدمة تفسيره عن سويد بن غفلة [هو أبو أمية الجعفي الكوفي . قدم المدينة حين نفضت الأيدي من دفنه صلى الله عليه وسلم وشهد اليرموك . يروي عن أبي بكر وعمر وعلي وعثمان . ويروي عنه النخعي و الشعبي وعبدة بن أبي لبابة . ثقة . مات سنة 80 وقيل 81 عن مائة وثلاثين سنة .] قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : « أيها الناس ، الله ، الله ، إياكم والغلو في أمر عثمان وقولكم حرّاق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمعنا وقال : ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها . يلقى الرجل فيقول : قراءتي خير من قراءتك . وهذا يجر إلى الكفر ؟ فقلنا : ما الرأي ؟ قال : أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد ، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا . فقلنا : نِعم ما رأيت » . ومما لا ريب فيه أن البغاة أنفسهم كانوا في خلافة علي - رضي الله عنه - يقرءون في مصاحف عثمان التي أجمع عليها الصحابة وعلي فيهم . ولكن نجم لهم أذناب في العصور التالية فضحوا أنفسهم بسخفهم وكفرهم ، كشيطان الطاق محمد بن جعفر الرافضي فيما رواه الإمام ابن حزم في (الفِصَل) 4 : 181 عن الجاحظ قال : أخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالا لمحمد بن جعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق : ويحك ، أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة : إن الله تعالى لم يقل قط في القرآن (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ؟ قا لا : فضحك والله شيطان الطاق ضحكا طويلا حتى كأنا نحن الذين أذنبنا . وشيطان الطاق هذا أكبر دعاة الشيعة في زمن الإمامين زيد وابن أخيه جعفر الصادق ، وهو الذي ابتدع أكذوبة أن الإمامة معهود بها إلى أشخاص بأعيانهم ، ولم يكن أحد يقول بذلك قبل شيطان الطاق هذا . وأنكرها عليه الإ مام زيد في مجلس جعفر . ودعوى الرافضة بتبديل القرآن ، مع تصريح علي بإجماع الصحابة على ما قام به عثمان ، صارت مادة دسمة لدعاة النصارى يحتجون بها ، فقال لهم الإمام ابن حزم في الفصل (2 : 78) : « إن الروافض ليسوا من المسلمين . . . وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر » . قلت : وآخر من افتضح منهم بهذا الأمر وفضح به الشيعة جميعا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي بكتابه الذي اقترفه في المشهد المنسوب لأمير المؤمنين علي في النجف سنة 1292 وطبع في إيران سنة 1298 وعندي نسخة منه . وإن من طبيعة التحزب والتعصب والتشيع أن يذهب بعقول أصحابه وأخلاقهم ثم يذهب بحيائهم ودينهم ، كما برهن على ذلك علماء علم النفس الاجتماعي وفي مقدمتهم الدكتور غوستاف لبون .

[53] - وفي ظلال القرآن - (ج 4 / ص 421)

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق ، وكثر فيه النزاع ، وطمت فيه الفتن ، وتماوجت فيه الأحداث . وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود خاصة ثم من « القوميين » دعاة « القومية » الذين تسمّوا بالشعوبيين!

ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين .

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية ، وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات . .

ولكنها عجزت جميعاً وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا

وقد تولى الخلافةَ بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين عليّ فأمضى عملهم، وأقر مصحف عثمان برسمه وتلاوته، وفي جميع أمصار ولايته، وبذلك انعقد إجماعُ المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو من أعظم حسناتهم.

ولكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

[المرحلة الأولى]: في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة؛ لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عُسُب النخل، ورقاع الجلود، ولِخاف الحجارة، وكِسر الأكتاف وكان القراء عدداً كبيراً.

ففي "صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه - قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - سَبْعِينَ رَجُلاً لِحَاجَةٍ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِى سُلَيْمٍ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ ، عِنْدَ بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ مَعُونَةَ ، فَقَالَ الْقَوْمُ وَاللَّهِ مَا

الكتاب المحفوظ؛ وبقيت نصوصه كما أنزلها الله؛ حجة باقية على كل محرف وكل مؤول؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ .

ثم جاء على المسلمين زمان ما نزال نعانيه ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، وعن حماية نظامهم ، وعن حماية أرضهم ، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم . وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغيّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم ، وأحلوا مكانه كل منكر فيهم .

كل منكر من العقائد والتصورات ، ومن القيم والموازين ، ومن الأخلاق والعادات ، ومن الأنظمة و القوانين . . . وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص « الإنسان » وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان . . وأحياناً إلى حياة يشمئز منها الحيوان . . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من « التقدم » و « التطور » و « العلمانية » و « العلمية » و « الانطلاق » و « التحرر » و « تحطيم الأغلال » و « الثورية » و « التجديد » . . إلى آخر تلك الشعارات والعناوين . .

وأصبح « المسلمون » بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير . وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع ، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار . . وهو وقود هزيل! . .

ولكن أعداء هذا الدين بعد هذا كله لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها . ولم يكونوا في هذا من الزاهدين . فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ ، وعلى نيل هذه الأ منية لو كانت تنال!

ولقد بذل أعداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله . وقدروا على أشياء كثيرة . . قدروا على الدس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى تاريخ الأمة المسلمة . وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون . وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين . وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون ، وبخاصة في العصر الحديث :

ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد والظروف الظاهرية كلها مهيأة له . . لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه؛ وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع؛ فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب ، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم .

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد وعد . أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال . فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب ، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول :

{ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون } . . وصدق الله العظيم . .

إيّاكُمْ أرَدْنَا ، إنَمَا نَحْنُ مُجْتَازُونَ فِى حَاجَةٍ لِلنَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - ، فَقَتَلُوهُمْ فَدَعَا النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - عَلَيْهِمْ شَهْرًا فِى صَلا ةِ الْغَدَاةِ ، وَذَلِكَ بَدْءُ الْقُنُوتِ وَمَا كُنَّا نَقْنُتُ . قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ وَسَأَلَ رَجُلٌ أَنَسًا عَنِ الْقُنُوتِ أَبَعْدَ الرُّكُوعِ ، أَوْ عِنْدَ فَرَاغٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ قَالَ لا بَلْ عِنْدَ فَرَاغٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ .

وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

[المرحلة الثانية]: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة وسببه أنه قُتِلَ في وقعة اليمامة عددٌ كبيرٌ من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة؛ أحد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منهم، فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي "صحيح البخاري عَنْ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ - رضى الله عنه - قَالَ أَرْسَلَ إِلَىَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ - رضى الله عنه - إِنَّ عُمَرَ أَتَانِى فَقَالَ إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّى أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنِّى أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ .

قُلْتُ لِعُمَرَ كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ عُمَرُ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ .

فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِى حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِى لِذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ فِى ذَلِكَ الَّذِى رَأَى عُمَرُ . قَالَ زَيْدٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لا نَتَّهِمُكَ ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْىَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِى نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَىَّ مِمَّا أَمَرَنِى مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ قُلْتُ كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِى حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِى لِلَّذِى شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ - رضى الله عنهما - فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِى خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِىِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ - رضى الله عنه -

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

[المرحلة الثالثة]: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف

الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.
ففي "صحيح البخاري" عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِى أَهْلَ الشَّأْمِ فِى فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلا فُهُمْ فِى الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُ مَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى الْكِتَابِ اخْتِلا فَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِى إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِى الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِى الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلا ثَةِ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِى شَىْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِى الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِى كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ.
وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم ، لما روى ابن أبي داود في المصاحف عَنِ الْعَيْزَارِ بْنِ جَرْوَلٍ الْحَضْرَمِيِّ] قَالَ : لَمَّا خَرَجَ الْمُخْتَارُ كُنَّا هَذَا الْحَيَّ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوَّلَ مَنْ تَسَرَّعَ إِلَيْهِ ، فَأَتَانَا سُوَيْدُ بْنُ غَفَلَةَ الْجُعْفِيُّ فَقَالَ : إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ حَقًّا وَإِنَّ لَكُمْ جِوَارًا [أَوْ إِنَّ لَكُمْ قَرَابَةً] ، وَاللَّهِ لَا أُحَدِّثُكُمُ الْيَوْمَ إِلَّا شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنَ الْمُخْتَارِ ، أَقْبَلْتُ مِنْ مَكَّةَ وَإِنِّي لَأَسِيرُ إِذْ غَمَزَنِي غَامِزٌ مِنْ خَلْفِي ، فَإِذَا الْمُخْتَارُ فَقَالَ لِي : يَا شَيْخُ مَا بَقِيَ فِي قَلْبِكَ مِنْ حُبِّ ذَلِكَ الرَّجُلِ ؟ يَعْنِي عَلِيًّا ، قُلْتُ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ أَنِّي أُحِبُّهُ بِسَمْعِي وَقَلْبِي وَبَصَرِي وَلِسَانِي قَالَ : وَلَكِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ أَنِّي أُبْغِضُهُ بِقَلْبِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي وَلِسَانِي قَالَ : قُلْتُ : أَبَيْتَ وَاللَّهِ إِلَّا تَثْبِيطًا عَنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَتَرْثِيثًا فِي إِحْرَاقِ الْمَصَاحِفِ ، [أَوْ قَالَ حَرَاقُ ، هُوَ أَحَدُهُمَا يَشُكُّ أَبُو دَاوُدَ] ، فَقَالَ سُوَيْدٌ : وَاللَّهِ لَا أُحَدِّثُكُمْ إِلَّا شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَغْلُوا فِي عُثْمَانَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا [أَوْ قُولُوا لَهُ خَيْرًا] فِي الْمَصَاحِفِ وَإِحْرَاقِ الْمَصَاحِفِ ، فَوَاللَّهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَأٍ مِنَّا جَمِيعًا ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ؟ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إِنَّ قِرَاءَتِي خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَتِكَ ، وَهَذَا يَكَادُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا ، قُلْنَا : فَمَا تَرَى ؟ قَالَ : نَرَى أَنْ نَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى مُصْحَفٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَكُونُ فُرْقَةٌ ، وَلَا يَكُونُ اخْتِلَافٌ ، قُلْنَا : فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ قَالَ : فَقِيلَ : أَيُّ النَّاسِ أَفْصَحُ ، وَأَيُّ النَّاسِ أَقْرَأُ ؟ قَالُوا : أَفْصَحُ النَّاسِ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ، وَأَقْرَأُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، فَقَالَ : لِيَكْتُبْ أَحَدُهُمَا وَيُمْلِ الْآخَرُ فَفَعَلَا وَجُمِعَ النَّاسُ عَلَى مُصْحَفٍ " قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ : وَاللَّهِ لَوْ وُلِّيتُ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ.
وأخرج كذلك عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : " أَدْرَكْتُ النَّاسَ مُتَوَافِرِينَ حِينَ حَرَّقَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ ، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ " .
وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون

عليها، وكانت مُكمّلة لجمع خليفة رسول الله أبي بكر رضي الله عنه.
والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثرٌ لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.
وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.
وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الأ ُلفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة .
وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متّفقاً عليه بين المسلمين متواتراً بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.اهـ
ومما لا ريب فيه أن البغاة على عثمان أنفسَهم- وهم الذين أثاروا حوله هذه الفرية- كانوا في خلافة علي رضي الله عنه يقرؤون في مصاحف عثمان التي أجمع عليها الصحابة وعليٌّ منهم.
================

8- ترك عثمان رضي الله عنه قصر الصلاة في منى[54]

[54] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 90)
8 - وأما ترك القصر فاجتهاد ، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر ، وفعلوا ذلك في منازلهم ، فرأى أن السُّنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة ، فتركها خوف الذريعة (1) . مع أن جماعة من العلماء قالوا : إن المسافر مخيّر بين القصر والإتمام ، واختلف في ذلك الصحابة. (2) .

(1) كان ذلك في منى في موسم الحج سنة 29 . وقد عاتب عبد الرحمن بن عوف عثمان في إتمامه الصلاة وهم في منى ، فاعتذر له عثمان بأن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قالوا في العام الماضي : إن الصلاة للمقيم ركعتان ، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين : ثم قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف : وقد اتخذت بمكة أهلا (أي أنه صار في حكم المقيم ، لا المسافر) ، فرأيت أن أصلي أربعا لخوف ما أخاف على الناس . ثم خرج عبد الرحمن بن عوف من عند عثمان فلقي عبد الله بن مسعود وخاطبه في ذلك فقال ابن مسعود : « الخلاف شر ، قد بلغني أنه صلى أربعا فصليت بأصحابي أربعا » . فقال عبد الرحمن بن عوف : « قد بلغني أنه صلى أربعا فصليت بأصحابي ركعتين . وأما الآن فسوف يكون الذي تقول » يعني : نصلي معه أربعا (الطبري 5 : 56 - 57).
(2) نقل محمد بن يحيى الأشعري المالكي المعروف بابن بكر (674 - 741) في كتابه (التمهيد و البيان في مقتل الشهيد عثمان) وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية (برقم 23 تاريخ) أنه روى عن جماعة من الصحابة إتمام الصلاة في السفر ، منهم عائشة وسلمان وأربعة عشر من الصحابة . وفي أبواب التقصير من صحيح البخاري (ك18 ب5 - ج2 ص36) عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتِ الصَّلاَ ـةُ أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ فَأُقِرَّتْ صَلاَ ـةُ السَّفَرِ ، وَأُتِمَّتْ صَلاَ ـةُ الْحَضَرِ . قَالَ الزُّهْرِىُّ فَقُلْتُ لِعُرْوَةَ مَا بَالُ عَائِشَةَ تُتِمُّ قَالَ تَأَوَّلَتْ مَا تَأَوَّلَ عُثْمَانُ . وفي مسند أحمد (4 : 94) عَنْ عَبَّادِ بن عبد الله بن الزبير قَالَ ـ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ حَاجًا قَدِمْنَا مَعَهُ مَكَّةَ - قَالَ -

إن من الفقه بالإسلام أن تُفهَم روحُه جيدا عند النظر في نصوصه، وقد كان الخليفة الفقيه عثمان ابن عفان يراعي ذلك، فقد قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة في منى عام حجة الوداع، واستمر العمل على ذلك، حتى قصر عثمان نفسُه في خلافته عدة مرات..

وفي السنة السادسة من خلافته سمع أمير المؤمنين عثمان أن الناس افتتنوا بالقصْر، وقصروا الصلاة في منازلهم دون أن يكون مرخصا لهم القصرُ، فرأى أن السّنّة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة، فصلى بمنى وأتمّ صلا ته..

ومع أن بعض الصحابة أنكروا عليه تركَ القصرِ برفقٍ وأدبٍ، وأتمُّوا الصلاة مثله، خوفا على الأمة من اختلاف الكلمة إلا أن المتآمرين والثائرين أخذوا يروّجون بين الناس أن عثمان رضي الله عنه ابتدع في الدين، وترك ما كان يفعله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحباه.

===============

9- عثمان وقتل عبيد الله بن عمر للهرمزان [55]

فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى دَارِ النَّدْوَةِ - قَالَ - وَكَانَ عُثْمَانُ حِينَ أَتَمَّ الصَّلاَ ةَ إِذَا قَدِمَ مَكَّةَ صَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْعِشَاءَ الآخِرَةَ أَرْبَعاً أَرْبَعاً فَإِذَا خَرَجَ إِلَى مِنًى وَعَرَفَاتٍ قَصَرَ الصَّلاَ ةَ فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْحَجِّ وَأَقَامَ بِمِنًى أَتَمَّ الصَّلاَ ةَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ مَكَّةَ فَلَمَّا صَلَّى بِنَا مُعَاوِيَةُ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ نَهَضَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ وَعَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ فَقَالاَ لَهُ مَا عَابَ أَحَدٌ ابْنَ عَمِّكَ بِأَقْبَحِ مَا عِبْتَهُ بِهِ. فَقَالَ لَهُمَا وَمَا ذَاكَ قَالَ فَقَالاَ لَهُ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ أَتَمَّ الصَّلاَ ةَ بِمَكَّةَ قَالَ فَقَالَ لَهُمَا وَيْحَكُمَا وَهَلْ كَانَ غَيْرُ مَا صَنَعْتُ قَدْ صَلَّيْتُهُمَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَمَعَ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ. قَالاَ فَإِنَّ ابْنَ عَمِّكَ قَدْ كَانَ أَتَمَّهَا وَإِنَّ خِلاَفَكَ إِيَّاهُ لَهُ عَيْبٌ. قَالَ فَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْعَصْرِ فَصَلاَّهَا بِنَا أَرْبَعاً. وهو حديث صحيح

[55] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 102)

17 - وأما امتناعه عن قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالهرمزان ، فإن ذلك باطل (1) . فإن كان لم يفعل فالصحابة متوافرون ، والأمر في أوله (2) ، وقد قيل : إن الهرمزان سعى في قتل عمر ، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه (3) ، وكان قتل عبيد الله له وعثمان لم يل بعد ، ولعل عثمان كان لا يرى على عبيد الله حقا ، لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله (4) ، وأيضا فإن أحدا لم يقم بطلبه . وكيف يصح مع هذه الاحتمالات كلها أن ينظر في أمر لم يصح ؟ .

---

(1) بشهادة ابنه القماذبان . روى الطبري (5 : 43 - 44 مصر و1 : 2801 طبعة أوروبا) عن سيف بن عمر بسنده إلى أبي منصور قال : سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه . . . قال : « فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه » (أي من عبيد الله بن عمر بن الخطاب) ثم قال : « يا بني هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب ، فاقتله » . فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي ، إلا أنهم يطلبون إلي فيه . فقلت لهم : ألي قتله ؟ قالوا : نعم . وسبوا عبيد الله . فقلت : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا . وسبوه . فتركته لله ولهم . فاحتملوني . فوالله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم « . هذا كلام ابن الهرمزان وإن كل منصف يعتقد (ولعل ابن الهرمزان أيضا كان يعتقد) أن دم أمير المؤمنين عمر في عنق الهرمزان ، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا آلة في يد هذا السياسي الفارسي . وإن موقف عثمان وإخوانه أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم من هذا الحادث لا نظير له في تاريخ العدالة الإنسانية .

(2) وقد تصرف عثمان في هذا الأمر بعد أن ذاكر الصحابة فيه . قال الطبري (5 : 41) جلس عثمان في جانب المسجد ودعا عبيد الله وكان محبوسا في دار سعد بن أبي وقاص ، وهو الذي نزع السيف من يده . . . فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار : أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال علي : أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال

في السنة الثالثة والعشرين للهجرة أصاب خنجرُ أبي لؤلؤة النصرانيّ المجوسيّ الأصل أميرَ المؤمنيـن العـادلَ عمرَ بن الخطاب في مقتل، فأصيب المسلمون من ذلك بحالة من الذهول؛ إذ رأوا أميرَهم الصالحَ الذي فتح الله الدنيا على يديه يُقتَل بهذه الصورة الحاقدة، وطاش عقلُ عبيدِ الله بن عمرَ حين رأى الدم ينزف من جسد والده، فأمسك نفسه حتى تقدَ أمرُ الله في أبيه، ثم ثارت ثائرته فحمل سيفه، وراح يقتل كلّ مَنْ ظن أنه متواطئ مع أبي لؤلؤة في جريمته، فقتل الهرمزانَ، وجُفينة النصراني، وابنة أبي لؤلؤة المجوسي، وهدد وتوعد بأنه سيقتل كلّ من شارك في هذه الجريمة، مما سبب حالة فوضى بالمدينة..

عندها قام إليه سعد بن أبي وقاص، ونزع السيف من يده، وحبسه في داره، حتى ينظر الخليفة الجديد في شأنه، إذ ليس لأحد حقّ في إقامة الحدود ومعاقبة المشتركين في الجريمة إلا الإمام ونائبه.

فلما وَلِي عثمان ـ رضي الله عنه ـ استشار الصحابةَ في هذه القضية الشائكة، فاختلفت آراؤهم فيها، لكن لم يعطل حَدّ الله، ودفع عبيدَ الله إلى ابن الهرمزان ليقتله بأبيه، فمكّنه منه على مَسْمَعٍ ومرأى من جموع الصحابة، وكفلوا له حرية اتخاذ القرار، وضمنوا له تنفيذه، لكن ابنَ الهرمزان ـ صاحبَ الحقّ ـ عفا عن عبيد الله، وسَعِدَ الجميعُ بذلك.. عندئذ قام عثمان ـ تدفعه سجيّتُه في الكرم ـ بدفع الدية من ماله الخاص، فرضي الجميع. ومع هذا أشاع مثيرو الفتنة أن الخليفة عطّل حد الله!!

عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال عثمان : أنا وليهم ، وقد جعلتها دية ، واحتملتها في مالي .

(3) وفي تاريخ الطبري : (5 : 42) حديث سعيد بن المسيب أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال غداة طعن عمر : « مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ، ومعه جفينة (وكان نصرانيا من أهل الحيرة ظئرا لسعد بن أبي وقاص) والهرمزان ، وهم نجي ، فلما رهقتهم ثاروا ، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه . فانظروا بأي شيء قتل » وخرج في طلبه رجل من بني تميم ، فرجع إليهم التميمي وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه . وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر . فسمع بذلك عبيد الله بن عمر ، فأمسك حتى مات عمر ، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله .

(4) وكذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس رأى جواز قتل علوج الفرس الذين في المدينة بلا استثناء . قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (3 : 200) : وقد قال عبد الله بن عباس لما طعن عمر - وقال له عمر : كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة - فقال (أي ابن عباس) : « إن شئت أن نقتلهم » فقال عمر : « كذبت ، أفبعد أن تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ؟ » . قال ابن تيمية : فهذا ابن عباس - وهو أفقه من عبيد الله بن عمر وأدين وأفضل بكثير - يستأذن عمر في قتل علوج الفرس مطلقا الذين كانوا بالمدينة ، لما اتهموهم بالفساد ، اعتقد جواز مثل هذا . . . وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين في الأرض المحاربين فيجب قتله لذلك . ولو قدر أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله ، لكن كان القاتل متأولا ويعتقد حل قتله لشبهة ظاهرة ، صار ذلك شبهة تدرأ عن القاتل (يعني عن عبيد الله بن عمر) قلت : وإلى هذا ذهب عثمان في اكتفائه بالدية واحتملها من ماله الخاص . ولو أن حادث مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - بجميع ظروفه - وقع مثله في أي بلد آخر مهما بلغ في ذروة الحضارة لما كان منهم مثل الذي كان من الصحابة في تسامحهم إلى حد المطالبة حتى بقتل ابن أمير المؤمنين المقتول بيد الغدر والنذالة والبغي الذميم .

=================

10- ارتفاع عثمان على المنبر أكثر من رسول الله صلى الله عليه وسلم [56]

عجيب أمر هؤلاء المنحرفين!!

إنهم يبحثون عن أي شيء يفعله الخليفة لينسجوا حوله الأكاذيب، فعندما زاد درجات المنبر وعلا فوقه حتى يسمعه ويراه الحاضرون، قالوا: علا على درجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكي يسمع عامةُ الناس ذلك وغيرَه فيكرهوه لمخالفته للرسول ـ صلى الله عليه وسلم.

لقد كان مسجدُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيقَ المساحة في عصر النبوة وخلافة أبي بكر، وكان من مناقب عثمان في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه اشترى من ماله مساحة من الأرض وسع بها المسجد النبوي عندما ضاق بالمصلين ، ثم وسعه أميرُ المؤمنين عمر فأدخل فيه دار العباس بن عبد المطلب. ثم ازداد بعد ذلك عدد سكان المدينة وقاصديها فوسّعه أميرُ المؤمنين عثمانُ مرة أخرى، وجعل طوله ستين ومائةَ ذراعٍ وعرضَه خمسين ومائةَ ذراعٍ، وجدد بناءه...

فاتساعُ المسجد، وازديادُ المصلين فيه، وبُعد أمكنة بعضهم عن منبر الخطابة ، يجوز أن يكون من ضرورات ارتفاع الخطيب ليراهم ويروه ويسمعوه. فإن صح أنْ علا عثمانُ على درجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسمعه ويراه الحاضرون.. فهل في هذا ما يُحِلُّ انتهاكَ حرمته ودمه؟!

=============

التمرد على الخليفة

كان عثمان ـ رضي الله عنه، يطلق صيحاتِ التحذير وأجراسَ الخطر من عاقبة السوء التي ستصيب الأمة عامة، وهؤلاء الأشرار خاصة من جراء الفتنة التي جرُّوها إلى هذه المدينة، فكان لا يفتأ يذكِّرهم، ويطلق هذه الصيحاتِ من حينٍ إلى آخر: "إنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله ـ عز وجل ـ عنكم إلى يوم القيامة. ولا تقتلوني، فإنكم إن قتلتموني لم تصلوا من بعدي جميعا أبدا.. ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا ؛ فوالله لئن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبدا، ولا تقاتلون بعدي عدوا جميعا أبدا...[57]

تولى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إمارة المؤمنين ورياح التغيير المحتوم تسوق دولة الإسلام ومجتمَعَه إلى مطالع جديدة، لا مفر ّ من لقياها بكل ما فيها من صفاء، وكل ما بها من غيوم.

---

[56] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 99)

15 - وأما علوه على درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما سمعته ممن فيه تقية . وإنما هي إشاعة منكر ، ليُروى ويُذكر ، فيتغيّر قلب من يتغير ، قال علماؤنا : ولو صح ذلك فما في هذا ما يُحل دمه . ولا يخلو أن يكون ذلك حقا فلم تنكره الصحابة عليه ، إذ رأت جوازه ابتداء أو لسبب اقتضى ذلك . وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام

[57] - تاريخ الطبري 486/2

وتجمع المتآمرون على اختلاف نفوسهم، ودناءة قدرهم، فأحسنوا استغلالَ بواعث الفتنة في المجتمع، وحركوها، وقادوا حملة التشويه والتضليل حول الخليفة وولاته، حتى بدأت تظهر بوادرها أولا: في تمرد الأمصار على الولاة، حتى نجحت ثورتهم في بعض الأمصار، وسيطروا عليها.
ولم يكن ذلك هدفهم، إنما شخص الخليفة، فأعدوا للخروج إلى المدينة، وزحفوا إليها زحفهم الأول، لكن ّ حِلم الخليفة وورعه استوعبا الموقف.
وثارت الفتنة من جديد حين دس المتآمرون على الخليفة كتابا يأمر فيه بقتل بعض المتآمرين عليه، فزحفوا على عثمان في المدينة مرة أخرى، وضربوا عليه الحصار، وعرضوا عليه مطالبَهم، لكن الخليفة عثمان لم يرضخ لها، وصمد أمامهم على الرغم مما لقيه من إيذاء، وآثر العافية والمسالمة على الرغم من محاولات كثيرة من الصحابة للدفاع عنه والقتال دونه، وكان دائما ما يرفض ذلك. فشدد البغاةُ زعماءُ الفتنة الحصارَ، وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوعهم، وخشوا أن تدور عليهم الدائرة، ولم يجدوا مخرجا مما هم فيه إلا تنفيذ جريمتهم النكراء المشئومة، فكان استشهاد عثمان ـ رضي الله عنه ـ فقتلت هذه النفس الزكية ظلما وعدوانا في الشهر الحرام والبلد الطاهر بعد ثماني عشرة ليلةً مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة.
================

تمرد الأمصار على الولاة

كان لابد للتغيرات الاجتماعية العميقة التي طرأت على بنية المجتمع، وظلت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس ـ كان لابد لها أن تظهر وتعلن عن نفسها وعن آثارها السلبية في المجتمع، وكان لابد لأسباب الفتنة وبواعثها التي كانت تعمل تحت السطح أن تطفو وتقفز على السطح، وقد حان الوقت للمتآمرين أن يحصدوا ما زرعوه؛ فظهرت بوادره في تمردٍ بِ الكوفة، وتمردٍ بالبصرة، وتمردٍ بمصرَ.
ونشط المتآمرون، فأوسعوا الأرضَ إذاعةً لإشاعات مغرضة، حتى بلغ صداها المدينةَ عاصمةَ الخلافة، فأوفَدَ الخليفةُ عثمان وفدًا يتقصّى الحقائق، يذهب إلى الأمصار ويحقق في الأمر، ويرفع إليه بيانا عن حقيقة الوضع بها. ورجع الوفد ورفع بيانه إلى أمير المؤمنين كاشفا له زيفَ هذه الإشاعات وكذبَها وسـ لامةَ موقفِ ولاتِه وبراءة ساحتِهم.
عن يزيد القعسيّ، قال: كان عبد اللّه بن سبأ يهوديّاً من أهل صنعاء، أمّه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين، يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشأم، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشأم، فأخرجوه حتى أتى مصر، فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول: لعجب ممن يزعم أنّ عيسى يرجع، ويكذّب بأنّ محمداً يرجع، وقد قـ ال اللّه عزّ وجلّ: " إنّ الّذي فرض عيك القرآن لرادُك إلى معاد " .
فمحمد أحقّ بالرجوع من عيسى. قال: فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرّجعة، فتكلموا فيها. ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبيّ، ولكلّ نبيّ وصيّ، وكان

عليّ وصيّ محمد؛ ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء، ثم ق
ال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصيّة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم
ووثب على وصيّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وتناول أمر الأمّة! ثم ق
ال لهم بعد ذلك: إنّ عثمان أخذها بغير حقّ، وهذا وصيّ رسول اللّه صلى
اللّه عليه وسلم، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدءوا بالطعن على
أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ تستميلوا الناس،
وادعوهم إلى هذا الأمر.
فبثّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصر وكاتبوه، ودعوا في السرّ
إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا
يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم
بمثل ذلك، ويكتب أهل كلّ مصر منهم إلى مصر آخر ما يصنعون؛ فيقرؤه
أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة،
وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرّون غير ما
يبدون، فيوقل أهل كلّ مصر: إنّا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا ّ أهل
المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا إنا لفي عافية مما فيه
الناس، وجامعه محمد وطلحة من هذا المكان، قالوا: فأتوا عثمان، فقالوا: ميا
أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا واللّه، ما جاءني إلا ّ
السلامة، قالوا: فإنا قد أتانا.. وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم؛ قال: فأنتم
شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ؛ قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالا
ً ممن تثق بهم إلى المصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم. فدعا محمّد بن
مسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار
بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد اللّه بن عمر إلى الشأم، وفرّق رجالا ً
سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمّار، فقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا
أنكره أعلام المسلمين ولا عوامُهم؛ وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، إلا ّ
أنّ أمراءهم ميقسطون بينهم، ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عمّاراً حتى
ظنوا أنه قد اغتيل، فلم يفجأهم إلا ّ كتاب من عبد اللّه ابن سعد بن أبي
سرح يخبرهم أنّ عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه؛ منهم عبد
اللّه بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر.
كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعطيّة، قالوا:
كتب عثمان إلى أهل الأمصار، أمّا بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كلّ
موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا ّ أعطيته، وليس لي
ولعيالي حقّ قبل الرعيّة إلا ّ متروك لهم، وقد رفع إليّ أهل المدينة أنّ
أقواماً يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرّاً، وشتم سرّاً، من ادّعى
شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقّه حيث كان؛ منّي أو من عمالي، أو
تصدّقوا فإن اللّه يجزي المتصدّقين. فلما قرىء في الأمصار أبكي الناس،
ودعوا لعثمان وقالوا: إنّ المة لتمخّض بشرّ. وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا

عليه: عبد الله بن عامر، ومعاوية، وعبد الله بن سعد؛ وأدخل معهم في المشورة سعيداً وعمراً، فقال: ويحكم! ما هذه الشاكية؟ وما هذه الإذعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا إلا ّ بي؛ فقالوا له: أمل تبعث! لم نرجع إليك الخبر عن القوم! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء! لا والله ما صدقوا ولا برّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ً، وما كنت لتأخذ به أجداً فيقيمك على شيء؛ وما هي إلا إذاعة لا يحلّ الأ خذ بها، ولا الانتهاء إليها.

قال: فأشيروا عليّ؛ فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع في السرّ، فيلقى به غير ذي المعرفة، فيخبر به، فيتحدّث به في مجالسهم، قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم؛ فإنه خير من أن تدعهم. قال معاوية: قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخبر، والرّجلان أعلم بناحيتيهما؛ قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب، قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة مصاحبيك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلين في موضع اللين. إن الشدّة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرّاً، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين.

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال: كلّ ما أشرتم به عليّ قد سمعت، ولكلّ أمر باب يؤتي منه؛ إنّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإنّ بابه الذي يغلق عليه فكيفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا ّ في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدهما، فإن سدّه شيء فرفق، فذاك والله ليفتحنّ، وليست لأحد عليّ حجة حقّ، وقد علم الله أنّي لم آل الناس خيراً، ولا نفسي. ووالله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها.[58]

ولم يرتدعْ مثيرو الفتنة، وتمادوا في غيهم حتى نجحت فتنتُهم في بعض ا لأمصار، فخلعوا واليَ الكوفة، ونجح الثائرون في مصر في خلع واليهم والا ستيلاء عليها، وجهّزوا لزحفهم الأول على المدينة الذي تبدد أمام موقف الخليفة العظيم وحكمته.

==============

الكوفة ومصر تخلعان واليهما

الكوفة.. غريبة هذه المدينة التي رَفَعتْ قبائلُها صوتَ الشكوى ضد وُلاتها منذ الميلادِ الأولِ لها، فقد جَلَبَ إليها ساكنوها من صحارى الجزيرة كثيرًا من ميراث الجاهلية، فكم اعترضوا على وُلاتهم، وكم رمَوْهم بالتهم الكبار!! حتى

---

[58] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 467-469)

اشتكى منهم أميرُ المؤمنين عمر، بعد أن استجاب لهم مرة ومرة، وعزل عنهم مَنْ لا يرضونه من الولاة.
وها هم اليوم قابعون في الكوفة في انتظار ما يُسفر عنه الاجتماع الذي عقده أمير المؤمنين عثمان مع ولاته على الأمصار، وأهلُ الكوفة كلُهم ثقةٌ في أن الخلافة ستستجيب لهم، وتعزل عنهم مَنْ يكرهون، كما تعوّدوا من قبلُ.. لكن الأنباء التي بلغَتْهم أفـادتْ أن عثمـان أبقى سعيد بن العاص أميرا عليهم، فامتلأت نفوسُ طلابِ الفتن غيظا وأضمروا شرا...
وقد كان الباب أمام الشر مفتوحا، إذْ أرسل سعيد بن العاص أشرافَ الناس و لاةً على أنحاء فارس، وبقي النازعون إلى الفتن، والباحثون عن الاضطراب و الخلل كثرةً خلا لها الجوُّ فعسكروا لسعيد ـ لدى عودتِه من المدينة ـ عند الجرَعَةِ، ومنعوه من دخول الكوفة، وخلعوه وطلبوا تولية أبي موسى الأ شعري مكانه، فأرسل عثمان رسالةً رقيقةً إلى أهل الكوفة يَعِدُهم بتحقيق ما يرجون، وأقرّ عليهم أبا موسى..
قال ابن كثير رحمه الله :
تكاتب المنحرفون عن طاعة عثمان وكان جمهورهم من أهل الكوفة، وهم في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص منفيون عن الكوفة، وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة، وتألبوا عليه، ونالوا منه ومن عثمان، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه، وأغلظوا له في القول. (ج/ص: 7/187)
وطلبوا منه أن يعزل عماله، ويستبدل أئمة غيرهم من السابقين ومن الصحابة، حتى شق ذلك عليه جداً، وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وعبد الله بن عامر أمير البصرة فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة.
فأشار عبد الله بن عامر: أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته، فإن غوغاء الناس إذا تفرغوا وبطلوا واشتغلوا بما لا يغني، وتكلموا بما لا يرضي، وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم.
وأشار سعيد بن العاص بأن يستأصل شأفة المفسدين ويقطع دابرهم، وأشار معاوية بأن يرد عماله إلى أقاليمهم، وأن لا يلتفت إلى هؤلاء، وما تألبوا عليه من الشر فإنهم أقل وأضعف جنداً.
وأشار عبد الله بن سعد بن أبي سرح بأن يتألفهم بالمال فيعطيهم منه ما يكف به شرهم، ويأمن غائلتهم، ويعطف به قلوبهم إليه.
وأما عمرو بن العاص فقام فقال: أما بعد يا عثمان، فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون، فأما أن تعزل عنهم ما يكرهون، وإما أن تقدم فتنزل عمالك على ما

هم عليه، وقال له كلاماً فيه غلظة، ثم اعتذر إليه في السر بأنه إنما قال هذا ليبلغ عنه من كان حاضراً من الناس إليهم ليرضوا من عثمان بهذا، فعند ذلك قرر عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألف قلوب أولئك بالمال، وأمر بأن يبعثوا إلى الغزو إلى الثغور، فجمع بين المصالح كلها، ولما رجعت العمال إلى أقاليمها امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص، ولبسوا السلاح وحلفوا أن لا يمكنوه من الدخول فيها حتى يعزله عثمان ويولي عليهم أبا موسى الأشعري، وكان اجتماعهم بمكان يقال له الجرعة - وقد قال يومئذٍ الأشتر النخعي: والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا - وتواقف الناس بالجرعة.

وأحجم سعيد عن قتالهم، وصمموا على منعه، وقد اجتمع في مسجد الكوفة في هذا اليوم حذيفة وأبو مسعود عقبة بن عمرو، فجعل أبو مسعود يقول: والله لا يرجع سعيد بن العاص حتى يكون دماء.

فجعل حذيفة يقول: والله ليرجعن ولا يكون فيها محجمة من دم، وما أعلم اليوم شيئاً إلا وقد علمته ومحمد صلى الله عليه وسلم حي.

والمقصود: أن سعيد بن العاص كرّ راجعاً إلى المدينة وكسر الفتنة، فأعجب ذلك أهل الكوفة، وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري بذلك فأجابهم عثمان إلى ما سألوا إزاحة لعذرهم، وإزالة لشبههم، وقطعاً لعللهم. (ج/ص: 7/188)[59]

وفي مصر انتهز الثائرون فرصةَ غيابِ واليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فخلعوه، واستولى محمد بن أبي حذيفة على مصر، فأرسل إليه عثمانُ سعدَ بن أبي وقاص لاستصلاحه، فخرج إليه في جماعة ولقوه في الطريق فقلبوا عليه فسطاطَه وشَجُّوه وسَبُّوه، فركب راحلتَه ودعا عليهم، وعاد من حيث جاء.

===============

التمرد في البصرة

ظل عبد الله بن عامر واليا على البصرة كخير أمير في ولايته، يرفق بهم، ويسهر على راحتهم، ويذلل لهم الصعاب، إلى أن شكا المسلمون وأهل الذمة على السواء من حُكَيْم بن جبلة[60] وكان لصًا خطيرًا أفسد في الأرض حتى

---

[59] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 230)فما بعد

[60] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 106)

حُكيم بن جبلة العبدي من قبائل عبد القيس ، أصلهم من عُمان وسواحل الخليج الفارسي ، وتوطن بالبصرة بعد تمصيرها . وكان حكيم هذا شابا جريئا ، وكانت الجيوش الإسلامية التي تزحف نحو الشرق لنشر الدعوة والفتوح تصدر عن البصرة والكوفة ، فكان حكيم بن جبلة يرافق هذه الجيوش ، ويجازف في بعض حملات الخطر ، كما تفعل كتائب (الكوماندوس) في هذا العصر . وقد استعملته جيوش أمير المؤمنين عثمان في إحدى هذه المهمات عند محاولتها استكشاف الهند كما نوهتُ بذلك في مقالة (طلائع الإسلام في الهند) . ويؤكد شيوخ سيف بن عمر التميمي (وهو أعرف المؤرخين بتاريخ العراق) على ما نقله عنه الطبري (5 : 90) أن حكيم بن جبلة كان إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم

وصلت شكواهم إلى أمير المؤمنين، فأمر عبدَ الله بن عامر بحبسه، ومن كان مثله فلا يخرجنّ من البصرة حتى يُؤْنَسَ منه رشدٌ وتوبة، فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها.

وبعد مضي ثلاث سنين من إمارة ابن عامر، وفي أثناء تنقل ابن سبأ بين الأمصار قدم البصرة، ونزل على هذا اللص عند قبيلته عبد القيس، واجتمع إلى ابن سبأ نفر فأخذ يبث فيهم سمومَه، ويطرح لهم أفكاره ولم يصرحْ، فقبلوا منه واستعظموه، وتبع مذهبَه قـومٌ منهم لهـم قلوبٌ لا يفقهون بهـا، وكثيرٌ ممن طاشت عقولهم...

وبلغ ابنَ عامر أن في عبد القيس رجلا نازلا على اللص المفسد حُكَيْم بن جبلة، فأرسل إليه وسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام، ورغب في جوارك. فقال: ما يبلغني ذلك، اخرج عني، فخرج حتى أتى الكوفةَ، فأُخرِج منها فاستقر بمصر، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه في البصرة والكوفة، ويتردد الرجال بينهم في كل بلد طُرِد منها ولا يستطيع دخولها.[61]

================

التمرد في مصر

كثير من الناس ينتظرون أن يحصدوا ثمار قرابتهم أو معرفتهم بالسلاطين و الأمراء في صور مختلفة، أولها أن يضعوهم في المناصب العالية، ولو لم تكن عندهم القدرات والمواهب اللازمة لذلك، فإذا لم تتحقق آمالهم انقلبوا أعداء

يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا ، فحبسه (أي منعه من مبارحة البصرة) . فلما قدم عبد الله بن سبأ البصرة نزل على حكيم بن جبلة ، واجتمع إليه نفر ، فنفث فيهم سمومه . فأخرج ابن عامر عبد الله بن سبأ من البصرة ، فأتى الكوفة فأخرج منها ، ومن هناك رحل ابن سبأ إلى الفسطاط ولبث فيه وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم . وذكر الطبري (5 : 104) أن السبئية لما قرروا الزحف من الأمصار على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كان عدد من خرج منهم من البصرة كعدد من خرج من مصر ، وهم مقسمون كذلك إلى أربع فرق ، والأمير على إحدى هذه الفرق حكيم بن جبلة ، ونزلوا في المدينة في مكان يسمى ذا خشب . ولما حصبوا أمير المؤمنين عثمان وهو يخطب على المنبر النبوي كان حكيم بن جبلة واحدا منهم (الطبري 5 : 106) ولما رحل الثوار عن المدينة في المرة الأولى بعد مناقشتهم لعثمان وسماعهم دفاعه واقتناعهم ، تخلف في المدينة الأشتر وحكيم بن جبلة (الطبري 5 : 120) وفي ذلك شبهة قوية بأن لهم دخلا في افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين . ولما جاءت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وأوشكوا أن يتفاهموا مع أمير المؤمنين عليّ على رد الأمور إلى نصابها كان حكيم بن جبلة هو الذي أنشب القتال لئلا يتم التفاهم والاتفاق (الطبري 5 : 176 وما بعدها) . وارتكب دناءة قتل امرأة من قومه سمعته يشتم أم المؤمنين عائشة فقالت له : يا ابن الخبيثة أنت أولى بذلك . فطعنها فقتلها (الطبري 5 : 176) ، وحينئذ تخلى قومه عن نصرته إلا الأغمار منهم ، وما زال يقاتل حتى قطعت رجله ، ثم قتل وقتل معه كل من كان في الوقعة من البغاة على عثمان ، ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة : « ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم » فجيء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا . فما أفلت منهم إلا حرقوص بن زهير السعدي من بني تميم (الطبري 5 : 180) . روى عامر بن حفص عن أشياخه قال : ضرب عنق حكيم رجل من الحدّان يقال له ضخيم فمال رأسه فتعلق بجلده فصار وجهه في قفاه ، الطبري (5 : 182) .

[61] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 463)

شرسين لأصحاب السلطة، ليس مناصرةً للحق، ولكن حقدا وحزنا على آمالهم التي تبخرت!!
وقد كان هذا هو موقف محمد بن أبي حذيفة من أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فقد مات والدُه أبو حذيفة بن عتبة شهيدا في العام الحادي عشر من الهجرة يوم اليمامة، فحنَا عليه عثمانُ وكفله يتيما، ورباه في كنَفِه، وحفظ فيه ذكرى أبيه الشهيد، فلما شب محمد أطمعَه رفقُ عثمان الذي كان قد تولى الخلافة، فسأله أن يوليه بعض المناصب، لكن الخليفة الراشد لم يره أهلا لذلك، فكان أنْ أعلن محمدُ بن أبي حذيفة الحرب على عثمان، وأخذ يؤلِب الناس في مصر ضده.
وكذا فعل محمد بن أبي بكر، ذلك الرجل الذي كان أبوه أكبرَ مَنْ خَدَمَ الإسلامَ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسكّن فتنة الردة، وحفظ الله به الدين في أول تجربة صعبة للمسلمين بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.
ذهب محمد ومحمد إلى مصر ليؤلِبا القبائلَ العربية هناك على عثمان، ولم يمنعْهما من ذلك ما كان فيه أهلُ مصر من جهاد الروم في موقعة ذات الصواري سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، فأخذا يحرّضان الناسَ حتى أفسدا أهلَ تلك الغزوة، وعابا عثمان أشد العيب، فأرسل عبدُ الله بنُ سعد إليهما ينهاهما أشدّ النهي، وكتب إلى عثمان بخبرهما: " إن محمدا قد أفسدَ عليّ البلاد هو ومحمد بن أبي بكر "، فرد عليه عثمان: " أما ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبي‍ـه وعائش‍ـة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وربيبي وهو فرخ قريش". فكتب إليه ابن سعد: "إن هذا الفرخ قد استوى ريشُه ولم يبق إلا أن يطير"!
وتواصل في مصر مع ذلك دور بعض المشبوهين من أهل الكتاب ممن اندسّوا في صفوف المسلمين، وربما كان على رأسهم هذا الشخصُ الغامضُ ابنُ سبأ، ونجح هؤلاء في التأثير على القبائل اليمنية التي جاءت في الجيش الفاتح لمصر. وراسل هؤلاء المشبوهون أتباعَهم ومَنْ انخدع بهم في الكوفة والبصرة.
وفي سنة خمس وثلاثين من الهجرة كانت الشائعات حول الخليفة وولاتِه قد تردّدت في نواحي الدولة الإسلامية، حتى وصلت إلى المدينة نفسِها، وكان المثيرون للفتنة طائفتين هما:
رجال من قبائل البدو المخدوعةِ الذين لا يقدِّرون عواقبَ الأمور، ويودّون جَنْيَ المكاسب بإثارة الشر ضد قريش وسلطتها، ومعهم أفراد من قريش شبابٌ لا حلم لهم ولا عقل، نقِمُوا على الخليفة عدمَ إعطائه إياهم المناصبَ الرفيعة.
والطائفة الثانية: هي مجموعة المنْدَسِّين من أهل الكتاب في الصف المسلم بقصد الشر والسوء..
والتقت أهداف الطائفتين في منتصف الطريق، وسلكوا لتحقيق أغراضهم

كلّ سبيل، حتى وضعوا كتبَ الاعتراض ضد الخليفة على ألسنة أمهات المؤمنين.

================

عثمان رضي الله عنه يتقصى الحقائق

ها هو الخليفة عثمان يبذل ما في وسعه وطاقته من أجل أن يستوعب الفتنةَ، ويُخمِدَ نارَها، قبل أن تشتعل فتحرق كل شيء، عَنْ يَزِيدَ الْفَقْعَسِيِّ قَالَ : كَانَ ابْنُ سَبَأٍ يَهُودِيًّا مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ , أُمُّهُ سَوْدَاءُ , فَأَسْلَمَ زَمَانَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ , ثُمَّ تَنَقَّلَ فِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ يُحَاوِلُ ضَلاَلَتَهُمْ , فَبَدَأَ بِالْحِجَازِ , ثُمَّ الْبَصْرَةِ , ثُمَّ الْكُوفَةِ , ثُمَّ الشَّامِ , فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يُرِيدُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ , فَأَخْرَجُوهُ , حَتَّى أَتَى مِصْرَ , فَاعْتَمَرَ فِيهِمْ , فَقَالَ لَهُمْ فِيمَا كَانَ يَقُولُ : الْعَجَبُ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْجِعُ ، وَيُكَذِّبُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجِعُ , وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ فَمُحَمَّدٌ أَحَقُّ بِالرُّجُوعِ مِنْ عِيسَى قَالَ : فَقُبِلَ ذَلِكَ عَنْهُ ، ثُمَّ وَضَعَ لَهُمُ الرَّجْعَةَ فَتَكَلَّمُوا فِيهَا , ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّهُ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَصِيٌّ , وَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصِيَّ مُحَمَّدٍ , وَقَالَ لَهُمْ : مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَعَلِيٌّ خَاتَمُ الأَوْصِيَاءِ , وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ لَمْ يُجِزْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , وَوَثَبَ عَلَى وَصِيِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , ثُمَّ قَالَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ : أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ جَمَعَ أَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا , وَهَذَا وَصِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَانْهَضُوا فِي هَذَا الأَمْرِ فَحَرِّكُوهُ وَابْدَءُوا بِالطَّعْنِ عَلَى أُمَرَائِكُمْ , وَأَظْهِرُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ , وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ , تَسْتَمِيلُوا النَّاسَ , وَادْعُوا إِلَى هَذَا الأَمْرِ , فَبَثَّ دُعَاةً , وَكَاتَبَ مَنْ كَانَ اسْتَفْسَدَ فِي الأَمْصَارِ وَكَاتَبُوهُ , وَدَعَوْا فِي السِّرِّ إِلَى مَا عَلَيْهِ رَأْيُهُمْ , وَأَظْهَرُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ , وَجَعَلُوا يَكْتُبُونَ إِلَى الأَمْصَارِ بِكُتُبٍ يَضَعُونَهَا فِي عُيُوبِ وُلاَتِهِمْ , وَيُكَاتِبُهُمْ إِخْوَانُهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ , وَيَكْتُبُ أَهْلُ كُلِّ مِصْرٍ إِلَى أَهْلِ مِصْرٍ آخَرَ بِمَا يَصْنَعُونَ , فَيَقْرَأُهُ أُولَئِكَ فِي أَمْصَارِهِمْ , وَهَؤُلاءِ فِي أَمْصَارِهِمْ , حَتَّى يَنَالُوا بِذَلِكَ الْمَدِينَةَ , وَأَوْسَعُوا الأَرْضَ إِذَاعَةً وَهُمْ يُرِيدُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ , وَيَسْتُرُونَ غَيْرَ مَا يَرَوْنَ , فَيَقُولُ أَهْلُ كُلِّ مِصْرَ : إِنَّا لَفِي عَافِيَةٍ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ هَؤُلاءِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَإِنَّهُمْ جَاءَهُمْ ذَلِكَ , عَنْ جَمِيعِ أَهْلِ الأَمْصَارِ , فَقَالُوا : إِنَّا لَفِي عَافِيَةٍ مِمَّا النَّاسُ فِيهِ قَالَ : وَاجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ , فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ , أَيَأْتِيكَ عَنِ النَّاسِ الَّذِي أَتَانَا ؟ قَالَ : " لا وَاللَّهِ مَا جَاءَنِي إِلا السَّلامَةَ " قَالُوا : فَإِنَّا قَدْ أَتَانَا وَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ : " فَأَنْتُمْ شُرَكَائِي , وَشُهُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَشِيرُوا عَلَيَّ " , قَالُوا : نُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْعَثَ رِجَالا مِمَّنْ تَثِقُ بِهِمْ إِلَى الأَمْصَارِ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيْكَ بِأَخْبَارِهِمْ , فَدَعَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ[62] فَأَرْسَلَهُ إِلَى الْكُوفَةِ ,

---

[62] - إنه أبو عبد الله محمد بن مسلمة الأنصاري، أحد فضلاء الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها من الغزوات، ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وكان أسمر شديد السمرة، طويلا ً، أصلع الرأس، ضخم الجسم، استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في بعض غزواته، وأمّره على نحو

وَأَرْسَلَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ[63] إِلَى البَصْرَةِ , وَأَرْسَلَ عَمّارَ بْنَ يَاسِرٍ إِلَى مِصْرَ ,

(51) سرية، وكان يرسله ليأتي بالصدقات من الإمارات الإسلامية.
وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وأسلم على يد مصعب بن عمير حينما كان في المدينة، وكان أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي الذي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم .
وظل يجاهد في سبيل الله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر، وعثمان -رضي الله عنهم-.
وكان عمر -رضي الله عنه- يعتمد عليه في الأمور الصعبة، فقد بعثه إلى سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- حين بنى لنفسه قصرًا بالكوفة، واحتجب عن الرعية، وأمره أن يحرق باب القصر، فذهب إلى هناك، وفعل ما أمره به أمير المؤمنين.
وكان -رضي الله عنه- شجاعًا في الحق، فقد روى أنه لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة سأل قائلا ً: كيف تراني يا فلان؟ فقال له: أراك والله كما أحب، وكما يحب من يحب لك الخير، أراك قويًا على جمع المال، عفيفًا عنه، عدلا ً في قسمه، ولو مِلتَ عدلناك كما يعدل السهم في الثقاب، فقال عمر متعجبًا من شجاعته، ومسرورًا بما قال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا مِلتُ عدلوني.
وعندما قامت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان، أخذ محمد بن مسلمة سيفه، وذهب إلى صخرة قوية، وأخذ يضرب السيف على الصخرة حتى كسّر السيف، واتخذ لنفسه سيفًا من خشب، وذهب إلى الربذة وبنى لنفسه بيتًا صغيرًا جلس فيه، فقال له أصحابه: لماذا فعلت ذلك يا محمد؟ فأجابهم قائلا: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفًا، وقال لي: (يا محمد بن مسلمة، جاهد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضًا، فائت به أحَدًا (أي: جبل أحد) فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية (يعنى الموت))، وقد فعلت ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم :. [أحمد].
ومات -رضي الله عنه- سنة (43 هـ)، وعمره (77) سنة، وترك من الولد عشرة ذكور وست بنات، وقد روى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :.
[63] -إنه الصحابي الجليل أسامة بن زيد -رضي الله عنه-، وهو ابن مسلمين كريمين من أوائل السابقين إلى الإسلام، فأبوه زيد بن حارثة، وأمه السيدة أم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومربيته.
كان شديد السواد، خفيف الروح، شجاعًا، رباه النبي صلى الله عليه وسلم وأحبه حبًا كثيرًا، كما كان يحب أباه فسمي الحِبّ بن الحبّ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه هو والحسن ويقول: (اللهم أحبهما فإني أحِبُهما) [أحمد والبخاري].
وكان أسامة شديد التواضع، حاد الذكاء، يبذل أقصى ما عنده في سبيل دينه وعقيدته.
وخرج أسامة مع النبي صلى الله عليه وسلم (عام الفتح إلى مكة راكبًا خلفه (على بغلته، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة ليصلي فيها ركعتين، ومعه أسامة وبلال، ووقع أسامة على الأرض فجرحت جبهته؛ فقام النبي صلى الله عليه وسلم مسرعًا ليمسح الدم الذي يسيل منها حتى وقف النزيف.
وذات يوم تلقى أسامة من رسول الله صلى الله عليه وسلم درسًا لا ينساه أبدًا، يقول أسامة: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصاري فطعنته برمح حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قلت كان متعوذًا، فما زال يكررها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. ثم قال أسامة للرسول صلى الله عليه وسلم : إني أعْطى الله عهدًا، ألا أقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله أبدًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (بعدى يا أسامة؟) قال: بعدك. [متفق عليه].
وقد حمل أسامة كل صفات ومواهب القائد الشجاع، مما زاد من إعجاب النبي صلى الله عليه وسلم به، فجعله قائدًا لجيش المسلمين لغزو الروم، وجعله الرسول صلى الله عليه وسلم أميرًا على جيش فيه كبار الصحابة، كأبي بكر وعمر، فاستكثر بعض المسلمين على أسامة كل هذا، وتكلموا في ذلك، ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وحمد الله ثم أثنى عليه وقال: (إن تطعنوا في إمارته (أي إمارة أسامة)؛ فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقًا للإمارة لجديرًا بها، وإن كان لمن أحب الناس إليّ (يقصد زيد بن حارثة)، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده) [متفق عليه].

وَأَرْسَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ[64] إِلَى الشَّامِ , وَفَرَّقَ رِجَالًا سِوَاهُمْ فَرَجَعُوا جَمِيعًا

ويموت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتحرك جيش أسامة إلي غايته التي حددها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى قتال الروم، (وقبل أن يموت النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أصحابه أن يسارعوا بتحريك جيش أسامة فقال لهم: (أنفذوا بعث أسامة، أنفذوا بعث أسامة) [ابن حجر في الفتح].

ويتولى أبو بكر الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :، ويصر على إنجاز وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول له عمر: إن الأنصار ترى أن يتولى قيادة الجيش من هو أكبر سنًا من أسامة، فيغضب أبو بكر -رضي الله عنه- ويقول: ثكلتك أمك يابن الخطاب، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه، والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني؛ لأنفذت بعث أسامة.

ويخرج القائد أسامة من المدينة بجيشه، ويخرج معه أبو بكر مودعًا، وبينما أسامة راكب على فرسه، إذا بأبي بكر يسير على قدميه، فيستحي أسامة من هذا الموقف، ويقول لأبي بكر: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم :، والله لتركبن أو لأنزلن. فيقول أبو بكر: والله لا نزلت، والله لا ركبتُ، وما عليّ أن أغبر

قدمي في سبيل الله ساعة، ثم يستأذن أبو بكر من أسامة أن يبقى معه عمر في المدينة ليعينه على أمور الحكم فيعطي أعظم قدوة في استئذان القائد مهما كان صغيرًا.

وانطلق جيش أسامة إلى البلقاء، ليهاجم القرى التي حددها له رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته أبو بكر، فينتصر عليهم ويأسر منهم الكثير، ويجمع الغنائم، ويعود إلى المدينة منتصرًا بعد أن لقن الروم درسًا لا ينسى، ويعود الجيش بلا ضحايا فيقول المسلمون يومئذ: ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة.

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما يقسم أموال بيت المال على المسلمين، يجعل نصيب أسامة منها ثلاثة آلاف وخمسمائة، في حين يعطي ابنه عبد الله ثلاثة آلاف، فيقول ابن عمر لأبيه: لقد فضلت عليّ أسامة، وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يشهد، فيرد عليه عمر قائلا ً: إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك._[الترمذي وابن سعد].

وعندما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما- وقف أسامة محايدًا مع حبه الشديد لعلي، وبعث له رسالة قال فيها: يا أبا الحسن إنك والله لو أخذت بمشفر الأسد (فمه) لأخذت بمشفره الآخر معك حتى نهلك جميعًا أو نحيا جميعًا، فأما هذا الأمر الذي أنت فيه فوالله لا أدخل فيه أبدًا، ولزم أسامة داره فترة النزاع حتى لا يقتل مسلمًا.

وكان -رضي الله عنه- كثير العبادة، محافظًا على صوم يوم الاثنين والخميس مع كبر سنه وضعف جسمه؛ تأسيًا ب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي أسامة -رضي الله عنه- في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة (54هـ)، وقد روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين

[64] - إنه الصحابي الكريم عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، ولد بعد البعثة النبوية الشريفة بثلاث سنوات، وعندما هاجر كان عمره إحدى عشرة سنة، وفي غزوة أحد أراد أن يخرج للجهاد، فعرض نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم فردّه لصغر سنه، وفي غزوة الخندق ظل يلح على النبي صلى الله عليه وسلم حتى وافق على خروجه، وكان عمره خمس عشرة سنة، واستمر بعد ذلك يجاهد في جميع الغزوات والمواقع.

وكان -رضي الله عنه- يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم ويقتدي به في جميع أموره؛ لدرجة أنه كان يتحرى أن يصلي في كل مكان صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسير في كل طريق سار فيه، رجاء أن توافق صلاته أو مشيته مكانًا صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أو سار فيه، وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة يستظل بها، فكان عبدالله ينزل عندها، ويتعهدها بـ السقي فيصب في جذرها حتى لا تيبس. [ابن سعد].

يقول عبد الله: كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول: أعوذ بـالله من النار، فلقينا ملك آخر، فقال لي: لم ترع (لا تخف)، فقصصتها على حفصة (أخته وزوج النبي صلى الله عليه وسلم)، فقصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) قال سالم: فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا ً [متفق

قَبْلَ عَمّارٍ , فَقَالُوا جَمِيعًا : أَيُّهَا النّاسُ , وَاللهِ مَا أَنْكَرْنَا شَيْئًا وَلَا أَنْكَرَهُ أَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عَوَامُّهُمْ , وَقَالُوا جَمِيعًا : الْأَمْرُ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ واستبطأ الناس عمّاراً حتى ظنوا أنه قد اغتيل، فلم يفجأهم إلا ّ كتاب من عبد الله ابن سعد بن أبي سرح يخبرهم أنّ عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه؛ منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر. أخرجه الآجري والطبري[65]

===============

عثمان رضي الله عنه يتشاور مع ولاته

تعامل عثمان رضي الله عنه مع رعيته وعماله على الأمصار تعاملَ الأبِ

عليه]. وكان إذا فاتته العشاء في جماعة، أحيي بقية ليلته. [أبو نعيم]، وكان لعبد الله مهراس (حجر مجوف) يوضع فيه الماء للوضوء فيصلي ما قدر له، ثم يصير إلى الفراش فيغض إغفاء الطائر (ينام نومًا قصيرًا)، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمسًا. [ابن المبارك].
وكان عبد الله من أهل التقوى والورع والعلم، وكان مع علمه الشديد يتحرى في فتواه، ويخاف أن يفتي بدون علم، وقد جاءه يومًا رجل يستفتيه في شيء، فأجابه معتذرًا: لا علم لي بما تسأل عنه، ثم فرح وقال: سئل ابن عمر عما لا يعلم فقال: لا أعلم. وقال عنه ميمون بن مهران: ما رأيت أتقى من ابن عمر.
وكان كارهًا لمناصب الدنيا، خائفًا من تحمل أعبائها، وقد أرسل إليه عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وعرض عليه منصب القضاء فرفض ابن عمر، وكان عبد الله يحب الحق ويكره النفاق، وقد جاء إليه عروة بن الزبير بن العوام وقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون بالكلام، ونحن نعلم أن الحق غيره فنصدقهم، ويقضون بالجور (أي يحكمون بين الناس بغير الحق) فنقويهم ونحسنه لهم، فكيف ترى في ذلك؟! فقال ابن عمر لعروة: يابن أخي، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعدّ هذا النفاق، فلا أدرى كيف هو عندكم؟!
وذات يوم رأى رجلا ً يمدح رجلا ً آخر، فأخذ ابن عمر ترابًا ورمى به في وجهه وقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا (ألقوا) في وجوههم التراب) [مسلم].
وكان رقيق القلب، حسن الطباع، لا يسمع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إلا بكى، وما كان يمر بمسجده وقبره (إلا بكى حبًا وشوقا إليه.
وكان حسن الخلق لم يلعن خادمه قط، ولم يسَبّ أحدًا طوال حياته، وقد ارتكب خادمه خطأ ذات مرة فهمّ أن يشتمه، فلم يطاوعه لسانه، وندم على ما همّ به فأعتقه لوجه الله تعالى، وكان قارئًا للقرآن، خاشعًا لله، وكلما قرأ أو سمع آية فيها ذكر القيامة بكى حتى تبتل لحيته من كثرة الدموع، فعن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} [الحديد: 16] بكى حتى يغلبه البكاء. [أبو نعيم].
وكان يعظم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ويعرف قدرهم، وكان يخرج إلى السوق من أجل السلام على المسلمين فقط، وكان كثير التصدق وجوادًا كريمًا يكثر الإنفاق في سبيل الله، وكان إذا أحب شيئًا أو أعجب به أنفقه في سبيل الله، وكان من أشد الناس زهدًا في نعيم الدنيا، ومن أحسن الناس حبا لفعل الخير، فيحكى أنه كان مريضًا فقال لأهله: أني أشتهي أن آكل سمكًا فأخذ الناس يبحثون له عن سمك فلم يجدوا إلا سمكة واحدة بعد تعب شديد، فأخذتها زوجته صفية بنت أبي عبيدة فأعدتها، ثم وضعتها أمامه فإذا بمسكين يطرق الباب، فقال له ابن عمر: خذ هذه السمكة، فقال أهله: سبحان الله! قد أتعَبتنا حتى حصلنا عليها، وتريد أن تعطيها للمسكين؟! كلْ أنت السمكة وسنعطي له درهما فهو أنفع له يشتري به ما يريد.
فقال ابن عمر: لا أريد أن أحقق رغبتي وأقضي شهوتي، إنني أحببت هذه السمكة فأنا أعطيها المسكين إنفاقا لِمَا أحِبُ في سبيل الله. [ابن سعد وأبو نعيم والهيثمي].
وبينما كان عبد الله -رضي الله عنه- يؤدي فريضة الحج أصابه سن رمح كان مع أحد الرجال في منى فجرحه، فأدى هذا الجرح إلى وفاته، ودفن بمكة في سنة (73هـ)، وقد روى كثيرًا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث روى ألفين وست مئة وثلاثين حديثًا.

[65] - الطربي 470/2 والآجري في الشريعة برقم(1415)

الرحيم مع بنيه المحببين إلى قلبه، فأراد أن يجمع الأمةّ كلهّا حوله، بل أن يضعها في حِضنه الدافئ، لذلك لما اعترضت الأمصار على ولاتها دعا الخليفةٌ ولاته إلى اجتماعٍ لتدارُس الأمر والتشاور فيه بعد انقضاء موسم الحج سنة أربع وثلاثين من الهجرة، وحضر عمرو بن العاص للمشاورة والاستفادة من رأيه..

عن محمد وطلحة وعطيّة، قالوا: كتب عثمان إلى أهل الأمصار، أمّا بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كلّ موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا ّ أعطيته، وليس لي ولعيالي حقّ قبل الرعيّة إلا ّ متروك لهم، وقد رفع إليّ أهل المدينة أنّ أقواماً يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرّاً، وشتم سرّاً، من ادّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقّه حيث كان؛ منّي أو من عمالي، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدّقين. فلما قرىء في الأمصار أبكي الناس، ودعوا لعثمان وقالوا: إنّ المة لتمخّض بشرّ. وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه: عبد الله بن عامر، ومعاوية، وعبد الله بن سعد؛ وأدخل معهم في المشورة سعيداً وعمراً، فقال: ويحكم! ما هذه الشاكية؟ وما هذه الإذعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا إلا ّ بي؛ فقالوا له: أمل تبعث! لم نرجع إليك الخبر عن القوم! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء! لا والله ما صدقوا ولا برّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ً، وما كنت لتأخذ به أجداً فيقيمك على شيء؛ وما هي إلا إذاعة لا يحلّ الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها.

قال: فأشيروا عليّ؛ فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع في السرّ، فيلقى به غير ذي المعرفة، فيخبر به، فيتحدّث به في مجالسهم، قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم؛ فإنه خير من أن تدعهم. قال معاوية: قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخبر، والرّجلان أعلم بناحيتيهما؛ قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب، قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة مصاحبيك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلين في موضع اللين. إن الشدّة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرّاً، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين.

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال: كلّ ما أشرتم به عليّ قد سمعت، ولكلّ أمر باب يؤتي منه؛ إنّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمّة كائن، وإنّ بابه الذي يغلق عليه فكيفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا ّ في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدهما، فإن سدّه شيء فرفق، فذاك والله ليفتحنّ، وليست لأحد عليّ حجة حقّ، وقد علم الله أنّي لم آل الناس خيراً، ولا نفسي. ووالله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى

لعثمان إن مات ولم يحركها. كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها.[66]
وانتهى الاجتماعُ بوصيةِ عثمان أمراءَه بالرفق بالرعية، حتى تسكن الأمور، وتعود الأحوال إلى طبيعتها، لكنه كان يشعر بالزحف الحثيث لفتنة قاسية تمنى لو مرّت بسلام، ولو كان هو نفسُه ضحيةً لذلك.
ثم نهض، ونهض الأمراء إلى بلادهم بعد أن أقرهم على أعمالهم، وصَحِبَه معاوية وعبدُ الله بن سعد في عودته إلى المدينة، لكن الكوفة ومصر ثارتا ضد والييهما، ودعا معاوية الخليفة ليخرج معه إلى الشام حيث القوة و المنعة، لكنه رفض ذلك.

=================

عثمان رضي الله عنه يعود للمدينة

لما فرغ أمير المؤمنين من اجتماعه مع وُلاته للتشاور في موسم الحج، صحبه معاوية في الطريق إلى المدينة وهو في طريقه إلى الشام.
عن رجاء بن حيوة وغيره. قالوا: فما ورد عثمان المدينة ردّ الأمراء إلى أعمالهم، فمضوا جميعاً، وأقام سعيد بعدهم، فلما ودّع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر متقلداً سيفه، متنكباً قوسه، فإذا هو بنفر من المهاجرين، فيهم طلحة والزبير وعليّ، فقام عليهم، فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم، ثم قال: إنّكم قد علمتم أنّ هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم أحد إلا ّ وفي فصيلته من يرئسه، ويستبدّ عليه، ويقطع الأمر دونه، ولا يشهده، ولا يؤامره، حتى بعث الله جلّ وعزّ نبيّه صلى الله عليه وسلم، وأكرم به من اتبعه؛ فكانوا يرئِسون من جاء من بعده، وأمرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد؛ فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم، والناس تبع لهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك، وردّه الله إلى ما كان يرئسهم. وإلا ّ فليحذروا الغير، فإنّ الله على البدل قادر، وله المشيئة في ملكه وأمره. إنّي قد خلّفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً، وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودّعهم ومضى؛ فقال عليّ: ما كنت أرى أنّ في هذا خبراً؛ فقال الزبير: لا والله، ما كان قطّ أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة.
حدّثني عبد الله بن أحمد بن شبوبه، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني عبد الله، عن إسحاق بن يحيى، عن موسى بن طلحة، قال: أرسل عثمان إلى طلحة يدعوه؛ فخرجت معه حتى دخل عليّ عثمان، وإذ عليٌ وسعد والزبير وعثمان ومعاوية، فحمد الله معاوية وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخبرته في الأرض، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبرت سنه،وولى عمره، ولو انتظرتم به الهرم كان قريباً؛ مع أني

---

[66] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 470)

أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغ به ذلك، وقد فشت قالة خفتها عليكم، فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فو الله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم فيها أبداً إلا إدباراً. قال عليّ: ومالك وذلك! وما أدراك لا أمّ لك! قال: دع أمّي مكانها، ليست بشرّ أمّهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأجبني فيما أقول لك. فقال عثمان: صدق ابن أخي، إنّي أخبركم عنيّ وعمّا وليت، إنّ صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة، وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال، لمكان ما أقوم به فيه، ورأيت أنّ ذلك لي، فإن رأيتم ذلك خطأ فردّوه، فأمري لأمركم تبع. قالوا: أصبت وأحسنت؛ قالوا: أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد ومروان - وكانوا يزعمون أنه أعطى مروان خمسة عشر ألفاً، وابن أسيد خمسين ألفاً - فردّوا منهما ذلك، فرضوا وقبلوا، وخرجوا راضين.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن شيوخه وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودّعه وخرج: يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشأم قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإنّ أهل الشأم على الأمر لم يزالوا. فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؛ وإن كان فيه قطع خيط عنقي. قال: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك. قال: أنا أقتِّر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند تساكنهم، وأضيّق على أهل دار الهجرة والنصرة! قال: و الله يا أمير المؤمنين، لتغتالنّ أو لتغزينّ؛ قال: حسبي الله ونعم الوكيل. وقال معاوية: يا أيسار الجزور، وأين أيسار الجزور! ثم خرج حتى وقف على النفر، ثم مضى.[67]

هكذا جرى الحوارُ بين معاوية بن أبي سفيان والخليفة الصالح عثمان بن عفان، ولعل وجهةَ النظر الأولى كانت تضمن حمايةَ الخليفةِ، لكنها كانت ستُعرّض الدولةَ لخطرِ الانشقاق، وربما أسهمت في إثبات التهم الباطلة الموجهة إلى أمير المؤمنين، والخليفةُ رجل زاهد في البقاء في الحياة، فهو يحمل فوق ظهره أكثر من ثمانين عامًا، ويدري أن الدنيا قصيرٌ أمدُها.. كما داعبَتْ خيالَه بُشرى الشهادةِ التي بشره بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوق جبل أُحُد..

ويبدو أن معاوية رضي الله عنه كان رجلَ هذه اللحظة من الزمن؛ حيث أضحى الناس ـ كثيرٌ منهم ـ في حاجة إلى سلطان يجمعهم بالقوة واللين معا ، ويقرّبهم إليه ويحتاط منهم، ويقدم القوةَ في مواضعَ على الِلين والرفق..[68]

---

[67] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 471)

[68] - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 6 / ص 370)
فَصْلٌ اجْتِمَاعُ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَشْكُو إلَيْك جَلَدَ الْفَاجِرِ وَعَجْزَ الثِّقَةِ . فَالْوَاجِبُ فِي كُلِّ وِلَايَةِ الْأَصْلَحُ بِحَسَبِهَا . فَإِذَا تَعَيَّنَ رَجُلَانِ

أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ أَمَانَةً وَالْآخَرُ أَعْظَمُ قُوَّةً ؛ قُدِّمَ أَنْفَعُهُمَا لِتِلْكَ الْوِلَايَةِ : وَأَقَلُّهُمَا ضَرَرًا فِيهَا ؛ فَيُقَدَّمُ فِي إمَارَةِ الْحُرُوبِ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الشُّجَاعُ - وَإِنْ كَانَ فِيهِ فُجُورٌ - عَلَى الرَّجُلِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ وَإِنْ كَانَ أَمِينًا ؛ كَمَا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَد : عَنْ الرَّجُلَيْنِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ فِي الْغَزْوِ وَأَحَدُهُمَا قَوِيٌّ فَاجِرٌ وَالْآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ مَعَ أَيِّهِمَا يُغْزَى ؟ فَقَالَ : إمَّا الْفَاجِرُ الْقَوِيُّ فَقُوَّتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ لِنَفْسِهِ وَضَعْفُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُغْزَى مَعَ الْقَوِيِّ الْفَاجِرِ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ . وَرُوِيَ بِأَقْوَامِ لَا خَلَاقَ لَهُمْ } . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَاجِرًا كَانَ أَوْلَى بِإِمَارَةِ الْحَرْبِ مِمَّنْ هُوَ أَصْلَحُ مِنْهُ فِي الدِّينِ إذَا لَمْ يَسُدَّ مَسَدَّهُ . وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعْمِلُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْحَرْبِ مُنْذُ أَسْلَمَ وَقَالَ : { إنَّ خَالِدَ سَيْفٌ سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ } . مَعَ أَنَّهُ أَحْيَانًا قَدْ كَانَ يَعْمَلُ مَا يُنْكِرُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إنَّهُ - مَرَّةً - قَامَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : { اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْك مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ } لَمَّا أَرْسَلَهُ إلَى بَنِي جذيمة فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ بِنَوْعِ شُبْهَةٍ وَلَمْ يَكُنْ يَجُوزُ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ مَعَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ حَتَّى وَدَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَمِنَ أَمْوَالَهُمْ ؛ وَمَعَ هَذَا فَمَا زَالَ يُقَدِّمُهُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْلَحَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ بِنَوْعِ تَأْوِيلٍ . كَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَصْلَحَ مِنْهُ فِي الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ ؛ وَمَعَ هَذَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَا أَبَا ذَرٍّ إنِّي أَرَاك ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَك مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي : لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ } رَوَاهُ مُسْلِمٌ . نَهَى أَبَا ذَرٍّ عَنْ الْإِمَارَةِ وَالْوِلَايَةِ لِأَنَّهُ رَآهُ ضَعِيفًا مَعَ أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ : { مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ } . وَأَمَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فِي غَزْوَةِ " ذَاتِ السَّلَاسِلِ - اسْتِعْطَافًا لِأَقَارِبِهِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إلَيْهِمْ - عَلَى مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ . وَأَمَّرَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ؛ لِأَجْلِ طَلَبِ ثَأْرِ أَبِيهِ . كَذَلِكَ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ لِمَصْلَحَةِ رَاجِحَةٍ مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَكُونُ مَعَ الْأَمِيرِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ . وَهَكَذَا أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا زَالَ يَسْتَعْمِلُ خَالِدًا فِي حَرْبِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَفِي فُتُوحِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَبَدَتْ مِنْهُ هَفَوَاتٌ كَانَ لَهُ فِيهَا تَأْوِيلٌ وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ فِيهَا هَوًى فَلَمْ يَعْزِلْهُ مِنْ أَجْلِهَا ؛ بَلْ عَاتَبَهُ عَلَيْهَا ؛ لِرُجْحَانِ الْمَصْلَحَةِ عَلَى الْمَفْسَدَةِ فِي بَقَائِهِ وَأَنَّ غَيْرَهُ لَمْ يَكُنْ يَقُومُ مَقَامَهُ ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَلِّيَ الْكَبِيرَ إذَا كَانَ خُلُقُهُ يَمِيلُ إلَى اللِّينِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نَائِبِهِ يَمِيلُ إلَى الشِّدَّةِ ؛ وَإِذَا كَانَ خُلُقُهُ يَمِيلُ إلَى الشِّدَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نَائِبِهِ يَمِيلُ إلَى اللِّينِ ؛ لِيَعْتَدِلَ الْأَمْرُ . وَلِهَذَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُؤْثِرُ اسْتِنَابَةَ خَالِدٍ ؛ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُؤْثِرُ عَزْلَ خَالِدٍ وَاسْتِنَابَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّ خَالِدًا كَانَ شَدِيدًا كَعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَبَا عُبَيْدَةَ كَانَ لَيِّنًا كَأَبِي بَكْرٍ ؛ وَكَانَ الْأَصْلَحُ لِكُلِّ مِنْهُمَا أَنْ يُوَلِّيَ مَنْ وَلَّاهُ ؛ لِيَكُونَ أَمْرُهُ مُعْتَدِلًا وَيَكُونَ بِذَلِكَ مِنْ خُلَفَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي هُوَ مُعْتَدِلٌ ؛ حَقًّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ أَنَا نَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ } وَقَالَ : { أَنَا الضَّحُوكُ الْقَتَّالُ } . وَأُمَّتُهُ وَسَطٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا } وَقَالَ تَعَالَى : { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } . وَلِهَذَا لَمَّا تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صَارَا كَامِلَيْنِ فِي الْوِلَايَةِ وَاعْتَدَلَ مِنْهُمَا مَا كَانَ يُنْسَبَانِ فِيهِ إلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ لِينِ أَحَدِهَا وَشِدَّةِ الْآخَرِ حَتَّى قَالَ فِيهِمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { اقْتَدُوا بالذين مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ } . وَظَهَرَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ مِنْ شَجَاعَةِ الْقَلْبِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَغَيْرِهِمْ : مَا بَرَزَ بِهِ عَلَى عُمَرَ وَسَائِرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . وَإِذَا كَانَتْ الْحَاجَةُ فِي الْوِلَايَةِ إلَى الْأَمَانَةِ أَشَدَّ قُدِّمَ الْأَمِينُ : مِثْلُ حِفْظِ الْأَمْوَالِ وَنَحْوِهَا ؛ فَأَمَّا اسْتِخْرَاجُهَا وَحِفْظُهَا فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ وَأَمَانَةٍ فَيُوَلَّى عَلَيْهَا شَادٌّ قَوِيٌّ يَسْتَخْرِجُهَا بِقُوَّتِهِ وَكَاتِبٌ أَمِينٌ يَحْفَظُهَا بِخِبْرَتِهِ وَأَمَانَتِهِ . وَكَذَلِكَ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ إذَا أَمَرَ الْأَمِيرُ بِمُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ جَمَعَ بَيْنَ الْمَصْلَحَتَيْنِ ؛ وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الْوِلَايَاتِ إذَا لَمْ تَتِمَّ الْمَصْلَحَةُ بِرَجُلِ وَاحِدٍ جَمَعَ بَيْنَ عَدَدٍ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ تَرْجِيحِ الْأَصْلَحِ أَوْ تَعَدُّدِ الْمَوْلَى إذَا لَمْ تَقَعْ الْكِفَايَةُ بِوَاحِدِ تَامٍّ . وَيُقَدَّمُ فِي وِلَايَةِ الْقَضَاءِ : الْأَعْلَمُ الْأَوْرَعُ الْأَكْفَأُ ؛ فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَعْلَمَ وَالْآخَرُ أَوْرَعَ ؛ قُدِّمَ - فِيمَا قَدْ يَظْهَرُ حُكْمُهُ وَيُخَافُ فِيهِ الْهَوَى - الْأَوْرَعُ ؛ وَفِيمَا يَدِقُّ حُكْمُهُ وَيُخَافُ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ : الْأَعْلَمُ . فَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّافِذَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ } . وَيُقَدَّمَانِ عَلَى الْأَكْفَأِ إنْ كَانَ الْقَاضِي مُؤَيَّدًا تَأْيِيدًا تَامًّا مِنْ جِهَةِ وَالِي الْحَرْبِ أَوْ الْعَامَّةِ . وَيُقَدَّمُ الْأَكْفَأُ . إنْ كَانَ الْقَضَاءُ يَحْتَاجُ إلَى قُوَّةٍ وَإِعَانَةٍ لِلْقَاضِي أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ إلَى مَزِيدِ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ ؛ فَإِنَّ الْقَاضِيَ الْمُطْلَقَ يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا عَادِلًا قَادِرًا . بَلْ كَذَلِكَ كُلُّ وَالٍ لِلْمُسْلِمِينَ فَأَيُّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقَصَتْ ظَهَرَ الْخَلَلُ بِسَبَبِهِ وَالْكَفَاءَةُ : إمَّا بِقَهْرِ وَرَهْبَةٍ ؛ وَإِمَّا بِإِحْسَانِ وَرَغْبَةٍ وَفِي الْحَقِيقَةِ فَلَا بُدَّ مِنْهُمَا . وَسُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إذَا لَمْ يُوجَدْ مَنْ يُوَلَّى الْقَضَاءُ ؛ إلَّا عَالِمٌ فَاسِقٌ أَوْ جَاهِلٌ دَيِّنٌ ؛ فَأَيُّهُمَا يُقَدَّمُ ؟ فَقَالَ : إنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ إلَى الدِّينِ أَكْثَرَ

لِغَلَبَةِ الفَسَادِ قُدِّمَ الدِّيْنُ . وَإِنْ كَانَتْ الحَاجَةُ إِلَى العِلمِ أَكثَرَ لِخَفَاءِ الحُكُومَاتِ قُدِّمَ العَالِمُ . وَأَكثَرُ العُلَمَاءِ يُقدِّمُونَ ذَا الدِّينِ ؛ فَإِنَّ الأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي المُتَوَلِّي مِنْ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا أَهْلًا لِلشَّهَادَةِ ؛ وَاخْتَلَفُوا فِي اشْتِرَاطِ العِلمِ : هَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِداً أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُقَلِّدًا أَوْ الوَاجِبُ تَوْلِيَةُ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ كَيْفَمَا تَيَسَّرَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ . وَبَسْطُ الكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ . وَمَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ تَوْلِيَةُ غَيْرِ الأَهْلِ لِلضَّرُورَةِ إذَا كَانَ أَصْلَحَ المَوْجُودِ فَيَجِبُ مَعَ ذَلِكَ السَّعْيُ فِي إصْلَاحِ الأَحْوَالِ حَتَّى يَكْمُلَ فِي النَّاسِ مَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ مِنْ أُمُورِ الوِلَايَاتِ وَالإِمَارَاتِ وَنَحْوِهَا ؛ كَمَا يَجِبُ عَلَى المُعْسِرِ السَّعْيُ فِي وَفَاءِ دَيْنِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الحَالِ لَا يُطْلَبُ مِنْهُ إلَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَكَمَا يَجِبُ الِاسْتِعْدَادُ لِلْجِهَادِ بِإِعْدَادِ القُوَّةِ وَرِبَاطِ الخَيْلِ فِي وَقْتِ سُقُوطِهِ لِلْعَجْزِ فَإِنَّ مَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ بِخِلَافِ الِاسْتِطَاعَةِ فِي الحَجِّ وَنَحْوِهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ تَحْصِيلُهَا لِأَنَّ الوُجُوبَ هُنَا لَا يَتِمُّ إلَّا بِهَا .

جمع الشريعة بين الشدة واللين كل في محله

والخلاصة : أن الشريعة الكاملة جاءت باللين في محله ، والشدة في محلها ، فلا يجوز للمسلم أن يتجاهل ذلك ، ولا يجوز أيضا أن يوضع اللين في محل الشدة ، ولا الشدة في محل اللين ، ولا ينبغي أيضا أن ينسب إلى الشريعة أنها جاءت باللين فقط ، ولا أنها جاءت بالشدة فقط ، بل هي شريعة حكيمة كاملة صالحة لكل زمان ومكان ولإصلاح جميع الأمة . ولذلك جاءت بالأمرين معا ، واتسمت بـ العدل والحكمة والسماحة فهي شريعة سمحة في أحكامها وعدم تكليفها ما لا يطاق ، ولأنها تبدأ في دعوتها باللين والحكمة والرفق ، فإذا لم يؤثر ذلك وتجاوز الإنسان حده وطغى وبغى أخذته بالقوة و الشدة وعاملته بما يردعه ويعرفه سوء عمله .

ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة خلفائه الراشدين وصحابته المرضيين وأئمة الهدى بعدهم عرف صحة ما ذكرناه .

النصوص الآمرة باللين في مجاله

ومما ورد في اللين قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ الآية .

وقوله تعالى في قصة موسى وهارون لما بعثهما إلى فرعون : فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى

وقوله تعالى : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الآية .

النصوص الدالة على الشدة في مجالها

ومما ورد في الشدة الآيات المتقدم ذكرها .

ومن الأحاديث ما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا قوله تعالى : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

قال : والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه وفي لفظ آخر : على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو لتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ثم أنطلق برجال معهم حزم من الحطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقتها عليهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بعث الله من نبي في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويهتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل

وقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر معلومة لدى أهل العلم ، وقد هجرهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم خمسين ليلة حتى تابوا فتاب الله عليهم وأنزل في ذلك قوله تعالى : لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ إلى قوله : وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا الآ ية .

فمما تقدم من الآيات والأحاديث يعلم الكاتب وغيره من القراء أن الشريعة الإسلامية الكاملة جاءت بـ اللين في محله والغلظة والشدة في محالها ، وأن المشروع للداعية إلى الله أن يتصف باللين والرفق

وأشار معاوية على الخليفة بأن يرسل إليه من جنود الشام مَنْ يَحْميه، لكن عثمان خشي أن يضيّق على أهل المدينة معايشَهم وأرزاقهم، فأبَى ذلك أيضا..
فقال معاوية بعد أن فاض به الكيل: والله يا أمير المؤمنين، لتُغتَالَنّ أو لتُغْزَيَنّ!! فقال بثبات: حسبي الله ونعم الوكيل..[69] فمضى معاوية إلى الشام بعد أنْ أوصى بخليفته جماعةً من كبار الصحابة..
================

الزحف الأول على المدينة

كأنهم كانوا على موعد، بل هم بكل تأكيد كانوا على موعد، أولئك هم الثائرون في مصر والكوفة والبصرة، إذْ لم يُعجبْهم قرار الخليفة بالإبقاء على الوُلاة، فاتجهوا إلى المدينة ليعترضوا على عثمان نفسه، وفي نفوسهم ما فيها من البحث عن موضع قدم لهم ولأقوامهم، ومزاحمة قريش ورجالها في الحكم والسلطان..
وجاءوا الحجاز في رجب من سنة خمس وثلاثين من الهجرة يُظهرون أنهم يريدون العمرة، وفي نيتهم مناظرةُ الخليفة ومناقشته لإثبات خَطَئِهِ ومجاوزته الحقّ والصوابَ، وبالرغم من أن الخليفة يَدري أن هذه ليست هي الوجوه التي تأتي بخير، فإنه أذن لهم في الحوار معه ومناقشةِ ما عندهم، وأبدى رأيَه أمام جموع الصحابة وسكانِ أهل المدينة، وأقنعهم في جوّ من الحرية، ورد على كل شبُهاتهم. وبالرغم من طلبِ جماعةٍ من الصحابة معاقبةَ هؤلاء المتمردين وتأديبَهم، فإن الخليفة صَفَحَ عنهم، فرجعوا إلى بلادهم.
وأمام موقفه هذا، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة، ولكن كان هذا الزحفُ الأولُ على عاصمة الخلافة نذيرًا بزحف آخر، وعاصفةٍ أشدّ، تسرق من المسلمين الاستقرار والطمأنينةَ الاجتماعية العميقة التي حققها الإ سلام لهم، وبادرةً لأعاصير أخرى مدمرة زاحفة.
واقتنع الخليفة من هذه التجربة بأنه لم يَعُدْ من حقه أن يتنازل عن ذرةٍ من هيبة الدولة وسلطانها، ومهما يكن هناك من مآخذ؛ فإن إقرار هذا السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة، التي لم تتمثل في التهجم على شخص الخليفة، ومجابهته بقبيح القول وفاحشِ السِّبابِ فحسْب، بل تمثلت في تهديد الدولة بقوة السلاح.. ‌ ‌ ‌ ‌
وعندها تزدحم تمامًا صور الثبات الباهر للخليفة، وناهيك عن مواقفه

والحلم والصبر؛ لأن ذلك أكمل في نفع دعوته والتأثر بها كما أمره الله بذلك وأرشد إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون على علم وبصيرة فيما يدعو إليه وفيما ينهى عنه؛ لقول الله سبحانه : قلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ
ولا ينبغي للداعية أن يلجأ إلى الشدة والغلظة إلا عند الحاجة والضرورة وعدم حصول المقصود بـ الطريقة الأولى ، وبذلك يكون الداعي إلى الله سبحانه قد أعطى المقامين حقهما وترسم هدي الشريعة في الجانبين ، والله الموفق .
.htm00403http://www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=bz

[69] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 472) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 234)

العظيمة!!
ومع أن صوتَ الفتنة كاد أن يخمد أو يهدأ كثيرًا بعد لقاء الخليفة مع الثائرين، إلا أنهم اتفقوا على أن يعودوا إلى المدينة مع الحجاج في شوال من سنة 35 هـ؛ فعادوا لا ليناقشوا عثمانَ رضي الله عنه؛ ولكن لحصاره والاعتداءِ عليه وتنْحِيَتِهِ..

==================

محاصرة الخليفة

وتمضي الأحداثُ مسرعةً، لا ترحم الناسَ ولو بقليل من البطء؛ فلم تمض ثلاثة أشهر على رجوع الثائرين من المدينة، حتى أعد المندَسُّون وسط الصفوف وأصحابُ الأيادي المشبوهة ـ للعودة.
وفي شهر شوال سنة خمس وثلاثين كانت عودتهم في صفة الحجيج، حتى تلاقى حول المدينة الثوّارُ من الأمصار، وعسكروا خارجها، فلما سمع أهلُ المدينة بذلك لم يأذنوا لهم بدخولها، وعسكر الصحابة ليمنعوهم من ذلك، في محاولة لمنع انتشار الحريق، وأرسل كبارُهم أولادَهم ليكونوا قريبين من الخليفة.. فخرجت وفود من الثوار المنحرفين ليكلموا كبار الصحابة في دخول المدينة، فرفضوا جميعًا دخولَهم وزجروهم؛ فلما يَئِسُوا من دخولها تظاهروا بالانصراف عنها وأنهم راجعون إلى بلدانهم، وبدأوا في الرحيل حتى اطمأن أهل المدينة فانصرفت جموعُهم، وسار الثوار أيامًا راجعين ثم كرّوا عائدين إلى المدينة، ودخلوها على حين غفلةٍ من أهلها، وحاصروا دار عثمان، وسألوا الخليفة عن أمر الكتاب المزعوم، الذي برع ابنُ سبأ وأتباعُه في تلفيقِه، واتهموا الخليفة بأنه أرسله إلى والي مصر يأمر فيه بقتلهم. وبالرغم من أنه تبرأ من ذلك، فإنهم أصروا على المواجهة.
وبدأ الحصار وعثمان يخرج من داره فيصلي بالناس، ويصلون هم وراءَه، ويَغْشَى مَنْ يشاء وهم في عينِه أدَقُّ من التراب، وظل يصلي بالناس ثلاثين يوما حتى شددوا عليه الحصار ومنعوه من الصلاة في المسجد، وذكر سيف بن عمر: أن عثمان بعد أن صلى بالناس يوم الجمعة، صعد المنبر فخطبهم أيضاً فقال في خطبته: يا هؤلاء الغرباء! الله الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن الله لا يمحو السيء إلا بالحسن.
فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأخذه حُكيم بن جبلة فأقعده، فقام زيد بن ثابت فقال: إنه في الكتاب.
فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي مريرة فأقعده.
وقال: يا نطع، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشياً عليه، فاحتمل وأدخل داره.
وكان المصريون لا يطمعون في أحد من الناس أن يساعدهم إلا محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر.

وأقبل علي وطلحة والزبير إلى عثمان في أناس يعودونه ويشكون إليه بثهم وما حل بالناس، ثم رجعوا إلى منازلهم، واستقبل جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وابن عمر، وزيد بن ثابت في المحاربة عن عثمان، فبعث إليهم يقسم عليهم لما كفوا أيديهم وسكنوا حتى يقضى الله ما يشاء. (ج/ص: 198/7)

ذكر حصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان

لما وقع ما وقع يوم الجمعة، وشج أمير المؤمنين عثمان، وهو في رأس المنبر، وسقط مغشياً عليه واحتمل إلى داره وتفاقم الأمر، وطمع فيه أولئك ا لأجلاف الأخلاط من الناس، وألجاؤه إلى داره، وضيقوا عليه، وأحاطوا بها محاصرين له، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم.

وسار إليه جماعة من أبناء الصحابة عن أمر آبائهم، منهم: الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير - وكان أمير الدار - وعبد الله بن عمرو، وصاروا يحاجون عنه، ويناضلون دونه أن يصل إليه أحد منهم، وأسلمه بعض الناس رجاء أن يجيب أولئك إلى واحدة مما سألوا، فإنهم كانوا قد طلبوا منه إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، ولم يقع في خلد أحد أن القتل كان في نفس الخارجين.

وانقطع عثمان عن المسجد فكان لا يخرج إلا قليلا ً في أوائل الأمر، ثم انقطع بالكلية في آخره، وكان يصلي بالناس في هذه الأيام الغافقي بن حرب.

وقد استمر الحصر أكثر من شهر، وقيل: أربعين يوماً حتى كان آخر ذلك أن قتل شهيداً رضي الله عنه، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.[70]

و عَنْ عَمْرِو بْنِ جَاوَانَ ، قَالَ : قَالَ الأَحْنَفُ : انْطَلَقْنَا حُجَّاجًا فَمَرَرْنَا بِالْمَدِينَةِ ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي مَنْزِلِنَا إِذْ جَاءَنَا آتٍ فَقَالَ النَّاسُ : مِنْ فَزَعٍ فِي الْمَسْجِدِ ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَصَاحِبِي ، فَإِذَا النَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَى نَفَرٍ فِي الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَتَخَلَّلْتُهُمْ حَتَّى قُمْتُ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَالزُّبَيْرُ ، وَطَلْحَةُ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ : فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ جَاءَ عُثْمَانُ يَمْشِي فَقَالَ : أَهَاهُنَا عَلِيٌّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَهَاهُنَا الزُّبَيْرُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَهَاهُنَا طَلْحَةُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَهَاهُنَا سَعْدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ يَبْتَاعُ مِرْبَدَ بَنِي فُلَانٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ " فَابْتَعْتُهُ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُهُ ، فَقَالَ : " اجْعَلْهُ فِي مَسْجِدِنَا وَأَجْرُهُ لَكَ " ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ ؟ " فَابْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُهَا - يَعْنِي بِئْرَ رُومَةَ - فَقَالَ : " اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ " ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ :

---

[70] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 245)

أنْشُدُكُمْ بِاللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَتَعْلَمُونَ أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ نَظَرَ فِي وُجُوهِ القَوْمِ يَوْمَ جَيْشِ العُسْرَةِ ، فَقَالَ : " مَنْ يُجَهّزْ هَؤُلَاء غَفَرَ اللهُ لَهُ " فَجَهّزْتُهُمْ حَتّى مَا يَفْقِدُونَ خِطَامًا وَلَا عِقَالًا ، قَالُوا : اللهُمّ نَعَمْ ، قَالَ : اللهُمّ اشْهَدْ ، اللهُمّ اشْهَدْ ، اللهُمّ اشْهَدْ ثمّ انْصَرَفَ * أخرجه أحمد بسند حسن

ـ كل هذا ولم يطلب عثمان النجدة من الأمصار، ولم يعمل باقتراحات الصحابة لاستنقاذه من أيدي الثائرين، بل طالب الناسَ بكفِّ أيديهم، ووطّد نفسَه على الصبر والمحافظة على كرامة الدولة ومبادئ الحكم في الإسلام.

ولم يُقَصِّرْ في بذل أيّ جهدٍ لإقناع هؤلاء المتمردين بإلقاء سلاحهم، فكان لا يَمَلُّ من محاورتهم لعلهم يتخلّوْن عن غَيّهم، ويعودوا إلى رشدهم، لكن الأحداث تصاعدت حتى وقعت الخطيئةُ الكبرى، ونشبت الأنياب الغادرة في جسد الخليفة الشهيد، وقتلوه مظلوما ـ رضي الله عنه.

===============

تفرق أهل المدينة إلى منازلهم وأعمالهم[71]

حرص الثوار على التفريق بين الخليفة وبين أهل المدينة، لينفردوا به وينفّذوا ما يشاءون من مخططاتهم دون اعتراض، فلما ضربوا أمير المؤمنين عثمان بالحَصَى، وشُجّ رأسُه وهو على المنبر، وسقط مغشيًا عليه، واحتُمِلَ إلى داره ـ تفاقم الأمر وطمع فيه أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس ، وألجأوه إلى داره، وضيّقوا عليه، وأحاطوا بداره محاصِرين له، ولزم كثيرٌ من الصحابة بيوتهم، خاصة عندما منع البُغاةُ أميرَ المؤمنين من الصلاة، فصلى بالناس أميرُهم الغافقيُّ الذي دان له المنحرفون المصريون و الكوفيون والبصريون بعد ثلاثين يوما من بَدْءِ الحصار..

عندئذ تفرق أهل المدينة في مزارعهم، ولزموا بيوتهم، فكان لا يخرج أحد و لا يجلس إلا وعليه سيفُه يمتنع به من القوم، وكانت مدةُ الحصار أربعين يوما، وفيهن كان قَتْلُ البغاة لعثمان، ومَنْ تعرض لهم أعْمَلوا فيه السلاحَ، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوما يَكُفّون أهلَ المدينة ويمنعونهم أن يجتمعوا.

وكانت طائفة من أبناء الصحابة قد سارت إلي أمير المؤمنين عن أمر آبائهم، منهم: الحسن والحسين ابنا الإمام علي، وعبد الله بن الزبير ـ وكان أميرَ الدارِ ـ وعبدُ الله بنُ عمر، وغيرهم، وصاروا يُحَاجُّون عنه ويناضلون دونه، يمنعون أن يصل إليه أحد منهم. واعتزل الآخرون رجاء أن يجيب عثمانُ أولئك الثوارَ إلى واحدةٍ من مطالبهم، ولم يقعْ في خاطر أحد أنّ قَتْلَ الخليفة كان في نية الخارجين.

=================

عثمان يحاور الثوار

لم يكن يَخفى على الخليفة عثمان أن الحوار مع المعترضين واحدٌ من أهم ا

---

[71] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 476)-483 و البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 245)

لأساليب التي تكشف الحقائق، وتزيل أسباب الخلاف، لذا كان لا يغلق باب الكلام بينه وبين مَنْ يَعترض عليه حتى يجلِي له الحقائق؛ فاستدعى الأشْتَرَ النّخَعيّ ممثلا عن الثوار، فقال له: يا أشْتَر، ماذا يريد الناس منّي؟ قال: ثلاثا ليس من إحداهن بُدٌ؛ قال: ما هي؟ قال: يخيّرونك بين أن تخلع لهم أمرَهم، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَنْ شئتم، وبين أنْ تفتديَ مِنْ نفسك مَنْ قد ضربتَه أو جلدته أو حبستَه، فإن أبَيْتَ هاتيْن فإن القومَ قاتِلوك.

فقال له: لا والله لأ َنْ أقدّم فتُضْرَبَ عنقي أحبُ إليّ مِنْ أنْ أخْلَعَ قميصا قمّصنيه الله ُ، وأتركَ أمةَ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَعْدُو بعضُها على بعض، ويولِي السفهاءُ مِن الناس مَنْ يختارونه هم، فيقع الهَرْجُ (أي: القتل وفساد الأحوال واختلالها)، ويفسد الأمر.

"وأمّا أنْ أُقِصّ من نفسي، فوالله لقد علمتُ أن صاحِبَيّ بين يديّ (أبا بكر وعمر) قد كانا يعاقبان، وما يقوم بدني بالقصاص (لضعفه وكبر سنه).

ثم قال: "وأما أنْ تقتلوني؛ فوالله لئن قتلتموني لاتتحابُون بعدي أبدًا، ولا تُصَلُّون جميعًا بعدي أبدًا، ولا تقاتِلون بعدي عدوًا جميعًا أبدًا.[72]

وطلبوا منه أن يعزل نوابَه عن الأمصار ويولِي عليها مَنْ يريدون هم ـ وإن لم يعزلْ نفسَه ـ وأن يسلِم لهم مروانَ بن الحكم ليعاقبوه، وقد اتهموا مروان بأنه هو الذي زوّر على عثمانَ الكتابَ المزعومَ إلى مصر. فخشِيَ عثمان أن يسلِم إليهم مروان فيقتلوه، فيكون سببا في قتل امرئ مسلم بغير حق، وما فعل شيئا يستحق بسببه القتلَ.

وكيف يسلمه وقد قال صلى الله عليه وسلم { مَنْ أعَانَ عَلى دَمِ امْرِىءٍ مُسْلمٍ ولَوْ بِشَطْرِ كلِمَةٍ كُتِبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ : آيِسٌ مِنْ رحْمَةِ اللَّه ِ }أخرجه البيهقي في الشعب وغيره وهو صحيح لغيره

وأما تولية مَنْ يريدونه هم على الأمصار، فعاقِبَةُ ذلك أنْ يولِي السفهاءُ من الناس مَنْ يختارونه هم، فيقع الهَرْجُ ويفسد الأمر بسبب ذلك.

وقال لهم فيما قال: "وأي شيء إليّ من الأمر إنْ كنتُ كلما كرهتم أميرًا عزلتُه، وكلما رضيتم عنه ولّيْتُه.."؟![73]

فقام الأشترُ من عنده، وانطلق بردود عثمان إلى أصحابه من قادة الفتنة، وما هي إلا أيام حتى جاءوا لتنفيذ جريمتهم المشئومة.

ولقد دخل عليه ابن عمر ، فقال [له عثمان] : انظر ما يقول هؤلاء ، يقولون : اخلع نفسك أو نقتلك ، قال له [ابن عمر] : أمخلد أنت في الدنيا؟ قال : لا ، قال : هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال : لا . قال : هل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال : لا . قال : فلا تخلع قميص الله عنك ، فتكون سنة ، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[74]

=============

[72] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 486)

[73] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 252)

[74] - أورد البلاذري هذا الخبر في أنساب الأشراف (5 : 76) من حديث نافع عن ابن عمر

الخليفة عثمان يحفظ كرامة الدولة

لم يستسلم عثمان لمطالب الثوار، ولم يسلم لهم مصاير الإسلام، وأبَى إلا أن يحفظ كرامة الدولة ومبادئ الحكم في الإسلام .

وطّنَ أمير المؤمنين عثمان نفسَه على التضحية، وذلك هو ما يتفق مع طبيعة الأحداث، فلم يكن الثائرون على عثمان ممثِّلين للأمة لتجب عليه طاعتُهم وخَلْعُ نفسِه من الخلافة، ولم يكن زعماؤهم من السابقين إلى الإسلام، أو أهل الحَلّ والعَقدِ الذين لهم حق الخلع والتأمير، بل كانوا جماعاتٍ من رجال القبائل الذين أنكروا تفضيلَ قريش عليهم في الحكم والعطاء، ومن المخدوعين بالدعاية السبَّئِيّة النشطة التي تبغي الكيد للإسلام من وراء ستار ، وتستهدف مسيرته في الفتح والجهاد..

وكان زعماؤهم رجالا لم يحسنوا فقه الإسلام في التغيير، أو ممن غاظهم بعضُ اجتهاداتِ عثمانَ أو أحكامه ضد بعض رجال عشائرهم ممن أقام عليهم الحدود الشرعية، ومَنْ أوى إلى هؤلاء وأولئك من الأعراب واللصوص وطلاب الدنيا الذين لا تتحقق أهدافهم في أجواء الاستقرار والأمن.

ولا يستقيم نظامٌ لجماعة ولا لدولة إذا كانت كلما أراد فريق من أبنائها تغيير أمير ثاروا عليه فخلعوه أو قتلوه..

وللإسلام منهجه في تغيير الأمير إذا كان جائرًا، فيتحتّم توافر الرغبة العامة من أولي النُهَى وأهل الحل والعقد في هذا التغيير، ووجودُ القوة القادرة عليه، مع ضرورة ألا يؤدي ذلك إلى إحداث منكر أكبر منه وأشد خطرًا، مثلما حدث في هذه الفتنة الهوجاء.

****

محاولة عثمان رضي الله عنه مناقشتهم والرد عليهم

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : شَهِدْتُ عُثْمَانَ ، يَوْمَ حُوصِرَ فِي مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ ، وَلَوْ أُلْقِيَ حَجَرٌ لَمْ يَقَعْ إِلا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ ، فَرَأَيْتُ عُثْمَانَ ، أَشْرَفَ مِنَ الْخَوْخَةِ الَّتِي تَلِي مَقَامَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفِيكُمْ طَلْحَةُ ؟ فَسَكَتُوا . ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفِيكُمْ طَلْحَةُ ؟ فَسَكَتُوا . ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفِيكُمْ طَلْحَةُ ؟ فَسَكَتُوا ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفِيكُمْ طَلْحَةُ ؟ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : أَلا أَرَاكَ هَاهُنَا مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّكَ تَكُونُ فِي جَمَاعَةٍ تَسْمَعُ نِدَائِي آخِرَ ثَلاثِ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ لا تُجِيبُنِي أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا طَلْحَةُ تَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتُ أَنَا ، وَأَنْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْضِعِ كَذَا ، وَكَذَا لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ غَيْرِي ، وَغَيْرُكَ قَالَ : نَعَمْ فَقَالَ : لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَا طَلْحَةُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ ، إِلا وَمَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ رَفِيقٌ مِنْ أُمَّتِهِ ، مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ هَذَا - يَعْنِينِي - رَفِيقِي مَعِي فِي الْجَنَّةِ " قَالَ طَلْحَةُ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ثُمَّ انْصَرَفَ أخرجه أحمد

وعَنْ ثُمَامَةَ بْنِ حَزْنٍ الْقُشَيْرِيِّ قَالَ : شَهِدْتُ الدَّارَ يَوْمَ أُصِيبَ عُثْمَانُ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمُ اطِّلاعَةً ، فَقَالَ : ادْعُوا لِي صَاحِبَيْكُمُ اللَّذَيْنِ أَلَّبَاكُمْ عَلَيَّ فَدُعِيَا لَهُ فَقَالَ : نَشَدْتُكُمَا اللَّهَ أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ

المَدِينَةَ ضَاقَ المَسْجِدُ بِأَهْلِهِ فَقَالَ : " مَنْ يَشْتَرِي هَذِهِ البُقْعَةَ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ ، فَيَكُونَ فِيهَا كَالمُسْلِمِينَ وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ ؟ " فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي ، فَجَعَلْتُهَا بَيْنَ المُسْلِمِينَ ، وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَنْشُدُكُمِ اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِئْرٌ يُسْتَعْذَبُ مِنْهُ إِلا رُومَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ يَشْتَرِيهَا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ ، فَيَكُونَ دَلْوُهُ فِيهَا كَدُلِيِّ المُسْلِمِينَ ، وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ ؟ " فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي فَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي صَاحِبُ جَيْشِ العُسْرَةِ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ أخرجه أحمد

وعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ قَالَ : دَعَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِمْ عَمَّارٌ فَقَالَ : إِنِّي سَائِلُكُمْ ، أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُؤْثِرُ قُرَيْشًا عَلَى سَائِرِ النَّاسِ وَيُؤْثِرُ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى سَائِرِ قُرَيْشٍ ؟ فَسَكَتَ القَوْمُ ، فَقَالَ : " لَوْ أَنَّ مَفَاتِيحَ الجَنَّةِ فِي يَدِي لَأَعْطَيْتُهَا بَنِي أُمَيَّةَ حَتَّى يَدْخُلُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ ، وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّهُمْ وَلَأَسْتَعْمِلَنَّهُمْ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ مَنْ رَغِمَ " . فَقَالَ عَمَّارٌ : عَلَى رَغْمِ أَنْفِي ؟ قَالَ : " عَلَى رَغْمِ أَنْفِكَ " . قَالَ : " وَأَنْفِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ " فَغَضِبَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَثَبَ إِلَيْهِ فَوَطِئَهُ وَطْأً شَدِيدًا ، فَأَجْفَلَهُ النَّاسُ عَنْهُ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : " أَيَا أَخَابِثَ خَلْقِ اللَّهِ أَغْضَبْتُمُونِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى أُرَانِي قَدْ أَهْلَكْتُهُ وَهَلَكْتُ " ، فَبَعَثَ إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَقَالَ : مَا كَانَ نَوَالِي إِذْ قَالَ لِي مَا قَالَ إِلَّا أَنْ أَقُولَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ : وَمَا كَانَ لِي عَلَى قَسْرِهِ مِنْ سَبِيلٍ ، اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَخَيِّرَاهُ بَيْنَ ثَلَاثٍ ، بَيْنَ أَنْ يَقْتَصَّ أَوْ يَأْخُذَ أَرْشًا أَوْ يَعْفُوَ . فَقَالَ : " وَاللَّهِ لَا أَقْبَلُ مِنْهَا وَاحِدَةً حَتَّى أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشْكُوَهُ إِلَيْهِ " . فَأَتَوْا عُثْمَانَ . فَقَالَ : سَأُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ ، كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِذًا بِيَدِي بِالبَطْحَاءِ فَأَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ ، فَقَالَ أَبُوهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكُلَّ الدَّهْرِ هَكَذَا ؟ قَالَ : قَالَ : " اصْبِرْ يَاسِرُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِآلِ يَاسِرٍ " وَقَدْ فَعَلْتُ تاريخ المدينة لابن شبة وفيه انقطاع

و عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ عُثْمَانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ ، وَكَانَ فِي الدَّارِ مَدْخَلٌ ، مَنْ دَخَلَهُ سَمِعَ كَلَامَ مَنْ عَلَى البَلَاطِ ، فَدَخَلَهُ عُثْمَانُ ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَهُوَ مُتَغَيِّرٌ لَوْنُهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ لَيَتَوَاعَدُونَنِي بِالقَتْلِ آنِفًا ، قَالَ : قُلْنَا : يَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، قَالَ : وَلِمَ يَقْتُلُونَنِي ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : كُفْرٌ بَعْدَ إِسْلَامٍ ، أَوْ زِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ " ، فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ ، وَلَا فِي إِسْلَامٍ قَطُّ ، وَلَا أَحْبَبْتُ أَنَّ لِي بِدِينِي بَدَلًا مُنْذُ هَدَانِي اللَّهُ ، وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا ، فَبِمَ يَقْتُلُونَنِي ؟ قَالَ أَبُو دَاوُدَ : " عُثْمَانُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَرَكَا الخَمْرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ " أخرجه أبو داو د

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ عُثْمَانَ ، أَشْرَفَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُوَ مَحْصُورٌ ، فَقَالَ : عَلَامَ

تقتلُونِي ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ ، أَوْ قَتَلَ عَمْدًا فَعَلَيْهِ الْقَوَدُ ، أَوِ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ ، فَوَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَلَا قَتَلْتُ أَحَدًا ، فَأُقِيدَ نَفْسِي مِنْهُ وَلَا ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أخرجه أحمد

و يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَا : كُنَّا مَعَ عُثْمَانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ ، وَكُنَّا إِذَا دَخَلْنَا نَدْخُلُ مُدْخَلًا نَسْمَعُ كَلَامَ مَنْ بِالْبَلَاطِ ، فَدَخَلَ عُثْمَانُ يَوْمًا ثُمَّ خَرَجَ مُتَغَيِّرًا لَوْنُهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ لَيَتَوَاعَدُونِّي بِالْقَتْلِ ، قُلْنَا يَكْفِيكَهُمُ اللهُ قَالَ : وَلِمَ يَقْتُلُونَنِي ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ " فَوَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ قَطُّ وَلَا تَمَنَّيْتُ أَنَّ لِي بِدِينِي بَدَلًا مُنْذُ هَدَانِيَ اللهُ ، وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا فَبِمَ يَقْتُلُونِي ؟ أخرجه النسائي في الكبرى

و عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : أَشْرَفَ عُثْمَانُ مِنَ الْقَصْرِ ، وَهُوَ مَحْصُورٌ ، فَقَالَ : أَنْشُدُ بِاللهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حِرَاءٍ إِذِ اهْتَزَّ الْجَبَلُ فَرَكَلَهُ بِقَدَمِهِ ، ثُمَّ قَالَ : " اسْكُنْ حِرَاءُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ " وَأَنَا مَعَهُ ؟ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ . قَالَ : أَنْشُدُ بِاللهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ إِذْ بَعَثَنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، قَالَ : " هَذِهِ يَدِي ، وَهَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ فَبَايَعَ لِي ؟ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ ، قَالَ : أَنْشُدُ بِاللهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ يُوَسِّعُ لَنَا بِهَذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ ؟ " فَابْتَعْتُهُ مِنْ مَالِي فَوَسَّعْتُ بِهِ الْمَسْجِدَ ؟ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ ، قَالَ : وَأَنْشُدُ بِاللهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ جَيْشِ الْعُسْرَةِ ، قَالَ : " مَنْ يُنْفِقُ الْيَوْمَ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَةً ؟ " فَجَهَّزْتُ نِصْفَ الْجَيْشِ مِنْ مَالِي ؟ قَالَ : فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ ، وَأَنْشُدُ بِاللهِ مَنْ شَهِدَ رُومَةَ يُبَاعُ مَاؤُهَا ابْنَ السَّبِيلِ ، فَابْتَعْتُهَا مِنْ مَالِي فَأَبَحْتُهَا لِابْنِ السَّبِيلِ ؟ قَالَ : فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ أخرجه أحمد

و عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ ، أَنَّ عُثْمَانَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ يَوْمَ حُوصِرَ : " بِمَ يَسْتَحِلُّونَ قَتْلِي ، وَإِنَّمَا يَحِلُّ الْقَتْلُ عَلَى ثَلَاثَةٍ : مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانٍ ، وَزَنَا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ، وَلَمْ آتِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَاللهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لَا تُصَلُّوا جَمِيعًا ، وَلَا تُجَاهِدُوا عَدُوًّا جَمِيعًا ، إِلَّا عَنْ أَهْوَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ "أخرجه أبو نعيم في الفتن

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي!

فالقوم مصرون على جريمتهم النكراء ، وفعلتهم الشنعاء ، باسم الأمر بـ المعروف والنهي عن المنكر – زورا وبهتانا-

لحديث عن أبي سَعِيدٍ الخدري قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقلبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِ ِيمَانِ ».أخرجه مسلم[75]

[75] - وفي شرح النووي على مسلم - (ج 1 / ص 131)
وَأَمَّا قَوْله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَلْيُغَيِّرْهُ) فَهُوَ أَمْر إِيجَاب بِإِجْمَاعِ الْأُمَّة . وَقَدْ تَطَابَقَ عَلَى وُجُوب الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَإِجْمَاعُ الْأُمَّة وَهُوَ أَيْضًا مِنْ النَّصِيحَة الَّتِي هِيَ الدِّين . وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَعْض الرَّافِضَة ، وَلَا يُعْتَدّ بِخِلَافِهِمْ كَمَا قَالَ الْإِمَام أَبُو الْمَعَالِي إِمَام الْحَرَمَيْنِ : لَا يُكْتَرَث بِخِلَافِهِمْ فِي هَذَا ، فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ قَبْل أَنْ يَنْبُغ هَؤُلَاء . وَوُجُوبه بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ .
وَأَمَّا قَوْل الله عَزّ وَجَلّ : { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اِهْتَدَيْتُمْ } فَلَيْسَ مُخَالِفًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ لِأَنَّ الْمَذْهَب الصَّحِيح عِنْد الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَة أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرّكُمْ تَقْصِير غَيْركُمْ مِثْل قَوْله تَعَالَى : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُلِّفَ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَر ، فَإِذَا فَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِل الْمُخَاطَب فَلَا عَتْبَ بَعْد ذَلِكَ عَلَى الْفَاعِل لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْأَمْر وَالنَّهْي لَا الْقَبُول . وَاَللَّه أَعْلَم .
ثُمَّ إِنَّ الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر فَرْض كِفَايَة إِذَا قَامَ بِهِ بَعْض النَّاس سَقَطَ الْحَرَج عَنْ الْبَاقِينَ ، وَإِذَا تَرَكَهُ الْجَمِيع أَثِمَ كُلّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ بِلَا عُذْر وَلَا خَوْف . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَعَيَّن كَمَا إِذَا كَانَ فِي مَوْضِع لَا يَعْلَم بِهِ إِلَّا هُوَ أَوْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَته إِلَّا هُوَ ، وَكَمَنْ يَرَى زَوْجَته أَوْ وَلَده أَوْ غُلَامه عَلَى مُنْكَر أَوْ تَقْصِير فِي الْمَعْرُوف قَالَ الْعُلَمَاء رَضِيَ الله عَنْهُمْ : وَلَا يَسْقُط عَنْ الْمُكَلَّف الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر لِكَوْنِهِ لَا يُفِيد فِي ظَنِّهِ بَلْ يَجِب عَلَيْهِ فِعْلُهُ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَع الْمُؤْمِنِينَ . وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْر وَالنَّهْي لَا الْقَبُول . وَكَمَا قَالَ الله عَزّ وَجَلّ : { مَا عَلَى الرَّسُول إِلَّا الْبَلَاغُ } وَمَثَّلَ الْعُلَمَاءُ هَذَا بِمَنْ يَرَى إِنْسَانًا فِي الْحَمَّام أَوْ غَيْره مَكْشُوفَ بَعْضِ الْعَوْرَةِ وَنَحْو ذَلِكَ . وَاَللَّه أَعْلَم . قَالَ الْعُلَمَاء : وَلَا يُشْتَرَط فِي الْآمِر وَالنَّاهِي أَنْ يَكُون كَامِل الْحَال مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُر بِهِ مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْر وَإِنْ كَانَ مُخِلًّا بِمَا يَأْمُر بِهِ ، وَالنَّهْي وَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَجِب عَلَيْهِ شَيْئَانِ أَنْ يَأْمُر نَفْسه وَيَنْهَاهَا ، وَيَأْمُر غَيْره وَيَنْهَاهُ ، فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا كَيْف يُبَاح لَهُ الْإِخْلَال بِالْآخَرِ ؟ قَالَ الْعُلَمَاء : وَلَا يَخْتَصّ الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر بِأَصْحَابِ الْوِلَايَات بَلْ ذَلِكَ جَائِز لِآحَادِ الْمُسْلِمِينَ . قَالَ إِمَام الْحَرَمَيْنِ : وَالدَّلِيل عَلَيْهِ إِجْمَاع الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ غَيْر الْوُلَاة فِي الصَّدْر الْأَوَّل ، وَالْعَصْر الَّذِي يَلِيه كَانُوا يَأْمُرُونَ الْوُلَاة بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ الْمُنْكَر ، مَعَ تَقْرِير الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ ، وَتَرْكِ تَوْبِيخهمْ عَلَى التَّشَاغُل بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر مِنْ غَيْر وِلَايَة . وَاَللَّه أَعْلَم .
ثُمَّ إِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُر وَيَنْهَى مَنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَأْمُر بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ؛ وَذَلِكَ يَخْتَلِف بِاخْتِلَافِ الشَّيْء ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ الْوَاجِبَات الظَّاهِرَة ، وَالْمُحَرَّمَات الْمَشْهُورَة كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَام وَالزِّنَا وَالْخَمْر وَنَحْوهَا ، فَكُلّ الْمُسْلِمِينَ عُلَمَاء بِهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِق الْأَفْعَال وَالْأَقْوَال وَمِمَّا يَتَعَلَّق بِالِاجْتِهَادِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِّ مَدْخَل فِيهِ ، وَلَا لَهُمْ إِنْكَاره ، بَلْ ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ . ثُمَّ الْعُلَمَاء إِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ أَمَّا الْمُخْتَلَف فِيهِ فَلَا إِنْكَار فِيهِ لِأَنَّ عَلَى أَحَد الْمَذْهَبَيْنِ كُلّ مُجْتَهِد مُصِيبٌ . وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَار عِنْد كَثِيرِينَ مِنْ الْمُحَقِّقِينَ أَوْ أَكْثَرهمْ . وَعَلَى الْمَذْهَب الْآخَر الْمُصِيب وَاحِد وَالْمُخْطِئ غَيْر مُتَعَيَّن لَنَا ، وَالْإِثْم مَرْفُوع عَنْهُ ، لَكِنْ إِنْ نَدَبَهُ عَلَى جِهَة النَّصِيحَة إِلَى الْخُرُوج مِنْ الْخِلَاف فَهُوَ حَسَن مَحْبُوب مَنْدُوب إِلَى فِعْلِهِ بِرِفْقٍ ؛ فَإِنَّ الْعُلَمَاء مُتَّفِقُونَ عَلَى الْحَثّ عَلَى الْخُرُوج مِنْ الْخِلَاف إِذَا لَمْ يَلْزَم مِنْهُ إِخْلَال بِسُنَّةٍ أَوْ وُقُوع فِي خِلَاف آخَر . وَذَكَرَ أَقْضَى الْقُضَاة أَبُو الْحَسَن الْمَاوَرْدِيُّ الْبَصْرِيُّ الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابه " الْأَحْكَام السُّلْطَانِيَّة " خِلَافًا بَيْن الْعُلَمَاء فِي أَنّ مَنْ قَلَّدَهُ السُّلْطَان الْحِسْبَة هَلْ لَهُ أَنْ يَحْمِل النَّاس عَلَى مَذْهَبه فِيمَا اِخْتَلَفَ فِيهِ الْفُقَهَاء إِذَا كَانَ الْمُحْتَسِب مِنْ أَهْل الِاجْتِهَاد أَمْ لَا يُغَيِّر مَا كَانَ عَلَى مَذْهَب غَيْره ؟ وَالْأَصَحّ أَنَّهُ لَا يُغَيِّر لِمَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمْ يَزَلْ الْخِلَاف فِي الْفُرُوع بَيْن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدهمْ رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . وَلَا يُنْكِر مُحْتَسِب وَلَا غَيْره عَلَى غَيْره . وَكَذَلِكَ قَالُوا : لَيْسَ لِلْمُفْتِي وَلَا لِلْقَاضِي أَنْ يَعْتَرِض عَلَى مَنْ خَالَفَهُ إِذَا لَمْ يُخَالِف نَصًّا أَوْ إِجْمَاعًا أَوْ قِيَاسًا جَلِيًّا . وَاَللَّه أَعْلَم .
وَاعْلَمْ أَنّ هَذَا الْبَاب أَعْنِي بَاب الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر قَدْ ضُيِّعَ أَكْثَره مِنْ أَزْمَان مُتَطَاوِلَة ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَان إِلَّا رُسُوم قَلِيلَة جِدًّا . وَهُوَ بَاب عَظِيم بِهِ قِوَام الْأَمْر وَمِلَاكُهُ . وَإِذَا كَثُرَ الْخَبَث عَمَّ الْعِقَابُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ . وَإِذَا لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَد الظَّالِم أَوْشَكَ أَنْ يَعُمّهُمْ الله تَعَالَى بِعِقَابِهِ { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْآخِرَة ، وَالسَّاعِي فِي تَحْصِيل رِضَا الله عَزّ وَجَلّ أَنْ يَعْتَنِيَ بِهَذَا الْبَاب ، فَإِنّ نَفْعَهُ عَظِيم لَا سِيَّمَا وَقَدْ ذَهَبَ مُعْظَمُهُ ، وَيُخْلِص نِيَّته ، وَلَا يَهَادن مَنْ يُنْكِر عَلَيْهِ لِارْتِفَاعِ مَرْتَبَته ؛ فَإِنّ الله تَعَالَى قَالَ : { وَلَيَنْصُرَنّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاَللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } . وَقَالَ تَعَالَى : { وَاَلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } . وَقَالَ تَعَالَى : { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا

يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنّ الكاذِبِينَ } وَاعْلَمْ أَنّ الأَجْر عَلَى قَدْر النّصَب ، وَلَا يُتَارِكهُ أَيْضًا لِصَدَاقتِهِ وَمَوَدّته وَمُدَاهَنَته وَطَلَب الوَجَاهَة عِنْده وَدَوَام المَنْزِلَة لَدَيْهِ ؛ فَإِنّ صَدَاقته وَمَوَدّته تُوجِب لَهُ حُرْمَة وَحَقًّا ، وَمَنْ حَقه أَنْ يَنْصَحهُ وَيَهْدِيه إِلَى مَصَالِح آخِرَته ، وَيُنْقِذهُ مِنْ مَضَارّهَا . وَصَدِيق الإِنْسَان وَمُحِبُّهُ هُوَ مَنْ سَعَى فِي عِمَارَة آخِرَتِهِ وَإِنْ أَدّى ذَلِكَ إِلَى نَقْص فِي دُنْيَاهُ . وَعَدُوُّهُ مَنْ يَسْعَى فِي ذَهَاب أَوْ نَقص آخِرَته وَإِنْ حَصَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ صُورَة نَفْع فِي دُنْيَاهُ . وَإِنّمَا كَانَ إِبْلِيس عَدُوًّا لَنَا لِهَذَا وَكَانَتْ الأَنْبِيَاء صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَوْلِيَاء لِلْمُؤْمِنِينَ لِسَعْيِهِمْ فِي مَصَالِح آخِرَتهمْ ، وَهِدَايَتهمْ إِلَيْهَا ، وَنَسْأَل الله الكَرِيم تَوْفِيقنَا وَأَحْبَابنَا وَسَائِر المُسْلِمِينَ لِمَرْضَاتِهِ ، وَأَنْ يَعُمّنَا بِجُودِهِ وَرَحْمَته . وَالله أَعْلَم .

وَيَنْبَغِي لِلآمِرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنّاهِي عَنْ المُنْكر أَنْ يَرْفُق لِيَكُونَ أَقْرَب إِلَى تَحْصِيل المَطْلُوب . فَقَدْ قَالَ الإِمَام الشّافِعِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ : (مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ نَصَحَهُ وَزَانَهُ ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَة فَقَدْ فَضَحَهُ وَشَانَهُ) وَمِمّا يَتَسَاهَل أَكْثَر النّاس فِيهِ مِنْ هَذَا البَاب مَا إِذَا رَأَى إِنْسَانًا يَبِيع مَتَاعًا مَعِيبًا أَوْ نَحْوه فَإِنّهُمْ لَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ ، وَلَا يُعَرّفُونَ المُشْتَرِي بِعَيْبِهِ ، وَهَذَا خَطَأٌ ظَاهِرٌ . وَقَدْ نَصّ العُلَمَاء عَلَى أَنّهُ يَجِب عَلَى مَنْ عَلِمَ ذَلِكَ أَنْ يُنْكِر عَلَى البَائِع ، وَأَنْ يُعْلِم المُشْتَرِي بِهِ . وَالله أَعْلَم .

وَأَمّا صِفَة النّهْي وَمَرَاتِبه فَقَدْ قَالَ النّبِيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي هَذَا الحَدِيث الصّحِيح : " فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ "

فَقَوْله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ : (فَبِقَلْبِهِ)

مَعْنَاهُ فَلْيَكْرَهْهُ بِقَلْبِهِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِزَالَةٍ وَتَغْيِيرٍ مِنْهُ لِلْمُنْكرِ وَلَكِنّهُ هُوَ الذِي فِي وُسْعِهِ .

وَقَوْله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ : (وَذَلِكَ أَضْعَف الإِيمَان)

مَعْنَاهُ وَالله أَعْلَم أَقَلّهُ ثَمَرَة ، قَالَ القَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ الله : هَذَا الحَدِيث أَصْل فِي صِفَة التّغْيِير فَحَقّ المُغَيِّر أَنْ يُغَيِّرهُ بِكُلِّ وَجْه أَمْكَنَهُ زَوَاله بِهِ قَوْلًا كَانَ أَوْ فِعْلًا ؛ فَيَكْسِر آلَات البَاطِل ، وَيُرِيق المُسْكِر بِنَفْسِهِ ، أَوْ يَأْمُر مَنْ يَفْعَلهُ ، وَيَنْزِع الغُصُوبَ وَيَرُدّهَا إِلَى أَصْحَابهَا بِنَفْسِهِ ، أَوْ بِأَمْرِهِ إِذَا أَمْكَنَهُ وَيَرْفُق فِي التّغْيِير جَهْده بِالجَاهِلِ وَبِذِي العِزّة الظّالِم المَخُوف شَرّه ؛ إِذْ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى قَبُول قَوْله . كَمَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُون مُتَوَلِّي ذَلِكَ مِنْ أَهْل الصّلَاح وَالفَضْل لِهَذَا المَعْنَى . وَيُغْلِظ عَلَى المُتَمَادِي فِي غَيّه ، وَالمُسْرِف فِي بَطَالَته ؛ إِذَا أَمِنَ أَنْ يُؤَثِّر إِغْلَاظه مُنْكرًا أَشَدّ مِمّا غَيّرَهُ لِكَوْنِ جَانِبه مَحْمِيًّا عَنْ سَطْوَة الظّالِم . فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنّه أَنّ تَغْيِيرَهُ بِيَدِهِ يُسَبِّبُ مُنْكرًا أَشَدّ مِنْهُ مِنْ قَتْله أَوْ قَتْل غَيْره بِسَبَبِ كَفّ يَدَهُ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى القَوْل بِاللِّسَانِ وَالوَعْظ وَالتّخْوِيف . فَإِنْ خَافَ أَنْ يُسَبِّب قَوْله مِثْل ذَلِكَ غَيّرَ بِقَلْبِهِ ، وَكَانَ فِي سَعَة ، وَهَذَا هُوَ المُرَاد بِالحَدِيثِ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى وَإِنْ وَجَدَ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ اِسْتَعَانَ مَا لَمْ يُؤَدّ ذَلِكَ إِلَى إِظْهَار سِلَاحٍ وَحَرْبٍ ، وَلْيَرْفَع ذَلِكَ إِلَى مَنْ لَهُ الأَمْر إِنْ كَانَ المُنْكر مِنْ غَيْره ، أَوْ يَقْتَصِر عَلَى تَغْيِيره بِقَلْبِهِ . هَذَا هُوَ فِقْه المَسْأَلَة ، وَصَوَاب العَمَل فِيهَا عِنْد العُلَمَاء وَالمُحَقِّقِينَ خِلَافًا لِمَنْ رَأَى الإِنْكَار بِالتّصْرِيح بِكُلِّ حَال وَإِنْ قُتِلَ وَنِيل مِنْهُ كُلّ أَذًى . هَذَا آخِر كَلَام القَاضِي رَحِمَهُ الله .

قَالَ إِمَام الحَرَمَيْنِ رَحِمَهُ الله : وَيَسُوغ لِآحَادِ الرّعِيّة أَنْ يَصُدّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَة وَإِنْ لَمْ يَنْدَفِع عَنْهَا بِقَوْلِهِ مَا لَمْ يَنْتَهِ الأَمْر إِلَى نَصْبِ قِتَال وَشَهْر سِلَاح . فَإِنْ اِنْتَهَى الأَمْر إِلَى ذَلِكَ رَبَطَ الأَمْر بِالسّلْطَانِ قَالَ : وَإِذَا جَارَ وَالِي الوَقْت ، وَظَهَرَ ظُلْمُهُ وَغَشْمُهُ ، وَلَمْ يَنْزَجِر حِين زُجِرَ عَنْ سُوء صَنِيعه بِالقَوْلِ ، فَلِأَهْلِ الحَلّ وَالعَقْد التّوَاطُؤ عَلَى خَلْعه وَلَوْ بِشَهْرِ الأَسْلِحَة وَنَصْبِ الحُرُوب . هَذَا كَلَامُ إِمَام الحَرَمَيْنِ . وَهَذَا الذِي ذَكَرَهُ مِنْ خَلْعه غَرِيب ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ مَحْمُول عَلَى مَا إِذَا لَمْ يُخَفْ مِنْهُ إِثَارَة مَفْسَدَة أَعْظَم مِنْهُ . قَالَ : وَلَيْسَ لِلآمِرِ بِالمَعْرُوفِ البَحْث وَالتّنْقِير وَالتّجَسُّس وَاقْتِحَام الدّور بِالظّنُونِ ، بَلْ إِنْ عَثَرَ عَلَى مُنْكر غَيّرَهُ جَهْده . هَذَا كَلَام إِمَام الحَرَمَيْنِ .

وَقَالَ أَقْضَى القُضَاة المَاوَرْدِيُّ : لَيْسَ لِلْمُحْتَسِبِ أَنْ يَبْحَث عَمّا لَمْ يَظْهَر مِنْ المُحَرّمَات . فَإِنْ غَلَبَ عَلَى الظّنّ اِسْتِسْرَار قَوْم بِهَا لِأَمَارَةٍ وَآثَار ظَهَرَتْ ، فَذَلِكَ ضَرْبَان .

أَحَدهمَا : أَنْ يَكُون ذَلِكَ فِي اِنْتِهَاك حُرْمَة يَفُوت اِسْتِدْرَاكهَا ، مِثْل أَنْ يُخْبِرَهُ مَنْ يَثِقَ بِصِدْقِهِ أَنّ رَجُلًا خَلَا بِرَجُلٍ لِيَقْتُلهُ أَوْ بِامْرَأَةٍ لِيَزْنِيَ بِهَا فَيَجُوز لَهُ فِي مِثْل هَذَا الحَال أَنْ يَتَجَسّسَ ، وَيُقْدِم عَلَى الكَشْف وَالبَحْث حَذَرًا مِنْ فَوَات مَا لَا يُسْتَدْرَك . وَكَذَا لَوْ عَرَفَ ذَلِكَ غَيْرُ المُحْتَسِبِ مِنْ المُتَطَوّعَة جَازَ لَهُمْ الإِقْدَام عَلَى الكَشْف وَالإِنْكَار .

الضّرْب الثّانِي : مَا قَصُرَ عَنْ هَذِهِ الرّتْبَة فَلَا يَجُوز التّجَسُّس عَلَيْهِ ، وَلَا كَشْف الأَسْتَار عَنْهُ . فَإِنْ سَمِعَ أَصْوَات المَلَاهِي المُنْكرَة مِنْ دَارٍ أَنْكرَهَا خَارِج الدّار لَمْ يَهْجُم عَلَيْهَا بِالدّخُولِ لِأَنّ المُنْكر ظَاهِر وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ البَاطِن . وَقَدْ ذَكَرَ المَاوَرْدِيُّ فِي آخِر الأَحْكَام السّلْطَانِيّة بَابًا حَسَنًا فِي الحِسْبَة مُشْتَمِلًا عَلَى جُمَل مِنْ قَوَاعِد الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْي عَنْ المُنْكر وَقَدْ أَشَرْنَا هُنَا إِلَى مَقَاصِدهَا ، وَبَسَطْت الكَلَام فِي هَذَا البَاب لِعِظَم فَائِدَته ، وَكَثْرَة الحَاجَة إِلَيْهِ ، وَكَوْنه مِنْ أَعْظَم قَوَاعِد الإِسْلَام . وَالله أَعْلَم .

================

كبار الصحابة رضي الله عنهم يحاولون منع انتشار الحريق

كان الصحابة من المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ يرون أنهم شركاء للخليفة في المسئولية وحماية المجتمع من الشرور والفتن، لذا شاركوا في محاولات تهدئة الأمور، وإبطال أصوات الاحتجاج الباطلة ضد الخليفة، وبذلوا في ذلك جهدا مضنيا، وتحملوا مع خليفتهم فوق طاقتهم.

وكانت الرياح التي يثيرها المتمردون من كل جانب تتحدى زورق الصحابة المستبسل، وتعصف بمحاولاتهم النبيلة.. بَيْد أنهم لم ييأسوا، وظلوا يغالبون العاصفة، ويُهدِّئون بحوارهم المقنِع عالِيَ صوتِها، ولكن الفتنة كانت قد جاوزت كل الحدود، واستحكمت من قلوبٍ مريضةٍ وعقولٍ معطّلةٍ، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان.

لقد شدد المتمردون حصارهم القاسي حول دار الخليفة؛ فمنعوا عنه زوارَه ومنعوا عنه الماء الذي تتفجر به "بئر رَومة" التي اشتراها ـ رضي الله عنه ـ من خالص ماله في أوائل أيام الهجرة إلى المدينة، وجعلها هدية منه للمسلمين!!

في ظل هذه الغيوم الكثيفة، والخطر المُحْدق بالخليفة، لم يتخلّ الصحابة عن تقديم العون لخليفتهم، وشاركوه المحنة، وعرضوا عليه حلولا ً واقتراحاتٍ لتجنيب الأمة هذا الخطر المحدق بها، فتقدم المغيرة بن شعبة إلى عثمان بهذا الرأي: فعَنْ مُحَمّدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، أَنّهُ حَدّثَهُ عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، أَنّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ ، فَقَالَ : إِنّكَ إِمَامُ العَامّةِ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى ، وَإِنّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ خِصَالًا ثَلَاثًا ، اخْتَرْ إِحْدَاهُنّ : إِمّا أَنْ تَخرُجَ فَتُقَاتِلَهُمْ فَإِنّ مَعَكَ عَدَدًا وَقُوّةً وَأَنْتَ عَلَى الحَقّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ ، وَإِمّا أَنْ تَخْرِقَ لَكَ بَابًا سِوَى البَابِ الذِي هُمْ عَلَيْهِ ، فَتَقْعُدَ عَلَى رَوَاحِلِكَ فَتَلْحَقَ بِمَكّةَ فَإِنّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلّوكَ وَأَنْتَ بِهَا ، وَإِمّا أَنْ تَلْحَقَ بِالشّامِ فَإِنّهُمْ أَهْلُ الشّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ ، فَقَالَ عُثْمَانُ : أَمّا أَنْ أَخْرُجَ فَأُقَاتِلَ فَلَنْ أَكُونَ أَوّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي أُمّتِهِ بِسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَأَمّا أَنْ أَخْرُجَ إِلَى مَكّةَ فَإِنّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلّونِي بِهَا فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ : يُلْحِدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكّةَ ، يَكُونُ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ العَالَمِ " فَلَنْ أَكُونَ أَنَا إِيّاهُ ، وَأَمّا أَنْ أَلْحَقَ بِالشّامِ فَإِنّهُمْ أَهْلُ الشّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ ، فَلَنْ أُفَارِقَ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ "أخرجه أحمد

و ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنّ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : " " يَا عُثْمَانُ إِنّهُ لَعَلّ اللّهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ " " . وَفِي الحَدِيثِ قِصّةٌ طَوِيلَةٌ : " " أخرجه الترمذي وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ

و عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ ، أَنّ النّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ، حَدّثَهُ قَالَ : كَتَبَ مَعِي مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ . قَالَ : وَآلُ عُمَرَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ فِي النّاسِ مِنْ شِيعَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ وَمَنْ شِيعَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : فَسِرْتُ حَتَّى نَزَلْتُ تَبُوكًا فِي نَاحِيَةٍ إِلَى جَانِبِ قَادَة ، فَإِذَا شَيْخَانِ قَدْ أَقْبَلَا إِلَيَّ ، فَقَالَا : مَنِ الرَّجُلُ ؟ قُلْتُ : أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَا : وَمِمَّنْ أَنْتَ ؟ فَقُلْتُ : لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ إِنِّي قُمْتُ أُرِيدُ هِرَاقَةَ الْمَاءِ ، فَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَقَدْ ضَرَبْتَ فِيهِ الْأَنْصَارَ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَيْهِمَا قَالَا : يَا عَبْدَ اللَّهِ نَنْشُدُكَ بِاللَّهِ أَضُرِبَتْ فِيكَ الْأَنْصَارُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ أُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ نَفْسِ الْأَنْصَارِ ، وَإِنِّي مَوْلَى لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَ الْحَدِيثُ يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَإِذَا هُمْ مِنْ شِيعَةِ عُثْمَانَ فَأَطْلَعْتُهُمَا عَلَى أَمْرِي ، وَأَنْبَأْتُهُمَا بِنَحْوِي ، فَأَرْشَدَانِي الطَّرِيقَ ، وَأَمَرَانِي بِرَأْيِهِمَا ، قَالَ : فَقَدِمْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَدَفَعْتُ إِلَيْهَا كِتَابَ مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ أَلَا أُحَدِّثُكَ شَيْئًا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَتْ : فَإِنِّي كُنْتُ عِنْدَهُ أَنَا وَحَفْصَةُ يَوْمًا مِنْ ذَاكٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا ؟ " فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَبْعَثُ لَكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ؟ فَسَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ : " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا ؟ " فَقَالَتْ حَفْصَةُ : أَلَا أَبْعَثُ لَكَ إِلَى عُمَرَ ؟ فَسَكَتَ ، ثُمَّ دَعَا إِنْسَانًا فَأَسَرَّ إِلَيْهِ سِرًّا ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ ، فَمَا كَانَ حَتَّى أَقْبَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ ، قَالَتْ : فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : " يَا عُثْمَانُ إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّهُ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ " يَقُولُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَيْنَ كُنْتِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ قَالَتْ : يَا بُنَيَّ لَقَدْ نَسِيتُهُ حَتَّى مَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَمِعْتُهُ "أخرجه البيهقي في السننن الصغرى

و عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَقْبَلَتْ إِحْدَانَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَكَانَ مِنْ آخِرِ كَلَامٍ كَلَّمَهُ ، أَنْ ضَرَبَ مَنْكِبَهُ ، وَقَالَ : " يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي ، يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللَّهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي " ثَلَاثًا ، فَقُلْتُ لَهَا : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَيْنَ كَانَ هَذَا عَنْكِ ؟ قَالَتْ : نَسِيتُهُ ، وَاللَّهِ فَمَا ذَكَرْتُهُ . قَالَ : فَأَخْبَرْتُهُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَلَمْ يَرْضَ بِالَّذِي أَخْبَرْتُهُ حَتَّى كَتَبَ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ بِهِ ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ بِهِ كِتَابًا * أخرجه أحمد

و عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ادْعُ لِي بَعْضَ أَصْحَابِي " قُلْتُ : أَبُو بَكْرٍ ؟ ، قَالَ : " لَا " قُلْتُ : عُمَرُ ؟ قَالَ : " لَا " قُلْتُ : ابْنُ عَمِّكَ عَلِيٌّ ؟ قَالَ : " لَا " قَالَتْ : قُلْتُ عُثْمَانُ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " فَلَمَّا جَاءَ قَالَ : " تَنَحِّي " فَجَعَلَ يُسَارُّهُ وَلَوْنُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الدَّارِ وَحُصِرَ ، قُلْنَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا تُقَاتِلُ ، قَالَ : لَا ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا ، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ " أخرجه عبد الله في فضائل عثمان

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ ، أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ، حَدَّثَهُ قَالَ : كَتَبَ مَعِي مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ قَالَ : فَقَدِمْتُ عَلَى عَائِشَةَ ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهَا كِتَابَ مُعَاوِيَةَ

فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، أَلَا أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَتْ : فَإِنِّي كُنْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ يَوْمًا مِنْ ذَاكَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا " فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلَا أَبْعَثُ لَكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ؟ فَسَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ : " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا " فَقَالَتْ حَفْصَةُ : أَلَا أُرْسِلُ لَكَ إِلَى عُمَرَ ؟ فَسَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ : " لَا " ثُمَّ دَعَا رَجُلًا فَسَارَّهُ بِشَيْءٍ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ أَقْبَلَ عُثْمَانُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ : " يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَعَلَّهُ أَنْ يُقَمِّصَكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ " ثَلَاثَ مِرَارٍ قَالَ : فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَيْنَ كُنْتِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، وَاللهِ لَقَدْ أُنْسِيتُهُ حَتَّى مَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَمِعْتُهُ * أخرجه أحمد[76]

وتزداد شدة الحصار، ويكاد المتآمرون يفعلون جريمتهم النكراء، فيشير عبد الله بن الزبير بمثل ما أشار به المغيرة بن شعبة؛ والعجيب أن إجابة أمير

---

[76] - وفي مُشْكِلُ الآثارِ لِلطَّحَاوِيِّ

بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ "

4629 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ الْحَارِثِ الْبَاغَنْدِيُّ ، وَفَهْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ يَحْيَى قَالَا : حَدَّثَنَا الْمِنْهَالُ بْنُ بَحْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ يَوْمًا أَلَمًا ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ : " يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ " ، فَقِيلَ لَهَا : فَأَيْنَ كُنْتِ ؟ ، لَمْ تَذْكُرِي هَذَا قَالَتْ : نَسِيتُهُ " *

4630 وَحَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ شُعَيْبٍ الْكَيْسَانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، وَحَدَّثَنَا فَهْدٌ ، وَهَارُونُ بْنُ كَامِلٍ قَالَا : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ قَالَ : حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ ، عَنْ نُعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : قَالَتْ لِي عَائِشَةُ : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ : " يَا عُثْمَانُ بْنَ عَفَّانَ ، لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ ، يَا عُثْمَانُ بْنَ عَفَّانَ ، إِنَّهُ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ ، فَلَا تَخْلَعْهُ " قَالَ : فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَيْنَ كُنْتِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، فَقَالَتْ : نَسِيتُ وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي ، مَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَمِعْتُهُ " فَتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ ، فَوَجَدْنَا بَيْعَةَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَدْ كَانَتْ بَيْعَةَ هُدًى ، وَرُشْدٍ ، وَاسْتِقَامَةٍ ، وَاتِّفَاقٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِوَاهُمْ عَلَيْهَا ، لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِيهِ ، وَجَرَى الْأَمْرُ لَهُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ مِنْ مُدَّةِ خِلَافَتِهِ ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَمْرِهِ مَا وَقَعَ مِنَ الِاخْتِلَافِ ، وَادَّعَى بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ التَّبْدِيلَ ، وَالتَّغْيِيرَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَحَاشَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، حَتَّى كَانَ سَبَبًا لِتَحَزُّبِهِمْ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَحَتَّى هَمَّ بَعْضُهُمْ بِإِزَالَتِهِ عَنْ ذَلِكَ لِدَعْوَاهُ عَلَيْهِ الْخُرُوجَ عَنْهُ بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي ادَّعَوْا عَلَيْهِ أَنَّهُ أَحْدَثَهَا ، مِمَّا لَا يَصْلُحُ مَعَهَا بَقَاؤُهُ عَلَيْهَا ، وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِهِ ، مِمَّا خَاطَبَهُ بِهِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ، مِمَّا أَطْلَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مَا قَدْ رُوِّينَاهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ أَحْوَالَهُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ هِيَ الْأَحْوَالُ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا مَا اسْتَحَقَّ مِنَ الْخِلَافَةِ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ ، وَفِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ لَهُ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَحُلْ عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ عَنْ ذَلِكَ ، وَحَالَ عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ ، مِمَّا ادُّعِيَ عَلَيْهِ لَخَرَجَ بِذَلِكَ ، مِمَّا كَانَ قَدْ وَجَبَتْ لَهُ وِلَايَتُهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لَهُ ، لَمَا أَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّمَسُّكِ بِالْخِلَافَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا ، وَلَأَمَرَهُ بِرَدِّهِ إِيَّاهَا إِلَى مَنْ سِوَاهُ ، مِمَّنْ يَسْتَحِقُّهَا ، لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَدْ كَانَ أَعْلَمَهُ مَا كَانَ يَنْزِلُ بِهِ ، وَمَا كَانَ يَطْلُبُ مِنْ أَجْلِهِ تَرْكُ الْخِلَافَةِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، مِمَّا كَانَ اسْتِحْقَاقُهُ إِيَّاهَا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ ، وَفِي أَمْرِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُ بِلُزُومِهَا ، وَبِالتَّمَسُّكِ بِهَا ، مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ أَحْوَالَهُ فِي وَقْتِهِ ذَلِكَ أَحْوَالُ اسْتِحْقَاقٍ لَهَا ، لَا تَبْدِيلَ مَعَهُ فِيهَا ، وَلَا تَغَيُّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، مِمَّا اسْتَحَقَّهَا بِهِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ *

المؤمنين تكاد تكون متماثلة في كلا الموقفين، ونلمح فيها ضمير المهاجر إلى الله وخلقه وتصميمَه، ولا نلمح فيها مناورةً ولا حرصًا على الحياة .
أيُّ ورعٍ، وأي جلالٍ هذا..؟؟ خليفة تتأجج من حوله الفتن، وتُحاك له المؤامرات، وهو لا يريد مهما تكن العواقبُ أن يواجه هذا التمردَ بقوة السيف ، مكتفيا بالزجر والتهديد.. ومع مَنْ؟؟ مع أناس يهاجمونه بألسنة حِدادٍ، ويُحرّضون على خلعه وقتله!.. رجلٌ يحيط به بغاةٌ مسلحون يريدون رأسه، وأمامه فرص النجاة والخلاص، ثم يرفضُها جميعا؛ لأنها ستنال من هيبة الدولة ومكانتها، وستنال أيضا من كرامة هجرتِه وثوابها.. ؟؟!!
وفي أية سِنٍّ كان وهو يحملُ هذا الولاء الفَتِيّ الشابّ للهجرة ولِحَقّها، ويرفعُ هذا اللواء للدفاع عن مكانة الدولة وهيبتها..؟! في سن تجاوزت الثمانين..!!
إنه يرفض أيّ نقص شكلي أو موضوعي للدولة وسلطانها ومبادئها، أو للهجرة وحقها ولو كان ثمن الرفض حياته..!!
===============
تشديد الحصار على الخليفة
وصل إلى مسامع البُغاة تحركُ جيوش الأمصار لنجدة الخليفة، فأصروا على حَصْرِهِ والتضييق عليه، حتى منعوا عنه الطعام والماء، بل والصلاةَ في المسجد، وتهددوه بالقتل، ولهذا ذكّرهم بتوسعتِهِ للمسجد النبوي من ماله ـ وهو أول من مُنِعَ من الصلاة فيه ـ وأنه وَقَفَ بئرَ رومة على المسلمين ـ ومُنِعَ الشُّربَ من مائها ـ وذكَرَ لهم سابقتَه في الإسلام وأعماله مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علّ كلماتِه تنجح في كفّهم عنه وردّهم إلى الطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منهم. ولكنهم لجُّوا في طغيانهم يَعْمَهُون، وأبَوْا إلا الباطل والبقاء على ما هم عليه من البغْي والعدوان، ومضوا يلتمسون العلل التي يحتجُّون بها لتبرير قتله.
ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده، حتى اشتد عليه الحال، وضاق المجال، ونفِدَ ما عنده من الماء، فاستغاث بالمسلمين في ذلك، فكان أسرعَهم نجدةً له عليٌّ بن أبي طالب وأم حبيبة بنت أبي سفيان زوجُ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي بادرت بنجدته، فنالها منهم شدةٌ عظيمة، ولم يبق لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في خُفْيَةٍ ليلا ً.
فعن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة، قالوا: كان الحصر أربعين ليلة والنزول سبعين، فلما مضت من الأربعين ثمان عشرة، قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيّأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشأم، ومعاوية من مصر، والقعقاع من الكوفة، ومجاشع من البصرة؛ فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان؛ ومنعوه كلّ شيء حتى الماء؛ وقد كان يدخل عليّ بالشيء مما يريد. وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة، فعثروا في داره بالحجارة ليرموا؛ فيقولوا: قوتلنا - وذلك ليلا ً - فناداهم: ألا تتقون الله! ألا تعلمون أنّ في الدار غيري! قالوا: لا والله ما رميناك. قال: فمن رمانا؟ قالوا: الله، قال: كذبتم

؛ إنّ الله عزّ وجلّ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا. وأشرف عثمان على آل حزم وهم جيرانه؛ فسرّح ابناً لعمرو إلى عليّ بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا. وإلى طلحة وإلى الزبير، وإلى عائشة رضي الله عنها وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فكان أوّلهم إنجاداً له عليّ وأمّ حبيبة؛ جاء عليّ في الغلس، فقال: يأيّها الناس؛ إنّ الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين؛ لا تقطعوا عن هذا الرجل المادّة؛ فإن الرّوم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي؛ وما تعرّض لكم هذا الرّجل؛ فبم تستحلّون حصره وقتله! قالوا: لا والله ولا نعمة عين؛ لا نتركه يأكل ولا يشرب؛ فرمى بعمامته في الدار بأنّي قد نهضت فيما أنهضتني؛ فرجع. وجءات أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملةً على إداوة، فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إنّ وصايا بني أميّة إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل. ق الوا: كاذبة، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندّت بأمّ حبيبة، فتلقّاها الناس، وقد مالت رحالتها، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها. وتجهزّت عائشة خارجة إلى الحجّ هاربة، واستتبعت أخاها، فأبى؛ فقالت: أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلنّ.

وجاء حنظلة الكاتب حتى قام على محمد بن أبي بكر، فقال: يا محمد، تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها، وتدعوك ذؤبان العرب إلى ما لا يحلّ فتتبعهم! فقال: ما أنت وذاك يا بن التميميّة! فقال: يا بن الخثعميّة؛ إن هذا ا لأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف، وانصرف وهو يقول:

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم ...... ولاقوا بعدها ذلا ً ذليلا

وكانوا كاليهود أو النّصارى ... سواء كلّهم ضلّوا السبيلا

ولحق بالكوفة. وخرجت عائشة وهي ممتلئة غيظاً على أهل مصر، وجاءها مروان بن الحكم فقال: يا أمّ المؤمنين؛ لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل، فقالت: أتريد أن يصنع بي كما صنع بأمّ حبيبة، ثم لا أجد من يمنعني! لا والله ولا أعيّر ولا أدري إلام يسلم أمر هؤلاء! وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ وأم حبيبة، فلزموا بيوتهم، وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات، عليهم الرّقباء، فأشرف عثمان على الناس، فقال: يا عبد الله بن عباس - فدعى له - فقال: اذهب فأنت على الموسم - وكان ممّن لزم الباب - فقال: و الله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحبّ إليّ من الحج؛ فأقسم عليه لينطلقنّ. فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة؛ ورمى عثمان إلى الزبير بوصيّته، فانصرف بها - وفي الزبير اختلاف: أأدرك مقتله أو خرج قبله - وقال عثمان: {وَيَا قَوْمِ لا َ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} (89) سورة هود ، اللهم حل

بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل[77].

[77] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 493)
قال تعالى :
{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)[هود/84-95]
وفي ظلال القرآن - (ج 3 / ص 249)
فهي قاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل . . ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات في رسالة النبي الجديد : { قد جاءتكم بينة من ربكم } . .
ولا يذكر السياق نوع هذه البينة - كما ذكرها في قصة صالح - ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة في السور الأخرى . ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها ، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله . ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان ، والنهي عن الإفساد في الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه :
{ فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلا ً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين } . .
وندرك من هذا النهي أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده في سلطانه؛ وأنهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل؛ إنما كانوا يتخذون لأ نفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة - وأنهم - لذلك - كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء؛ كما كانوا مفسدين في الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم .
ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم؛ ويكرهون الا ستقامة التي في سبيل الله؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله .
ويبدأ شعيب - عليه السلام - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله .
يبدأ شعيب - عليه السلام - في دعوتهم من هذه القاعدة؛ التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها؛ كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة .
ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشريعة . . يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية . . يذكرهم نعمة الله عليهم :
{ واذكروا إذ كنتم قليلا ً فكثركم } .
ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم :
{ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين } . .
كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين . إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين :

{ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين } . .
لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة . . نقطة الا نتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .
ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت . . إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه . . إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده .
إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل . . إنها سنة الله لا بد أن تجري .
.
{ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن في ملتنا } .
هكذا في تبجح سافر ، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!
إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . . نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء : في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت . . وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه . . فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :
{ قال : أو لو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين } . .
وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ، ومذاقه في نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . . مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .
{ قال : أو لو كنا كارهين؟ }
يستنكر تلك القولة الفاجرة : { لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا }
. . يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟!
{ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها } . .
إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، و التي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله . . إن الذي يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها - على الأقل - أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود ، وشرعية في السلطان؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله . . وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام .
شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة!
وكذلك يستنكر شعيب - عليه السلام - ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم الله منها :
{ وما يكون لنا أن نعود فيها } . .
وما من شأننا أصلا ً؛ وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها . . يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التي تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا

شريك معه أو من دونه .
إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأ من والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنه تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإ نسان ذاته فهذه « الإنسانية » لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! . . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه؟! . . وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!
على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية . . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار . . والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بـ الواقع!
إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال . . ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلا ً على وزنها في ميزان الله . .
يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب : الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية :
« . . . وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية ، لا يخفى عليه أن المسألة - التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها - إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها .
وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً أو كرهاً - إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإ نسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه . . فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو . إن لم تمحق وتنقرض آثارها . وأما إذا كانت هذه السلطة - سلطة الزعامة والقيادة والإمامة - بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة و العمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها . . . «
. . . » والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم - صلى الله عليه وسلم - ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال؛ ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات

الدين وأسسه . والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .
. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعره - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد . . ثم انظروا إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى إن القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض . ذلك أن « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين . وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بـالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق . . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول في إيمانه ، مرتاب في أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟ « . . .
. . . » إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام . فكل من يؤمن بـالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها « . .
إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد؛ كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم . . إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت - تحت رايته - بكل ما فيها من تضحيات؛ ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر! . . إنه يدعوهم للكرامة ، وللسلامة ، في آن . .
لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :
{ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها . . } .
.
ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه .
. بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل ، الذي وسع كل شيء علماً . فهو في مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :
{ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً } . .
إنه يفوض الأمر لله ربه ، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه . . إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . . ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شيء علماً . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .
إنه أدب ولي الله مع الله . الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .
وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق .
{ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين } . .
وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلي حقيقة « الألوهية » في نفس ولي الله ونبيه . .
إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتي ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم . ليفتنوهم عن دينهم :
{ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون } . .
إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير . . إن الطواغيت يتوجهون أولا ً إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بِ الذي يملكه الطغاة من الوسائل . . تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب . . إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب؛ ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .
ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف . . وهكذا كان . .
{ فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين } . .
الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة . .
ويرد السياق على قولتهم : { لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون } . . وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر - في تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين :
{ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها .الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين } . .
ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار!
ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين :
{ فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين؟ } . .
إنه من ملة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها في هذا الدين ، ولا وزن لها في ميزان الله . . فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين . .
هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . . وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية - والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية - وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين؛ ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل . . أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله ، وتعرف حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء ، وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون . . كل ذلك للابتلاء . . حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير :
{ وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء } ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون في هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، ولم يتدبروا حكمته في تقلب الأمور بالعباد ، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين ، وعاشوا كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله . . ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال ، ولحلت عليهم البركات ، ولأفاض الله عليهم من رزقه في السماء وا لأرض ، ولأنعم عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة ، ولا يعقبه النكال والبوار . .
ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض من بعد أهلها . . يحذرهم الغفلة والغرة ، ويدعوهم إلى اليقظة و التقوى ، ويلفتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم ، فإنما تنتظرهم سنة الله التي لا تتبدل ، والتي يتكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون .
وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - : { تلك القرى نقص عليك من أنبائها . . . } لإظهاره على سنة الله فيها ، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها : { وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين } . . فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها ، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها . .
{ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة

الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء . فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون } . .
إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة ، إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر . . ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجري عليه الأمور؛ وتتم وفقه الأحداث؛ ويتحرك به تاريخ « الإنسان » في هذه الأرض .
وأن الرسالة ذاتها - على عظم قدرها - هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس - وهو أكبر من الرسالة وأشمل - وأن الأمور لا تمضي جزافاً؛ وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض - كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان! - وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير ، ويصدر عن حكمة ، ويتجه إلى غاية . وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة؛ التي وضعت السنة ، وارتضت الناموس . .
ووفقاً لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان ، مما حكاه السياق . ويكون من أمر غيرها ما يكون!
إن إرادة الإنسان وحركته - في التصور الإسلامي - عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضاً . ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل . . والله بكل شيء محيط . . وإرادة الإنسان وحركته - في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل - يتعاملان مع الوجود كله؛ ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضاً . . فهناك زحمة من العوامل والعوالم المحركة للتاريخ الإنساني؛ وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة؛ مما يبدو إلى جانبه « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ، و « التفسير البيولوجي للتاريخ » ، و « التفسير الجغرافي للتاريخ » . . . بقعاً صغيرة في الرقعة الكبيرة . وعبثاً صغيراً من عبث الإنسان الصغير! .
{ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون } . .
فليس للعبث - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم . وليس لإرواء غلة ولا شفاء إحنة - كما كانت أساطير الوثنيات تقول عن آلهتها العابثة الحاقدة! إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء ، لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى؛ وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار؛ يتضرعون إليه؛ ويطلبون رحمته وعفوه؛ ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له - والعبودية لله غاية الوجود الإنساني - وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد وإعلان العبودية : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين } ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على طاعة الله ما زاد هذا في ملكه شيئاً . ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على معصيته - سبحانه - ما نقصوا في ملكه شيئاً (كما جاء في الحديث القدسي) .
. ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم؛ ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك . . فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه . . تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم - كما جاء في أوائل السورة - وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم . وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم؛ واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان؛ واستحيوا أن يغضبوا الله بعمل أو نية تتجهون إليه في الشدة ويتضرعون ، واستقاموا على الطريقة التي تحررهم وتطهرهم وتزكيهم ، وترفعهم من العبودية للهوى والعبودية للعبيد!
لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبياً فتكذبه ، بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم ، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم . استحياء لقلوبهم بالألم . والألم خير مهذب ، وخير مفجر لينابيع الخير المستكنة ، وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية ، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق . . { لعلهم يضرعون } . .
{ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة } . .
فإذا الرخاء مكان الشدة ، واليسر مكان العسر ، والنعمة مكان الشظف ، والعافية مكان الضر ، والذرية مكان العقر ، والكثرة مكان القلة ، والأمن مكان الخوف . وإذا هو متاع ورخاء ، وهينة ونعماء ، وكثرة وامتلاء . . وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء . .
والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون ، ويحتمل مشقاته الكثيرون . فالشدة تستثير عناصر المقاومة . وقد تذكر صاحبها بالله - إن كان فيه خير - فيتجه إليه ويتضرع بين يديه ، ويجد في

ظله طمأنينة ، وفي رحابه فسحه ، وفي فرَجه أملا ً ، وفي وعده بشرى . . فأما الابتلاء بالرخاء ف
الذين يصبرون عليه قليلون . فالرخاء ينسي ، والمتاع يلهي ، والثراء يطغي . فلا يصبر عليه إلا الأ
قلون من عباد الله .
{ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء } . .
أي حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيش ، واستيسروا الحياة : ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه ، ولا تخوفاً من أمر يصنعونه . . والتعبير : { عفوا } - إلى جانب دلالته على الكثرة - يوحي بحالة نفسية خاصة : حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر ، واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء . . وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة ، حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء - أفراداً وأمماً - كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئاً ، أو تحسب حساباً لشيء . فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر ، ويلهون في يسر ، ويبطشون كذلك في استهتار! ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان ، في يسر واطمئنان! وهم لا يتقون غضب الله ، ولا لوم الناس ، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تحرج ولا مبالاة . وهم لا يفطنون لسنة الله في الكون ، ولا يتدبرون اختباراته وابتلاءاته للناس .
ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً ، بلا سبب معلوم ، وبلا قصد مرسوم :
{ وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء } .
.
وقد أخذ دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة ، فهي تمضي هكذا خبط عشواء!
عندئذ . . وفي ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة للنسيان واللهو والطغيان ، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية :
{ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون } . .
جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله؛ وأطلقوا لشهواتهم العنان ، فما عادوا يتحرجون من فعل ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال!
هكذا تمضي سنة الله أبداً . وفق مشيئته في عباده . وهكذا يتحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله - في إطار سنة الله ومشيئته - وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة؛ ويحذرهم الفتنة . . فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء . . وينبه فيهم دواعي الحرص واليقظة ، واتقاء العاقبة التي لا تتخلف ، جزاء وفاقاً على اتجاههم وكسبهم . فمن لم يتيقظ ، ومن لم يتحرج ، ومن لم يتق ، فهو الذي يظلم نفسه ، ويعرضها لبأس الله الذي لا يرد . ولن تظلم نفس شيئاً .
{ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون } . .
فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية . فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الا ستهتار؛ لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض . . هكذا . . { بركات من السماء والأرض } مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر ، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات . .
وأمام هذا النص - والنص الذي قبله - نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية و الكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان ، تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال . بل تنكره كل الإنكار! . .
إن العقيدة الإيمانية في الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإ نسان . إن الإيمان بالله ، وتقواه ، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض . وعدا من الله . ومن أوفى بعهده من الله؟
ونحن - المؤمنين بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدقه ابتداء ، لا نسأل عن علله وأسبابه؛ ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله . . نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإ يمان . .
ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر - كما يأمرنا إيماننا كذلك - فنجد علته وسببه!
إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة؛ وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية؛ وصدق في الإ دراك الإنساني ، وحيوية في البنية البشرية ، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود . . وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .
والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها ، وتتجه بها إلى وجهة واحدة ،

وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها ، وفي دفع الفساد و الفتنة عنها ، وفي ترقية الحياة ونمائها .
. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .
والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد . وما من شك أن الإنسان المتحرر بـ العبودية لله ، أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً!
وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور ، في دفعة الحركة ودفعة الحياة . . وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج ، فلا يعتدي ، ولا يتهور ، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح .
وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة في الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من الهوى والطغيان البشري ، عابدة خاشعة لله . . تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه ، فلا جرم تحفها البركة ، ويعمها الخير ، ويظلها الفلاح . . والمسألة - من هذا الجانب - مسألة واقع منظور - إلى جانب لطف الله المستور - واقع له علله وأسبابه الظاهرة ، إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود . .
والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون ، في توكيد ويقين ، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان . فهي البركات بكل أنواعها وألوانها ، وبكل صورها وأشكالها ، ما يعهده الناس وما يتخيلونه ، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال!
والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله - سبحانه - وكفى بالله شهيداً . ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس :
{ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون } . .
ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً - يقولون : إنهم مسلمون - مضيقاً عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق! . . ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . .
فيتساءل : وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف؟
ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال!
إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون . . لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين . فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره . . ويوم كان أسلا ف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً . دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأ رض ، وتحقق لهم وعد الله .
فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق .
. فهذه هي السنة : { ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء }
! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة . . وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . . وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة ، مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال . .
إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات في الأشياء ، وبركات في النفوس ، وبركات في المشاعر ، وبركات في طيبات الحياة . . بركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .
وبعد أن يقرر السياق القرآني تلك السنة الجارية . التي يشهد بها تاريخ القرى الخالية . وفي اللحظة التي تنتفض فيها المشاعر ، ويرتعش فيها الوجدان ، على مصارع المكذبين الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا؛ وغرهم ما كانوا فيه من رخاء ونعماء ، فغفلوا عن حكمة الله في الابتلاء . . في هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون في النوم واللهو والمتاع :
{ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم

يلعبون؟ أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون } . .
أفأمن أهل القرى - وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، والبأساء والنعماء ، وتلك مصارع المكذبين السادرين ، الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها فخلفوهم فيها - أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم ، وغرة من غراتهم؟ أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك و الدمار . . بياتاً وهم نائمون . . والإنسان في نومه مسلوب الإرادة ، مسلوب القوة ، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة . . فكيف ببأس الله الجبار؟ الذي لا يقف له الإنسان في أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته؟
أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله . . ضحى وهم يلعبون . . واللعب يستغرق اليقظة والتحفز ، ويلهي عن الأ هبة والاحتياط . فلا يملك الإنسان ، وهو غارٌ في لعبه ، أن يدفع عن نفسه مغيراً . فكيف بغارة الله التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع؟
وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين . لاعبين أم جادين . ولكن السياق القرآني يعرض لحظات الضعف الإنساني ، ليلمس الوجدان البشري بقوة ، ويثير حذره وانتباهه ، حين يترقب الغارة الطامة الغامرة ، في لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة .
وما هو بناج في يقظة أو غرة . فهذه كتلك أمام بأس الله سواء!
{ أفأمنوا مكر الله؟ } .
وتدبيره الخفي المغيب على البشر . . ليتقوه ويحذروه .
{ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون } . .
فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار . وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار! أفأمنوا مكر الله؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟
{ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون } . .
إن سنة الله لا تتخلف؛ ومشيئة الله لا تتوقف . فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم؟ وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدوا بعد ذلك ، بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى ، ثم ينالهم جزاء الضلال في الدنيا والآخرة . . ألا إن مصارع الخالين قبلهم ، ووراثتهم لهم ، وسنة الله الجارية . . كل أولئك كان نذيراً لهم أن يتقوا ويحذروا؛ وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب ، والاستهتار السادر ، والغفلة المردية؛ وأن يعتبروا بما كان في الذين خلوا من قبلهم . عسى ألا يكون فيهم . لو كانوا يسمعون!
وما يريد الله للناس بهذا التحذير في القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين؛ يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار . فالفزع الدائم من المجهول ، والقلق الدائم من المستقبل ، وتوقع الدمار في كل لحظة . . قد تشل طاقة البشر وتشتتها؛ وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل و النتاج وتنمية الحياة وعمارة الأرض . . إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى ، ومراقبة النفس ، والعظة بتجارب البشر ، ورؤية محركات التاريخ الإنساني ، وإدامة الاتصال بالله ، وعدم الا غترار بطراءة العيش ورخاء الحياة .
والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة ، إذا هم أرهفوا حساسيتهم به ، وإذا هم أخلصوا العبودية له؛ وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة . فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله لا في جوار النعيم المادي المغري . وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة . وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الحياة .
ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله . وما كان يركن إلى سواه . وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان ، مطمئناً بذكر الله ، قوياً على الشيطان وعلى هواه ، مصلحاً في ا لأرض بهدى الله ، لا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه .
وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع ، ومن مكر الله الذي لا يدرك . لندرك أنه لا يدعو إلى القلق إنما يدعو إلى اليقظة ، ولا يؤدي إلى الفزع إنما يؤدي إلى الحساسية ، ولا يعطل الحياة إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان .
والمنهج القرآني - مع ذلك - إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة ، وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة ، ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم . فيعطيها جرعة من الأمن والثقة و الطمأنينة إلى جوار الله ، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة . ويعطيها جرعة من الخوف و الحذر والترقب لبأس الله ، حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الحياة . وربك أعلم بمن خلق ، وهو

الصحابة يدافعون عن عثمان رضي الله عنه

لما اشتد الحصار على عثمان ـ رضي الله عنه ـ ورأى الصحابةُ بالمدينة ما آلَ إليه الأمرُ، هَبُّوا لنجدة خليفتهم، لكن عثمانَ الرحيمَ كان أمرُه عجبًا، يمنع الصحابة من الدفاع عنه، ويرفض النجاة من سيوف قاتِلِيه، إذا كان ثمنُ هذه النجاة قطراتِ دمٍ تُرَاقُ من مسلم بريء..!!

يدخل عليه عليّ، متقلِّدًا سيفه للدفاع عنه ويستأذنه في قتالهم.

ويرسل إليه الزبيرُ والأنصارُ في الإذن لهم بالدفاع عنه والقتال دونه.

ويبعث كبارُ الصحابة بأبنائهم ليدافعوا عنه وليَبْقَوْا في داره يَحْمُونَه.

ويأتي أبو هريرة شاهرًا سلاحَه في اهْتِيَاجٍ شديدٍ، ويُحمِّسُ الناسَ للقتال وللدفاع عنه..

فإذا بعثمان يَصيح في الصحابة الذين تجمّعوا حول داره ليواجهوا الثوار بـ السلاح قائلا: "إن أعظمَكم عنّي غناءً، رجلٌ كفّ يدَه وسلاحَه..!! "

فعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ فِي الدَّارِ فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ رَأَى لِي سَمْعًا وَطَاعَةً إِلَّا كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ ، إِنَّ أَفْضَلَكُمْ عَنَّا مَنْ كَفَّ سِلَاحَهُ ، وَيَدَهُ ، قُمْ يَا ابْنَ عُمَرَ فَاحْجِزْ بَيْنَ النَّاسِ " فَقَامَ ابْنُ عُمَرَ ، وَقَامَ مَعَهُ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ ، وَبَنِي تَعِيمٍ ، وَبَنِي مُطِيعٍ فَفَتَحُوا الْبَابَ فَخَرَجَ ، فَدَخَلَ النَّاسُ فَقَتَلُوا عُثْمَانَ

أخرجه سعيد بن منصور وغيره وهو صحيح

وحين يَعلم أن عُصْبَةً من شباب المسلمين على رأسهم الحسنُ والحسينُ وابنُ عمر وعبدُ الله بن الزبير ومروان بن الحكم، ما زالوا عند داره قد أخذوا مكانهم لحِراسته، وشهروا سلاحَهم ـ يتفطّر قلبُه أسى، ويدعوهم ويتوسل إليهم قائلا ": أناشِدُكم الله ، أسألكم به، ألا يُرَاقَ بسببي مِحْجَمُ دمٍ..!!!

فعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ ، فَقَالَ : قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى وَإِنَّا مُخَيِّرُوكَ بَيْنَ خِصَالٍ ثَلَاثٍ ، إِنْ شِئْتَ خَرَقْنَا لَكَ بَابًا فِي الدَّارِ سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَتَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِكَ فَتَلْحَقُ بِمَكَّةَ , فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّوكَ وَأَنْتَ بِهَا ، أَوْ تَلْحَقُ بِالشَّامِ , فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ ، أَوْ تَخْرُجُ بِمَنْ مَعَكَ فَتُقَاتِلُهُمْ فَإِنَّ مَعَكَ عَدَدًا وَقُوَّةً ، وَأَنْتَ عَلَى حَقٍّ ، وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ . فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَمَّا قَوْلُكَ : تَخْرِقُ لَكَ بَابًا سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَأَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِي وَأَلْحَقُ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي وَأَنَا بِهَا ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " يُلْحِدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ " فَلَنْ أَكُونَ إِيَّاهُ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ : الْحَقْ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ

اللطيف الخبير . .

أَهْلُ الشّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةٌ ، فَلَنْ أُفَارِقَ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا ، وَأَمَّا قَوْلُكَ : أَخْرُجُ بِمَنْ مَعِي عَدَدًا وَقُوَّةً وَأَنَا عَلَى حَقٍّ , عَلَى بَاطِلٍ ، فَلَنْ أَكُونَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ دَمِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ " . حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عُمَرَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ - إِنْ شَاءَ اللهُ - قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِمِثْلِهِ سَوَاءٌ ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة

==============

لماذا لم يتنازل عثمان رضي الله عنه عن الخلافة ؟

لم يستسلم عثمان رضي الله عنه ، ولم يتنازل عن الخلافة ،لأنه لا يوجد موجب لعزله أو استسلامه لهؤلاء المجرمين ، والأهم من هذا لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك

فقد روى الترمذي ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " " يَا عُثْمَانُ إِنَّهُ لَعَلَّ اللَّهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ " " . وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ : " " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ

و عن عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ، أَنَّهُ أَرْسَلَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بِكِتَابٍ إِلَى عَائِشَةَ ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ : أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَتْ : إِنِّي عِنْدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَا وَحَفْصَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا " فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَبْعَثُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَجِيءُ فَيُحَدِّثُنَا ؟ قَالَتْ : فَسَكَتَ ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَبْعَثُ إِلَى عُمَرَ فَيَجِيءُ فَيُحَدِّثُنَا ؟ قَالَتْ : فَسَكَتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَعَا رَجُلًا ، فَأَسَرَّ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ دُونَنَا ، فَذَهَبَ ، فَجَاءَ عُثْمَانُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ فَسَمِعْتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : " يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللهَ لَعَلَّهُ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ ثَلَاثًا " قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَيْنَ كُنْتِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ قَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، أُنْسِيتُهُ كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ قَطُّ أخرجه ابن حبان في صحيحه و هو صحيح

لقد آثر الأمة الإسلامية بتنفسه ، بينما غيره من الحكام والأمراء عنده استعداد لإبادة الأمة في سبيل بقائه على سدة الحكم ، المهم هو ليس إلا ، فشتان بين أهل الآخرة ، وبين طلاب الدنيا !!!!

=============

وصية عثمان رضي الله عنه

أحس عثمان ـ رضي الله عنه ـ بقرب أجله، وتيقن مِن تحَقّقِ موعودِ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باستشهاده بين لحظة وأخرى، وهو يَرْقُبُ حضورَ هذا الأجلِ ولا يَرهَبُه؛ لذا أسرع ورمَى من فوق الدار بوصيته إلى أخيه الزبيرِ بن العوام، وكان مكتوبا فيها:

"هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم، عثمانُ بنُ عفانَ يشهد أن لا إله

إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النّارَ حقٌ، وأنّ الله ـَ يَبْعَثُ مَنْ في القبور ليومٍ لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليْها يَحْيَا وعليْها يَموتُ وعليْها يُبْعَثُ إنْ شاء الله تعالى". [78]

---

[78] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 257) وتاريخ دمشق - (ج 39 / ص 401)

وقفات في سيرة عثمان

خالد بن محمد الشارخ

الخطبة الأولى

أيها الأخوة المؤمنون:

خطبتنا هذه الجمعة عن علم من أعلام التاريخ، ومصباحٍ من مصابيح الدجى، بحياتهم تدفع المحن، وبموتهم تتعاقب الإحن وتكثر الفتن، كنظام عقد انقطع سلكه فتتابع.

حديثنا هذه الجمعة عن شخصية فذة من سجلات التاريخ، ومن صناع الحياة وناسجو الأحداث.

حديثنا عن رجل حكم المسلمين بالعدل والإحسان، وسار فيهم سيرة سيد الأنام وطبّق فيهم شريعة سيد ولد عدنان عليه الصلاة والسلام، فقد كان وأرضاه كصاحبيه إحساناً وتقوى، وهدىً وعلماً. حكم ا لأمة الإسلامية اثنا عشرة سنة، كثرت في عهده الفتوحات، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وجمع الله به ما اختلف عليه الناس، فقد جمع القرآن في عهده على حرف واحد ونشر في الأمصار، لكل مصر مصحف، وبالجملة فقد كان عادلا ً رحيماً مطبقاً لشريعة الله في حياته القولية والعملية، فأحبه الناس ورضوا به، ولذلك لما كان يوم موته أرقل يوم شهادته حزن الناس عليه حزناً شديداً، وبكى كبار الصحابة من البدرين وغيرهم، وتأسفوا عليه أسفاً بالغاً. ولعمري لماذا لا يبكون ويتأسفون ويحزنون وهم يفتقدون رجلا ً صالحاً وإماماً عادلا ً، إماماً نشر فيهم العلم والدين، وحكم بهم بشريعة الله، ولم يداهن أعداء الله ولم يحارب في دين الله، فكان صدقاً وعدلا ً من الأشداء على الكفار الرحماء بينهم.

حديثنا أيها الأخوة المؤمنون عن صاحبي جليل القدر والمكانة، ويكفي أن أول ما شرف به هذا الصحابي أنه ولد على يد أبي بكر الصديق ، وكان رابع أربعة دخلوا في الإسلام، إنه أمير البررة وقتيل الفجرة، مخذول من خذله، ومنصور من نصره إنه صاحب الهجرتين، وزوج الابنتين ذو النورين أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وأمها أم حكيم وهي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة. ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار، فكان ثالث الخلفاء الراشدين والأ ئمة المهديين.

إنه عثمان الخير، إنه عثمان الحياء، إنه عثمان الصدق والإيمان، إنه عثمان البذل والتضحية بالنفس و النفيس، إنه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، أبو عمرو وأبو عبد الله القرشي أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الراشدين.

أيها الأخوة المؤمنون: ولماذا سيرة هؤلاء العظماء وأخبار هؤلاء المصلحين؟ لأننا بحاجة ماسة لسيرة مثل هؤلاء الأفذاذ وأخبار هؤلاء العظماء، في زمان لمع فيه من لا خلاق له، ولا دين له.

وأبرز من لا قدر له في الإسلام، وطمست سيرة هؤلاء الأفذاذ وتناساها الناس.

نحن أيها الأخوة بحاجة ماسة لأن نربي أنفسنا وجيلنا على أن ديننا الحنيف وشريعتنا الغراء قد أخرجت لنا قادة دان لها الشرق والغرب، وأنبتت لنا علماء ما زالوا يؤتون أكلهم كل حين بإذن ربهم، وأيضاً ينبغي أن نجعل ميزاننا وميزان من نعلم ميزانا شرعياً، فالمحبوب عندنا من أحبه الله، و المكروه والمبغوض من أبغضه الله، وهذا نعرفه من جهة الظاهر وأما السرائر فإلى الله.

لا أخرج بكم بعيداً عن سيرة هذا الصحابي الجليل الذي أسلم في السنة السادسة عام الفيل وكان أول السابقين إلى الإسلام، فما إن سمع من أبي بكر عرض الدعوة إلا وانطلق لسانه يردد الكلمة التي دان لها العرب والعجم في ذلك الزمن. لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ومن تلك الساعة انطلق عثمان لينصر دين الله في أرضه. وتحت سمائه فأخذ يشارك في غزوات النبي لا ببدنه فحسب بل حتى بماله .

كان عثمان من أجمل الرجال وجهاً، وأحسنهم شكلا ً حتى من جماله كان الناس قبل نزول الحجاب على النساء يحتارون في أيهم أجمل هو أم زوجته رقية بنت رسول الله .

ولذلك يقول راجزهم:

أحس زوج رآه إنسان رقية وزوجها عثمان

قال أسامة: بعثني رسول الله إلى منزل عثمان بصحفة فيها لحم. فدخلت، فإذا رقية رضي الله عنها جالسة، فجعلت مرة انظر إلى وجه رقية، ومرة أنظر إلى وجه عثمان، فلما رجعت سألني رسول الله ، قال لي: دخلت عليهما؟ قلت: نعم، قال: فهل رأيت زوجاً أحسن منهما ؟ قلت لا يا رسول الله.
كان معتدل القامة، كبير اللحية، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس حسن الثغر
قال عبد الله بن حزم المازني قال: رأيت عثمان بن عفان، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه.
أيها الأخوة: لقد جمع الله لعثمان من الفضائل والمكارم ما جعله بحق أن يكون في الدرجة الثالثة في الإسلام بعد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلقد تزوج بنت رسول الله رقية رضي الله عنها فلما توفيت زوجه رسول الله أم كلثوم، فتوفيت أيضاً في صحبته فقال رسول الله : ((لو كان عندنا أخرى لزوجناها عثمان))، قال الحسن البصري إنما سمي عثمان ذا النورين لأنه لا نعلم أحداً أغلق بابه على ابنتي نبيّ غيره.
وعن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع النبي في حائط من حيطان المدينة (أي بساتينها) فجاء رجل فاستفتح (أي استأذن بالدخول) فقال النبي : ((افتح له وبشر بالجنة)) ففتحت له فإذا أبو بكر، فبشرته بما قال النبي فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي : ((افتح له وبشره بالجنة)) ففتحت له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي فحمد الله، ثم استفتح رجل فقال لي: ((افتح له، وبشر بالجنة على بلوى تصيبه))، فإذا عثمان. فأخبرته بما قال رسول الله فحمد الله ثم قال: الله المستعان. [متفق عليه].
ولما صعد رسول الله الجبل جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف (أي الجبل) فقال: ((اسكن أحد فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان)) [رواه مسلم].
ولقد كان عثمان صاحب ثروة عظيمة وجاه في قريش، لكنه لم يسلط هذه الثروة الطائلة في احتقار ا لآخرين والاستعلاء على عباد الله المؤمنين.
لكنه استعمله في مرضاة الله، في الإنفاق في سبيل الله، فقد كان يبذل البذل العظيم لنصرة هذا الدين فقد أخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن خباب قال شهدت النبي وهو يحث على جيش العسرة.
فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض رسول الله على جيش العسرة مرة أخرى، فقال يا رسول الله علي مائتي بعير بإحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض رسول الله على الجيش، فقال عثمان يا رسول الله عليّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فنزل رسول الله وهو يقول: ((ما على عثمان ما عمل بعد اليوم)).
وهو الذي اشترى بئر رومة حيث قال رسول الله: ((من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلا ء المسلمين وله خير منها في الجنة))، قال عثمان فاشتريها من خالص مالي.
أيها الأخوة: ولم يكن عثمان سباقاً في مجالات الجهاد بالمال والنفس فحسب، بل لقد كان عابداً خاشعاً خائفاً من الله لا يمل من قراءة القرآن، فقد روي عنه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج.
وقد كان هذا دأبه . ولذلك قال ابن عمر في قوله تعالى: أمّن هو قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر ا لآخرة.
هو عثمان بن عفان، وقال ابن عباس في قوله تعالى: هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.
وكان يقول هو (عثمان) لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف.
وكان رحيماً بأهله ويخدمه فقد كان إذا استيقظ من الليل لا يوقظ أحداً من أهله ليعينه على الوضوء، إلا أن يجده يقظاناً، وكان يعاتب في ذلك، فيقال: لو أيقظت بعض الخدم؟ فيقول: لا الليل لهم يستريحون فيه. فأين بعض الناس من ظلمهم الخدم وهم وعمالهم يكلفونهم ما لا يطيقون.
وإن أعظم منقبة سجلت لعثمان ولا ينساها التاريخ له أبداً، بل لا ينساها أهل الإسلام أبداً.
لأنه بها اجتمع شمل الأمة وذهب كيد الشيطان عنها.
ألا وهو جمعه الناس على حرف واحد، وكتابة المصحف على العرضة الأخيرة التي درسها جبريل مع رسول الله في آخر سنين حياته. وكان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان أخبره أنه لما كان في بعض الغزوات، رأى الناس يختلفون في قراءاتهم ويجهل بعضهم بعضاً في ذلك بل ويكفر بعضهم بعضاً، فركب حذيفة إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها اختلاف اليهود والنصارى في كيدهم، وذكر له ما شاهد هناك.

وجمع عثمانُ الناسَ لمّا رأى تشديد المتآمرين الحصار عليه، وتيقن من دنُوِّ أجلِه، وعزم على المسلمين أنْ يَنصرفوا فلا يقاتلوا عنه، وعزم له المسلمون على الصبر والامتناع على البغاة بسلطان الله، فقال: اخرُجُوا ـ رَحِمَكُم الله ـ فكُونوا بالباب..

فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد.
وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به.
فوافقه الصحابة، فأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب القرآن، فكتب لأهل الشام مصحفاً، ولأهل مصراً آخر، وإلى البصرة وإلى الكوفة وإلى مكة واليمن، وأقر بالمدينة مصحفاً.
فرضي الله عن عثمان وجمعنا به في جنات النعيم.
اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين.
قلت ما قد سمعتموه واستغفروا الله العظيم لي ولكم.
الخطبة الثانية
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه الطاهرين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.
أيها الأخوة في الله:
إن سيرة هذا العلم مليئة بالأحداث وما زالت فضائله مشهورة بين الناس، وأن أميز صفة تميز بها عثمان ، والتي أصبحت ملازمة لاسم عثمان، فما تذكر عثمان إلا وتذكرها ولا تذكرها إلا ذكرت عثمان، إلا وهي صفة [الحياء].
فقد كان عثمان حيّيا، كأنه العذراء في خدرها من شدة حيائه. فقد كان إذا اغتسل يغتسل جالساً لئلا يكشف شيء منه مع أنه في بيت مغلق عليه.
وتروي لنا عائشة قصة عجيبة يشهد فيها رسول الله أنه الملائكة تستحي من عثمان. فقد قالت رضي الله عنها كان رسول الله مضطجعاً في بيتي، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال. فتحدّث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فيتحدث ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله وسوى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشّ له ولم تباله، (أي لم تغير من حالك شيء) ثم دخل عمر فلم تهتشّ له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: ((ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)) [رواه مسلم].
الله أكبر، لا إله إلا الله عجباً لك يا ابن عفان تستحي منك الملائكة لشدة حيائك وتشد عليك ثيابك حتى لا يظهر شيء منك وتغتسل وحدك فلا تقيم صلبك حياءً من الله أن ترى شيئاً من عورتك وتحدثنا عن نفسك، وتقول: إنك ما مسست فرجك بيمينك منذ بايعت رسول الله ، فكيف لو رأيت زماننا هذا الذي ظهرت فيه النساء لا أقول الرجال بل النساء ظهرن بلباس فاتن وأظهرن مفاتنهن للرجال.
بل أين أنت من رجال لا يتورعون ولا يستحون أن تبدو شيء من عوراتهم ويلبسون القصير ويجولون فيه كل سوق واجتماع دون حياء من أنفسهم أو من الناس، وإلى الله المشتكى، فرضي الله عن عثمان بن عفان، فلقد كان مثلا ً رائعاً للصدق والإيمان والحياء والبذل في سبيل الله.
فلما كان يوم مقتله رأى في المنام رسول الله وأبا بكر وعمر وأنهم قالوا له: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، فلما أصبح شد عليه سراويله خشية أن تبدو عورته إذا هو مات أو قتل وقال لأهله: إني صائم.
ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه وأخذ يقرأ فيه حتى قتل من يومه، وذلك قبيل المغرب بقليل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فكان خبر مقتلة فاجعة على الأمة الإسلامية فبكته النساء وبكاه الصحابة وأكثرهم حزناً عليه علي بن أبي طالب، واغتمت المدينة تلك الليلة وأصبح الناس بين مصدق ومكذب حتى استبانوا الأمر وتيقنوا الخبر، ووجدوا في دمه قد سقط على قوله تعالى في سورة البقرة فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ووجدوا صندوقاً وإذا فيه ورقة مكتوب فيها.
هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور، ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحيا وعليها نموت وعليها يبعث إن شاء الله تعالى.
فرضي الله عنه وأرضاه وجمعنا به في الجنة مع حبيبنا محمد .

عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: لما قضى عثمان في ذلك المجلس حاجاته وعزم وعزم له المسلمون على الصبر والامتناع عليهم بسلطان الله، قال: اخرجوا رحمكم الله فكونوا بالباب، وليجامعكم هؤلاء الذين حبسوا عني. وأرسل إلى طلحة والزبير وعليّ وعدّة: أن ادنوا. فاجتمعوا فأشرف عليهم، فقال: يأيّها الناس؛ اجلسوا، فجلسوا جميعاً؛ المحارب الطارىء، والمسالم المقيم، فقال: يا أهل المدينة؛ إنّي أستودعكم الله، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي؛ وإنّي والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيّ قضاءهه؛ ولأدعنّ هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتّخذونه عليكم دخلا في دين الله أو دنيا حتى يكون الله عزّ وجلّ الصانع في ذلك ما أحبّ. وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا ّ الحسن ومحمداً وابن الزبير وأشباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم؛ وثاب إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار.[79]

=============

استشهاد عثمان رضي الله عنه

في ذات يوم.. وقد ضاقت الدنيا بصموده، امتطتْ روحُه زورقَ الأبَدِيّةِ، مُبْحِرةً إلى ربها الودودِ المجيدِ، فوق دمائه الغالية الزكيّة..!!

ألا بُورك الجسدُ المُثْخَنُ.. وبُوركت روحُه الناجية.

في تلك الأيام سارت المجابهة القاسيةُ مع الثوار المنحرفين حتى بلغت هذا المدَى، ولم يعد هناك بُدٌ من أن يتهيأ مسرح الأحداث لمشهدِ الختام.

ها هم المنحرفون خارجَ الدار وحواليْها من كل جانب، صفوفٌ عريضةٌ مدجّجةٌ بالسلاح، تدفعهم بعُنْفٍ تلك الأنباءُ باقتراب جيوشِ الأمصار من المدينة.. وعلى أبواب الدار جمعٌ كريم من الصحابة، حَفّوا بسلاحهم للدفاع عن الخليفة.

وفي داخل الدار جَمْعٌ آخرُ من أبناء الصحابة وشبابِ المسلمين قريبٌ من الخليفة.

أما الخليفة، فقد طلع عليه صباحُ ذلك اليوم وهو في عالم آخر، لا يكاد يَعْنِيه شيءٌ من كل هذه الدنيا، إذْ تلقّى دعوةً إلى الجَنّة: إنها لرؤيا حقٍّ رأى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوه ليُفطر معه.. فليس أمامه سِوى وقتٍ قصيرٍ لكي يتهيأ لموعِدِ المصطفَى ورحلة الخلود..!!

عَنْ امْرَأَةِ عُثْمَانَ ، قَالَتْ : أُغْفِيَ عُثْمَان ، فَلَمّا اسْتَيْقَظَ ، قَالَ : إنّ الْقَوْمَ يَقْتُلُونَنِي , قُلْت : كَلّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : رَأَيْت رَسُولَ اللّه ِ صلى الله عليه وسلم وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، قَالَ : قَالُوا : أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللّيْلَةَ ، أَوْ قَالُوا : إنّك تُفْطِرُ عِنْدَنَا اللّيْلَةَ.

و عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، أَنّ عُثْمَانَ أَصْبَحَ يُحَدّثُ النّاسَ ، قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللّه ِ صلى الله عليه وسلم اللّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ، فَقَالَ : يَا عُثْمَان أَفْطِرْ عِنْدَنَا , فَأَصْبَحَ

[79] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 492)

وَقُتِلَ مِنْ يَوْمِهِ.أخرجهما ابن أبي شيبة في مصنفه وهو صحيح .
فأصبح عثمان ذلك اليومَ صائمًا.. وترامَى إلى سمعه ضجيجٌ شديد خارجَ الدار، فقد أقبل الصحابة في جمعٍ من أهل المدينة ليدافعوا عنه، وقد اشتبكوا مع المتمردين وراحوا يحاولون إبعادَهم عن دار الخليفة.
فخرج عثمانُ إليهم، ودعا جميعَ الذين في داره، وأمامَها، ممن يحملون السلا ح دفاعا عنه أنْ يُلقُوا سلاحَهم، ويُغادروا الدارَ محمودين، محفوظين بحفظ اللّه. لكنهم أبَوْا جميعا أنْ يتركوا مواقعَهم حوله، بَيْدَ أن أمر الخليفة وإلحاحَه، ظلا يُهيبان بكلّ حاملِ سلاحٍ أن يُلقِيَ سلاحَه.. "إنّ أعظمَكم عني غناءً، رجلٌ كفّ نفسَه وسلاحَه"، "أناشدُكم اللّه ـَ ألا تُهْرِقُوا بسببي دَمًا".
عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: فلمّا بويع الناس جاء السابق فقدم بالسلامة، فأخبرهم من الموسم أنهم يريدون جميعاً المصريين وأشياعهم، وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجّهم؛ فلمّا أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار، أعلقهم الشيطان، وقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا ّ قتل هذا الرجل؛ فيشتغل بذلك الناس عنّا، ولم يبق خصلة يرجون بها النجداة إلا قتله. فراموا الباب؛ فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، واجتلدوا، فناداهم عثمان: الله الله! أنتم في حلّ من نصرتي فأبوا، ففتح الباب، وخرج ومعه الترس والسيف لينهنههم؛ فلما رأوه أدبر المصريون، وركبهم هؤلاء، ونهنههم فتراجعوا وعظم على الفريقين، وأقسم على الصحابة ليدخلنّ، فأبوا أن ينصرفوا، فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين - وقد كان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حجّ، ثم تعجّل في نفر حجّوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتل وشهد المناوشة، ودخل الدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل؛ وقال: ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ّ ندعهم حتى نموت! فاتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نحباً، يصلى وعنده المصحف؛ فإذا أعيا جلس فقرأ فيه - وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة - وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب ؛ فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول جاءوا بنار، فأحرقوا الباب والسقيفة، فتأجّج الباب والسقيفة؛ حتى إذا احترق الخشب خرّت السقيفة على الباب، فثار أهل الدار وعثمان يصلّي؛ حتى منعوهم الدخول؛ وكان أول من برز لهم المغيرة بن الأخنس، وهو يرتجز:

قد علمت جارية عطبول ... ذات وشاح ولها جديل
أنّي بنصل السيف خنشليل ... لأمنعنّ منكم خليلي
بصارم ليس بذي فلول

وخرج الحسن بن عليّ وهو يقول:

لا دينهم ديني ولا أنا منهم ... حتى أسير إلى طمار شمام

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أنا ابن من حامى عليه بأحد ... وردّ أحزاباً على رغم معدّ
وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:
صبرنا غداة الدار والموت واقب ... بأسيافنا دون ابن أروى نضارب
وكنّا غداة الرّوع في الدار نصرة ... نشافههم بالضّرب والموت ثاقب
فكان آخر من خرج عبد اللّه بن الزبير؛ وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصيّة بما أراد، وأمره أن يأتي أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم؛ فخرج عبد اللّه بن الزبير آخرهم؛ فما زال يدّعي بها، ويحدّث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه

و عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: وأحرقوا الباب وعثمان في الصّلاة، وقد افتتح " طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " - وكان سريع القراءة، فما كرثه ما سمع، وما يخطىء وما يتتعتع حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه - ثم عاد فجلس إلى عند المصحف وقرأ: " الذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل " .

وارتجز المغيرة بن الأخنس وهو دون الدار في أصحابه:
قد علمت ذات القرون الميل ... والحلي والأنامل الطّفول
لتصدقنّ بيعتي خليلي .... بصارم ذي رونق مصقول
لا أستقيل إن أقلت قيلي

وأقبل أبو هريرة، والناس محجمون عن الدّار إلّا أولئك العصبة، فدسروا فاستقتلوا، فقام معهم، وقال: أنا إسوتكم؛ وقال هذا يوم طاب امضرب - يعني أنه حلّ القتال، وطاب وهذه لغة حمير - ونادى: يا قوم، مالي أدعوكم إلى النّجاة وتدعونني إلى النّار! وبادر مروان يومئذ ونادى: رجل رجل، فبرز له رجل من بني ليث يدعى النّباع؛ فاختلفا، فضربه مروان أسفل رجليه، وضربه الآخر على أصل العنق فقلبه، فانكبّ مروان، واستلقى، فاجترّ هذا أصحابه، واجترّ الآخر أصحابه؛ فقال المصريون: أما واللّه لولا أن تكونوا حجة علينا في الأمة لقد قتلناكم بعد تحذير، فقال المغيرة: من يبارز؟ فبرز له رجل فاجتلد، وهو يقول:
أضربهم باليابس ... ضرب غلام بائس
من الحياة آيس

فأجابه صاحبه... وقال الناس: قتل المغيرة بن الأخنس، فقال الذي قتله: إنا لله! فقال له عبد الرحمن بن عديس: مالك؟ قال: إني أتيت فيما يرى النائم، فقيل لي: بشّر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار؛ فابتُليت به، وقتل فباث الكنانيّ نيار بن عبد اللّه الأسلميّ، واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملئوها ولا يشعر الذين بالباب، وأقبلت القباس على أبنائهم؛ فذهبوا بهم إذ غلبوا على أميرهم، وندبوا رجلا ً لقتله، فانتدب له رجل، فدخل عليه البيت، فقال: اخلعها وندعك، فقال: ويحك! واللّه ما كشفت امرأة في جاهليّة ولا إسلام، ولا تغنّيت ولا تمنّيت، ولا وضعت يميني على عورتي منذ

بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عزّ وجلّ، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة، ويهين أهل الشقاء.
فخرج وقالوا: ما صنعت؟ فقال: علقنا والله؛ والله ما ينجينا من الناس إلا قتله، وما يحلّ لنا قتله؛ فأدخلوا عليه رجلا ً من بني ليث، فقال: ممن الرجل؟ فقال: ليثيّ؛ فقال: لستَ بصاحبي، قال: وكيف؟ فقال: ألست الذي دعا لك النبيّ صلى الله عليه وسلم في نفر أن تحفظوا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فلن تضيع؛ فرجع وفارق القوم، فأدخلوا عليه رجلا ً من قريش، فقال: يا عثمان؛ إني قاتلك، قال: كلا ّ يا فلان، لا تقتلني، قال: وكيف؟ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا وكذا؛ فلن تقارف دماً حراماً. فاستغفر ورجع، وفارق أصحابه فأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله، وقال: يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم؛ فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم! إنّ سلطانكم اليوم يقوم بالدرّة؛ فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف. ويلكم! إنّ مدينتكم محفوفة بملائكة الله؛ والله لئن قتلتموه لتتركنّها؛ فقالوا: يا بن اليهودية؛ وما أنت وهذا! فرجع عنهم.
قالوا: وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جرم إلا ّ حقّه أخذته منك! فنكل ورجع.
قالوا: فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا انكساره، ثار قتيرة وسودان ابن حمران السّكونيّان والغافقي؛ فضربه الغافقيّ بحديدة معه، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف، فاستقرّ بين يديه؛ وسالت عليه الدماء؛ وجاء سودان بن حمران ليضربه، فانكبّت عليه نائلة ابنة الفرافصة، واتقت السيف بيدها، فتعمّدها، ونفح أصابعها، فأطنّ أصابع يدها وولت؛ فغمز أوراكها، وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله، ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه - وقد كان عثمان أعتق من كفّ منهم - فلمّا رأوا سودان قد ضربه، أهوى له بعضهم فضرب عنقه فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت؛ وأخرجوا من فيه، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى. فلما خرجوا إلى الدار، وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله، ودار القوم فأخذوا ما وجدوا؛ حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجل ملاءة نائلة - و الرجل يدعى كلثوم بن تجيب - فتنحّت نائلة، فقال: ويح أمّك من عجيزة ما أتمّك! وبصر به غلام لعثمان فقتله وقتل، وتنادى القوم: أبصر رجل من صاحبه، وتنادوا في الدار: أدركوا بيت المال لا تسبقوا إليه؛ وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم؛ وليس فيه إلا ّ غرارتان، فقالوا: النّجاء؛ فإن القوم إنّما يحاولون الدنيا، فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه، وماج الناس فيه، فالتّانىء يسترجع ويبكي، والطارىء يفرح. ندم القوم، وكان الزبير قد خرج من المدينة، فأقام على طريق مكة لئلا ّ يشهد مقتله، فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! رحم الله عثمان. وانتصر له؛ وقيل: إنّ القوم نادمون؛ فقال: دبّروا دبّروا، " وحيل بينهم وبين

ما يشتهون... " الآية. وأتى الخبر طلحة، فقال: رحم الله عثمان! وانتصر له وللإسلام؛ وقيل له: إن القوم نادمون، فقال تبّاً لهم! وقرأ: " فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون " . وأتى عليّ فقيل: قتل عثمان، فقال رحم الله عثمان، وخلف علينا بخير! وقيل: ندم القوم، فقرأ: " كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر... " ، الآية. وطلب سعد، فإذا هو في حائطه، وقد قال: لا أشهد قتله، فلما جاءه قتله قال: فررنا إلى المدنية تدنينا؛ وقرأ: " الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً " . اللهمّ أندمهم ثم خذهم.

وعن المغيرة بن شعبة، قال: قلت لعليّ: إنّ هذا الرجل مقتول؛ وإنّه إن قتل وأنت بالمدينة اتخذوا فيك، فاخرج فكن بمكان كذا وكذا؛ فإنك إن فعلت وكنت في غار باليمن طلبك الناس؛ فأبى وحصر عثمان اثنين وعشرين يوماً؛ ثم أحرقوا الباب؛ وفي الدار أناس كثير؛ فيهم عبد الله بن الزّبير ومروان، فقالوا: ائذن لنا؛ فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ عهداً، فأنا صابر عليه؛ وإنّ القوم لم يحرقوا باب الدّار إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه؛ فأحرّج على رجل يستقتل ويقاتل؛ وخرج الناس كلهم؛ ودعا بالمصحف يقرأ فيه والحسن عنده، فقال: إنّ أباك الآن لفي أمر عظيم، فأقسمت عليك لما خرجت! وأمر عثمان أبا كرب - رجلا ً من همدان - وآخر من الأنصار أن يقوما على باب بيت المال؛ وليس فيه إلا غرارتان من ورق؛ فلما أطفئت النار بعد ما ناوشهم ابن الزبير ومروان، وتوعّد محمد بن أبي بكر ابن الزبير ومروان؛ فلما دخل على عثمان هربا. ودخل محمد بن أبي بكر على عثمان؛ فأخذ بلحيته، فقال: أرسل لحيتي؛ فلم يكن أبوك ليتناولها. فأرسلها؛ ودخلوا عليه؛ فمنهم من يجؤه بنعل سيفه، وآخر يلكزه؛ وجاءه رجل بمشاقص معه، فوجأه في ترقوته، فسال الدّم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله؛ وكان كبيراً؛ وغشي عليه. ودخل آخرون فلما رأوه مغشيّاً عليه جرّوا برجله؛ فصاحت نائلة وبناته؛ وجاء التّجيبيّ مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه، فوقته نائلة، فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره. وقتل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس، ونادى مناد: ما يحلّ دمه ويحرج ماله؛ فانتهبوا كلّ شيء، ثم تبادروا بيت المال، فألقى الرّجلان المفاتيح ونجوا، وقالوا: الهرب الهرب! هذا ما طلب القوم.

و عن عبد الرحمن ابن محمد، أنّ محمد بن أبي بكر تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم، ومعه كنانة بن بشر بن عتّاب، وسودان بن حمران، وعمرو بن الحمق؛ فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف في سورة البقرة، فتقدّمهم محمد بن أبي بكر؛ فأخذ بلحية عثمان، فقال: قد أخزاك الله يا نعثل! فقال عثمان: لست بنعثل؛ ولكني عبد الله وأمير المؤمنين. قال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان: يا بن أخي، دع عنك لحيتي؛ فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك؛ وما أريد بك أشدّ من قبضي على

لحيتك؛ قال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به. ثم طعن جبينه بمشقص في يده. ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده، فوجأ بها في أصل أذن عثمان، فمضت حتى دخلت في حلقه، ثمّ علاه بالسيف حتى قتله؛ فقال عبد الرحمن: سمعت أبا عون يقول: ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدّم رأسه بعمود حديد، فخرّ لجبينه، فضربه سودان بن حمران المراديّ بعد ما خرّ لجبينه فقتله.

وعن أبي عون مولى المسور بن مخرمة، قال: مازال المصريّون كافّين عن دمه وعن القتال؛ حتى قدمت أمداد العراق من البصرة ومن الكوفة ومن الشأم؛ فلما جاءوا شجعوا القوم؛ وبلغهم أنّ البعوث قد فصلت من العراق ومن مصر من عند ابن سعد؛ ولم يكن ابن سعد بمصر قبل ذلك؛ كان هارباً قد خرج إلى الشأم، فقالوا: نعاجله قبل أن تقدم الأمداد.

عن يوسف بن عبد الله بن سلام، قال: أشرف عثمان عليهم وهو محصور؛ وقد أحاطوا بالدّار من كلّ ناحية، فقال: أنشدكم بالله جلّ وعزّ؛ هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يخير لكم، وأن يجمعكم على خيركم! فما ظنّكم بالله! أتقولونه: لم يستجب لكم، وهنتم على الله سبحانه، وأنتم يومئذ أهل حقّه من خلقه، وجميع أموركم لم تتفرق! أم تقولون: هان على الله دينه فلم يبال من ولا ّه، والدّين يومئذ يعبد به الله ولم يتفرّق أهله؛ فتوكلوا أو تخذلوا، وتعاقبوا! أم تقولون: لم يدر الله ما عاقبة أمري؛ فكنت في بعض أمري محسناً، ولأهل الدين رضاً، فما أحدثت بعد في أمري ما يسخط الله، وتسخطون مما لم يعلم الله سبحانه يوم اختارني وسربلني سربال كرامته! وأنشدكم بالله، هل تعلمون لي من سابقة خير وسلف خير قدّمه الله لي، وأشهدنيه من حقه! وجهاد عدوّه حقّ على كلّ من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها. فمهلا ً، لا تقتلوني؛ فإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه، أو كفر بعد إسلامه، أو تقل نفساً بغير نفس فيقتل بها؛ فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم؛ ثم لم يرفعه الله عزّ وجلّ عنكم إلى يوم القيامة. ولا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني لم تصلوا من بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً.

قالوا له: أمّا ما ذكرت من استخارةِ الله عزّ وجلّ الناس بعد عمر رضي الله عنه فيمن يولون عليهم، ثم ولوك بعد استخارة الله؛ فإنّ كلّ ما صنع الله الخيرة؛ ولكن الله سبحانه جعل أمرك بليّةً ابتلى بها عباده. وأما ما ذكرت من قدمك وسبقك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنك قد كنت ذا قدمٍ وسلفٍ، وكنت أهلا ً للولاية؛ ولكن بدّلت بعد ذلك، وأحدثت ما قد علمت. وأما ما ذكرت مما يصيبنا إن نحن قتلناك من البلاء؛ فإنه لا ينبغي ترك إقامة الحقّ عليك مخافة الفتنة عاماً قابلا ً. وأما قولك: إنه لا يحلّ إلا ّ قتل ث لاثة؛ فإنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سمّيت؛ قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى ثم قاتل لعى بغيه، وقتل من حال دون

شيء من الحق ومنعه ثم قاتل دونه وكابر عليه؛ وقد بغيت، ومنعت الحقّ، وحلت دونه؛ وكابرت عليه؛ تأبى أن تقيد من نفسك من ظلمت عمداً، وتمسّكت بالإمارة علينا وقد جرت في حكمك وقسمك! فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليه، وأنّ الذين قاموا دونك ومنعوك منّا إنما يقاتلون بغير أمرك؛ فإنما يقاتلون لتمسّكك بالإمارة؛ فلو أنك خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال دونك.[80].

وعن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري ، قال : سمع عثمان ، أن وفد أهل مصر قد أقبلوا ، فاستقبلهم ، فلما سمعوا به ، أقبلوا نحوه إلى المكان الذي هو فيه ، فقالوا له : ادع المصحف ، فدعا بالمصحف ، فقال له : افتح السابعة ، قال : وكانوا يسمون سورة يونس السابعة ، فقرأها حتى أتى على هذه الآ ية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون (1)) قالوا له : قف ، أرأيت ما حميت من الحمى (2) ، آلله أذن لك به أم على الله تفتري ؟ فقال : أمضه ، نزلت في كذا وكذا ، وأما الحمى لإبل الصدقة ، فلما ولدت زادت إبل الصدقة ، فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة ، أمضه ، قالوا : فجعلوا يأخذونه بآية آية ، فيقول : أمضه نزلت في كذا وكذا ، فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : ميثاقك (3) ، قال : فكتبوا عليه شرطا ، فأخذ عليهم أن لا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم ، وقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد أن لا يأخذ أهل المدينة عطاء ، قال : لا إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : فرضوا ، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين ، قال : فقام ، فخطب ، فقال : ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه ، ومن كان له ضرع فليحتلبه ، ألا إنه لا مال لكم عندنا ، إنما هذا المال لمن قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ق ال : فغضب الناس وقالوا : هذا مكر بني أمية ، قال : ثم رجع المصريون ، فبينما هم في الطريق إذا هم براكب يتعرض لهم ، ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ويسبهم ، قالوا : ما لك ، إن لك الأمان ، ما شأنك ؟ قال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله (4) بمصر ، قال : ففتشوه ، فإذا هم ب الكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم ، فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا عليا ، فقالوا : ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا ، وإن الله قد أحل دمه ، قم معنا إليه ، قال : والله لا أقوم معكم ، قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم كتابا قط ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال بعضهم إلى بعض : ألهذا تقاتلون ؟ - أو لهذا تغضبون - فانطلق علي فخرج من المدينة إلى قرية ، وانطلقوا حتى دخلوا على عثمان ، فقالوا : كتبت بكذا وكذا ؟ فقال : إنما هما اثنتان ، أن تقيموا علي رجلين من المسلمين ، أو يميني ب الله الذي لا إله

[80] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 2 / ص 494-498)

إلا الله ما كتبت ولا أمليت ولا علمت ، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم . فقالوا : والله ، أحل الله دمك ، ونقضوا العهد والميثاق (5) فحاصروه . فأشرف عليهم ذات يوم فقال : السلام عليكم ، فما أسمع أحدا من الناس رد عليه السلام ، إلا أن يرد رجل في نفسه ، فقال : أنشدكم الله ، هل علمتم أني اشتريت رومة من مالي ، فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فعلام تمنعوني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ أنشدكم الله هل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أن أحدا من الناس منع أن يصلي فيه قبلي ؟ أنشدكم الله هل سمعتم نبي الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا ؟ أشياء في شأنه عددها . ، قال : ورأيته أشرف عليهم مرة أخرى فوعظهم وذكرهم ، فلم تأخذ منهم الموعظة ، وكان الناس تأخذ منهم الموعظة في أول ما يسمعونها ، فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ منهم فقال لامرأته : افتحي الباب ، ووضع المصحف بين يديه ، وذلك أنه رأى من الليل أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، يقول له : « أفطر عندنا الليلة » فدخل عليه رجل ، فقال : بيني وبينك كتاب الله ، فخرج وتركه ، ثم دخل عليه آخر فقال : بيني وبينك كتاب الله ، والمصحف بين يديه ، قال : فأهوى له بالسيف ، فاتقاه بيده فقطعها ، فلا أدري أقطعها ولم يبنها ، أم أبانها ؟ قال عثمان : أما والله إنها لأول كف خطت المفصل - وفي غير حديث أبي سعيد : فدخل عليه التجيبي فضربه مشقصا (6) ، فنضح الدم على هذه الآية (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (7)) ، قال : وإنها في المصحف ما حكت ، قال : وأخذت بنت الفرافصة - في حديث أبي سعيد - حليها ووضعته في حجرها ، وذلك قبل أن يقتل ، فلما قتل ، تفاجت عليه ، قال بعضهم : قاتلها الله ، ما أعظم عجيزتها ، فعلمت أن أعداء الله لم يريدوا إلا الدنيا أخرجه ابن حبان في صحيحه[81]

وحين رأى دماءَه تتَفَجّر، فَتُضمّخ أوراقَ المصحف، طواه حتى لا تطمِسَ الدماءُ آياتِه، ثم ضمّه ـ وهو يُسْلِمُ الروحَ ـ إلى صدره..

وحين تمَدّدَ جثمانُه الطّهُورُ ساكنا سكونَ الموتِ، كان كتابُ الله ِ لصيقه وصديقه..!!

ومَنْ أولى بذلك منه..؟؟ أليس هو الذي وحّده، وحفِظَه، واقتداه..؟!

كان الاغتيالُ الخاطفُ لحياته قد تم بين العصر والأصيل. وإذن، فأمامَ روحِه وقتٌ كافٍ لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار في الجَنّة، عند الغروب..!!!

فَلْتَعْرُجْ إلى بارئِها.. ولْتَذْهَبْ إلى ضيافتِه في فَرَحٍ عظيمٍ.

---

[81] - برقم(7045) وهو صحيح

(1) سورة : يونس آية رقم : 59 (2) الحِمَى : يقال أحْمَيْت المكان فهو مُحْمًى أي مَحْظُور لا يُقْرَب، وحَمَيْتُه حِماية إذا دَفَعْتَ عنه ومَنَعْتَ منه مَنْ يَقْرُبه (3) الميثاق : العهد (4) العامل : الوالي على بلدٍ ما لجمع خراجها أو زكواتها أو الصلاة بأهلها أو التأمير على جهاد عدوها (5) الميثاق : العهد والذمة و الضمان (6) المشقص : نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض (7) سورة : البقرة آية رقم : 137

وليَبْقَ للأرض جسدُه يُدفَنُ بها، مُثْخَنًا دَمِيًا.. أو سليما مُعافًى.
ذلك أمرٌ لا يعنيه مادامت روحه الطاهرة قد فازتْ بمستقبلها عند الله.
وطاشتْ عقولُ الصحابة، وعَمّ الذهولُ أهلَ المدينةِ، وخَيّمَ الحزنُ عليها،
وضَجّتْ طُرُقاتُها بالنّحيبِ والعَويلِ مِنْ شدّة وَقْعِ الخَبَرِ عليْها.
فَيَا شهيدَ فضائِلِكَ ووفائِكَ، سلامًا ووداعًا.
تَدِمَ البُغاةُ على قَتْلِه، وأنّى لهم؟!! فقد سلط الله عليهم سيوفَ انتقامِه فكان مصيرهم القتل..

==============

الخلاصة في مقتل عثمان رضي الله عنه

لم يكن لقتلة عثمان رضي الله عنهما أية عصبية تجمعهم. بل لم يجمعهم إلا طمع بالدنيا أو كره للحق، و لو أن بعضهم كان ينقم على فضل قريش والأنصار، و يتطلع لنيل شيء من تلك السابقة. فهم غوغاء من الأمصار كما وصفهم الزبير رضي الله عنهما، و هم نزّاع القبائل كما تقول عائشة[1]. و هم حثالة الناس متفقون على الشر كما يصفهم ابن سعد[2]. و هم خوارج مفسدون و ضالون باغون كما ينعتهم ابن تيمية[3].

و كان عددهم ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف من أهل البصرة و الكوفة و مصر. و لم يجمعهم شيء إلا طاعة عبد الله بن سبأ اليهودي المعروف بإبن السوداء لعنه الله. و هو الذي أراد أن يخرب الإسلام كما فعل بولص اليهودي بـ النصرانية. فحرض الناس على عثمان رضي الله عنهما إما بإثارة الشبهات حوله، أو بشهودٍ زور على وِلاته، أو بكتبٍ مزورة و شهاداتٍ زائفة. فتجمّع معه هؤلاء الفُجّار، فذهبو إلى المدينة غِيلةً و هم يزعمون أنهم يريدون الحج ، فلمّا وصلو داهمو المدينة و حاصرو عثمان و طلبو منه أن يعزل نفسه أو يقتلوه. و اغتنمو غيبة كثيرٍ من أهل المدينة في موسم الحج، و غيبتهم في الثغور و الأمصار، و لم يكن في المتبقين من أهل المدينة ما يقابل عدد الخوارج، فخشي عثمان إن قاتلهم أن تكون مجزرةٌ للصحابة بسببه.

فأشار المغيرة بن الأخنس على عثمان بخلع نفسه. فردّ ابن عمر عليه، و نصح عثمان بأن لا يخلع نفسه، و قال له: «فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمّصكه الله، فتكون سُنة: كلما كره قوم خليفتهم أو أميرهم قتلوه»[4]. و بعد أن قطع عليه الفجرة الماء، دخل عليه عبد الله بن سبأ و ضربه فتشجّع القتلة[5]. فأخذ الغافقي حديدة و نزل بها على عثمان رضي الله عنهما فضربه بها و رَكسَ المصحف برجله. فطار المصحف و استدار و رجع في حضن عثمان و سال الدم فنزل عند قوله تعالى:]فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ[[6]، هنا أرادت نائلة زوجة عثمان أن تحميه فرفع سودان السيف يريد أن يضرب عثمان، فوضعت يدها لتحميه فقطع أصابعها فولت صارخة تطلب النجدة، فضربها في مؤخرتها، و ضرب عثمان على كتفه فشقه. ثم نزل عليه بخنجر فضربه تسع ضربات و هو يقول: «ثلاثٌ لله، و ستٌ لما في الصدور». ثم قام قتيرة فوقف عليه بالسيف، ثم اتكأ على السيف فأدخله في صدره. ثم قام

أشقاهم و أخذ يقفز على صدره حتى كسّر أضلاعه. هنا قام غلمان عثمان بـ الدفاع عنه، و استطاعو أن يقتلو كلا ً من سودان و قتيرة، لكن أهل الفتنة قتلو الغلمان جميعاً، و تركو جثثهم داخل الدار[7].
وهناك رواية أصح أخرجها الطبري في تاريخه[8] وابن سعد في طبقاته[9] قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم (بن علية، ثقة ثبت) عن ابن عون (ثقة ثبت) عن الحسن (البصري، ثقة ثبت) قال: أنبأني وثّاب –وكان فيمن أدركه عتق أمير المؤمنين عمر، وكان بين يدي عثمان، ورأيت بحلقه أثر طعنتين كأنهما كبتان طعنهما يومئذ يوم الدار، دار عثمان– قال: بعثني عثمان، فدعوت له الأشتر[10]، فجاء. –قال إبن عون أظنه قال: "فطرحت لأمير المؤمنين وسادة وله وسادة"–. فقال: «يا أشتر، ما يريد الناس مني؟». قال: «ثلاث ليس لك من إحداهن بد». قال: «ما هن؟». قال: «يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختارو له من شئتم، وبين أن تقص من نفسك. فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك». قال: «أما من إحداهن بد؟». قـ ال: «لا، ما من إحداهن بد». قال: «أما أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالا ً سربلنيه الله. والله لأن أقدم فتضرب عنقي، أحب إلي من أن أخلع أمة محمد بعضها على بعض. وأما أن أقص من نفسي، فو الله لقد علمت أن صاحِبيّ بين يديّ[11] قد كانا يُعاقبان. وما يقوم بُدٌّ في القصاص. وأما أن تقتلوني: فو الله لئن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبداً، ولا تصلون بعدي جميعاً أبداً، ولا تقاتلون بعدي عدوّاً جميعاً أبداً». ثم قام فانطلق فمكثنا. فقلنا لعل الناس. فجاء رويجل كأنه ذئب، فاطلع من باب ثم رجع. فجاء محمد بن أبي بكر[12] في ثلاثة عشر رجلا ً حتى انتهى إلى عثمان، فأخذ بلحيته. فقال بها حتى سمع وقع أضراسه. فقال: «ما أغنى معاوية. ما أغنى عنك ابن عامر. ما أغنت كتبك». فقال: «أرسل لي لحيتي يا ابن أخي. أرسل لي لحيتي يا ابن أخي». قال (وثاب): فأنا رأيت استعداء رجل من القوم يعينه[13]، فقام إليه[14] بمشقص حتى وجأ به في رأسه. ثم تغاوو والله عليه حتى قتلوه رحمه الله.
هذه هي الرواية المشهورة، وهناك روايات أخرى تثبت أن عبد الله بن سبأ قد خنق عثمان رضي الله عنهما وظن أنه قد قتله، قبل أن يطعنه باقي القتلة. إذ أن المنافقين كانو مترددين في قتله مهابة منهم له رضوان الله عليه. لكن الشخص الذي زور خطابًا على لسان عثمان رضي الله عنهما إلى عامله على مصر بقتل و صلب وفد مصر، و زوّر خطاباً على لسان علي رضي الله عنهما إلى وفد مصر يأمرهم بالعودة إلى المدينة. إن هذا الشخص الذي مزق الحقد أحشاءه، ما كان ليرضى بضياع ثمرة جهوده –وهي قتل عثمان– بعد أن أصبح بينه و بين هدفه مسافة قريبة. لذا فإن هذا التردد الذي أصاب المنافقين حين دخلو على عثمان رضي الله عنهما، ما كان ليرضي اليهودي ابن السوداء (عبد الله بن سبأ المسمي نفسه جبلة) الذي كان من ضمن الجيش القادم من مصر. فتقدم بنفسه لقتل عثمان رضوان الله

عليه.
أورد ابن حجر من طريق كنانة مولى صفية بنت حيي قال: «قد خرج من الدار أربعة نفر من قريش مضروبين محمولين، كانو يدرؤون عن عثمان». فذكر الحسن بن علي و عبد الله بن الزبير و ابن حاطب و مروان بن الحكم. قلت: «فهل تدمّى (أي تلطخ و تلوث) محمد بن أبي بكر من دمه بشيء؟». قال: «معاذ الله! دخل عليه فقال له عثمان: لست بصاحبي. و كلمه بكلام فخرج و لم يرز (أي لم يُصِب) من دمه بشيء». قلت: «فمن قتله؟». قال: «رجل من أهل مصر يقال له جبلة[15]، فجعل يقول: «أنا قاتل نعثل[16]» (يقصد عثمان). قلت: «فأين عثمان يومئذ؟». قال: «في الدار»[17]. و قال كنانة كذلك: «رأيت قاتل عثمان في الدار رجلا ً أسود من أهل مصر يقال له جبلة، باسط يديه، يقول: أنا قاتل نعثل»[18]. و عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري قال: «دخل عليه رجل من بني سدوس يقال له الموت الأسود، فخنقه. و خنقه قبل أن يضرب بالسيف، فقال: و الله ما رأيت شيئاً ألين من خناقه، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان[19] تردد في جسده»[20].
و اعلم –رعاك الله– أن كلّ من اشترك في حصار عثمان أو حرّض القتلة عليه بغرض قتله أو ظاهرهم و كثّر جمعهم، فإنه مجرم قاتِل، و حكمه أن يُقتل قصاصاً، و رسول الله رضي الله عنه يقول «من شَرَكَ في دمٍ حرامٍ بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله»[21]. فهذا من شارك بنصف كلمة، فما بالك بمن ساهم بالقتل؟
و كذلك قوله رضي الله عنه عن طريق معاوية: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا أَوِ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»[22]، وجاء من طريق أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قوله رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَ أَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُو فِي دَمِ مُؤْمِنٍ، لأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ». لذا فقد كان ابن عباس يرى أنه ليس لقاتل النفس المؤمنة من توبة، كما رواه مسلم «عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ أَلِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا. قَالَ: فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ]وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ[إِلَى آخِرِ الآيَةِ. قَالَ: هَذِهِ آيَةٌ مَكِّيَّةٌ نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ]وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِ وَ لَعَنَهُ و أعدّ لهُ عَذاباً عَظيماً[»[23].
و سئل ابن عباس رضي الله عنهما عمن قتل مؤمناً متعمداً، ثم تاب و آمن و عمل صالحاً ثم اهتدى. فقال ابن عباس: «وَ أَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ؟! سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ رضي الله عنه يَقُولُ: "يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، يَقُولُ: أَيْ رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي". وَ اللَّهِ لَقَدْ أَنْزَلَهَا اللَّه ثم مَا نَسَخَهَا»[24]. وفي الحديث الصحيح: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا، أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[25].

و كان مقتل عثمان رضي الله عنهما في سنة 35 بعد الهجرة، ثم تلتها فتنٌ عظيمة، كما تنبئ بذلك رسول الله رضي الله عنه بقوله: «تدُورُ رَحَى الإِسْلامِ لِخَمْسٍ وَ ثلاثِينَ، أوْ سِتٍّ وَ ثلاثِينَ، أوْ سَبْعٍ وَ ثلاثِينَ»[26]. و قد ثبت يقيناً أن أحداً من الصحابة لم يرض بما حلّ لعثمان رضي الله عنهما، فضلاً أن يكون قد أعان على قتله. فقد ثبت عن الحسن البصري رحمه الله –و هو شاهد عيان كان عمره وقتها أربع عشرة سنة– عندما سُئِل «أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين و الأنصار؟». فقال: «لا! كانو أعلاجاً من أهل مصر»[27]. و كذلك الثابت الصحيح عن قيس بن أبي حازم أن الذين قتلو عثمان ليس فيهم من الصحابة أحد[28]. و لكن عثمان أمرهم بعدم القتال و شدّد عليهم في ذلك.

و سبب منع عثمان رضي الله عنهما الصحابة من قتال أتباع إبن سبأ، فلعمه بأنه مقتول مظلوم، لا شك فيه. لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلمه: «إنك تقتل مظلوماً فاصبر»، فقال: «أصبر». فلما أحاطو به علم أنه مقتول، و أن الذي قاله النبي رضي الله عنه له حق كما قال، لا بد من أن يكون. ثم عَلِم أنه قد وعده من نفسه الصبر، فصبر كما وعد. و كان عنده: أن من طلب الانتصار لنفسه و الذب عنها، فليس هذا بصابر إذ وعد من نفسه الصبر، فهذا وجه.

و وجه آخر: و هو أنه قد علم أن في الصحابة –رضي الله عنهم– قلة عدد، و أن الذين يريدون قتله كثيرٌ عددهم. فلو أذن لهم بالحرب لم يأمن أن يتلف من صحابة نبيه بسببه، فوقاهم بنفسه إشفاقاً منه عليهم. لأنه راعٍ، و الراعي واجب عليه أن يحوط رعيته بكل ما أمكنه. و مع ذلك فقد علم أنه مقتول فصانهم بنفسه، و هذا وجه.

و وجه آخر: هو أنه لما علم أنها فتنة، و أن الفتنة إذا سل فيها السيف لم يؤمن أن يقتل فيها من لا يستحق، فلم يختر لأصحابه أن يسلو في الفتنة السيف، و هذا إنما إشفاقاً منه عليهم هم، فصانهم عن جميع هذا[29]. و هكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم و نحن:

نُرَقِّعُ دُنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى و لا ما نرقِّع

و انتقم الله لعثمان من قتلته شرّ انتقامٍ، و كفاه إياهم، فلم يمت منهم أحد ميتة طبيعية، إنما كلهم ماتو قتلاً. أخرج أحمد بإسناد صحيح عن عَمْرة بنت أرطأة العدوية قالت: «خرجتُ مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة و رأينا المصحف الذي قُتِل و هو في حُجره. فكانت أول قطرة من دمه على هذه الآية{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (137) سورة البقرة[30]. قالت عمرة: فما مات منهم رجل سوياً»[31].

و عن ابن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة فإذا رجل يقول: «اللهم اغفر لي، و ما أظن أن تغفر لي!». قلت: «يا عبد الله. ما سمعت أحداً يقول ما تقول!».

قال: «كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته. فلما قتل و وضع على سريره في البيت، و الناس يجيئون فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه فلطمت وجهه و سجيته و قد يبست يميني». قال محمد بن سيرين: «رأيتها يابسة كأنها عود»[32].

و عن قتادة أن رجلا ً من بني سدوس قال: كنت فيمن قتل عثمان، فما منهم رجل إلا أصابته عقوبة غيري. قال قتادة: «فما مات حتى عَمي»[33].

و قال الحسن البصري (و هو شاهد على ذلك الحادث): «ما علمت أحداً أشرك في دم عثمان رضي الله عنهما و لا أعان عليه، إلا قـُتـِل». و في رواية أخرى: «لم يدع الله الفَسـَقة (قتلة عثمان)، حتى قتلهم بكل أرض»[34].

]أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ؟ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ! [[35]. ليتنا جميعاً نكون كخيري ابني آدم القائل:]لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبّ العَالَمِينَ[[36]. فكن عبد الله المقتول، و لا تكن عبد الله القاتل[37].

---

[1] انظر: الطبري (462-461/4).

[2] في طبقاته (71/3).

[3] في منهاج السنة (297/6).

[4] طبقات ابن سعد (66/3) بإسناد صحيح و رجاله رجال الشيخين، و تاريخ خليفة (ص170) بإسناد حسن.

[5] قال الذهبي في تاريخ الإسلام (ص481) أنه قتل و هو ابن اثنتين و ثمانين سنة. و هو الصحيح.

[6] (البقرة:138).

[7] إنظر هذا الخبر في تاريخ الطبري (412/4).

[8] (664\2).

[9] (72\3).

[10] من زعماء المجرمين القتلة.

[11] يقصد أبا بكر وعمر.

[12] ولا بد من التنبيه هنا إلى أن محمد بن أبي بكر لا تثبت له صحبة، إذ أن رسول الله رضي الله عنه قد توفي وهذا طفل رضيع. ومعلومٌ أن الصحبة تثبت بالرؤية لكن بشرط الإدراك، وهو لا يكون قبل خمس سنين. ثم توفي أبو بكر وكان ابنه محمد طفلا ً، فلم ينشأ في بيت أبيه.

[13] وأظن هذا الرجل هو ابن سبأ اليهودي كما سنرى. وتأمل كيف أنه رجل غريب عن المدينة لا يكاد يعرفه أحد.

[14] ابن سبأ هو الذي طعن.

[15] جبلة: الغليظ. (ابن منظور: لسان العرب 98/11).

[16] نعثل: رجل من أهل مصر كان طويل اللحية، قيل: إنه كان يشبه عثمان، و شاتمو عثمان رضي الله عنهما يسمونه نعثلا ً تشبيهاً بذلك الرجل المصري. (ابن منظور: لسان العرب 670/11).
[17] المطالب العالية لابن حجر (293-292/4) و عزاه لابن إسحاق، و الا ستيعاب لابن عبد البر (1045-1044/3) و (1367/3). و إسناده حسن.
[18] ابن سعد: الطبقات 83،84/3. و رجال إسناده ثقات.
[19] الجان: نوع من الحيات، خفيف الحركة، دقيق الشكل. (ابن منظور: لسان العرب 97/13).
[20] خليفة بن خياط: التاريخ 174. و رجال إسناده ثقات.
[21] رواه الطبراني في الكبير (79/11) عن طريق ابن عباس، ورواه غيره عن طريق أبي هريرة بلفظ (من أعان على قتل مؤمن..) وقد رواه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى (22/8) وأبو يعلى في مسنده (306/10)، وابن ماجه في سننه (874/2). و قد حكم الألباني عليه عن أبي هريرة بـ الضعف. ضعيف إبن ماجة (ص 209) رقم (571).
[22] الحديث أخرجه أبو داود و النسائي و أحمد و الحاكم و صححه و لم يتعقبه الذهبي و صححه السيوطي أيضاً. و صحّحه الألباني في كتاب "غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام" (ص 254) برقم (441).
[23] أخرج البخاري و مسلم في صحيحيهما الكثير من الآثار في هذا المعنى، فانظره.
[24] رواه النسائي، و عند ابن ماجة «و أنى له الهدى» مكان «التوبة».
[25] رواه الترمذي و النسائي و ابن ماجة. و صحّحه الألباني في صحيح بن ماجة (2\92) برقم (2121)، و كذلك في غاية المرام (ص253) برقم (439)، و التعليق الرغيب (3\202).
[26] أخرجه أبو داود و أحمد، و صحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (2\667) برقم (976)، و كذلك في صحيح أبي داود (3\801) برقم (3578). ومدار الحديث على البراء بن ناجية، فانظر الخلاف فيه في ترجمته.
[27] تاريخ خليفة (ص 176) بسند صحيح. وهذا لا ينقض أن منهم محمد بن أبي بكر كما زعم بعض من شغب علينا. فإن هذا الأخير ليس من المهاجرين ولا من الأنصار ولا حتى من الصحابة أصلا ً. وكان الحسن البصري لا يسميه إلا الفاسق، كما روى ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح. بل روى الخلال بإسناده، عن ربيع بن مسلم، قال: سمعت الحسن بن أبي الحسن يقول: العنوا قتلة عثمان، فيقال له: قتله محمد بن أبي بكر، فيقول: «العنوا قتلة عثمان، قتله من قتله».
[28] أخرجه ابن عساكر في تاريخه، ترجمة عثمان (ص408).
[29] إنظر كلام الإمام الآجري في كتاب الشريعة (1983-1981/4) عن موقف الصحابة في المدينة من حصار المنافقين لعثمان رضي الله عنهما. و

كذلك ما قاله ابن كثير في البداية والنهاية (7/197-198).
[30] (البقرة:138).
[31] انظر: فضائل الصحابة (1/501) بإسناد صحيح. و أخرجه أيضاً في الزهد (ص127-128).
[32] تاريخ دمشق لابن عساكر (39/446-447).
[33] أنساب الأشراف للبلاذري (5/102).
[34] تاريخ المدينة المنورة لابن شبّة (4/1252).
[35] (الزمر:36).
[36] (المائدة:28).
[37] أصل هذا القول حديث ضعيف في مسند أحمد (5\110)، و لكنه صحيح في حالة الفتنة لشواهد كثيرة.

****

الخلاصة في قتله كما يرويها ابن كثير رحمه الله

قد ذكر ابن جرير في (تاريخه) بأسانيده: أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر فيه الأمر بقتل بعضهم، وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم.

وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولا ً قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: 33].

وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان، ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزور على خطه وخاتمه، ويبعث غلامه على بعير بعد ما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر، بخلاف ذلك كله.[82]

---

[82] - قلت :
لا توجد رواية واحدة صحيحة تدل على أن مروان قد كتب هذا الكتاب المزعوم
بل الذي نقطع به أنه من صنع قتلة عثمان ، دبروه قبل رحيلهم من المدينة المنورة ، وإلا كيف عرف أهل الكوفة وأهل البصرة بشأن الكتاب وقد ساروا ثلاثة أيام باتجاه مخالف لاتجاه المصريين
وقال لهم عليّ رضي الله عنه: كيف علمتم يا مأهل الكوفة ويا أهل البصرة بما ملقي أهل مصر؛ وقد سرتم مراحل؛ ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة! نقالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرّجل، ليعتزلنا
وقال العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله :
الأخبار التي جاء فيها أن الراكب غلام عثمان ، وأن الجمل جمل الصدقة ، وأن عثمان اعترف بذلك ، كلها أخبار مرسلة لا يعرف قائلها . أو مكذوبة أذاعها رواة مطعون في صدقهم وأمانتهم . ومضمون الكتاب اضطربت الروايات فيه ، ففي بعض الروايات : «إذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة واحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمري . وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك ، وعروة بن التباع الليثي مثل ذلك» . وفي رواية : «إذا أتاك محمد بن أبي بكر الصديق ـ وفلان وفلان ـ فاقتلهم وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيي» . وفي رواية ثالثة أن مضمون الكتاب أمر عامله بالقتل والقطع والصلب على هؤلاء الثوار . وهذا الاختلاف

ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب على خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان أعظموا ذلك، مع ما هم مشتملون عليه من الشر، فرجعوا إلى المدينة فطافوا به على رؤس الصحابة، وأعانهم على ذلك قوم آخرون، حتى ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر عثمان رضي الله عنه.

فلما قيل لعثمان رضي الله عنه في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين، حلف بالله العظيم، وهو الصادق البار الراشد أنه لم يكتب هذا الكتاب، ولا أملاه على من كتبه، ولا علم به.

فقالوا له: فإن عليه خاتمك؟

فقال: إن الرجل قد يزور على خطه وخاتمه.

قالوا: فإنه مع غلامك وعلى جملك؟

فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك.

في مضمون كتاب واحد مما يزيد الريبة في أمره .

(4) وأعجب العجب أن قوافل الثوار العراقيين التي كانت متباعدة في الشرق عن قوافل الثوار المصريين في الغرب عادتا معًا إلى المدينة في آن واحد ، أي أن قوافل العراقيين التي كانت بعيدة مراحل متعددة عن قوافل المصريين ولا علم لها بالرواية المسرحية التي مثلت في البويب رجعت إلى المدينة من الشرق وقت رجوع المصريين من الغرب ووصلتا إلى المدينة معًا كأنما كانوا على ميعاد! ومعنى هذا أن اللذين استأجروا الراكب ليمثل دور حامل الكتاب أمام قوافل المصريين استأجروا راكبًا آخر خرج من المدينة معه قاصدًا قوافل العراقيين ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتابًا بعث به عثمان إلى عبد الله بن سعد في مصر بقتل محمد بن أبي بكر . قال الطبري (5 : 105) : فقال لهم علي : ((كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة!)) (يشير كرم الله وجهه إلى تخلف الأشتر وحكيم في المدينة ، وأنهما هما اللذان دبرا هذه المسرحية . قال الثوار العراقيون بلسان رؤسائهم : ((فضعوه على ما شئتم . لا حاجة لنا إلى هذا الرجل . ليعتزلنا)) وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان وسفك دمه الذي عصمه الله بشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا الحوار بين علي والثوار مجمع عليه في كل الروايات وهو نص قاطع على أن اليد التي زورت الكتاب على عثمان وبعثت إلى العراقيين تخبرهم بذلك وتطلب منهم أن يعودوا إلى المدينة ، هي اليد التي زورت على علي كتابًا إلى الثوار العراقيين بأن يعودوا . وقد قلنا في ص 125 أن الثوار فريقان - خادع ومخدوع - فالذين نظر بعضهم إلى بعض عندما حلف علي بأنه لم يكتب إليهم هم من الفريق المخدوع يتعجب كيف لم يكتب علي إليهم وقد جاءهم كتابه . ومن ذا الذي يكون قد كتب الكتاب على لسانه إذا لم يكن هو الذي كتبه؟ وسيأتي في ص 136 أن مسروق بن الأجدع الهمداني - وهو من الأئمة الأعلام المقتدى بهم - عاتب أم المؤمنين عائشة بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان ، فأقسمت له بالذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون أنها ما كتبت إليهم سوادًا في بياض . قال سليمان بن مهران الأعمش - أحد الأئمة الأعلام الحفاظ - : ((فكانوا يرون أنه كتب على لسانها)) . أيها المسلمون في هذا العصر وفي كل عصر ، إن الأيدي المجرمة التي زورت الرسائل الكاذبة على لسان عائشة وعلي وطلحة والزبير هي التي رتبت هذا الفساد كله ، وهي التي طبخت الفتنة من أولها إلى آخرها ، وهي التي زورت الرسالة المزعومة على لسان أمير المؤمنين عثمان إلى عامله في مصر في الوقت الذي كان يعلم فيه أنه لم يكن له عامل في مصر ، وقد زورت هذه الرسالة على لسان عثمان بالقلم الذي زورت به رسالة أخرى على لسان علي ، كل ذلك ليرتد الثوار إلى المدينة بعد أن اقتنعوا بسلامة موقف خليفتهم ، وأن ما كان قد أشيع عنه كذب كله ، وأنه كان يتصرف في كل أمر بما كان يراه حقًا وخيرًا . ولم يكن صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر منه بالشهادة والجنة هو المجني عليه وحده بهذه المؤامرة السيئة الفاجرة ، بل الإسلام نفسه كان مجنيًا عليه قبل ذلك . و الأجيال الإسلامية التي تلقت تاريخ ماضيها الطاهر الناصع مشوهًا ومحرفًا هي كذلك ممن جنى عليهم ذلك اليهودي الخبيث ، والمنقادون له بخطام الأهواء والشهوات .

فقالوا له - بعد كل مقالة -: إن كنت قد كتبته فقد خنت، وإن لم تكن قد كتبته بل كتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلا فة، إما لخيانتك، وإما لعجزك.
وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير، فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام، وأما إذا لم يكن قد علم به فأي عجز ينسب إليه إذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه؟
وليس هو بمعصوم، بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه، وإنما هؤ لاء الجهلة البغاة متعنتون خونة، ظلمة مفترون، ولهذا صمموا بعد هذا على حصره والتضييق عليه، حتى منعوه الميرة والماء، والخروج إلى المسجد، وتهددوه بالقتل. (ج/ص: 7/ 209)
ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه، ومن وقفه بئر رومة على المسلمين، وهو أول من منع ماءها، ومن أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)).
وذكر أنه لم يقتل نفساً، ولا ارتد بعد إيمانه، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام، بل ولا مس فرجه بيمينه بعد أن بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي رواية: بعد أن كتب بها المفصل.
ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه والرجوع إلى الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منهم، فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان، ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده، حتى اشتد عليه الحال، وضاق المجال، ونفذ ما عنده من الماء.
فاستغاث بالمسلمين في ذلك فركب علي بنفسه وحمل معه قرباً من الماء، فبالجهد حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهله أولئك كلام غليظ، وتنفير لدابته، وإخراق عظيم بليغ؛ وكان قد زجرهم أتم الزجر حتى قال لهم فيما ق ال: والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا بهذا الرجل، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار، وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها، فقالوا: ما جاء بك ؟.
فقالت: إن عنده وصايا بني أمية لأيتام وأرامل، فأحببت أن أذكره بها، فكذبوها في ذلك، ونالها منهم شدة عظيمة، وقطعوا حزام البغلة وندّت بها وكادت أو سقطت عنها، وكادت تقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها، ووقع أمر كبير جداً.
ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلا ً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.
ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً، ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج

فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك.
فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج.
واستخلف عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس.
فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أحاجف عنك أفضل من الحج، فعزم عليه فخرج بالناس إلى الحج، واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق، ورجع اليسير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين. (ج/ص: 7/ 210)
وبلغتهم أيضاً: أن معاوية قد بعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد نفذ آخر مع معاوية بن خديج، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعاً في جيش.
فعند ذلك صمموا على أمرهم وبالغوا فيه وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج، وأحاطوا بالدار، وجدوا في الحصار، وأحرقوا الباب، وتسوروا من الدار المتاخمة للدار كدار عمرو بن حزم وغيرها، وحاجف الناس عن عثمان أشد المحاجفة، واقتتلوا على الباب قتالا ً شديداً، وتبارزوا وتراجزوا بالشعر في مبارزتهم.
وجعل أبو هريرة يقول: هذا يوم طاب في الضراب فيه.
وقتل طائفة من أهل الدار، وآخرين من أولئك الفجار، وجرح عبد الله بن الزبير جراحات كثيرة، وكذلك جرح الحسن بن علي، ومروان بن الحكم فقطع إحدى علباويه، فعاش أوقص حتى مات.
ومن أعيان من قتل من أصحاب عثمان: زياد بن نعيم الفهري، والمغيرة بن ا لأخنس بن شريق، ونيار بن عبد الله الأسلمي، في أناس وقت المعركة.
ويقال: إنه انهزم أصحاب عثمان ثم رجعوا.
ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم، فانصرفوا كما تقدم، فلم يبق عنده أحد سوى أهله، فدخلوا عليه من الباب، ومن الجدران، وفزع عثمان إلى الصلاة، وافتتح سورة طه - وكان سريع القراءة - فقرأها و الناس في غلبة عظيمة، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال، ثم فرغ عثمان من صلاته، وجلس وبين يديه المصحف وجعل يتلو هذه الآية: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].
فكان أول من دخل عليه رجل يقال له: الموت الأسود، فخنقه خنقاً شديداً حتى غشي عليه، وجعلت نفسه تتردد في حلقه فتركه، وهو يظن أنه قد

قتله، ودخل ابن أبي بكر فمسك بلحيته ثم ند وخرج، ثم دخل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها، فقيل: إنه أبانها.
وقيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثمان قال: والله إنها أول يد كتبت المفصل، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 137].
ثم جاء آخر شاهراً سيفه، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها، ثم إنه تقدم إليه فوضع السيف في بطنه فتحامل عليه، رضي الله عن عثمان.
وفي رواية: أن الغافقي بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في فيه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله، فاستدار المصحف، ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه، وسالت عليه الدماء.
ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فما نعته نائلة فقطع أصابعها فولت، فضرب عجيزتها بيده، وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له: قترة فقتله.
وذكر ابن جرير: أنهم أرادوا حز رأسه بعد قتله، فصاح النساء، وضربن وجوههن، فيهن امرأتاه: نائلة وأم البنين، وبناته.
فقال ابن عديس: اتركوه، فتركوه.
(ج/ص: 7/ 211)
ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه، وذلك أنه نادى مناد منهم: أيحل لنا دمه، ولا يحل لنا ماله، فانتهبوه، ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه.
فلما خرجوا إلى صحن الدار، وثب غلام لعثمان على قترة فقتله، وجعلوا لا يمرون على شيء إلا أخذوه حتى استلب رجل يقال له: كلثوم التجيبي، ملا ءة نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتل الغلام أيضاً.
ثم تنادى القوم أن أدركوا بيت المال لا تستبقوا إليه، فسمعهم حفظه بيت المال فقالوا:
يا قوم النجا النجا، فإن هؤلاء القوم لم يصدقوا فيما قالوا من أن قصدهم قيام الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما ادعوا أنهم إنما قاموا لأجله، وكذبوا إنما قصدهم الدنيا، فانهزموا، وجاء الخوارج فأخذوا مال بيت المال، وكان فيه شيء كثير جداً.
فصل مقتل عثمان رضي الله عنه.
ولما وقع هذا الأمر العظيم، الفظيع الشنيع، أسقط في أيدي الناس فأعظموه جداً، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا، وأشبهوا تقدمهم ممن قصّ الله علينا خبرهم في كتابة العزيز من الذين عبدوا العجل.
في قوله تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 147].

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان - وكان قد خرج من المدينة - قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا.
فقال: تباً لهم، ثم تلا قوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} [يس: 49-50].
وبلغ علياً قتله فترحم عليه. وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: 16].
ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} [الكهف: 103] ثم قال سعد: اللهم اندمهم ثم خذهم.
وقد أقسم بعض السلف بالله: أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً. رواه ابن جرير.
وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه منها: دعوة سعد المستجابة، كما ثبت في الحديث الصحيح، وقال بعضهم: ما مات أحد منهم حتى جن.
===============

من قتل عثمان رضي الله عنه ؟

بعضُ الناس مرضَى النفوس يَفتحون أبواب الفتن على الخَلق، ويموتون وتبقى الفتنُ يَصْلَى عبادُ الله لهيبَها المُحرق؛ وقد تجِدُ هؤلاء المرضَى يُطوّحون بسيوف التخويف في وجوه المسالمين في المواقف الحرجة، ظانّينَ أنّ ما يفعلونه بطولةٌ لا نظير لها، مع أنهم بذلك يفتحون أبوابا من الجحيم على أنفسهم وعلى الخلق، ويبوءون بإثمهم وآثام الخلق، مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ الأشقى الذي حَمَلَ على ناقة النبي الكريم صالح ـ عليه السلام ـ حتى قتلها، فأهلكه الله هو ومَنْ كفر معه[83].

---

[83] - قال تعالى في سورة الشمس: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15) }
لقدكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب . وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها . وهو الذي عقر الناقة . وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوماً ولهم يوماً كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنه شيئاً فكذبوا النذير فعقروا الناقة .
والذي عقرها هو هذا الأشقى . ولكنهم جميعاً حملوا التبعة وعُدوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا . لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر .
عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى : { فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها } . .
والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل . واللفظ ذاته . . { دمدم } يوحي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد . .

وقد نال المكانة البارزة في دنيا الأشقياء هؤلاء الذين امتدّتْ أيديهم إلى الخليفة الراشد عثمانَ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فقتلوه؛ إذْ أضاعوا على الأمة خيرا كثيرا كانت تجْنِيهِ في ظلال الخلافة الراشدة، وأوقعوا الشر في صفوفها بسبب هذا الدم الحرام الذي سفكوه..

لقد دخلوا عليه الدار جماعةً، وتمالئوا عليه؛ فمِنْهم مَنْ يضربه بنَصْل سيفِه، ومنهم مَنْ يلكزُه، وجاءه رجلٌ بمشاقِص (نصل عريض، أو سهم يُرمى به الوحش عند الصيد)، فضربه في ترْقوَتِه، فسالَ الدّمُ على المصحف، وهُمْ في ذلك يهابون قتْله. وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ شيخا كبيرًا، فغُشِيَ عليه.

ودخل آخرون، فلما رأوه مَغْشِيًّا عليه جَرُّوا بِرِجْلِه، فصاحتْ زوجته نائلةُ، وبناتُه، وجاء كِنانةُ بنُ بِشْرٍ التُّجيبيُّ[84] مخترطا سيفَه ليضعَه في بطنه، ففادته نائلةُ، فقطعَ يدَها، واتكأ بالسيف على صدر الخليفة الشهيد.

عن ابن عون: أن كنانة بن بشر ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد، فخر لجنبيه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خر لجنبه فقتله، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره، وبه رمق، فطعنه تسع طعنات، وقال: أما ثلاث منهن فلله، وست لما كان في صدري عليه. أخرجه ابن عساكر

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَتَلَ نَفَرًا خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، قَتَلُوهُ قَتْلَ غِيلَةٍ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : لَوْ تَمَالأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءُ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا أخرجه البخاري مختصرا والبغوي بطوله[85]

{ ولا يخاف عقباها } . . سبحانه وتعالى . . ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنى يخاف؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه . فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس . .
وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة ، ومشاهدة الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين والطغاة ، في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً ، ولكل حادث موعداً ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً . . الظلال

[84] - هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي قائد إحدى الفرق المصرية الأربع وكان قبل ذلك أحد الذين التفوا بعمار بن ياسر في الفسطاط ليجعلوه سبئيًا ، وهو أول داخل إلى دار عثمان بالشعلة من النفط ليحرق باب الدار ، وهو الذي اخترط السيف ليضعه في بطن أمير المؤمنين ، فوقته زوجته نائلة فقطع يدها واتكأ بالسيف عليه في صدره ، وكانت عاقبة التجيبي القتل مخذولًا في المعركة التي نشبت في مصر بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص سنة 38 .

[85] - وفي فتح الباري لابن حجر - (ج 19 / ص 346)
قَوْله (بَاب إِذَا أَصَابَ قَوْم مِنْ رَجُل هَلْ يُعَاقَب ؟) كَذَا لِلْأَكْثَرِ ، وَفِي رِوَايَة " يُعَاقَبُونَ " بِصِيغَةِ الْجَمْع ، وَفِي أُخْرَى بِحَذْفِ النُّون وَهِيَ لُغَة ضَعِيفَة . وَقَوْله " أَوْ يُقْتَصّ مِنْهُمْ كُلّهمْ " أَيْ إِذَا قَتَلَ أَوْ جَرَحَ جَمَاعَةٌ شَخْصًا وَاحِدًا هَلْ يَجِب الْقِصَاص عَلَى الْجَمِيع أَوْ يَتَعَيَّن وَاحِدًا لِيُقْتَصّ مِنْهُ وَيُؤْخَذ مِنْ الْبَاقِينَ الدِّيَة ، فَالْمُرَاد بِالْمُعَاقَبَةِ هُنَا الْمُكَافَأَة ، وَكَأَنَّ الْمُصَنِّف أَشَارَ إِلَى قَوْل اِبْن سِيرِينَ فِيمَنْ قَتَلَهُ اِثْنَانِ يُقْتَل أَحَدُهُمَا وَيُؤْخَذ مِنْ الْآخَر الدِّيَةُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ وُزِّعَتْ عَلَيْهِمْ بَقِيَّة الدِّيَة كَمَا لَوْ قَتَلَهُ عَشَرَة فَقُتِلَ وَاحِد أُخِذَ مِنْ التِّسْعَة تُسْع الدِّيَة ، وَعَنْ الشَّعْبِيّ يَقْتُل الْوَلِيّ مَنْ شَاءَ مِنْهُمَا أَوْ مِنْهُمْ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ وَاحِد وَيَعْفُو عَمَّنْ بَقِيَ ، وَعَنْ بَعْض السَّلَف يَسْقُط الْقَوَد وَيَتَعَيَّن الدِّيَة حُكِيَ عَنْ رَبِيعَة وَأَهْل الظَّاهِر ، وَقَالَ اِبْن بَطَّال : جَاءَ عَنْ مُعَاوِيَة وَابْن الزُّبَيْر وَالزُّهْرِيّ مِثْل قَوْل اِبْن سِيرِينَ وَحُجَّة الْجُمْهُور أَنَّ النَّفْس لَا تَتَبَعَّض فَلَا يَكُون زُهُوقهَا بِفِعْلِ بَعْض دُون بَعْض وَكَانَ كُلّ مِنْهُمْ قَاتِلًا ، وَمِثْله لَوْ اِشْتَرَكُوا فِي رَفْع حَجَر عَلَى رَجُل فَقَتَلَهُ كَانَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ رَفَعَ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ اِشْتَرَكُوا فِي أَكْل رَغِيف فَإِنَّ الرَّغِيف يَتَبَعَّض حِسًّا

=================

الرد على الرافضة في طعنهم بعثمان رضي الله عنه

قال الرافضي : ((وأما عثمان فإنه ولّى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية ، حتى ظهر من بعضهم الفسوق، ومن بعضهم الخيانة، وقسّم الولايات بين أقاربه، وعُوتب على ذلك مرارا فلم يرجع، واستعمل الوليد بن عقبة، حتى ظهر منه شرب الخمر، وصلّى بالناس وهو سكران، واستعمل سعيد بن العاص على الكوفة، وظهر منه ما أدّى إلى أن أخرجه أهل الكوفة منها. وولّى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر حتى تظلم منه أهلها، وكاتبه أن

وَمَعْنًى

وفي المنتقى - شرح الموطأ - (ج 4 / ص 241)

1368 - (ش) : قَوْلُهُ إنَّ عُمَرَ قَتَلَ جَمَاعَةً بِرَجُلٍ قَتَلُوهُ قَتْلَ غِيلَةٍ فِيهِ بَابَانِ أَحَدُهُمَا فِي قَتْلِ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ وَالثَّانِي فِي مَعْنَى الْغِيلَةِ .

(الْبَابُ الْأَوَّلُ فِي قَتْلِ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ) فَأَمَّا قَتْلُ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ يَجْتَمِعُونَ فِي قَتْلِهِ فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ بِهِ ، وَعَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ ، وَبِهِ قَالَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَغَيْرُهُمْ ، وَعَلَيْهِ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ إلَّا مَا يُرْوَى عَنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا يَقُولُهُ خَبَرُ عُمَرَ هَذَا ، وَصَارَتْ قَضِيَّتُهُ بِذَلِكَ ، وَلَمْ يُعْلَمْ لَهُ مُخَالِفٌ فَثَبَتَ أَنَّهُ إجْمَاعٌ ، وَدَلِيلُنَا مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ أَنَّ هَذَا حَدٌّ وَجَبَ لِلْوَاحِدِ عَلَى الْوَاحِدِ فَوَجَبَ لِلْوَاحِدِ عَلَى الْجَمَاعَةِ كَحَدِّ الْقَذْفِ .

(مَسْأَلَةٌ) قَالَ مَالِكٌ فِي الْمَوَّازِيَّةِ وَالْمَجْمُوعَةِ يُقْتَلُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ بِالرَّجُلِ الْحُرِّ ، وَالنِّسَاءُ بِالْمَرْأَةِ وَالْإِمَاءُ وَالْعَبِيدُ كَذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَإِنْ اجْتَمَعَ نَفَرٌ عَلَى قَتْلِ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ قُتِلُوا بِهِ .

(فَرْعٌ) وَهَذَا إذَا اجْتَمَعَ النَّفَرُ عَلَى ضَرْبِهِ يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يَمُوتَ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ فَقَدْ قَالَ مَالِكٌ يُقْتَلُونَ بِهِ ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ فِي النَّفَرِ يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَرْبِ رَجُلٍ ، ثُمَّ يَنْكَشِفُونَ عَنْهُ ، وَقَدْ مَاتَ فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ بِهِ ، وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ ، وَعَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ عَنْ مَالِكٍ إنْ ضَرَبَهُ هَذَا بِسِلَاحٍ ، وَهَذَا بِعَصًا ، وَتَمَادَوْا عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَ قُتِلُوا بِهِ إلَّا أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ ضَرْبَ بَعْضِهِمْ قَتَلَهُ .

(مَسْأَلَةٌ) وَإِذَا اشْتَرَكَ فِي قَتْلِ عَبْدِهِمْ حُرٌّ وَعَبْدٌ فَفِي الْمَوَّازِيَّةِ ، وَالْمَجْمُوعَةِ عَنْ مَالِكٍ يُقْتَلُ الْعَبْدُ ، وَعَلَى الْحُرِّ نِصْفُ قِيمَتِهِ ، وَإِذَا قَتَلَهُ صَغِيرٌ وَكَبِيرٌ قُتِلَ الْكَبِيرُ وَعَلَى عَاقِلَةِ الصَّغِيرِ نِصْفُ الدِّيَةِ ، وَرَوَى ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّ ابْنَ الْقَاسِمِ اخْتَلَفَ فِيهَا قَوْلُهُ فَمَرَّةً قَالَ هَذَا ، وَمَرَّةً قَالَ إنْ كَانَتْ ضَرْبَةُ الصَّغِيرِ عَمْدًا قُتِلَ الْكَبِيرُ ، وَإِنْ كَانَتْ خَطَأً لَمْ يُقْتَلْ ، وَعَلَيْهِمَا الدِّيَةُ قَالَ أَشْهَبُ فِي الْمَوَّازِيَّةِ يُقْتَلُ الْكَبِيرُ قَالَ ابْنُ الْمَوَّازِ ، وَهُوَ أَحَبُّ إلَيَّ قَالَهُ أَشْهَبُ ، وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ عَمْدِ الصَّبِيِّ وَخَطَئِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَحُجَّتُهُ أَنَّهُ لَا يَدْرِي مِنْ أَيِّهِمَا مَاتَ ، وَكَذَلِكَ فِي عَمْدِ الصَّبِيِّ لَا يَدْرِي مِنْ أَيِّهِمَا مَاتَ ، وَهُوَ يَرَى عَمْدَهُ كَالْخَطَإِ .

(فَرْعٌ) فَإِذَا قُلْنَا بِذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الصَّغِيرِ حِصَّتُهُ مِنْ الدِّيَةِ فَقَدْ قَالَ ابْنُ الْمَوَّازِ مَا يَقَعُ مِنْ الدِّيَةِ عَلَى الصَّغِيرِ فِي مَالِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ مَا يَقَعُ عَلَى الْعَاقِلَةِ إذَا كَانَ الْقَتْلُ كُلُّهُ خَطَأً ، وَهَذَا ظَاهِرُ قَوْلِ ابْنِ الْقَاسِمِ ، وَقَالَ أَشْهَبُ ذَلِكَ عَلَى الْعَاقِلَةِ ، وَإِنْ قَلَّ ذَلِكَ ، وَأَمَّا إذَا اشْتَرَكَ الْعَامِدُ وَالْمُخْطِئُ فَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ لَا يُقْتَلُ الْعَامِدُ إذَا شَارَكَهُ الْمُخْطِئُ ، وَقَالَ أَشْهَبُ فِي الْمَجْمُوعَةِ لَوْ أَنَّ قَوْمًا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ ضَرَبُوا مُسْلِمًا فَقَتَلُوهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ الْعَدُوِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَمَّدَهُ لِعَدَاوَةٍ ، وَقُتِلَ بِهِ الْمُتَعَمِّدُ ، وَعَلَى الْآخَرِينَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ الدِّيَةِ .

(الْبَابُ الثَّانِي فِي قَتْلِ الْغِيلَةِ) أَصْحَابُنَا يُورِدُونَهُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا الْقَتْلُ عَلَى وَجْهِ التَّحَيُّلِ وَالْخَدِيعَةِ ، وَالثَّانِي عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَأُ فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَفِي الْعُتْبِيَّةِ وَالْمَوَّازِيَّةِ قَتْلُ الْغِيلَةِ مِنْ الْمُحَارَبَةِ إلَّا أَنْ يَغْتَالَ رَجُلًا أَوْ صَبِيًّا فَيَخْدَعَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ مَوْضِعًا فَيَأْخُذَ مَا مَعَهُ فَهُوَ كَالْمُحَارَبَةِ فَهَذَا بَيِّنٌ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ .

(ش) : قَوْلُهُ : الْأَمْرُ عِنْدَنَا أَنَّهُ يُقْتَلُ فِي الْعَمْدِ الرِّجَالُ الْأَحْرَارُ بِالرَّجُلِ الْحُرِّ الْوَاحِدِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَتْلِ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ إذَا تَكَافَئُوا فِي الْحُرْمَةِ ، وَكَذَلِكَ النِّسَاءُ بِالْمَرْأَةِ وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ النِّسَاءُ بِالرَّجُلِ وَلَا الرِّجَالُ بِالْمَرْأَةِ بَلْ حُكْمُ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ مَنْ قَتَلَ وَاحِدَهُمْ بِوَاحِدٍ قُتِلَ جَمِيعُهُمْ بِهِ ، وَلَمَّا كَانَتْ الْمَرْأَةُ تُقْتَلُ بِالرَّجُلِ قُتِلَ النِّسَاءُ بِالرَّجُلِ ، وَلَمَّا كَانَ الرَّجُلُ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ فَكَذَلِكَ تُقْتَلُ جَمَاعَةُ الرِّجَالِ بِالْمَرْأَةِ ، وَحُكْمُ الْعَبِيدِ كَذَلِكَ يُقْتَلُ الْعَبِيدُ بِالْعَبْدِ ، وَيُقْتَلُ الْعَبْدُ بِالْحُرِّ وَلَا يُقْتَلُ الْأَحْرَارُ بِالْعَبْدِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

يستمر على ولايته سراً، خلاف ما كتب إليه جهراً، وأمر بقتل محمد بن أبي بكر. وولى معاوية الشام، فأحدث من الفتن ما أحدث. وولى عبد الله بن عامر البصرة ففعل من المناكير ما فعل. وولى مروان أمره، وألقى إليه مقاليد أموره، ودفع إليه خاتمه، فحدث من ذلك قتل عثمان، وحدث من الفتنة بين الأمة ما حدث. وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش – زوّجهم بناته – أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار. وكان ابن مسعود يطعن عليه ويكفّره، ولما حَكم ضربه حتى مات. وضرب عمّاراً حتى صار به فتق. وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : عمار جلدة بين عينى تقتله الفئة الباغية، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة. وكان عمّار يطعن عليه. وطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم بن أبي العاص عم عثمان عن المدينة، ومعه ابنه مروان، فلم يزل هو –وابنه- طريداً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر. فلما وَلِيَ عثمان آواه وردّه إلى المدينة، وجعل مروان كاتبه وصاحب تدبيره. مع أن الله تعالى قال :) لا ـ تجِدُ قوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ((1) ونفى أبا ذر إلى الرّبذة، وضربه ضربا وجيعا، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حقه : ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر. وقال : إن الله أوحى إليّ أنه يحب أربعة من أصحابي وأمرني بحبهم. فقيل من هم يا رسول الله ؟ قال سيدهم عليّ وسلمان والمقداد وأبو ذر. وضيّع حدود الله فلم يقتل عبيد الله بن عمر حين قتل الهرمزان مولى أمير المؤمنين بعد إسلامه، وكان أمير المؤمنين يطلب عبيد الله لإقامة القصاص عليه، فلحق بمعاوية. وأراد أن يعطّل حد الشرب في الوليد بن عقبة حتى حدّه أمير المؤمنين، وقال : لا يبطل حد الله وأنا حاضر. وزاد الأذان الثاني يوم الجمعة، وهو بدعة، وصار سنة إلى الآن. وخالفه المسلمون كلهم حتى قتل، وعابوا أفعاله، وقالوا له : غبتَ عن بدر، وهربت يوم أحد، ولم تشهد بيعة الرضوان. والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى)).

والجواب :

أن يقال : نُوّاب عليّ خانوه وعصوه أكثر مما خان عمّال عثمان له وعصوه. وقد صنّف الناس كتبا فيمن ولا ّه عليّ فاخذ المال وخانه، وفيمن تركه وذهب إلى معاوية. وقد ولى عليّ رضي الله عنه زياد بن أبي سفيان أبا عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، وولى الأشتر النخعى، وولى محمد بن أبي بكر وأمثال هؤلاء.

ولا يشك عاقل أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان خيراً من هؤلاء كلهم. ومن العجب أن الشيعة ينكرون عَلَى عثمان ما يدّعون أن علياً كان أبلغ فيه من عثمان. فيقولون : إن عثمان ولى أقاربه من بني أمية. ومعلوم أن علياً ولى أقاربه من قِبَل أبيه وأمه، كعبد الله وعبيد الله ابني العبّاس. فولى

عبيد الله بن عباس على اليمن، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس. وأما المدينة فقيل إنه ولى عليها سهل بن حُنَيْف. وقيل : ثمامة بن العباس. وأما البصرة فولى عليها عبد الله بن عباس. وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي ربّاه في حجره.

ثم إن الإ ِمامة تدّعى أن علياً نص على أولاده في الخلافة، أو عَلى ولده، وولد عَلى ولده الآخر، وهَلمّ جراً.

ومن المعلوم أنه إن كان تولية الأقربين منكرا، فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمارة بعض الأعمال، وتولية الأولاد أقرب إلى الإنكار من تولية بني العم. ولهذا كان الوكيل والولي الذي لا يشترى لنفسه لا يشترى لابنه أيضا في أحد قولىْ العلماء، والذي دفع إليه المال ليعطيه لمن يشاء لا يأخذه لنفسه ولا يعطيه لولده في أحد قوليهم.

وكذلك تنازعوا في الخلافة : هل للخليفة أن يوصى بها لولده ؟ على قولين. والشهادة لابنه مردودة عند أكثر العلماء. ولا ترد الشهادة لبني عمه. وهكذا غير ذلك من الأحكام.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أنت ومالك لأبيك))(1). وقال : ((ليس لواهب أن يرجع في هبته إلا الوالد فيما وهبه لولده))(2).

فإن قالوا : إن علياً رضي الله عنه فعل ذلك بالنص.

قيل: أولا: نحن نعتقد أن علياً خليفة راشد، وكذلك عثمان. لكن قبل أن نعلم حجة كل منهما فيما فعل، فلا ريب أن تطرّق الظنون والتهم إلى ما فعله عليّ أعظم من تطرّق التهم والظنون إلى ما فعله عثمان.

وإذا قال لقائل : لعليّ حجة فيما فعله .

قيل له : وحجة عثمان فيما فعله أعظم. وإذا ادُعِيَ لعليّ العصمة ونحوها مما يقطع عنه ألسنة الطاعنين، كان ما يدّعى لعثمان من الاجتهاد الذي يقطع ألسنة الطاعنين أقرب إلى المعقول والمنقول.

فإن الرافضي يجيء إلى أشخاص ظهر بصريح المعقول وصحيح المنقول بأن بعضهم أكمل سيرة من بعض، فيجعل الفاضل مذموماً مستحقاً للقدح، ويجعل المفضول معصوماً مستحقاً للمدح، كما فعلت النصارى : يجيئون إلى الأنبياء صلوات الله عليهم، وقد فضّل الله بعضهم على بعض، فيجعلون المفضول إلها والفاضل منقوصا دون الحواريين الذين صحبوا المسيح، فيكون ذلك قلبا للحقائق. وأعجب من ذلك أنهم يجعلون الحواريين الذين ليسوا أنبياء معصومين عن الخطأ، ويقدحون في بعض الأنبياء كسليمان وغيره.

ومعلوم أن إبراهيم ومحمداً أفضل من نفس المسيح صلوات الله وسلامه عليهم بالدلائل الكثيرة، بل وكذلك موسى. فكيف يُجعل الذين صحبوا المسيح أفضل من إبراهيم ومحمد ؟

وهذا من الجهل والغلو الذي نهاهم الله عنه. قال تعالى :) يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا َ تغلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا َ تقولوا عَلى اللهِ إلا ّ الحقّ إنمَا المَسِيحُ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ((1)
وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة، فإن فيهم من ادّعى الإلهية في عليّ. وهؤلاء شرٌ من النصارى، وفيهم من ادّعى النبوة فيه. ومن أثبت نبياً بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين، إلا أن علياً رضي الله عنه بريء من هذه الدعوة، بخلاف من ادّعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله.
وهؤلاء الإمامية يدّعون ثبوت إمامته بالنص، وأنه كان معصوماً هو وكثير من ذريته، وأن القوم ظلموه وغصبوه.
ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة. فإن المعصوم يجب اتّباعه في كل ما يقول، لا يجوز أن يخالف في شيء. وهذه خاصة الأنبياء. ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل إليهم فقال تعالى :) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا َ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(([16]) ، فأمرنا أن نقول : آمنا بما أوتي النبيون.
فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به. وهذا مما اتفق عليه المسلمون : أنه يجب الإيمان بكل نبي، ومن كفر بنبي واحد فهو كافر، ومن سبّه وجب قتله باتفاق العلماء.
وليس كذلك من سوى الأنبياء، سواء سمُّوا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك. فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها.
ويقال لهذا : ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا مأمورين باتباع شريعة التوراة ؟
ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام : للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها. فإن الله تعالى يقول :) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ(([17]) ، فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول، فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول، أوجب ردّ ما تنازعوا فيه إليه، لأنه لا يقول عنده إلا الحق ك الرسول. وهذا خلاف القرآن.
وأيضا فإن المعصوم تجب طاعته مطلقاً بلا قيد، ومخالفه يستحق الوعيد. و القرآن إنما أثبت هذا في حق الرسول خاصة. قال تعالى :) وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا(([18]) . وقال :)وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً(([19]) فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة، ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر.
ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد، وإن قدِّر أنه أطاع من ظنّ أنه معصوم، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرّق الله به بين أهل الجنة

وأهل النار، وبين الأبرار والفجّار، وبين الحق والباطل، وبين الغيّ والرشاد، و الهدى والضلال، وجعله القسيم الذي قسم اللّه به عباده إلى شقيّ وسعيد، فمن اتّبعه فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقيّ. وليست هذه المرتبة لغيره.
ولهذا اتفق أهل العلم – أهل الكتاب والسنة – على أن كل شخص سوى الرسول فإنه يؤخذ من قوله ويُترك، إلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل أمر، فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهو الذي يُسأل الناس عنه يوم القيامة كما قال تعالى :)فَلَنَسْئَلَنّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنّ المُرْسَلِينَ(([20]) .
وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم، فيُقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ويُقال : ما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيثبّت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول : هو عبد اللّه ورسوله، جاءنا بِ البيّنات والهدى فآمنّا به واتبعناه. ولو ذكر بدل الرسول من ذكره من الصحابة والأئمة والتابعين والعلماء لم ينفعه ذلك، ولا يُمتحن في قبره بشخص غير الرسول.
والمقصود هنا أن ما يُعتذر به عن عليّ فيما أُنكر عليه يُعتذر بأقوى منه عن عثمان، فإن عليًا قاتل على الولاية، وقُتل بسبب ذلك خلقٌ كثير عظيم، ولم يحصل في ولايته لا قتال للكفار، ولا فتح لبلادهم، ولا كان المسلمون في زيادة خير، وقد ولّى من أقاربه من ولا ّه، فولاية الأقارب مشتركة، ونوّاب عثمان كانوا أطوع من نوّاب عليّ وأبعد عن الشر.
وأما الأموال التي تأوّل فيها عثمان، فكما تأوّل عليّ في الدماء. وأمر الدماء أخطر وأعظم.
ويقال : ثانيا: هذا النصّ الذي تدّعونه، أنتم فيه مختلفون اختلافا يُوجب العلم الضروري بأنه ليس عندكم ما يُعتمد عليه فيه، بل كل قوم منكم يفترون ما شاءوا.
وأيضا فجماهير المسلمين يقولون : إنّا نعلم علماً يقينا، بل ضروريا، كذب هذا النصّ، بطرق كثيرة مبسوطة في مواضعها.
ويقال : ثالثا: إذا كان كذلك ظهرت حجة عثمان ؛ فإن عثمان يقول : إن بني أمية كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة : فيهم أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه. وعمر رضي اللّه عنه ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمّال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكثر من بني عبد شمس، لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي صلى اللّه عليه وسلم في عزّة الإسلام عَلَى أفضل ا لأرض مكّة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، واستعمل عَلَى نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية، واستعمل أيضا خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج وعلى صنعاء اليمن، فلم يزل عليها حتى مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء

وخيبر وقرى عُرَيْنة، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا، ثم استعمله على البحرين فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمي حتى تُوفى النبي صلى الله عليه وسلم ، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط حتى أنزل الله فيه :)إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ((1).

فيقول عثمان : أنا لم استعمل إلا من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم منهم ومن جنسهم ومن قبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان بن حرب في فتوح الشام، وأقرّه عمر، ثم ولى عمر بعد أخاه معاوية.

وهذا النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم في استعمال هؤلاء ثابت مشهور عنه، بل متواتر عند أهل العلم. ومنه متواتر عند علماء الحديث، ومنه ما يعرفه العلماء منهم، ولا ينكره أحد منهم.

(فصل)

والقاعدة الكلية في هذا أن لا نعتقد أن أحداً معصوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ، والذنوب التي تقع منهم قد يتوبون منها، وقد تُكفّر عنهم بحسناتهم الكثيرة، وقد يبتلون أيضا بمصائب يكفّر الله عنهم بها، وقد يكفّر عنهم بغير ذلك.

فكل ما يُنقل عن عثمان غايته أن يكون ذنباً أو خطأً. وعثمان رضي الله عنه قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوه كثيرة، منها سابقته وإيمانه وجهاده وغير ذلك من طاعاته.

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد له، بل بشّره بالجنة على بلوى تصيبه.

ومنها أنه تاب من عامة ما أنكره عليه، وأنه ابتُلى ببلاء عظيم، فكفّر الله به خطاياه، وصبر حتى قُتل شهيداً مظلوما. وهذا من أعظم ما يكفِّر الله به الخطايا.

وكذلك عليّ رضي الله عنه : ما تنكره الخوارج وغيرهم علي غايته أن يكون ذنباً أو خطأً، وكان قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوه كثيرة. منها سابقته وإيمانه وجهاده، وغير ذلك من طاعته، وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة. ومنها أنه تاب من أمور كثيرة أُنكرت عليه وندم عليها، ومنها أنه قتل مظلوما شهيدا.

فهذه القاعدة تغنينا أن نجعل كل ما فعل واحد منهم هو الواجب أو المستحب من غير حاجة بنا إلى ذلك.

وحينئذ فقول الرافضي : إن عثمان ولى من لا يصلح للولاية. إما أن يكون هذا باطلا، ولم يولّ إلاّ من يصلح. وإما أن يكون ولى من لا يصلح في نفس الأمر، لكنه كان مجتهدا في ذلك، فظن أنه كان يصلح وأخطأ ظنه، وهذا لا يقدح فيه.

وهذا الوليد بن عقبة الذي أنكر عليه ولايته قد اشتهر في التفسير والحديث

والسِّيَر أن النبي صلى الله عليه وسلم ولا ّه على صدقات ناس من العرب فلما قرب منهم خرجوا إليه، فظن أنهم يحاربونه، فأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يذكر محاربتهم له، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم جيشا، فأنزل الله تعالى :) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ((1).

فإذا كان حال هذا خَفِيَ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يخفى على عثمان ؟!

وإذا قيل : إن عثمان ولا ّه بعد ذلك.

فيقال : باب التوبة مفتوح. وقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد عن الإسلام، ثم جاء تائبا، وقبِل النبي صلى الله عليه وسلم إسلامه وتوبته بعد أن كان أهدر دمه.

وعليّ رضي الله عنه تبين له من عمّاله ما لم يكن يظنه فيهم. فهذا لا يقدح في عثمان ولا غيره. وغاية ما يُقال : إن عثمان ولّى من يعلم أن غيره أصلح منه، وهذا من موارد الاجتهاد.

أو يقال : إن محبته لأقاربه ميّلته إليهم، حتى صار يظنهم أحق من غيرهم، أو أن ما فعله كان ذنبا، وقد تقدّم أن ذنبه لا يُعاقب عليه في الآخرة.

وقوله : حتى ظهر من بعضهم الفسق، ومن بعضهم الخيانة.

فيقال : ظهور ذلك بعد الولاية لا يدل على كونه كان ثابتا حين الولاية، ولا على أن المولِّي علم ذلك. وعثمان رضي الله عنه لما علم أن الوليد بن عقبة شرب الخمر طلبه وأقام عليه الحد. وكان يعزل من يراه مستحقا للعزل، ويقيم الحدّ على من يراه مستحقاً لإقامة الحد عليه.

وأما قوله : وقسّم المال بين أقاربه.

فهذا غايته أن يكون ذنباً لا يُعاقب عليه في الآخرة، فكيف إذا كان من موارد الاجتهاد ؟

وبالجملة فعامّة من تولى الأمر بعد عمر كان يخصّ بعض أقاربه : إما بولاية، وإما بمال. وعليّ ولّى أقاربه أيضا.

وأما قوله : استعمل الوليد بن عقبة حتى ظهر منه شرب الخمر،وصلّى بـ الناس وهو سكران.

فيقال : لا جرم طلَبَه وأقام عليه الحد بمشهد من عليّ بن أبي طالب، وقال لعليّ : قم فاضربه. فأمر عليّ الحسن بضربه، فامتنع. وقال لعبد الله بن جعفر : قم فاضربه، فضربه أربعين . ثم قال : أمسك، ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلّ سنة، وهذا أحبّ إليّ. رواه مسلم وغيره(1).

فإذا أقام الحد برأي عليّ وأمره، فقد فعل الواجب.

وكذلك قوله : إنه استعمل سعيد بن العاص على الكوفة، وظهر منه ما أدّى إلى أن أخرجه أهل الكوفة منها.

فيقال : مجرد إخراج أهل الكوفة لا يدل على ذنب يوجب ذاك، فإن القوم

كانوا يقومون عل كل والٍ. قد أقاموا على سعد بن أبي وقاص، وهو الذي فتح البلاد، وكسر جنود كسرى، وهو أحد أهل الشورى، ولم يتول عليهم نائب مثله. وقد شكوا غيره مثل عمّار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، و المغيرة بن شعبة، وغيرهم. ودعا عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : اللّهم إنهم قد لبّسوا عليّ فلبِّس عليهم.
وإذا قدِّر أنه أذنب ذنباً، فمجرد ذلك لا يوجب أن يكون عثمان راضياً بذنبه، ونوّاب عليّ قد أذنبوا ذنوباً كثيرة. بل كان غير واحدٍ من نوّاب النبي صلى الله عليه وسلم يذنبون ذنوباً كثيرة، وإنما يكون الإمام مذنبا إذا ترك ما يجب عليه من إقامة حد، أو استيفاء حق، أو اعتداء ونحو ذلك.
وإذا قُدِّر أن هناك ذنباً، فقد عُلم الكلام فيه.
وأما قوله : وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر حتى تظلّم منه أهلها، وكاتبه أن يستمر على ولايته سراً، خلاف ما كتب إليه جهرا.
والجواب : أن هذا كذب عَلَى عثمان وقد حلف عثمان أنه لم يكتب شيئا من ذلك، وهو الصادق البارّ بلا يمين، وغاية ما قيل : إن مروان كتب بغير علمه، وأنهم طلبوا أن يسلِم إليهم مروان ليقتلوه، فامتنع. فإن كان قتْلُ مروان لا يجوز، فقد فعل الواجب، وإن كان يجوز ولا يجب، فقد فعل الجائز، وإن كان قتله واجباً، فذاك من موارد الاجتهاد ؛ فإنه لم يثبت لمروان ذنب يُوجب قتله شرعا، فإن مجرد التزوير لا يوجب القتل. وبتقدير أن يكون ترَكَ الواجب فقد قدّمنا الجواب العام.
وأما قوله : أمر بقتل محمد بن أبي بكر.
فهذا من الكذب المعلوم عَلَى عثمان. وكل ذي علم بحال عثمان وإنصاف له، يعلم أنه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله، ولا عرف منه قط أنه قتل أحداً من هذا الضرب، وقد سعوا في قتله، ودخل عليه محمد فيمن دخل، وهو لا يأمر بقتالهم دفعاً عن نفسه، فكيف يبتدئ بقتل معصوم الدم ؟
وإن ثبت أن عثمان أمر بقتل محمد بن أبي بكر، لم يُطعن على عثمان. بل عثمان إن كان أمر بقتل محمد بن أبي بكر أوْلى بالطاعة ممن طلب قتل مروان، لأن عثمان إمام هُدى، وخليفة راشد، يجب عليه سياسة رعيته، وقتل من لا يُدفع شرّه إلا بالقتل. وأما الذين طلبوا قتل مروان فقوم خوارج مفسدون في الأرض، ليس لهم قتل أحدٍ، ولا إقامة حد. وغايتهم أن يكونوا ظُلموا في بعض الأمور، وليس لكل مظلوم أن يقتل بيده كل من ظلمه، بل و لا يقيم الحد.
وليس مروان أوْلى بالفتنة والشر من محمد بن أبي بكر، ولا هو أشهر بالعلم والدين منه. بل أخرج أهل الصحاح عدة أحاديث عن مروان، وله قول مع أهل الفتيا، واختُلف في صحبته.
وأما قوله : ((ولى معاوية الشام، فأحدث من الفتن ما أحدثه)).
فالجواب : أن معاوية إنما ولا ّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لما مات

أخوه يزيد بن أبي سفيان ولا ّه عمر مكان أخيه. واستمر في ولاية عثمان، وزاده عثمان في الولاية. وكانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولا ة، وكانت رعيته يحبونه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((خيار أئمتكم الذين تحبّونهم ويحبونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم))(1).

وإنما ظهر الأحداث من معاوية في الفتنة لما قُتل عثمان، ولما قُتل عثمان كانت الفتنة شاملة لأكثر الناس، لم يختص بها معاوية، بل كان معاوية أطلب للسلامة من كثيرٍ منهم، وأبعد عن الشر من كثير منهم.

ومعاوية كان خيرا من الأشتر النخعي، ومن محمد بن أبي بكر، ومن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومن أبي الأعور السلمي، ومن هاشم بن هاشم المرقال، ومن الأشعث بن قيس الكندي، ومن بُسر بن أبي أرطأة، وغير هؤلاء من الذين كانوا معه ومع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وأما قوله : ((وولى عبد الله بن عامر البصرة، ففعل من المناكير ما فعل)).

فالجواب : إن قتل عثمان والفتنة لم يكن سببها مروان وحده، بل اجتمعت أمور متعددة، من جملتها أمور تُنكر من مروان. وعثمان رضي الله عنه كان قد كبُر، وكانوا يفعلون أشياء لا يُعلمونه بها، فلم يكن آمراً لهم بالأمور التي أنكرتموها عليه، بل كان يأمر بإبعادهم وعزلهم، فتارة يفعل ذلك، وتارة لا يفعل ذلك. وقد تقدم الجواب العام.

ولما قدم المفسدون الذين أرادوا قتل عثمان، وشكوا أمورا، أزالها كلها عثمان ، حتى أنه أجابهم إلى عزل من يريدون عزله، وإلى أن مفاتيح بيت المال تعطى لمن يرتضونه، وأنه لا يعطى أحداً من المال إلا بمشورة الصحابة ورضاهم، ولم يَبْقَ لهم طلب. ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها:((مصصتموه كما يُمص الثوب، ثم عمدتم إليه فقتلتموه)).

وقد قيل : إنه زُوّر عليه كتابٌ بقتلهم، وأنهم أخذوه في الطريق، فأنكر عثمان الكتاب، وهو الصادق. وأنهم اتهموا به مروان، وطلبوا تسليمه إليهم، فلم يسلّمه.

وهذا بتقدير أن يكون صحيحا، لا يبيح شيئا مما فعلوه بعثمان. وغايته أن يكون مروان قد أذنب في إرادته قتلهم، ولكن لم يتم غرضه. ومن سعى في قتل إنسان ولم يقتله، لم يجب قتله. فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا. نعم ينبغي الاحتراز ممن يفعل مثل هذا، وتأخيره وتأديبه. ونحو ذلك. أما الدم فأمر عظيم.

وأما قوله : ((وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى أنه دفع إلى أربعة نفر من قريش، زوّجهم بناته، أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار)).

فالجواب : أولا أن يُقال : أين النقل الثابت بهذا ؟ نعم كان يعطي أقاربه عطاءً كثيرا، ويعطى غير أقاربه أيضا، وكان محسنا إلى جميع المسلمين.

وأما هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت.
ثم يقال : ثانيا : هذا من الكذب البيّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ. ومن المعلوم أن معاوية كان يعطي من يتألفه أكثر من عثمان. ومع هذا فغاية ما أعطى الحسن بن عليّ مائة ألف أو ثلاثمائة ألف درهم. وذكروا أنه لم يعط أحدا قدر هذا قط.
نعم كان عثمان يعطي بعض أقاربه ما يعطيهم من العطاء الذي أُنكر عليه، وقد تقدم تأويله في ذلك، والجواب العام يأتي على ذلك.
وبالجملة، فلا بد لكل ذوى أمر من أقوام يأتمنهم على نفسه، ويدفعون عنه من يريد ضرره. فإن لم يكن الناس مع إمامهم كما كانوا مع أبي بكر وعمر، احتاج الأمر إلى بطانة يطمئن إليهم، وهم لا بد لهم من كفاية. فهذا أحد التأويلين.
والتأويل الثاني : أنه كان يعمل في المال. وقد قال الله تعالى:)وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا((1). والعامل على الصدقة الغنى له أن يأخذ بعمالته باتفاق المسلمين.
وأما قوله : ((وكان ابن مسعود يطعن عليه ويكفّره)).
فالجواب : أن هذا من الكذب البيّن على ابن مسعود، فإن علماء أهل النقل يعلمون أن ابن مسعود ما كان يكفّر عثمان، بل لما وَلِيَ عثمان وذهب ابن مسعود إلى الكوفة قال : ((وليْنَا أعلانا ذا فوق ولم نأل)).
وكان عثمان في السنين الأ ُوَل من ولايته لا ينقمون منه شيئا ولما كانت السنين الآخرة نقموا منه أشياء، بعضها هم معذورون فيه، وكثير منها كان عثمان هو المعذور فيه.
من جملة ذلك أمر ابن مسعود ؛ فإن ابن مسعود بقي في نفسه من أمر المصحف، لما فوّض كتابته إلى زيد دونه، وأمر الصحابة أن يغسلوا مصاحفهم. وجمهور الصحابة كانوا على ابن مسعود مع عثمان.
وعثمان أفضل من كل من تكلم فيه. هو أفضل من ابن مسعود وعمّار وأبي ذر ومن غيرهم من وجوه كثيرة، كما ثبت ذلك بالدلائل الكثيرة.
فليس جعل كلام المفضول قادحاً في الفاضل بأوْلى من العكس، بل إن أمكن الكلام بينهما بعلم وعدل، وإلا تكلم بما يُعلم من فضلهما ودينهما، وكان ما شجر بينهما وتنازعا فيه أمره إلى الله.
ولهذا أوصوا بالإمساك عما شجر بينهم، لأنا لا نُسأل عن ذلك.
كما قال عمر بن عبد العزيز : ((تلك دماء طهّر الله منها يدى، فلا أحب أن أخضّب بها لساني)). وقال آخر :) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا َ تُسْأَلونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ((1).
لكن إذا ظهر مبتدع يقدح فيهم بالباطل، فلا بد من الذبّ عنهم، وذكر ما يبطل حجته بعلمٍ وعدل.
وكذلك ما نقل من تكلم عمّار في عثمان، وقول الحسن فيه، ونقل عنه أنه قال : ((لقد كفَر عثمان كفرة صلعاء)) وأن الحسن بن عليّ أنكر ذلك عليه، وكذلك عليّ، وقال له : ((يا عمار أتكفر بربٍّ آمن به عثمان ؟)).

وأما قوله : ((أنه لما حكم ضرب ابن مسعود حتى مات)).
فهذا كذب باتفاق أهل العلم، فإنه لما وَلِيَ أقرّ ابن مسعود على ما كان عليه من الكوفة، إلى أن جرى من ابن مسعود ما جرى. وما مات ابن مسعود من ضرب عثمان أصلا.
وفي الجملة فإذا قيل إن عثمان ضرب ابن مسعود أو عمّاراً، فهذا لا يقدح في أحد منهم ؛ فإنه نشهد أن الثلاثة في الجنة، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين. وقد قدّمنا أن ولي الله قد يصدر منه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية، فكيف بالتعزير ؟.
وأما قوله : ((وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : ((عمّار جلدة بين عَيْنَيْ، تقتله الفئة الباغية، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة)).
فيقال : الذي في الصحيح : ((تقتل عمّار الفئة الباغية)) (2) وطائفة من العلماء ضعفوا هذا الحديث، منهم الحسين الكرابيسي وغيره، ونقل ذلك عن أحمد أيضا.
وأما قوله : ((لا أنالهم الله شفاعتي)) فكذب مزيد في الحديث، لم يروه أحد من أهل العلم بإسناد معروف.
وكذلك قوله : ((عمّار جلدة بين عيني)) لا يعرف له إسناد.
ولو قيل مثل ذلك، فقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : ((إنما فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها))([21]) . وفي الصحيح عنه أنه قال : ((لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))([22]) . وثبت عنه في الصحيح أنه كان يحب أسامة، ثم يقول : ((اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه))([23]) . ومع هذا لما قتل ذلك الرجل أنكر عليه إنكار شديدا وقال : ((يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله)) قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنّيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ))([24]) .
كذلك عثمان فيمن أقام عليه حدّا أو تعزيرا هو أولى بالعلم والعدل منهم. وإذا وجب الذبّ عن عليّ لمن يريد أن يتكلم فيه بمثل ذلك، فالذبّ عن عثمان لمن يريد أن يتكلم فيه بمثل ذلك أوْلى.
وقوله : ((وطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم بن أبي العاص عم عثمان عن المدينة، ومعه ابنه مروان، فلم يزل هو وابنه طريدين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فلما وَليَ عثمان آواه وردّه إلى المدينة، وجعل مروان كاتبه وصاحب تدبيره. مع أن الله قال :) لا ّ تجِدُ قوْمًا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادّ اللهَ وَرَسُولهُ(([25]) .
والجواب : أن الحكم بن أبي العاص كان من مسلمة الفتح، وكانوا ألفىْ رجل، ومروان ابنه كان صغيرا إذ ذاك، فإنه من أقران ابن الزبير والمسور بن مخرمة، عمره حين الفتح سن التمييز : إما سبع سنين، أو أكثر بقليل، أو أقل بقليل، فلم يكن لمروان ذنب يُطرد عليه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . فإن

كان قد طرده، فإنما طرده من مكة لا من المدينة، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة. وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه، وقالوا : هو ذهب باختياره.

وأما استكتابه مروان، فمروان لم يكن له في ذلك ذنب، لأنه كان صغيرا لم يجر عليه القلم، ومات النبي صلى الله عليه وسلم ومروان لم يبلغ الحُلم باتفاق أهل العلم، بل غايته أن يكون عشر سنين أو قريب منها، وكان مسلما باطنا وظاهرا، يقرأ القرآن ويتفقه في الدين، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيء يُعاب به، فلا ذنب لعثمان في استكتابه.

وأما الفتنة فأصابت من هو أفضل من مروان، ولم يكن مروان ممن يحادّ الله ورسوله. وأما أبوه الحكم فهو من الطلقاء، والطلقاء حسن إسلام أكثرهم ، وبعضهم فيه نظر. ومجرد ذنب يعزّر عليه لا يوجب أن يكون منافقا في الباطن.

وأما قوله : ((إنه نفى أبا ذر إلىالرّبذَة وضربه ضربا وجيعا، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حقه : ما أقلّت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذى لهجة أصدق من أبي ذر. وقال : إن الله أوحى إليّ أنه يحب أربعة من أصحابي وأمرني بحبهم. فقيل له : من هم يا رسول الله ؟ قال : عليّ سيدهم، وسلمان، والمقداد، وأبو ذر)).

فالجواب : أن أبا ذر سكن الربذة ومات بها لسبب ما كان يقع بينه وبين الناس، فإن أبا ذر رضي الله عنه كان رجلا صالحا زاهدا، وكان من مذهبه أن الزهد واجب، وأن ما أمسكه الإنسان فاضلا ً عن حاجته فهو كنز يُكوى به في النار، ولما توفى عبد الرحمن بن عوف وخلف مالا ً، جعل أبو ذر ذلك من الكنز الذي يُعاقب عليه، وعثمان يناظره في ذلك، حتى دخل كعب ووافق عثمان، فضربه أبو ذر، وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام بهذا السبب.

وأما الخلفاء الراشدون وجماهير الصحابة والتابعين فعلى خلاف هذا القول.

فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمس أواق صدقة))([26]) . فنفى الوجوب فيما دون المائتين، ولم يشترط كون صاحبها محتاجا إليها أم لا.

وقال جمهور الصحابة : الكنز هو المال الذي لم تؤدّ حقوقه.

وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب الله عليهم، ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه، مع أنه مجتهد في ذلك، مثاب على طاعته رضي الله عنه، كسائر المجتهدين من أمثاله.

فكان اعتزاز أبي در لهذا السبب، ولم يكن لعثمان مع أبي ذر غرض من الأ غراض.

وأما كون أبي ذر من أصدق الناس، فذاك لا يوجب أنه أفضل من غيره، بل

كان أبو ذر مؤمنا ضعيفا. كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال له : ((يا أبا ذر إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تأمّرن على اثنين. ولا تولين مال يتيم))([27]) .

وقد ثبت في الصحيح أنه قال : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف، وفي كل خير))([28]) .

وأهل الشورى مؤمنون أقوياء، وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء. فالمؤمنون الصالحون لخلافة النبوة، كعثمان وعليّ وعبد الرحمن بن عوف، أفضل من أبي ذر وأمثاله.

والحديث المذكور بهذا اللفظ الذي ذكره الرافضي ضعيف، بل موضوع، وليس له إسناد يقوم به.

وأما قوله : ((إنه ضيّع حدود اللّه، فلم يقتل عبيد اللّه بن عمر حين قتل الهرمزان مولى أمير المؤمنين بعد إسلامه، وكان أمير المؤمنين يطلب عبيد اللّه لإقامة القصاص عليه، فلحق بمعاوية. وأراد أن يعطّل حدّ الشرب في الوليد بن عقبة، حتى حدّه أمير المؤمنين. وقال : لا تبطل حدود اللّه وأنا حاضر)).

فالجواب : أما قوله : ((إن الهرمزان كان مولى عليّ)).

فمن الكذب الواضح، فإن الهرمزان كان من الفرس الذين استنابهم كسرى على قتال المسلمين، فأسره المسلمون وقدِموا به على عمر، فأظهر الإسلام، فمنّ عليه عمر وأعتقه، ولما قتل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه كان الذي قتله أبو لؤلؤة الكافر المجوسي مولى المغيرة بن شعبة، وكان بينه وبين الهرمزان مجانسة، وذُكر لعبيد اللّه بن عمر أنه رؤى عند الهرمزان حين قتل عمر، فكان ممن اتهم بالمعاونة على قتل عمر.

وقد قال عبد اللّه بن عباس لما قُتل عمر، وقال له عمر : قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة. فقال : إن شئت أن نقتلهم. فقال : ((كذبت، أما بعد إذ تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم))(1).

فهذا ابن عباس وهو أفقه من عُبَيْد اللّه وأدْيَن وأفْضَل بكثير يستأذن عمر في قتل علوج الفرس مطلقا الذين كانوا بالمدينة، لما اتهموهم بالفساد اعتقد جواز مثل هذا، فكيف لا يعتقد عبيد اللّه جواز قتل الهرمزان ؟ فلما استشار عثمان الناس في قتله، فأشار عليه طائفة من الصحابة أن لا تقتله، فإن أباه قتل بالأمس ويُقتل هو اليوم، فيكون في هذا فساد في الإسلام، وكأنهم وقعت لهم شبهة في عصمة الهرمزان، وهل كان من الصائلين الذين كانوا يستحقون الدفع ؟ أو من المشاركين في قتل عمر الذين يستحقون القتل ؟

وإذا كان قتل عمر وعثمان وعليّ ونحوهم من باب المحاربة، فالمحاربة يشترك فيها الردء والمباشر عند الجمهور، فعلى هذا من أعان عَلَى قتل عمر، ولو بكلام، وجب قتله، وكان الهرمزان ممن ذُكر عنه أنه أعان عَلَى قتل عمر بن الخطاب.

وإذا كان الأمر كذلك كان قتله واجبا، ولكن كان قتله إلى الأئمة، فافتات

عبيد الله بقتله، وللإمام أن يعفو عمن افتات عليه.
وأما قوله : إن علياً كان يريد قتل عبيد الله بن عمر. فهذا لو صح كان قدحاً في عليّ. والرافضة لا عقول لهم، يمدحون بما هو إلى الذم أقرب.
ثم يقال : يا ليت شعرى متى عزم عليٌ عَلَى قتل عبيد الله ؟ ومتى تمكن عليّ من قتل عبيد الله ؟ أو متى تفرّغ له حتى يظهر في أمره ؟
وعبيد الله كان معه ألوف مؤلفة من المسلمين مع معاوية، وفيهم خير من عبيد الله بكثير. وعليّ لم يمكنه عزل معاوية، وهو عزل مجرد. أفكان يمكنه قتل عبيد الله ؟!
ومن العجب أن دم الهرمزان المتهم بالنفاق، والمحاربة لله ورسوله، والسعي في الأرض بالفساد، تقام فيه القيامة، ودم عثمان يُجعل لا حرمة له، وهو إمام المسلمين المشهود له بالجنة، الذي هو – وإخوانه – أفضل الخلق بعد النبيين. ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكفِّ الناس عن الدماء، وأصبر الناس على من نال من عرضه، وعلى من سعى في دمه فحاصروه وسعوا في قتله، وقد عُرف إرادتهم لقتله، وقد جاء المسلمون من كل ناحية ينصرونه ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من يطيعه أن لا يقاتلهم. ورُوى أنه قال لمماليكه : من كفّ يده فهو حرّ. وقيل له : تذهب إلى مكة ؟ فقال : لا أكون ممن ألحد في الحرم. فقيل له: تذهب إلى الشام ؟ فقال : لا أفارق دار هجرتي. فقيل له : فقاتلهم. فقال : لا أكون أول من خلف محمداً في أمته بالسيف.
فكان صبر عثمان حتى قُتل من أعظم فضائله على المسلمين. فمن قدح في عثمان بأنه كان يستحل إراقة دماء المسلمين بتعطيل الحدود، وكان قد طرّق من القدح في عليّ ما هو أعظم من هذا، وسوّغ لمن أبغض عليًا وعاداه وقاتله أن يقول : إن عليّا عطّل الحدود الواجبة على قتلة عثمان. وتعطيل تلك الحدود إن كانت واجبة أعظم فسادا من تعطيل حدٍ وجب بقتل الهرمزان.
وإذا كان من الواجب الدفع عن عليّ بأنه كان معذورا باجتهاد أو عجز، فلأن يُدفع عن عثمان بأنه كان معذورا بطريق الأ َوْلى.
وأما قوله : ((أراد عثمان تعطيل حد الشرب في الوليد بن عقبة، حتى حدّه أمير المؤمنين)).
فهذا كذب عليهما، بل عثمان هو الذي أمر عليًا بإقامة الحد عليه،كما ثبت ذلك في الصحيح(1)، وعليّ خفف عنه وجَلده أربعين، ولو جلده ثمانين لم ينكر عليه عثمان.
وقول الرافضي : ((إن عليًا قال : لا يبطَل حدُ الله وأنا حاضر)).
فهو كذب. وإن كان صدقا فهو من أعظم المدح لعثمان ؛ فإن عثمان قَبِلَ قول عليّ ولم يمنعه من إقامة الحد، مع قدرة عثمان على منعه لو أراد، فإن عثمان كان إذا أراد شيئا فعله، ولم يقدر عليّ عَلَى منعه. وإلا فلو كان عليّ قادراً على منعه مما فعله من الأمور التي أنكرت عليه ولم يمنعه مما هو

عنده مُنْكرٌ مع قدرته، كان هذا قدحاً في عليّ. فإذا كان عثمان أطاع عليًّا فيما أمره به من إقامة الحدّ دل ذلك على دِين عثمان وعدله.
وعثمان وليّ الوليد بن عقبة هذا على الكوفة، وعندهم أن هذا لم يكن يجوز. فإن كان حراماً وعليّ قادر على منعه، وجب عَلَى عليٍّ منعه، فإذا لم يمنعه دلّ على جوازه عند عليّ، أو عَلَى عجز عليّ. وإذا عجز عن منعه عن الإمارة، فكيف لا يعجز عن ضربه الحد ؟ فعُلم أن عليًّا كان عاجزاً عن حدّ الوليد، لولا عثمان أراد ذلك، فإذا أراده عثمان دلّ على دينه.
والرافضة تتكلم بالكلام المتناقض الذي ينقض بعضه بعضا.
وأما قوله : ((إنه زاد الأذان الثاني يوم الجمعة، وهو بدعة، فصار سنة إلى ا لآن)).
فالجواب : أن عليًّا رضي الله عنه كان ممن يوافق على ذلك في حياة عثمان وبعد مقتله. ولهذا لما صار خليفة لم يأمر بإزالة الأذان، كما أمر بما أنكره من ولاية طائفة من عمّال عثمان، بل أمر بعزل معاوية وغيره. ومعلوم أن إبطال هذه البدعة كان أهون عليه من عزل أولئك ومقاتلتهم التي عجز عنها، فكان على إزالة هذه البدعة، من الكوفة ونحوها من أعماله، أقدر منه على إزالة أولئك، ولو أزال ذلك لعلمه الناس ونقلوه.
فإن قيل : كان الناس لا يوافقونه على إزالتها.
قيل : فهذا دليل على أن الناس وافقوا عثمان على استحبابها واستحسانها، حتى الذين قاتلوا مع عليّ، كعمّار وسهل بن حنيف وغيرهما من السابقين الأ َوّلين. ثم من العجب أن الرافضة تنكر شيئاً فعله عثمان بمشهد من الأ نصار والمهاجرين، ولم ينكروه عليه، واتبعه المسلمون كلهم عليه في أذان الجمعة، وهم قد زادوا في الأذان شعارا لم يكن يعرف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . ولا نقل أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بذلك في ا لأذان، وهو قولهم : ((حيّ على خير العمل)).
ونحن نعلم بالاضطرار أن الأذان، الذي كان يؤذنه بلال وابن أم مكتوم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأبو محذورة بمكة، وسعد القرظ في قباء، لم يكن فيه هذا الشعار الرافضي. ولو كان فيه لنقله المسلمون ولم يهملوه، كما نقلوا ما هو أيسر منه. فلما لم يكن في الذين نقلوا الأذان مَنْ ذَكر هذه الزيادة، عُلم أنها بدعة باطلة.
وأما قوله : ((وخالفه المسلمون كلهم حتى قُتل. وعابوا أفعاله، وقالوا له : غبت عن بدر، وهربت يوم أحد، ولم تشهد بيعة الرضوان. والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى)).
فالجواب :أما قوله : ((وخالفه المسلمون كلهم حتى قتل)).
فإن أراد أنهم خالفوه خلافا يبيح قتله، أو أنهم كلهم أمَروا بقتله، ورضوا بقتله، وأعانوا على قتله. فهذا مما يَعْلم كل أحد أنه من أظهر الكذب، فإنه لم يقتله إلا طائفة قليلة باغية ظالمة.
قال ابن الزبير : ((لعُنت قتلة عثمان، خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية

، فقتلهم الله كل قتلة، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب)) يعني هربوا ليلا، وأكثر المسلمين كانوا غائبين، وكان أهل المدينة الحاضرين لم يكونوا يعلمون أنهم يريدون قتله حتى قتلوه.
وإن أراد أن كل المسلمين خالفوه في كل ما فعله، أو في كل ما أنكر عليه. فهذا أيضا كذب. فما من شيء أنكر عليه إلا وقد وافقه عليه كثير من المسلمين، بل من علمائهم الذين لا يُتهمون بمداهنة، والذين وافقوا عثمان على ما أنكر عليه أكثر وأفضل عند المسلمين من الذين وافقوا عليًّا على ما أنكر عليه : إما في كل الأمور، وإما في غالبها.
وأما الساعون في قتله فكلهم مخطئون، بل ظالمون باغون معتدون. وإن قدِّر أن فيهم من قد يغفر الله له، فهذا لا يمنع كون عثمان قُتل مظلوما.
والذي قال له : غبتَ عن بدر وبيعة الرضوان، وهربتَ يوم أحد، قليل جدا من المسلمين. ولم يعيّن منهم إلا اثنان أو ثلاثة أو نحو ذلك. وقد أجابهم عثمان وابن عمر وغيرهما عن هذا السؤال، وقالوا : يوم بدر غاب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ليخلفه عن ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره.
ويوم الحديبية بايع النبي صلى الله عليه وسلم عن عثمان بيده. ويد رسول الله صلى الله عليه وسلم خير له من يده لنفسه، وكانت البيعة بسببه، فإنه لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى أهل مكة بلغه أنهم قاتلوه، فبايع أصحابه على أن لا يفروا، أو على الموت، فكان عثمان شريكا في البيعة، مختصًا بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم .
وأما التولي يوم أحد، فقد قال الله تعالى :) إِنّ الّذِينَ توَلّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنّمَا اسْتَزَلّهُمُ الشّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ((1) فقد عفا الله عن جميع المتولِّين يوم أحد، فدخل في العفو من هو دون عثمان، فكيف لا يدخل هو فيه مع فضله وكثرة حسناته ؟!
(فصل)
قال الرافضي : ((وقد ذكر الشهرستاني وهو من أشد المتعصبين على الإ مامية، أن مثار الفساد بعد شبهة إبليس الاختلاف الواقع في مرض النبي صلى الله عليه وسلم . فأول تنازع وقع في مرضه ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عباس قال : ((لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم مرضه الذي توفى فيه فقال : ائتوني بدواة وقرطاس، أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال عمر : إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قوموا عني، لا ينبغي عندي التنازع)).
الجواب : أن يُقال : ما ينقله الشهرستاني وأمثاله من المصنّفين في الملل و النحل، عامته مما ينقله بعضهم عن بعض، وكثير من ذلك لم يُحرر فيه أقوال المنقول عنهم، ولم يذكر الإسناد في عامة ما ينقله، بل هو يَنقل من كتب من صنّف المقالات قبله، مثل أبي عيسى الورّاق وهو من المصنّفين للرافضة، المتهمين في كثير مما ينقلونه، ومثل أبي يحيى وغيرهما من الشيعة. ويَنقل

أيضا من كتب بعض الزيدية والمعتزلة الطاعنين في كثير من الصحابة.
وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجة توجب صدقه، ويرد ما خالف هواه بلا حجة توجب رده.
وليس في الطوائف أكثر تكذيبا بالصدق وتصديقا بالكذب من الرافضة، فإن رؤوس مذهبهم وأئمته الذين ابتدعوه وأسسوه كانوا منافقين زنادقة، كما ذكر ذلك عن غير واحد من أهل العلم. وهذا ظاهر لمن تأمله.
وإذا كان كذلك فنقول : ما علم بالكتاب والسنة والنقل المتواتر، من محاسن الصحابة وفضائلهم، لا يجوز أن يُدفع بنقولٍ بعضها منقطع، وبعضها محرّف، وبعضها لا يَقْدَح فيما عُلم، فإن اليقين لا يزول بالشك، ونحن قد تيقّنا ما دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قبلنا، وما يصدّق ذلك من المنقولات المتواترة من أدلة العقل، من أن الصحابة رضي الله عنهم أفضل الخلق بعد ا لأنبياء، فلا يقدح في هذا أمور مشكوك فيها، فكيف إذا علم بطلانها ؟!
وأما قوله : ((إن الشهرستاني من أشد المتعصبين على الإمامية)).
فليس كذلك، بل يميل كثيرا إلى أشياء من أمورهم، بل يذكر أحيانا أشياء من كلام الإسماعيلية الباطنية منهم ويوجهه. ولهذا اتهمه بعض الناس بأنه من الإسماعيلية، وإن لم يكن الأمر كذلك. وقد ذكر من اتهمه شواهد من كلا مه وسيرته. وقد يُقال : هو مع الشيعة بوجه، ومع أصحاب الأشعري بوجه.
وأما قول القائل : ((إن مثار الفساد بعد شبهة إبليس الاختلاف الواقع في مرض النبي صلى الله عليه وسلم)).
فهذا من أظهر الكذب الباطل، فإنه إن كان قصده أن هذا أول ذنب أذنب، فهذا باطل ظاهر البطلان.
وإن كان قصده أن هذا أول اختلاف وقع بعد تلك الشبهة، فهو باطل من وجوه :
أحدها : أن شبهة إبليس لم توقع خلافا بين الملائكة، ولا سمعها الآدميون منه حتى يوقع بينهم خلافا.
والثاني : أن الخلاف ما زال بين بني آدم من زمن نوح، واختلاف الناس قبل المسلمين أعظم بكثير من اختلاف المسلمين.
الوجه الثالث : أن الذي وقع في مرضه كان أهون الأشياء وأبْيَنها. وقد ثبت في الصحيح أنه قال لعائشة في مرضه : ((ادعى لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه الناس من بعدي)) ثم قال : ((يأبى الله و المؤمنون إلا أبا بكر)) فلما كان يوم الخميس همّ أن يكتب كتاباً، فقال عمر : ((ماله أهَجَر ؟))(1) فشكّ عمر هل هذا القول من هَجْر الحمّى، أو هو مما يقول على عادته. فخاف عمر أن يكون من هَجْر الحمى، فكان هذا مما خفى على عمر، كما خفى عليه موت النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أنكره. ثم ق ال بعضهم : هاتوا كتابا. وقال بعضهم : لا تأتوا بكتاب. فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الكتاب في هذا الوقت لم يبق فيه فائدة، لأنهم يشكون : هل أملاه مع تغيّره بالمرض ؟ أم مع سلامته من ذلك ؟ فلا يرفع النزاع. فتركه.

ولم تكن كتابة الكتاب مما أوجبه الله عليه أن يكتبه أو يبلغه في ذلك الوقت ، إذ لو كان كذلك لما ترك صلى الله عليه وسلم ما أمره الله به، لكن ذلك مما رآه مصلحة لدفع النزاع في خلافة أبي بكر.
ومن جهل الرافضة أنهم يزعمون أن ذلك الكتاب كان كتابه بخلافة عليّ، وهذا ليس في القصة ما يدل عليه بوجهٍ من الوجوه. ولا في شيء من الحديث المعروف عند أهل النقل أنه جعل عليًا خليفة. كما في الأحاديث الصحيحة ما يدل عَلَى خلافة أبي بكر. ثم يدّعون مع هذا أنه كان قد نصّ على خلافة عليّ نصًا جليًا قاطعا للعذر، فإن كان قد فعل ذلك فقد أغنى عن الكتاب، وإن كان الذين سمعوا ذلك لا يطيعونه فهم أيضا لا يطيعون الكتاب. فأي فائدة لهم في الكتاب لو كان كما زعموا ؟
وأما قوله : ((الخلاف الثاني : الواقع في مرضه : أنه قال : جهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه. فقال قوم : يجب علينا امتثال أمره، وأسامة قد برز، وقال قوم : قد اشتد مرضه، ولا يسع قلوبنا المفارقة)).
فالجواب : أن هذا كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالنقل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل : ((لعن الله من تخلف عنه)) ولا نُقل هذا بإسناد ثبت، بل ليس له إسناد في كتب أهل الحديث أصلا، ولا امتنع أحدٌ من أصحاب أسامة من الخروج معه لو خرج، بل كان أسامة هو الذي توقف في الخروج، لما خاف أن يموت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف أذهب وأنت هكذا، أسأل عنك الركبان ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم في المقام. ولو عزم عَلَى أسامة في الذهاب لأطاعه، ولو ذهب أسامة لم يتخلف عنه أحد ممن كان معه، وقد ذهبوا جميعهم معه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتخلف عنه أحد بغير إذنه.
وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن في جيش أسامة باتفاق أهل العلم، لكن روى أن عمر كان فيهم، وكان عمر خارجا مع أسامة، لكن طلب منه أبو بكر أن يأذن له في المقام عنده لحاجته إليه، فأذن له، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات كان أحرص الناس على تجهيز أسامة هوأبو بكر. وجمهور الصحابة أشاروا عليه بأن لا يجهّزه خوفاً عليهم من العدو، فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا أحل راية عقدها النبي صلى الله عليه وسلم .
ولكن أهل الفرية يزعمون أن الجيش كان فيه أبو بكر وعمر، وأن مقصود الرسول كان إخراجهما لئلا ينازعا عليًا. وهذا إنما يكذبه ويفتريه من هو من أجهل الناس بأحوال الرسول والصحابة، وأعظم الناس تعمداً للكذب، وإلا ف الرسول صلى الله عليه وسلم طول مرضه يأمر أبا بكر أن يصلّي بالناس، و الناس كلهم حاضرون، ولو وَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس من ولا ّه لأطاعوه، وكان المهاجرون والأنصار يحاربون من نازع أمر الله ورسوله، وهم الذين نصروا دينه أولا وآخرا.
ولو أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستخلف عليًا في الصلاة : هل كان يمكن أحدا أن يرده ؟ ولو أراد تأميره على الحج على أبي بكر ومن معه هل

كان ينازعه أحد ؟ ولو قال لأصحابه : هذا هو الأمير عليكم والإمام بعدي، هل كان يقدر أحد أن يمنعه ذلك ؟
ومعه جماهير المسلمين من المهاجرين والأنصار كلهم مطيعون لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ليس فيهم من يبغض عليًا، ولا من قتل عليّ أحداً من أقاربه.
ولو أراد إخراجهما في جيش أسامة خوفاً منهما، لقال للناس : لا تبايعوهما ؟ فيا ليت شعري ممن كان يخاف الرسول ؟ فقد نصره اللّه وأعزّه، وحوله المهاجرون والأنصار الذين لو أمرهم بقتل آبائهم وأبنائهم لفعلوا.
وقد أنزل اللّه سورة براءة، وكشف فيها حال المنافقين، وعرّفهم المسلمين، وكانوا مدحوضين مذمومين عند الرسول وأمته.
وأبو بكر وعمر كانا أقرب الناس عنده، وأكرم الناس عليه، وأحبهم إليه، وأخصهم به، واكثر الناس له صحبة ليلا ً ونهارا، وأعظمهم موافقة له ومحبة له، وأحرص الناس على امتثال أمره وإعلاء دينه. فكيف يُجَوّز عاقلٌ أن يكون هؤلاء عند الرسول من جنس المنافقين، الذين كان أصحابه قد عرفوا إعراضه عنهم، وإهانته لهم، ولم يكن يقرّب أحدا منهم بعد سورة براءة.
هذا وأبو بكر عنده أعز الناس وأكرمهم وأحبهم إليه.
وأما قوله : ((الخلاف الثالث في موته)).
فالجواب : لا ريب أن عمر خَفِيَ عليه موته أولا، ثم أقرّ به من الغد، واعترف بأنه كان مخطئا في إنكار موته، فارتفع الخلاف. وليس لفظ الحديث كما ذكره الشهرستاني. ولكن في الصحيحين عن ابن عبّاس أن أبا بكر خرج وعمر يكلِم الناس، فقال : اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر : ((أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت. قال اللّه تعالى :) وَمَا مُحَمّدٌ إلا ّ رَسُولٌ قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ أفَإِن مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ((1). قال : واللّه لكأن الناس لم يعلموا أن اللّه قد أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.
فأخبرني ابن المسيب أن عمر قال : ((واللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد مات))(2).
وأما قوله : ((الخلاف الرابع : في الإمامة. وأعظم خلاف بين الأمة خلاف ا لإمامة إذا ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإ مامة في كل زمان)).
فالجواب : أن هذا من أعظم الغلط، فإنه – ولله الحمد – لم يُسلّ سيفٌ على خلافة أبي بكر ولا عمر ولا عثمان، ولا كان بين المسلمين في زمنهم نزاع في الإمامة، فضلا عن السيف، ولا كان بينهم سيف مسلول على شيء من الدين.

والأنصار تكلم بعضهم بكلام أنكره عليهم أفاضلهم، كأُسَيْد بن حضير وعبّاد بن بشر وغيرهما ممن هو أفضل من سعد بن عبادة نفساً وبيتاً.
فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه في الصحيحين من غير وجه أنه قال : ((خير دور الأنصار دار بني النجّار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة. وفي كل دور الأ نصار خير))(1).
فأهل الدور الثلاثة المفضّلة : دار بني النجّار، وبني عبد الأشهل، وبني الحارث بن الخزرج لم يُعرف منهم من نازع في الإمامة، بل رجال بني النجّار ، كأبي أيوب الأنصاري وأبي طلحة وأُبَيّ بن كعب وغيرهم، كلهم لم يختاروا إلا أبا بكر.
وأُسيد بن حضير هو الذي كان مقدّم الأنصار يوم فتح مكة، عن يسار النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر عن يمينه، وهو كان من بني عبد الأشهل، وهو كان يأمر ببيعة أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك غيره من رجال الأنصار.
وإنما نازع سعد بن عبادة والحُبَاب بن المنذر وطائفة قليلة، ثم رجع هؤلاء وبايعوا الصدِّيق، ولم يُعرف أنه تخلف منهم إلا سعد بن عبادة.
وسعد، وإن كان رجلا صالحا، فليس هو معصوماً، بل له ذنوب يغفرها الله، وقد عرف المسلمون بعضها، وهو من أهل الجنّة السابقين الأوّلين من الأ نصار، رضي الله عنهم وأرضاهم.
فما ذكره الشهرستاني من أن الأنصار اتفقوا على تقديمهم سعد بن عبادة هو باطل باتفاق أهل المعرفة بالنقل، والأحاديث الثابتة بخلاف ذلك. وهو وأمثاله، وإن لم يتعمدوا الكذب، لكن ينقلون من كتب من ينقل عمّن يتعمد الكذب.
وكذلك قول القائل : إن عليّا كان مشغولا بما أمره النبي صلى الله عليه وسلم من دفنه وتجهيزه وملازمة قبره، فكذب ظاهر، وهو مناقض لما يدّعونه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُدفن إلا بالليل، لم يدفن بالنهار.
وقيل : إنه إنما دُفن من الليلة المقبلة، ولم يأمر أحدا بملازمة قبره، ولا لازم عليّ قبره، بل قُبِرَ في بيت عائشة، وعليّ أجنبي منها.
ثم كيف يُأمر بملازمة قبره، وقد أمر– بزعمهم – أن يكون إماما بعده ؟
ولم يشتغل بتجهيزه عليّ وحده، بل عليّ، والعباس، وبنو العباس، ومولاه شقران، وبعض الأنصار، وأبو بكر وعمر، وغيرهما عَلَى باب البيت، حاضرين غسله وتجهيزه، لم يكونوا حينئذ في بني ساعدة.
لكن السنّة أن يتولى الميت أهله، فتولى أهله غسله، وأخّروا دفنه ليصلّي المسلمون عليه، فإنه صلّوا عليه أفراداً، واحد بعد واحد، رجالهم ونساؤهم : خلق كثير، فلم يتسع يوم الاثنين لذلك مع تغسيله وتكفينه، بل صلّوا عليه يوم الثلاثاء، ودفن يوم الأربعاء.
وأيضا فالقتال الذي كان في زمن عليّ لم يكن على الإمامة، فإن أهل الجمل وصفّين والنهروان لم يقاتلوا عَلَى نصب إمامٍ غير عليّ، ولا كان

معاوية يقول : أنا الإمام دون عليّ، ولا قال ذلك طلحة والزبير.
فلم يكن أحد ممن قاتل عليًا قبل الحكمَيْن تصَب إماماً يقاتل عَلى طاعته، فلم يكن شيء من هذا القتال على قاعدة من قواعد الإمامة المنازع فيها، لم يكن أحد من المقاتلين يقاتل طعناً في خلافة الثلاثة، ولا ادعاء للنص على غيرهم، ولا طعنا في جواز خلافة عليّ.
فالأمر الذي تنازع فيه الناس من أمر الإمامة، كنزاع الرافضة والخوارج المعتزلة وغيرهم، ولم يقاتل عليه أحد من الصحابة أصلا، ولا قال أحد منهم : إن الإمام المنصوص عليه هو عليّ، ولا قال : إن الثلاثة كانت إمامتهم باطلة، ولا قال أحد منهم : إن عثمان وعليًا وكل من والاهما كافر.
فدعوى المدّعى أن أول سيف سُلّ بين أهل القبلة كان مسلولا على قواعد الإ مامة التي تنازع فيها الناس، دعوى كاذبة ظاهرة الكذب، يُعرف كذبها بأدنى تأمل، مع العلم بما وقع.
وإنما كان القتال قتال فتنة عند كثير من العلماء، وعند كثير منهم هو من باب قتال أهل العدل والبغى، وهو القتال بتأويل سائغ لطاعة غير الإمام، لا على قاعدة دينية.
ولو أن عثمان نازعه منازعون في الإمامة وقاتلهم، لكان قتالهم من جنس قتال عليّ، وإن كان ليس بينه وبين أولئك نزاع في القواعد الدينية.
ولكن أول سيف سُلّ على الخلاف في القواعد الدينية سيف الخوارج، وقتالهم من أعظم القتال،وهم الذين ابتدعوا أقوالا ً خالفوا فيها الصحابة وقاتلوا عليها، وهم الذين تواترت النصوص بذكرهم، كقوله صلى الله عليه وسلم : ((تمرق مارقة على حين فُرقة من المسلمين، تقتلهم أوْلى الطائفتين بالحق))(1).
وعليّ رضي الله عنه لم يقاتل أحداً على إمامة من قاتله، ولا قاتله أحدٌ على إمامته نفسه، ولا ادّعى أحدٌ قط في زمن خلافته أنه أحقُ بالإمامة منه : لا عائشة، ولا طلحة، ولا الزبير، ولا معاوية وأصحابه، ولا الخوارج، بل كل الأ مة كانوا معترفين بفضل عليّ وسابقته بعد قتل عثمان، وأنه لم يبق في الصحابة من يماثله في زمن خلافته، كما كان عثمان كذلك : لم ينازع قط أحدٌ من المسلمين في إمامته وخلافته، ولا تخاصم اثنان في أن غيره أحق بِ الإمامة منه، فضلا عن القتال على ذلك. وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.
وبالجملة فكل من له خبرة بأحوال القوم يعلم علما ضروريا أنه لم يكن بين المسلمين مخاصمة بين طائفتين في إمامة الثلاثة، فضلا عن قتال.
وكذلك عليٌ : لم يتخاصم طائفتان في أن غيره أحق بالإمامة منه. وإن كان بعض الناس كارهاً لولاية أحدٍ من الأربعة، فهذا لا بد منه. فإن من الناس من كان كارهاً لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف من لا يكون فيهم من يكره إمامة بعض الخلفاء ؟
ثم قد تبين أن الصحابة لم يقتتلوا على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان و

النزاع بينهم. فتبين أن خلافتهم كانت بلا سيف مسلول أصلا، وإنما كان السيف مسلولا في خلافة عليّ. فإن كان هذا قدحاً، فالقدح يختص بمن كان السيف في زمانه بين الأمة.
وهذه حجة للخوارج. وحجتهم أقوى من حجة الشيعة ، كما أن سيوفهم أقوى من سيوف الشيعة،ودينهم أصح، وهم صادقون لا يكذبون. ومع هذا فقد ثبت بالسنة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفاق أصحابه أنهم مبتدعون مخطئون ضُلا ّل، فكيف بالرافضة، الذين هم أبعد منهم عن العقل والعلم والدين والصدق والشجاعة والورع وعامة خصال الخير؟!
ولم يعرف في الطوائف أعظم من سيف الخوارج، ومع هذا فلم يقاتل القوم على خلافة أبي بكر وعمر، بل هم متفقون على إمامتهما وموالاتهما.
وقوله : ((الخلاف الخامس : في فَدَك والتوارث. رووا عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((نحن معاشر الأنبياء لا ثورث، ما تركناه صدقة)).
فيقال : هذا أيضا اختلاف في مسألة شرعية، وقد زال الخلاف فيها والخلا ف في هذه دون الخلاف في ميراث الإخوة مع الجد، وميراث الجدة مع ابنها، وحجب الأم بالأخوين، وجعل الجد مع الأم كالأب، وأمثال ذلك من مسائل الفرائض التي تنازعوا فيها.
وقد تولى عليّ بعد ذلك، وصار فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعطها لأولاد فاطمة، ولا أخذ من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ،ولا ولد العباس شيئا من ميراثه.
فلو كان ذلك ظلما وقدر على إزالته، لكان هذا أهون عليه من قتال معاوية وجيوشه. أفتراه يقاتل معاوية، مع ما جرى في ذلك من الشر العظيم، ولا يعطى هؤلاء قليلا من المال، وأمره أهون بكثير ؟
وأما قوله : ((الخلاف السادس : في قتال مانعي الزكاة، قاتلهم أبو بكر، واجتهد عمر في أيام خلافته، فردّ السبايا والأموال إليهم، وأطلق المحبوسين)).
فهذا من الكذب الذي لا يخفى على من عرف أحوال المسلمين ؛ فإن مانعي الزكاة اتفق أبو بكر وعمر على قتالهم، بعد أن راجعه عمر في ذلك.
كما في الصحيحين عن أبي هريرة أن عمر قال لأبي بكر : يا خليفة رسول الله، كيف تقاتل الناس، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله))؟
فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقّها وحسابهم على الله ؟ فإن الزكاة من حقّها. و الله لو منعونى عَنَاقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر : فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق(1).
فعمر وافق أبا بكر على قتال أهل الردة مانعي الزكاة، وكذلك سائر الصحابة. وأقرّ أولئك بالزكاة بعد امتناعهم منها، ولم تسب لهم ذرية، ولا حبس منهم

أحد، ولا كان بالمدينة حَبْس لا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و لا على عهد أبي بكر. فكيف يموت وهم في حبسه ؟.
وقوله : ((الخلاف السابع : في تنصيص أبي بكر على عمر في الخلافة. فمن الناس من قال : وليّت علينا فظًّا غليظاً)).
والجواب : أن يُقال : من جَعَل مثل هذا خلافا ؟ فقد كان مثل هذا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : قد طعن بعض الصحابة في إمارة زيد بن حارثة، وبعضهم في إمارة أسامة ابنه. وقد كان غير واحد يطعن فيمن يوليه أبو بكر وعمر. ثم إن القائل لها : كان طلحة، وقد رجع عن ذلك، وهو من أشد الناس تعظيما لعمر، كما أن الذين طعنوا في إمارة زيد وأسامة رجعوا عن طعنهم طاعة لله ورسوله.
وقوله : ((الخلاف الثامن : في إمرة الشورى، واتفقوا بعد الاختلاف على إمامة عثمان)).
والجواب : أن هذا من الكذب الذي اتفق أهل النقل على أنه كذب ؛ فإنه لم يختلف أحد في خلافة عثمان، ولكن بقي عبد الرحمن يشاور الناس ثلاثة أيام، وأخبر أن الناس لا يعدلون بعثمان، وأنه شاور حتى العذارى في خدورهن. وإن كان في نفس أحد كراهة، لم يَنْقل – أو قال – أحدٌ شيئا ولم ينقل إلينا.
فمثل هذا قد يجري في مثل هذه الأمور. والأمر الذي يتشاور فيه الناس لا بد فيه من كلام، لكن لا يمكن الجزم بذلك بمجرد الحزر.
وأما قوله : ووقعت اختلافات كثيرة منها : ردّه الحَكم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يُسمّى طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن كان يشفع إلى أبي بكر وعمر أيام خلا فتهما، فما أجاباه إلى ذلك، ونفاه عمر من مقامه باليمن أربعين فرسخاً)).
فيقال : مثل هذا إن جعله اختلافا جعل كلما حكم خليفة بحكم ونازعه فيه قوم اختلافا. وقد كان ذكرك لما اختلفوا فيه من المواريث والطلاق وغير ذلك أصح وأنفع، فإن الخلاف في ذلك ثابت منقول عند أهل العلم، ينتفع الناس بذكره والمناظرة فيه. وهو خلاف في أمر كلي يصلح أن تقع فيه المناظرة.
وأما هذه الأمور فغايتها جزئية، ولا تُجعل مسائل خلاف يتناظر فيها الناس.
هذا مع أن فيما ذكره كذبا كثيراً، منه ما ذكره من أمر الحَكم، وأنه طرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه استشفع إلى أبي بكر وعمر أيام خلافتهما فما أجاباه إلى ذلك، وأن عمر نفاه من مقامه باليمن أربعين فرسخاً. فمن الذي نقل ذلك ؟ وأين إسناده ؟ ومتى ذهب هذا إلى اليمن ؟ وما الموجب لنفيه إلى اليمن وقد أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم على ما يدعونه بالطائف، وهي أقرب إلى مكة والمدينة من اليمن ؟ فإذا كان رسول الله أقرّه قريبا منه، فما الموجب لنفيه بعد ثبوته إلى اليمن ؟

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن نفي الحَكم باطل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفه إلى الطائف، بل هو ذهب بنفسه. وذكر بعض الناس أنه نفاه، ولم يذكروا إسنادا صحيحاً بكيفية القصة وسببها.
وقوله : ((ومنها نفيه أبا ذر إلى الربذة،وتزويجه ابنته مروان بن الحكم، وتسليمه خمس غنائم إفريقية، وقد بلغت مائتي ألف دينار)).
فيقال : أما قصة أبي ذر فقد تقدم ذكرها، وأما تزويجه مروان ابنته فأي شيء في هذا مما يجعل اختلافا ؟ وأما إعطاؤه خمس غنائم أفريقية. فمن الذي نقل هذا، وتقدم قوله : أعطاه ألف ألف دينار والمعروف أن خمس أفريقية لم يبلغ ذلك.
وقوله : ومنها إيواؤه عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد أن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، وتوليته مصر.
فالجواب : إن كان المراد أنه لم يزل مهدر الدم حتى ولاه عثمان، كما يفهم من الكلام. فهذا لا يقوله إلا مفرط في الجهل بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته ؛ فإن الناس كلهم متفقون على أنه في عام فتح مكة، بعد أن كان النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دم جماعة منهم عبد الله بن سعد، أتى عثمان به النبي صلى الله عليه وسلم وبايعه النبي صلى الله عليه وسلم بعد مراجعة عثمان له في ذلك، وحقن دمه، وصار من المسلمين المعصومين، له ما لهم، وعليه ما عليهم.
وأما قوله : ((كان عامل جنوده معاوية بن أبي سفيان عامل الشام، وعامل الكوفة سعيد بن العاص، وبعده عبد الله بن عامر، والوليد بن عقبة عامل البصرة)).
فيقال : أمّا معاوية فولا ّه عمر بن الخطاب لما مات أخوه يزيد بن أبي سفيان مكانه، ثم ولا ّه عثمان رضي الله عنه الشام كله، وكانت سيرته في أهل الشام من أحسن السير، وكانت رعيته من أعظم الناس محبةً له.
وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبّونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم))(1).
وكان معاوية تحبه رعيته وتدعو له، وهو يحبها ويدعو لها.
وأما توليته لسعيد بن العاص فأهل الكوفة كانوا دائما يشكون من ولاتهم. وَلِيَ عليهم سعد بن أبي وقاص، وأبو موسى الأشعري، وعمّار بن ياسر و المغيرة بن شعبة،وهم يشكون منهم، وسيرتهم في هذا مشهورة. ولا شك أنهم كانوا يشكون في زمن عثمان أكثر. وقد عُلم أن عثمان وعليًا رضي الله عنهما كل منهما ولى أقاربه، وحصل له بسبب ذلك من كلام الناس وغير ذلك ما حصل.
وأما قوله : ((الخلاف التاسع : في زمن أمير المؤمنين عليه السلام بعد الا تفاق عليه وعقد البيعة له، فأوّلا خروج طلحة والزبير إلى مكة، ثم حمل عائشة إلى البصرة، ثم نصب القتال معه، ويُعرف ذلك بحرب الجمل، والخلا ف بينه وبين معاوية وحرب صفين، ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأ

أشعري، وكذا الخلاف بينه وبين الشرارة المارقين بالنهروان. وبالجملة كان عليّ مع الحق والحق معه، وظهر في زمانه الخوارج عليه، مثل الأشعث بن قيس، ومِسْعَر بن فُدَكى التميمي، وزيد بن حصين الطائي وغيرهم، وظهر في زمنه الغلاة كعبد الله بن سبأ. ومن الفرقتين ابتدأت الضلالة والبدع، وصدق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : يهلك فيك اثنان : محبٌ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ.
فانظر بعين الإنصاف إلى كلام هذا الرجل، هل خرج موجب الفتنة عن المشايخ أو تعدّاهم ؟)).
والجواب : أن يقال هذا الكلام مما يبين تحامل الشهرستاني في هذا الكتاب مع الشيعة كما تقدم، وإلا فقد ذكر أبا بكر وعثمان، ولم يذكر من أحوالهم أن الحقّ معهم دون من خالفهم، ولما ذكر عليًّا قال : ((وبالجملة كان الحق مع عليّ وعليّ مع الحق)) والناقل الذي لا غرض له : إما أن يحكى الأمور بالأ مانة، وإما أن يعطى كل ذي حقٍ حقّه. فأما دعوى المدّعى أن الحق كان مع عليّ وعليّ مع الحق، وتخصيصه بهذا دون أبي بكر وعمر وعثمان، فهذا لا يقوله أحد من المسلمين غير الشيعة.
ومما يبين فساد هذا الكلام قوله : ((إن الاختلاف وقع في زمن عليّ بعد الا تفاق عليه وعقد البيعة له)). ومن المعلوم أن كثيراً من المسلمين لم يكونوا بايعوه، حتى كثير من أهل المدينة ومكة الذين رأوه لم يكونوا بايعوه، دع الذين كانوا بعيدين، كأهل الشام ومصر والمغرب والعراق وخراسان.
وكيف يقال مثل هذا في بيعة عليّ، ولا يقال في بيعة عثمان التي اجتمع عليها المسلمون كلهم ولم يتنازع فيها اثنان ؟
وكذلك ما ذكره من التعريض بالطعن على طلحة والزبير وعائشة من غير أن يذكر لهم عذراً ولا رجوعا. وأهل العلم يعلمون أن طلحة والزبير لم يكونا قاصدين قتال عليّ ابتداءً. وكذلك أهل الشام لم يكن قصدهم قتاله، وكذلك عليّ لم يكن قصده قتال هؤلاء ولا هؤلاء.

ولكن حرب الجمل جرى بغير اختياره ولا اختيرهم فإنهم كانوا قد اتفقوا على المصالحة وإقامة الحدود على قتلة عثمان، فتواطأت القتلة على إقامة الفتنة آخرا كما أقاموها أولا، فحملوا على طلحة والزبير وأصحابهما، فحملوا دفعاً عنهم، وأشعروا عليًّا أنهما حملا عليه، فحمل عليٌ دفعاً عن نفسه، وكان كل منهما قصده دفع الصيال لا ابتداء القتال. هكذا ذكر غير واحد من أهل العلم بالسير. فإن كان الأمر قد جرى على وجه لا ملام فيه فلا كلام، وإن كان قد وقع خطأ أو ذنب من أحدهما أو كليهما فقد عرف أن هذا لا يمنع ما دل عليه الكتاب والسنة من أنهم من خيار أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين، وأنهم من أهل الجنة.
وقول هذا الرافضي : ((انظر بعين الإنصاف إلى كلام هذا الرجل هل خرج موجب الفتنة عن المشايخ أو تعدّاهم ؟)).

فالجواب : أن يُقال : أمّا الفتنة فإنما ظهرت في الإسلام من الشيعة، فإنهم أساس كل فتنة وشر، وهم قطب رحى الفتن، فإن أول فتنة كانت في الإسلا م قتل عثمان.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ثلاث من نجا منهن فقد نجا : موتى، وقتل خليفة مضطهد بغير حق، و الدجّال)).([29])

ومن استقرأ أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقا على الهدى والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك، إذ يقول :) كُنتُم خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ(([30]) .

وأبعد الناس عن الطائفة المهدية المنصورة هم الرافضة، لأنهم أجهل وأظلم طوائف أهل الأهواء المنتسبين إلى القبلة، وخيار هذه الأمة هم الصحابة، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلا من كثير.

وأما ما يقترحه كل أحد في نفسه مما لم يُخلق، فهذا لا اعتبار به. فهذا يقترح معصوماً من الأئمة، وهذا يقترح ما هو كالمعصوم وإن لم يسمه معصوما، فيقترح في العالم والشيخ والأمير والملك ونحو ذلك، مع كثرة علمه ودينه ومحاسنه، وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير، يقترح مع ذلك أن لا يكون قد خَفِيَ عليه شيء ولا يخطئ في مسألة، وأن يخرج عن حد البشرية فلا يغضب، بل كثير من هؤلاء فيهم مالا يقترح في الأنبياء.

وقد أمر الله تعالى نوحاً ومحمداً أن يقولا :) لا َ أَقُولُ لَكُم عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا َ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلا َ أَقُولُ إِنّي مَلَكٌ(([31]) فيريد الجهال من المتبوع أن يكون عالماً بكل ما يُسأل عنه، قادراً على كل ما يُطلب منه، غنيًّا عن الحاجات البشرية كالملائكة. وهذا الاقتراح من ولاة الأمر كاقتراح الخوارج في عموم الأمة، أن لا يكون لأحدهم ذنب، ومن كان له ذنب كان عندهم كافراً مخلداً في النار.

وكل هذا باطل خلاف ما خلقه الله، وخلاف ما شرعه الله.

فليس الضلال والغيّ في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في الرافضة، كما أن الهدى والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسنة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يتبعون قول غيره إ لا إذا اتبع قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله.

وقد تبين أن هذا الكلام الذي ذكره هذا الرجل فيه من الباطل ما لا يخفى على عاقل، ولا يحتج به إلا من هو جاهل، وأن هذا الرجل كان له بالشيعة إلمام واتصال، وأنه دخل في هواهم بما ذكره في هذا الكتاب، مع أنه ليس

من علماء النقل والآثار،وإنما هو من جنس نقلة التواريخ التي لا يعتمد عليها أولو الأبصار.
ومن نظر في كتب الحديث والتفسير والفقه والسير علم أن الصحابة رضي اللّه عنهم كانوا أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وأن أصل كل فتنة وبَلِيّة هم الشيعة ومن انضو إليهم، وكثير من السيوف التي سُلّت في الإسلام إنما كانت من جهتهم، وعلم أن أصلهم ومادتهم منافقون، اختلقوا أكاذيب، وابتدعوا آراء فاسدة، ليفسدوا بها دين الإسلام، ويستزلّوا بها مَن ليس مِن أولى الأحلام، فسعوا في قتل عثمان، وهو أول الفتن، ثم أنزووا إلى عليّ، لا حباً فيه ولا في أهل البيت، لكن ليقيموا سوق الفتنة بين المسلمين.
ولهذا تجد الشيعة ينتصرون لأعداء الإسلام المرتدين، كبني حنيفة أتباع مُسَيْلمة الكذّاب، ويقولون : إنهم كانوا مظلومين، كما ذكر صاحب هذا الكتاب ، وينتصرون لأبي لؤلؤة الكافر المجوسي.[86]

****

سادسا- الفتنة في عهد علي رضي الله عنه[87]

[86] -مختصر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله 2/8- فما بعد
[87] - إنه الصحابي الجليل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .، أبوه هو أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب، وأمه السيدة فاطمة بنت أسد بن هاشم -رضي الله عنها-.
ولد علي -رضي الله عنه- قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وكان أصغر إخوته، وتربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليّا إلى الإيمان بـالله وحده، فأسرع -رضي الله عنه- بقبول الدعوة، ودخل في دين الله، فكان أول من أسلم من الصبيان.
ولما رآه أبو طالب يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال علي: يا أبي، آمنت برسول الله، وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فقال أبو ط الب: أما إنه لم يَدْعُك إلا لخير، فالزمه.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عليّا، ويثني عليه، فكان يقول له: "أنت مني وأنا منك" [البخاري]. وكان يقول له: "لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق" [مسلم].
وعندما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى المدينة، أمر علي بن أبي طالب أن ينام في فراشه، وفي ليلة الهجرة في جنح الظلام، تسلل مجموعة من كفار مكة، وفي يد كل واحد منهم سيف صارم حاد، وقفوا أمام باب بيت النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرون خروجه لصلاة الفجر، ليضربوه ضربة رجل واحد، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتلك المؤامرة، وأمره بالخروج من بينهم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد أعمى الله أبصار المشركين، فألقى النبي صلى الله عليه وسلم التراب على رؤوسهم وهو يقرأ قول الله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون). [يس: 9].
ولما طلعت الشمس؛ استيقظ المشركون، وهجموا على البيت، ورفعوا سيوفهم، ليضربوا النائم، فإذا بهم لا يجدونه رسول الله، وإنما هو ابن عمه علي بن أبي طالب، الذي هب واقفًا في جرأة ساخرًا من

المشركين، ومحقرًا لشأنهم.
وظل عليّ في مكة ثلاثة أيام بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لكي يرد الودائع ، كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم .، ولما هاجر وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين المهاجرين والأنصار، فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنت أخي في الدنيا والآخرة" [ابن عبد البر].
وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، فكان أحد العشرة المبشرين بها، وقد زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة -رضي الله عنها-، وقدم عليّ لها مهرًا لسيدة نساء العالمين وريحانة الرسول صلى الله عليه وسلم .
وعاش علي -رضي الله عنه- مع زوجته فاطمة في أمان ووفاق ومحبة، ورزقه الله منها الحسن و الحسين.
وذات يوم ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار علم فلم يجده، فسأل عنه زوجته فاطمة الزهراء: "أين ابن عمك"؟ فقالت: في المسجد، فذهب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم هناك، فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وأصابه التراب فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يمسح التراب عن ظهره ، ويقول له: "اجلس يا أبا تراب..اجلس يا أبا تراب"[البخاري].
وشهد علي مع النبي صلى الله عليه وسلم جميع الغزوات، وعرف بشجاعته وبطولته، وفي يوم خيبر قال النبي صلى الله عليه وسلم "لأعطين الراية غدًا رجلا يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أو قال: يحب الله ورسوله)، يفتح الله على يديه" [البخاري].
فبات الصحابة كل منهم يتمنى أن يكون هو صاحب الراية، فلما أصبح الصباح، سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عليّ، فقيل له: إنه يشتكي عينيه يا رسول الله، قال: "فأرسلوا إليه، فأتوني به".
فلما جاء له، بصق في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلتم حتى يكونوا مثلنا: "أنفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا ً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم" [البخاري]. ففتح الله على يديه.
ولما نزل قول الله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا) [الأحزاب: 32]، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة وعليًا والحسن والحسين-رضي الله عنهم-في بيت السيدة أم سلمة، وقال: "اللهمّ إن هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا" [ابن عبد البر].
وعرف علي -رضي الله عنه- بالعلم الواسع، فكانت السيدة عائشة -رضي الله عنها- إذا سئلت عن شيء قالت: اسألوا عليًا وكان عمر كذلك.
وكان عليّ يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل.
وكان أبو بكر وعمر في خلافتيهما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفان لعلي الفضل، وقد اختاره عمر ليكون من الستة أصحاب الشورى الذين يختار منهم الخليفة، ولما استشهد عثمان -رضي الله عنه- اختير عليّ ليكون الخليفة من بعده.
ولما تولي عليّ الخلافة نقل مقرها من المدينة إلى العراق، وكان -رضي الله عنه-يحرص على شئون أمته فيسير بنفسه في الأسواق ومعه درعه (عصاه) ويأمر الناس بتقوى الله، وصدق الحديث، وحسن البيع، والوفاء بالكيل والميزان.
وكان يوزع كل ما يدخل بيت المال من الأموال بين المسلمين، وقبل وفاته أمر بتوزيع كل المال، وبعد توزيعه أمر بكنس بيت المال، ثم قام فصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة.
وكان -رضي الله عنه- كثير العبادة، يقوم من الليل فيصلي ويطيل صلاته، ويقول مالي وللدنيا، يا دنيا غرّي غيري.
وقد جاءت إليه امرأتان تسألانه، إحداهما عربية والأخرى مولاة، فأمر لك واحدة منهما بكسر من طعام وأربعين درهمًا، فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت، وقالت العربية: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة؟ فقال لها علي -رضي الله عنه- : إني نظرت في كتاب الله -عز وجل- فلم أر فيه فضلا ً لولد إسماعيل على ولد إسحاق -عليهما الصلاة والسلام-.
وفي آخر خلافة علي -رضي الله عنه- كانت الفتنة قد كبرت، وسادت الفوضى أرجاء واسعة من الدولة الإسلامية، فخرج ثلاثة من شباب الخوارج، وتواعدوا على قتل من ظنوا أنهم السبب المباشر في تلك الفتن وهم علي، ومعاوية،

وعمرو بن العاص، فأما معاوية وعمرو فقد نجيا، وأما عليٌ فقد انتظره الفاسق عبد الرحمن بن ملجم، وهو خارج إلى صلاة الفجر، فتمكن منه، وأصابه في رأسه إصابة بالغة أشرف منها على الموت، وكان ذلك في سنة (40 هـ)، وعمره آنذاك (65) سنة.
ودفن بالكوفة بعد أن ظل خليفة للمسلمين خمس سنين إلا أربعة أشهر، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أربعمائة حديث، فرضي الله عنه وأرضاه.
=======================
إسلامه
سبب إسلامه أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة رضي الله عنها وهما يصليان سواء، فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسوله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته والكفر باللات والعزى"
فقال له عليٌ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب.
وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: "يا عليّ! إن لم تُسلم فاكتم هذا".
فمكث عليٌ ليلته، ثم إن الله تعالى هداه إلى الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يديه، وكان عليٌ رضي الله عنه يخفي إسلامه خوفاً من أبيه، إلى أن اطلع عليه وأمره بالثبات عليه فأظهره حينئذٍ. أما أبو طالب فلم يرض أن يفارق دين آبائه، وتقول الشيعة: إنه أسلم في آخر حياته.
عن أنس بن مالك قال: بُعث النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وأسلم عليٌ يوم الثلاثاء، وهو ابن عشر سنين، وقيل: تسع، ولم يعبد الأوثان قط لصغره
ليلة الهجرة
قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أن هاجر أصحابه إلى المدينة، ينتظر مجيء جبريل عليه السلام وأمْرَه له يخرج من مكة بإذن الله له في الهجرة إلى المدينة، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت بالنبي وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرادوا، أتاه جبريل عليه السلام وأمره أن لا يبيت في مكانه الذي يبيت فيه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجّى بِبُرد له أخضر ففعل، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه. وتتابع الناس في الهجرة، وكان آخر من قدم المدينة من الناس ولم يُفتن في دينه عليّ بن أبي طالب.
ولما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه قال له: إن قريشاً لم يفقدوني ما رأوك، فاضطجع على فراشه.
وكانت قريش تنظر إلى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرون عليه علياً فيظنونه النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أصبحوا رأوا عليه علياً. فقالوا: لو خرج محمد لخرج بعليّ معه، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبي حين رأوا علياً.
هجرته الى المدينة
قال عليّ رضي الله عنه: "لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في الهجرة أمرني أن أقيم بعده حتى أؤدي ودائع كانت عنده للناس، ولذا كان يسمى الأمين، فأقمت ثلاثاً فكنت أظهر ما تغيبت يوماً واحداً.
ثم خرجت فجعلت أتبع طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدمت بني عمرو بن عوف ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم، فنزلت على كلثوم بن الهدم، وهنالك منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم".
خرج عليّ رضي الله عنه قاصداً المدينة، فكان يمشي الليل ويُكمن النهار حتى قدم المدينة، فلما بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم قدومُه قال: "ادعوا لي عليّاً".
قيل: يا رسول الله لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دماً، فتَفَل النبي صلى الله عليه وسلم في يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية، فلم يشتكهما حتى استشهد رضي الله تعالى عنه.
ابو تراب
دخل عليّ على فاطمة ثم خرج من عندها فاضطجع في المسجد، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة، فقال لها: "أين ابنُ عمك؟"
فقالت: هو ذاك مضطجع في المسجد، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجده قد سقط رداؤه

عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: "اجلس أبا تراب"، فوالله ما سمّاه به إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووالله ما كان له اسم أحبّ إليه منه.
غزواته فى سبيل الله
شهد عليّ رضي الله عنه الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان له شأن عظيم، وأظهر شجاعة عجيبة، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء في مواطن كثيرة.
في غزوة بدر الكبرى، كان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان، إحداهما مع عليّ يقال لها (العقاب) والأخرى مع الأ َنصار. وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبارز في هذه الغزوة الوليدَ بن عتبة، فبارزه وقتله وكان من أشد أعداء رسول الله.
وفي غزوة أحد قام طلحة بن عثمان فقال: يا معشر أصحاب محمد! إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة، أو يعجلني بسيفه إلى النار؟؟
فقام إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى أعجلك بسيفي إلى النار، أو تعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه عليّ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته.
فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن عم، فتركه، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لعليّ أصحابُه: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييتُ منه.
وفي غزوة خيبر أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجبنه أصحابه ويجبنهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأعطين اللواء غداً رجلا ً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله" فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر وعمر فدعا علياً، وهو أرمد فتفل في عينيه وأعطاه اللواء
وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والزبير بن العوام في أثر المرأة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش وذلك لمّا أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة. فخرجا وأدركاها بالحليفة فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً. فقال لها عليٌ بن أبي طالب: إني أحلف ما كذب رسول الله، ولا كذبنا، ولتخْرجِنّ إليّ هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجدّ منه، قالت: أعرض عني، فأعرض عنها. فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه. فدفعته إليه، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان عليّ رضي الله عنه ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين انهزم المسلمون كما ثبت في غزوة أحد، وفي غزوة تبوك خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم. فأرجف المنافقون بعليّ وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا ً له وتخففاً منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ عليٌ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجُرْف - موضع على ثلاثة أميال من المدينة - فقال: يا نبيّ الله زعم المنافقون أنك لمّا خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني. فقال: "كذبوا ولكني إنما خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، ألا أنه لا نبيّ بعدي"فرجع عليٌ إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره.
منزلته عند رسول الله
من الاحاديث التى وردت فى فضل على بن أبى طالب كرم الله وجهه
"اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه". ٦
" عليٌ مني وأنا من عليّ"
"أنت أخي في الدنيا والآخرة"
"من آذى علياً فقد آذاني".
"من أحب علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله" ٦
"عليٌ مع القرآن، والقرآن مع عليّ، لا يفترقان حتى يردا الحوض" ٦
قضاؤه
عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أقضَى أمّتي عليٌ". وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أقضانا عليٌ بن أبي طالب.
وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ: "تختصم الناسَ بسبع، ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية،

وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية".
عن عليّ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضياً وأنا حديث السنّ. فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لي بالقضاء.
قال: "إن الله سيَهدي لسانك، ويثبت قلبك".
قال: فما شككت في قضاء بين اثنين. وفي رواية: "إن الله يثبت لسانك، ويَهدي قلبك" ثم وضع يده على فمه.
وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فوجد أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها ا لأسد، سقط أولا ً رجل فتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة فجرحهم الأسد وماتوا من جراحته، فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون. فقال عليّ: أنا أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا ّ حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي بينكم. اجمعوا من القبائل التي حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة، فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه، وللذي يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف لأنه أهلك من فوقه، وللرابع الدية كاملة، فأبوا أن يرضوا. فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه عند مقام إبراهيم فقصُّوا عليه القصة. فقال: "أنا أقضي بينكم" - واحتبى ببردة - فقال رجل من القوم: إن علياً قضى بيننا، فلما قصوا عليه القصة أجازه.
صدقته و زهده و تواضعه
عن عمّار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ: "إن الله قد زيّنك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها، هي زينة الأبرار عند الله، الزهد في الدنيا. فجعلك لا ترزأ من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووصب لك المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً"
وعن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ، كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلا ً لمّاً، وأحبوا المال حبّاً جمّاً، واتخذوا دين الله دَغَلا ً، ومال الله دُوَلا ً؟"
قلت: أتركهم حتى ألحق بك إن شاء الله تعالى.
قال: "صدقت، اللهم افعل ذلك به"
أذن بلال بصلاة الظهر فقام الناس يصلون فمن بين راكع وساجد وسائل يسأل. فأعطاه عليّ خاتمه وهو راكع فأخبر السائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ يُقِيْمُونَ الصَّلا ةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُوْنَ}
اشترى عليّ رضي الله عنه تمراً بدرهم فحمله في ملحفته فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟
قال: أبو العيال أحق بحمله.
وعوتب في لباسه، فقال: ما لكم وللباسي! هذا هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي به المسلم
خلافته
لما استشهد عثمان -رضي الله عنه- سنة (35 هـ) بايعه الصحابة والمهاجرين و الأنصار وأصبح رابع الخلفاء الراشدين ، يعمل جاهدا على توحيد كلمة المسلمين واطفاء نار الفتنة ، وعزل الولاة الذين كانوا مصدر الشكوى
ذهبت السيدة عائشة زوجة الرسول -صلى الله عليه وسلم- الى مكة المكرمة لتأدية العمرة في شهر محرم عام 36 هجري ، ولما فرغت من ذلك عادت الى المدينة ، وفي الطريق علمت باستشهاد عثمان واختيار علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين ، فعادت ثانية الى مكة حيث لحق بها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام -رضي الله عنهما- وطالب الثلاثة الخليفة بتوقيع القصاص على الذين شاركوا في الخروج على الخليفة عثمان -رضي الله عنه- ، وكان من رأي الخليفة الجديد عدم التسرع في ذلك ، وا لانتظار حتى تهدأ نفوس المسلمين ،وتستقر الأوضاع في الدولة الاسلامية ، غير أنهم لم يوافقوا على ذلك واستقر رأيهم على التوجه الى البصرة ، فساروا اليها مع أتباعهم
معركة الجمل
خرج الخليفة من المدينة المنورة على رأس قوة من المسلمين على أمل أن يدرك السيدة عائشة -رضي الله عنها- ، ويعيدها ومن معها الى مكة المكرمة ، ولكنه لم يلحق بهم ، فعسكر بقواته في (ذي قار) قرب البصرة ، وجرت محاولات للتفاهم بين الطرفين ولكن الأمر لم يتم ، ونشب القتال بينهم وبذلك بدأت موقعة الجمل في شهر جمادي الآخرة عام 36 هجري ، وسميت بذلك نسبة الى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة -رضي الله عنها- خلال الموقعة ، التي انتهت بانتصار قوات الخليفة ، وقد أحسن علي -رضي الله عنه- استقبال السيدة عائشة وأعادها الى المدينة المنورة معززة مكرمة ، بعد

أن جهزها بكل ما تحتاج اليه ، ثم توجه بعد ذلك الى الكوفة في العراق ، واستقر بها ، وبذلك أصبحت عاصمة الدولة الاسلامية 0

مواجهة معاوية

قرر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (بعد توليه الخلافة) عزل معاوية بن أبي سفيان عن ولاية الشام ، غير أن معاوية رفض ذلك ، كما امتنع عن مبايعته بالخلافة ، وطالب بتسليم قتلة عثمان -رضي الله عنه- ليقوم معاوية باقامة الحد عليهم ، فأرسل الخليفة الى أهل الشام يدعوهم الى مبايعته ، وحقن دماء المسلمين ، ولكنهم رفضوا , فقرر المسير بقواته اليهم وحملهم على الطاعة ، وعدم الخروج على جماعة المسلمين ، والتقت قوات الطرفين عند (صفين) بالقرب من الضفة الغربية لنهر الفرات ، وبدأ بينهما القتال يوم الأربعاء (1 صفر عام 37 هجري)

وحينما رأى معاوية أن تطور القتال يسير لصالح علي وجنده ، أمر جيشه فرفعوا المصاحف على ألسنة الرماح ، وقد أدرك الخليفة خدعتهم وحذر جنوده منها وأمرهم بالاستمرار في القتال ، لكن فريقا من رجاله ، اضطروه للموافقة على وقف القتال وقبول التحكيم ، بينما رفضه فريق آخر وفي رمضان عام 37 هجري اجتمع عمر بن العاص ممثلا عن معاوية وأهل الشام ، وأبو موسى الأشعري عن علي وأهل العراق ، واتفقا على أن يتدارسا الأمر ويعودا للاجتماع في شهر رمضان من نفس العام ، وعادت قوات الطرفين الى دمشق والكوفة ، فلما حان الموعد المتفق عليه اجتمعا ثانية ، وكانت نتيجة التحكيم لصالح معاوية

الخوارج

أعلن فريق من جند علي رفضهم للتحكيم بعد أن اجبروا عليا -رضي الله عنه- على قبوله ، وخرجوا على طاعته ، فعرفوا لذلك باسم الخوارج ، وكان عددهم آنذاك حوالي اثني عشر ألفا ، حاربهم الخليفة وهزمهم في معركة النهروان عام 38 هجري ، وقضى على معظمهم ، ولكن تمكن بعضهم من النجاة و الهرب وأصبحوا منذ ذلك الحين مصدر كثير من القلاقل في الدولة الاسلامية

استشهاده

اجتمع ثلاثة رجال: عبد الرحمن بن مُلجم، والبُرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم. ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً. فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا.

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم عليُ بن أبي طالب وكان من أهل مصر.

وقال البُرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان.

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاقدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجّه إليه حتى يقتله أو يموت دونه.

فأخذوا أسيافهم فسمُوها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجّه إليه. وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب.

فأما ابن ملجم المرادي فكان عداده في كندة. فخرج فلقي أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره. فإنه رأى ذات يوم أصحاباً من تيم الرباب، وكان عليّ قتل منهم يوم النهر عشرة، فذكروا قتلاهم ولقي من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها: قَطام ابنة الشجنة وقد قتل أباها وأخاها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال. فلما رآها التبست بعقله، ونسي حاجته التي جاء لها. ثم خطبها. فقالت: لا أتزوجك حتى تشفي لي. قال: وما يشفيك؟

قال: ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة وقتل عليّ بن أبي طالب

قال: هو مهر لك، فأما قتل عليّ فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدينني.

قالت: بلى، التمس غرته؛ فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنأك العيش معي، وإن قتلتَ فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها.

قال: فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل عليّ. فلك ما سألت. قالت: إني أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك.

فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب يقال له: وَرْدان فكلمته، فأجابها، وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له: شبيب بن بَجَرة، فقال: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتل عليّ بن أبي طالب. قال: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّاً كيف تقدر على عليّ؟ قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة. شددنا عليه فقتلناه. فإن نجونا شفينا أنفساً وأدركنا ثأرنا، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها (فقد كان ابن ملجم يحسب أنه بقتل عليّ يتقرّب إلى الله تعالى!!).

بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ استقبل المسلمون أمرًا له وَجْهٌ وله ألوانٌ، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول..
فما زالوا بعليٍّ ـ رضي الله عنه ـ يَعْرِضُون عليه الخلافةَ حتى قَبِلَهَا، فتمّت البيعةُ في ظل ظروف صعبة وحرجة في تاريخ الأمة الوليدة.
وهكذا حمل الإمام عليٌّ الحِملَ الكبيرَ ـ منصبَ الخلافةِ ـ فجاءته الخلافةُ مُثْخَنَةً بالجِراح، مثقلةً بالمتاعب؛ إذْ واجه المشكلاتِ منذ وليَهَا، خاصة بسبب رأيه في قسمة العطاء، وتأجيل القِصاص من قَتَلَةِ الخليفة، وعزله عُمّالَ عثمان.
كل هذا سبّبَ له المتاعب والمشاقّ الجسامَ، فتحمّلها في جَلَدِ الصابرين، وتعامل معها بضميرٍ بلغ الكمال في استقامته وتقواه؛ فأتت الأحداث والأهوال عاصفةً، بدءًا بموقِعَةِ الجَمَل، ومرورًا بحرب صِفِّين، وظهور الخوارج، وتغيُّرِ أوضاعِ خلافتِه بعد النهروان، وعصيان أهل الكوفة له وانتهاءً بمقتله ـ رضي الله عنه.
كل هذه الأحداث كافيةٌ أنْ تقتلع الجبال، لكن الإمام عليًا رضي الله عنه أبَى أن يَحيد عن الحق برغم الأهوال، أبَى أن يتبع الهوى؛ ولتَبْدُلُ الدنيا له كلّ زينتها وبهجتها وإغرائها، فإنه لن يربط بها أملا ولا رجاءً؛ فإن طول الأمل يُنسي الآخرة[88].

قال: ويحك!! لو كان غير عليّ لكان أهون عليّ. قد عرفت بلاءَه في الإسلام وسابقته مع النبي صلى الله عليه وسلم. وما أجدني أنشرح لقتله.
قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟ قال: بلى. قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه، فجاءوا قطام، وهي في المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل عليّ. قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني.
ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها عليّ سنة 40. فقال: هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبيّ أن يقتل كل واحد منا صاحبه. فدعت لهم بالحرير فعصبتم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السُدّة التي يخرج منها عليّ (الباب) فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه ، وهرب وردان حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بني أبيه، وهو ينزع الحرير عن صدره. فقال: ما هذا الحرير والسيف؟ فأخبره بما كان، وانصرف فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله
وصيته عند وفاته
قد نهى رضى الله عنه عن قتل قاتله أو التمثيل به فقال
"يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون: قُتل أمير المؤمنين. قُتل أمير المؤمنين. ألا لا يُقتلن إلا قاتلي. انظر يا حسن، إن أنا متُّ من ضربته هذه، فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور".
وعندما هجم المسلمون على ابن ملجم ليقتلوه نهاهم علي قائلا :(ان أعش فأنا أولى بدمه قصاصا أو عفوا ، وان مت فألحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين ، ولا تقتلوا بي سواه ، ان الله لا يحب المعتدين) وحينما طلبوا منه أن يستخلف عليهم وهو في لحظاته الأخيرة قال لهم :(لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم بأموركم أبصر) واختلف في مكان قبره, وباستشهاده -رضي الله عنه- انتهى عهد الخلفاء الراشدين
[88] - قَالَ عَلِيٌّ : إِنَمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ : طُولَ الأَ مَلِ , وَاتِبَاعَ الهَوَى , فَإِنَ طُولَ الأَ مَلِ يُنْسِي الآخِرَةَ ، وَإِنَ اتِبَاعَ الهَوَى يَصُدُ ، عَنِ الحَقِ ، وَإِنَ الدُنْيَا قَدْ تَرَحَلَتْ مُدْبِرَةً ، وَإِنَ الآخِرَةَ مُقْبِلَةٌ وَلِكُلِ وَاحِدَةٍ

ولقد أحاطت به العواصف والأعاصير لكي تزيغه في ظلامها عن الطريق، أو تُفْقِدَه بعضَ رشدِه، أو تشغَلَه عن غاياته ومبادئه.. فما زاغ عن الطريق.. ولا فَقدَ الرُشْدَ.. ولا سَئِمَ صحبةَ مبادئِه.. وحين أدركه الموت وجده عملاقًا يحمل رايتَه..!!

================

بيعة علي رضي الله عنه[89]

تمت بيعة عليّ بن أبي طالب في ظل ظروف صعبة، إذْ كان الصحابة عند مقتل عثمان متفرقين في الأمصار، فلم يشهدوا البيعةَ، والذين شهدوا؛ فمنهم مَنْ بايَعَ، ومنهم مَنْ توقف حتى يجتمعَ الناسُ ويتفقوا على إمام، كسعد بن أبي وقاصٍ وسعيدِ بن زيد وعبـد الله بن عمر وأسامة بن زيد و

مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ , فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ، وَلا َ حِسَابَ , وَغَدًا حِسَابٌ ، وَلا َ عَمَلَ .أخرجه ابن ابي شيبة وغيره وهو صحيح

[89] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 121)

فلما قضى الله من أمره ما قضى ، ومضى في قدره ما مضى ، علم أن الحق لا يترك الناس سدى ، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه . ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقى ودينًا ، فانعقدت له البيعة . ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي لجرى على من بها من الأوباش ما لا يرقع خرقه . ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضًا عليه ، فانقاد إليه (1) .

(1) في تاريخ الطبري (5 : 155) عن سيف بن عمر التميمي عن أشياخه قالوا : بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه : يأتي المصريون عليًا فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة (أي يختبئ في بساتينها) فإذا لقوه باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة . ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه . فأرسلوا إليه حيث هو رسلا فباعدهم وتبرأ من مقالتهم ... فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع . فأقدم نبايعك . فبعث إليهم : وإني وابن عمر خرجنا منها ، فلا حاجة لي فيها . ثم إنهم أتوا ابن عمر عبد الله فقالوا : أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر . فقال : إن لهذا الأمر انتقامًا ، والله لا أتعرض له فالتمسوا غيري . وأخرج الطبري (5 : 156) عن الشعبي قال : أتى الناس عليًا وهو في سوق المدينة وقالوا له : ابسط يدك نبايعك . قال : لا تعجلوا ، فإن عمر كان رجلًا مباركًا ، وقد أوصى بها شورى ، فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون . فارتد الناس عن علي . ثم قال بعضهم : إن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقم بعده قائم بهذا الأمر لم نأمن اختلاف الناس وفساد الأمة . فعادوا إلى علي ، فأخذ الأشتر بيده ، فقبضها علي . فقال : أبعد ثلاثة؟ أما والله لئن تركتها لتعصرن عينيك عليها حينًا . فبايعته العامة . وأهل الكوفة يقولون : أول من بايعه الأشتر . وروى سيف عن أبي حارثة محرز العبشمي وعن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني قالا : لما كان يوم الخميس -على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان- جمعوا أهل المدينة ، فوجدوا سعدا والزبير خارجين ووجدوا طلحة في حائط له ... فلما اجتمع لهم أهل المدينة قال لهم أهل مصر : أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلًا تنصبونه ونحن لكم تبع . فقال الجمهور : علي بن أبي طالب نحن به راضون .... فقال علي : دعوني والتمسوا غيري ... فقالوا : ننشدك الله ، ألا ترى الفتنة ، ألا تخاف الله؟ فقال : إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني ، فإنما أنا كأحدكم ، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد (أي يوم الجمعة) : فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، جاء علي حتى صعد المنبر فقال : ((يا أيها الناس عن ملأ وأذن . إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا أن أمرتم . وقد افترقنا بالأمس على أمر . فإن شئتم قعدت لكم وإ لا فلا أجد على أحد)) فقالوا ((نحن على ما فارقناك عليه بالأمس)) . وهذه الوقائع على بساطتها تدل على أن بيعة علي كانت كبيعة إخوانه من قبل جاءت على قدرها وفي إبانها ، وأنها مستمدة من رضا ا لأمة في حينها ، لا من وصية سابقة مزعومة ، أو رموز خيالية موهومة .

المغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وأبي سعيد الخدري وكعب بن مالك و النعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومَسْلَمَة بن مُخَلَد، وأمثالِهم من أكابر الصحابة..
والذين كانوا في الأمصار عَدَلَوا عن بيعته أيضا إلى الطلب بدم عثمان، وتركوا الأمر حتى يكون شورى بين الناس لمن يولُونه، وظنوا بعليّ سكوتا عن نُصرة عثمان من قاتِلِيه..
ثم اختلفوا في مواقفهم بعد ذلك؛ فرأى عليٌّ رضي الله عنه أن بيعتَه قد انعقدتْ ولزِمتْ مَنْ تأخر عنها باجتماع مَن اجتمع عليها بالمدينةِ؛ دارِ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموطنِ الصحابةِ، وأرْجَأ الأمر في المطالبة بدم عثمانَ إلى اجتماع الكلمة واتفاقها، ليتمكن حينئذ من ذلك.
ورأى آخرون أن بيعته لم تنعقد؛ لافتراق الصحابة أهلِ الحَلّ والعَقدِ بالآفاق، فلم يحضر البيعة إلا قليل، وهي لا تكون إلا بعلم واتفاق أهلِ الحَلّ والعَقدِ، و لا تلزم بعقدِ مَنْ تولاها من غيرهم، أو من القليل منهم.. وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأمُّ المؤمنين عائشةُ والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والنعمان بن بشير..
إلا أن أهلَ العصر الثاني مِنْ بعدِهم اتفقوا على انعقاد بيعة عليّ ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويبِ رأيِه.. مع دفْع التأثيم عن كلٍّ من الفريقين.
===============

رأي آخر في بيعة علي رضي الله عنه

بعد مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه بقيت المدينة بلا أمير، وكان زعيم المنحرفين المصرين الغافقي بن حرب العكي هو الذي يدير شؤونها، وأتباعه هم الذين يسيطرون على أمورها، وأهلها وجلهم من الصحابة وأبنائهم لا يقدرون على فعل شيء، واستمر ذلك خمسة أيام، إلا أنه لا بد من خليفة ليعود الوضع إلى طبيعته، ويرجع الأعراب إلى بواديهم، ويؤوب المنحرفون إلى أمصارهم، والأمر يرجع في هذا للسابقين من المهاجرين والأنصار، لذا لا بد من اختيار أحدهم.
كان المنحرفون متفقين على الانتهاء من الخليفة السابق، وقد تم لهم ذلك إلا أنهم غير متفقين على الخليفة الجديد، وأهواؤهم شتى، فالمصريون يميلون إلى علي بن أبي طالب ولكنه لا يوافقهم بل ويبتعد عنهم، والبصريون هواهم مع طلحة بن عبيد الله إلا أنهم يطلبونه فلا يجدونه، والكوفيون يرغبون في الزبير بن العوام ولكنه يختفي عنهم ولا يرغب بهم. وتضايق أهل الكوفة وأهل البصرة إذ غدوا تبعاً لأهل مصر إذ لا يرغب من تميل نفوسهم إليه أن يقابلهم أو يوافقهم، وأمير المصريين هو أمير للمدينة في تلك الظروف الحرجة.
ولما لم يوافق أحد من هؤلاء الثلاثة مع المنحرفين في شيء ويرفضون الخلافة كلهم، رأوا أن يطلبوا من سعد بن أبي وقاص ذلك، وهو ممن بقي من أهل الشورى مع أولئك الثلاثة، إلا أنه ارفض منهم عندما عرضوا عليه ذلك،

وكان قد اعتزل الأمر، وابتعد عن الجو العام، فاتجهوا إلى عبدالله بن عمر وكان رفضه أشد من سابقه.
واشتد الأمر على المنحرفين إذ عجزوا عن إيجاد خليفة وقد قتلوا الأمير السابق، واشتد كذلك الأمر على أهل المدينة، وقد وجدوا مدينتهم بين المنحرفين يتصرفون فيها، وهم لا يقدرون على شيء، ورأوا أنه لا بد من خليفة يخلصهم مما هم فيه، وينقذهم مما يعانون، ويسير الأمور لتعود الحالة إلى طبيعتها، ورأوا في شخص علي بن أبي طالب الخليفة المطلوب، فهو من أهل الشورى، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وله سابقة وجهاد قلما تكون لرجل آخر، وله من العلم والفقة ما يخوله ذلك، وبصورة عامة فقد كان أفضل من عليها، آنذاك، فذهبوا إليه، وطلبوا منه أن يتولى أمرهم فرفض منهم، وقال لهم : لا حاجة لي في أمركم، أن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، وأنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت.
ولما طال الوضع، وخاف المنحرفون من أن تصل جند الأمصار إلى المدينة، وتتسلم زمام الأمور، وتقبض على الثائرين قتلة عثمان وتعاقبهم وتقيم عليهم الحد، لذا كانت رغبتهم السرعة في مبايعة الناس لخليفة وهذا حق المهاجرين والأنصار، فإذا حدثت البيعة كان الخليفة على أقل تقدير منهم مضطراً لأن يأخذ برأيهم ما داموا في مركز قوتهم، ولا يستطيع أن يعاقبهم ما دامت المدينة في قبضتهم وتحت سيطرتهم، أو أن كثرتهم تحول دون أن يقوم بعمل ضدهم، أما إذا وصلت جنود الأمصار إلى المدينة فإنهم حينذاك لا يستطيعون قتالهم وبخاصة أن أهل المدينة ناقمين على قتلة عثمان الأمر الذي يجعلهم ينضمون لأهل الأمصار ويحاربون قتلة عثمان، وعندئذ تنالهم العقوبة، وينالهم القصاص، وتقام عليهم الحدود، ويختار أهل المدينة من يرغبون لا من يفكر به المنحرفون، ومن هذا المنطلق كانت السرعة في اختيار خليفة أهم نقطة يعمل لها المنحرفون، ولما لم يتم لهم ذلك هددوا أهل المدينة بقتل أهل الشورى وكبار الصحابة ومن يقدرون عليه من دار الهجرة إن لم يجدوا أحداً على قبول الخلافة، وقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً والزبير وأناساً كثيرين.
عرض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر على علي بن أبي طالب وجاءه الناس فقالوا : نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي : دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا : ننشدك الله ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى الإ ِسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ فقال : أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا وتواعدوا في اليوم التالي فجاؤوا ومعهم طلحة والزبير وبايعوا علياً، وكان ذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلا

اثين.
بايع الناس جميعاً إلا سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد وصهيب من المهاجرين، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، ورافع بن خديج، وسلمة بن وقش، وأبو سعيد الخدري، وقدامة بن مظعون ومسلمة بن مخلد، وعبدالله بن سلا م من الأنصار ومن كان قد غادر المدينة إلى مكة وأكثرهم من بني أمية أمثال سعيد بن العاص والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم.
كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمام موقفين اثنين لا ثالث لهما، الأول منهما : أن يصر على رفض الأمر وعدم الموافقة على البيعة، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون، ويتصرف في المدينة الأعراب والمنحرفون، بل ربما ازداد الوضع سوءاً وهو المحتمل فيعيث هؤلاء العابثون في الأرض فساداً، ويزداد قتلهم للناس، وقد ارتكبوا أكبر جريمة بقتلهم الإمام ظلماً وعدواناً، ومتى أقدم الإنسان على جريمته الأولى سهلت عليه الجرائم وأسوأ الأعمال بعد ذلك، وبالفعل فقد هددوا أصحاب الشورى وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا ما حدث أن جاءت جند من ا لأمصار أو طلبت لإ ِبعاد المتمردين عن المدينة وإقامة الحدود عليهم وإعادة نظام الأمن، فإنه يقع القتال داخل دار الهجرة ويذهب ضحيته أعداد من الصحابة، هذا بالإضافة إلى انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم، وهذا ما يخافه العقلاء، وأهل الإ ِيمان، هذا بالإضافة إلى أن تدخل الجند في شؤون المدنيين، وتدخلهم في أعمال الناس، وبحثهم في أمر الخلافة لموضوع يجب الابتعاد عنه تمام الابتعاد، وهذا ما كان ينظر إليه الامام على كرم الله وجهه، ويحرص ألا يحدث، وهو الأمر الذي جعله يقبل الخلافة.
أما الموقف الثاني : وهو قبول الخلافة والرضا بالأمر الواقع وذلك من أجل انقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض، والخوف من تفرقة الكلمة، وإعادة الثقة الطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة، وإبعاد المتمردين والأعراب والمنحرفين عن المدينة، وإقرار الأمن، وإعطاء الهيبة للخلافة، وتطبيق منهج الله في الأرض، ومع هذا فكان رضي الله عنه على علم بأن السير في الموقف الثاني، وهو أخذ البيعة وتسلم أمر الناس حالة صعبة وفيه مشقة كبيرة وعناء شديد، إذ لا يستطيع الخليفة إقامة الحدود على الجناة والتحقيق معهم إلا بعد مرور مدة ريثما يستتب الوضع، ويتمكن الحكم، وتستعيد الخلافة هيبتها، وهذا ما لا يدركه فئة من الناس فيطالبون بالقصاص وهو غير قادر عليه، ويسألونه إقامة الحدود على القتلة وهو لا يستطيع إذ لا تزال المدينة بأيديهم، ولا بد من إخراجهم قبل ذلك وتوزيعهم في الأمصار، أو إرسالهم إلى الثغور، وتفريق كلمتهم، هذا بالإضافة إلى أن عدداً من الرجال سيرفضون البيعة، ولكن هذا لا يجعله يتوقف، وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يعرف المداهنة في الحق... فأما البيعة فيمكن أن يترك من لا يبايع باستثناء بعض رجال الشورى الذين ينظر إليهم بعض

الناس ويميلون إليهم، ولهذا فقد ترك سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر، ولكنه أصر على بيعة طلحة والزبير إذ كان يطمع بهما بعض المتمردين، وأما استمهال إقامة الحدود ريثما تتاح الفرصة فظن أن الناس يدركون هذا، بل يمكن تجاوزه إذ إن إعادة الأمن والنظام وإقامة الخلافة أمر أهم وواجب شرعي، ولهذا أقدم عليه وقبل الخلافة بعد إصرار الناس عليه وبعد أن تمنع عنه ورفضه، فهو الزاهد فيها وفي الدنيا جميعها.

رأى علي رضي الله عنه وقد تسلم الخلافة أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الأمن ولن يكون هذا إلا بإبعاد المشاغبين عن المدينة، ولن يحدث هذا إلا باعتقادهم أنه قد تم ما يريدون وهو استقرار النظام في الدولة، وهذا ما يصار إليه بزوال الخليفة السابق وقد قتلوه قبحهم الله -ثم بالخلاص من ولا ته على الأمصار، هذا بالإضافة إلى أنه هو رضي الله عنه قد كانت له بعض الملاحظات على بعض الولاة لذا قرر أن يستبدل الولاة، ولكن نصحه بعض الصحابة وبعض الرجال في أن يؤخر هذا الأمر حتى يستقر الوضع، إلا أنه رفض ذلك حيث رأى أن هيبة الدولة لا تكون إذا لم يستطع الخليفة أن يعزل والياً وأن يعين غيره، وإلا فما معنى أن الوالي يتبع الخليفة، وإذا لم يستطع الإمام عزل وال، فمعنى ذلك أن الوالي بمثابة خليفة أو أنه يرفض الأوامر ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه، ويتعدد عندها الخلفاء، وهذا أمر غير جائز ولا يكون في الإسلام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العصاة و المنحرفين يرون أن الوضع غير مستقر، وبذا يبقون في المدينة وعندها لا يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً ولا أن يقيم حدود الله، وهو لا يخاف في الله لومة لائم، إذن فلا بد من عزل الولاة واستبدالهم.

أرسل علي الولاة إلى الأمصار فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف وهو من أع لام الأنصار، فدخلها وارتحل عنها واليها السابق عبدالله بن عامر متجهاً إلى مكة. وأبقى على الكوفة أبا موسى الأشعري الذي أرسل بيعته وبيعة أهل مصره إلى أمير المؤمنين. وبعث سهل بن حنيف إلى الشام، ولكنه رد من حدودها، ردته خيل معاوية بأمر أو باجتهاد منهم. وبعث إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد قتل من تسلمها وهو محمد بن أبي حذيفة، فدخل مصر وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من أهلها، إلا فريقاً قليلا منهم اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) لا يشقون عصا الطاعة، ولا يقاتلون أحداً، وبهذا فقد اختار ثلاثة ولاة من الأنصار إلى أهم الأمصار وأكثرها ثغوراً وجهاداً. أما مكة فقد بعث إليها خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، ولكنه وجد فيها كل من اعتزل الفتنة ومن اجتمع فيها من بني أمية، ومن ترك ولا يته من الولاة السابقين، لذا فقد رفضت ولايته وبقيت مكة دون وال، ولكل مجموعة رجل يرجعون إليه. وبعث علي بن أبي طالب إلى اليمن ابن عمه عبيد اللهبن عباس عاملا له عليها، فلما وصل إليها رحل عنها عاملها السابق يعلى ابن أمية واتجه إلى مكة، وهكذا خضعت دار الهجرة مركز الدولة والأ مصار كلها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب باستثناء الشام التي كان

يسير أمورها معاوية بن أبي سفيان إذ لم يرسل البيعة، وبهذا عقدت بيعة علي بن أبي طالب، وقام بالأمر، وأرسل إلى معاوية يطلب منه البيعة لكنه تأخر بالجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمور، ووضع العصاة في المدينة.

=============

توقف جماعة من الصحابة من البيعة لعلي رضي الله عنه

المناصب عند بعض الناس غنيمةٌ، وعند بعضهم الآخـر حِمْلٌ ثقيل.. أمـا عنـد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد كانت ـ في الظروف التي تولى فيها ـ أكثرَ من حِمْلٍ ثقيل، فالخليفة الشهيد عثمانُ لم تجف دماؤه بعدُ، والناس ـ وعلى رأسهم كثير من الصحابة ـ يَستعجلون قتل القَتَلَةِ.. والحزنُ يجتاح النفوسَ على عثمان اجْتِياحًا..

وقد سعى قَتَلَةٌ عثمان في إتمام البيعة لعلي، ليُوقِعوا الخلافَ بين الصحابة، فنجحوا في ذلك، إذْ نفِرَ جماعة من كبار الصحابة من البيعة لعليّ، لا غضًا من شأنه، ولكن تخَوّفًا من الدخول تحت سيطرة هذه العصابة دخولاً يتعذّر الخروجُ منه. ومن هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار: عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقّاص وصهيب بن سنـان الرومي وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقّش وأسامة بن زيد وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومَسْلَمة بن مُخَـلَّد وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير ورافع بن خُدَيج وفَضالة بن عبيد، ناهيـك عمن فَرّ مِنْ بني أميّة بعد سيطرة الثـُوار على المدينـة وقتْلِ عثمـان، مثـل مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وآخرين.[90]

---

[90] - وفي البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 322)

ذكر بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة

يقال: أن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى وكانت شلاء من يوم أحد - لما وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال بعض القوم: والله إن هذا الأمر لا يتم، وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وعمامة خز ونعلاه في يده، توكأ على قوسه، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

ويقال: إن طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يؤمرهما على البصرة والكوفة.

فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنس بكما، ومن الناس من يزعم أنه لم يبايعه طائفة من الأنصار، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، ذكره ابن جرير من طريق المدائني، عن شيخ من بني هاشم، عن عبد الله بن الحسن.

قال المدائني: حدثني من سمع الزهري يقول: هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم بايعوا علياً، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة.

قلت: وهرب مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام.

وقال الواقدي: بايع الناس علياً بالمدينة، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا، منهم ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن أبي مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم.

وذكر سيف بن عمر، عن جماعة من شيوخه قالوا: بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر.

والمصريون يلحون على علي وهو يهرب منهم إلى الحيطان، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، و البصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا: فيما بينهم لا نولي أحدا من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلى

سعد بن أبي وقاص، فقالوا: إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم. (ج/ص: 7/254)
ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم، فرجعوا إلى علي فألحوا عليه، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس، وأهل الكوفة يقولون: أول من بايعه الأشتر النخعي وذلك يوم الخميس الرابع والعشرون من ذي الحجة، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك، وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا علي، فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس، وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء، فقال قائل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم الزبير، ثم قال الزبير: إنما بايعت علياً واللج على عنقي والسلام، ثم راح إلى مكة فأقام أربعة أشهر، وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرم حرماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصةً أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده.
فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: 26] الآية.
فلما فرغ من خطبته قال المصريون:
خذها إليك واحذرن أبا الحسن * إنما نُمِرُّ الأمر إمرار الرسن
صولة آساد كآساد السفن * بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن * حتى يمرن على غير عنن
فقال علي مجيباً لهم: !
إن عجزت عجزة لا أعتذر * سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر * وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر * أو يتركوني والسلاح يبتدر
وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، وعلى الخراج جابر بن فلان المزني، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، وعلى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد تغلب عليه محمد بن أبي حذيفة، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، ونوابه على حمص عبد الرحمن بن خ الد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن سلمة، وعلى الأردن أبو الأعور، وعلى فلسطين حكيم بن علقمة ، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله البجلي، وعلى حلوان عتيبة بن النهاس، وعلى قيسارية مالك بن حبيب، وعلى همذان حبيش.
(ج/ص: 7/255)
هذا ما ذكره ابن جرير من نواب عثمان الذين توفي وهم نواب الأمصار، وكان على بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى قضاء المدينة زيد بن ثابت، ولما قتل عثمان بن عفان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، ممن قتله من أولئك الخوارج.
منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسة، وغيرهم من الصحابة.
ومن التابعين: شريك بن حباشة، وأبو مسلم الخولاني، وعبد الرحمن بن غنم، وغيرهم من التابعين.
ولما استقر أمر بيعة علي دخل عليه طلحة والزبير ورؤس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه، فقال لهما: مهلا ً علي، حتى أنظر في هذا الأمر.
ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له: إني أرى أن تقر عمالك على البلاد، فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت، ثم جاءه من الغد فقال له: إني أرى أن تعزلهم

ولما عَظُمَتْ الفتنةُ وكان القتال بين عليّ وبين أصحاب الجمل، وبينه وبين أهل الشام تخلـ ـّف ـَ عن الحرب كثيرٌ من المهاجرين والأنصار، وجمهورٌ من الصحابة لَزِمُوا بيوتهم.

==============

تقسيم العطاء

كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يسوي بين الناس في تقسيم المال؛ الحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير، فلما كلّمه الناس ليفضِّل أصحابَ بدر ، قال لهم: فضائلهم عند الله، وأما هذا المعاش فالسويّة فيه خير من الأ ـَثرَةِ. فعمل بهذا طوال ولايته.

ولما ولي عمر رضي الله عنه فضّل المهاجرين والأنصارَ في تدوين الدواوين وتقسيم العطاء. وسار عثمان رضي الله عنه من بعده على هذا النهج..

أما عليّ رضي الله عنه فقد أعاد في خلافته طريقةَ أبي بكر في تقسيم العطاء، فأعطى جميعَ الصحابة والمسلمين بالسويّة دون تفريقٍ بين مَنْ سَبَقَ إلى الإسلام، ومَنْ جاء متأخرا، وقسم ما في بيت المال على الناس، ولم يُفَضِّلْ أحدًا على أحد، وكان لا يدع في بيت المال شيئا يبيت به حتى يقسمه، وكان يكنس بيت المال بعد ذلك بيده، ثم يصلي فيه ركعاتٍ رجاءَ أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه مالا ً عن المسلمين[91].

لقد رأى ـ رضي الله عنه ـ أن التفاوتَ في العطاء من شأنه أن يَخلُق فرصًا لتراكم الثروات لدى بعض الأفراد، مما يشكل مع الزمن فتنةً في الدين وفسادا في الدنيا[92].

لتعلم من يطيعك ممن يعصيك، فعرض ذلك علي على ابن عباس فقال: لقد نصحك بالأمس، وغشك اليوم، فبلغ ذلك المغيرة، فقال: نعم نصحته، فلما لم يقبل غششته.

ثم خرج المغيرة فلحق بمكة، ولحقه جماعة منهم: طلحة والزبير، وكانوا قد استأذنوا علياً في الاعتمار فأذن لهم.

ثم إن ابن عباس أشار على علي باستمرار نوابه في البلاد إلى أن يتمكن الأمر، وأن يقر معاوية خصوصاً على الشام وقال له: إني أخشى إن عزلته عنها أن يطلبك بدم عثمان ولا آمن طلحة والزبير أن يتكلما عليك بسبب ذلك، فقال علي: إني لا أرى هذا، ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها.

فقال ابن عباس لعلي: إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان، أو يحبسني لقرابتي منك ولكن اكتب معي إلى معاوية فمنه وعده.

فقال علي: والله إن هذا ما لا يكون أبداً، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين الحرب خدعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله لئن أطعتني لأوردنهم بعد صدرهم، ونهى ابن عباس علياً فيما أشار عليه أن يقبل من هؤلاء الذين يحسنون إليه الرحيل إلى العراق، ومفارقة المدينة، فأبى عليه ذلك كله، وطاوع أمر أولئك الأمراء من أولئك الخوارج من أهل الأمصار.(ج/ص: 7/256)

[91] - المطالب العالية برقم(2184)

[92] - عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهْوَ حَلِيفٌ لِبَنِى عَامِرِ بْنِ لُؤَىٍّ ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِى بِجِزْيَتِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَ ـَءَ بْنَ الْحَضْرَمِىِّ ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَ ـَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِى عُبَيْدَةَ ، فَوَافَوْا صَلاَ ـَةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَىْءٍ » . قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ

ولم يزد عليّ فيما فعل على أن اتبع نَهْجَ أبي بكر، مما أغضب أشراف العرب لمساواتهم بالموالي في العطاء، فأثّر ذلك على علاقته بالناس. واعتبر بعضُ المؤرخين أن ذلك كان سببا في تفرق الناس من حوله، وانتهاج أهل العراق معه نهجًا جديدًا من الخذلان وترك النُّصرة.

==============

المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه[93]

كثير من الأعمال تحتاج في القيام بها إلى تأنٍّ وانتظارٍ للظرف المناسب، لذلك قد تختلف وجهاتُ النظر كثيرا بين أصحاب الطريقة الواحدة والمنهج الواحد بسبب مثل هذه المسائل، وهذا هو شأن الخلاف بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وبين العديد من الصحابة، فقد كانوا يقولون بوجوب القصاص من قَتَلَةِ عثمان ويتعجلون تنفيذ ذلك، ولم يكن رأيُه مخالفا لرأيهم، غير أنه كان يرى التأنِّي والانتظارَ حتى تستقر الأمور، وتموت الفتنة في مواضعها، فقد كان أنصارُ البُغاة قوةً لا يُستهان بها..

لم يكن علي ـ رضي الله عنه ـ أقلّ من إخوانه الصحابة حرصا على إقامة الحد على القتلة، لكن هذه الخطوة كان يجب ـ فيما يرى هو ـ أن تسبِقها خطوةٌ أخرى، هي تسكين الفتنة، حتى يستقر الحكم الجديد ويَشْتَدّ عُودُه

أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » أخرجه البخاري

[93] - وفي إعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج 3 / ص 151)

[إنْكَارُ الْمُنْكَرِ وَشُرُوطُهُ] الْمِثَالُ الْأَوَّلُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إيجَابَ إنْكَارِ الْمُنْكَرِ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنْ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَإِذَا كَانَ إنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إنْكَارُهُ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُ أَهْلَهُ ، وَهَذَا كَالْإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ إلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، { وَقَدْ اسْتَأْذَنَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِتَالِ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا ، وَقَالُوا : أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ } وَقَالَ : { مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ } وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ رَآهَا مِنْ إضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ ؛ فَطَلَبَ إزَالَتَهُ فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا ، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدِّهِ عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ - مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ - خَشْيَةُ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ كَمَا وُجِدَ سَوَاءٌ .

[إنْكَارُ الْمُنْكَرِ أَرْبَعُ دَرَجَاتٍ] فَإِنْكَارُ الْمُنْكَرِ أَرْبَعُ دَرَجَاتٍ ؛ الْأُولَى : أَنْ يَزُولَ وَيَخْلُفَهُ ضِدُّهُ ، الثَّانِيَةُ : أَنْ يَقِلَّ وَإِنْ لَمْ يَزُلْ بِجُمْلَتِهِ ، الثَّالِثَةُ : أَنْ يَخْلُفَهُ مَا هُوَ مِثْلُهُ ، الرَّابِعَةُ : أَنْ يَخْلُفَهُ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ؛ فَالدَّرَجَتَانِ الْأُولَيَانِ مَشْرُوعَتَانِ ، وَالثَّالِثَةُ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ ، وَالرَّابِعَةُ مُحَرَّمَةٌ ؛ فَإِذَا رَأَيْت أَهْلَ الْفُجُورِ وَالْفُسُوقِ يَلْعَبُونَ بِالشِّطْرَنْجِ كَانَ إنْكَارُك عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَمِ الْفِقْهِ وَالْبَصِيرَةِ إلَّا إذَا نَقَلْتَهُمْ مِنْهُ إلَى مَا هُوَ أَحَبُّ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَرَمْيِ النُّشَّابِ وَسِبَاقِ الْخَيْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَإِذَا رَأَيْت الْفُسَّاقَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى لَهْوٍ وَلَعِبٍ أَوْ سَمَاعِ مُكَاءٍ وَتَصْدِيَةٍ فَإِنْ نَقَلْتَهُمْ عَنْهُ إلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ الْمُرَادُ ، وَإِلَّا كَانَ تَرْكُهُمْ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا مِنْ أَنْ تُفْرِغَهُمْ لِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فَكَانَ مَا هُمْ فِيهِ شَاغِلًا لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَمَا إذَا كَانَ الرَّجُلُ مُشْتَغِلًا بِكُتُبِ الْمُجُونِ وَنَحْوِهَا وَخِفْت مِنْ نَقْلِهِ عَنْهَا انْتِقَالَهُ إلَى كُتُبِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالسِّحْرِ فَدَعْهُ وَكُتُبَهُ الْأُولَى ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ ؛ وَسَمِعْت شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ يَقُولُ : مَرَرْت أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّتَارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِي ، فَأَنْكَرْت عَلَيْهِ ، وَقُلْت لَهُ : إنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعْهُمْ .

ويَقوَى على إقامة الحدود دون أن يتسبب ذلك في فتنة أكبرَ وأشدّ هَوْلا ً.
وإزاء موقفِه هذا من القصاص سَرَتْ في بعض النفوس مخاوفُ من مهادنة هؤلاء الثائرين السبئيّة فتموت القضية، كما هربت جماعات من بني أمية خشية أن ينالهم أذى من القتلة الآثمين، وحَالَ عليٌ دون خروج قريش من المدينة، فَبِهِمْ يَتَقوّى على مَنْ خالَفَهُم، وبهجْرِهم المدينةَ يتركونها لسيطرة المنحرفين، وبدأ في اتخاذ ما يطمئنهم إلى جدّيته في التصدي للقتلة وإضعاف شوكتِهم؛ بإرجاع العبيد إلى مواليهم، والأعراب إلى أماكنهم، لكن الثائرين والأعراب ثاروا واعترضوا وامتنعوا عن ذلك، فأدرك كبارُ الصحابة خطورةَ الموقف وقوةَ بأس السبئيّة في المدينة، وفكروا في حلول جديدة للقضاء عليهم، فاقترح طلحة على عليٍّ أن يوليه البصرة، واقترح الزبير أن يوليه الكوفة ليَقْدموا عليه بالخيل والجُنْدِ الكثيف ليُعيد الأمورَ إلى نصابِها، ولكنه استمْهَلَهُمَا حتى يرى رأيَه في شأن ولاةِ عهدِ عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ والذي انتهى فيه إلى قرارٍ بعزلهم وتولية غيرهم.

==============

الثأر من قتلة عثمان بالبصرة[94]

---

[94] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 127)
عاصمة
أما خروجهم إلى البصرة فصحيح لا إشكال فيه .
ولكن لأي شيء خرجوا؟ لم يصح فيه نقل ، ولا يوثق فيه بأحد لأن الثقة لم ينقله ، وكلام المتعصب لا يسمع . وقد دخل على المتعصب من يريد الطعن في الإسلام واستنقاض الصحابة .
فيحتمل أنهم خرجوا خلعًا لعلي لأمر ظهر لهم (1) ، وهو أنهم بايعوا لتسكين الثائرة ، وقاموا يطلبون الحق .
ويحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان (2) .
ويمكن أنهم خرجوا في جمع طوائف المسلمين ، وضم نشرهم ، وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا . وهذا هو الصحيح ، لا شيء سواه ، وبذلك وردت صحاح الأخبار .
فأما الأقسام الأولى فكلها باطلة وضعيفة :
أما بيعتهم كرهًا فباطل قد بيناه (3) .
وأما خلعهم فباطل ؛ لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع ، فيمكن أن يولى واحد أو اثنان ، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان (4) .
وأما خروجهم في أمر قتلة عثمان ، لأن الأصل قبله تأليف الكلمة ، ويمكن أن يجتمع الأمران (5) .

---

(1) وهذا الاحتمال بعيد عن هؤلاء الأفاضل الصالحين ، ولم يقع منهم ما يدل عليه ، بل الحوادث كلها دلت على نزاهتهم عنه . وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر في فتح الباري (13 - 41 : 42) فنقل عن كتاب (أخبار البصرة) لعمر بن شبة قول المهلب : «إن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا في الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة » .
(2) وهذا ما كانوا يذكرونه ، إلا أنهم يريدون أن يتفقوا مع علي على الطريقة التي يتوصلون بها إلي ذلك . وهذا ما كان يسعى به الصحابي المجاهد القعقاع بن عمرو ، ورضي به الطرفان كما سيأتي .
(3) في ص 143 - 144 .
(4) انظر (التمهيد) للباقلاني ص 211 - 212 وص 232 في موضوع الخلع .
(5) واجتماع الأمرين هو الذي كاد يقع ، لولا أن السبئيين أحبطوه . فأصحاب الجمل جاءوا في قتلة عثمان ، ولم يجيئوا إلا لذلك . إلا أنهم أرادوا أن يتفاهموا عليه مع علي ؛ لأن التفاهم معه أول الوسائل للوصول إلي ما جاءوا له .ويروى أن في تغيبهم (1) قطع الشغب بين الناس . فخرج طلحة والزبير

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم رجاء أن يرجع الناس إلي أمهم فيرعوا حرمة نبيهم . واحتجوا عليها (2) بقول الله تعالي : { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } ، (النساء : 114) . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم في الصلح وأرسل فيه . فرجت المثوبة ، واغتنمت القصة ، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها .

وأحس بهم أهل البصرة ، فحرض من كان بها من المتألبين على عثمان الناس ، وقالوا : اخرجوا إليهم حتى تروا ما جاءوا إليه . فبعث عثمان بن حنيف حكيم بن جبلة (3) فلقي طلحة والزبير بالزابوقة ، فقتل حكيم (4) ، ولو خرج مسلما مستسلما لا مدافعا لما (5) أصابه شيء . وأي خير كان له في المدافعة ، وعن أي شيء كان يدافع؟ وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة ، وإنما جاءوا ساعين في الصلح ، راغبين في تأليف الكلمة ، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم ، كما يفعل في سائر الأسفار والمقاصد .

---

(1) أي تغيب طلحة والزبير وعائشة عن المدينة .

(2) لما أقنعوها بالخروج إلى البصرة .

(3) عثمان بن حنيف أنصاري من الأوس ، كان عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أحد الشبان الأوسيين الخمسة عشر الذين انضموا إلي عبد عمرو بن صيفي عند خروجه إلى مكة مغاضبا النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عبد عمرو يسمى في الجاهلية الراهب فسماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق (الطبري 3 : 16) . والظاهر أن عثمان بن حنيف عاد من مكة وأسلم قبل وقعة أحد لأنها أول مشاهده (الإصابة 2 : 459) وتزعم الشيعة أنه شاغب على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق في أول خلافته (تنقيح المقال للمامقاني 1 : 198) وأعتقد أن هذا من كذبهم عليه ، وقد تولى لعمر مساحة أرض العراق وضرب الجزية والخراج على أهلها ، فلو صح ما زعموه من شغبه على أبي بكر لتنافى هذا مع استعمال عمر له ، إلا أن يكون تاب . ولما بويع لعلي آخر سنة 35 واختار ولاته في بداية سنة 36 ولى عثمان بن حنيف على البصرة (الطبري 5 : 161) . ولما وصل أصحاب الجمل إلى الخفير على أربعة أميال من البصرة أرسل إليهم عثمان بن حنيف عمران بن حصين الخزاعي صاحب راية النبي صلى الله عليه وسلم على خزاعة يوم الفتح ليعلم له علمهم ، فلما عاد إليه وذكر له حديثه مع أصحاب الجمل قال له عثمان بن حنيف : أشر علي يا عمران . فقال له: إني قاعد فاقعد . فقال عثمان : بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين علي ، وأشار عليه هشام بن عامر الأنصاري - أحد الصحابة المجاهدين الفاتحين - بأن يسالمهم حتى يأتي أمر علي ، فأبى عثمان بن حنيف ونادى في الناس ، فلبسوا السلاح ، وأقبل عثمان على الكيد (الطبري 5 : 174 - 175) ، وكانت العاقبة فشله وخروج الأمر من يده إلي أيدي أصحاب الجمل . ووقع ابن حنيف في أسر الجماهير فنتفت لحيته ، ثم أنقذه أصحاب الجمل منهم فانسحب إلى معسكر علي في الثعلبية ثم في ذي قار . هذا هو عثمان بن حنيف وموقفه من أصحاب الجمل . أما حكيم بن جبلة فالقارئ يعلم أنه من قتلة أمير المؤمنين عثمان ، وقد تقدم التعريف به في (ص 115 - 116) .

(4) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل في دورها الأول بعد أن خطب طلحة والزبير وعائشة في المربد . أما مصرع حكيم بن جبلة فكان بعد المعارك الأولى التي انتهت بغلبة أصحاب الجمل واستيلائهم على الحكم في البصرة ، فتمرد حكيم بن جبلة على هذه الحالة الجديدة وقاتل مع ثلاثمائة من أعوانه حتى قتل .

(5) أي مقاتلا .

فلما وأصلوا إلى البصرة تلقاهم الناس بأعلى المربد مجتمعين (1) ، حتى لو رمي حجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلم طلحة (وتكلم الزبير) وتكلمت عائشة رضي الله عنهم (2) .

وكثر اللغط (3) وطلحة يقول ((أنصتوا!)) فجعلوا يركبونه ولا يتصنتون ، فقال ((أف ، أف . فراش نار ، وذباب طمع)) . وانقلبوا على غير بيان (4) .

وانحدروا إلى بني نهد ، فرماهم الناس بالحجارة حتى نزلوا الجبل (5) والتقى طلحة والزبير وعثمان بن حنيف - عامل علي على البصرة - وكتبوا بينهم أن يكفوا عن القتال ، ولعثمان دار الإمارة والمسجد وبيت المال ، وأن ينزل طلحة والزبير من البصرة حيث شاءا ، ولا يعرض بعضهم لبعض حتى يقدم علي (6) .

---

(1) مربد البصرة : موضع كانت تقام فيه سوق الإبل خارج البلد ، ثم صارت تكون فيه مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . ثم اتسع عمران البصرة فدخل المربد في العمران فكان من أجل شوارعها

أصبح طلحةُ والزبيرُ بعد دخول البصرة وفي أيديهما بيت المال والحرس، و الناس معهما، ومن لم يكن معهما فَمَغْمورٌ مُسْتَسِرّ، وبلغ ذلك حُكَيْمَ بنَ جَبَلَةَ، فأقبل في خيْله على رجال فيمن تبعه مِن عبد القيس ومَنْ مال إليهم من ربيعة، ثم توجّهوا نحو دار الرّزق وهو يقول: لستُ بأخيه إن لم أنصرْه (يقصد عثمان بن حنيف)، وجعل يشتم أم المؤمنين عائشة، فسمعتْه امرأةٌ من قومه، فقالت: يا ابنَ الخبيثة، أنت أوْلى بذلك، فطَعنها فقتَلَها، فغضبتْ عليه عبدُ القيس، ورجعوا وتركوه..

ومضى حُكَيْمُ بن جَبَلَةَ فيمن غزا معه عثمانَ بنَ عفانَ وحاصره من نزّاع القبائل كلها، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة، فاجتمعوا إليه، فانتهى بهم إلى الزّابوقة عند دار الرزق، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها: "لا تقتلوا إلا مَنْ قاتلكم، ونادُوا مَنْ لم يكن من قَتَلَةِ عثمان، فلْيَكْفُفْ عنا، فإنا لا نريد إلا قَتَلَةَ عثمان، ولا نبدأ أحدا".[95]

فأنشَبَ حُكَيْمٌ القتالَ، ولم يهتم بالمنادِي، فقال طلحةُ والزبير: "الحمد لله الذي جمع لنا ثأرَنا من أهل البصرة، اللهمّ لا تُبْقِ منهم أحدًا، وأَقِدْ منهم اليوم

، وسوقه من أجل أسواقها ، وصار محلة عظيمة سكنها الناس . ولما انحطت منزلة البصرة وهرم عمرانها تضاءلت فأمسى المربد بائنًا عنها حتى كان بينه وبين البصرة في زمن ياقوت ثلاثة أميال ، و المربد خراب . كالبلدة المفردة في وسط البرية . وكان موضع البصرة يومئذ قريبًا من موضع ضاحيتها الزبير في أيامنا هذه .

(2) كان أصحاب الجمل في ميمنة المربد ، وعثمان بن حنيف ومن معه في ميسرته ، وقد لخص الطبري (5 : 175) خطب طلحة والزبير وعائشة راويًا ذلك عن سيف بن عمر التميمي عن شيوخه ، وهم أعرف الإخباريين بحوادث العراق .

(3) لأن الذين في الميسرة كانوا يقولون تعليقًا على خطبتي طلحة والزبير : فجرا وغدرا ، وقالا الباطل ، وأمرا به . قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . والذين كانوا في الميمنة يقولون : صدقا ، وبرا ، وقالا الحق ، وأمرا بالحق ، وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا . إلّا أنه لما انتهت عائشة من خطبتها ثبت الذين مع أصحاب الجمل على موالاتهم لهم ، وافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين فقالت فرقة : صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتم ما نعرف ما تقولون . فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا .

(4) لما رأت عائشة ما يفعل أنصار عثمان بن حنيف انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقتين لابن حنيف حتى وقفوا في موضع آخر . ومال بعض الذين كانوا مع ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان بن حنيف (الطبري 5 : 175) .

(5) حفظ لنا الطبري (5 : 176 - 177) وصفًا دقيقًا نقله سيف بن عمر التميمي عن شيخيه محمد بن عبد الله بن سواد بن نويرة وطلحة بن الأعلم الحنفي عن الموقف السلمي لأصحاب الجمل في هذه الوقعة ، وإسراف حكيم بن جبلة في إنشاب القتال . قالا : وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن ثم حجز الليل بين الفريقين . وفي اليوم التالي انتقل أصحاب الجمل إلى جهة دار الرزق ، وأصبح عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة فجددا القتال ، وكان حكيم يطيل لسانه بسب أم المؤمنين ، ويقتل من يلومه على ذلك من نساء ورجال ، ومنادي عائشة يدعو الناس إلى الكف عن القتال فيأبون ، حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح .

(6) ونص كتاب الصلح في تاريخ الطبري (5 : 177) ولما بلغ عليًا ما وقع كتب إلى عثمان بن حنيف يصفه بالعجز . وجمع طلحة والزبير الناس وقصدوا المسجد وانتظروا عثمان بن حنيف فأبطأ ولم يحضر ، ووقعت فتنة في المسجد من رعاع البصرة أتباع حكيم بن جبلة ، وكان لها رد فعل من أناس ذهبوا إلى عثمان بن حنيف ليحضروه فتوطأه الناس وانتفوا شعر وجهه ، أمرهم بذلك مجاشع بن مسعود السلمي زعيم هوازن وبني سليم والأعجاز من قبائل البصرة (الطبري 5 : 178) .

[95] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 32)

فاقتلهم".
فاقتتلوا أشدّ قتال، وقُتِلَ حُكَيْمُ ومَنْ معه، ولم يَنْجُ من الظالمين إلا حُرْقُوصُ بن زُهير في نفرٍ مِن أصحابه، فلجأوا إلى قومهم، ونادَى منادِي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا مَنْ كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غَزَا المدينةَ فليَأْتِنَا بهم، فجيء بهم كما يُجاء بالكلاب فقتلوا، فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعا إلا حُرْقُوص بن زهير، فإنّ بني سعد قبيلته منعوه، فمَسّهُم في ذلك أمرٌ شديدٌ، حتى اعتزلوا.
وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثأر إلا حُرْقُوص، وكتبوا إلى بقية ا لأمصار أن يفعلوا فعلتَهم، وأن يقتلوا مَنْ عندهم من قَتَلَةِ عثمان. وقد ترك هذا الثأرُ نقمةً في قلوب القبائل التي قُتل أبناؤها.
وكانت هذه الوقعة لخمس ليالٍ بَقِين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين من الهجرة.

============

نقمة بعض القبائل لقتل قتلة عثمان رضي الله عنه

لم يكن الميراث الجاهلي قد انْمَحَى من نفوس القبائل التي دَخلت في الإسلا م متأخرةً، لذا علا صوتُ النِّقمة لديْها على جيش طلحة والزبير حينما قُتل أبناؤهم الذين شاركوا في الخروج على عثمان وحصاره وقَتْلِه..
وسيطرت الفوضَى على البصرة، وانْفَرَطَ عِقدُ النظام بها، وهاج الناس وماجُوا بها، ولم يُفِد الأخذُ بالثأر بهذه الطريقة؛ لأنه لم يَقُمْ به الوالي الشرعيُّ نفسُه، بل قامت به طائفة صالحة من أبناء المجتمع، لا ترى بقيةُ المجتمع حقًا لها في أنْ تقوم به منفردةً عن السلطان.
وقد دفع الحالُ الزبيرَ إلى أن يقول: "إن هذه الفتنةً التي كنا نتحدث عنها، فقال له خادمه: أتسمِّيها فتنةً وتقاتل فيها؟!! قال: ويْحك!! إنا نُبْصِرُ ولا نُبْصِرُ، ما كان أمرٌ قطّ إلا علمتُ موضعَ قدمي فيه، غيرَ هذا الأمر، فإني لا أدري أمُقبِلٌ أنا فيه أم مُدْبِرٌ!!

================

تغيير علي رضي الله عنه للولاة

كان عزل عليٍّ لعمّال عثمانَ على البلاد والأمصار شرارةً أشعلت نيران فتن جديدة، وأجّجَتْها في أرجاء الدولة الإسلامية، حتى لم يعد النزاع بين أهل الفتنة وبين جمهور المسلمين، بل اشتبك أبناء المجتمع الواحد بعضه ببعض، وكان هذا في البداية خلافا في الرأي، ثم تدخلت شياطين الإنس حتى وقع الاقتتال..
لقد عزل عليٌّ عمّالَ عثمان على الولايات الكبرى؛ مصر والشام والكوفة و البصرة، وقد دفعه إلى اتخاذ هذا القرار افتقادُ الثقة بينه وبين هؤلاء العُمال بفعل الدعاوى السبئيّة، ورغبته في تهدئة الثورة، فوجد أن من اللازم عزل هؤلاء، وإرسال عمال جدد على الأمصار يثق بهم.
وقد نصحه بعض الصحابة بعدم التسرع باتخاذ هذا القرار؛ إذْ سيضيف إلى

رصيده مزيدًا من الأعداء في وقت يحتاج فيه إلى كل نصير.
وفي مطلع العام الجديد ـ السادس والثلاثين من الهجرة ـ أرسل عليٌّ وُلاته الجدد، فنجح بعضُهم وأخفق بعضُهم الآخر في تولي ولاياتهم. وحاول عليٌّ رضي اللّه عنه علاج الأمر؛ فكتب إلى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة وإلى معاوية بالشام كتابَيْن يتعلقان بأمر البَيْعَةِ له، وقد بادر أبو موسى بأخْذِ البيعة له من أهل الكوفة، فأقره عليٌّ عليها، لكن معاوية تأخر عن الجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمورُ، خاصة أمر العُصاة بالمدينة. وهكذا خضعت دارُ الهجرة مركزُ الدولة، والأمصارُ كلها لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب باستثناء الشام التي كان يُسَيِّرُ أمورَها معاوية رضي اللّه عنه الذي امتنع عن البَيْعة حتى يقام الحدُ على قتلة عثمان رضي اللّه عنه .
وأدرك عليٌّ أنّ حَمْلَ معاوية على البيْعَةِ سِلْمًا غيرُ ممكن، فأخذ يُعِدُّ العُدّةَ لحمله على البيعة جبرًا باعتباره خارجًا على طاعة الخليفة، وبينما هو يستعد لذلك، جاءته أخبارٌ أخرى مفزعة من مكة تخبره بمَسِير أمّ المؤمنين عائشةَ وجماعتِها إلى البصرة.
===================

تأخر معاوية عن جواب علي رضي الله عنهما

رجع عامل عليّ من الشام دون أن يتمكن من تولِي الأمر، فكتب عليٌّ إلى معاوية يطالبه بالبيعة، فطلب معاوية مُهْلَةً من الرسول، ولم يكتب جواب رسالته، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان، أي: في صفر سنة ست وثلاثين، دعا معاوية رجلا ً من بني عبس فدفع إليه كتابا مختوما عنوانه: "من معاوية إلى عليٍّ "، ثم أوصاه بما يقول، وسرحه إلى عليّ مع رسوله، فلما دخل المدينة ورفع الكتاب للناس فرأوا عنوانه عَلِمُوا أن معاوية يأبَى البيعةَ، وقال رسوله لعلي: "إني تركتُ قوما لا يرضَوْنَ إلا بالقَوَدِ، فقال علي: ممن؟ قال: من نفسِك، وتركتُ ستين ألفَ شيْخٍ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوبٌ لهم؛ قد ألبسوه مِنْبَرَ دمشقَ! فقال علي: منِّي يطلبون دَمَ عثمان ؟!.. اللّهم إني أبْرَأ إليك من دَمِ عثمان، تجَا واللّه قَتَلَةُ عثمانَ إلا أنْ يشاء اللّه..!!
فخرج الرسول فاعترضه السبئيّة (أتباع عبد اللّه بن سبأ) مُثِيرُو الفتنةِ يَصيحون: هذا الكلبُ، هذا وافدُ الكلابِ، اقتلوه، فنادى الرجل: "يا آلَ مُضَرَ، فحَمَتْه مُضَرُ، وجعل يقول لهم: إني أحلف ب اللّه ـ جلّ اسمُه ـ ليَردَنّها عليكم أربعةُ آلاف خصِيٍّ، فانظروا كم الفحولة والرّكاب"! والمُضَرِيُّونَ يُسكِتونه فلا يسكت. وجعل يَهْتِف بهم: لا واللّه لا يفلح هؤلاء أبدا، فلقد أتاهم ما يُوعدون ، وقد حل بهم ما يَحْذَرونَ.. فمازال بهم حتى عرف الذل فيهم.[96]
===================

معاوية رضي الله عنه يمتنع عن البيعة

[96] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 18-19)

دارت مراسلاتٌ عديدة بين عليٍّ ومعاوية يطلب الأول من الآخر مبايعتَه بـ الخلافة، والإذعانَ لأوامره، باعتباره الخليفةَ الشرعيَّ الذي بايعه معظمُ الصحابة في المدينة، في حين يطلب الثاني من الأول القصاصَ من قَتَلَةِ عثمانَ ابنِ عمِّه أولا ً باعتباره من أولياء دَمِهِ، وبعد ذلك ينظر في أمر بيعته.
ولم يكن موقفُ عليٍّ من القصاص موقفَ المُعَطِّلِ له، ولكنه كان يودُّ إرْجاءَ إقامةِ حدِّ اللّه الذي سيُقام حتما ـ حتى تتهيأ الظروفُ المناسبة، وتخمدَ نارُ الفتنةِ. ولكن معاوية تمسك بالقصاص أولا، وجعله شرطا لازمًا يسبق البيعة؛ لذا امتنع عن مبايعة عليٍّ، وأبَى خلافتَه؛ لأنه ظن فيه عدم الجدّية في الا نتصار لعثمان من قاتِليه، ومعاوية يرى لنفسه حقًا أصيلا ً في القصاص من قَتَلَةِ عثمان؛ لأنه من أوليائه، واللّه ـ تعالى ـ يقول: (ومَنْ قُتِلَ مظلومًا فقدْ جَعلنا لِوَلِيِّهِ سُلطانًا فَلا يُسْرِفْ في القتْلِ إنّه كانَ منصورًا) [الإسراء: 33].
ولم يَرَ في الامتناع عن البيعة خروجًا على الإمام؛ لأنه اعتقد أن بيعة عليٍّ لم تنعقدْ بعدُ؛ حيث لم تكن بإجماعِ أهل الحَلّ والعَقْدِ.
أما أمير المؤمنين عليٌّ رضي اللّه عنه فهداه اجتهادُه إلى غير ذلك، إذْ رأى أن بيعته قد انعقدت، وأن الوالي ليس عليه إلا أن يُبايع هو وأهلُ مِصْرِهِ إذا بايع أهلُ المدينة، وقد بايعوا، فلماذا إذًا امتناعُه؟ وهل هو من أهل الشورى ليُؤْخَذَ رأيُه في البيعة؟
وقد عزله الخليفةُ المُبَايَعُ فلم يمتثل؛ فعُدّ خارجًا على الإمام؛ لذا أخذ عليٌّ يُعِدُّ لقتال أهل الشام.

=================

استعداد علي رضي اللّه عنه لقتال أهل الشام

لما أرسل عليٌّ الولاةَ إلى الأمصار، إذا بواليه سهل بنِ حُنيف الذي أرسله إلى الشام ليخلف معاوية ـ يعود إليه وقد فشل في تولِّي الأمر، وعليٌّ الذي عُرف بالشدة والحسم أبَى إلا الحق ـ كما رآه ـ فقرر قتالَ معاوية؛ وعَدّ خلافَه بَغْيًا وخروجا عن الطاعة بعدما انعقدت بيعته بِمَنْ بايَعَ، فلزمت مَنْ لم يبايعْ.
وأرسل عليّ إلى أهل الأمصار يستنفِرُهم لقتال معاوية، وشرع في التهيُّؤ و التجهّز، وخطب في أهل المدينة ودعاهم إلى النهوض لقتال "أهل الفُرقة"، ولكنه رأى تثاقلا منهم عن الخروج معه، فلم يجبر أحدًا، وإنما سار بِمَنْ نَهَضَ معه.
وجاء إليه ابنُه الحسنُ ينصح بعدم الإقدام على القتال صونا لدماء المسلمين ، فقال: "يا أبة، دَعْ هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم"، فلم يقبل منه ذلك، وأصرّ على القتال، ورتّبَ الجيشَ، ودفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفيّة، وولّى عبدَ اللّه بن عباس ميمنتَه، وعمرَ بن أبي سلمة ميسرته، وجعل على مقدمته أبا ليلى بنَ عمرو بنِ الجراح ابنَ أخي أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس.
ولم يُوَلِّ أحدًا ممن خرج على عثمانَ، لا على الأمصار ولا على أجناد الجيش،

وفيهم الأشِدّاء وذَوُو البأس.
ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصدا الشام، حتى جاءه ما شغله عن ذلك كله، وهو خبر خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، فقرر أن يخرج أولا إلى العراق للقائهم.
================

خروج طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم للبصرة

قد يختلِف اثنان في وجهات النظر، لكن ذلك لا يعني بالضرورة وجودَ بغضاء أو كراهية بينهما، وقد يذهبان أبعدَ من ذلك فيتصرّفان بناء على وجهات النظر المختلفة، وهذا أيضا ينبغي ألا يُورث حقدًا أو كراهيةً بين الطرفين..
وقد كان قَتْلُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ فاجعةً، زاد من ألمها أنها وقعت في أيام الحج، حين كان أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤدِّين الفريضة قُربَى إلى الله، وفرارا من الفتنة، فلما بلغ الناسَ ـ وفيهم أمهات المؤمنين ـ أن عثمان قُتِلَ، أقاموا بمكة، واستأذن طلحة والزبير عليا في العمرة، فأذِنَ لهما، فخرجا إلى مكة، وتبعهم خلق كثير وجَمٌ غفيرٌ من بني أمية وكل من أغضبه قَتْلُ عثمان، وتساقطَ الهُرّابُ إليها.
وقَدِمَ إلى مكة من اليمن يَعْلَى بنُ أمية، وكان عاملا عليها لعثمان، وقدم إليها أيضا عبد الله بن عامر من البصرة.
والتقت الكلمةُ على الثأر لعثمان، وكوّنوا منهم جيشًا لهذه المُهمة، وقصدوا البصرة أقربَ الأمصارِ التي تولى بعضُ أهلها قَتْلَ عثمان والخروجَ عليه، ولم يتجهوا إلى المدينة لعُلُوِّ أمرِ الغَوْغاء ومثيري الفتن فيها، وإن كان الأمر يستدعي مؤازرة أمير المؤمنين عليٍّ حتى تقوَى الدولة على مواجهة كلِّ الخارجين البُغاة.. وتحرك الركبُ المكيُّ خارجا إلى البصرة.
اتفق المتجهون إلى البصرة على توْلِيَةِ عبد الرحمن بن عَتّاب بن أسيد الصلاة ، فكان يصلي بهم في الطريق وفي البصرة حتى قُتل، وكان عدلا بينهم.
ورجع من الطريق المغيرةُ بن شعبة وسعيد بن العاص وعبد الله بن خالد بن أسيد.
ومضى القوم قاصدين البصرة، ومعهم أبانُ والوليدُ ابنا عثمانَ، وأعطى يَعْلَى بن منية أمّ المؤمنين عائشة جملا ً اسمه (عسكر) اشتراه بثمانين دينارا فركِبَتْه، وساروا في طريق غيرِ معهود؛ كي لا يلتقوا بجيش علي، حتى انتهوا إلى جبل أوطاس، فتيامنوا وسلكوا الطريق نحو البصرة.
وأوضح الزبيرُ للناس أنهم ما خرجوا إلا ثأرًا للخليفة المظلوم، وإبقاءً لتماسك الكيان المسلم حتى تبقى هيبة الدولة محفوظة. وخطبت كذلك أم المؤمنين عائشة تؤكِد هذه الأهداف.
وواصلوا السيرَ حتى اقتربوا من البصرة، فخرج إليهم واليها عثمانُ بنُ حُنَيْفٍ للحوار والمناقشة، لكنها كانت فرصة أمام الذين اعترضوا وتآمروا على عثمان لإثارة الفتن من جديد، مخافة أن تجتمع الكلمة، وتصل إليهم يدُ العدالة والقصاص، فترامَوْا بالتراب والحصى، حتى أنْشَبَ لص البصرة حُكَيْمُ

بن جَبَلَةَ القتالَ ضد الجيش القادم من مكة، وجرى قتال وتفاوضٌ أسفرا عن دخول الجيش المكي البصرة.
لما التقى الفريقان من مكة والبصرة بالمِرْبَدِ، وأخذ طلحة والزبير وأم المؤمنين يُفَصِّلون قضيتَهم للناس، تبيّنَ لأهل البصرة أن الحق في جانب أم المؤمنين، واتبعها جماعةٌ منهم.
فلما رأى حُكَيْمُ بنُ جَبَلَةَ ومَنْ معه من السبئيّة والغوغاء ذلك، تراموْا بِ الحجارة وحثا بعضهم التراب على بعض، وأقبل حُكَيْمُ ـ وكان على خيل عثمانَ بن حُنيف ـ فأنشَبَ القتالَ، وأعدّ أصحابُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ رماحَهم وأمسكوا عن القتال حتى يمتنع حُكَيْمُ عن القتال، لكنه أصر عليه حتى حجز الليل بين الفريقين.
فلما كان الصباح خرج حُكَيْمُ يَقْدُمُ جيشَه، فاقتتلوا قتالا شديدا من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار، وقد كثُرَ القتلى في أصحاب ابن حُنيف، وفَشَت الجراحة بين الفريقين، ومنادِي عائشة ـ رضي الله عنها ـ يناشدهم ويدعوهم إلى الكفِّ فَيَأبَوْنَ، حتى إذا مسّهم الضُّر وعضّتْهم الحربُ نادَوْا أصحابَ عائشة إلى الصلح والموادعة.
واتفق الفريقان على أن يبعثا رسولا ً إلى المدينة لينظر هل بايع طلحةٌ و الزبيرُ مُكْرَهَيْن؟ فإن كان ذلك أخْلى عثمانُ بن حُنيف لهما البصرة، ليُدْرِكوا ثأرَهم من قَتَلَةِ عثمانَ، وإن كانا قد بايعا عن رضا خَرَجَا من البصرة حتى يرى أميرُ المؤمنين رأيَه.
واتفقوا على أن يُبْقِيَ كلُّ فريقٍ على ما تحت يدِه حتى يعودَ الرسول، وأن ينزل طلحة والزبير ومَنْ معهما حيث شاءوا، وأن يصلي عثمان بن حنيف بِ الناس، وله أمر البصرة، ويبقى بيت المال تحت يده.
وذهب كعب بن ثور إلى المدينة رسولا ً، فسأل أهلَها عن بيعة طلحة و الزبير فلم يُجِبْهُ أحدٌ، ثم أجابه أسامةُ بن زيد بأنهما بايَعَا مُكْرَهَيْن، وكادت تحدث في المدينة حادثة لهذا الجواب؛ إذْ لا يريد الناس إلا إطفاء النار وإخمادَ جذوتها. وبلغ هذا الخبرُ أميرَ المؤمني-ن، فأرسل إلى عثمانَ بنِ حُنيف يقول له: "والله ما أُكرِها إلا كرْهًا على فُرقة (أي خوفا من الفرقة)، ولقد أُكرِها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخَلْعَ فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غيرَ ذلك نظرْنا ونظرَا".
رجع كعب بن ثور إلى البصرة بخبر بيْعة الزبير وطلحة لعليٍّ كرْهًا، فاختلف القوم بالبصرة، وعاتب عليٌّ عاملَه على البصرة، وقال: "إنما طلحة والزبير لم يُجْبَرَا على البيعة إلا خوفًا من الفُرقة، ولقد أُكرِها على جماعةٍ وفضلٍ".
وقلّ أنصارُ ابنِ حُنيف، وغضب عليه الغوغاء لسوء تصرفه، ووقع من عامة الناس من أهل البصرة كلام وضرب، فقُتل منهم نحوٌ من أربعين رجلا ً، ودخل العامـّةُ على عثمان بن حنيف قصرَه فأخرجوه إلى طلحة والزبير ولم يبق في وجهه شعرةٌ إلا نتفوها تحقيرًا له، فاستعظما ذلك وأرسلا إلى عائشة أم المؤمنين بالذي كان، واستطلعا رأيَها، فأرسلت إليهما أنْ خَلّوا سبيلَه؛

فليذهبْ حيث شاء، ولا تحبِسُوه.
وبخروج عثمان بن حنيف من البصرة أصبحت تحت إِمْرَةِ الرّكْبِ المكِيّ، فأخرجوا حرس عثمان من القصر ودخلوه، وصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب، وولوْا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسم طلحةُ والزبيرُ أموالَ بيت المال في الناس، وفضّلوا أهل الطاعة، وأكبّ عليهم الناسُ يأخذون أرزاقهم. وحان وقت الثأر ممن شارك في الثورة على عثمان من أهل البصرة، فنقمت لأجل ذلك القبائلُ التي قتل أبناؤها.[97]

==================

خروج علي رضي الله عنه إلى العراق

لما بلغ عليّا نبأ سير الركب المكي إلى البصرة غيّر وجهتَه عن الشام إلى البصرة، فخرج إلى الرّبَذَةِ مسرعاً يريد أن يلحقَ بهم قبل أن يجتازوها، وليَحُولَ دون انطلاقهم، واستخلفَ على المدينة سهلَ بنَ حُنَيْفٍ، وبَعَثَ قثمَ بن العباس إلى مكة.
ونصحه العديدُ من الصحابة بألا يخرجَ من المدينة، فإنه إنْ خرج منها فلنْ يعود إليها أبدًا، وطلبوا منه أن يُرسل مَنْ نَهَضَ ويمكثَ هو في دار الهجرة، ولكنه أصر على أن يكون على رأس الناهضين، وخرج من المدينة في نحو سبعمائة رجل جُلُّهم من الثائرين على عثمانَ، وأقلهم من أهل المدينة، وما شارك جمهورُ الصحابة في هذه الفتنة، بل اعتزلوا الأمر.
عن محمد وطلحة، قالا: بلغ علياً الخبر - وهو بالمدينة - باجتماعهم على الخروج إلى البصرة وبالذي اجتمع عليه ملؤهم؛ طلحة والزّبير وعائشة ومن تبعهم، وبلغه قول عائشة، وخرج عليّ يبادرهم في تعبيته التي كان تعبّى بها إلى الشام، وخرج معه من نشط من الكوفيّين والبصريّين متخفّفين في سبعمائة رجل، وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها؛ فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً. فسبّوه، فقال: دعو الرّجل؛ فنعم الرّجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم!
وسار حتى انتهى إلى الرّبذة فبلغه ممرّهم، فأقام حين فاتوه يأتمر بالرّبذة.
وعن طارق بن شهاب، قال: خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي الله عنه، فلما انتهينا إلى الرّبذة - وذلك في وجه الصّبح - إذا الرّفاق وإذا بعضهم يحدو بعضاً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين، فقلت: ما له؟ قالوا: غلبه طلحة والزّبير، فخرج يعترض لهم ليردّهما، فبلغه أنهما قد فاتاه، فهو يريد أن يخرج في آثارهما، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! آتي علياً فأقاتل معه هذين الرّجلين وأمّ المؤمنين أو أخالفه! إنّ هذا لشديد. فخرجت فأتيته، فأقيمت الصّلاة بغلس، فتقدّم فصلى، فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس فقال: قد أمرتك فعصيتني، فتقتل غداً

---

[97] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 30-32)

بمضيعة لا ناصر لك، فقال عليّ: إنك لا تزال تخنّ خنين الجارية! وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثمّ أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كلّ مصر، ثمّ أمرتك حين فعل هذان الرّجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك؛ فعصيتني في ذلك كله.

قال: أي بنيّ، أمّا قولك: لو خرجت من الممدينة حين أحيط بعثمان؛ فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به.

وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار، فإنّ الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر.

وأما قولك حين خرج طلحة والزّبير، فإنّ ذلك كان وهناً على أهل الإسلام، ووالله ما زلت مقهوراً مذ وليت، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي.

، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون ك الضبع التي يحاط بها، ويقال: ليست هاهنا حتى يشق عرقوبها فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني.[98]

ولما انتهى إليه خبر ما صنع القوم بالبصرة من الأمر الذي قدمنا، كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر: إني قد اخترتكم على ا لأمصار، فرغبت إليكم وفزغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً.

فمضيا، وأرسل إلى المدينة فأخذ ما أراد من سلاح ودواب، وقام في الناس خطيباً، فقال:

إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخواناً، بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق قائم بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، ألا وإن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بـالله من شر ما هو كائن.

ثم عاد ثانية فقال: إنه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، شرها فرقة تحبني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم، واهتدوا بهديي فإنه هدى نبيكم، واتبعوا سنته وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه الكتاب، فما عرفه القرآن ف الزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بـالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً.

قال: فلما عزم على المسير من الربذة قام إليه ابن أبي رفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا ؟.

---

[98] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 25)

فقال: أما الذي نريد وننوي، فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه.
قال: فإن لم يجيبوا إليه ؟.
قال: ندعهم بغدرهم ونعطيهم الحق ونصبر.
قال: فإن لم يرضوا ؟.
قال: ندعهم ما تركونا.
قال: فإن لم يتركونا ؟.
قال: امتنعنا منهم.
قال: فنعم إذا.
فقام إليه الحجاج بن غزية الأنصاري.
فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لينصرني الله كما سمانا أنصاراً.
قال: وأتت جماعة من طيء، وعلي الربذة.
فقيل له: هؤلاء جماعة جاؤوا من طيء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد السلام عليك.
فقال: جزى الله كلا ً خيراً، {وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: 95].
قالوا: فسار علي من الربذة على تعبئته، وهو راكب ناقة حمراء يقود فرساً كميتاً، فلما كان بفيد جاءه جماعة من أسد وطيء، فعرضوا أنفسهم عليه.
فقال: فيمن معي كفاية، وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له: عامر بن مطر الشيباني.
فقال له علي: ما وراءك ؟.
فأخبره الخبر، فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه.
فقال علي: والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا، وسار. (ج/ص: 7/ 263)
فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليته، من قتل ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة وأخذهم أموال بيت المال، جعل يقول: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير.
فلما انتهى إلى ذي قار أتاه عثمان بن حنيف مهشماً وليس في وجهه شعرة.
فقال: يا أمير المؤمنين، بعثتني إلى البصرة، وأنا ذو لحية، وقد جئتك أمرداً.
فقال: أصبت خيراً وأجراً.
وقال عن طلحة والزبير: اللهم احلل ما عقدا، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا ً- يعني: في هذا الأمر - وأقام علي بذي قار ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر، وصاحبه محمد بن جعفر - وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى وقاما في الناس بأمره - فلم يجابا في شيء.
فلما أمسوا دخل أناس من ذوي الحجبى على أبي موسى يعرضون عليه الطاعة لعلي، فقال: كان هذا بالأمس فغضب محمد ومحمد فقالا له قولا ً

غليظاً.
فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومن كانوا، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر وهو بذي قار، فقال للأشتر:
أنت صاحب أبي موسى، والمعرض في كل شيء، فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فخرجا فقدما الكوفة وكلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من الكوفة، فقام في الناس.
فقال: أيها الناس، إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفا بسلطان الله وأن لا تجترئوا على أمره.
وهذه فتنة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي، فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وأووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.
فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي، فأخبراه الخبر، فأرسل الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت فانطلقا حتى دخلا المسجد، فكان أول من سلم عليهما مسروق بن الأجدع.
فقال لعمار: علام قتلتم عثمان؟
فقال: على شتم أعراضنا، وضرب أبشارنا.
فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولو صبرتم لكان خيراً للصابرين.
قال: وخرج أبو موسى، فلقي الحسن بن علي فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أعدوت على أمير المؤمنين عثمان قتلته ؟.
فقال: لم أفعل، ولم يسؤني ذلك، فقطع عليهما الحسن بن علي.
فقال لأبي موسى: لم تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء.
فقال: صدقت بأبي وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، و القائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب)) وقد جعلنا الله إخواناً، وحرم علينا دماءنا وأموالنا.
فغضب عمار وسبه، وقال: يا أيها الناس، إنما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده أنت فيها قاعداً خير منك قائماً. (ج/ص: 7/ 264)
فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار، وثار آخرون وجعل أبو موسى يكفكف الناس، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وقال أبو موسى:
أيها الناس أطيعوني، وكونوا خير قوم من خير أمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمن فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شبهت، وإذ أدبرت تبينت ، ثم أمر الناس بكف أيديهم، ولزوم بيوتهم.
فقام زيد بن صوحان فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد

المسلمين، سيروا إليه أجمعون.
فقام القعقاع بن عمرو فقال: إن الحق ما قاله الأمير، ولكن لا بد للناس من أمير يردع الظالم، ويعدي المظلوم، وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين علي وليَ بما وليَ وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح، فانفروا إليه.
وقام عبد خير، فقال: الناس أربع فرق، علي بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة، والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقه بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها.
فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة.
ثم تراسل الناس في الكلام ثم قام عمار، والحسن بن علي في الناس علي المنبر يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس.
وسمع عمار رجلا ً يسب عائشة فقال: اسكت مقبوحاً منبوحاً، والله إنها لزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلا كم بها ليعلم أتطيعوه أو إياها، رواه البخاري.
وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين: {انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالا ً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: 41] وجعل الناس كلما قام رجل فحرض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر، وعمار، والحسن معه على المنبر، حتى قال له الحسن بن علي: ويحك! اعتزلنا لا أم لك، ودع منبرنا.
ويقال: إن علياً بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة، وأخرجه من قصر ا لإمارة من تلك الليلة، واستجاب الناس للنفير، فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البر، وفي دجلة.[99]
وواصل علي طريقه إلى البصرة فوجد عبدَ القيس بأسرها في الطريق بينه وبين أهل البصرة ينتظرون مرورَه بهم ـ وهم آلاف ـ لينضمّوا إليه. وأرسل القعْقاعُ بن عمرو إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة مستوضحا الأمر، وطالبا الصلح بين المسلمين.
==================

القعقاع يسعى في الصلح بين الفريقين[100]

اختار أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب القعقاعَ بن عمرو ليدْعُوَ أخويْه طلحة والزبير إلى الأ ُلفة والجماعة، ويُعَظِّم عليهما الفُرقةَ، فلم يكن أمير المؤمنين عليّ يبغي حربا، وقد صرح بذلك مرارًا لأتباعه بالرّبَذَةِ، ولمَنْ جاءوا إليه من أهل الكوفة، وكانت هذه دعوته دائما.
وسأل أميرُ المؤمنين القعقاعَ: كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس فيه وصاةٌ مِنّي؟ فأجاب قائلا: نلقاهم بالذي أمرتَ به، فإن جاء منهما أمرٌ ليس عندنا

[99] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص335-336)
[100] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 42 فما بعد)

منك فيه رأيٌ اجتهدنا الرأيَ، وكلَمْناهم على قدر ما تَسْمعُ ونرى أنه ينبغي. قال: أنتَ لها.
فقدِمَ القعقاعُ البصرة، وبدأ بأمّ المؤمنين عائشةَ، فسلّمَ عليها، وقال: أيْ أُمّهْ؛ ما أشْخَصَكِ وما أقْدَمَكِ هذه البلدة؟ قالت: أيْ بُنَيّ، إصلاحٌ بين الناس، قال: فابْعَثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامَهما، فبعثَتْ إليهما فجاءا، فقال: إني سألتُ أمّ المؤمنين ما أشْخَصَها وأقْدَمَها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمُتابِعان أم مُخالِفان؟ قالا: مُتابِعان، قال: فأخْبِرَانِي ما وَجْهُ هذا الإصلاح؟ فواللّه لئِنْ عرفناه لنُصْلِحنّ، ولئِنْ أنكرناه لا نُصلح.
قالا: قَتَلَةُ عثمان، فإنّ هذا إنْ تُرِكَ كان ترْكًا للقرآن؛ وإنْ عُمِلَ به كان إحياءً للقرآن.
فقال: قد قَتلتُما قَتَلَةَ عثمانَ من أهل البصرة، وأنتم قبلَ قَتْلِهم أقربُ إلى الاستقامة منكم اليومَ، قتلتم ستمائة إلا رجلا - يعني حُرْقوص بن زُهير - فغضب لهم ستةُ آلافٍ، واعْتَزَلوكم وخرجوا من بين أظْهُرِكم، وطَلبْتُم حُرْقُوصَ، فمنَعَه منكم ستةُ آلافٍ، فإنْ تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعْتَزَلوكم فأُدِيلوا عليكم (أي انتصروا)، فالذي حَذِرْتم وقَرِبْتُمْ به هذا الأمرَ أعظمُ مما أراكم تكرهون (أي: أن الذي تريدونه من قَتْلِ قَتَلَةِ عثمان مصلحة، لكن المفسدة المترتبة عليها أكبر منها)، وكما عجزتم عن الثأر لعثمان من حُرقوص بن زهير لقيام ستةِ آلافٍ في منعه ممن يريد قتله، فعَلِيٌّ أعْذَرُ في ترْكِهِ الآن قتلَ قَتَلَةِ عثمان، وإنما أخّر قَتْلَ قَتَلَتِهِ إلى أنْ يتمكن منهم، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفةٌ". ثم أعْلَمَهم أن خَلْقًا من ربيعةَ ومُضَرَ قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع.
فقالتْ أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: إن هذا الأمر دواؤهُ التسكين.. فإنْ أنتم بايعتمونا فعلامةُ خيرٍ وتباشيرُ رحمةٍ ودَرَكٌ بثأر، وعافيةٌ وسلامةٌ لهذه الأمة، وإنْ أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعْتِسَافَه كان علامةَ شرٍّ.. فآثِرُوا العافيةَ تُرْزَقُوها، وكونوا مفاتيحَ الخير كما كنتم، ولا تُعَرّضونا للبلاء، ولا تَعَرّضُوا له فيصرعنا وإياكم. وايْمُ اللّه، إني لأقولُ هذا القولَ وأدعوكم إليه وإني لخائفٌ ألا يتمّ حتى يأخذ اللّه - عز وجل - حاجتَه من هذه الأمة التي قلّ متاعُها ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمرٌ ليس يقدّر، وليس كالأمور، ولا كقَتْلِ الرجُلِ الرجُلَ، ولا النّفرِ الرجُلَ، ولا القبيلةِ الرجلَ.
فقالوا: نعم، إذًا قد أحسنْتَ وأصبتَ المقالةَ، فارْجِعْ فإن قدِمَ عليٌّ وهو على مِثْلِ رأيِك صَلَحَ هذا الأمرُ.
فرجع إلى أمير المؤمنين عليّ فأخبره الخبر، فأعجبه ذلك، وسُرّتْ به نفسه، وأشْرَفَ القوم على الصلح، وقام عليّ في الناس خطيبا يُعْلِمُهم بنبأ الصلح.
وبعد لقاء عَلَتْهُ رُوحُ أخوّةِ الإسلام كان اتفاقٌ على الصلح بين عليٍّ وبين الرّكْبِ المكي؛ وذلك يوم الخميس نصف جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة.

لكنّ المتآمرين ضد الإمام الشهيد عثمان ـ رضي الله عنه ـ من السبئيّة ومثيري الفتن ساءهم ذلك الصلحُ، وأحسّوا خطرًا على أنفسهم في تمامه؛ لذا تآمروا حتى قتلوا اتفاق الصلح قبل أن يتم، ووقع لذلك قتالُ يوم الجمل المشئوم.

===================

مؤامرة إفشال الصلح

كانت مواطنُ الضعف في معسكر الإمام عليّ هي وجودُ كثيرٍ من المُنْدَسّينَ فيه ممن اشتركوا في قتْلِ عثمان أو التخطيط له، وعلى رأسِهم مَنْ حادّ الله ورسولَه عبدُ الله بن سبأ والأشْتَرُ النّخَعِيّ، ولم تكن لعليّ ـ رضي الله عنه ـ حيلةٌ في وجودهم معه، ولا قدرةٌ على إبعادهم في هذه الظروف؛ إذْ كانوا قوةً كبيرةً تساندُهم عصبيات قَبَلِيّة. وقد أدرك زعماؤهم الذين تولوْا تأجيجَ الثورةِ على عثمانَ أن الصلح بين الفريقين سيقوّي عليّا بانضمام الفريق الآخر إليه، ويجعل من الفريقين جبهةً واحدة قوية يَسْهُلُ أنْ تثأرَ لعثمان من قَتَلَتِه، فعزموا على إفْساد الأمرِ كلِّه، وتداولَوا الرأيَ بينهم، حتى انْتَهَوْا إلى ضرورة إشْعال القتال من جديد.

وفي ليلة الصلح؛ وبينما الناسُ في معسكر عليّ ومعسكر طلحة والزبير نائمون، تُداعب رءوسَهم أحلامُ وأمانيُّ العودةِ إلى وحدة الصف واتفاق الكلمة ـ إذا بهم يَفْزَعُونَ لأصواتِ السيوف وَصَيْحات الجنود، وكأنه حُلُمٌ مُزعج، لكنه ـ يا أسَفًا ـ كان قتالا ً حقيقيا أشعله السبئيّةُ والثائرون على عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقامت الحرب حاميةً على قَدَمٍ وساقٍ، وتبارز الفرسان، وجالت الخيل، وقد اجتمع مع عليّ عشرون ألفا، والتفّ حول عائشة نحوٌ من ثلاثين ألفا.

وبدأت المعركة ومنادِي عليٍّ ينادي: أيُّها الناس، كُفّوا فلا شيء، ألا كُفّوا، ألا كُفّوا، فلا يَسمع له أحد.

ودارتْ رَحَى معركةِ الجملِ حاميةً، وخسر المسلمون فيها وحْدَتَهم، كما خلّفت الكثير من المآسي؛ لعل أبرزها مقتل طلحة والزبير رضي الله عنهما.

=================

معركة الجمل[101]

[101] - وفي العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 135)

عاصمة

أما وجود الحرب بينهم فمعلوم قطعًا ، وأما كونه بهذا السبب فمعلوم كذلك قطعًا ، وأما الصواب فيه فمع علي ، لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم ، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه ، بل يطلب [الحق] عنده ، فإن ظهر له قضاء وإلا سكت وصبر ، فكم من حق يحكم الله فيه . وإن لم يكن له دين فحينئذ يخرج عليه ، فيقوم له عذر في الدنيا (1) .

ولئن اتهم علي بقتل عثمان فليس في المدينة أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو متهم به ، أو قل معلوم قطعًا أنه قتله لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبون أربعين ألفًا (2) .

وهبك أن عليًا وطلحة والزبير تضافروا على قتل عثمان ، فباقي الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اعتد فيهم وضوى إليهم ماذا صنعوا بالقعود عن نصرته؟

إن صوت الفتنة يُلْبِّس على العقلاء أمرَهم، ويتركُهم حَيَارَى؛ لا يَدْرُونَ موضعَ الحقِ ولا موقعَ الباطل، يُيَمِّمُون جهةَ المشرقِ فيجدون أن هذا الذي اختاروه خطأ، فإذا اتجهوا صَوْبَ المغرب تبيّنُوا خطأ مُخْتَارِهم أيضًا، فلا يجد العاقل إلا أن يضع رأسَه بين يديه، يعتصرُها من فَرْطِ الحيرة..!!

إن الفتن تنتج كثيرا بسبب الأيدي العابثة من وراء حجاب، وبسبب المطامع الجارفة التي تصيب بعض طوائف المجتمع...

كانت الفتنة التي شَهِدها عصرُ الراشدين بعد عام خمسة وثلاثين للهجرة قَدَرًا أقوى من هؤلاء الصحابة الذين عاصروها، فقد أدى الانقلابُ الهائل الذي أحْدثه التوسعُ الإسلامي في العالم المعمور حينئذ إلى أنْ يَبْرُزَ على صفحة المجتمع أناسٌ أقلّ قدرةً وحرصا على حراسة الدين والقيم..

لقد كان هناك رجال جمعهم أبو بكر حوله حين برزت المخالب الحادة للردّة التي كانت فتنةً أقوى من الفتنة التي اشتعلت بقتل الأمير الصالح عثمان بن عفان، لكن الرجال حينها كانوا غيرَ الرجال!!

---

(1) وجود قتلة عثمان في معسكر علي حقيقة لا يماري أحد فيها ، بل إن الأشتر وهو من رءوس البغاة على عثمان كان أكبر مسعر للحرب بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين في معسكر علي والذين في معسكر معاوية . ولما طالب علي معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين أن يبايعوه احتكموا إليه في قتلة عثمان وطلبوا منه أن يقيم حد الله عليهم أو أن يسلمهم إليهم فيقيموا عليهم حد الله . وقد اعتذرنا عن أمير المؤمنين علي في هامش ص146 بأن قتلة عثمان لما صاروا مع علي في العراق صاروا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم ، فكان علي يرى- بينه وبين نفسه- أن قتلهم يفتح عليه بابا لا يستطيع سده بعد ذلك . وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي وتحدث بها مع أم المؤمنين عائشة وصاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحة و الزبير فأذعنوا له وعذروا عليا ووافقوا على التفاهم معه على ما يوصلهم إلى الخروج من هذه الفتنة ، فما لبث قتلة عثمان أن أنشبوا الحرب بين الفريقين . فالمطالبون بإقامة حد الله على قتلة عثمان معذورون لأنهم يطالبون بحق ، سواء كانوا من أصحاب الجمل ، أو من أهل الشام . وتقصير علي في إقامة حد الله كان عن ضرورة قائمة ومعلومة . ولكن إذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إنشاب قتلة عثمان الحرب بين الفريقين الأولين ، فقد كان من مصلحة الإسلام أن لا تنشب حرب صفين بين الفريقين الآخرين . وكان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي كارها خروج أبيه من المدينة إلى العراق لما يخشاه من نشوب الحرب مع أهل الشام ، وهم جبهة الإسلام العسكرية في الجهاد والفتوح . ولو أن عليا لم يتحرك من الكوفة استعدادا لهذا القتال لما حرك معاوية ساكنا . قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (2 : 219) : «لم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداء» وانظر المنتقى من منهاج الاعتدال 249 و251 و262 . ومع ذلك فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان معا على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ولو في القرن الحادي والعشرين . وإن كثيرا من قواعد فقه الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب ، ولله في كل أمر حكمة .

(2) ليس في أهل السنة رجل واحد يتهم عليا بقتل عثمان ، لا في زماننا ولا في زمانه . وقد مضى الكلام على ذلك في هذا الكتاب . وكل ما في الأمر وجود قتلة عثمان مع علي ، وموقف علي منهم ، وعذره بينه وبين الله في موقفه هذا . فنحن جميعا على رأي القعقاع بن عمرو بأن موقف علي موقف ضرورة . غير أن الحمقى من إخباري الشيعة دسوا على علي أخبارا تشعر بغير ما كان في قلبه من المحبة والرضا والموالاة والتأييد لعثمان أثناء محنته ، فأساءوا بذلك إلى علي من حيث يريدون الإساءة إلى عثمان . أما معاوية وفريقه فلم يذكروا عليا في أمر البغي على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمان إليه واستعانته بهم . فقتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى الإسلام وإلى عثمان وإلى علي أيضا . فالله حسيبهم . ولو أن كل المسلمين كانوا كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حزمه- قبل أن تستفحل الفتنة ويفلت الزمام من أيدي العقلاء- لما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه .

والحقُّ أن العجز عن مغالبة الفتنة وإطفاءِ نيرانها لم يكن عيبًا في الصحابة الذين عاشوا أحداثها؛ إذْ كانت سيْلا ً جارفا جاء عقب التغيرات الكبرى، ولم ينجح المجتمع في صَدِّه ومساندةِ هؤلاء الصحابة لاستيعابه.
لقد نجح قَتَلَةٌ عثمان؛ مَرْضَى القلوبِ المتآمرون على المجتمع المسلم ـ في إشعال الحرب بين معسكر عليّ بن أبي طالب وبين معسكر طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنهم ـ حينما هاجموا معسكر أهل البصرة تحت ستار الليل، فقام الناسُ إلى سيوفهم.. ومع حرص الصحابة على كفِّ الأيدي ووقف القتال، ومحاولتهم السيطرة على الحريق الكبير، إلا أنهم وجدوا أنفسهم يُدفَعون إلى الحرب دَفْعًا، حتى لم يجدوا من القتال والدّفاع عن الأنفس بُـدًا..
وكان من رأيهم جميعا في تلك الفتنة العمياء ألا يقاتِلوا حتى يُبْدَأُوا بقتال، يطلبون بذلك الحُجةَ على الآخرين، لا يقتلون مُدْبِرًا، ولا يُجْهِزُون على جريح ، ولا يَسْتَحِلون سلبا، وكان ذلك مما اجتمع عليه الفريقان ونادَوْا به فيما بينهم.
وكان من الوقائع الكبرى للمعركةِ استبسالُ أهلِ البصرة حول جَمَلِ أمِّ المؤمنين عائشة، دفاعا عنها وحماية لها، حتى قُتل الجملُ فانقضُوا، وانْكشَفَ القتال عن هزيمة أهل البصرة. وترَكَ الزبيرُ الميدانَ وقُتل في طريق عودته، وقُتل طلحة بسهم طائش.
كانت أم المؤمنين راكبةً هَوْدَجَها تحاول وَقْفَ القتال، لكن السبئيّة ما كانوا لِيَفْتُرُوا عن إشعال نارٍ يحتمون بها، وحاول أيضًا أميرُ المؤمنين عليٌّ وقف القتال فما أفْلَحَ.
وثبتَ أهلُ البصرة حول الجمل، ودار القتال هناك مريرا، وتفانى الناس محيطين بأم المؤمنين مدافعين عنها، ولم تُؤْذِن المعركة بانتهاءٍ إلا بعَقْرِ الجمل، وساعتَها انصرف أهلُ البصرة منهزمين.
ونادى عليّ بالأمان، وضرب أرْوع الأمثلة في سيرته مع مَنْ قاتل يومَ الجمل، فأكرم أُمّهُ أمّ جميعِ المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ وعاقب من انْتَقصَها، وتوجّع على قتلى الجمل، وحزن حزنا شديدا عليهم، وحرّم على أتباعه سَبْيَ أهل الجمل أو أخْذَ أموالهم. وكذلك كسا الحزنُ أمّ المؤمنين عائشة؛ فكانت تبكي حتى تبل خِمارَها، وندم كبار الصحابة على ما كان يوم الجمل ندمًا شديدا، وأَخَذَ عليّ البَيْعة من أهل البصرة، وأمّر عليها ابنَ عباس، وانتقل إلى الكوفة واتخذها عاصمة، وهكذا انتهتْ هذه الموقعةُ بهذا الشر المستطير في يومٍ مُظْلِمٍ في تاريخ الأمة.

=============

محاولات الصحابة وقف القتال يوم الجمل[102]

أشعل قَتَلَةٌ عثمان القتالَ فذهب كعْبُ بن سُور قاضي البصرة إلى أمّ

[102] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 51)

المؤمنين عائشة يخبرها بالأمر، لعلها تستطيع أنْ توقف القتال بما لها من حرمة وتأثير، فقال لها كعب مستغيثا: أدْركِي، فقد أبَى القومُ إلا القتال، لعل اللّه َ يُصلِحُ بِكِ. فركِبَتْ، فلما كانت وهي على الجمل بحيث تَسْمَعُ العامةَ ـ وقف رَكَبُهَا.. واقتتل الناس، فقالت أم المؤمنين لكعْب بن سُور: خَلّ عن الجمل وتقدّمْ بالمصحف فادْعُهُم إليه، وناوَلَتْهُ مصحفًا، فدخل بين الصفّيْن يناشدهم اللّه ـ عز وجل ـ في دمائهم، وناوله الناس درعه فرمَى بها تحته، فرشقوه بالسهام، فكان ـ رضي اللّه عنه ـ أولَ مقتول بين يدي عائشة..

وجَرَتْ محاولة أخرى لمنع القتال ووقفِه من أمير المؤمنين عليّ، ولكن السبئية كانوا يُنْهُون كلّ محاولةٍ بالفشل؛ كي تظل نار الحرب مشتعلة. ولم يكْتَفُوا بذلك بل تجرأوا على هَوْدَجِ أم المؤمنين عائشة ورمَوْه بالنبال، وأشعلوا القتال حول الجمل، فتحركت حميّةُ جيشِ البصرة لحماية حرم رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ فاحْتَدَمَ القتال حول الجمل.

كان أمير المؤمنين عليّ ينادى في الناس: "ألا كفّوا، ألا كفّوا، لا شيء"، ولا أحد يسمع له، حتى أخذ مصحفا وطاف بين أصحابه، وقال: مَنْ يأخذُ هذا المصحفَ، يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقام إليه فتى من أهل الكوفة، فأعرض علي عنه، وكرر ذلك، فإذا هو نفسُ الفتى: مسلمُ بن عبد اللّه، فدفع إليه المصحف، وأرسله إليهم ليدعوهم إلى ما فيه، فرشَقوه بالسهام فقتلوه، فكان أول مَنْ قُتل بين يدي أمير المؤمنين.

وهكذا كان مراد الصحابة هو الصلح ونبذ الحربِ والشقاق، وكان قصد السّبَئِيّة هو إنشاب القتال وإشاعة الفتنة بين المسلمين، ووَأد كل محاولة لإ خماد جذوتها، فانتصر الهدم والتخريب على البناء والإصلاح!

=================

القتال حول الجمل ونهاية المعركة[103]

كانت أم المؤمنين في معركة الجمل محاطةً بجماعة من أهل الشجاعة و البصائر، فكان لا يأخذ أحدٌ بزمام الجمل إلا حمل الراية واللواء لا يريد تركْها، وكان لا يأخذ بالزمام إلا رجل معروف عند المحيطين بالجمل فينتسب إليها: أنا فلان بن فلان.

واشتد سعير القتال حول الجمل، حتى بَدَا الموتُ كاشفا وجهَه للناس، وحمى الشجعانُ عائشة بقوة منقطعة النظير، وما قصد أحدٌ الجملَ من أصحاب عليّ إلا قُتِل، أو أفلت ثم لم يَعُدْ.

فكان يقاتل عن يسارها قبيلة الأزْدِ، وعن يمينها بكر بن وائل؛ فاقتتلوا أشدّ من قتالهم قبل ذلك، وأقبلت كتيبة من بني ناجية كانت تقاتل بين يديْها فجالدوا جلادًا يَهرب منه الشجاع، ثم أطافت بها بنو ضبّة، حتى إذا كثر القتل فيهم خالطهم بنو عديّ، وكثروا حولها، فقالت أم المؤمنين: مازال رأس الجمل معتدلا حتى قُتِلت بنو ضبّة حولي، فأقاموا رأس الجمل.. حتى قُتِل

---

[103] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 55)

منهم على الخِطَام أربعون رجلا.
ولما كثُر القتل والجراحات في العسكريْن جميعا وظهر ذلك، قصدوا الجملَ حتى قتلوه، وانتهت المعركة بإحداث صدع نفسي هائل للمسلمين لا يمكن معه أن نقول: انتصر فلان وهُزم فلان، وإن كان التفوق الحربي قد جاء في صف علي بن أبي طالب؛ الذي أمر بدفن القتلى من الطرفين والصلاة عليهم، وأحسن معاملة إخوانِه من الطرف المنهزم؛ فحرّمَ سَبْيَهم وأخْذَ أموالِهم.

===============

استشهاد الزبير رضي الله عنه[104]

إنه ابنُ عمّة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحدُ مَنْ بكروا بالدخول في الإسلام، وشهدوا نمو الإسلام واتساع سلطانه منذ كان نبْتةً صغيرة إلى أنْ أصبح دولة قويةً لها السلطان والغلَبة. وكان للزبير نصيب وافر من الجهاد في سبيل الله حتى علَتْ راية الدين، وعدّه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضِمْنَ العشرة الذين بشّرهم بالجنة، بل منحه مقاما آخر حينما عدّه حواريّه، أي: صاحبه في الجنة..
وقد أعطى الزبير لدينه بعد النبي كما أعطاه والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيٌ بين الناس، وجاءت الفتنة لِيُبتَلَى فيها الزبير، فقد رأى ـ كغيره من الصحابة ـ أن عثمان قُتل مظلوما، وأن القصاص من القتلة واجب ديني لا ينبغي التفريطُ فيه.. واختار أن يخرج لقتال هؤلاء المجرمين بنفسه، وكان يشعر بأن الأمر ملتبس لا يَبِينُ فيه الحقُ جَلِيًّا، فكان يقول: "والله ما أخذ أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُذْ بعث الله ـ عز وجل ـ نبيّه طريقًا إلا عَلِمُوا أين مواقعُ أقدامِهم، حتى حدث هذا؛ فإنهم لا يَدْرون أمُقْبِلون هم أم مُدْبِرون"!![105]

---

[104] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 45)

[105] - إنه الزبير بن العوام -رضي الله عنه- الذي يتلقى في نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو أحد الستة أهل الشورى الذين اختارهم عمر؛ ليكون منهم الخليفة بعد موته، وزوج أسماء بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-.

وقد أسلم الزبير مبكرًا، فكان واحدًا من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام، ولما علم عمه نوفل بن خويلد بإسلامه غضب غضبًا شديدًا، وتولى تعذيبه بنفسه، فكان يلفّه في حصير، ويدخن عليه بـ النار، ويقول له: اكفر برب محمد، أدرأ (أكف) عنك هذا العذاب. فيرد عليه الزبير قائلا ً: لا، والله لا أعود للكفر أبدًا. [الطبراني وأبو نعيم].

وسمع الزبير يومًا إشاعة كاذبة تقول: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد قتل، فخرج إلى شوارع مكة شاهرًا سيفه، يشق صفوف الناس، وراح يتأكد من هذه الشائعة معتزمًا إن كان الخبر صحيحًا أن يقتل من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،؛ فلقي النبي صلى الله عليه وسلم بشمال مكة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "مالك؟" فقال: أخبرت أنك أخذت (قتلت). فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "فكنت صانعًا ماذا؟" فقال: كنت أضرب به من أخذك. ففرح النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع هذا، ودعا له بالخير ولسيفه بالنصر.[أبو نعيم]. فكان -رضي الله عنه- أول من سل سيفه في سبيل الله.

وقد هاجر الزبير إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين، وبقي بها حتى أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالعودة إلى المدينة.

وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغزوات كلها، وفي غزوة أحد بعد أن عاد جيش قريش

وقد لعبت يدُ الفتنة دورا حتى وجد الزبيرُ نفسَه في جيشٍ يواجه ويقاتل جيشَ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، دون أن يكون أحدهما قاصدًا ظلمَ أخيه...
ولكن حتى في هذه الفتنة الملتهبة لم يكن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَدَعُون الاعترافَ بالحق والوقوفَ عنده؛ فهذا عليّ بن أبي طالب يأتي إلى الزبير ابن عمته يذكِّره ـ والقتالُ مشتعلٌ ـ بموقفٍ لهما بين يَدَيْ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له: يا زبيرُ، أنْشُدُكَ اللهَ، أسمعتَ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: "إنك تقاتلني وأنت ظالم"؟ قال: نعم، لم أذكرْه إلا في موقفي هذا، ثم انصرف، وترَكَ ساحةَ القتال[106].
وراح الزبيرُ على دابّته مسرعا يشق الصفوف إلى أمّ المؤمنين عائشة، فقال

إلى مكة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا من المسلمين في أثرهم، كان منهم أبو بكر والزبير. [البخاري].
ويوم اليرموك، ظل الزبير -رضي الله عنه- يقاتل جيش الروم وكاد جيش المسلمين أن يتقهقر، فصاح فيهم مكبرًا: الله أكبر. ثم اخترق صفوف العدو ضاربًا بسيفه يمينًا ويسارًا، يقول عنه عروة: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف، كنت أدخل أصابعي فيها، ثنتين (اثنتين) يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك.
وقال عنه أحد الصحابة: صحبت الزبير بن العوام في بعض أسفاره، ورأيت جسده، فقلت له: والله لقد شهدت بجسمك لم أره بأحد قط، فقال لي: أما والله ما فيها جراحة إلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،، وفي سبيل الله. وقيل عنه: إنه ما ولى إمارة قط، ولا جباية، ولا خراجا، ولا شيئًا إلا أن يكون في غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع أبي بكر أو عمر أو عثمان.
وحين طال حصار بني قريظة دون أن يستسلموا أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع
علي بن أبي طالب، فوقفا أمام الحصن يرددان قولهما: والله لنذوقن ما ذاق حمزة، أو لنفتحن عليهم الحصن.
وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم "إن لكل نبي حواريًا وحواري الزبير" [متفق عليه]. وكان يتفاخر بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يوم أحد، ويوم قريظة: "ارم فداك أبي وأمي".
وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير: كان أبواك من الذين استجابوا لله وللرسول من بعدما أصابهم القرح (تريد أبا بكر والزبير)[ابن ماجة].
وكان الزبير بن العوام من أجود الناس وأكرمهم، ينفق كل أموال تجارته في سبيل الله، يقول عنه كعب: كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فما كان يدخل بيته منها درهمًا واحدًا (يعني أنه يتصدق بها كلها)، لقد تصدق بماله كله حتى مات مديونًا، ووصى ابنه عبد الله بقضاء دينه، وقال له: إذا أعجزك دين، فاستعن بمولاي. فسأله عبد الله: أي مولى تقصد؟ فأجابه: الله، نعم المولى ونعم النصير. يقول عبد الله فيما بعد: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض دينه فيقضيه. [البخاري].
وعلى الرغم من طول صحبته للنبي (فإنه لم يرو عنه إلا أحاديث قليلة، وقد سأله ابنه عبد الله عن سبب ذلك، فقال: لقد علمت ما كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرحم والقرابة إلا أني سمعته يقول: "من كذب عليّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار" [البخاري]. فكان -رضي الله عنه - يخاف أن يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء لم يقله، فيزل بذلك في النار.
وخرج الزبير من معركة الجمل، فتعقبه رجل من بني تميم يسمى عمرو بن جرموز وقتله غدرًا بمكان يسمى وادي السباع، وذهب القاتل إلى الإمام عليّ يظن أنه يحمل إليه بشرى، فصاح عليّ حين علم بذلك قائلا ً لخادمه: بشر قاتل ابن صفية بالنار. حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قاتل الزبير في النار. [أحمد وابن حبان والحاكم والطبراني].
ومات الزبير -رضي الله عنه- يوم الخميس من شهر جمادى الأولى سنة (36هـ)، وكان عمره يوم قتل (67 هـ) سنة وقيل (66) سنة.
[106] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 346) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج 1 / ص 455) والمستدرك برقم(5576و5577)

لها: ما كنتُ في موطن منذ عقلتُ إلا وأنا أعرفُ فيه أمري، غيرَ موطني هذا، قالت: ما تريد أنْ تصنع؟ قال: أريد أنْ أدَعَهم وأذهبَ.
وترك ميدان القتال، ومضى، فاتبعه عمرو بن جُرموز، وكان في عسكر للأحنف بن قيس، وحضرت الصلاةُ، فلما سجد الزبير مُسَبِّحًا ربّه الأعلى، طعنه ابنُ جُرموز، فقتله، وأخذ فرسَه وسلاحَه وخاتمَه، ودفنه بوادي السباع.
فعَنْ مُسْلِمِ بْنِ نَذِيرٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَجَاءَ ابْنُ جُرْمُوزٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : أَتَقْتُلُ ابْنَ صَفِيَّةَ تَفَخُّرًا ؟ ائْذَنُوا لَهُ وَبَشِّرُوهُ بِالنَّارِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، يَقُولُ : لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ ، وَإِنَّ الزُّبَيْرَ حَوَارِيِّ وَابْنُ عَمَّتِي أخرجه الحاكم[107] وهو صحيح
وأُحضِرَ سيفُ الزبير عند عليٍّ، فأخذه، فنظر إليه، وقال: طالما جَلى به الكربَ عن وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ولكن لكل جنب مصرع[108]. ثم بعث به إلى عائشة.
وكان استشهادُ الزبير في سنة ست وثلاثين من الهجرة، وكان عمرُه حينَها سبعًا وستين سنة، وقيل: أكثر.

=================

استشهاد طلحة رضي الله عنه[109]

---

[107] - برقم(5578)

[108] - أخرجه ابن عساكر (18/ 418)

[109] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 54)

إنه الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله، قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : "من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض؛ فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله" [الترمذي].
وهو أحد العشرة الذين بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليكون منهم خليفة المسلمين.
وكان طلحة قد سافر إلى أرض بصرى بالشام في تجارة له، وبينما هو في السوق سمع راهبًا في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم؟ فذهب إليه طلحة، وقال له: نعم أنا، فقال الراهب: هل ظهر أحمد؟ قال طلحة: من أحمد؟ قال الراهب: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وحرة وبياخ (يقصد المدينة المنورة)، فإياك أن تسبق إليه.
فوقع كلام الراهب في قلب طلحة، ورجع سريعًا إلى مكة وسأل أهلها: هل كان من حدث؟ قالوا نعم، محمد الأمين تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة، فذهب طلحة إلى أبي بكر، وأسلم على يده، وأخبره بقصة الراهب.[ابن سعد]، فكان من السابقين إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر.
ورغم ما كان لطلحة من ثراء ومال كثير ومكانة في قريش فقد تعرض لأذى المشركين واضطهادهم مما جعله يهاجر المدينة حين أذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة، وجاءت غزوة لكنه لم يشهدها، وقيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسله في مهمة خارج المدينة وحينما عاد ووجد المسلمين قد عادوا من غزوة بدر، حزن طلحة حزنًا شديدًا لما فاته من الأجر والثواب، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره أن له من الأجر مثل من جاهد في المعركة، وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم سهمًا ونصيبًا من الغنائم مثل المقاتلين تمامًا.
ثم شهد طلحة غزوة أحد وما بعدها من الغزوات، وكان يوم أحد يومًا مشهودًا، أبلى فيه طلحة بلاء حسنًا حتى قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم "طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض" [ابن عساكر].
وحينما نزل قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) [الأحزاب: 23]، قال النبي صلى الله عليه وسلم "طلحة ممن قضى نحبه" [الترمذي].

ذاك رجلٌ آخرُ من الأصفياء الذين سالتْ دماؤُهم الزكيّة في ساحات الفتنة، وهو ممن عملوا للدين منذ دُعِيَ إليه في أيام الإسلام الأولى بمكةَ، وشارك في مواقع الجهاد وساحاته حتى بشره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بِ الجنة..

وقد خرج طلحةُ والزبيرُ ومعهما أمُّ المؤمنين عائشةُ لِقتْلِ مَنْ قَتَلَ أميرَ المؤمنين عثمانَ، لكنهم وجدوا أنفسَهم في مواجهة أمير المؤمنين عليٍّ بدلا من القَتَلَةِ ومثيري الفتنة، ورأى طلحةُ أمامَه ساحةً تمُوجُ بالفتن، لا يُعرف فيها الحق من الباطل، فلما دعاه عليّ وذكّره بأعمالِه وسوابِقِه رَجع عن القتال، واعتزل في بعض الصفوف، فأتاه سهمٌ لا يُعرَف رامِيه، فأصاب رُكبتَه ، وسالَ منه الدمُ غزيرًا، فلما رآه القعقاعُ بن عمرو قال له: "يا أبا محمد، إنك لجريح، وإنك عما تريد لعَلِيلٌ، فادْخل البيوتَ" فدخل ودمُه يسيل وهو يقول: "اللّهمّ خُذْ لعثمان مِنِّي حتى يرضَى"؛[110] فلما امتلأ خُفُّه دَمًا وثقُلَ، ق ال لغلامه ارْدُفْني وأمْسِكْني وأبْلِغْني مكانا أنزل فيه، فدخل البصرة وهو

وحينما حدث اضطراب في صفوف المسلمين، وتجمع المشركون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كل منهم يريد قتله، وكل منهم يوجه السيوف والسهام والرماح تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إذا بطلحة البطل الشجاع يشق صفوف المشركين حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :، وجعل من نفسه حصنًا منيعًا للنبي (، وقد أحزنه ما حدث ل رسول الله صلى الله عليه وسلم من كسر رباعيته (أي مقدمة أسنانه)، وشج رأسه، فكان يتحمل بجسمه السهام عن رسول الله، ويتقي النبل عنه بيده حتى شلت يده، وشج رأسه، وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهره حتى صعد على صخرة، وأتاه أبو بكر وأبو عبيدة، فقال لهما الرسول: اليوم أوجب طلحة يا أبا بكر"، ثم قال لهما: "عليكما صاحبكما"، فأتيا إلى طلحة فوجداه في حفرة، وبه بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة، وقد قطعت إصبعه" [ابن سعد].

وكان أبو بكر الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة، وقد بشره الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة.

وقد بلغ طلحة مبلغًا عظيمًا في الجود والكرم حتى سمى بطلحة الخير، وطلحة الجواد، وطلحة الفياض، ويحكى أن طلحة اشترى بئر ماء في غزوة ذي قرد، ثم تصدق بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنت طلحة الفياض" [الطبراني]، ومن يومها قيل له طلحة الفياض.

وقد أتاه مال من حضرموت بلغ سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: مالك؟ فقال: تفكرت منذ الليلة، فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته، فأشارت عليه أن يقسم هذا المال على أصحابه وإخوانه، فسرّ من رأيها وأعجب به، وفي الصباح، قسم كل ما عنده بين المهاجرين والأنصار، وهكذا عاش حياته كلها كريمًا سخيًا شجاعًا.

واشترك في باقي الغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر وعثمان، وحزن حزنًا شديدًا حينما رأى مقتل عثمان بن عفان رضي الله واستشهاده، واشترك في موقعة الجمل مطالبًا بدم عثمان وبالقصاص ممن قتله، وعلم أن الحق في جانب علي، فترك قتاله وانسحب من ساحة المعركة وفي أثناء ذلك أصيب بسهم فمات.

وقد روي عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين) [الحجر: 47].

وتزوج طلحة -رضي الله عنه- أربع نسوة، كل واحدة منهن أخت لزوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، وهن: أم كلثوم بنت أبي بكر، أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة، ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة.

وقد ترك طلحة تسعة أولاد ذكور وبنتًا واحدة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ثلاثين حديثًا

[110] - تاريخ الإسلام للذهبي - (ج 1 / ص 455)

يتمثّل مثله ومثل الزبير:

فإن تكن الحوادث أقدتني ... وأخطأهنّ سهمي حين أرمى

فقد ضيّعت حين تبعت سهماً ... سفاهاً مّا سفهت وضلّ حلمي

ندمت ندامة الكسعيّ لمّا شريت رضا بني سهمٍ برغمي

أطعتهم بفرقة آل لأيٍ ... فألقوا للسّباع دمي ولحمي[111] .

و عن حكيم بن جابر، قال: قال طلحة يومئذ: اللهمّ أعط عثمان منّي حتى يرضى؛ فجاء سهم غرب وهو واقف، فخلّ ركبته بالسرج، وثبت حتى امتلأ موزجه دماً، فلما ثقل قال لمولاه: اردفني وابغني مكاناً لا أعرف فيه، فلم أر كاليوم شيخاً أشيع دماً مني. فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول: قد لحقنا القوم، حتى انتهى به إلى دار من دور البصرة خربة، وأنزله في فيئها، فمات في تلك الخربة، ودفن رضي الله عنه في بني سعد..[112]

==============

علي رضي الله عنه يحسن معاملة أهل الجمل

أمر عليّ يوم الجمل بعدم الإجهاز على جرحى أهل البصرة، وعدمِ تتبُّع الفارّين، لكن قوما معه خالفوا أمره، فدَفع الديات لأولياء القتلى من بيت المال، وجمع في أرض المعركة ما يخص المنهزمين من الأمْتِعَةِ والأموال، ثم بعث به إلى مسجد البصرة، وقال: مَنْ عَرَف شيئا فليأخذه، إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سِمَةُ السلطان.

فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ ، قَالَ : قَالَ : عَلِيٌّ : لاَ تُتِمُّوا جَرِيحًا وَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَأَلْقَى سِلاَحَهُ فَهُوَ آمِنٌ فَلَمْ يَكُنْ قِتَالُهُمْ إلاَّ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ وَحْدَهَا , فَجَاءُوا بِالْغَدِ يُكَلِّمُونَ عَلِيًّا فِي الْغَنِيمَةِ فَقَوْلُ عَلِيٍّ هَذِهِ الآيَةُ ، فَقَالَ : أَمَا إنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ أَيُّكُمْ لِعَائِشَةَفَقَالُوا : سُبْحَانَ اللهِ , أُمُّنَا ، فَقَالَ : أَحَرَامٌ هِيَ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ عَلِيٌّ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ مِنْ بَنَاتِهَا مَا يَحْرُمُ مِنْهَا ، قَالَ : أَفَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَعْتَدِدْنَ مِنَ الْقَتْلَى أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : أَفَلَيْسَ لَهُنَّ الرُّبُعُ وَالثُّمُنُ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : مَا بَالُ الْيَتَامَى لاَ يَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ ،ثُمَّ قَالَ : يَا قَنْبَرُ , مَنْ عَرَفَ شَيْئًا فَلْيَأْخُذْهُ ، قَالَ زَيْدٌ : فَرَدَّ مَا كَانَ فِي الْعَسْكَرِ وَغَيْرِهِ ،....أخرجه ابن أبي شيبة وهو صحيح

ولم يتعرض ـ رضي الله عنه ـ لما في دُور البصرة من المتاع والأموال بعد وقعة الجمل، بل تركها إلى أصحابها، إلا ما كان من خراج بيت مال المسلمين، فإنه أخذه ليضمّه إلى أموال الدولة.

لكنّ أمْرَ الجند لم يمكنْ ضبطُه بدقة؛ إذْ تصرف بعضهم بخلاف ما أُمر به الإ مام؛ ولذلك كان عليّ ـ رضي الله عنه ـ يدعو البُغَاة بعد القدرة عليهم إلى استرداد ما يجدونه من أموالهم في يد أحد من جنده، وقد وجد رجل من

---

[111] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 51)

[112] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 60)

أهل الجمل قِدْرًا له في يَدِ رجُل من أصحاب عليّ كان قد أخذها من بيت ذلك الرجل ليطبخ فيها، فاستردّها.
وكان أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ لا يُحِل قتلَ أحدٍ من أسْرى مخالفيه من المسلمين ولا استرقاقه، ولا يُحل سَبْيَ ذَراريهم.
وقد طعن عليه مثيرو الفتنة عقب موقعة الجمل، فقالوا: كيف يُحل دماءَهم ولا يُحل أموالَهم؟ فبلغ ذلك عليّا، فقال: "أيُّكم يحب أن تصيرَ أمُّ المؤمنين في سهْمِه (أي من سباياه)؟!!"، فسكت القوم. ولما دخل البصرة فرّقَ في أصحابه أموالَ بيت المال.

==============

إكرام علي لعائشة رضي الله عنهما[113]

[113] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 66) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 354)
لما سأل عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه قال: "عائشة" [متفق عليه].
وعندما جاءت أم المؤمنين أم سلمة -رضى الله عنها- إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتشتكى من أمر يتعلق بعائشة، قال لها النبي صلى الله عليه وسلم "يا أم سلمة لا تؤذينى في عائشة؛ فإنه -والله- ما نزل على الوحى وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها" [متفق عليه].
وُلدت السيدة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - قبل الهجرة بحوالى ثمانى سنوات، في بيت عامر بالإيمان، ممتلئ بنور القرآن، فأبوها الصديق أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما في الغار، وأول من آمن من الرجال، وأول خليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها السيدة أم رومان بنت عامر، من أشرف بيوت قريش وأعرقها في المكانة.
وقد شاركت السيدة عائشة -رضى الله عنها- منذ صباها في نصرة الإسلام، فكانت تساعد أختها الكبيرة أسماء في تجهيز الطعام للنبى صلى الله عليه وسلم وأبيها وهما في الغار عند الهجرة.
وبعد أن استقر مقام المسلمين في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو بكر الصديق إلى ابنه عبد الله يطلب منه أن يهاجر بأهل بيته: عائشة، وأسماء، وأم رومان، فاستجاب عبد الله بن أبى بكر ومضى بهم مهاجرًا، وفى الطريق هاج بعير عائشة فصاحت أم رومان: وابنتاه وا عروساه. ولكن الله لطف، وأسرع الجميع إلى البعير ليسكن، وكان في ركب الهجرة السيدة فاطمة الزهراء والسيدة أم كلثوم بنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين السيدة سودة بنت زمعة، ونزلت السيدة عائشة مع أهلها في دار بنى الحارث بن الخزرج، ونزل آل النبي صلى الله عليه وسلم في منزل حارثة بن النعمان.
وبدأتْ مرحلة جديدة في حياة أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - فقد تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهى بنت ست سنين، وبنى بها وهى بنت تسع سنين. [البخاري].
وكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي دخلت فيه أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- حجرة واحدة من الطوب اللبِن - النّيِّئ - والطين ، ملحق بها حجرة من جريد مستورة بالطين، وكان باب حجرة السيدة عائشة مواجهًا للشام، وكان بمصراع واحد من خشب، سقفه منخفض وأثاثه بسيط: سرير من خشبات مشدودة بحبال من ليف عليه وسادة من جلد حَشْوُها ليف، وقربة للماء، وآنية من فخارٍ للطعام والوضوء.
وفى زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة عائشة -رضى الله عنها- تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُريتك في المنام مرتين: أرى أنك في سَرَقة (قطعة) من حرير، ويقول: هذه امرأتك. فأكشف فإذا هي أنتِ، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضِه" [البخارى ومسلم وأحمد]. وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخطب عائشة حتى جاءته خولة زوج صاحبه عثمان بن مظعون ترشحها له.
أحبت السيدة عائشة النبي حبًا كبيرًا، ومن فرط هذا الحب كانت فطرتها - مثل النساء - تغلبها فتغار.
ومرت الأيام بالسيدة عائشة هادئة مستقرة حتى جاءت غزوة بنى المصطلق، فأقرع النبي صلى الله عليه وسلم بين نسائه (أى أجرى القرعة بينهن لتخرج معه واحدة في السفر) وكان من عادته (أن يفعل ذلك مع أزواجه إذا خرج لأمر، فخرج سهمها فخرجت معه (، حتى إذا فرغ النبي من غزوته،

وعاد المسلمون منتصرين، استراح المسلمون لبعض الوقت في الطريق، فغادرت السيدة عائشة هودجها، فانسلّ عِقدها من جيدها (عنقها)، فأخذت تبحث عنه.. ولما عادت كانت القافلة قد رحلت دون أن يشعر الرَّكبُ بتخلفها عنه، وظلت السيدة عائشة وحيدة في ذلك الطريق المقفر الخالى حتى وجدها أحد المسلمين - وهو الصحابى الجليل صفوان بن المعطل - رضى الله عنه - فركبت بعيره، وسار بها، والله ما كلمها ولاكلمته، حتى ألحقها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن أعداء الله تلقفوا الخبر ونسجوا حوله الخزعبلات التي تداعت إلى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأثرت في نفسه، ونزلت كالصاعقة عليه وعلى أبيها"أبى بكر" وأمها "أم رومان" وجميع المسلمين، لكن الله أنزل براءتها من فوق سبع سماوات فنزل في أمرها إحدى عشرة آية؛ لأنه يعلم براءتها وتقواها، فقال تعالى: (إِنّ الذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور: 11].

وتقول السيدة عائشة لما علمت بحديث الإفك: وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتى ويومًا، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنتْ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكى معي، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس - ولم يجلس عندى من يوم قيل في ما قيل قبلها- وقد مكث شهرًا لا يُوحى إليه في شأنى شيء، فتشهّد، ثم قال: "يا عائشة، فإنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه". فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلَص دمعى حتى ما أُحِس منه قطرة، وقلتُ لأبي: أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال: والله لا أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمي: أجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ق ال. قالت: ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن. إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يُحَدّثُ به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، وإن قلتُ لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقوننى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى بريئة - لتصدقني، والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ $ ۖ اللهِ بِمُسْتَعَانِ عَلَي" مَا تَصِفُونَ [يوسف:18]. ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئنى الله، ولكن والله ما ظننتُ أن يُنزل في شأنى وحيًا، ولأنا أحقر في نفسى من أن يُتكلم بالقرآن في أمري، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا تبرئني، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحى ... فلما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هو يضحك (أي انكشف عنه الوحى ثم ابتسم)، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: "يا عائشة، احمدى الله، فقد برأك الله". فقالت لى أمي: قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: إن الذين جاءوا بالإفك. [البخاري].

وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصالحها فقال لها ذات يوم : "إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنتِ على غَضْبَي". فقالت رضى الله عنها: من أين تعرف ذلك؟ فقال : "أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنتِ غضبى قلت: لا ورب إبراهيم". فأجابت: أجل، والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. [البخاري].

تلك هي المؤمنة ،لا يخرجها غضبها عن وقارها وأدبها، فلا تخرج منها كلمة نابية، أو لفظة سيئة.

ولما اجتمعت نساء النبي صلى الله عليه وسلم ومعهن السيدة عائشة لطلب الزيادة في النفقة منه رغم علمهن بحاله، قاطعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وعشرين يومًا حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا.وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 28-29]. فقام النبي صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة إنى ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك".

قالت: وقد علم أن أبواى لم يكونا ليأمرانى بفراقه، قالت: ثم قال: "إن الله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ)[الأحزاب: 82]. حتى بلغ: (لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 29]. فقلت: في هذا أستأمر أبوي؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وكذا فعل أزواج النبي جميعًا.

وعاشت السيدة عائشة مع رسول الله حياة إيمانية يملأ كيانها نور التوحيد وسكينة الإيمان، وقد حازت -رضى الله عنها- علمًا غزيرًا صافيًا من نبع النبوة الذي لا ينضب، جعلها من كبار المحدثين و الفقهاء، فرُوى عنها من صحيح الحديث أكثر من ألفين ومائة حديث، فكانت بحرًا زاخرًا في الدين،

وخزانة حكمة وتشريع، وكانت مدرسة قائمة بذاتها، حيثما سارت يسير في ركابها العلم والفضل و التقي، فقد ورد عن أبي موسى -رضى الله عنه- قال: ما أشْكِلَ علينا -أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث قط، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا.
وكان للسيدة عائشة -رضى الله عنها- علم بالشعر والطب، بالإضافة إلى علمها بالفقه وشرائع الدين.
وكان عروة بن الزبير -رضى الله عنه- يقول: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشِعْر من عائشة -رضى الله عنها-.
ومن جميل ما أسدته السيدة عائشة للمسلمين أنها كانت سببًا في نزول آية التيمم، يروى عنها أنها قالت: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بِتُرْبان (بلد يبعد عن المدينة عدة أميال وهو بلد لا ماء به) وذلك وقت السحر، انسلت قلادة من عنقى فوقعت، فحبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى أمر بالبقاء لالتماسها في الضوء) حتى طلع الفجر، وليس مع القوم ماء، فلقيت من أبى ما الله به عليم من التعنيف والتأفّف، وقال: في كل سفر للمسلمين يلقون منك عناء وبلاء، فأنزل الله الرخصة في التيمم، فتيمم القوم وصلوا، قالت: يقول أبى حين جاء من الله الرخصة للمسلمين: و الله ما علمت يا بنية إنك لمباركة !! ما جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر!! وفى رواية قال لها أسيد بن حضير: جزاك الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه قط إلا جعل الله لك منه مخرجًا، وجعل للمسلمين فيه بركة.
لم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرًا غيرها، فلقد تزوجها بعد أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنهن جميعًا؛ رغبة منه في زيادة أواصر المحبة والصداقة بينه وبين الصدّيق -رضى الله عنه-. وكانت منزلتها عنده (كبيرة، وفاضت روحه الكريمة في حجرها.
وعاشت -رضى الله عنها- حتى شهدت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وحضرت معركة الجمل، وكانت قد خرجت للإصلاح.
واشتهرت - رضى الله عنها - بحيائها وورعها، فقد قالت: كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى - رضى الله عنه - واضعة ثوبى وأقول إنما هو زوجى وهو أبي، فلما دُفِن عمر - رضى الله عنه - (معهما) والله ما دخلته إلا مشدودة على ثيابى حياءً من عمر - رضى الله عنه-.
وكانت من فرط حيائها تحتجب من الحسن والحسين، في حين أن دخولهما على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حل لهما.
وكانت -رضى الله عنها- كريمة؛ فيُروى أن "أم درة" كانت تزورها، فقالت: بُعث إلى السيدة عائشة بمال في وعاءين كبيرين من الخيش: ثمانين أو مائة ألف، فَدَعت بطبق وهى يومئذ صائمة، فجلست تقسم بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك المال درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هلُمى إفطاري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشترى لنا لحمًا بدرهم فنفطر به. فقالت: لا تُعنِّفيني، لو كنتِ ذكرتينى لفعلت.
ومن أقوالها :
* لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله.
* كل شرف دونه لؤم، فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به.
* إن لله خلقًا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح؛ خفقت معها، فَأفٍّ للجبناء، فأفٍّ للجبناء.
* أفضل النساء التي لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدى لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء في الصيانة على أهلها.
* التمسوا الرزق في خبايا الأرض.
* رأت رجُلا متماوتًا فقالت: ماهذا؟ فقيل لها: زاهد. قالت: كان عمر بن الخطاب زاهدًا ولكنه كان إذا قال أسمع،وإذا مشى أسرع،وإذا ضرب في ذات الله أوجع.
* علِموا أولادكم الشعر تعذُب ألسنتهم.
هذه هي السيدة عائشة بنت الصديق -رضى الله عنها- حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و التى بلغت منزلتها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغًا عظيمًا، فقد رضى الله عنها لرضا رسوله صلى الله عليه وسلم عنها، فعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا: "يا عائش! هذا جبريل يقرئك السلام". فقلتُ: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته" [متفق عليه].
وفى ليلة الثلاثاء 17 من رمضان في السنة 57 من الهجرة توفيت أم المؤمنين السيدة عائشة وهى في سن السادسة والستين من عمرها، ودفنت في البقيع، وسارت خلفها الجموع باكية عليها في ليلة مظلمة حزينة، فرضى الله عنها وأرضاها.

رضي الله عنها ـ في أعظم دار في البصرة، وأكرم نُزُلَهَا، وعاقب من انْتَقَصها. ولما أرادت الرحيل جهّزها بكل ما تحتاجه من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها كل مَنْ نجا ممن خرج معها، إلا مَنْ أحب المُقام، وأمر لها باثْنَيْ عشرَ ألفًا من المال، واختار لمرافقتها أربعين امرأة من كريمات نساء أهل البصرة المعروفات، وقال لأخيها: تجَهّزْ يا محمدُ، فبلِّغْها.

فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس في حجابها فودّعوها وودّعتهم، وقالت: والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أي: أقارب زوجها)، وإنه عندي ـ على معتبتي (أي مع عتابي له) من الأخيار.

وقال علي: يا أيها الناس، صدقتْ والله وبَرّتْ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجةُ نبيّكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيّعها عليّ، وأخرج أبناءه معها يوما. فانصرفت إلى مكة وأقامت بها إلى الحج، ثم رجعت إلى المدينة، وكان عُمرها ـ رضي الله عنها ـ وقتئذٍ خمسًا وأربعين سنة.

================

علي رضي الله عنه يأخذ البيعة من أهل البصرة[114]

لما فرغ علي من أمر الجمل بايعه الأحنفُ بن قيس في بني سعد ـ وكانوا قد اعتزلوا القتال وخرجوا من البصرة، ثم عادوا ودخلوها جميعا.

وبعث عليّ إلى الناس أن اخرجوا للبيعة، فبايعه أهل البصرة حتى الجرحى والمستأمنةُ، كما بايعه مروانُ، الذي خرج إلى المدينة ولم يتركها حتى فَرِغ من صِفّين. وكان عليّ قد بايع أهل البصرة على راياتهم. ولما فرغ من بيعتهم نظر في بيت المال، فقسم ما فيه على مَنْ شهد معه الوقعة، وكتب إلى عُماله على الأمصار بما حدث في وقعة الجمل، وأمّر عبد الله بن عباس على البصرة.

=================

الكوفة عاصمة الخلافة

بعدما انتهت معركة الجمل ودخل عليّ البصرة، وأخذ البيعة من أهلها، وشيّع أم المؤمنين عائشة إلى مكة ـ سار من البصرة إلى الكوفة، فدخلها يوم الا ثنين لثنتي عشرة ليلةً خَلَتْ من رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة، واتخذها مقرًا له، فقيل له: انزلْ بالقصر الأبيض، فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك..!![115]

فنزل في موضع آخر، وصلى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناسَ فحضّهم على الخير، ونهاهم عن الشر، وامتدح أهلَ الكوفة.

ولما جاءت عليه أولُ جمعة خطب فيهم وذكّرهم بالآخرة، ثم بعث إلى جرير

---

[114] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 44)

[115] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 365)

بن عبد الله، وكان على هَمَذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس، وهو على نيابة أذْرَبِيجَان من زمان عثمان ـ بعث إليهما أنْ يأخذا البَيْعةَ ممن هناك من الرّعايا، ثم يُقْبلا إليه، ففعلا ذلك.

وأرسل أميرُ المؤمنين جريرَ بن عبد الله إلى معاوية بدمشق، يدعوه إلى طاعته، فجمع معاوية رؤساءَ الصحابة عنده وقادة الجيوش وأعيانَ أهل الشام، واستشارهم فيما يطلب عليّ، فقالوا: لا نبايعُه حتى يَقتل قَتَلَةَ عثمان، أو يسلمهم إلينا.

ورجع جرير إلى الكوفة، وأخبر أميرَ المؤمنين بما قالوا، فخرج عليٌّ من الكوفة عازما على الدخول إلى الشام، فعسكر بالنخيلة، وقدم عليه عبدُ الله بن عباس بمن نَهَضَ معه من أهل البصرة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الأنصاري.[116]

==============

موقعة صفين

لما فرغ علي من وقعة الجمل انتقل إلى الكوفة ليتخذَها عاصمةً لخلافته، وأرسل جريرَ بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة، وقد دخلت جميع ا لأقطار في بيعته عدا الشام، فامتنع معاوية عن البيعة، واشترط قَتْلَ مَنْ قتلوا عثمان أولا، أو تسليمَهم لإقامة الحَدِّ عليهم.كما ذكرنا من قبل

وقد كانت أفاعيلُ هؤلاء القَتَلَة تثير الحرب وتبعثها من تحت الرماد.

ولم يبايعْ أهلُ الشام كذلك، وقاموا بنُصْرة معاوية مطالبين بالثأر من قَتَلَةِ عثمان، أو تسليمِهم لإقامة الحدّ عليهم.

ودارت الرسل بين الطرفين، ومعاوية وأهلُ الشام مُصرُّون على القصاص من قَتَلَةِ عثمان قبل البيْعة، فأخذ عليّ يجهز للخروج إليهم، ويحض أهل الكوفة على الاستعداد، فخرج معه كثيرون، وإن كان قُرّاءُ القرآن من تلاميذ ابن مسعود أبَوْا الخروجَ وسجلوا صورة مضيئة للمؤمن وسط هذه الفتن المظلمة. وفي أثناء ذلك سبّ بعضُ الناس أهل الشام، فنهاهم عليّ عن ذلك، وأمرهم أن يقولوا: اللهم احقنْ دماءَنا ودماءَهم، وأصلِحْ ذات بيننا وبينهم.[117]

وسار عليّ إلى صِفِّين، ولما علم معاوية بمسيره أسرع إلى هناك، وأقام الفريقان عدة أيامٍ يلتقون على الماء، ويسعى بعضُهم إلى بعض دون قتال، ولكنه الجدال والمناقشة.

ولم تُنْتِج المكاتباتُ والرسل نتيجةً، فلم يكن بُدّ من القتال، وأخذ علي يُعِدّ جيشه ويُوصِي جنودَه، وكذلك استعد معاوية، وبدأ القتال بين الفريقين، بعدما اجتهد كلاهما ليُصيبَ الحقّ. وكأنما كان قتالا على اسْتحياءٍ من الطرفين؛ فتتقدم فرقة من هذا الجيش إلى فرقة من الجيش الآخر وتقع

---

[116] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 366)
[117] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 320)

مناوشات صغيرة.. واستمر ذلك شهر ذي الحجة، ودخل شهر المحرم فتوقف القتال، وكانت الهُدْنَةُ لعل الله ـَ يصلح بينهما على أمر يكون فيه حقنُ دماء المسلمين.
وكثرت السفراء بين الفريقين، وسَعى أبو الدرداء وأبو أُمامة للصلح بينهما، كما قام جماعةٌ من القرّاء بمحاولاتٍ للصلح بين الطرفين، ولكن دون جدوى، فاصْطَفّوا للحرب في شهر صفر، واسْتُؤْنِفَ القتال، ولم يَغْلِبْ أحدٌ أحدًا، وظلوا أياما في حرب بلا حسم، فرأى الطرفان أنه لابد من مواجهة شاملة بين الجيشين لحسم المعركة.
ودارت رَحَى الحرب بينهم، فتقاتل الفُرْسان، وتبارز الشجعان، وقُتل خلق كثير من الأعيان من الفريقين، مثل: عبيد الله بن عمر وذي الكلاع من الشاميين، وعمار بن ياسر وهاشم بن عتبة من أصحاب عليّ، وطارت أكُفٌ ومَعَاصِمُ ورءوسٌ عن أجسادها، فظهرت لذلك بوادر الصلح بين الفريقين قبل رفع المصاحف على أسِنّةِ الرماح.
لكن الحرب عادت لتشتدّ في يوم الخميس تاسع صفر، ولم يصدّهم عن القتال إقبالُ الليل، فما صلّى الناسُ المغربَ والعشاءَ إلا بالإشارة، واستمر القتالُ هذه الليلةَ كلها، وهي من أعظم الليالي شرّا بين المسلمين، وتُسمى "ليلة الهرير"،[118] تكسرت فيها الرماح، وتفِدت النِّبال، وصار الناسُ إلى السيوف، واستمر القتال إلى ضُحى الجمعة، وكلا الفريقين صابر للآخر، و الناس يكاد يُفني بعضُهم بعضًا، فأشار عمرو على معاوية برفْع المصاحف على أسِنّةِ الرماح، ونادى المنادِي: هذا كتاب الله ـ عز وجل ـ بيننا وبينكم، مَنْ لِثُغُور أهل الشام بعد أهل الشام؟! ومَنْ لِثُغُور أهل العراق بعد أهل العراق ؟![119]
فاستجاب علي ـ رضي الله عنه ـ لنداء الصلح، وأوقف القتال، ولجأ الفريقان إلى التحكيم وضرب عليٌّ أروعَ الأمثلة في سيرته مع مَنْ قاتله يوم صِفِّين.
واعترض مثيرو الفتن على الصلح، لكن رغبةَ أكثر أهل الشام وأهل العراق كانت المصالحة والمسالمة مدة، لعل الله ـَ يُحْدِثُ فيها اتفاقا بين المسلمين، وكتب بينهما كتاب القضية. وقد شارك هذا الأمر في تقوية وضع معاوية بن أبي سفيان بصورة أكبر، حتى تمت له السيطرة على مصر.
وهكذا انتهت هذه الفاجعةُ الكبرى، التي راح ضحيتَها آلافٌ من النفوس الطاهرة.

===============

أفاعيل قتلة عثمان تثير الحرب في صفين

دفع بعضُ الثوار من قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ بالأمور إلى حافة الهاوية، وأجّجُوا الفتنة، وأكّدوا في حِسّ معاوية وأهل الشام مسئوليتَهم عن قتل

---

[118] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 98)
[119] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 100) والبداية والنهاية 303/7

عثمان.
وكان أحدهم يرتجز يوم صِفّين، مفتخرا بقتل أمير المؤمنين الشهيد عثمان بن عفان!
وقد بلغ من سيطرة هؤلاء السفهاء على مجريات الأمور بالكوفة أن الناس كانوا إذا سمعوا أحدا يذكر عثمان بخير ضربوه، فزجرهم عليّ لما علم بذلك ونهاهم عنه.
فهل كان في وسع معاوية عندما يسمع صوت البَغْي هذا أن يصم أذنيه؟ هل كان يُقْبَلُ منه أنْ يتجاهل كل ذلك؟!
==============

قراء القرآن وصورة مضيئة

إنها اليد المؤمنة التي أمسكت بالمصحف وتأبَى أن تمتد إلى مسلم بسوء، فقد علمهم القرآن أن يكونوا رحماءَ بالمؤمنين، بل أذلةً بين أيديهم، وأن يكونوا أعزةً على من يحارب الحق ويمنع عن الناس ضياءه..
هؤلاء هم قُرّاءُ القرآن الذين حضّهم علي بن أبي طالب مع أهل الكوفة؛ ليخرجوا معه لقتال أهل الشام، فأجابه جُلّ الناس إلى المسير، إلا أصحاب عبد اللّه بن مسعود في نحو أربعمائة رجل من القراء.
فقالوا: "يا أمير المؤمنين، قد شككنا في هذا القتال مع معرفتنا فضلك، ولا غنى بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين، فولِّنا بعضَ هذه الثغور لنقاتل عن أهله".فولاهم ثغرَ قزوين والريّ، وولى عليهم الربيع بن خُثَيم، وعقد له لواء، وكان أول لواء عقد بالكوفة.[120]
=================

محاولات من الصحابة لعقد الصلح يوم صفين

لم يقف الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ موقفَ الصمت إزاءَ ما يحدث بين المسلمين من شقاق ونزاع؛ فقد خرج أبو هريرة وأبو الدرداء لمنع القتال بين المسلمين يوم صفين، وقيل: بل خرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية، فقالا له: يا معاوية، عَلامَ تقاتل هذا الرجلَ؟ فواللّه ِ إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاما، وأقرب منك إلى رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ وأحقّ بهذا الأمر منك.
فقال: أقاتله على دَمِ عثمان، وأنه آوَى قَتَلَتَه، فاذهبا إليه فقولا له: فليُقِدْنَا من قَتَلَةِ عثمان، ثم أنا أولُ مَنْ يبايعه من أهل الشام.
فذهبا إلى عليّ، فقالا له ذلك، فقال: هؤلاءِ الذِينَ ترَيَان، فخرج خلقٌ كثيرٌ فقالوا: كلّنا قَتَلَةُ عثمان! قال: فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة؛ فلم يشهدا لهم حربا.[121]
ومن محاولات الصلح بين الفريقين أيضا أن قراء أهل العراق وقراء أهل

---

[120] - الأخبار الطوال للدينوري- (ج 1 / ص 165)
[121] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 375)

الشام من أهل القرآن عسكروا ناحيةً، وكانوا قريبا من ثلاثين ألفا، فجاء جماعة من قراء العراق ـ منهم عَبيدة السلماني وعلقمة بن قيس وعامر بن عبد قيس وعبد الله بن عتبة بن مسعود وغيرهم ـ جاءوا للسعي في الصلح بين الفريقين، لكن الخلاف حول أولوية قتْل قاتِلي عثمان ـ رضي الله عنه ـ حالَ دون نجاح هذه الجهود المخلصة.

وكان القراءُ يَحجزون بين الفريقين إذا زحف بعضهم إلى بعض، فلا يكون قتال، حتى اشتعلت الحرب بعدما فشلت محاولات الإصلاح.[122]

وبات عليّ ليلتَه كلها يعبّئ الناسَ، ويكتّب الكتائبَ، ويدور في الناس يحرضهم ويوصيهم، وبرز معاوية صبح تلك الليلة، يجهز جيشه ويحرضهم، وبايع رجال من أهل الشام على الموت، وكانوا يخرجون ويصفون عشرة صفوف، ويخرج أهل العراق أحد عشر صفا، فتواقفوا على هذه الصفة أولَ يوم من صفر، واقتتلوا فكان أول يوم من أيام القتال في صفين بعد الهدنة.[123]

================

محاولة أحد التابعين عقد الصلح[124]

لما عزم أهل الشام على نُصرة معاوية والقيام معه بطلب الثأر لعثمان، أقبل أبو مسلم الخولاني حتى قدم على معاوية، فدخل في أناس من العباد، فقال له: يا معاوية، قد بلغَنا أنك تهمّ بمحاربة علي، فكيف تناوئه وليست لك سابقته؟

فقال لهم معاوية: لست أدّعي أني مثله في الفضل، ولكن هل تعلمون أن عثمان قُتل مظلوما؟ قالوا: بلى.

قال: فليَدْفَعْ إلينا قَتَلَتَه، حتى نسلم إليه هذا الأمر.

قال أبو مسلم: فاكتبْ إليه بذلك حتى أنطلق أنا بكتابك، فكتب إليه بذلك.

فسار أبو مسلم بكتابه حتى ورد الكوفة، ودخل على أمير المؤمنين فناوله الكتاب، فقرأه. وقال أبو مسلم: يا أبا الحسن، إنك قد قُمْتَ بأمر وَوَلِيتَه، و الله ما نحب أنه لغيرك إنْ أعطيتَ الحقّ من نفسك؛ إن عثمان قُتِل مظلوما، فادْفَعْ إلينا قَتَلَتَه، وأنت أميرُنا، فإنْ خالفك أحدٌ من الناس كانت أيدينا لك ناصرةً، وألسنتُنا لك شاهدةً، وكنتَ ذا عذر وحُجة.

فقال له علي: اغْدُ عَلَيّ بالغداة، وأمَرَ به فأُنْزِلَ وأُكْرِمَ، فلما كان من الغد، دخل إلى عليّ وهو في المسجد، فإذا هو بزُهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح وهم ينادون: كلنا قَتَلَةُ عثمان.

فقال أبو مسلم لعلي: إني لأرى قوما ما لك معهم أمرٌ، وأحسب أنه بلغهم الذي قَدِمْتُ له ففعلوا ذلك خوفا من أن تدفعَهم إليّ. ورجع أبو مسلم بذلك إلى معاوية بعد أن كتب له أمير المؤمنين كتابا يدعو معاوية إلى الطاعة

---

[122] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 374)

[123] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 85)

[124] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 373-375)

ويحذِّرُه من الشقاق.

================

أيام الحرب غير الحاسمة في صفين[125]

في يوم الأربعاء أول يوم من صفر كان بدء القتال بين الفريقين، إذْ خرج يومئذ على أهل الكوفة الأشْتَرُ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا قتالا شديدا جُلّ النهار، ثم تراجعوا من آخر يومهم وقد انْتَصَف بعضهم من بعضٍ وتكافأوا في القتال.

ثم أصبحوا من الغد؛ يوم الخميس، وأمير حربِ أهل العراق هاشم بن عتبة في خيل ورجالٍ حسنٍ عددُها وعُدّتُها، وخرج إليه أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومَهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثم انصرفوا وقد تساوت الكِفتان.

وخرج في اليوم الثالث ـ يوم الجمعة ـ عمار بن ياسر من ناحية أهل العراق وخـرج إليه عمرو بن العاص في الشاميين، فاقتتل الناس كأشد القتال، وحمـل عمار على عمرو بن العاص، فأزاله عن موقفه، وبارز زيادُ بن النضر الحارثي ـ وكان على الخيالة مع عمار ـ رجلا ً، فلما تواقفا تعارفا؛ فإذا هما أخوان من أم، فانْصرف كل واحد منهما إلى قومه وترك صاحبه، وتراجع الناس من العشيّ، وقد صبر كل فريق للآخر.

وخرج في اليوم الرابع ـ وهو يوم السبت ـ خرج محمد بن الحنفية، ومعه جمع عظيم، فخرج إليه في كثير من جهة الشاميين عبيدُ الله بن عمر، فاقتتل الناس قتالا شديدا، وتحاجَزَ الناس يومهم ذلك وتراجعوا.

فلما كان اليوم الخامس ـ وهو يوم الأحد ـ خرج عبد الله بن عباس في العراقيين، وخرج إليه جيش الشاميين، ولم يُحسَم أمر الحرب أيضا.

وفي اليوم السادس ـ وهو يوم الاثنين ـ خرج على الناس من جهة العراقيين قيسُ بن سعد الأنصاري، وابنُ ذي الكلاع الحِمْيَريّ من جهة الشاميين؛ فاقتتلوا قتالا شديدا وتصابروا ثم انصرفوا.

ثم خـرج الأشْتَرُ النّخَعِيّ في اليـوم السابع ـ وهو يوم الثلاثاء ـ وعاد إليه قِرنه حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا قتالا شديدا أيضا، ثم انصرفوا عند الظهر، ولم يَغْلِبْ أحدٌ أحدا في هذه الأيام كلها، فرأى الطرفان أنه لابدّ من حملةٍ عامّةٍ لحسم الموقف.

==============

المواجهة الشاملة في صفين[126]

بدأ القتال في صفين منذ أول يوم من صفر، واستمر حتى اليوم السابع من الشهر، دون أن يغلب أحد أحدا، فرأى علي ؓ أن يقاتل بجميع الجيش ويحمل عليهم حملة عامة، فقام في الناس فخطب فيهم بذلك، فوثبوا إلى

---

[125] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 85) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 378)

[126] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 77) فما بعد والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 378) فما بعد

سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها، ولما كان من الليل خرج علي ّ فعبأ الناسَ ليلتَه كلها، حتى إذا أصبح زحف َ بالناس، وخرج إليه معاوية في أهل الشام، وسأل علي ّ عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقفَهم، فقال للأزْد: اكفُونا الأزْدَ، وقال لخثعم: اكفونا خثعمًا، وأمر كل قبيلة أن تكفيَه أختَها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد، فيَصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد.
وتناهض الناس ُ يومَ الأربعاء فاقتتلوا قتالا شديدا نهارَهم كله، ثم انْصرفوا عند المساء لا يغلب أحدٌ أحدًا، ولا يفر أحد من أحد، وأصبحوا من الغد، فصلّى بهم عليٌّ الفجرَ، وباكرَ القتالَ، ثم بدأ أهلُ الشام الخروجَ، فلما رأوه قد أقبل إليهم خرج إليه كبراؤهم، وعلى ميمنته عبد الله بن بديل، وعلى الميْسرة عبد الله بن عباس، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعليٌّ في القلبِ، ثم زحف إليهم بالناس، وأقبل معاوية وقد بايعه أهلُ الشام على الموت، فتواقف َ الناس ُ في موطن مَهُولٍ وأمرٍ عظيم، وحمل عبد الله بن بديل أميرُ الميمنة على حبيب بن مسلمة أمير ميسرة الشام، فاضطره إلى التراجع حتى ألجأه إلى القلب وفيه معاوية.
وأمر معاويةُ الشجعانَ أن يعاونوا ابن مسلمة على العودة، وبعث إليه يأمره بالحملة والكرّة على ابن بديل، فحمل حبيب بمن معه من الشجعان على ميمنة أهل العراق، فأزالوهم عن أماكنهم، وانكشفوا عن أميرهم، حتى لم يَبْقَ معه إلا زهاء ثلثمائة..
وأمر عليٌّ سهل بن حنيف، فقدم فيمن كان معه من أهل المدينة، فاستقبلتهم جموعٌ لأهل الشام عظيمةٌ، فاحتملتْهم حتى ألجأتهم الهزيمة إلى عليٍّ، فانصرف يتمشى نحو الميسرة، فانْكشفت عنه مُضَرُ من الميسرة، وثبتت ربيعة معه، فأمر الأشْتَرَ أن يَلحق بالمنهزمين فيردّهم، فسار فأسرع حتى استقبل المنهزمين من العراق، فجعل يؤنّبهم ويوبّخهم، ويحرض القبائل والشجعان منهم على الكرّة، فجعل طائفة تتابعه وآخرون يستمرون في هزيمتهم، فلم يزل ذلك دأبَه حتى اجتمع عليه خلقٌ عظيم من الناس، فجعل لا يَلقى قبيلة إلا كشفها، ولا طائفة إلا ردّها، حتى انتهى إلى أمير الميمنة، وهـو عبد الله بن بديل، ومعه نحو ثلثمائة قد ثبتوا في مكانهم، فسألوا عن أمير المؤمنين، فقالوا: حي ٌ صالح ٌ، فالتفوا حوله، فتقدم بهم حتى تراجع كثير من الناس، وذلك ما بين صلاة العصر إلى المغرب.
وتقدم ابنُ بديل إلى أهل الشام وحمل نحو معاوية، فلما انتهى إليه وجده واقفا أمام أصحابه وفي يده سيفان، وحوله كتائبُ أمثالُ الجبال، فلما اقترب ابن بديل تقدم إليه جماعةٌ منهم فقتلوه، وفر أصحابُه منهزمين؛ وأكثرهم جريح ..
ثم إن عليا لما رأى الميمنة قد اجتمعت نزل إلى الناس، فعاتب بعضهم وعذر بعضهم، وحرض الناس وثبتهم، ثم تراجع أهلُ العراق فاجْتمع شملُهم، ودارت رَحى الحرب بينهم، وجالوا في الشاميين وصالوا، وتبارز الشجعان

فقتل خلق كثير من الأعيان من الفريقين، مثل عبيد الله بن عمر وذي الكلاع من الشاميين، وعمار بن ياسر وهاشم بن عتبة من العراقيين، فخرج عليٌّ في اثني عشر ألفا، وتقدمهم على بغلته، فحمل وحملوا معه حملةَ رجلٍ واحدٍ ، فلم يَبْقَ لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل مَن انتهَوْا إليه، حتى بلغوا معاوية..

ثم قدّم عليٌّ ابنَه محمدًا في عصابة كثيرة من الناس، فقاتلوا قتالا شديدا، ثم تبِعه عليٌّ في عصابة أخرى، فحمل بهم، فقتل في هذا الموطن خلقٌ كثيرٌ من الفريقين لا يعلمُهم إلا الله، وطارتْ أكفٌّ ومعاصِمُ ورءوس عن كواهلها - رحِمَهم الله تعالى وغَفَرَ لهم.

وكان هذا الحال المؤلم أهم دافع إلى وقف القتال والبحث عن الصلح، حقنا لدماء المسلمين الكثيرة التي سالت في هذه المعركة المشئومة.

=================

مقتل عمار رضي الله عنه[127]

ذاق عمار رضي الله عنه طعم الإيمان مبكرا، حينما أسلم في أيام الإسلام الأ ولى في مكة، وتحمل أذى السادة من قريش.. وقد كانت أبرز سمات عمار أنه يعمل بالحق متحمسا له بقوة وبسالة، مستعدا بالتضحية من أجله بكل ما يملِك..

كان عمار في معركة صفين يقاتل في جيش عليٍّ، وهو على يقين من أنه على الحق، فكان يقول والحربة في يده: "والذي نفسي بيده، لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات وهذه الرابعة، و الذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات (ورق الأغصان) هَجَر لعرفتُ أن مصلحينا على الحق، وأنهم على الضلالة".

وسئل عمار عن قتاله مع عليٍّ: رأيًا رأيتُموه؟ فإن الرأي يصيب ويخطئ، أو عهدا عهده إليكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا لم يعهدْه إلى الناس كافة".

وأُتي عمار في المعركة بشربة لبن فضحك، وقال: "إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لي: آخر شرابٍ أشربه لبنٌ حين أموت"، وقال لي: "تقتلك الفئةُ الباغيةُ". وحمل عليهم وقاتلهم قتالا شديدا، وجاء إلى هاشم بن عتبة، وهو صاحب راية عليٍّ، فقال: يا هاشم تقدمْ، الجنةُ تحت ظلال السيوف، و الموت في أطراف الأسِنّة، وقد فتحت أبواب الجنة، وتزيّنت الحورُ العِينُ:

اليومَ ألقى الأحبه   محمـدا وحِزْبَـه

ثم حملا هو وهاشم فقتلا - رحمهما الله تعالى - وذاع خبرُ مقتل عمار في أهل الشام، وكان له وقعٌ وأثرٌ مثبّط لجُنْدِ معاوية، استطاع أن يتغلب عليه بحنكته السياسية.

==============

[127] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 387)

وقف الحرب في صفين[128]

امتـد القتال العنيف والشامل في صفين إلى ضحى الجمعة، فلمـا رأى عمرو بن العاص رضي الله عنه أن ّ أمر أهل العراق قد اشتد ّ، خاف على القوم الهلاك؛ فإن ّ كلا الفريقين صابر للآخر، والناس يتفانوْن، فقال لمعاوية: ندعوهم لكتاب الله أن يكون حَكمًا بيننا وبينهم. فأمر معاوية برفع المصاحف على أسِنّة الرماح، ونادى المنادي: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، مَنْ لِثغور أهل الشام بعد أهل الشام! مَنْ لِثغور أهل العراق بعد أهل العراق!! فلما رأى الناس المصاحف قد رُفعت قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب (أي نرجع) إليه.

وكان ممن دعا إلى ذلك ساداتٌ من الشاميين، فقام عبد الله بن عمرو بن العاص في أهل العراق، فدعاهم إلى الموادعة والكفِّ وترك القتال والائتمار بما في القرآن، وذلك عن أمر معاوية له.

وأرسل رجل إلى عليٍّ بذلك، فقال عليٌّ: "نعم، أنا أوْلى بذلك، بيننا وبينكم كتابُ الله". فجاءه السبئيّة يعترضون على الصلح ويريدون القتال؛ ولكنه أرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية ليتحرّى الأمرَ، فأتاه فقال: يا معاوية، لأ يّ شيءٍ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله ـ عز وجل ـ به في كتابه، تبعثون منكم رجلا ترضونه، ونبعث منا رجلا، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يَعْدُوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقال له الأشعث بن قيس: هذا الحق، فانصرفَ إلى عليّ، فأخبره بالذي قال معاوية؛ فقال الناس: فإنّا قد رضينا وقبِلنا، فقال أهل الشام: فإنا قد اخترنا عمرو بن العاص. واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري..

فتفرق أهل صِفّين حين حُكِّمَ الحَكمَان، وكُتب في ذلك كتاب، واشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن، ويخفضا ما خفضَ القرآنُ، وأن يختارا لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم، وأنهما يجتمعان بدُومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذْرُح، وكان ذلك لثلاث عشرة ليلةً خلَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة.

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب، يقرؤه ويعرضه على الطائفتين، ثم شرع الناس في دفْن قتلاهم وإطلاق الأسرى.

================

أحاديث حول صفين

عَنْ زِيَادِ بْنِ الحَارِثِ ، قَالَ : كُنْت إِلَى جَنْبِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ بِصِفِّينَ , وَرُكْبَتِي تَمَسُّ رُكْبَتَهُ ، فَقَالَ : رَجُلٌ : كَفَرَ أَهْلُ الشَّامِ ، فَقَالَ : عَمَّارٌ : لاَ تَقُولُوا ذَلِكَ نَبِيُّنَا وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ , وَقِبْلَتُنَا وَقِبْلَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَفْتُونُونَ جَارُوا ، عَنِ الحَقِّ , فَحَقَّ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيْهِ .

---

[128] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 100-105) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 397)

عَنْ عَمّارٍ ، قَالَ : لَا تَقُولُوا : كَفَرَ أَهْلُ الشّامِ وَلَكِنْ قُولُوا : فَسَقُوا ظَلَمُوا .
عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، قَالَ : رَأَى فِي الْمَنَامِ أَبُو مَيْسَرَةَ عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ , وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : رَأَيْت كَأَنِّي أُدْخِلْت الْجَنّةَ , فَرَأَيْت قِبَابًا مَضْرُوبَةً , فَقُلْت : لِمَنْ هَذِهِ فَقِيلَ : هَذِهِ لِذِي الْكَلاَعِ وَحَوْشَبٍ , وَكَانَا مِمّنْ قُتِلَ مَعَ مُعَاوِيَةَ يَوْمَ صِفّينَ ، قَالَ : قُلْت : فَأَيْنَ عَمّارٌ وَأَصْحَابُهُ، قَالُوا : أَمَامَك قُلْت : وَكَيْفَ وَقَدْ قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ : قِيلَ : إنّهُمْ لَقُوا اللّهَ فَوَجَدُوهُ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ ، قَالَ : فَقُلْت : فَمَا فَعَلَ أَهْلُ النّهْرِ، قَالَ : فَقِيلَ : لَقُوا بَرَحًا .
عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْ ، عَنْزِيّ ، قَالَ : إنِّي لَجَالِسٌ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إذْ أَتَاهُ رَجُلاَنِ يَخْتَصِمَانِ فِي رَأْسِ عَمّارٍ , كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقُولُ : أَنَا قَتَلْتُهُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو : لِيَطِبْ بِهِ أَحَدُكُمَا نَفْسًا لِصَاحِبِهِ , فَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ يَقُولُ : تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ، فَقَالَ : مُعَاوِيَةُ : أَلاَ تُغْنِي ، عَنّا مَجْنُونَك يَا عَمْرُو , فَمَا بَالُك مَعَنَا، قَالَ : إنِّي مَعَكُمْ وَلَسْت أُقَاتِلُ , إنّ أَبِي شَكَانِي إلَى رَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَطِعْ أَبَاك مَا دَامَ حَيًّا وَلاَ تَعْصِهِ , فَأَنَا مَعَكُمْ , وَلَسْت أُقَاتِلُ .
عَنْ عَلِيٍّ ، قَالَ : لَمّا قَاتَلَ مُعَاوِيَةَ سَبَقَهُ إلَى الْمَاءِ ، فَقَالَ : دَعُوهُمْ , فَإِنّ الْمَاءَ لاَ يُمْنَعُ .
عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ ، قَالَ : حَدّثَنِي مَنْ سَمِعَ عَلِيًّا يَوْمَ صِفّينَ وَهُوَ عَاضٌّ عَلَى شَفَتِهِ : لَوْ عَلِمْت ، أَنّ الأَمْرَ يَكُونُ هَكَذَا مَا خَرَجْت , اذْهَبْ يَا أَبَا مُوسَى فَاحْكُمْ وَلَوْ خَرّ ، عُنُقِي .
، عَنْ أَبِي مُعَالِجٍ ، أَنّ عَلِيًّا ، قَالَ : لأَبِي مُوسَى : اُحْكُمْ وَلَوْ يَخِرُّ ، عُنُقِي .
عَنِ الْحَارِثِ ، قَالَ : لَمّا رَجَعَ عَلِيٌّ مِنْ صِفّينَ عَلِمَ ، أَنّهُ لاَ يَمْلِكُ أَبَدًا , فَتَكَلّمَ بِأَشْيَاءَ كَانَ لاَ يَتَكَلّمُ بِهَا , وَحَدّثَ بِأَحَادِيثَ كَانَ لاَ يَتَحَدّثُ بِهَا ، فَقَالَ فِيمَا يَقُولُ : أَيُّهَا النّاسُ , لاَ تَكْرَهُوا إمَارَةَ مُعَاوِيَةَ , وَاللّهِ لَوْ قَدْ فَقَدْتُمُوهُ لَقَدْ رَأَيْتُمَ الرُّءُوسَ تَنْدُرُ مِنْ كَوَاهِلِهَا كَالْحَنْظَلِ .
، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ، قَالَ : كَانَ عَلِيٌّ إذَا أُتِيَ بِأَسِيرِ صِفّينَ أَخَذَ دَابّتَهُ وَسِلاَحَهُ , وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ , وَخَلَّى سَبِيلَهُ .
عن يَزِيد بْنِ بِلاَلٍ ، قَالَ : شَهِدْت مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفّينَ , فَكَانَ إذَا أُتِيَ بِالأَسِيرِ ، قَالَ : لَنْ أَقْتُلَك صَبْرًا , إنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبّ الْعَالَمِينَ , وَكَانَ يَأْخُذُ سِلاَحَهُ وَيُحَلِّفُهُ : لاَ يُقَاتِلُهُ , وَيُعْطِيهِ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ .
عَنْ شَقِيقٍ ، قَالَ : قِيلَ لَهُ : أَشَهِدْت صِفّينَ ، قَالَ : نَعَمْ , وَبِئْسَتِ الصُّفُونُ كَانَتْ .أخرج ذلك كله ابن أبي شيبة في مصنفه

==================

من هي الفئة الباغية ؟

اختلف العلماء في تحديد الفئة الباغية إلى مذاهب عديدة :
المذهب الأول- أنهم أهل الشام ، وذلك لأنهم بغوا على الإمام الشرعي علي رضي الله عنه فلم يبايعوه ، ولأنهم قتلوا عمارا رضي الله عنه الذي قال الرسول صلى الله عليه وسلم تقتله الفئة الباغية

ونوقش هذا القول من وجهين الأول- أنهم لم يبايعوا عليا رضي الله عنه ، و لا نقضوا بيعته ، فلا ينطبق عليهم لفظ الباغي
والثاني- أن الفئة الباغية هم قتلة عثمان رضي الله عنه ، وليسوا هم
الرأي الثاني – أنهم قتلة عثمان رضي الله عنه ، فقد بغوا على الإمام الشرعي بغير حق ، وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم المنافقون ، وهم الذين سببوا حربي الجمل وصفين ، وكانوا وراء الفتنة التي حدثت في عهد الصحابة رضي الله عنهم
وهذا الرأي هو الصواب ، الذي لا يجوز العدول عنه بحال ، وهو يبرئ جميع الصحابة من التأثيم ،
وكلا الفريقين كانا على الحق ، ويبغي الحق ، وليس السلطة أو الزعامة كما يظن المغفلون والأغيار من الناس !!!
عَنِ الزُّهْرِىِّ قَالَ أَخْبَرَنِى أَبُو سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ » أخرجه البخاري
و عَنْ أَبِى نَضْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ تَمْرُقُ بَيْنَهُمَا مَارِقَةٌ يَقْتُلُهَا أَوْلاَهُمَا بِالْحَقِّ ».أخرجه أحمد وسنده حسن
. المارقة : الطائفة والمراد الخوارج الذين مرقوا من الدين
ولكن عليا ومن معه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية ومن معه كما ورد با لأحاديث الصحيحة
فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- ذَكَرَ قَوْمًا يَكُونُونَ فِى أُمَّتِهِ يَخْرُجُونَ فِى فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ سِيمَاهُمُ التَّحَالُقُ قَالَ « هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ - أَوْ مِنْ أَشَرِّ الْخَلْقِ - يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ ». قَالَ فَضَرَبَ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- لَهُمْ مَثَلاً أَوْ قَالَ قَوْلاً « الرَّجُلُ يَرْمِى الرَّمِيَّةَ - أَوْ قَالَ الْغَرَضَ - فَيَنْظُرُ فِى النَّصْلِ فَلاَ يَرَى بَصِيرَةً وَيَنْظُرُ فِى النَّضِىِّ فَلاَ يَرَى بَصِيرَةً وَيَنْظُرُ فِى الْفُوقِ فَلاَ يَرَى بَصِيرَةً ». قَالَ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ.أخرجه البخاري
قال العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله في تعليقه على العواصم :
أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن عليًا ومعاوية ، ومن معها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا جميعًا من أهل الحق ، وكانوا مخلصين في ذلك . والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد ، كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه . وهم - لإخلاصهم في اجتهادهم - مثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ ، وليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر معصوم عن أن يخطئ وقد يخطئ بعضهم في أمور ويصيب في أخرى ، وكذلك الآخرون .
أما من مرق عن الحق في إثارة الفتنة الأولى على عثمان فلا يعد من إحدى

الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ، لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان - كائنًا من كانوا - استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع . وفي حالة عدم استطاعته فإن مواصلتهم تسعير القتال بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي - كما فعلوا في وقعة الجمل وبعدها - يعد إصرارًا منهم على الاستمرار في الإجرام ما داموا على ذلك ، فإذا قلنا إن الطائفتين كانتا من أهل الحق فإنما نريد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته صلى الله عليه وسلم من التابعين ، ونرى أن عليًا المبشر بالجنة أعلى مقامًا عند الله من معاوية خال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين ، وكلاهما من أهل الخير . وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره . نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (7 : 277) عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني قاضي إفريقية المتوفى سنة 56 كان رجلًا صالحًا من الآمرين بالمعروف - وذكر أهل صفين - فقال : ((كانوا عربًا يعرف بعضهم بعضًا في الجاهلية ، فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام ، فتصابروا ، واستحيوا من الفرار ، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء وهؤلاء في عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم)) ، قال الشعبي : ((هم أهل الجنة ، لقي بعضهم بعضًا ، فلم يفر أحد من أحد)) .

وقال تعقيبا على حديث ويح عمار تقتله الفئة الباغية :

قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لما كانوا يبنون المسجد ، فكان الناس ينقلون لبنة لبنة وعمار ينقل لبنتين لبنتين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فيه هذه الكلمة على ما رواه أبو سعيد الخدري لعكرمة مولى ابن عباس ولعلي بن عبد الله بن عباس . والخبر في كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري (ك 56 ب 17 - ج 3 ص 207) . وقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغي في حرب صفين ، لأنه لم يردها ، ولم يبتدئها ، ولم يأت لها إلا بعد أن خرج علي من الكوفة وضرب معسكره في النخيلة ليسير إلى الشام كما تقدم في ص 162 - 163 ، ولذلك لما قتل عمار قال معاوية ((إنما قتله من أخرجه)) وفي اعتقادي الشخصي أن كل من قتل من المسلمين بأيدي المسلمين منذ قتل عثمان فإنما إثمه على قتلة عثمان لأنهم فتحوا باب الفتنة . ولأنهم واصلوا تسعير نارها ، لأنهم الذين أوغروا صدور المسلمين بعضهم على بعض ، فكما كانوا قتلة عثمان فإنهم كانوا القاتلين لكل من قتل بعده ، ومنهم عمار ومن هم أفضل من عمار كطلحة والزبير ، إلى أن انتهت فتنتهم ، بقتلهم عليًا نفسه وقد كانوا من جنده وفي الطائفة التي كان قائمًا عليها . فالحديث من أعلام النبوة , والطائفتان المتقاتلتان في صفين كانتا من المؤمنين . وعلي أفضل من معاوية . وعلي ومعاوية من

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن دعائم دولة الإسلام ، وكل ما وقع من الفتن فإثمه على مؤرثي نارها لأنهم السبب الأول فيها ، فهم الفئة الباغية التي قتل بسببها كل مقتول في وقعتي الجمل وصفين وما تفرع عنهما .

=============

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما شجر بين الصحابة

وَسُئِلَ : - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَمّا شَجَرَ بَيْنَ الصّحَابَةِ : - عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلْحَةَ وَعَائِشَةَ - هَلْ يُطَالَبُونَ بِهِ أَمْ لَا ؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ : قَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الصّحِيحَةِ أَنّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَائِشَةَ مِنْ أَهْلِ الْجَنّةِ . بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ " { أَنّهُ لَا يَدْخُلُ النّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشّجَرَةِ } . وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَعَمْرُو بْنُ العاص وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ هُمْ مِنْ الصّحَابَةِ وَلَهُمْ فَضَائِلُ وَمَحَاسِنُ . وَمَا يُحْكَى عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُ كَذِبٌ ؛ وَالصِّدْقُ مِنْهُ إنْ كَانُوا فِيهِ مُجْتَهِدِينَ : فَالْمُجْتَهِدُ إذَا أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَخَطَؤُهُ يُغْفَرُ لَهُ . وَإِنْ قُدِّرَ أَنّ لَهُمْ ذُنُوبًا فَالذّنُوبُ لَا تُوجِبُ دُخُولَ النّارِ مُطْلَقًا إلّا إذَا انْتَفَتْ الْأَسْبَابُ الْمَانِعَةُ مِنْ ذَلِكَ وَهِيَ عَشَرَةٌ . مِنْهَا : - التّوْبَةُ وَمِنْهَا الِاسْتِغْفَارُ وَمِنْهَا الْحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ وَمِنْهَا الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ وَمِنْهَا شَفَاعَةُ النّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمِنْهَا شَفَاعَةُ غَيْرِهِ وَمِنْهَا دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْهَا مَا يُهْدَى لِلْمَيِّتِ مِنْ الثّوَابِ وَالصّدَقَةِ وَالْعِتْقِ وَمِنْهَا فِتْنَةُ الْقَبْرِ وَمِنْهَا أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحَيْنِ عَنْ النّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ : " { خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الّذِي بُعِثْت فِيهِ ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ } . وَحِينَئِذٍ فَمَنْ جَزَمَ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاء بِأَنّ لَهُ ذَنْبًا يَدْخُلُ بِهِ النّارَ قَطْعًا فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ . فَإِنّهُ لَوْ قَالَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ لَكَانَ مُبْطِلًا فَكَيْفَ إذَا قَالَ مَا دَلّتْ الدّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ عَلَى نَقِيضِهِ ؟ فَمَنْ تَكَلّمَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ - وَقَدْ نَهَى اللهُ عَنْهُ : مِنْ ذَمِّهِمْ أَوْ التّعَصُّبِ لِبَعْضِهِمْ بِالْبَاطِلِ - فَهُوَ ظَالِمٌ مُعْتَدٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ عَنْ النّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ : " { تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فِرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطّائِفَتَيْنِ بِالْحَقّ } وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصّحِيحِ أَنّهُ قَالَ عَنْ الْحَسَنِ : " { إنّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ } . وَفِي الصّحِيحَيْنِ عَنْ عَمّارٍ أَنّهُ قَالَ : " { تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } . فَثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنّةِ وَإِجْمَاعِ السّلَفِ عَلَى أَنّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ وَأَنّ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالّذِينَ مَعَهُ كَانُوا أَوْلَى بِالْحَقّ مِنْ الطّائِفَةِ الْمُقَاتِلَةِ لَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تيمية : فَائِدَةٌ وَمِمّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنّهُ وَإِنْ كَانَ الْمُخْتَارُ الْإِمْسَاكَ عَمّا شَجَرَ بَيْنَ الصّحَابَةِ وَالِاسْتِغْفَارَ لِلطّائِفَتَيْنِ جَمِيعًا وَمُوَالَاتَهُمْ ؛

فَلَيْسَ مِنْ الْوَاجِبِ اعْتِقَادُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْعَسْكَرِ لَمْ يَكُنْ إلَّا مُجْتَهِدًا مُتَأَوِّلًا كَالْعُلَمَاءِ بَلْ فِيهِمْ الْمُذْنِبُ وَالْمُسِيءُ وَفِيهِمْ الْمُقَصِّرُ فِي الِاجْتِهَادِ لِنَوْعِ مِنْ الْهَوَى لَكِنْ إذَا كَانَتْ السَّيِّئَةُ فِي حَسَنَاتٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ مَرْجُوحَةً مَغْفُورَةً . " وَأَهْلُ السُّنَّةِ " تُحْسِنُ الْقَوْلَ فِيهِمْ وَتَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ لَكِنْ لَا يَعْتَقِدُونَ الْعِصْمَةَ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ وَعَلَى الْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ إلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ سِوَاهُ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِقْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ وَالْخَطَأِ لَكِنْ هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ } الْآيَةَ . وَفَضَائِلُ الْأَعْمَالِ إنَّمَا هِيَ بِنَتَائِجِهَا وَعَوَاقِبِهَا لَا بِصُوَرِهَا .

(فَصْلٌ فِي أَعْدَاءِ " الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ " (الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ ابْتُلُوا بِمُعَادَاةِ بَعْضِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَلَعْنِهِمْ وَبُغْضِهِمْ وَتَكْفِيرِهِمْ فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَبْغَضَتْهُمَا الرَّافِضَةُ وَلَعَنَتْهُمَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ الطَّوَائِفِ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَد : مَنْ الرافضي ؟ قَالَ : الَّذِي يَسُبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ . وَبِهَذَا سُمِّيَتْ الرَّافِضَةُ ؛ فَإِنَّهُمْ رَفَضُوا زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ لَمَّا تَوَلَّى الْخَلِيفَتَيْنِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لِبُغْضِهِمْ لَهُمَا فَالْمُبْغِضُ لَهُمَا هُوَ الرافضي وَقِيلَ : إنَّمَا سُمُّوا رَافِضَةً لِرَفْضِهِمْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ . " وَأَصْلُ الرَّفْضِ " مِنْ الْمُنَافِقِينَ الزَّنَادِقَةِ فَإِنَّهُ ابْتَدَعَهُ ابْنُ سَبَأٍ الزِّنْدِيقُ وَأَظْهَرَ الْغُلُوَّ فِي عَلِيٍّ بِدَعْوَى الْإِمَامَةِ وَالنَّصِّ عَلَيْهِ وَادَّعَى الْعِصْمَةَ لَهُ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنْ النِّفَاقِ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إيمَانٌ وَبُغْضُهُمَا نِفَاقٌ وَحُبُّ بَنِي هَاشِمٍ إيمَانٌ وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَمَعْرِفَةُ فَضْلِهِمَا مِنْ السُّنَّةِ أَيْ مِنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي أُمِرَ بِهَا فَإِنَّهُ قَالَ : " { اقْتَدُوا بِاَللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ } وَلِهَذَا كَانَ مَعْرِفَةُ فَضْلِهِمَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمَا وَاجِبًا لَا يَجُوزُ التَّوَقُّفُ فِيهِ بِخِلَافِ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَفِي جَوَازِ التَّوَقُّفِ فِيهِمَا قَوْلَانِ : وَكَذَلِكَ هَلْ يَسُوغُ الِاجْتِهَادُ فِي تَفْضِيلِ عَلِيٍّ عَلَى عُثْمَانَ ؟ فِيهِ رِوَايَتَانِ : (إحْدَاهُمَا : لَا يَسُوغُ ذَلِكَ فَمَنْ فَضَّلَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ خَرَجَ مِنْ السُّنَّةِ إلَى الْبِدْعَةِ لِمُخَالَفَتِهِ لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَلِهَذَا قِيلَ : مَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ : مِنْهُمْ أَيُّوبُ السختياني وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ والدارقطني . (وَالثَّانِيَةُ : لَا يُبَدَّعُ مَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا لِتَقَارُبِ حَالِ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ إذْ السُّنَّةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ وَهِيَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الدِّينِ وَهُوَ مَا أُمِرَ بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ فَلَا يَجُوزُ اعْتِقَادُ ضِدِّ ذَلِكَ لَكِنْ يَجُوزُ تَرْكُ الْمُسْتَحَبِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجُوزَ اعْتِقَادُ تَرْكِ اسْتِحْبَابِهِ ؛ وَمَعْرِفَةُ اسْتِحْبَابِهِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ الدِّينِ . فَلَمَّا قَامَتْ " الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ " عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَتَقْدِيمِهِمَا لَمْ يَجُزْ تَرْكُ ذَلِكَ . وَأَمَّا (عُثْمَانُ فَأَبْغَضَهُ أَوْ سَبَّهُ أَوْ كَفَّرَهُ أَيْضًا - مَعَ الرَّافِضَةِ - طَائِفَةٌ مِنْ الشِّيعَةِ الزَّيْدِيَّةِ وَالْخَوَارِجِ . وَأَمَّا (عَلِيٌّ فَأَبْغَضَهُ وَسَبَّهُ أَوْ كَفَّرَهُ الْخَوَارِجُ وَكَثِيرٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَشِيعَتِهِمْ الَّذِينَ قَاتَلُوهُ وَسَبُّوهُ . فَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَسَائِرَ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ . وَأَمَّا " شِيعَةُ عَلِيٍّ " الَّذِينَ

شَايَعُوهُ بَعْدَ التَّحْكِيمِ و " شِيعَةُ مُعَاوِيَةَ " الَّتِي شَايَعَتْهُ بَعْدَ التَّحْكِيمِ فَكَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ التَّقَابُلِ وَتَلَا عَنْ بَعْضِهِمْ وتكافر بَعْضُهُمْ مَا كَانَ وَلَمْ تَكُنْ الشِّيعَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ عَلِيٍّ يَظْهَرُ مِنْهَا تَنَقُّصٌ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَا فِيهَا مَنْ يُقَدِّمُ عَلِيًّا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَا كَانَ سَبُّ عُثْمَانَ شَائِعًا فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ بَعْضُهُمْ فَيَرُدُّ عَلَيْهِ آخَرُ . وَكَذَلِكَ تَفْضِيلُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا فِيهَا بِخِلَافِ سَبِّ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ كَانَ شَائِعًا فِي أَتْبَاعِ مُعَاوِيَةَ ؛ وَلِهَذَا كَانَ عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ وَأَقْرَبَ إلَى الْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " { تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَتَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ } . وَرُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : " { أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إلَى الْحَقِّ } . وَكَانَ سَبُّ عَلِيٍّ وَلَعْنُهُ مِنْ الْبَغْيِ الَّذِي اسْتَحَقَّتْ بِهِ الطَّائِفَةُ أَنْ يُقَالَ لَهَا : الطَّائِفَةُ الْبَاغِيَةُ ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ { عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَلِابْنِهِ عَلِيٍّ : انْطَلِقَا إلَى أَبِي سَعِيدٍ وَاسْمَعَا مِنْ حَدِيثِهِ فَانْطَلَقْنَا فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطٍ يُصْلِحُهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَاحْتَبَى بِهِ ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى إذَا أَتَى عَلِيٌّ ذِكْرَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ فَقَالَ : كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ فَرَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ : وَيْحَ عَمَّارُ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ يَدْعُوهُمْ إلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إلَى النَّارِ قَالَ : يَقُولُ عَمَّارٌ : أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ الْفِتَنِ } . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَيْضًا قَالَ : أَخْبَرَنِي مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي أَبُو قتادة { أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَمَّارِ - حِينَ جَعَلَ يَحْفِرُ الْخَنْدَقَ - جَعَلَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ : بُؤْسَ ابْنِ سُمَيَّةَ تَقْتُلُهُ فِئَةٌ بَاغِيَةٌ } . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { تَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ } . وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إمَامَةِ عَلِيٍّ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَأَنَّ الدَّاعِيَ إلَى طَاعَتِهِ دَاعٍ إلَى الْجَنَّةِ وَالدَّاعِي إلَى مُقَاتَلَتِهِ دَاعٍ إلَى النَّارِ - وَإِنْ كَانَ مُتَأَوِّلًا - وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجُوزُ قِتَالُ عَلِيٍّ وَعَلَى هَذَا فَمُقَاتِلُهُ مُخْطِئٌ وَإِنْ كَانَ مُتَأَوِّلًا أَوْ بَاغٍ بِلَا تَأْوِيلٍ وَهُوَ أَصَحُّ (الْقَوْلَيْنِ لِأَصْحَابِنَا وَهُوَ الْحُكْمُ بِتَخْطِئَةِ مَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ فَرَّعُوا عَلَى ذَلِكَ قِتَالَ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ . وَكَذَلِكَ أَنْكَرَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ عَلَى الشَّافِعِيِّ اسْتِدْلَالَهُ بِسِيرَةِ عَلِيٍّ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ قَالَ : أَيُجْعَلُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ بُغَاةً ؟ رَدَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَد فَقَالَ وَيْحَك وَأَيُّ شَيْءٍ يَسَعُهُ أَنْ يَضَعَ فِي هَذَا الْمَقَامِ : يَعْنِي إنْ لَمْ يَقْتَدِ بِسِيرَةِ عَلِيٍّ فِي ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ سُنَّةٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُصِيبٌ وَهَذَا بِنَاءً عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ . وَهُوَ قَوْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ . وَفِيهَا قَوْلٌ ثَالِثٌ : أَنَّ الْمُصِيبَ وَاحِدٌ لَا بِعَيْنِهِ ذَكَرَ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ ابْنُ حَامِدٍ وَالْقَاضِي وَغَيْرُهُمَا . وَهَذَا الْقَوْلُ يُشْبِهُ قَوْلَ الْمُتَوَقِّفِينَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ : كالكرامية الَّذِينَ يَقُولُونَ : كِلَاهُمَا كَانَ إمَامًا وَيُجَوِّزُونَ عَقْدَ الْخِلَافَةِ لِاثْنَيْنِ . لَكِنَّ الْمَنْصُوصَ عَنْ أَحْمَد تَبْدِيعُ مَنْ تَوَقَّفَ فِي خِلَافَةِ

عَلِيٍّ وَقَالَ : هُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ وَأَمَرَ بِهِجْرَانِهِ وَنَهَى عَنْ مُنَاكَحَتِهِ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ أَحْمَد وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ فِي أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُ عَلِيٍّ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُ وَلَا شَكُّوا فِي ذَلِكَ . فَتَصْوِيبُ أَحَدِهِمَا لَا بِعَيْنِهِ تَجْوِيزٌ لِأَنْ يَكُونَ غَيْرُ عَلِيٍّ أَوْلَى مِنْهُ بِالْحَقِّ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ إلَّا مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ فِيهِ نَوْعٌ مِنْ النَّصْبِ وَإِنْ كَانَ مُتَأَوِّلًا ؛ لَكِنْ قَدْ يَسْكُتُ بَعْضُهُمْ عَنْ تَخْطِئَةِ أَحَدٍ كَمَا يُمْسِكُونَ عَنْ ذَمِّهِ وَالطَّعْنِ عَلَيْهِ إمْسَاكًا عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ وَهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَ مَنْ يُصَوِّبُ الطَّائِفَتَيْنِ . وَلَمْ يَسْتَرِبْ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَعُلَمَاءُ الْحَدِيثِ : أَنَّ عَلِيًّا أَوْلَى بِالْحَقِّ وَأَقْرَبُ إلَيْهِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ ؛ وَإِنْ اسْتَرَابُوا فِي وَصْفِ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى بِظُلْمِ أَوْ بَغْيٍ ؛ وَمَنْ وَصَفَهَا بِالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ - لِمَا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارٍ - جَعَلَ الْمُجْتَهِدَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ . يَبْقَى أَنْ يُقَالَ : فَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِقِتَالِ الطَّائِفَةِ الْبَاغِيَةِ فَيَكُونُ قِتَالُهَا كَانَ وَاجِبًا مَعَ عَلِيٍّ وَاَلَّذِينَ قَعَدُوا عَنْ الْقِتَالِ هُمْ جُمْلَةُ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ : كَسَعْدِ وَزَيْدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ مسلمة وَأَبِي بَكْرَةَ وَهُمْ يَرْوُونَ النُّصُوصَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُعُودِ عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي وَالسَّاعِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمُوضِعِ } وَقَوْلُهُ : { يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ } وَأَمْرِهِ لِصَاحِبِ السَّيْفِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ " { أَنْ يَتَّخِذَ سَيْفًا مِنْ خَشَبٍ } وَبِحَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ لِيُقَاتِلَ مَعَ عَلِيٍّ وَهُوَ قَوْلُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { إذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ } الْحَدِيثَ . وَالِاحْتِجَاجُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : " { لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ } وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَعَامَّةِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ حَتَّى قَالَ : لَا يَخْتَلِفُ أَصْحَابُنَا أَنَّ قُعُودَ عَلِيٍّ عَنْ الْقِتَالِ كَانَ أَفْضَلَ لَهُ لَوْ قَعَدَ وَهَذَا ظَاهِرٌ مِنْ حَالِهِ فِي تَلَوُّمِهِ فِي الْقِتَالِ وَتَبَرُّمِهِ بِهِ وَمُرَاجَعَةِ الْحَسَنِ ابْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَقَوْلُهُ لَهُ : أَلَمْ أَنْهَك يَا أَبَتِ ؟ وَقَوْلُهُ : لِلَّهِ دَرُّ مَقَامٍ قَامَهُ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إنْ كَانَ بَرًّا إنَّ أَجْرَهُ لَعَظِيمٌ وَإِنْ كَانَ إثْمًا إنَّ خَطَأَهُ لَيَسِيرٌ . وَهَذَا يُعَارِضُ وُجُوبَ طَاعَتِهِ وَبِهَذَا احْتَجُّوا عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَد فِي تَرْكِ التَّرْبِيعِ بِخِلَافَتِهِ فَإِنَّهُ لَمَّا أَظْهَرَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إذَا قُلْت كَانَ إمَامًا وَاجِبَ الطَّاعَةِ فَفِي ذَلِكَ طَعْنٌ عَلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ حَيْثُ لَمْ يُطِيعَاهُ بَلْ قَاتَلَاهُ فَقَالَ لَهُمْ : أَحْمَد : إنِّي لَسْت مِنْ حَرْبِهِمْ فِي شَيْءٍ : يَعْنِي أَنَّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ عَلِيٌّ وَإِخْوَانُهُ لَا أَدْخُلُ بَيْنَهُمْ فِيهِ ؛ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنْ الِاجْتِهَادِ وَالتَّأْوِيلِ الَّذِي هُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ الَّتِي تَعْنِينِي حَتَّى أَعْرِفَ حَقِيقَةَ حَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَأَنَا مَأْمُورٌ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَأَنْ يَكُونَ قَلْبِي لَهُمْ سَلِيمًا وَمَأْمُورٌ بِمَحَبَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ وَلَهُمْ مِنْ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا لَا يُهْدَرُ ؛ وَلَكِنْ اعْتِقَادَ خِلَافَتِهِ وَإِمَامَتِهِ ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَمَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ تَرَكَهُ كَمَا أَنَّ إمَامَةَ " عُثْمَانَ " وَخِلَافَتَهُ ثَابِتَةٌ إلَى حِينِ انْقِرَاضِ أَيَّامِهِ وَإِنْ كَانَ فِي تَخَلُّفِ بَعْضِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ أَوْ نُصْرَتِهِ ؛ وَفِي مُخَالَفَةِ بَعْضِهِمْ لَهُ : مِنْ التَّأْوِيلِ مَا فِيهِ إذْ كَانَ

أَهْوَنَ مَا جَرَى فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ . وَهَذَا الْمَوْضِعُ هُوَ الَّذِي تَنَازَعَ فِيهِ اجْتِهَادُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فَمِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : بِوُجُوبِ الْقِتَالِ مَعَ عَلِيٍّ كَمَا فَعَلَهُ مَنْ قَاتَلَ مَعَهُ وَكَمَا يَقُولُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ الَّذِينَ صَنَّفُوا فِي قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ حَيْثُ أَوْجَبُوا الْقِتَالَ مَعَهُ ؛ لِوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَوُجُوبِ قِتَالِ الْبُغَاةِ وَمَبْدَأُ تَرْتِيبِ ذَلِكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْكُوفَةِ وَاتَّبَعَهُمْ آخَرُونَ . وَمِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : بَلْ الْمَشْرُوعُ تَرْكُ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ كَمَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ الْمَشْهُورَةُ كَمَا فَعَلَهُ مَنْ فَعَلَهُ مِنْ الْقَاعِدِينَ عَنْ الْقِتَالِ لِإِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { أَنَّ تَرْكَ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ خَيْرٌ } وَ " { أَنَّ الْفِرَارَ مِنْ الْفِتَنِ بِاتِّخَاذِ غَنَمٍ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ خَيْرٌ مِنْ الْقِتَالِ فِيهَا } وَكَنَهْيِهِ لِمَنْ نَهَاهُ عَنْ الْقِتَالِ فِيهَا وَأَمْرِهِ بِاتِّخَاذِ سَيْفٍ مِنْ خَشَبٍ وَلِكَوْنِ عَلِيٍّ لَمْ يَذُمَّ الْقَاعِدِينَ عَنْ الْقِتَالِ مَعَهُ بَلْ رُبَّمَا غَبَطَهُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ . وَلِأَجْلِ هَذِهِ النُّصُوصِ لَا يَخْتَلِفُ أَصْحَابُنَا أَنَّ تَرْكَ عَلِيٍّ الْقِتَالَ كَانَ أَفْضَلَ ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ صَرَّحَتْ بِأَنَّ الْقَاعِدَ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْبُعْدَ عَنْهَا خَيْرٌ مِنْ الْوُقُوعِ فِيهَا قَالُوا : وَرُجْحَانُ الْعَمَلِ يَظْهَرُ بِرُجْحَانِ عَاقِبَتِهِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ إذَا لَمْ يَبْدَءُوهُ بِقِتَالِ فَلَوْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ لَمْ يَقَعْ أَكْثَرُ مِمَّا وَقَعَ مِنْ خُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ لَكِنْ بِالْقِتَالِ زَادَ الْبَلَاءُ وَسُفِكَتْ الدِّمَاءُ وَتَنَافَرَتْ الْقُلُوبُ وَخَرَجَتْ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ وَحُكِّمَ الْحَكَمَانِ حَتَّى سُمِّيَ مُنَازِعُهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَظَهَرَ مِنْ الْمَفَاسِدِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الْقِتَالِ وَلَمْ يَحْصُلْ بِهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَرْكَهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ فِعْلِهِ فَإِنَّ فَضَائِلَ الْأَعْمَالِ إنَّمَا هِيَ بِنَتَائِجِهَا وَعَوَاقِبِهَا وَالْقُرْآنُ إنَّمَا فِيهِ قِتَالُ الطَّائِفَةِ الْبَاغِيَةِ بَعْدَ الِاقْتِتَالِ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } الْآيَةَ . فَلَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتَالِ ابْتِدَاءً مَعَ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ ؛ لَكِنْ أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ وَبِقِتَالِ الْبَاغِيَةِ . وَ " إنْ قِيلَ " الْبَاغِيَةُ يَعُمُّ الِابْتِدَاءُ وَالْبَغْيُ بَعْدَ الِاقْتِتَالِ . قِيلَ : فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَمْرٌ لِأَحَدِهِمَا بِأَنْ تُقَاتِلَ الْأُخْرَى وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ لِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْبَاغِيَةِ وَالْكَلَامُ هُنَا : إنَّمَا هُوَ فِي أَنْ فِعْلَ الْقِتَالِ مِنْ عَلِيٍّ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ بَلْ كَانَ تَرْكُهُ أَفْضَلَ وَأَمَّا إذَا قَاتَلَ لِكَوْنِ الْقِتَالِ جَائِزًا وَإِنْ كَانَ تَرْكُهُ أَفْضَلَ أَوْ لِكَوْنِهِ مُجْتَهِدًا فِيهِ وَلَيْسَ بِجَائِزٍ فِي الْبَاطِنِ : فَهُنَا الْكَلَامُ فِي وُجُوبِ الْقِتَالِ مَعَهُ لِلطَّائِفَةِ الْبَاغِيَةِ أَوْ الْإِمْسَاكِ عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ وَهُوَ مَوْضِعُ تَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ وَاجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُجَاهِدِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْجَزْمِ بِأَنَّهُ وَشِيعَتُهُ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ فَيُمْكِنُ وَجْهَانِ : (أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْأَمْرَ بِقِتَالِ الطَّائِفَةِ الْبَاغِيَةِ مَشْرُوطٌ بِالْقُدْرَةِ وَالْإِمْكَانِ . إذْ لَيْسَ قِتَالُهُمْ بِأَوْلَى مِنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوطٌ بِالْقُدْرَةِ وَالْإِمْكَانِ فَقَدْ تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ الْمَشْرُوعَةُ أَحْيَانًا هِيَ التَّآلُفُ بِالْمَالِ وَالْمُسَالَمَةُ وَالْمُعَاهَدَةُ كَمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَالْإِمَامُ إذَا اعْتَقَدَ وُجُودَ الْقُدْرَةِ وَلَمْ تَكُنْ حَاصِلَةً كَانَ التَّرْكُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلَحَ . وَمَنْ رَأَى أَنَّ هَذَا الْقِتَالَ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ : عَلِمَ أَنَّهُ قِتَالُ فِتْنَةٍ فَلَا تَجِبُ طَاعَةُ الْإِمَامِ فِيهِ إذْ طَاعَتُهُ إنَّمَا تَجِبُ فِي مَا لَمْ يَعْلَمْ الْمَأْمُورُ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ بِالنَّصِّ فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ قِتَالُ الْفِتْنَةِ - الَّذِي تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ

- لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ نصٍّ مُعَيَّنٍ خَاصٍّ إلَى نصٍّ عَامٍّ مُطْلَقٍ فِي طَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تعَالَى عِنْدَ التَّنَازُعِ بِالرَّدِّ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ . وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ أَخْبَرَ بِظُلْمِ الْأُمَرَاءِ بَعْدَهُ وَبَغْيِهِمْ وَنَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَقْدُورٍ ؛ إذْ مَفْسَدَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ ؛ كَمَا نُهِيَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَنْ الْقِتَالِ كَمَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ : { أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ } وَكَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مَأْمُورِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهَا صَارَتْ بَاغِيَةً فِي أَثْنَاءِ الْحَالِ بِمَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ نَصْبِ إمَامٍ وَتَسْمِيَتِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ لَعْنِ إمَامِ الْحَقِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَإِنَّ هَذَا بَغْيٌ بِخِلَافِ الِاقْتِتَالِ قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ قِتَالَ فِتْنَةٍ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ اقْتِتَالُ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ قَالَ : { فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } فَلَمَّا أَمَرَ بِالْقِتَالِ إذَا بَغَتْ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ المقتتلتين دَلَّ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ المقتتلتين قَدْ تَكُونُ إحْدَاهُمَا بَاغِيَةً فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ . فَمَا وَرَدَ مِنْ النُّصُوصِ بِتَرْكِ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ : يَكُونُ قَبْلَ الْبَغْيِ وَمَا وَرَدَ مِنْ الْوَصْفِ بِالْبَغْيِ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْقِتَالُ مَعَ عَلِيٍّ وَاجِبًا لَمَّا حَصَلَ الْبَغْيُ وَعَلَى هَذَا يَتَأَوَّلُ مَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ " { إذَا حَمَلَ عَلَى الْقِتَالِ فِي ذَلِكَ } وَحِينَئِذٍ فَبَعْدَ التَّحْكِيمِ وَالتَّشَيُّعِ وَظُهُورِ الْبَغْيِ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ عَلِيٌّ وَلَمْ تُطِعْهُ الشِّيعَةُ فِي الْقِتَالِ وَمِنْ حِينَئِذٍ ذَمَّتْ الشِّيعَةُ بِتَرْكِهِمْ النَّصْرَ مَعَ وُجُوبِهِ وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سُمُّوا شِيعَةً وَحِينَئِذٍ صَارُوا مَذْمُومِينَ بِمَعْصِيَةِ الْإِمَامِ الْوَاجِبِ الطَّاعَةِ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَلَمَّا تَرَكُوا مَا يَجِبُ مِنْ نَصْرِهِ صَارُوا أَهْلَ بَاطِلٍ وَظُلْمٍ إذْ ذَاكَ يَكُونُ تَارَةً لِتَرْكِ الْحَقِّ وَتَارَةً لِتَعَدِّي الْحَقِّ . فَصَارَ حِينَئِذٍ شِيعَةً (عُثْمَانَ الَّذِينَ مَعَ مُعَاوِيَةَ أَرْجَحُ مِنْهُمْ ؛ وَلِهَذَا انْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ } وَبِذَلِكَ اسْتَدَلَّ مُعَاوِيَةٌ وَقَامَ مَالِك بْنُ يخامر فَرُوِيَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُمْ بِالشَّامِ . وَعَلِيٌّ هُوَ مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمُعَاوِيَةٌ أَوَّلُ الْمُلُوكِ فَالْمَسْأَلَةُ هِيَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَهُوَ قِتَالُ الْمُلُوكِ الْمُسَلَّطِينَ مَعَ أَهْلِ عَدْلٍ وَاتِّبَاعٍ لِسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يُبَادِرُ إلَى الْأَمْرِ بِذَلِكَ ؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ فِي ذَلِكَ إقَامَةَ الْعَدْلِ وَيَغْفُلُ عَنْ كَوْنِ ذَلِكَ غَيْرَ مُمْكِنٍ بَلْ تَرْبُو مَفْسَدَتُهُ عَلَى مَصْلَحَتِهِ . وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ (أَهْلِ الْحَدِيثِ تَرْكَ الْخُرُوجِ بِالْقِتَالِ عَلَى الْمُلُوكِ الْبُغَاةِ وَالصَّبْرِ عَلَى ظُلْمِهِمْ إلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ ؛ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ فِي كَوْنِهِ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتَالِ ابْتِدَاءً ؛ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِقِتَالِ الطَّائِفَةِ الْبَاغِيَةِ بَعْدَ اقْتِتَالِ الطَّائِفَتَيْنِ وَأَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا فَإِنَّهُ إذَا اقْتَتَلَتْ طَائِفَتَانِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ : كقيس ويمن - إذْ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي نَحْوِ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ يَجِبُ الْإِصْلَاحُ بَيْنَهُمَا وَإِلَّا وَجَبَ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْبَاغِيَةَ ؛ لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَدَاءُ هَذَا الْوَاجِبِ وَهَذَا يُبَيِّنُ رُجْحَانَ الْقَوْلِ ابْتِدَاءً فَفِي الْحَالِ الْأَوَّلِ لَمْ تَكُنْ الْقُدْرَةُ تَامَّةً عَلَى الْقِتَالِ وَلَا الْبَغْيِ حَاصِلًا ظَاهِرًا وَفِي الْحَالِ الثَّانِي حَصَلَ الْبَغْيُ وَقَوِيَ الْعَجْزُ وَهُوَ

أوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ وَأَقْرَبُهُمَا إلَيْهِ مُطْلَقًا وَالأُخْرَى مَوْصُوفَةٌ بِالبَغْيِ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ وَالمُغِيرَةُ وَغَيْرُهُمَا يَحْتَجُّونَ لِرُجْحَانِ الطَّائِفَةِ الشَّامِيَّةِ بِمَا هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ } فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يخامر فَقَالَ : سَمِعْت مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ : " { وَهُمْ بِالشَّامِ } فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : وَهَذَا مَالِكُ بْنُ يخامر يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ . وَهُمْ بِالشَّامِ وَهَذَا الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ فِيهِمَا أَيْضًا نَحْوُهُ مِنْ حَدِيثِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " { لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ } وَهَذَا يَحْتَجُّونَ بِهِ فِي رُجْحَانِ أَهْلِ الشَّامِ بِوَجْهَيْنِ : " أَحَدُهُمَا " : أَنَّهُمْ الَّذِينَ ظَهَرُوا وَانْتَصَرُوا وَصَارَ الأَمْرُ إلَيْهِمْ بَعْدَ الِاقْتِتَالِ وَالفِتْنَةِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ } وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الطَّائِفَةَ القَائِمَةَ بِالحَقِّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ هِيَ الظَّاهِرَةُ المَنْصُورَةُ فَلَمَّا انْتَصَرَ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَهْلَ الحَقِّ . " وَالثَّانِي " أَنَّ النُّصُوصَ عَيَّنَتْ أَنَّهُمْ بِالشَّامِ كَقَوْلِ مُعَاذٍ وَكَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { لَا يَزَالُ أَهْلُ الغَرْبِ ظَاهِرِينَ } قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد : وَأَهْلُ الغَرْبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُقِيمًا بِالمَدِينَةِ فَمَا يَغْرُبُ عَنْهَا فَهُوَ غَرْبُهُ وَمَا يَشْرُقُ عَنْهَا فَهُوَ شَرْقُهُ وَكَانَ يُسَمِّي أَهْلَ نَجْدٍ وَمَا يُشْرِقُ عَنْهَا أَهْلَ المَشْرِقِ كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَر : قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ المَشْرِقِ فَخَطَبَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { إنَّ مِنْ البَيَانِ لَسِحْرًا } . وَقَدْ اسْتَفَاضَتْ السُّنَنُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي " الشَّرِّ " أَنَّ أَصْلَهُ مِنْ المَشْرِقِ : كَقَوْلِهِ : " { الفِتْنَةُ مِنْ هَاهُنَا الفِتْنَةُ مِنْ هَاهُنَا } وَيُشِيرُ إلَى المَشْرِقِ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { رَأْسُ الكُفْرِ نَحْوُ المَشْرِقِ } وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَأَخْبَرَ أَنَّ الطَّائِفَةَ المَنْصُورَةَ القَائِمَةَ عَلَى الحَقِّ مِنْ أُمَّتِهِ بِالمَغْرِبِ وَهُوَ الشَّامُ وَمَا يَغْرُبُ عَنْهَا وَالفِتْنَةُ وَرَأْسُ الكُفْرِ بِالمَشْرِقِ وَكَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ يُسَمُّونَ أَهْلَ الشَّامِ أَهْلَ المَغْرِبِ وَيَقُولُونَ عَنْ الأوزاعي : أَنَّهُ إمَامُ أَهْلِ المَغْرِبِ وَيَقُولُونَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَنَحْوِهِ : إنَّهُ مَشْرِقِيٌّ إمَامُ أَهْلِ المَشْرِقِ وَهَذَا لِأَنَّ مُنْتَهَى الشَّامِ عِنْدَ الفُرَاتِ هُوَ عَلَى مُسَامَتَةِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُولَ كُلٍّ مِنْهُمَا وَبَعْدَ ذَلِكَ حَرَّانَ وَالرَّقَّةُ وَنَحْوُهُمَا عَلَى مُسَامَتَةِ مَكَّةَ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ قِبْلَتُهُمْ أَعْدَلَ القِبْلَةِ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ الرُّكْنَ الشَّامِيَّ وَيَسْتَدْبِرُونَ القُطْبَ الشَّامِيَّ مِنْ غَيْرِ انْحِرَافٍ إلَى ذَاتِ اليَمِينِ كَأَهْلِ العِرَاقِ وَلَا إلَى ذَاتِ الشِّمَالِ : كَأَهْلِ الشَّامِ . قَالُوا : فَإِذَا دَلَّتْ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ القَائِمَةَ بِالحَقِّ مِنْ أُمَّتِهِ الَّتِي لَا يَضُرُّهَا خِلَافُ المُخَالِفِ وَلَا خِذْلَانُ الخَاذِلِ هِيَ بِالشَّامِ كَانَ هَذَا مُعَارِضًا لِقَوْلِهِ : " { تَقْتُلُ عَمَّارًا الفِئَةُ البَاغِيَةُ } وَلِقَوْلِهِ : " { تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ } وَهَذَا مِنْ حُجَّةِ مَنْ يَجْعَلُ الجَمِيعَ سَوَاءً وَالجَمِيعَ مُصِيبِينَ أَوْ يُمْسِكُ عَنْ التَّرْجِيحِ وَهَذَا أَقْرَبُ . وَقَدْ احْتَجَّ بِهِ مِنْ

هَؤُلَاءِ عَلَى أُولَئِكَ لَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَرْغُوبٌ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ أَقْوَالِ النَّوَاصِبِ فَهُوَ مُقَابَلٌ بِأَقْوَالِ الشِّيعَةِ وَالرَّوَافِضِ هَؤُلَاءِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ هُنَا مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ لَا بُدَّ مِنْ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَالتَّأْلِيفِ فَيُقَالُ : أَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ } وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ظُهُورِ أَهْلِ الشَّامِ وَانْتِصَارِهِمْ فَهَكَذَا وَقَعَ وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ ؛ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا ظَاهِرِينَ مُنْتَصِرِينَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ " { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ } وَمَنْ هُوَ ظَاهِرٌ فَلَا يَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ بَغْيٌ وَمَنْ غَيْرُهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُمْ بَلْ فِيهِمْ هَذَا وَهَذَا . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " { تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ } فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ كَانَ أَوْلَى بِالْحَقِّ إذْ ذَاكَ مِنْ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى وَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ أَوْ الطَّائِفَةُ مَرْجُوحًا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِأَمْرِ اللَّه وَأَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا بِالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ طَاعَةً وَغَيْرُهُ أَطْوَعَ مِنْهُ . وَأَمَّا كَوْنُ بَعْضِهِمْ بَاغِيًا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ؛ مَعَ كَوْنِ بَغْيِهِ خَطَأً مَغْفُورًا أَوْ ذَنْبًا مَغْفُورًا : فَهَذَا أَيْضًا لَا يَمْنَعُ مَا شَهِدَتْ بِهِ النُّصُوصُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ عَنْ جُمْلَةِ أَهْلِ الشَّامِ وَعِظَمِهِمْ وَلَا رَيْبَ أَنَّ جُمْلَتَهُمْ كَانُوا أَرْجَحَ فِي عُمُومِ الْأَحْوَالِ . وَكَذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَانَ يُفَضِّلُهُمْ فِي مُدَّةِ خِلَافَتِهِ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ حَتَّى قَدِمَ الشَّامَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَامْتَنَعَ مِنْ الذَّهَابِ إلَى الْعِرَاقِ وَاسْتَشَارَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَذْهَبُ إلَيْهَا وَكَذَلِكَ حِينَ وَفَاتِهِ لَمَّا طُعِنَ أَدْخَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ (أَوَّلًا وَهُمْ كَانُوا إذْ ذَاكَ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ الشَّامِ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَكَانُوا آخِرَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ - هَكَذَا فِي الصَّحِيحِ . وَكَذَلِكَ الصِّدِّيقُ كَانَتْ عِنَايَتُهُ بِفَتْحِ الشَّامِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِفَتْحِ الْعِرَاقِ حَتَّى قَالَ : لَكَفْرٌ مِنْ كُفُورِ الشَّامِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ فَتْحِ مَدِينَةٍ بِالْعِرَاقِ . (وَالنُّصُوصُ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ فِي فَضْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْغَرْبِ عَلَى نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ هُنَا بَلْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَمِّ الْمَشْرِقِ وَأَخْبَارِهِ " { بِأَنَّ الْفِتْنَةَ وَرَأْسَ الْكُفْرِ مِنْهُ } مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ وَإِنَّمَا كَانَ فَضْلُ الْمَشْرِقِ عَلَيْهِمْ بِوُجُودِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَذَاكَ كَانَ أَمْرًا عَارِضًا ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَهَبَ عَلِيٌّ ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنْ الْفِتَنِ وَالنِّفَاقِ وَالرِّدَّةِ وَالْبِدَعِ : مَا يُعْلَمُ بِهِ أَنَّ أُولَئِكَ كَانُوا أَرْجَحَ . وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَا رَيْبَ أَنَّ فِي أَعْيَانِهِمْ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ كَمَا كَانَ عَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَمَّارٌ وَحُذَيْفَةُ وَنَحْوُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ بِالشَّامِ مِنْ الصَّحَابَةِ لَكِنَّ مُقَابَلَةَ الْجُمْلَةِ وَتَرْجِيحَهَا لَا يَمْنَعُ اخْتِصَاصَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى بِأَمْرِ رَاجِحٍ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيَّزَ أَهْلَ الشَّامِ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ دَائِمًا إلَى آخِرِ الدَّهْرِ وَبِأَنَّ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ فِيهِمْ إلَى آخِرِ الدَّهْرِ فَهُوَ إخْبَارٌ عَنْ أَمْرٍ دَائِمٍ مُسْتَمِرٍّ فِيهِمْ مَعَ الْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ وَهَذَا الْوَصْفُ لَيْسَ لِغَيْرِ الشَّامِ مِنْ أَرْضِ الْإِسْلَامِ ؛ فَإِنَّ الْحِجَازَ - الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْإِيمَانِ نَقَصَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ : مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ وَالنَّصْرُ وَالْجِهَادُ وَكَذَلِكَ الْيَمَنُ وَالْعِرَاقُ وَالْمَشْرِقُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَلَمْ يَزَلْ فِيهَا

العِلمُ وَالْإِيمَانُ وَمَنْ يُقَاتِلُ عَلَيْهِ مَنْصُورًا مُؤَيّدًا فِي كُلّ وَقْتٍ فَهَذَا هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَهَذَا يُبَيّنُ رُجْحَانَ الطّائِفَةِ الشّامِيّةِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَعَ أَنّ عَلِيّا كَانَ أَوْلَى بِالْحَقّ مِمّنْ فَارَقَهُ وَمَعَ أَنّ عَمّارًا قَتَلَتْهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ النّصُوصُ فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَنُقِرّ بِالْحَقّ كُلِّهِ وَلَا يَكُونُ لَنَا هَوًى وَلَا نتَكَلّمُ بِغَيْرِ عِلمٍ ؛ بَلْ نَسْلُكُ سُبُلَ العِلمِ وَالعَدْلِ وَذَلِكَ هُوَ اتّبَاعُ الكِتَابِ وَالسّنّةِ ؛ فَأَمّا مَنْ تَمَسّكَ بِبَعْضِ الحَقّ دُونَ بَعْضٍ فَهَذَا مَنْشَأُ الفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ . وَلِهَذَا لَمّا اعْتَقَدَتْ طَوَائِفُ مِنْ الفُقَهَاءِ وُجُوبَ القِتَالِ مَعَ عَلِيّ جَعَلُوا ذَلِكَ " قَاعِدَةً فِقْهِيّةً " فِيمَا إذَا خَرَجَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْإِمَامِ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ وَهِيَ عِنْدَهُ رَاسَلَهُمْ الْإِمَامُ فَإِنْ ذَكَرُوا مَظْلِمَةً أَزَالَهَا عَنْهُمْ وَإِنْ ذَكَرُوا شُبْهَةً بَيّنَهَا فَإِنْ رَجَعُوا وَإِلّا وَجَبَ قِتَالُهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى المُسْلِمِينَ . ثُمّ إنّهُمْ أَدْخَلُوا فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ " قِتَالَ الصّدّيقِ لِمَانِعِي الزّكَاةِ " وَ " قِتَالَ عَلِيّ لِلخَوَارِجِ المَارِقِينَ " ؛ وَصَارُوا فِيمَنْ يَتَوَلّى أُمُورَ المُسْلِمِينَ مِنْ المُلُوكِ وَالخُلَفَاءِ وَغَيْرِهِمْ يَجْعَلُونَ أَهْلَ العَدْلِ مَنْ اعْتَقَدُوهُ لِذَلِكَ ثُمّ يَجْعَلُونَ المُقَاتِلِينَ لَهُ بُغَاةً لَا يُفَرّقُونَ بَيْنَ قِتَالِ الفِتْنَةِ المَنْهِيّ عَنْهُ وَاَلّذِي تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ المُلُوكِ وَالخُلَفَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ : كَاقْتِتَالِ الأمِينِ وَالمَأْمُونِ وَغَيْرِهِمَا ؛ وَبَيْنَ قِتَالِ " الخَوَارِجِ " الحرورية وَالمُرْتَدّةِ وَالمُنَافِقِينَ " كالمزدكية " وَنَحْوِهِمْ . وَهَذَا تَجِدُهُ فِي الأَصْلِ مِنْ رَأْيِ بَعْضِ فُقَهَاءِ أَهْلِ الكُوفَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ ثُمّ الشّافِعِيّ وَأَصْحَابِهِ ثُمّ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد الّذِينَ صَنّفُوا (بَابَ قِتَالِ أَهْلِ البَغْيِ تَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِ أُولَئِكَ تَجِدُهُمْ هَكَذَا فَإِنّ الخرقي نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِ المزني والمزني نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِ مُخْتَصَرِ مُحَمّدِ بْنِ الحَسَنِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ التّبْوِيبِ وَالتّرْتِيبِ . وَالمُصَنّفُونَ فِي الأَحْكَامِ : يَذْكُرُونَ قِتَالَ البُغَاةِ وَالخَوَارِجِ جَمِيعًا وَلَيْسَ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي " قِتَالِ البُغَاةِ " حَدِيثٌ إلّا حَدِيثَ كَوْثَرِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ نَافِعٍ وَهُوَ مَوْضُوعٌ . وَأَمّا كُتُبُ الحَدِيثِ المُصَنّفَةُ مِثْلُ : صَحِيحِ البُخَارِيّ وَالسّنَنِ فَلَيْسَ فِيهَا إلّا قِتَالُ أَهْلِ الرّدّةِ وَالخَوَارِجِ وَهُمْ أَهْلُ الأَهْوَاءِ وَكَذَلِكَ كُتُبُ السّنّةِ المَنْصُوصَةُ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد وَنَحْوِهِ . وَكَذَلِكَ - فِيمَا أَظُنّ - كُتُبُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ لَيْسَ فِيهَا (بَابُ قِتَالِ البُغَاةِ وَإِنّمَا ذَكَرُوا أَهْلَ الرّدّةِ وَأَهْلَ الأَهْوَاءِ وَهَذَا هُوَ الأَصْلُ الثّابِتُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ رَسُولِهِ وَهُوَ الفَرْقُ بَيْنَ القِتَالِ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الشّرِيعَةِ وَالسّنّةِ فَهَذَا الّذِي أَمَرَ بِهِ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَمّا القِتَالُ لِمَنْ لَمْ يَخْرُجْ إلّا عَنْ طَاعَةِ إمَامٍ مُعَيّنٍ فَلَيْسَ فِي النّصُوصِ أَمْرٌ بِذَلِكَ فَارْتَكَبَ الأَوّلُونَ ثَلَاثَةَ مَحَاذِيرَ : - (الأَوّلُ : قِتَالُ مَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ مَلِكٍ مُعَيّنٍ وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ وَمِثْلَهُ - فِي السّنّةِ وَالشّرِيعَةِ - لِوُجُودِ الِافْتِرَاقِ وَالِافْتِرَاقُ هُوَ الفِتْنَةُ . (وَالثّانِي : التّسْوِيَةُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ المُرْتَدّينَ عَنْ بَعْضِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ . (وَالثّالِثُ : التّسْوِيَةُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ قِتَالِ الخَوَارِجِ المَارِقِينَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ تِلْكَ الطّائِفَةِ يَدْخُلُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَهْوَاءِ المُلُوكِ وَوُلَاةِ الأُمُورِ وَيَأْمُرُونَ بِالقِتَالِ مَعَهُمْ لِأَعْدَائِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنّهُمْ أَهْلُ العَدْلِ وَأُولَئِكَ البُغَاةُ ؛ وَهُمْ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ المُتَعَصّبِينَ لِبَعْضِ أَئِمّةِ العِلمِ أَوْ أَئِمّةِ الكَلَامِ أَوْ أَئِمّةِ المَشْيَخَةِ عَلَى

نُظَرَائِهِمْ مُدَّعِينَ أَنَّ الحَقّ مَعَهُمْ أَوْ أَنَّهُمْ أَرْجَحُ بِهَوَى قَدْ يَكُونُ فِيهِ تَأْوِيلٌ بِتَقْصِيرِ لَا بِالِاجْتِهَادِ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي عُلَمَاءِ الأُمَّةِ وَعُبَّادِهَا وَأُمَرَائِهَا وَأَجْنَادِهَا وَهُوَ مِنْ البَأْسِ الَّذِي لَمْ يُرْفَعْ مِنْ بَيْنِهَا ؛ فَنَسْأَلُ اللَّهَ العَدْلَ ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِهِ . وَلِهَذَا كَانَ أَعْدَلُ الطَّوَائِفِ " أَهْلَ السُّنَّةِ " أَصْحَابَ الحَدِيثِ . وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ إذَا أُمِرُوا بِقِتَالِ مَنْ مَرَقَ مِنْ الإِسْلَامِ أَوْ ارْتَدَّ عَنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ يَأْمُرُونَ أَنْ يُسَارَ فِيهِ بِسِيرَةِ عَلِيٍّ فِي قِتَالِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ؛ لَا يُسْبَى لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ وَلَا يُغْنَمُ لَهُمْ مَالٌ وَلَا يُجْهَزُ لَهُمْ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُقْتَلُ لَهُمْ أَسِيرٌ وَيَتْرُكُونَ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَارَ بِهِ عَلِيٌّ فِي قِتَالِ الخَوَارِجِ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ رَسُولُهُ وَسَارَ بِهِ الصِّدِّيقُ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ فَلَا يَجْمَعُونَ بَيْنَ مَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ مِنْ المُرْتَدِّينَ وَالمَارِقِينَ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ المُسِيئِينَ ؛ وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ مِنْ المُلُوكِ وَالأَئِمَّةِ المُتَقَاتِلِينَ عَلَى المُلْكِ وَإِنْ كَانَ بِتَأْوِيلِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .[129]

=====================

رأيه بإسلام معاوية رضي الله عنه

سُئِلَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ إسْلَامِ " مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ " مَتَى كَانَ ؟ وَهَلْ كَانَ إيمَانُهُ كَإِيمَانِ غَيْرِهِ أَمْ لَا ؟ وَمَا قِيلَ فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ ؟ .

الجَوَابُ

فَأَجَابَ : - إيمَانُ " مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ " - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثَابِتٌ بِالنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ عَلَى ذَلِكَ ؛ كَإِيمَانِ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ آمَنَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ مِثْلَ أَخِيهِ " يَزِيدَ " بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَمِثْلَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ . وَأَبِي أَسَدِ بْنِ أَبِي العاصِ بْنِ أُمَيَّةَ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ " الطُّلَقَاءَ " : فَإِنَّهُمْ آمَنُوا عَامَ فَتْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ قَهْرًا وَأَطْلَقَهُمْ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَعْطَاهُمْ وَتَأَلَّفَهُمْ وَقَدْ رُوِيَ : أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ وَهَاجَرَ كَمَا أَسْلَمَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ العاصِ وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ الحجبي - قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ - وَهَاجَرُوا إلَى المَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا فَهَذَا مِنْ المُهَاجِرِينَ . وَأَمَّا إسْلَامُهُ عَامَ الفَتْحِ مَعَ مَنْ ذُكِرَ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ العُلَمَاءِ ؛ سَوَاءٌ كَانَ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَكُنْ إسْلَامُهُ إلَّا عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ ؛ وَلَكِنَّ بَعْضَ الكَذَّابِينَ زَعَمَ : أَنَّهُ عَيَّرَ أَبَاهُ بِإِسْلَامِهِ وَهَذَا كَذِبٌ بِالِاتِّفَاقِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِالحَدِيثِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ المَذْكُورُونَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ إسْلَامًا وَأَحْمَدِهِمْ سِيرَةً : لَمْ يُتَّهَمُوا بِسُوءِ وَلَمْ يَتَّهِمْهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِنِفَاقِ كَمَا اُتُّهِمَ غَيْرُهُمْ ؛ بَلْ ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنْ حُسْنِ الإِسْلَامِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحِفْظِ حُدُودِ اللَّهِ : مَا دَلَّ عَلَى حُسْنِ إيمَانِهِمْ البَاطِنِ وَحُسْنِ إسْلَامِهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَعْمَلَهُ نَائِبًا لَهُ كَمَا اسْتَعْمَلَ عَتَّابَ بْنَ أَسِيدٍ أَمِيرًا عَلَى مَكَّةَ نَائِبًا عَنْهُ وَكَانَ مِنْ خِيَارِ المُسْلِمِينَ كَانَ يَقُولُ : يَا أَهْلَ

---

[129] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 1 / ص 387فما بعد)

مَكّةَ وَاللهِ لَا يَبْلُغنِي أَنّ أَحَدًا مِنْكُمْ قَدْ تَخَلّفَ عَنْ الصّلَاةِ إلّا ضَرَبْت عُنُقَهُ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " أَبَا سُفْيَانَ " بْنَ حَرْبٍ - أَبَا مُعَاوِيَةَ - عَلَى نَجْرَانَ نَائِبًا لَهُ وَتُوُفِّيَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو سُفْيَانَ عَامِلُهُ عَلَى نَجْرَانَ . وَكَانَ مُعَاوِيَةُ أَحْسَنَ إسْلَامًا مِنْ أَبِيهِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ العِلْمِ كَمَا أَنّ أَخَاهُ " يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ " كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ وَمِنْ أَبِيهِ ؛ وَلِهَذَا اسْتَعْمَلَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى قِتَالِ النّصَارَى حِينَ فَتَحَ الشّامَ وَكَانَ هُوَ أَحَدُ الْأُمَرَاءِ الّذِينَ اسْتَعْمَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَوَصّاهُ بِوَصِيّةٍ مَعْرُوفَةٍ تَنْقُلُهَا أَهْلُ العِلْمِ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهَا وَذَكَرَهَا مَالِكٌ فِي المُوَطّأِ وَغَيْرِهِ وَمَشَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي رِكَابِهِ مُشَيِّعًا لَهُ فَقَالَ لَهُ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ إمّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمّا أَنْ أَنْزِلَ فَقَالَ : لَسْت بِنَازِلِ وَلَسْت بِرَاكِبِ أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزّ وَجَلّ . وَكَانَ عَمْرُو بْنُ العاص أَحَدَ الْأُمَرَاءِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ أَيْضًا وَقَدّمَ عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ لِشَجَاعَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ فِي الجِهَادِ . فَلَمّا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَلّى عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ أَبَا عُبَيْدَةَ أَمِيرًا عَلَى الجَمِيعِ ؛ لِأَنّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ شَدِيدًا فِي اللهِ فَوَلّى أَبَا عُبَيْدَةَ لِأَنّهُ كَانَ لَيِّنًا . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَيِّنًا وَخَالِدٌ شَدِيدًا عَلَى الكُفّارِ فَوَلّى اللّيِّنَ الشّدِيدَ وَوَلّى الشّدِيدَ اللّيِّنَ ؛ لِيَعْتَدِلَ الْأَمْرُ وَكِلَاهُمَا فَعَلَ مَا هُوَ أَحَبُّ إلَى اللهِ تَعَالَى فِي حَقِّهِ فَإِنّ نَبِيّنَا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَكْمَلُ الخَلْقِ وَكَانَ شَدِيدًا عَلَى الكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَنَعَتَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَكْمَلِ الشّرَائِعِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي نَعْتِ أُمّتِهِ : { أَشِدّاءُ عَلَى الكُفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } وَقَالَ فِيهِمْ : { أَذِلّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الكافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ : { أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي أَسَارَى بَدْرٍ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَأْخُذَ الفِدْيَةَ مِنْهُمْ وَإِطْلَاقَهُمْ وَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ . قَالَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّ اللهَ يُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنْ الْبِرّ وَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتّى تَكُونَ أَشَدّ مِنْ الصّخْرِ وَإِنّ مَثَلَك يَا أَبَا بَكْرٍ مَثَلُ إبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ إذْ قَالَ : { فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } وَمَثَلُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ إذْ قَالَ : { إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ } وَمَثَلك يَا عُمَرُ مَثَلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلَامُ إذْ قَالَ : { رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّارًا } وَمَثَلُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إذْ قَالَ : { رَبّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ } } وَكَانَا فِي حَيَاةِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَمَا نَعَتَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكَانَا هُمَا وَزِيرَيْهِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا { أَنّ سَرِيرَ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمّا وُضِعَ وَجَاءَ النّاسُ يُصَلّونَ عَلَيْهِ قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : فَالتَفَتّ فَإِذَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ : وَاللهِ مَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ أَحَبُّ إلَيّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ تَعَالَى بِعَمَلِهِ مِنْ هَذَا المَيِّتِ . وَاللهِ إنّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْشُرَك اللهُ مَعَ صَاحِبَيْك فَإِنّي كَثِيرًا مَا كُنْت أَسْمَعُ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ . دَخَلْت أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ

وَخَرَجْت أنَا وَأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَذَهَبْت أنَا وَأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ } . ثُمّ ثبَتَ فِي الصّحِيحِ أنّهُ { لمّا كانَ يَوْمُ أحُدٍ انهَزَمَ أكثَرُ المُسْلِمِينَ فَإذَا أبُو سُفْيَانَ وَكانَ القوْمُ المَرَامَ إذْ قَالَ : أفِي القوْمِ مُحَمّدٌ ؟ أفِي القوْمِ مُحَمّدٌ ؟ أفِي القوْمِ مُحَمّدٌ ؟ فَقالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ لَا تُجِيبُوهُ ثُمّ قَالَ : أفِي القوْمِ ابْنُ أبِي قُحَافَةَ ؟ أفِي القوْمِ ابْنُ أبِي قُحَافَةَ ؟ أفِي القوْمِ ابْنُ أبِي قُحَافَةَ ؟ فَقالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ لَا تُجِيبُوهُ فَقالَ : أفِي القوْمِ ابْنُ الخَطّابِ ؟ أفِي القوْمِ ابْنُ الخَطّابِ ؟ أفِي القوْمِ ابْنُ الخَطّابِ ؟ فَقالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ لَا تُجِيبُوهُ } الحَدِيثُ بِطُولِهِ فَهَذَا أبُو سُفْيَانَ قَائِدُ الأحْزَابِ لَمْ يَسْأَلْ إلّا عَنْ هَؤُلَاءِ الثّلَاثَةِ : عَنْ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ وَأبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لِعِلمِهِ بِأنّ هَؤُلَاءِ هُمْ رُءُوسُ عَسْكرِ المُسْلِمِينَ . وَقَالَ الرّشِيدُ لِمَالِكِ بْنِ أنَسٍ : أخْبِرْنِي عَنْ مَنْزِلَةِ أبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ فَقالَ : مَنْزِلتُهُمَا مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ كمَنْزِلتِهِمَا بَعْدَ وَفَاتِهِ فَقالَ : شَفَيْتَنِي يَا مَالِكُ فَلمّا تُوُفّيَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ وَاسْتَخْلَفَ أبَا بَكْرٍ جَعَلَ اللهُ تعَالى فِيهِ مِنْ الشّدّةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ حَتّى فَاقَ عُمَرَ فِي ذَلِكَ حَتّى قَاتَلَ أهْلَ الرّدّةِ بَعْدَ أنْ جَهّزَ جَيْشَ أسَامَةَ وَكانَ ذَلِكَ تكْمِيلًا لهُ لِكَمَالِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ الذِي صَارَ خَلِيفَةً لهُ . وَلَمّا اسْتَخْلَفَ عُمَرَ جَعَلَ اللهُ فِيهِ مِنْ الرّأفَةِ وَالرّحْمَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ تكْمِيلًا لهُ حَتّى صَارَ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَلِهَذَا اسْتَعْمَلَ هَذَا خَالِدًا ؛ وَهَذَا أبَا عُبَيْدَةَ . وَكانَ يَزِيدُ بْنُ أبِي سُفْيَانَ عَلَى الشّامِ ؛ إلى أنْ وُلِّيَ عُمَرُ ؛ فَمَاتَ يَزِيدُ بْنُ أبِي سُفْيَانَ ؛ فَاسْتَعْمَلَ عُمَرُ مُعَاوِيَةَ مَكانَ أخِيهِ يَزِيدَ بْن أبِي سُفْيَانَ وَبَقِيَ مُعَاوِيَةُ عَلَى وِلَايَتِهِ تمَامَ خِلَافَتِهِ وَعُمَرُ وَرَعِيّتُهُ تشْكُرُهُ وَتشْكُرُ سِيرَتَهُ فِيهِمْ وَتُوَالِيهِ وَتُحِبُّهُ لِمَا رَأوْا مِنْ حُلْمِهِ وَعَدْلِهِ ؛ حَتّى أنّهُ لَمْ يَشْكُهُ مِنْهُمْ مُشْتَكٍ وَلَا تظلمه مِنْهُمْ مُتَظَلِّمٌ ، وَيَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ لَيْسَ مِنْ أصْحَابِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ وَإنّمَا وُلِدَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ؛ وَإنّمَا سَمّاهُ يَزِيدَ بَاسِمِ عَمّهِ مِنْ الصّحَابَةِ . وَقَدْ شَهِدَ مُعَاوِيَةُ ؛ وَأخُوهُ يَزِيدُ ؛ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ؛ وَالحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مُسْلِمَةِ الفَتْحِ مَعَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ غَزْوَةَ حنين ؛ وَدَخَلُوا فِي قَوْله تعَالى { ثُمّ أنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأنْزَلَ جُنُودًا لَمْ ترَوْهَا وَعَذّبَ الذِينَ كفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكافِرِينَ } وَكانُوا مِنْ المُؤْمِنِينَ الذِينَ أنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ وَغَزْوَةَ الطّائِفِ لَمّا حَاصَرُوا الطّائِفَ وَرَمَاهَا بِالمَنْجَنِيقِ وَشَهِدُوا النّصَارَى بِالشّامِ وَأنْزَلَ اللهُ فِيهَا سُورَةَ بَرَاءَةٍ ؛ وَهِيَ غَزْوَةُ العُسْرَةِ التِي جَهّزَ فِيهَا عُثْمَانُ بْنُ عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَيْشَ العُسْرَةِ بِألفِ بَعِيرٍ فِي سَبِيلِ اللهِ تعَالى فَاعْوَزّتْ وَكمّلهَا بِخَمْسِينَ بَعِيرًا فَقالَ النّبِيُّ : " { مَا ضَرّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ } " وَهَذَا آخِرُ مَغَازِي النّبِيّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا قِتَالٌ . وَقَدْ غَزَا النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ أكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ غَزَاةً بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ القِتَالُ إلّا فِي تِسْعِ غَزَوَاتٍ : بَدْرٍ وَأحُدٍ وَبَنِي المُصْطَلِقِ وَالخَنْدَقِ وَذِي قَرَدٍ وَغَزْوَةِ الطّائِفِ وَأعْظَمُ جَيْشٍ جَمَعَهُ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلّمَ كانَ بحنين وَالطّائِفِ وَكانُوا اثنَيْ عَشَرَ ألفًا . وَأعْظَمُ

جَيْشٍ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشُ تَبُوكَ فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا لَا يُحْصَى غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ قِتَالٌ . وَهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ دَخَلُوا فِي قَوْله تَعَالَى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الطُّلَقَاءَ مُسْلِمَةَ الْفَتْحِ : هُمْ مِمَّنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ وَقَدْ وَعَدَهُمْ اللَّهُ الْحُسْنَى فَإِنَّهُمْ أَنْفَقُوا بحنين وَالطَّائِفِ وَقَاتَلُوا فِيهِمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . وَهُمْ أَيْضًا دَاخِلُونَ فِيمَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } فَإِنَّ السَّابِقِينَ هُمْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَ الْحُدَيْبِيَةِ كَالَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } كَانُوا أَكْثَرَ مَنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } " وَكَانَ فِيهِمْ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بلتعة وَكَانَتْ لَهُ سَيِّئَاتٌ مَعْرُوفَةٌ مِثْلُ مُكَاتَبَتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِسَاءَتِهِ إلَى مَمَالِيكِهِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ { أَنَّ مَمْلُوكَهُ جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ حَاطِبٌ النَّارَ . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَبْت . إنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا والحديبية } " . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ { لَمَّا كَتَبَ إلَى الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِمْ أَرْسَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ إلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَ مَعَهَا الْكِتَابُ فَأَتَيَا بِهَا فَقَالَ : مَا هَذَا يَا حَاطِبُ فَقَالَ : وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فَعَلْت ذَلِكَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلَا رَضِيت بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَلَكِنْ كُنْت امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ لَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَ مَنْ مَعَك مِنْ أَصْحَابِك لَهُمْ بِمَكَّةَ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهَالِيَهُمْ فَأَحْبَبْت إذْ فَاتَنِي ذَلِكَ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيك أَنَّ اللَّهَ قَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ قَدْ غَفَرْت لَكُمْ } . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِهَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ - كَأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةِ - مِنْ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَجِهَادِهِمْ ؛ مَا لَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِهَا كَمَا لَمْ تَجِبْ مُعَاقَبَةُ حَاطِبٍ مِمَّا كَانَ مِنْهُ . وَهَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ مَا جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَنَحْوِهِمْ : فَإِنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ اجْتِهَادًا لَا ذَنْبَ فِيهِ فَلَا كَلَامَ . فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ } " . وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ ذَنْبٌ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ هَؤُلَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ ؛ فَلَا يَضُرُّهُمْ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مَنْ الذُّنُوبِ إنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَنْبٌ ؛ بَلْ إنْ وَقَعَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ كَانَ اللَّهُ مَحَاهُ بِسَبَبِ قَدْ وَقَعَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُمَحِّصُ اللَّهُ بِهَا الذُّنُوبَ ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَابَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَوْ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ أَوْ يَكُونَ قَدْ كَفَّرَ عَنْهُ بِبَلَاءِ ابْتَلَاهُ بِهِ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا

وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ مِنْ خَطَايَاهُ } " . وَأَمَّا مَنْ بَعْدُ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ فَهَؤُلَاءِ دَخَلُوا فِي قَوْله تَعَالَى { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } وَفِي قَوْله تَعَالَى { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ العاص وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ الحجبي وَغَيْرُهُمْ . وَأَسْلَمَ بَعْدَ الطُّلَقَاءِ أَهْلُ الطَّائِفِ وَكَانُوا آخِرَ النَّاسِ إسْلَامًا وَكَانَ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي العاص الثَّقَفِيُّ الَّذِي أَمَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ وَكَانَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ ؛ مَعَ تَأَخُّرِ إسْلَامِهِ . فَقَدْ يَتَأَخَّرُ إسْلَامُ الرَّجُلِ وَيَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضِ مَنْ تَقَدَّمَهُ بِالْإِسْلَامِ كَمَا تَأَخَّرَ إسْلَامُ عُمَر فَإِنَّهُ يُقَالُ : إنَّهُ أَسْلَمَ تَمَامَ الْأَرْبَعِينَ وَكَانَ مِمَّنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَبْلَهُ وَكَانَ عُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَسْلَمُوا قَبْلَ عُمَر عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ وَتَقَدَّمَهُمْ عُمَر . وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ الْبَالِغِينَ أَبُو بَكْرٍ وَمِنْ الْأَحْرَارِ الصِّبْيَانِ عَلِيٌّ وَمِنْ الْمَوَالِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَمِنْ النِّسَاءِ خَدِيجَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهَذَا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } إلَى قَوْله تَعَالَى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } . فَهَذِهِ عَامَّةٌ . وَقَالَ تَعَالَى : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } . فَهَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا : تَتَنَاوَلُ مَنْ دَخَلَ فِيهَا بَعْدَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ فَكَيْفَ لَا يَدْخُلُ فِيهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَجَاهَدُوا مَعَهُ ؟ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " { الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ } " فَمَنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ مِنْ الطُّلَقَاءِ وَهَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ كَانَ لَهُ مَعْنَى هَذِهِ الْهِجْرَةِ فَدَخَلَ فِي قَوْله تَعَالَى { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } كَمَا دَخَلَ فِي قَوْله تَعَالَى { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } فَهَذَا يَتَنَاوَلُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ الرَّسُولِ

مُطْلَقًا . وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ : " { خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ } " . وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ { أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَبَيْنَ خَالِدٍ كَلَامٌ فَقَالَ : يَا خَالِدُ لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي . فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ } " قَالَ ذَلِكَ لِخَالِدِ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ بِالنِّسْبَةِ إلَى السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ . يَقُولُ : إذَا أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نِصْفَ مُدِّهِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ دَخَلُوا فِي قَوْله تَعَالَى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ . وَكَيْفَ يَكُونُ بَعْدَ أَصْحَابِهِ ؟ وَالصُّحْبَةُ اسْمُ جِنْسٍ تَقَعُ عَلَى مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا لَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمْ لَهُ مِنْ الصُّحْبَةِ بِقَدْرِ ذَلِكَ فَمَنْ صَحِبَهُ سَنَةً أَوْ شَهْرًا أَوْ يَوْمًا أَوْ سَاعَةً أَوْ رَآهُ مُؤْمِنًا فَلَهُ مِنْ الصُّحْبَةِ بِقَدْرِ ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { يَغْزُوا فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَفِي لَفْظٍ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ ؛ ثُمَّ يَغْزُوا فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ - وَفِي لَفْظٍ - هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ ثُمَّ يَغْزُوا فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ - وَفِي لَفْظٍ - مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ } " وَفِي بَعْضِ الطُّرُقِ فَيُذْكَرُ فِي الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ كَذَلِكَ . فَقَدْ عَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحُكْمَ بِصُحْبَتِهِ وَعَلَّقَ بِرُؤْيَتِهِ وَجَعَلَ فَتْحَ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَنْ رَآهُ مُؤْمِنًا بِهِ . وَهَذِهِ الْخَاصِّيَّةُ لَا تَثْبُتُ لِأَحَدِ غَيْرَ الصَّحَابَةِ ؛ وَلَوْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَعْمَالِ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَصْلٌ إذَا تَبَيَّنَ هَذَا ؛ فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي بِهَا يُعْلَمُ إيمَانُ الْوَاحِدِ مِنْ الصَّحَابَةِ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي بِهَا يُعْلَمُ إيمَانُ نُظَرَائِهِ وَالطَّرِيقُ الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا صُحْبَتُهُ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي يُعْلَمُ بِهَا صُحْبَةُ أَمْثَالِهِ . فَالطُّلَقَاءُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عَامَ الْفَتْحِ مِثْلَ : مُعَاوِيَةَ وَأَخِيهِ يَزِيدَ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ؛ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ؛ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو . وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ إسْلَامُهُمْ وَبَقَاؤُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ إلَى حِينِ الْمَوْتِ . وَمُعَاوِيَةُ أَظْهَرُ إسْلَامًا مِنْ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ تَوَلَّى أَرْبَعِينَ سَنَةً ؛ عِشْرِينَ سَنَةً نَائِبًا لِعُمَرِ وَعُثْمَانَ مَعَ مَا كَانَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعِشْرِينَ سَنَةً مُسْتَوْلِيًا ؛ وَأَنَّهُ تَوَلَّى سَنَةَ سِتِّينَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِينَ سَنَةً . وَسَلَّمَ إلَيْهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْأَمْرَ عَامَ أَرْبَعِينَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ عَامُ الْجَمَاعَةِ ؛ لِاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَزَوَالِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . وَهَذَا الَّذِي فَعَلَهُ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّا

أثنَى عَلَيْهِ النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمَا ثبَتَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ أبِي بَكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " { إنّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ } " فَجَعَلَ النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمّا أثنَى بِهِ عَلَى ابْنِهِ الحَسَنِ وَمَدَحَهُ عَلَى أنْ أصْلحَ اللَّهُ تعَالَى بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ وَذَلِكَ حِينَ سَلّمَ الأمْرَ إلَى مُعَاوِيَةَ وَكانَ قدْ سَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا إلَى الآخَرِ بِعَسَاكِرَ عَظِيمَةٍ . فلمّا أثنَى النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى الحَسَنِ بِالإِصْلَاحِ وَتَرْكِ القِتَالِ دَلّ عَلَى أنّ الإِصْلَاحَ بَيْنَ تِلْكَ الطّائِفَتَيْنِ كانَ أحَبّ إلَى اللهِ تعَالَى مِنْ فِعْلِهِ فَدَلّ عَلَى أنّ الِاقْتِتَالَ لمْ يَكُنْ مَأمُورًا بِهِ وَلَوْ كانَ مُعَاوِيَةُ كافِرًا لَمْ تكُنْ توْلِيَةُ كافِرٍ وَتسْلِيمُ الأمْرِ إلَيْهِ مِمّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ بَلْ دَلّ الحَدِيثُ عَلَى أنّ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابَهُ كانُوا مُؤْمِنِينَ ؛ كمَا كانَ الحَسَنُ وَأصْحَابُهُ مُؤْمِنِينَ ؛ وَأنّ الذِي فَعَلَهُ الحَسَنُ كانَ مَحْمُودًا عِنْدَ اللهِ تعَالَى مَحْبُوبًا مَرْضِيًا لهُ وَلِرَسُولِهِ . وَهَذَا كمَا ثبَتَ عَنْ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الصّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أبِي سَعِيدٍ الخدري أنّهُ قَالَ : " { تمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النّاسِ فَتَقْتُلُهُمْ أوْلَى الطّائِفَتَيْنِ بِالحَقّ وَفِي لفْظٍ فَتَقْتُلُهُمْ أدْنَاهُمْ إلَى الحَقّ } " فَهَذَا الحَدِيثُ الصّحِيحُ دَلِيلٌ عَلَى أنّ كِلْتَا الطّائِفَتَيْنِ المُقْتَتِلَتَيْنِ - عَلِيٌّ وَأصْحَابُهُ وَمُعَاوِيَةُ وَأصْحَابُهُ - عَلَى حَقٍّ وَأنّ عَلِيًّا وَأصْحَابَهُ كانُوا أقْرَبَ إلَى الحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابِهِ . فَإِنّ عَلِيّ بْنَ أبِي طَالِبٍ هُوَ الذِي قَاتَلَ المَارِقِينَ وَهُمْ " الخَوَارِجُ الحرورية " الذِينَ كانُوا مِنْ شِيعَةِ عَلِيّ ثمّ خَرَجُوا عَلَيْهِ وَكفّرُوهُ وَكفّرُوا مَنْ وَالَاهُ وَنَصَبُوا لَهُ العَدَاوَةَ وَقَاتَلُوهُ وَمَنْ مَعَهُ . وَهُمْ الذِينَ أخْبَرَ عَنْهُمْ النّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الأحَادِيثِ الصّحِيحَةِ المُسْتَفِيضَةِ ؛ بَلْ المُتَوَاتِرَةِ حَيْثُ قَالَ فِيهِمْ : " { يُحَقِّرُ أحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلَامِ كمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ أيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنّ فِي قَتْلِهِمْ أجْرًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ آيَتُهُمْ أنّ فِيهِمْ رَجُلًا مُخْدَجَ اليَدَيْنِ لهُ عَضَلٌ عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ تدَرْدُرُ } " . وَهَؤُلَاءِ هُمْ الذِينَ نَصَبُوا العَدَاوَةَ لِعَلِيّ وَمَنْ وَالَاهُ وَهُمْ الذِينَ اسْتَحَلّوا قَتْلَهُ وَجَعَلُوهُ كافِرًا وَقَتَلَهُ أحَدُ رُءُوسِهِمْ " عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ مُلْجِمٍ المُرَادِيّ " فَهَؤُلَاءِ النّوَاصِبُ الخَوَارِجُ المَارِقُونَ إذْ قَالُوا : إنّ عُثْمَانَ وَعَلِيّ بْنَ أبِي طَالِبٍ وَمَنْ مَعَهُمَا كانُوا كُفّارًا مُرْتَدّينَ [فَإِنّ مِنْ] حُجّةِ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ مَا توَاتَرَ مِنْ إيمَانِ الصّحَابَةِ وَمَا ثبَتَ بِالكِتَابِ وَالسّنّةِ الصّحِيحَةِ مِنْ مَدْحِ اللهِ تعَالَى لهُمْ وَثنَاءِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ وَإِخْبَارِهِ بِأنّهُمْ مِنْ أهْلِ الجَنّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ النّصُوصِ وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ هَذِهِ الحُجَجَ لَمْ يُمْكِنْهُ أنْ يُثْبِتَ إيمَانَ عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ وَأمْثَالِهِ . فَإِنّهُ لوْ قَالَ هَذَا النّاصِبِيّ للرافضي : إنّ عَلِيًّا كانَ كافِرًا أوْ فَاسِقًا ظَالِمًا وَأنّهُ قَاتَلَ عَلَى المُلْكِ : لِطَلَبِ الرّيَاسَةِ ؛ لَا لِلدّينِ وَأنّهُ قَتَلَ " مِنْ أهْلِ المِلّةِ " مِنْ أمّةِ مُحَمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالجَمَلِ وصفين وَحَرُورَاءَ ألُوفًا مُؤَلّفَةً وَلَمْ يُقَاتِلْ بَعْدَ وَفَاةِ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كافِرًا وَلَا فَتَحَ مَدِينَةً بَلْ قَاتَلَ أهْلَ القِبْلَةِ وَنَحْوَ هَذَا الكَلَامِ - الذِي تقُولُهُ النّوَاصِبُ المُبْغِضُونَ لِعَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمْ

يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبَ هَؤُلَاءِ النَّوَاصِبَ إلَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ؛ الَّذِينَ يُحِبُّونَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ كُلَّهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ . فَيَقُولُونَ لَهُمْ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَنَحْوُهُمْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ إيمَانُهُمْ وَهِجْرَتُهُمْ وَجِهَادُهُمْ . وَثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ ثَنَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالرِّضَى عَنْهُمْ وَثَبَتَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ثَنَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ خُصُوصًا وَعُمُومًا كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْمُسْتَفِيضِ عَنْهُ : " { لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا } " وَقَوْلِهِ : " { إنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ } " وَقَوْلِهِ عَنْ عُثْمَانَ : " { أَلَا أَسْتَحِي مِمَّنْ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ } " ؟ وَقَوْلُهُ لِعَلِيِّ : " { لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ } " وَقَوْلِهِ : " { لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيُّونَ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ } " وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَأَمَّا الرافضي فَلَا يُمْكِنُهُ إقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ عَلِيًّا مِنْ النَّوَاصِبِ كَمَا يُمْكِنُ ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْجَمِيعَ . فَإِنَّهُ إنْ قَالَ : إسْلَامُ عَلِيٍّ مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ . قَالَ لَهُ : وَكَذَلِكَ إسْلَامُ أَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمَانَ وَمُعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِمْ وَأَنْتَ تَطْعَنُ فِي هَؤُلَاءِ إمَّا فِي إسْلَامِهِمْ ؛ وَإِمَّا فِي عَدَالَتِهِمْ . فَإِنْ قَالَ : إيمَانُ عَلِيٍّ ثَبَتَ بِثَنَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قُلْنَا لَهُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ إنَّمَا نَقَلَهَا الصَّحَابَةُ الَّذِينَ تَطْعَنُ أَنْتَ فِيهِمْ وَرُوَاةُ فَضَائِلِهِمْ : سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَائِشَةُ وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ الساعدي وَأَمْثَالُهُمْ وَالرَّافِضَةُ تَقْدَحُ فِي هَؤُلَاءِ . فَإِنْ كَانَتْ رِوَايَةُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ ضَعِيفَةً بَطَلَ كُلُّ فَضِيلَةٍ تُرْوَى لِعَلِيِّ وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّافِضَةِ حُجَّةٌ وَإِنْ كَانَتْ رِوَايَتُهُمْ صَحِيحَةً ثَبَتَتْ فَضَائِلُ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ ؛ مِمَّنْ رَوَى هَؤُلَاءِ فَضَائِلَهُ : كَأَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ . فَإِنْ قَالَ الرافضي : فَضَائِلُ عَلِيٍّ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ الشِّيعَةِ - كَمَا يَقُولُونَ : إنَّ النَّصَّ عَلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ مُتَوَاتِرٌ - قِيلَ لَهُ أَمَّا " الشِّيعَةُ " الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ الصَّحَابَةِ : فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا سَمِعُوا كَلَامَهُ وَنَقْلُهُمْ نَقْلُ مُرْسَلٍ مُنْقَطِعٍ إنْ لَمْ يُسْنِدْهُ إلَى الصَّحَابَةِ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا . وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ تُوَالِيهِمْ الرَّافِضَةُ نَفَرٌ قَلِيلٌ - بِضْعَةَ عَشَرَ وَإِمَّا نَحْوَ ذَلِكَ - وَهَؤُلَاءِ لَا يَثْبُتُ التَّوَاتُرُ بِنَقْلِهِمْ لِجَوَازِ التَّوَاطُؤِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ ، وَالْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنْ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ نَقَلُوا فَضَائِلَهُمْ تَقْدَحُ الرَّافِضَةُ فِيهِمْ ؛ ثُمَّ إذَا جَوَّزُوا عَلَى الْجُمْهُورِ الَّذِينَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ الْكَذِبَ وَالْكِتْمَانَ فَتَجْوِيزُ ذَلِكَ عَلَى نَفَرٍ قَلِيلٍ أَوْلَى وأجوز . وَأَيْضًا فَإِذَا قَالَ الرافضي : إنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَانَ قَصْدُهُمْ الرِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ فَظَلَمُوا غَيْرَهُمْ بِالْوِلَايَةِ . قَالَ لَهُمْ : هَؤُلَاءِ لَمْ يُقَاتِلُوا مُسْلِمًا عَلَى الْوِلَايَةِ وَإِنَّمَا قَاتَلُوا الْمُرْتَدِّينَ وَالْكُفَّارَ وَهُمْ الَّذِينَ كَسَرُوا كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَفَتَحُوا بِلَادَ فَارِسَ وَأَقَامُوا الْإِسْلَامَ وَأَعَزُّوا الْإِيمَانَ وَأَهْلَهُ وَأَذَلُّوا الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ . وَعُثْمَانُ هُوَ دُونَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فِي الْمَنْزِلَةِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ طَلَبُوا قَتْلَهُ وَهُوَ فِي وِلَايَتِهِ فَلَمْ يُقَاتِلْ الْمُسْلِمِينَ وَلَا قَتَلَ مُسْلِمًا عَلَى وِلَايَتِهِ ؛ فَإِنْ جَوَّزْت عَلَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ فِي وِلَايَتِهِمْ أَعْدَاءَ الرَّسُولِ : كَانَتْ حُجَّةُ الناصبي عَلَيْك أَظْهَرَ . وَإِذَا أَسَأْت الْقَوْلَ فِي هَؤُلَاءِ وَنَسَبْتهمْ إلَى الظُّلْمِ وَالْمُعَادَاةِ لِلرَّسُولِ وَطَائِفَتِهِ : كَانَ ذَلِكَ حُجَّةً

لِلْخَوَارِجِ النَّوَاصِبِ الْمَارِقِينَ عَلَيْك . فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : أَيُّمَا أَوْلَى أَنْ يُنْسَبَ إلَى طَلَبِ الرِّيَاسَةِ : مَنْ قَاتَلَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وِلَايَتِهِ - وَلَمْ يُقَاتِلْ الْكُفَّار - وَابْتَدَأَهُمْ بِالْقِتَالِ لِيُطِيعُوهُ ؛ وَهُمْ لَا يُطِيعُونَهُ وَقَتَلَ مِنْ " أَهْلِ الْقِبْلَةِ " الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ؛ وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً ؛ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ مُسْلِمًا ؛ بَلْ أَعَزُّوا أَهْلَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَنَصَرُوهُمْ وَآوَوْهُمْ أَوْ مَنْ قُتِلَ وَهُوَ فِي وِلَايَتِهِ لَمْ يُقَاتِلْ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى قُتِلَ فِي دَارِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؟ فَإِنْ جَوَّزْت عَلَى مِثْلِ هَذَا أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا لِلْمُلْكِ ظَالِمًا لِلْمُسْلِمِينَ بِوِلَايَتِهِ فَتَجْوِيزُ هَذَا عَلَى مَنْ قَاتَلَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا أَوْلَى وَأَحْرَى . وَبِهَذَا وَأَمْثَالِهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الرَّافِضَةَ أُمَّةٌ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ صَرِيحٌ ؛ وَلَا نَقْلٌ صَحِيحٌ وَلَا دِينٌ مَقْبُولٌ ؛ وَلَا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ بَلْ هُمْ مِنْ أَعْظَمِ الطَّوَائِفِ كَذِبًا وَجَهْلًا وَدِينُهُمْ يُدْخِلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كُلَّ زِنْدِيقٍ وَمُرْتَدٍّ كَمَا دَخَلَ فِيهِمْ النصيرية ؛ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ فَإِنَّهُمْ يَعْمِدُونَ إلَى خِيَارِ الْأُمَّةِ يُعَادُونَهُمْ وَإِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ يُوَالُونَهُمْ وَيَعْمِدُونَ إلَى الصِّدْقِ الظَّاهِرِ الْمُتَوَاتِرِ يَدْفَعُونَهُ وَإِلَى الْكَذِبِ الْمُخْتَلَقِ الَّذِي يُعْلَمُ فَسَادُهُ يُقِيمُونَهُ ؛ فَهُمْ كَمَا قَالَ فِيهِمْ الشَّعْبِيُّ - وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهِمْ - لَوْ كَانُوا مِنْ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمُرًا وَلَوْ كَانُوا مِنْ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا . وَلِهَذَا كَانُوا أَبْهَتَ النَّاسِ وَأَشَدَّهُمْ فِرْيَةً مِثْلَ مَا يَذْكُرُونَ عَنْ مُعَاوِيَةَ . فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّهُ أَمَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَمَّرَ غَيْرَهُ وَجَاهَدَ مَعَهُ وَكَانَ أَمِينًا عِنْدَهُ يَكْتُبُ لَهُ الْوَحْيَ وَمَا اتَّهَمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابَةِ الْوَحْيِ . وَوَلَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الَّذِي كَانَ مِنْ أَخْبَرِ النَّاسِ بِالرِّجَالِ وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَلَمْ يَتَّهِمْهُ فِي وِلَايَتِهِ . وَقَدْ وَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَاهُ أَبَا سُفْيَانَ إلَى أَنْ مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى وِلَايَتِهِ فَمُعَاوِيَةُ خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ وَأَحْسَنُ إسْلَامًا مِنْ أَبِيهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَّى أَبَاهُ فَلَأَنْ تَجُوزَ وِلَايَتُهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؛ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ قَطُّ وَلَا نَسَبَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلَى الرِّدَّةِ فَالَّذِينَ يَنْسُبُونَ هَؤُلَاءِ إلَى الرِّدَّةِ هُمْ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَامَّةَ أَهْلِ بَدْرٍ وَأَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ إلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ . وَالَّذِينَ نَسَبُوا هَؤُلَاءِ إلَى الرِّدَّةِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ مَاتَ وَوَجْهُهُ إلَى الشَّرْقِ وَالصَّلِيبُ عَلَى وَجْهِهِ وَهَذَا مِمَّا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْكَذِبِ وَالْفِرْيَةِ عَلَيْهِ . وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ هَذَا فِيمَنْ هُوَ دُونَ مُعَاوِيَةَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِيِّ الْعَبَّاسِ كَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَوْلَادِهِ وَأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَوَلَدَيْهِ - الْمُلَقَّبَيْنِ بِالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي - وَالرَّشِيدِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا الْخِلَافَةَ وَأَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَمَنْ نَسَبَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ إلَى الرِّدَّةِ وَإِلَى أَنَّهُ مَاتَ عَلَى دِينِ النَّصَارَى لَعَلِمَ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِرْيَةً فَكَيْفَ يُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي مُعَاوِيَةَ وَأَمْثَالِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ . بَلْ يَزِيدُ ابْنُهُ مَعَ مَا أَحْدَثَ مِنْ الْأَحْدَاثِ مَنْ قَالَ فِيهِ : إنَّهُ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ فَقَدْ افْتَرَى عَلَيْهِ . بَلْ كَانَ

مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ كسَائِرِ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ وَأَكْثَرُ الْمُلُوكِ لَهُمْ حَسَنَاتٌ وَلَهُمْ سَيِّئَاتٌ وَحَسَنَاتُهُمْ عَظِيمَةٌ وَسَيِّئَاتُهُمْ عَظِيمَةٌ فَالطَّاعِنُ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ نُظَرَائِهِ إمَّا جَاهِلٌ وَإِمَّا ظَالِمٌ . وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ مَا لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ تَابَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُعَاقِبُهُ لِسَيِّئَاتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ فِيهِ شَفَاعَةَ نَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الشُّفَعَاءِ فَالشَّهَادَةُ لِوَاحِدِ مِنْ هَؤُلَاءِ بِالنَّارِ هُوَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ . وَكَذَلِكَ قَصْدُ لَعْنَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِعَيْنِهِ لَيْسَ هُوَ مِنْ أَعْمَالِ الصَّالِحِينَ وَالْأَبْرَارِ . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَةَ وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَسَاقِيَهَا وَشَارِبَهَا وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا } " . وَصَحَّ عَنْهُ : { أَنَّهُ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يُكْثِرُ شُرْبَهَا يُدْعَى حِمَارًا وَكَانَ كُلَّمَا أُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَدَهُ فَأُتَى بِهِ إلَيْهِ لِيَجْلِدَهُ فَقَالَ رَجُلٌ : لَعَنَهُ اللَّهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } " . وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَارِبَ الْخَمْرِ عُمُومًا وَنَهَى عَنْ لَعْنَةِ الْمُؤْمِنِ الْمُعَيَّنِ . كَمَا أَنَّا نَقُولُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا } فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدِ أَنْ يَشْهَدَ لِوَاحِدِ بِعَيْنِهِ أَنَّهُ فِي النَّارِ لِإِمْكَانِ أَنْ يَتُوبَ أَوْ يَغْفِرَ لَهُ اللَّهُ بِحَسَنَاتِ مَاحِيَةٍ أَوْ مَصَائِبَ مُكَفِّرَةٍ أَوْ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ أَوْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ . فَهَكَذَا الْوَاحِدُ مِنْ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَانَ صَدَرَ مِنْهُ مَا هُوَ ظُلْمٌ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ أَنْ تَلْعَنَهُ وَتَشْهَدَ لَهُ بِالنَّارِ . وَمَنْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ ؛ فَكَيْفَ إذَا كَانَ لِلرَّجُلِ حَسَنَاتٌ عَظِيمَةٌ يُرْجَى لَهُ بِهَا الْمَغْفِرَةُ مَعَ ظُلْمِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { أَوَّلُ جَيْشٍ يَغْزُو قُسْطَنْطِينِيَّةَ مَغْفُورٌ لَهُ } " وَأَوَّلُ جَيْشٍ غَزَاهَا كَانَ أَمِيرُهُمْ " يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ " وَكَانَ مَعَهُ فِي الْغُزَاةِ أَبُو أَيُّوبٍ الْأَنْصَارِيُّ وَتُوُفِّيَ هُنَاكَ وَقَبْرُهُ هُنَاكَ إلَى الْآنِ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُقْتَصِدُونَ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ يَقُولُونَ فِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ : إنَّا لَا نَسُبُّهُمْ وَلَا نُحِبُّهُمْ أَيْ لَا نُحِبُّ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلْمٍ . وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ يَجْتَمِعُ فِيهِ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ وَطَاعَاتٌ وَمَعَاصٍ وَبِرٌّ وَفُجُورٌ وَشَرٌّ فَيُثِيبُهُ اللَّهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ إنْ شَاءَ أَوْ يَغْفِرُ لَهُ وَيُحِبُّ مَا فَعَلَهُ مِنْ الْخَيْرِ وَيُبْغِضُ مَا فَعَلَهُ مِنْ الشَّرِّ . فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ صَغَائِرَ فَقَدْ وَافَقَتْ الْمُعْتَزِلَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا . وَأَمَّا صَاحِبُ الْكَبِيرَةِ فَسَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَسَائِرُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَشْهَدُونَ لَهُ بِالنَّارِ بَلْ يُجَوِّزُونَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } فَهَذِهِ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ فَإِنَّهُ قَيَّدَهَا بِالْمَشِيئَةِ وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } فَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ تَابَ وَلِذَلِكَ أَطْلَقَ وَعَمَّ . وَالْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ : إنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ يَخْلُدُ فِي النَّارِ ثُمَّ إنَّهُمْ قَدْ يَتَوَهَّمُونَ

فِي بَعْضِ الْأَخْيَارِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ كَمَا تَتَوَهَّمُ الْخَوَارِجُ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأَتْبَاعِهِمَا أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ ذَلِكَ فِي مِثْلِ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بْنِ العاص وَأَمْثَالِهِمَا وَيَبْنُونَ مَذَاهِبَهُمْ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ بَاطِلَتَيْنِ : (إحْدَاهُمَا : أَنَّ فُلَانًا مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ . (وَالثَّانِيَةُ : أَنَّ كُلَّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ يَخْلُدُ فِي النَّارِ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ بَاطِلٌ . وَأَمَّا الثَّانِي فَبَاطِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ وَقَدْ يَتَوَقَّفُ فِيهِ . وَمَنْ قَالَ عَنْ مُعَاوِيَةَ وَأَمْثَالِهِ ؛ مِمَّنْ ظَهَرَ إسْلَامُهُ وَصَلَاتُهُ وَحَجُّهُ وَصِيَامُهُ أَنَّهُ لَمْ يُسْلِمْ وَأَنَّهُ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ كَمَا لَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ ذَلِكَ فِي الْعَبَّاسِ وَجَعْفَرٍ وَعَقِيلٍ وَفِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ . وَكَمَا لَوْ ادَّعَى أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ لَيْسَا وَلَدَيْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إنَّمَا هُمَا أَوْلَادُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَلَوْ ادَّعَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ ابْنَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَمْ يُزَوِّجْ بِنْتَيْهِ عُثْمَانَ ؛ بَلْ إنْكَارُ إسْلَامِ مُعَاوِيَةَ أَقْبَحُ مِنْ إنْكَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَا يَعْرِفُهُ إلَّا الْعُلَمَاءُ . وَأَمَّا إسْلَامُ مُعَاوِيَةَ وَوِلَايَتُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْإِمَارَةِ وَالْخِلَافَةِ فَأَمْرٌ يَعْرِفُهُ جَمَاهِيرُ الْخَلْقِ وَلَوْ أَنْكَرَ مُنْكِرٌ إسْلَامَ عَلِيٍّ أَوْ ادَّعَى بَقَاءَهُ عَلَى الْكُفْرِ ؛ لَمْ يُحْتَجَّ عَلَيْهِ إلَّا بِمِثْلِ مَا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إسْلَامَ أَبِي بَكْرٍ ؛ وَعُمَرَ ؛ وَعُثْمَانَ وَمُعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِمْ . وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ فَتَفَاضُلُهُمْ لَا يَمْنَعُ اشْتِرَاكَهُمْ فِي ظُهُورِ إسْلَامِهِمْ . وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : إيمَانُ مُعَاوِيَةَ كَانَ نِفَاقًا ؛ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ الْكَذِبِ الْمُخْتَلَقِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ اتَّهَمَ مُعَاوِيَةَ بِالنِّفَاقِ ؛ بَلْ الْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى حُسْنِ إسْلَامِهِ ؛ وَقَدْ تَوَقَّفَ بَعْضُهُمْ فِي حُسْنِ إسْلَامِ أَبِي سُفْيَانَ - أَبِيهِ - وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ ؛ وَأَخُوهُ يَزِيدُ فَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي حُسْنِ إسْلَامِهِمَا كَمَا لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي حُسْنِ إسْلَامِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ وَكَيْفَ يَكُونُ رَجُلًا مُتَوَلِّيًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَرْبَعِينَ سَنَةً نَائِبًا وَمُسْتَقِلًّا يُصَلِّي بِهِمْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَيَخْطُبُ وَيَعِظُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُ فِيهِمْ الْحُدُودَ وَيَقْسِمُ بَيْنَهُمْ فَيْأَهُمْ وَمَغَانِمَهُمْ وَصَدَقَاتِهِمْ وَيَحُجُّ بِهِمْ وَمَعَ هَذَا يُخْفِي نِفَاقَهُ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ ؟ وَفِيهِمْ مِنْ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ . بَلْ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - لَمْ يَكُنْ مِنْ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ وِلَايَةٌ عَامَّةٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ أَحَدٌ يُتَّهَمُ بِالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ وَبَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يُنْسَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلَى الزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْسَبُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إلَى نَوْعٍ مِنْ الْبِدْعَةِ أَوْ نَوْعٍ مِنْ الظُّلْمِ لَكِنْ لَمْ يُنْسَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلَى زَنْدَقَةٍ وَنِفَاقٍ . وَإِنَّمَا كَانَ الْمَعْرُوفُونَ بِالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ بَنِي عُبَيْدٍ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَوِيُّونَ وَإِنَّمَا كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ الْكُفَّارِ فَهَؤُلَاءِ قَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى رَمْيِهِمْ بِالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ وَكَذَلِكَ رُمِيَ بِالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ قَوْمٌ مِنْ مُلُوكِ النَّوَاحِي الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي بويه وَغَيْرِ بَنِي بويه ؛ فَأَمَّا خَلِيفَةٌ عَامُّ الْوِلَايَةِ فِي الْإِسْلَامِ فَقَدْ طَهَّرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ وَلِيُّ أَمْرِهِمْ زِنْدِيقًا مُنَافِقًا فَهَذَا مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ وَيُعْرَفَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ فِي هَذَا الْبَابِ . وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَفْضَلُ مُلُوكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّ

الْأَرْبَعَةَ قَبْلَهُ كَانُوا خُلَفَاءَ نُبُوَّةٍ وَهُوَ أَوَّلُ الْمُلُوكِ ؛ كَانَ مُلْكُهُ مُلْكًا وَرَحْمَةً كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : " { يَكُونُ الْمُلْكُ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ ثُمَّ يَكُونُ مُلْكٌ وَرَحْمَةٌ ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبْرِيَّةٌ ثُمَّ مُلْكٌ عَضُوضٌ } " وَكَانَ فِي مُلْكِهِ مِنْ الرَّحْمَةِ وَالْحِلْمِ وَنَفْعِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ خَيْرًا مِنْ مُلْكِ غَيْرِهِ . وَأَمَّا مَنْ قَبْلَهُ فَكَانُوا خُلَفَاءَ نُبُوَّةٍ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { تَكُونُ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ثُمَّ تَصِيرُ مُلْكًا } " وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ } " . وَقَدْ تَنَازَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ ؛ وَقَالُوا : زَمَانُهُ زَمَانُ فِتْنَةٍ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ جَمَاعَةٌ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَصِحُّ أَنْ يُوَلَّى خَلِيفَتَانِ فَهُوَ خَلِيفَةٌ وَمُعَاوِيَةُ خَلِيفَةٌ ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَمْ تَتَّفِقْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْتَظِمْ فِي خِلَافَتِهِ . وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ : أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَزَمَانُ عَلِيٍّ كَانَ يُسَمِّي نَفْسَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالصَّحَابَةُ تُسَمِّيهِ بِذَلِكَ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : " مَنْ لَمْ يُرَبِّعْ بِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْخِلَافَةِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ " وَمَعَ هَذَا فَلِكُلِّ خَلِيفَةٍ مَرْتَبَةٌ . فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لَا يُوَازِنُهُمَا أَحَدٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ } " وَلَمْ يَكُنْ نِزَاعٌ بَيْنَ شِيعَةِ عَلِيٍّ الَّذِينَ صَحِبُوهُ فِي تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَالَ : لَا أُوتَى بِرَجُلِ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلَّا جَلَدْته حَدَّ الْمُفْتَرِي . وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَكِنْ ثَبَتَ تَقْدِيمُ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ بِاتِّفَاقِ السَّابِقِينَ عَلَى مُبَايَعَةِ (عُثْمَانَ طَوْعًا بِلَا كُرْهٍ ؛ بَعْدَ أَنْ جَعَلَ عُمَرُ الشُّورَى فِي سِتَّةٍ : عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . وَتَرَكَهَا " ثَلَاثَةٌ " وَهُمْ : طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ . فَبَقِيَتْ فِي " ثَلَاثَةٍ " عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ . فَوُلِّيَ أَحَدُهُمَا فَبَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْدِلُوا بِعُثْمَانَ . وَنَقْلَ وَفَاتُهُ وَوِلَايَتُهُ : حَدِيثٌ طَوِيلٌ فَمَنْ أَرَادَهُ فَعَلَيْهِ بِأَحَادِيثِ الثِّقَاتِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ .[130]

==================

رأيه فيمن يلعن معاوية رضي الله عنه وهل هوباغي ؟

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ يَلْعَنُ " مُعَاوِيَةَ " فَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ ، وَهِيَ إذَا { اقْتَتَلَ خَلِيفَتَانِ فَأَحَدُهُمَا مَلْعُونٌ } ؟ وَأَيْضًا { إنَّ عَمَّارًا تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ } وَقَتَلَهُ عَسْكَرُ مُعَاوِيَةَ ؟ وَهَلْ سَبُّوا أَهْلَ الْبَيْتِ ؟ أَوْ قَتَلَ الْحَجَّاجُ شَرِيفًا ؟

الْجَوَابُ

---

[130] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 1 / ص 390) فما بعد

فَأَجَابَ : الحَمْدُ لِلَّهِ ، مَنْ لَعَنَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كمعاوية بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَمْرِو بْنِ العاص وَنَحْوِهِمَا ؛ وَمَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ : كَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَنَحْوِهِمَا ؛ أَوْ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ كَطَلْحَةَ ، وَالزُّبَيْرِ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَوْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَعُمَرَ ، أَوْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ الْبَلِيغَةِ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ . وَتَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ : هَلْ يُعَاقَبُ بِالْقَتْلِ ؟ أَوْ مَا دُونَ الْقَتْلِ ؟ كَمَا قَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ } . وَاللَّعْنَةُ أَعْظَمُ مِنْ السَّبِّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ } فَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعْنَ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ . وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِيَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ } وَكُلُّ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنًا بِهِ فَلَهُ مِنْ الصُّحْبَةِ بِقَدْرِ ذَلِكَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَغْزُو جَيْشٌ ، فَيَقُولُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ . فَيُفْتَحُ لَهُمْ . ثُمَّ يَغْزُو جَيْشٌ فَيَقُولُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ ، نَعَمْ . فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، وَذَكَرَ الطَّبَقَةَ الثَّالِثَةَ } فَعَلَّقَ الْحُكْمَ بِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا عَلَّقَهُ بِصُحْبَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ " الصُّحْبَةِ " فِيهِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ : كَانَ مَنْ اخْتَصَّ مِنْ الصَّحَابَةِ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ يُوصَفُ بِتِلْكَ الصُّحْبَةِ ، دُونَ مَنْ لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهَا ، { قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَقَدِّمِ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لَمَّا اخْتَصَمَ هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ : يَا خَالِدُ لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ } فَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ هُوَ وَأَمْثَالُهُ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا قَبْلَ الْفَتْحِ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ وَأَنْفَقُوا وَقَاتَلُوا دُونَ أُولَئِكَ ، قَالَ تَعَالَى : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } وَالْمُرَادُ " بِالْفَتْحِ " فَتْحُ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا بَايَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَكَانَ الَّذِينَ بَايَعُوهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا خَيْبَرَ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } . " وَسُورَةُ الْفَتْحِ " الَّذِي فِيهَا ذَلِكَ أَنْزَلَهَا اللَّهُ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ مَكَّةُ ؛ بَلْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَدْ بَايَعَ أَصْحَابَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ الْهِجْرَةِ ، وَصَالَحَ الْمُشْرِكِينَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ الْمَشْهُورَ ، وَبِذَلِكَ الصُّلْحِ حَصَلَ مِنْ الْفَتْحِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ ؛ مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ كَرِهَهُ خَلْقٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَلَمْ

يَعْلَمُوا مَا فِيهِ مِنْ حُسْنِ العَاقِبَةِ حَتَّى قَالَ سَهْلُ بْنُ حنيف : أَيُّهَا النَّاسُ اتهمُوا الرَّأْيَ ، فَقَدْ رَأَيْتنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ لرَدَدْت . رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ العَامِ القَابِلِ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَخَلَ هُوَ وَمَنْ اعْتَمَرَ مَعَهُ مَكَّةَ مُعْتَمِرِينَ ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَوْمئِذٍ مَعَ المُشْرِكِينَ ؛ وَلَمَّا كَانَ فِي العَامِ الثَّامِنِ فَتَحَ مَكَّةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؛ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الفَتْحِ : { لَتَدْخُلُنّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا } فَوَعَدَهُمْ فِي سُورَةِ الفَتْحِ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ آمَنِينَ ؛ وَأَنْجَزَ مَوْعِدَهُ مِنْ العَامِ الثَّانِي ، وَأَنْزَلَ فِي ذَلِك : { الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ } وَذَلِك كُلّهُ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ . فَمَنْ توَهّمَ أَنّ " سُورَةَ الفَتْحِ " نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا بَيِّنًا . " وَالمَقْصُودُ " أَنّ أُولَئِكَ الذِينَ صَحِبُوهُ قَبْلَ الفَتْحِ اخْتَصُّوا مِنْ الصُّحْبَةِ بِمَا اسْتَحَقُّوا بِهْ التَّفْضِيلَ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، حَتَّى قَالَ لِخَالِدِ : { لَا تسُبُّوا أَصْحَابِي } فَإِنّهُمْ صَحِبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَصْحَبَهُ خَالِدٌ وَأَمْثَالُهُ . وَلَمَّا كَانَ " لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَزِيّةِ الصُّحْبَةِ مَا تمَيّزَ بِهْ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ خَصّهُ بِذَلِك فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، الذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الدّرْدَاءِ ، أنّهُ { كَانَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَلَامٌ ، فَطَلَبَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ عُمَرَ أَنّ يَسْتَغْفِرَ لَهُ فَامْتَنَعَ عُمَرُ ، وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَرَى ، ثُمّ إنّ عُمَرَ ندِمَ ، فَخَرَجَ يَطْلُبُ أَبَا بَكْرٍ فِي بَيْتِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنّهُ كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا جَاءَ عُمَرُ أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْضَبُ لِأَبِي بَكْرٍ ؛ وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إنّي جِئْت إلَيْكُمْ فَقُلْت : إنّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ كَذَبْت ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْت فَهَلْ أَنْتُمْ تارِكُو لِي صَاحِبِي فَهَلْ أَنْتُمْ تارِكُو لِي صَاحِبِي } فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا . فَهُنَا خَصّهُ بِاسْمِ الصُّحْبَةِ ، كَمَا خَصّهُ بِهْ القُرْآنُ فِي قَوْله تعَالَى { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تحْزَنْ إنّ اللَّهَ مَعَنَا } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إنّ عَبْدًا خَيّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَاخْتَارَ ذَلِك العَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : بَلْ نَفْدِيك بِأَنْفُسِنَا ؛ وَأَمْوَالِنَا . قَالَ : فَجَعَلَ النَّاسُ يَعْجَبُونَ أَنْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا خَيّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ المُخَيّرَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنّ أَمَنّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْت مُتّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ؛ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي ، سُدُّوا كُلّ خَوْخَةٍ فِي المَسْجِدِ إلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ } وَهَذَا مِنْ أَصَحّ حَدِيثٍ يَكُونُ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ العَارِفِينَ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْعَالِهِ ، وَأَحْوَالِهِ " وَالمَقْصُودُ " أَنّ الصُّحْبَةَ فِيهَا خُصُوصٌ وَعُمُومٌ ، وَعُمُومُهَا يَنْدَرِجُ فِيهِ كُلُّ مَنْ رَآهُ مُؤْمِنًا بِهْ ، وَلِهَذَا يُقَال صَحِبْته سَنَةً ؛ وَشَهْرًا ، وَسَاعَةً ، وَنَحْوَ ذَلِك . و " مُعَاوِيَةُ ، وَعَمْرُو بْنُ العاص ، وَأَمْثَالُهُمْ " مِنْ المُؤْمِنِينَ ؛ لَمْ يَتّهِمْهُمْ أَحَدٌ مِنْ السّلَفِ بِنِفَاقِ ؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ أَنّ { عَمْرَو بْنَ

العاص لمّا بَايَعَ النّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : عَلَى أَنْ يُغْفَرَ لِي مَا تقدّمَ مِنْ ذَنْبِي . فَقَالَ : يَا عَمْرُو أَمَا عَلِمْت أَنّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ } وَمَعْلُومٌ أَنّ الإِسْلَامَ الهَادِمَ هُوَ إسْلَامُ المُؤْمِنِينَ ؛ لَا إسْلَامُ المُنَافِقِينَ . وَأَيْضًا فَعَمْرُو بْنُ العاص وَأَمْثَالُهُ مِمّنْ قَدِمَ مُهَاجِرًا إلَى النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعْدَ الحُدَيْبِيَةِ هَاجَرُوا إلَيْهِ مِنْ بِلَادِهِمْ طَوْعًا لَا كَرْهًا ، وَالمُهَاجِرُونَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مُنَافِقٌ ؛ وَإِنّمَا كَانَ النّفَاقُ فِي بَعْضِ مَنْ دَخَلَ مِنْ الأَنْصَارِ ؛ وَذَلِك أَنّ الأَنْصَارَ هُمْ أَهْلُ المَدِينَةِ ؛ فَلَمّا أَسْلَمَ أَشْرَافُهُمْ وَجُمْهُورُهُمْ احْتَاجَ البَاقُونَ أَنْ يُظْهِرُوا الإِسْلَامَ نِفَاقًا ؛ لِعِزّ الإِسْلَامِ وَظُهُورِهِ فِي قَوْمِهِمْ . وَأَمّا أَهْلُ مَكّةَ فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ وَجُمْهُورُهُمْ كُفّارًا فَلَمْ يَكُنْ يُظْهِرُ الإِيمَانَ إلّا مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَإِنّهُ كَانَ مِنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ يُؤْذَى وَيُهْجَرُ ؛ وَإِنّمَا المُنَافِقُ يُظْهِرُ الإِسْلَامَ لِمَصْلَحَةِ دُنْيَاهُ . وَكَانَ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ بِمَكّةَ يَتَأَذّى فِي دُنْيَاهُ ؛ ثُمّ لَمّا هَاجَرَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى المَدِينَةِ هَاجَرَ مَعَهُ أَكْثَرُ المُؤْمِنِينَ ، وَمُنِعَ بَعْضُهُمْ مِنْ الهِجْرَةِ إلَيْهِ ، كَمَا مُنِعَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ مِثْلُ الوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ أَخُو خَالِدٍ أَخُو أَبِي جَهْلٍ لِأُمّهِ ؛ وَلِهَذَا { كَانَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقْنُتُ لِهَؤُلَاءِ وَيَقُولُ فِي قُنُوتِهِ : اللّهُمّ نَجّ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، و المستضعفين مِنْ المُؤْمِنِينَ . اللّهُمّ اُشْدُدْ وَطْأَتك عَلَى مُضَرَ ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سنينا كَسِنِي يُوسُفَ } . وَالمُهَاجِرُونَ مِنْ أَوّلِهِمْ إلَى آخِرِهِمْ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ اتّهَمَهُ أَحَدٌ بِالنّفَاقِ ؛ بَلْ كُلّهُمْ مُؤْمِنُونَ مَشْهُودٌ لَهُمْ بِالإِيمَانِ { وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ } . وَأَمّا " مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَأَمْثَالُهُ " مِنْ الطّلَقَاءِ الّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ فَتْحِ مَكّةَ : كَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيّةَ ، وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطّلِبِ ؛ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ مِمّنْ حَسُنَ إسْلَامُهُمْ بِاتّفَاقِ المُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يُتّهَمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِك بِنِفَاقِ . { وَمُعَاوِيَةُ قَدْ اسْتَكْتَبَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَالَ : اللّهُمّ عَلّمْهُ الكِتَابَ وَالحِسَابَ ، وَقِهِ العَذَابَ } . وَكَانَ أَخُوهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ خَيْرًا مِنْهُ وَأَفْضَلَ ، وَهُوَ أَحَدُ الأُمَرَاءِ الّذِينَ بَعَثَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي فَتْحِ الشّامِ ، وَوَصّاهُ بِوَصِيّةٍ مَعْرُوفَةٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ مَاشٍ ، وَيَزِيدُ رَاكِبٌ ، فَقَالَ لَهُ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ إمّا أَنْ تركبَ وَإِمّا أَنْ أَنْزِلَ ، فَقَالَ : لَسْت بِرَاكِبِ ، وَلَسْت بِنَازِلِ . إنّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ فِي سَبِيلِ اللهِ . وَكَانَ عَمْرُو بْنُ العاص هُوَ الأَمِيرَ الآخَرَ وَالثّالِثُ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ ، وَالرّابِعُ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ ، وَهُوَ أَمِيرُهُمْ المُطْلَقُ ، ثُمّ عَزَلَهُ عُمَرُ ، وَوَلّى أَبَا عُبَيْدَةَ عَامِرَ بْنَ الجَرّاحِ ، الّذِي ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ شَهِدَ لَهُ أَنّهُ أَمِينُ هَذِهِ الأُمّةِ فَكَانَ فَتْحُ الشّامِ عَلَى يَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ ، وَفَتْحُ العِرَاقِ عَلَى يَدِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقّاصٍ . ثُمّ لَمّا مَاتَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ اسْتَعْمَلَ أَخَاهُ مُعَاوِيَةَ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ مِنْ أَعْظَمِ النّاسِ فِرَاسَةً ، وَأَخْبَرِهِمْ بِالرّجَالِ ، وَأَقْوَمِهِمْ بِالحَقّ ، وَأَعْلَمِهِمْ بِهِ ، حَتّى قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كُنّا نَتَحَدّثُ أَنّ السّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ . وَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ { إنّ اللهَ ضَرَبَ الحَقّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ } وَقَالَ : { لَوْ لَمْ أُبْعَثْ

فِيكُمْ لَبُعِثَ فِيكُمْ عُمَرُ } وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَا سَمِعْت عُمَرَ يَقُولُ فِي الشَّيْءِ إنِّي لَأَرَاهُ كَذَا وَكَذَا إلَّا كَانَ كَمَا رَآهُ . وَقَدْ { قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَآك الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّك } . وَلَا اسْتَعْمَلَ عُمَرُ قَطُّ ؛ بَلْ وَلَا أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ : مُنَافِقًا ، وَلَا اسْتَعْمَلَا مِنْ أَقَارِبِهِمَا ، وَلَا كَانَ تَأْخُذُهُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ؛ بَلْ لَمَّا قَاتَلَا أَهْلَ الرِّدَّةِ وَأَعَادُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ مَنَعُوهُمْ رُكُوبَ الْخَيْلِ وَحَمْلَ السِّلَاحِ حَتَّى تَظْهَرَ صِحَّةُ تَوْبَتِهِمْ ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ : لَا تَسْتَعْمِلْ أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَلَا تُشَاوِرْهُمْ فِي الْحَرْبِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا أُمَرَاءَ أَكَابِرَ : مِثْلَ طليحة الأسدي ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ، وعيينة بْنِ حِصْنٍ ، وَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيِّ ، وَأَمْثَالِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لَمَّا تَخَوَّفَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ نَوْعَ نِفَاقٍ لَمْ يُوَلِّهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .
فَلَوْ كَانَ " عَمْرُو بْنُ العاص " وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَأَمْثَالُهُمَا " مِمَّنْ يُتَخَوَّفُ مِنْهُمَا النِّفَاقُ لَمْ يُوَلَّوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ بَلْ عَمْرُو بْنُ العاص قَدْ أَمَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُوَلِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مُنَافِقًا ، { وَقَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَى نَجْرَانَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَبَا مُعَاوِيَةَ ، وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو سُفْيَانَ نَائِبُهُ عَلَى نَجْرَانَ } وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ إسْلَامَ مُعَاوِيَةَ خَيْرٌ مِنْ إسْلَامِ أَبِيهِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ مُنَافِقِينَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتَمِنُهُمْ عَلَى أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرَو بْنَ العاص وَغَيْرَهُمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْفِتَنِ مَا كَانَ ، وَلَمْ يَتَّهِمْهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ ، لَا مُحَارِبُوهُمْ ، وَلَا غَيْرُ مُحَارِبِيهِمْ : بِالْكَذِبِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ جَمِيعُ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ صَادِقُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، مَأْمُونُونَ عَلَيْهِ فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُ ، وَالْمُنَافِقُ غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ هُوَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ ، مُكَذِّبٌ لَهُ . وَإِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ، مُحِبِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ : فَمَنْ لَعَنَهُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مَا مَعْنَاهُ : { أَنَّ رَجُلًا يُلَقَّبُ حِمَارًا ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَكَانَ كُلَّمَا شَرِبَ أُتِيَ بِهِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَدَهُ فَأُتِيَ بِهِ إلَيْهِ مَرَّةً ، فَقَالَ رَجُلٌ : لَعَنَهُ اللَّهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تلعنُوهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } . وَكُلُّ مُؤْمِنٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ لَمْ يُحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنِ ، وَإِنْ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ حُبٍّ وَغَيْرِهِ .
هَذَا مَعَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَعَنَ الْخَمْرَ ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إلَيْهِ ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا } وَقَدْ نَهَى عَنْ لَعْنَةِ هَذَا الْمُعَيَّنِ ، لِأَنَّ اللَّعْنَةَ مِنْ " بَابِ الْوَعِيدِ " فَيُحْكَمُ بِهِ عُمُومًا وَأَمَّا الْمُعَيَّنُ فَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْوَعِيدُ لِتَوْبَةِ صَحِيحَةٍ ، أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ أَوْ مَصَائِبَ مُكَفِّرَةٍ ، أَوْ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي ضَرَرُهَا يَرْفَعُ الْعُقُوبَةَ عَنْ الْمُذْنِبِ . فَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَهُ ذَنْبٌ مُحَقَّقٌ . وَكَذَلِكَ " حَاطِبُ بْنُ أَبِي بلتعة " فَعَلَ مَا فَعَلَ وَكَانَ يُسِيءُ إلَى مَمَالِيكِهِ حَتَّى ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ { غُلَامَهُ

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ لَيَدْخُلَنّ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بلتعة النّارَ . قَالَ : كَذَبْت ، إنّهُ شَهِدَ بَدْرًا ؛ وَالحُدَيْبِيَةَ } . وَفِي الصّحِيحِ عَنْ { عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَرْسَلَهُ وَالزّبَيْرَ بْنَ العَوّامِ ، وَقَالَ لَهُمَا : ائْتِيَا رَوْضَةَ خاخ ، فَإِنّ بِهَا ظَعِينَةً ، وَمَعَهَا كِتَابٌ قَالَ عَلِيّ : فَانطَلَقنَا تتَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتّى لَقِينَا الظّعِينَةَ ، فَقُلنَا : أَيْنَ الكِتَابُ ؟ فَقَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ . فَقُلنَا لَهَا : لتخرجن الكِتَابَ ، أَوْ لنُلقِيَنّ الثّيَابَ ، قَالَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا ، فَأَتَيْنَا بِهِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِذَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبٍ إلَى بَعْضِ المُشْرِكِينَ بِمَكّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا هَذَا يَا حَاطِبُ فَقَالَ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا فَعَلت هَذَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضَاءً بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ ؛ وَلَكِنْ كُنْت امْرَأً مُلصَقًا فِي قُرَيْشٍ ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مَنْ مَعَك مِنْ المُسْلِمِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهِمْ أَهَالِيهِمْ بِمَكّةَ ، فَأَحْبَبْت إذْ فَاتَنِي ذَلِك مِنْهُمْ أَنْ أَتّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَفِي لَفْظٍ : وَعَلِمْت أَنّ ذَلِك لَا يَضُرُّك . يَعْنِي لِأَنّ اللهَ يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا . فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ . فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيك أَنّ اللهَ قَدْ اطّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَهُمْ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ } فَهَذِهِ السّيّئَةُ العَظِيمَةُ غَفَرَهَا اللهُ لَهُ بِشُهُودِ بَدْرٍ . فَدَلّ ذَلِك عَلَى أَنّ الحَسَنَةَ العَظِيمَةَ يَغْفِرُ اللهُ بِهَا السّيّئَةَ العَظِيمَةَ ، وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِالوَعْدِ وَالوَعِيدِ ، لِقَوْلِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ { مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إلَهَ إلّا اللهُ دَخَلَ الجَنّةَ } وَأَمْثَالَ ذَلِك ؛ مَعَ قَوْلِهِ : { إنّ الّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا إنّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } وَلِهَذَا لَا يُشْهَدُ لِمُعَيّنٍ بِالجَنّةِ إلّا بِدَلِيلٍ خَاصٍّ ، وَلَا يُشْهَدُ عَلَى مُعَيّنٍ بِالنّارِ إلّا بِدَلِيلٍ خَاصٍّ ؛ وَلَا يُشْهَدُ لَهُمْ بِمُجَرّدِ الظّنّ مِنْ انْدِرَاجِهِمْ فِي العُمُومِ ؛ لِأَنّهُ قَدْ يَنْدَرِجُ فِي العمومين فَيَسْتَحِقُّ الثّوَابَ وَالعِقَابَ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } { وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَهُ } وَالعَبْدُ إذَا اجْتَمَعَ لَهُ سَيِّئَاتٌ وَحَسَنَاتٌ فَإِنّهُ وَإِنْ اسْتَحَقّ العِقَابَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَإِنّ اللهَ يُثِيبُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ، وَلَا يُحْبِطُ حَسَنَاتِ المُؤْمِنِ لِأَجْلِ مَا صَدَرَ مِنْهُ ؛ وَإِنّمَا يَقُولُ بِحُبُوطِ الحَسَنَاتِ كُلِّهَا بِالكَبِيرَةِ الخَوَارِجُ وَالمُعْتَزِلَةُ الّذِينَ يَقُولُونَ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ الكَبَائِرِ ، وَأَنّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَأَنّ صَاحِبَ الكَبِيرَةِ لَا يَبْقَى مَعَهُ مِنْ الإِيمَانِ شَيْءٌ . وَهَذِهِ أَقْوَالٌ فَاسِدَةٌ ، مُخَالِفَةٌ لِلكِتَابِ ، وَالسُّنّةِ المُتَوَاتِرَةِ ، وَإِجْمَاعِ الصّحَابَةِ . وَسَائِرُ أَهْلِ السُّنّةِ وَالجَمَاعَةِ وَأَئِمّةُ الدّينِ لَا يَعْتَقِدُونَ عِصْمَةَ أَحَدٍ مِنْ الصّحَابَةِ وَلَا القَرَابَةِ وَلَا السّابِقِينَ وَلَا غَيْرِهِمْ ؛ بَلْ يَجُوزُ عِنْدَهُمْ وُقُوعُ الذّنُوبِ مِنْهُمْ ، وَاللهُ تَعَالَى يَغْفِرُ لَهُمْ بِالتّوْبَةِ ، وَيَرْفَعُ بِهَا دَرَجَاتِهِمْ ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ بِحَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِك مِنْ الأَسْبَابِ ، قَالَ تَعَالَى : { وَالّذِي جَاءَ بِالصّدْقِ وَصَدّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المُتّقُونَ } { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ } { لِيُكَفّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { حَتّى إذَا بَلَغَ أَشُدّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيّ

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إنِّي تُبْتُ إلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ } . وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ هُمْ الَّذِينَ قَالَ الْعُلَمَاءُ : إنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ الْإِصْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ . فَأَمَّا الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ ؛ وَالصَّالِحُونَ : فَلَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ . وَهَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ . وَأَمَّا مَا اجْتَهَدُوا فِيهِ : فَتَارَةً يُصِيبُونَ ، وَتَارَةً يُخْطِئُونَ . فَإِذَا اجْتَهَدُوا فَأَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدُوا وَأَخْطَئُوا فَلَهُمْ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ ، وَخَطَؤُهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ . وَأَهْلُ الضَّلَالِ يَجْعَلُونَ الْخَطَأَ وَالْإِثْمَ مُتَلَازِمَيْنِ : فَتَارَةً يَغْلُونَ فِيهِمْ ؛ وَيَقُولُونَ : إنَّهُمْ مَعْصُومُونَ . وَتَارَةً يَجْفُونَ عَنْهُمْ ؛ وَيَقُولُونَ : إنَّهُمْ بَاغُونَ بِالْخَطَأِ . وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ لَا يُعَصِّمُونَ ، وَلَا يؤثمون . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَوَلَّدَ كَثِيرٌ مِنْ فِرَقِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ . فَطَائِفَةٌ سَبَّتْ السَّلَفَ وَلَعَنَتْهُمْ ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذُنُوبًا ، وَأَنَّ مَنْ فَعَلَهَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَةَ ؛ بَلْ قَدْ يُفَسِّقُونَهُمْ ؛ أَوْ يُكَفِّرُونَهُمْ ، كَمَا فَعَلَتْ الْخَوَارِجُ الَّذِينَ كَفَّرُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَعُثْمَانَ بْنَ عفان ، وَمَنْ تَوَلَّاهُمَا ، وَلَعَنُوهُمْ ، وَسَبُّوهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا قِتَالَهُمْ . وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ } وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى فِرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ لِأَجْلِ الْحَقِّ } وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمَارِقَةُ الَّذِينَ مَرَقُوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَفَّرُوا كُلَّ مَنْ تَوَلَّاهُ . وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٍ مَعَ عَلِيٍّ ، وَفِرْقَةٍ مَعَ مُعَاوِيَةَ . فَقَاتَلَ هَؤُلَاءِ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَمَا ثَبَتَ عَنْهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ { قَالَ عَنْ الْحَسَنِ ابْنِهِ : إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ } فَأَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ شِيعَةِ عَلِيٍّ وَشِيعَةِ مُعَاوِيَةَ . وَأَثْنَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحَسَنِ بِهَذَا الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ عَلَى يَدَيْهِ وَسَمَّاهُ سَيِّدًا بِذَلِكَ ؛ لِأَجْلِ أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْحَسَنُ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَيَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . وَلَوْ كَانَ الِاقْتِتَالُ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ يَكُونُ الْحَسَنُ قَدْ تَرَكَ الْوَاجِبَ ، أَوْ الْأَحَبَّ إلَى اللَّهِ . وَهَذَا النَّصُّ الصَّحِيحُ الصَّرِيحُ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْحَسَنُ مَحْمُودٌ ، مَرْضِيٌّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ، أَنَّ { النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَضَعُهُ عَلَى فَخِذِهِ ، وَيَضَعُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا ، وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا } وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا ظَهَرَ فِيهِ مَحَبَّتُهُ وَدَعْوَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُمَا كَانَا أَشَدَّ النَّاسِ رَغْبَةً فِي الْأَمْرِ الَّذِي مَدَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ الْحَسَنَ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ كَرَاهَةً لِمَا يُخَالِفُهُ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْقَتْلَى مِنْ أَهْلِ صفين لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ ، الَّذِينَ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ مَدَحَ الصُّلْحَ بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِهِمْ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ

مُتَفِقِينَ عَلَى قِتَالِ الخَوَارِجِ المَارِقِينَ ، وَظَهَرَ مِنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ السُّرُورُ بِقِتَالِهِمْ ؛ وَمِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَمْرَ بِقِتَالِهِمْ : مَا قَدْ ظَهَرَ عَنْهُ وَأَمَّا قِتَالُ الصَّحَابَةِ فَلَمْ يُرْوَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ أَثَرٌ ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِيهِ سُرُورٌ ؛ بَلْ ظَهَرَ مِنْهُ الكَآبَةُ ، وَتَمَنَّى أَنْ لَا يَقَعَ ، وَشَكَرَ بَعْضَ الصَّحَابَةِ ، وَبَرَّأَ الفَرِيقَيْنِ مِنْ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَأَجَازَ التَّرَحُّمَ عَلَى قَتْلَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَأَمْثَالَ ذَلِك مِنْ الأُمُورِ التِي يُعْرَفُ بِهَا اتِّفَاقُ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ مُؤْمِنَةٌ . وَقَدْ شَهِدَ القُرْآنُ بِأَنَّ اقْتِتَالَ المُؤْمِنِينَ لَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ الإِيمَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ } { إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } فَسَمَّاهُمْ " مُؤْمِنِينَ " وَجَعَلَهُمْ " إِخْوَةً " مَعَ وُجُودِ الِاقْتِتَالِ وَالبَغْيِ . وَالحَدِيثُ المَذْكُورُ { إِذَا اقْتَتَلَ خَلِيفَتَانِ فَأَحَدُهُمَا مَلْعُونٌ } كَذِبٌ مُفْتَرًى لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِالحَدِيثِ ، وَلَا هُوَ فِي شَيْءٍ مِنْ دَوَاوِينِ الإِسْلَامِ المُعْتَمَدَةِ . و " مُعَاوِيَةُ " لَمْ يَدَّعِ الخِلَافَةَ ؛ وَلَمْ يُبَايَعْ لَهُ بِهَا حَيْنَ قَاتَلَ عَلِيًّا ، وَلَمْ يُقَاتِلْ عَلَى أَنَّهُ خَلِيفَةٌ ، وَلَا أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الخِلَافَةَ ، وَيُقِرُّونَ لَهُ بِذَلِك ، وَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ يُقِرُّ بِذَلِك لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْهُ ، وَلَا كَانَ مُعَاوِيَةُ وَأَصْحَابُهُ يَرَوْنَ أَنْ يَبْتَدُوا عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ بِالقِتَالِ ، وَلَا يَعْلُوَا . بَلْ لَمَّا رَأَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَصْحَابُهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ وَمُبَايَعَتُهُ ، إذْ لَا يَكُونُ لِلْمُسْلِمَيْنِ إلَّا خَلِيفَةٌ وَاحِدٌ ، وَأَنَّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَتِهِ يَمْتَنِعُونَ عَنْ هَذَا الوَاجِبِ ، وَهُمْ أَهْلُ شَوْكَةٍ رَأَى أَنْ يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يُؤَدُّوا هَذَا الوَاجِبَ ، فَتَحْصُلَ الطَّاعَةُ وَالجَمَاعَةُ . وَهُمْ قَالُوا : إنَّ ذَلِك لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّهُمْ إذَا قُوتِلُوا عَلَى ذَلِك كَانُوا مَظْلُومِينَ قَالُوا : لِأَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ مَظْلُومًا بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ ، وَقَتَلَتُهُ فِي عَسْكَرِ عَلِيٍّ ، وَهُمْ غَالِبُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ ، فَإِذَا امْتَنَعْنَا ظَلَمُونَا وَاعْتَدَوْا عَلَيْنَا . وَعَلِيٌّ لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُهُمْ ، كَمَا لَمْ يُمْكِنْهُ الدَّفْعُ عَنْ عُثْمَانَ ؛ وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَايِعَ خَلِيفَةً يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْصِفَنَا وَيَبْذُلَ لَنَا الإِنْصَافَ . وَكَانَ فِي جُهَّالِ الفَرِيقَيْنِ مَنْ يَظُنُّ بِعَلِيٍّ وَعُثْمَانَ ظُنُونًا كَاذِبَةً ، بَرَّأَ اللهُ مِنْهَا عَلِيًّا ، وَعُثْمَانَ : كَانَ يَظُنُّ بِعَلِيٍّ أَنَّهُ أَمَرَ بِقَتْلِ عُثْمَانَ ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَحْلِفُ وَهُوَ البَارُّ الصَّادِقُ بِلَا يَمِينٍ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ ، وَلَا رَضِيَ بِقَتْلِهِ ، وَلَمْ يُمَالِئْ عَلَى قَتْلِهِ . وَهَذَا مَعْلُومٌ بِلَا رَيْبٍ مِنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فَكَانَ أُنَاسٌ مِنْ مُحِبِّي عَلِيٍّ وَمِنْ مُبْغِضِيهِ يُشِيعُونَ ذَلِك عَنْهُ : فَمُحِبُّوهُ يَقْصِدُونَ بِذَلِك الطَّعْنَ عَلَى عُثْمَانَ بِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَحِقُّ القَتْلَ ، وَأَنَّ عَلِيًّا أَمَرَ بِقَتْلِهِ . وَمُبْغِضُوهُ يَقْصِدُونَ بِذَلِك الطَّعْنَ عَلَى عَلِيٍّ ، وَأَنَّهُ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ الخَلِيفَةِ المَظْلُومِ الشَّهِيدِ ، الذِي صَبَّرَ نَفْسَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهَا ، وَلَمْ يَسْفِكْ دَمَ مُسْلِمٍ فِي الدَّفْعِ عَنْهُ ، فَكَيْفَ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الأُمُورِ التِي يَتَسَبَّبُ بِهَا الزَّائِغُونَ عَلَى المُتَشَيِّعِينَ العُثْمَانِيَّةِ ، وَالعَلَوِيَّةِ . وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْ المُتَشَيِّعِينَ مُقِرَّةٌ مَعَ ذَلِك بِأَنَّهُ لَيْسَ مُعَاوِيَةُ كُفْئًا لِعَلِيٍّ بِالخِلَافَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً مَعَ إمْكَانِ اسْتِخْلَافِ عَلِيٍّ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ فَإِنّ فَضْلَ عَلِيٍّ وسابقيته ، وَعِلْمَهُ ، وَدِينَهُ ، وَشَجَاعَتَهُ ، وَسَائِرَ فَضَائِلِهِ : كانَتْ عِنْدَهُمْ ظَاهِرَةً مَعْرُوفَةً ، كفَضْلِ إخْوَانِهِ : أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ الشُّورَى غَيْرُهُ وَغَيْرُ سَعْدٍ ، وَسَعْدٌ كانَ قَدْ تركَ هَذَا الأَمْرَ ، وَكانَ الأَمْرُ قَدْ انحصَرَ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ؛ فَلَمّا تُوُفِّيَ عُثْمَانُ لمْ يَبْقَ لَهَا مُعَيّنٌ إلا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَإِنّمَا وَقَعَ الشّرُّ بِسَبَبِ قَتْلِ عُثْمَانَ ، فَحَصَلَ بِذَلِك قُوّةُ أَهْلِ الظّلْمِ وَالعُدْوَانِ وَضَعْفُ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ ، حَتّى حَصَلَ مِنْ الفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ مَا صَارَ يُطَاعُ فِيهِ مَنْ غَيْرُهُ أَوْلَى مِنْهُ بِالطّاعَةِ ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ بِالجَمَاعَةِ والائتلاف ، وَنَهَى عَنْ الفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : مَا يَكْرَهُونَ فِي الجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمّا يُجْمِعُونَ مِنْ الفُرْقَةِ . وَأَمّا الحَدِيثُ الذِي فِيهِ { إنّ عَمّارًا تقتلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ } فَهَذَا الحَدِيثُ قَدْ طَعَنَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ ؛ لَكِنْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وَهُوَ فِي بَعْضِ نُسَخِ البُخَارِيِّ : قَدْ تأَوّلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنّ المُرَادَ بِالبَاغِيَةِ الطّالِبَةُ بِدَمِ عُثْمَانَ ، كمَا قَالُوا : نَبْغِي ابْنَ عفان بِأَطْرَافِ الأسل . وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ بَلْ يُقَالُ مَا قَالَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَهُوَ حَقٌ كمَا قَالَهُ ، وَلَيْسَ فِي كوْنِ عَمّارٍ تقتلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ مَا يُنَافِي مَا ذكَرْنَاهُ ، فَإِنّهُ قَدْ قَالَ اللهُ تعَالَى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي حَتّى تفِيءَ إلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ } { إنّمَا المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } فَقَدْ جَعَلَهُمْ مَعَ وُجُودِ الِاقْتِتَالِ وَالبَغْيِ مُؤْمِنِينَ إخْوَةً ؛ بَلْ مَعَ أَمْرِهِ بِقِتَالِ الفِئَةِ البَاغِيَةِ جَعَلَهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا كانَ بَغْيًا وَظُلْمًا أَوْ عُدْوَانًا يُخْرِجُ عُمُومَ النّاسِ عَنْ الإِيمَانِ ، وَلَا يُوجِبُ لَعْنَتَهُمْ ؛ فَكَيْفَ يُخْرِجُ ذَلِك مَنْ كانَ مِنْ خَيْرِ القُرُونِ ؟ وَكُلُّ مَنْ كانَ بَاغِيًا ، أَوْ ظَالِمًا ، أَوْ مُعْتَدِيًا ، أَوْ مُرْتَكِبًا مَا هُوَ ذَنْبٌ فَهُوَ " قِسْمَانِ " مُتَأَوّلٌ ، وَغَيْرُ مُتَأَوّلٍ ، فَالمُتَأَوّلُ المُجْتَهِدُ : كأَهْلِ العِلْمِ وَالدّينِ ، الذِينَ اجْتَهَدُوا ، وَاعْتَقَدَ بَعْضُهُمْ حِلّ أُمُورٍ ، وَاعْتَقَدَ الآخَرُ تحْرِيمَهَا كمَا اسْتَحَلّ بَعْضُهُمْ بَعْضَ أَنْوَاعِ الأَشْرِبَةِ ، وَبَعْضُهُمْ بَعْضَ المُعَامَلَاتِ الرّبَوِيّةِ وَبَعْضُهُمْ بَعْضَ عُقُودِ التّحْلِيلِ وَالمُتْعَةِ ، وَأَمْثَالُ ذَلِك ، فَقَدْ جَرَى ذَلِك وَأَمْثَالُهُ مِنْ خِيَارِ السّلَفِ . فَهَؤُلَاءِ المُتَأَوّلُونَ المُجْتَهِدُونَ غَايَتُهُمْ أَنّهُمْ مُخْطِئُونَ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعَالَى : { رَبّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ أَنّ اللهَ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ داود وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السّلَامُ إنّهُمَا حَكَمَا فِي الحَرْثِ ، وَخَصّ أَحَدَهُمَا بِالعِلْمِ وَالحُكْمِ ، مَعَ ثَنَائِهِ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا بِالعِلْمِ وَالحُكْمِ . وَالعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا فَهِمَ أَحَدُهُمْ مِنْ المَسْأَلَةِ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ الآخَرُ لَمْ يَكُنْ بِذَلِك مَلُومًا وَلَا مَانِعًا لِمَا عُرِفَ مِنْ عِلْمِهِ وَدِينِهِ ، وَإِنْ كانَ ذَلِك مَعَ العِلْمِ بِالحُكْمِ يَكُون إثْمًا وَظُلْمًا ، وَالإِصْرَارُ عَلَيْهِ فِسْقًا ، بَلْ مَتَى عُلِمَ تحْرِيمُهُ ضَرُورَةً كانَ تحْلِيلُهُ كُفْرًا . فَالبَغْيُ هُوَ مِنْ هَذَا البَابِ . أَمَا إذَا كانَ البَاغِي مُجْتَهِدًا وَمُتَأَوّلًا ، وَلَمْ يَتَبَيّنْ لهُ أَنّهُ بَاغٍ ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنّهُ عَلَى الحَقّ وَإِنْ كانَ مُخْطِئًا فِي اعْتِقَادِهِ : لَمْ تكُنْ تَسْمِيَتُهُ " بَاغِيًا " مُوجِبَةً لِإِثْمِهِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تُوجِبَ فِسْقَهُ . وَالذِينَ

يَقُولُونَ بِقِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ ؛ يَقُولُونَ : مَعَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ قِتَالُنَا لَهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرِ بَغْيِهِمْ ؛ لَا عُقُوبَةً لَهُمْ ؛ بَلْ لِلْمَنْعِ مِنْ الْعُدْوَانِ . وَيَقُولُونَ : إنَّهُمْ بَاقُونَ عَلَى الْعَدَالَةِ ؛ لَا يُفَسِّقُونَ . وَيَقُولُونَ هُمْ كَغَيْرِ الْمُكَلَّفِ ، كَمَا يُمْنَعُ الصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ وَالنَّاسِي وَالْمُغْمَى عَلَيْهِ وَالنَّائِمُ مِنْ الْعُدْوَانِ أَنْ لَا يَصْدُرَ مِنْهُمْ ؛ بَلْ تُمْنَعُ الْبَهَائِمُ مِنْ الْعُدْوَانِ . وَيَجِبُ عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً الدِّيَةُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ لَا إثْمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِك ، وَهَكَذَا مَنْ رُفِعَ إلَى الْإِمَامِ مِنْ أَهْلِ الْحُدُودِ وَتَابَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَأَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، وَالْبَاغِي الْمُتَأَوِّلُ يُجْلَدُ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَنَظَائِرُهُ مُتَعَدِّدَةٌ . ثُمَّ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ " الْبَغْيُ " بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ : يَكُون ذَنْبًا ، وَالذُّنُوبُ تَزُولُ عُقُوبَتُهَا بِأَسْبَابِ مُتَعَدِّدَةٍ : بِالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ ، وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِك . ثُمَّ { إنَّ عَمَّارًا تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ } لَيْسَ نَصًّا فِي أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لمعاوية وَأَصْحَابِهِ ؛ بَلْ يُمْكِنُ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهْ تِلْكَ الْعِصَابَةُ الَّتِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلَتْهُ ، وَهِيَ طَائِفَةٌ مِنْ الْعَسْكَرِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَتْلِ عَمَّارٍ كَانَ حُكْمُهُ حُكْمَهَا . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ كَانَ فِي الْعَسْكَرِ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَتْلِ عَمَّارٍ : كَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاص ، وَغَيْرِهِ ؛ بَلْ كُلُّ النَّاسِ كَانُوا مُنْكِرِينَ لِقَتْلِ عَمَّارٍ ، حَتَّى مُعَاوِيَةُ ، وَعَمْرٌو . وَيُرْوَى أَنَّ مُعَاوِيَةَ تَأَوَّلَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ دُونَ مُقَاتِلِيهِ : وَأَنَّ عَلِيًّا رَدَّ هَذَا التَّأْوِيلَ بِقَوْلِهِ : فَنَحْنُ إذًا قَتَلْنَا حَمْزَةَ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا قَالَهُ عَلِيٌّ هُوَ الصَّوَابُ ؛ لَكِنْ مَنْ نَظَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَنَاظِرِينَ مِنْ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ وَلَا مُلْكٌ ، وَأَنَّ لَهُمْ فِي النُّصُوصِ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ مَا هُوَ أَضْعَفُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِكَثِيرِ . وَمَنْ تَأَوَّلَ هَذَا التَّأْوِيلَ لَمْ يَرَ أَنَّهُ قَتَلَ عَمَّارًا ، فَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّهُ بَاغٍ ، وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّهُ بَاغٍ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَاغٍ : فَهُوَ مُتَأَوِّلٌ مُخْطِئٌ . وَالْفُقَهَاءُ لَيْسَ فِيهِمْ مِنْ رَأْيِهِ الْقِتَالُ مَعَ مَنْ قَتَلَ عَمَّارًا ؛ لَكِنْ لَهُمْ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ كَمَا كَانَ عَلَيْهِمَا أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ : مِنْهُمْ مَنْ يَرَى الْقِتَالَ مَعَ عَمَّارٍ وَطَائِفَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى الْإِمْسَاكَ عَنْ الْقِتَالِ مُطْلَقًا . وَفِي كُلٍّ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ طَوَائِفُ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ . فَفِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ عَمَّارٌ ، وَسَهْلُ بْنُ حنيف ، وَأَبُو أَيُّوبَ . وَفِي الثَّانِي سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مسلمة ؛ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَنَحْوُهُمْ . وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الْأَكَابِرِ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَسْكَرَيْنِ بَعْدَ عَلِيٍّ أَفْضَلُ مِنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَكَانَ مِنْ الْقَاعِدِينَ . و " حَدِيثُ عَمَّارٍ " قَدْ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ رَأَى الْقِتَالَ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ قَاتِلُوهُ بُغَاةً فَاَللَّهُ يَقُول : { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } . و المتمسكون يَحْتَجُّونَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي { أَنَّ الْقُعُودَ عَنْ الْفِتْنَةِ خَيْرٌ مِنْ الْقِتَالِ فِيهَا } وَتَقُولُ : إنَّ هَذَا الْقِتَالَ وَنَحْوَهُ هُوَ قِتَالُ الْفِتْنَةِ ؛ كَمَا جَاءَتْ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ تُبَيِّنُ ذَلِك ؛ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتَالِ ؛ وَلَمْ يَرْضَ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا رَضِيَ بِالصُّلْحِ ؛ وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِ الْبَاغِي ؛ وَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِهِ ابْتِدَاءً ؛ بَلْ قَالَ : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

وَأَقْسِطُوا إنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } قَالُوا : وَالِاقْتِتَالُ الْأَوّلُ لَمْ يَأْمُرْ اللّهُ بِهِ ؛ وَلَا أَمَرَ كُلّ مَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ بَغَى عَلَيْهِ ؛ فَإِنّهُ إذَا قَتَلَ كُلّ بَاغٍ كَفَرَ ؛ بَلْ غَالِبُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ بَلْ غَالِبُ النّاسِ : لَا يَخْلُو مِنْ ظُلْمٍ وَبَغْيٍ ؛ وَلَكِنْ إذَا اقْتَتَلَتْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَالْوَاجِبُ الْإِصْلَاحُ بَيْنَهُمَا ؛ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا مَأْمُورَةً بِالْقِتَالِ ، فَإِذَا بَغَتْ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ ذَلِكَ قُوتِلَتْ ؛ لِأَنّهَا لَمْ تَتْرُكْ الْقِتَالَ ؛ وَلَمْ تُجِبْ إلَى الصّلْحِ ؛ فَلَمْ يَنْدَفِعْ شَرّهَا إلّا بِالْقِتَالِ . فَصَارَ قِتَالُهَا بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الصّائِلِ الّذِي لَا يَنْدَفِعُ ظُلْمُهُ عَنْ غَيْرِهِ إلّا بِالْقِتَالِ ، كَمَا قَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . { مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ حُرْمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ } . قَالُوا : فَبِتَقْدِيرِ أَنّ جَمِيعَ الْعَسْكَرِ بُغَاةٌ فَلَمْ نُؤْمَرْ بِقِتَالِهِمْ ابْتِدَاءً ؛ بَلْ أُمِرْنَا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ و " أَيْضًا " ، فَلَا يَجُوزُ قِتَالُهُمْ إذَا كَانَ الّذِينَ مَعَهُمْ نَاكِلِينَ عَنْ الْقِتَالِ فَإِنّهُمْ كَانُوا كَثِيرِي الْخِلَافِ عَلَيْهِ ضَعِيفِي الطّاعَةِ لَهُ . و " الْمَقْصُودُ " أَنّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يُبِيحُ لَعْنَ أَحَدٍ مِنْ الصّحَابَةِ ، وَلَا يُوجِبُ فِسْقَهُ . وَأَمّا " أَهْلُ الْبَيْتِ " فَلَمْ يُسْبَوْا قَطّ . وَلِلّهِ الْحَمْدُ . وَلَمْ يَقْتُلْ الْحَجّاجُ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنّمَا قَتَلَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ قَدْ تَزَوّجَ بِنْتَ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَعْفَرٍ فَلَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَلَا بَنُو هَاشِمٍ وَلَا بَنُو أُمَيّةَ حَتّى فَرّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ؛ حَيْثُ لَمْ يَرَوْهُ كُفُؤًا . وَاَللّهُ أَعْلَمُ .[131]

===============

التحكيم[132]

لما حل شهر رمضان سنة سبع وثلاثين أرسل عليّ أبا موسى الأشعري حَكما عنه في أربعمائة رجل، عليهم شريح بن هانئ الحارثي، ومعهم عبد الله بن عباس يصلِّي بهم ويَلي أمورهم، وبعث معاوية عمرَو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام وعليهم شُرَحْبِيلُ ابن السّمط، فتوافَوْا بدُومَة الجَنْدَل بأذْرُح، وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام، وشهد معهم جماعة من رءوس الناس: كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

فلما اجتمع الحَكمانِ تراوَضَا على تحقيق ما فيه مصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور، وأخذا يتباحثان.. وقد قرر الحكمان ومن معهما من كرام الناس أن يُوكل أمر النظر في إمامة المسلمين إلى كبار الصحابة وأعيانهم، مع استمرار سلطان عليّ على ما تحت يده، ويبقى معاوية متصرفا فيما تحت يده حتى يتم نظرُ الصحابة، ولكن لم يَلْتَقِ الصحابة لتنفيذ ما اتفق عليه الحكمان.

قال ابن العربي رحمه الله في العواصم :

قاصمة التحكيم

---

[131] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 9 / ص 203) فما بعد

[132] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 411)

وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله . وإذا لحظتموه بعين المروءة - دون الديانة - رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين ، وفي الأقل جهل متين .
والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خياط (1) والدارقطني (2) : أنه لما خرج الطائفة العراقية مائة ألف والشامية في سبعين أو تسعين ألفا ونزلوا على الفرات بصفين ، اقتتلوا في أول يوم - وهو الثلاثاء - على الماء فغلب أهل العراق عليه (3) .
ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة [سبع وثلاثين] ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت (4) ، ورفعت المصاحف من أهل الشام ، ودعوا إلى الصلح ، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق ، فكان من جهة علي أبو موسى (5) ، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص .

---

(1) هو الإمام الحافظ أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري البصري ، أحد أوعية العلم ، ومن شيوخ الإمام البخاري . قال عنه ابن عدي : هو صدق مستقيم الحديث من متيقظي رواة السنة . توفي سنة 240 .
(2) هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (306 - 385) كان مع جلالته في الحديث من أئمة فقهاء الشافعية ، وله تقدم في الأدب ورواية الشعر . وجاء من بغداد إلى مصر ليساعد ابن خنزابة وزير كافور على تأليف مسنده فبالغ الوزير في إجلاله . قال الحافظ عبد الغني بن سعيد ((أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة : علي بن المديني في وقته ، وموسى بن هارون القيسي في وقته . و الدارقطني في وقته)) .
(3) لم يكن القتال على الماء جديا ، وقد قال عمرو بن العاص يومئذ : «ليس من النصف أن نكون ريانين وهم عطاش» . والذين تظاهروا في الجيش الشامي بمنع العراقيين عن الماء أرادوا أن يذكروهم بمنع الماء عن أمير المؤمنين عثمان في عاصمة خلافته وهو الذي اشترى بئر رومة من ماله ليستقي منه إخوانه المسلمون وبعد اشتراكهم في الماء تناوشوا شهر ذي الحجة من سنة 36 ثم تهادنوا شهر المحرم من سنه 37 ، ووقعت وقائع شهر صفر التي سيشير إليها المؤلف .
(4) وكانت تسمى ((ليلة الهرير)) اقتتل الناس فيها حتى الصباح .
(5) وكان آخر العهد بأبي موسى عندما كان واليًا على الكوفة ، وجاء دعاة علي يحرضون الكوفيين على لبس السلاح والالتحاق بجيش علي استعدادًا لما يريدونه من قتال مع أصحاب الجمل في البصرة ، ثم مع أنصار معاوية في الشام . فكان أبو موسى يشفق على دماء المسلمين أن تسفك بتحريض الغلاة ، ويذكر أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقول نبيهم في الفتنة

((القاعد فيها خير من القائم)) فتركه الأشتر يحدث الناس في المسجد بـ الحديث النبوي ، وأسرع إلى دار الإمارة فاحتلها . فلما عاد إليها أبو موسى منعه الأشتر من الدخول وقال له : اعتزل إمارتنا . فاعتزلهم أبو موسى واختار الإقامة في قرية يقال لها عُرْض بعيدًا عن الفتن وسفك الدماء . فلما شبع الناس من سفك الدماء واقتنعوا بأن أبا موسى كان ناصحًا في نهيهم عن القتال طلبوا من علي أن يكون أبو موسى هو ممثل العراق في أمر التحكيم ، لأن الحالة التي كان يدعو إليها هي التي فيها الصلاح فأرسلوا إلى أبي موسى وجاءوا به من عزلته .

وكان أبو موسى رجلًا تقيًا فقيهًا عالمًا حسبما بيناه في كتاب (سراج المريدين) ، وأرسله النبي صلى اللّٰه عليه وسلم إلى اليمن مع معاذ ، وقدمه عمرو وأثنى عليه بالفهم (1) . وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعًا في القول ، وأن ابن العاص كان ذا دهاءٍ وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدًا لما أرادت من الفساد ، اتبع في ذلك بعض الجهال بعضًا وصنفوا فيه حكايات . وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى ، وإنما بنوا على أن عمرًا لما غدر أبا موسى في قصة التحكيم صار له الذكر في الدهاء والمكر .

وقالوا : إنما لما اجتمع بأذرح من دومة الجندل (2) ، وتفاوضا ، اتفقا على أن يخلعا الرجلين (3) . فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول . فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت عليًا عن الأمر ، وينظر المسلمون لأنفسهم ، كما خلعت سيفي هذا من عنقي - أو من عاتقي - وأخرجه من عنقه فوضعه في الأ رض . وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال : إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر (4) كما أثبت سيفي هذا في عاتقي . وتقلده . فأنكر أبو موسى . فقال عمرو : كذلك اتفقنا . وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف .

---

(1) واختصه بكتابه الشهير في القضاء وآدابه وقواعده .

(2) أذرح : قرية من أعمال الشراة تقع في منطقة بين أراضي شرقي الأردن والمملكة السعودية في الأطراف الجنوبية من بادية الشام .

(3) من الحقائق ما إذا أسيء التعبير عنه وشابته شوائب المغالطة يوهم غير الحقيقة فينشأ عن ذلك الاختلاف في الحكم عليه . ومن ذلك حادثة التحكيم وقول المغالطين إن أبا موسى وعمرًا اتفقا على خلع الرجلين ، فخلعهما أبو موسى ، واكتفى عمرو بخلع علي دون معاوية . وأصل المغالطة من تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن خليفة ، ولا هو ادعى الخلافة يومئذ حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه . بل إن أبا موسى وعمرًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وهو راض عنهم . واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين

اشتركوا في قتل عثمان . فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين ، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم تناول التحكيم شيئًا واحدًا هو الإمامة . أما التصرف العملي في إرادة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان : علي متصرف في البلاد التي تحت حكمه ، ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه ، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة . وكان يكون محلا للمكر أو الغفلة لو أن عمرًا أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين ، وهذا ما لم يعلنه عمرو ، ولا ادعاه معاوية ، ولم يقل به أحد في الثلاثة عشر قرنًا الماضية . وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن علي ، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية ، ومن ذلك اليوم فقط سمي معاوية أمير المؤمنين . فعمرو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه ، لأنه لم يعط معاوية شيئًا جديدًا ، ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى . ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا ، فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل ، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل ، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة عليها ، وأي ذنب لعمرو في أي شيء مما وقع؟ إن البلاهة لم تكن من أبي موسى ، ولكن ممن يريد أن يفهم الوقائع على غير ما وقعت عليه . فليفهمها كل من شاء كما يشاء . أما هي فظاهرة واضحة لكل من يراها كما هي .

(4) أي أمر؟ إن كان الاستمرار في إدارة البلاد التي تحت يده ، فإن هذا الأ مر ماض على معاوية وعلي معًا ، فكل منهما باق في الحكم على ما تحت يده . وإن كان المراد بالأمر أمر الإمامة العامة وإمارة المؤمنين فإن معاوية لم يكن إمامًا - أي خليفة - حتى يثبته عمرو كما كان . وقد أوضحنا هذه الحقيقة في الفقرة السابقة . وهذه هي نقطة المغالطة التي هزأ بها مؤرخو ا لإفك المفترى فسخروا بجميع قرائهم وأوهموهم بأن هناك خليفتين أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معًا ، وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذًا للاتفاق ، وأن عمرًا خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافًا للاتفاق ، وهذا كله كذب وإفك وبهتان . والذي فعله عمرو وهو نفس الذي فعله أبو موسى لا يفترق عنه قط في نقير ولا قطمير وبقي أمر ا لإمامة والخلافة أو غمارة المؤمنين معلقًا على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا . وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما في ذلك تقصير من أبي موسى ولا من عمرو ، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدى إليه اجتهادهما واقتناعهما ولو لم تكلفهما الطائفتان معًا بأداء هذه المهمة لما تعرضا لها ، ولا أبديا رأيًا فيها . ولو كان موقف أبي موسى في هذا الحادث التاريخي العظيم موقف بلاهة وفشل لكان ذلك سبة عليه في التاريخ . وإن الأجيال التي بعده فهمت موقفه على أنه من مفاخره التي كتب الله له بها النجاح والسداد ، حتى قال ذو الرمة الشاعر يخاطب حفيده

بلال بن أبي بردة بن أبي موسى : أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين منقطع الكسر فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروبًا قد لقحن إلى عقر .

عاصمة

قال القاضي أبو بكر (رضي الله عنه) : هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط . وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك ، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع (1) .

وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر - في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه - عزل عمرو معاوية (2) .

---

(1) إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسر رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله . فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف : طائفة كانت تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه . وطائفة ظنت أن التدوين لا يتم ، و لا يكون التقرب إلى الله ، إلا بتشويه سمعة أبي كبر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعا . وطائفة ثالثة من الإنصاف والدين- كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير- رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الإخباريين من كل المذاهب والمشارب- كلوط بن يحيى الشيعي المحترق ، وسيف بن عمر العراقي المعتدل- ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها . وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه . وقد وصلنا إلى هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا ، بل على أنها مادة غزيرة للدرس و البحث يستخرج منها تاريخنا ، وهذا ممكن وميسور إذا تولاه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع ، وله من الألمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ويجردها عن الذي لم يقع ، مكتفيا بأصول الأخبار الصحيحة مجردة عن الزيادات الطارئة عليها . وإن الرجوع إلى كتب السنة ، وملا حظات أئمة الأمة . مما يسهل هذه المهمة . وقد آن لنا أن نقوم بهذا الواجب الذي أبطأنا فيه كل الإبطاء ، وأول من استيقظ في عصرنا للدسائس المدسوسة على تاريخ بني أمية العلامة الهندي الكبير الشيخ شبلي النعماني في انتقاده لكتاب جرجي زيدان ، ثم أخذ أهل الألمعية من المنصفين في دراسة الحقائق ، فبدأت تظهر لهم وللناس منيرة مشرقة ، ولا يبعد- إذا استمر هذا الجهاد في سبيل الحق- أن يتغير فهم المسلمين لتاريخهم ويدركوا أسرار ما وقع في ماضيهم من معجزات.

(2) أي بتقريره مع أبي موسى أن إمامة المسلمين يترك النظر فيها إلى أعيان الصحابة.

ذكر الدارقطني بسنده إلى حضين بن المنذر (1) : لما عزل عمرو معاوية جاء [أي حضين بن المنذر] فضرب فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية ، فبلغ

نبأه معاوية ، فأرسل إليه فقال : إنه بلغني عن هذا [أي عن عمرو] كذا وكذا (2) ، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه ، فأتيته فقلت : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا (3) ، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر؟ قال أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما قال : فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه : فأتيته فأخبرته [أي فأتى حضين معاوية فأخبره] أن الذي بلغه عنه كما بلغه . فأرسل إلى أبي الأعور الذكواني (4) فبعثه في خيله ، فخرج يركض فرسه ويقول : أين عدو الله أين هذا الفاسق؟ .

---

(1) قال الدارقطني : حدثنا إبراهيم بن همام ، حدثنا أبو يوسف الفلوسي وهو يعقوب بن عبد الرحمن بن جرير ، حدثنا الأسود بن شيبان ، عن عبد الله بن مضارب عن حضين بن المنذر (وحضين من خواص علي الذين حاربوا معه).

(2) أي عزله عليا ومعاوية ، وتفويضه الأمر إلى كبار الصحابة.

(3) أي أنهما لم يعزلا ، لم يوليا ، ولكن تركا الأمر لأعيان الصحابة.

(4) هو أبو الأعور السلمي (وذكوان قبيلة من سليم) واسمه عمرو بن سفيان ، كان من كبار قواد معاوية . وفي حرب صفين طلب الأشتر أن يبارزه فترفع أبو الأعور السلمي عن ذلك لأنه لم ير الأشتر من أنداده . انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص264 .

قال أبو يوسف (1) : أظنه قال ((إنما يريد حوباء نفسه)) فخرج [عمرو] إلى فرس فسطاط فجال في ظهره عريانًا ، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول ((إن الضجور قد تحتلب العلبة ، يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة (2))) فقال معاوية ((أجل ، وتربذ الحالب فتدق أنفه ، وتكفأ إناءه (3))) .

قال الدارقطني - وذكر سند عدلًا (4) : ربعي عن أبي موسى أن عمرو بن العاص قال : ((والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحل لهما منه شيء لقد غبنا ونقص رأيهما . وايم الله ما كانا مغبونين ولا ناقصي الرأي . ولئن كانا امرأين يحرم عليهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما لقد هلكنا . وايم الله ما جاء الوهم إلا من قبلنا (5))) .

فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه . فأعرضوا عن الغاوين ، وازجروا العاوين وعرجوا عن سبيل الناكثين ، إلى سنن المهتدين . وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين .

---

(1) أي الفلوسي راوي هذا الخبر عن الأسود بن شيبان عن عبد الله بن

مضارب عن حضين.
(2) الضجور : الناقة التي ترغو وتعربد عند الحلب . و«قد تحلب الضجور العلبة» مثل ، ومعناه : إن الناقة التي ترغو قد تحلب ما يملأ العلبة ، وهي قدح ضخم يحلب فيه اللبن . يضربونه للسيئ الخلق قد يصاب منه الرفق و اللين ، وللبخيل قد يستخرج منه المال .
(3) ربذت يده بالقداح أي خفت : والربذ خفة القوائم في المشي ، وخفة الأ صابع في العمل . وفلان ذو ربذات : أي ذو فلتات وكثير السقط في كلامه .
(4) قال حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم ودعلج بن أحمد قالا : حدثنا محمد بن أحمد بن النضر ، حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، عن عبد الله بن عمر ، عن ربعي . . . إلخ وربعي هو ابن حراش العبسي أبو مريم الكوفي .
(5) أورد المؤلف هذا الخبر للدلالة على ورع عمرو ومحاسبته لنفسه وتذكيرها بسيرة السلف .
وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد هلك من كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خصمه . ودعوا ما مضى فقد قضى الله ما قضى . وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقادًا وعملًا . ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يعينكم مع كل ناعق اتخذ الدين هملًا ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا . ورحم الله الربيع بن خثيم (1) فإنه لما قيل له : قتل الحسين ! قال : أقتلوه؟ قالوا : نعم . فقال : { قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } (الزمر : 46) . ولم يزد على هذا أبدًا . فهذا العقل والدين ، والكف عن أحوال المسلمين ، والتسليم لرب العالمين .

---

(1) هو من تلاميذ عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وعمرو بن ميمون ، وأخذ عنه الإمام الشعبي وإبراهيم النخعي وأبو بردة . قال له ابن مسعود : لو رآك النبي صلى الله عليه وسلم لأحبك . توفي سنة 64 .[133]

================

الرد على فرية في التحكيم

روى ابن عساكر في ترجمة عمرو بن العاص رضي الله عنه :
قتيبة بن سعيد عن جرير عن زكريا بن يحيى عن عبدالله بن يزيد وحبيب بن يسار عن سويد بن غفلة قال
إني لأمشي مع علي بشط الفرات فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين

---

[133] - العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - (ج 1 / ص 140) فما بعدها

فضلا وأضلا وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلا وضل من اتبعهما
((قلت : هذا الخبر موضوع
قال ابن كثير رحمه الله في البداية :
هكذا أورده ولم يبيّن شيئاً من أمره وهو حديث منكر جداً وآفته زكريا بن يحيى هذا - وهو الكنديّ الحميريّ الأعمى -.
قال يحيى بن معين: ليس بشيء ، والحكمان كانا من خيار الصّحابة وهما عمرو بن العاص السّهميّ من جهة أهل الشّام، والثّاني أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعريّ من جهة أهل العراق، وإنّما نصّبا ليصلحا بين النّاس ويتّفقا على أمر فيه رفق بالمسلمين وحقن لدمائهم، وكذلك وقع ، ولم يضِّل بسببهما إلا فرقة الخوارج حيث أنكروا على الأميرين التّحكيم وخرجوا عليهما وكفّروهما حتّى قاتلهم علي بن أبي طالب وناظرهم ابن عبّاس فرجع منهم شرذمة إلى الحقّ واستمرّ بقيتهم حتّى قتل أكثرهم بـ النّهروان وغيره من المواقف المرذولة عليهم كما سنذكره. أ
وقال في مكان آخر :
فأما الحديث الذي قال البيهقي في (الدلائل): أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا إسماعيل بن الفضل، ثنا قتيبة بن سعيد، عن جرير، عن زكريا بن يحيى، عن عبد الله بن يزيد وحبيب بن يسار، عن سويد بن غفلة قال: إني لأمشي مع علي بشط الفرات.
فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين، فضلا ً وأضلا ً، وإن هذه الأمة ستختلف، فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين، فيضلا ً ويضلا ً من اتبعهما)).
فإنه حديث منكر ورفعه موضوع والله أعلم.
إذ لو كان هذا معلوماً عند علي ٍ لم يوافق على تحكيم الحكمين حتى لا يكون سبباً لإضلال الناس، كما نطق به هذا الحديث.
وآفة هذا الحديث هو: زكريا بن يحيى وهو الكندي الحميري الأعمى، قال ابن معين: ليس بشيء. أ))
محمد بن سعد أنا محمد بن عمر حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن عمرو بن الحكم قال :
لما التقى الناس بدومة الجندل قال ابن عباس للأشعري احذر عمرا فإنما يريد أن يقدمك ويقول أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسن ّ مني فكن متدبرا لكلامه
فكانا إذا التقيا يقول عمرو إنك صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي وأنت أسن ُّ مني فتكلم ثم أتكلم فإنما يريد عمرو أن يقدم أبا موسى في الكلام ليخلع عليا فاجتمعا على أمرهما فأداره عمرو على معاوية فأبى، وقال أبو موسى : عبد الله بن عمر فقال عمرو أخبرني عن رأيك فقال أبو

موسى أرى أن تخلع هذين الرجلين ونجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا قال عمرو الرأي ما رأيت فأقبلا على الناس وهم مجتمعون فقال له عمرو يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اجتمع فتكلم أبو موسى فقال أبو موسى إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح به أمر هذه الأمة فقال عمرو صدق وبر ونعم الناظر للإسلام وأهله وتكلم يا أبا موسى فأتاه ابن عباس فخلا به فقال أنت في خدعة ألم أقل لك لا تبدأه وتعقبه فإني أخشى أن تكون أعطاك أمرا خاليا ثم نزع عنه الناس على ملأ من الناس واجتماعهم فقال الأشعري لا تخش ذلك قد اجتمعنا واصطلحنا فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد نظر في أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أن لا نبتز أمورها ولا تعصبه حتى يكون ذلك عن رضى منها وتشاور وقد اجتمعناعلى أمر واحد على خلع علي ومعاوية ويستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيكون شورى بينهم يولون منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية فولوا أمركم من رأيتم ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هذا قد قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وإني أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال سعد بن أبي وقاص ويحك يا أبا موسى ما أضعفك عن عمرو ومكائده فقال أبو موسى فما أصنع جامعني على أمر ثم نزع عنه فقال ابن عباس لا ذنب لك يا أبا موسى الذنب لغيرك الذي قدمك في هذا القمام فقال أبو موسى رحمك الله غدرني فما أصنع وقال أبو موسى لعمرو إنما مثلك ك الكلب " إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث " فقال عمرو إنما مثلك مثل " الحمار يحمل أسفارا " فقال ابن عمر إلى ما صيرت هذه الأمة إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف وقال عبد الرحمن بن أبي بكر لو مات الأشعري من قبل هذا كان خيرا له

((قلت : هذا أكذب حديث يروى في قضية التحكيم وهو مسلسل ب الكذابين ففيه الواقدي كذاب وشيخه أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة كان يضع الحديث وشيخه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك متهم وشيخه مجهول

وعلى هذه الرواية الباطلة استند الحاقدون على الإسلام والمسلمين في مسالة التحكيم وراحوا يصفون عمرا رضي الله عنه بأقبح الصفات من غدر وخيانة ومؤامرة ، ولم يدر أولئك الحاقدون أنهم يستندون إلى روايات باطلة لا أساس لها من الصحة ويبنون عليها أحكاما باطلة !!!.

وهذه الرواية هي عبارة عن مسلسل درامي صاغه خيال أفاك أشر لا يمكن أن تقع على الأرض بهذا الشكل حتى عند الكفار

وإليك التفصيل حول متن هذه الرواية الباطلة :

1- لقد كان يمثل عليا رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري أربعمائة من خيرة أصحابه وكذلك كان يمثل معاوية رضي الله عنه أربعمائة من

أصحابه ،على رأسهم عمرو بن العاص وقد حضر إلى دومة الجندل (وهي مكان محايد بين الشام والعراق) جميع الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة كابن عمر وسعد بن أبي وقاص(على خلاف في حضوره) وسعيد بن زيد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأبي هريرة وغيرهم كثير، واستمر النقاش والحوار بينهم ستة أشهر، وهذه الرواية الباطلة تظهر أن المسألة كانت بين أبي موسى وعمرو ليس إلا وكأنّ جميع الموجودين ليس لهم أي دور يذكر إلا أن يسمعوا ما يقول عمرو وأبي موسى وهذا باطل قطعا.
2- المشكلة الأساسية التي سببت حربي الجمل وصفين وهي قتلة عثمان (رضي الله عنه) لم تتعرض لها هذه الرواية لا من قريب ولا من بعيد، وهذا يدل على بطلانها قطعا لأن أساس المشكلة إقامة الحد على قتلة عثمان رضي الله عنه ، وهم بجيش علي رضي الله عنه ، وتصور هذه الرواية كأنّ قتلة عثمان (رضي الله عنه) انتهى أمرهم وصارت المشكلة تتعلق بالخلافة ، وهذا غير صحيح، لأن الروايات الصحيحة تبين أن القوم جميعا قد اتفقوا على وجوب إقامة الحدِّ على قتلة عثمان (رضي الله عنه)
3- تصوير عمرو بن العاص رضي الله عنه بالمكر والخداع منذ بداية هذه الرواية وتصوير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بأنه رجل ساذج مغفل ، وهذا التصوير باطل قطعا فالأحاديث الصحيحة التي مرت معنا في فضائل عمرو رضي الله عنه[134] وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام ، طوال تلك السنين ، ترد هذا الإفك المبين عنه ولا سيما أنه كان في آخر عمره (حيث كان عمره ينيف على الثمانين) وهو المعروف بالحكمة ، أيخون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في آخره عمره فيختمه بشر ؟ هذا لا يكون أبدا !!!
وكذلك فإن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان من خيار الصحابة ، ومن نبهائهم وفرسانهم وفقهائهم وقضاتهم ، وهو الذي قال صلى الله عليه

[134] - وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني - (ج 14 / ص 162)
عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب ، يكنى أبا عبد الله أمه النابغة من بني عنزة بن أسيد بن ربيعة بن نزار ، كان يخضب بالسواد ، وخرج إلى الحبشة إلى النجاشي بعد الأحزاب ، فأسلم عنده بالحبشة ، فأخذه أصحابه بالحبشة فغموه وأفلت منهم مجردا ليس عليه قشرة ، فأظهر للنجاشي إسلامه ، فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه ، فقدم هو وخالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة مهاجرين المدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم خالد فبايع ، ثم تقدم هو فبايعه على أن يغفر له ما كان قبله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الهجرة والإسلام يجب ما قبله » ثم بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزوة ذات السلاسل واليا ، لعلمه بالحرب والمكيدة ، وكان على مصر من قبل عمر بن الخطاب ، وكان يسرد الصوم ، باشر الحروب ، وشهد الفتنة ، وكان يخضب بالسواد ، توفي بمصر واليا عليها ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين ، ودفن يوم الفطر ، وصلى عليه ابنه عبد الله قبل صلاة الفطر ، وله نحو من مائة سنة ، وكان أحد دهاة العرب قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « أسلم الناس وآمن عمرو » وقال : « نعم أهل البيت عبد الله ، وأبو عبد الله ، وأم عبد الله » وقال : « ابنا العاص مؤمنان عمرو ، وهشام » حديثه عند ابنه عبد الله ، ومواليه : أبي قيس ، وزياد ، وهبر روى عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعلي بن رباح ، وعبد الرحمن بن شماسة ، وأبو عثمان النهدي ، وقبيصة بن ذؤيب

وسلم بحقه ومن معه : لكم هجرتان [135] وهو الذي يقول له: « يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » أخرجه البخاري ، وهو الذي أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض السرايا، وهو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مع معاذ قاضيا ومفتيا وواليا فكيف يوليه صلى الله عليه وسلم هذه المناصب وهو يعلم أنه ساذجٌ يمكن أن يخدع بسرعةٍ ؟!!!

وهذا اتهام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فقد كان قائدا في الفتوحات الإسلامية واستلم إمرة البصرة والكوفة في عهد عمر وفي عهد عثمان رضي الله عنهما ، وهو الذي أرسل له عمر رضي الله عنه رسالته المشهورة في القضاء التي تعتبر أهم مرجع مفصل حول أصول القضاء [136]

---

[135] - عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : لَقِيَ عُمَرُ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ نِعْمَ الْقَوْمِ ، لَوْلا أَنَّكُمْ سَبَقْتُمْ بِالْهِجْرَةِ فَنَحْنُ أَفْضَلُ مِنْكُمْ ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَحْمِلُ رَاجِلَكُمْ وَيُعَلِّمُ جَاهِلَكُمْ ، فَقَرَرْنَا بِدِينِنَا ، فَقَالَتْ : لَسْتُ بِرَاجِعَةٍ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي لَقِيتُ عُمَرَ فَقَالَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ : بَلَى ، لَكُمْ هِجْرَتَانِ : هِجْرَتُكُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَهِجْرَتُكُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ

المستدرك للحاكم مشكلا - (ج 4 / ص 168) وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِ سْنَادِ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

وعن بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : « خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في البحر ، حتى إذا جئنا إلى مكة ، أنا ومعي أبو عامر بن قيس ، وأبو رهم بن قيس ، وأبو بردة ، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : » لكم هجرتان ، هاجرتم إلي ، وهاجرتم إلى النجاشي «معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني - (ج 20 / ص 91)

[136] - عَنْ أَبِى الْمَلِيحِ الْهُذَلِىِّ قَالَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِى مُوسَى الأَ شْعَرِىِّ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِىَ إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَانْفُذِ الْحَقَّ إِذَا وَضَحَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لاَ نَفَاذَ لَهُ وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لاَ يَيْأَسَ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِكَ وَلاَ يَطْمَعَ الشَّرِيفُ فِى حَيْفِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً لاَ يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِى فِى الْبَاطِلِ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا تَخَلَّجَ فِى صَدْرِكَ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْكَ فِى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اعْرِفِ الأَمْثَالَ وَالأَشْبَاهَ ثُمَّ قِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِى أَمَدًا يَنْتَهِى إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ وَإِلاَّ وَجَّهْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى وَأَبْلَغُ فِى الْعُذْرِ الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ مَجْلُودٌ فِى حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبٌ فِى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ ظَنِينٌ فِى وَلاَءٍ أَوْ قَرَابَةٍ إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ وَإِيَّاكَ وَالْقَلَقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذِّىَ بِالنَّاسِ وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِى مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِى يُوجِبُ اللهُ بِهَا الأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهَا الذُّخْرَ فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ يُشِنْهُ اللهُ فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِى عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ.

وفي رواية عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى بُرْدَةَ وَأَخْرَجَ الْكِتَابَ فَقَالَ هَذَا كِتَابُ عُمَرَ ثُمَّ قُرِئَ عَلَى سُفْيَانَ مِنْ هَا هُنَا إِلَى أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِىَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لاَ نَفَاذَ لَهُ آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى مَجْلِسِكَ وَوَجْهِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِى حَيْفِكَ وَلاَ يَخَافَ ضَعِيفٌ جَوْرَكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً لاَ يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ بِالأَمْسِ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَإِنَّ الْحَقَّ لاَ يُبْطِلُهُ شَىْءٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِى فِى الْبَاطِلِ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا تَخَلَّجَ فِى صَدْرِكَ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْكَ فِى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ اعْرِفِ الأَمْثَالَ وَالأَشْبَاهَ ثُمَّ قِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِى أَمَدًا يَنْتَهِى إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ وَإِلاَّ وَجَّهْتَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى وَأَبْلَغُ فِى الْعُذْرِ الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَيْنَهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ مَجْلُودًا فِى حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبًا فِى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِى وَلاَءٍ أَوْ فِى قَرَابَةٍ فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ

، وهو الذي اعتزل الفتنة فلم يقاتل لا مع هؤلاء ولا مع أولئك ، فعَنْ أَبِى مُوسَى الأَ َشْعَرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا وَيُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ فَإِنْ دُخِلَ - يَعْنِى عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ - فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَىْ آدَمَ ».أخرجه أبو داود ، أفيكون بعد كل هذا ساذجا ؟ فإذا كان الذي اختاره ليمثله وهو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه كما هو الصحيح) فكيف يختاره رئيسا لذلك الوفد ، وهو يعلم أنه مغفل ساذج من السهولة أن يخدع ويضحك عليه، وهو يعلم من هم الذين مع معاوية (رضي الله عنه) من الحنكة والسياسة والدهاء ؟؟؟!!!

فهذا اتهام لعلي (رضي الله عنه) بإساءة الاختيار ، بل اتهام للنبي صلى الله عليه وسلم ولعمر ولعثمان ولعلي (رضي الله عنهم جميعا)

وإذا كان الذي اختاره هم جماعة علي (رضي الله عنه) كما تصور الروايات المشهورة عن الشيعة الرافضة فهل يختارون رجلا لا يعرفونه ؟!!

أم يختارون رجلا خبروه في الإمارة والقضاء والفتيا والتقى والورع ؟؟ !!

لا سيما وأنه كان أميرا على الكوفة والبصرة أكثر من مرة، فهو معروف لديهم بعلمه وحكمته ودينه ، ولذلك اختاروه لهذا السبب وأحسنوا الا ختيار، ولا سيما أنه قد حذرهم من القتال فلم يسمعوا قوله ، وبعد انتهاء القتال ثابوا إلى رشدهم وقالوا : والله لقد نصحنا أبو موسى الأشعري فلم ننتصح فعادوا إلى رأيه وأحبُوا أن يكون ممثلا عنهم .

علما أن أهل الكوفة ما كان يعجبهم أمير، وكانوا كثيري التشكي من أمرائهم (بغير حق) حتى شكوا عمارا و سعد بن أبي وقاص وغيرهما ، ومع هذا لم نسمع أنهم اشتكوا من أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

فهل الذين اختاروه كانوا من السذاجة والبلاهة بمكان ؟؟!!

اللهم لا وألف لا

 ولكن التحكيم بما أنه لم يؤد جميع أغراضه فنجد شيعة علي (رضي الله عنه) يصفون عليا ومن معه بالغفلة والسذاجة وضعف الشخصية، ظانين أنهم بذلك يمدحون عليا (رضي الله عنه) وهذا فيه غاية الذم ، وليس مدحا على التحقيق ، ولكنهم قوم لا عقول لهم، تغلب عاطفتهم عقولهم فلا ينظرون إلى الأشياء بمنظارها الصحيح .

4- هذه الرواية تصور أبا موسى الأشعري بأنه لا يسمع النصيحة ، حيث حذره من ابن عباس من ألاعيب وخدع عمرو فلم يكترث بذلك ، فهل كان أبو موسى رضي الله عنه كذلك ؟؟!!

إِيَّاكَ وَالضَّجَرَ وَالْقَلَقَ وَالتَّأَذِّىَ بِالنَّاسِ وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِى مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِى يُوجِبُ اللَّهُ بِهَا الأَ َجْرَ وَيُحْسِنُ الذُّخْرَ فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ شَانَهُ اللَّهُ .أخرجه الدارقطني وغيره وهو صحيح

الصحيح أنه لم يكن كذلك ، ومن كان قاضيا في عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم لا يكون كذلك أبدا ، وإذا كان أبو موسى الأشعري لا يسمع من القوم الذين أرسل على رأسهم مفاوضا فلماذا اختير ليكون ممثلا لهم ؟؟؟!!!
أليس هذا طعنا بمن أمّره عليهم سواء أكان عليا (رضي اللّه عنه) أم من كان معه ؟؟!!!
والمعروف عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه خلال وجوده في الكوفة أنه كان يستشير غيره ،وخاصة عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه ويرجع إلى رأيه
فما الذي غيّره هنا ولا سيما أن القضيةَ هنا تتعلقُ بمصير أمةٍ سُفكتْ فيها دماءٌ كثيرةٌ بغير حقٍّ ؟؟ !!
5- قلت قولهم بأنه أسنّ من عمرو بن العاص فكذب قطعا، لأننا إذا رجعنا لترجمته في تهذيب الكمال وتهذيب التهذيب لوجدنا أنهم قالوا توفي ما بين ((44-52)) هجرية وسنه بضع وستين سنة، فكيف يكون أكبر من عمرو الذي كان عمره أثناء التحكيم فوق الثمانين؟؟!!
فهذا يدل كذلك على غباء مختلقي هذه الرواية ليكشفهم اللّه لنا بأبسط الأ مور.
6- وكذلك قول ابن عباس له سيقدمك وسيقول لك : صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كلام فيه نظر أليس عمرا كان صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان يدنيه ويقربه ويؤمّره ، وذكر فيه من الفضائل الكثير ؟؟؟!!!
وكأن ابن عباس (رضي اللّه عنهما) يعلمُ الغيبَ ، واللّه تعالى يقول : {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} (27) سورة الجن
7- وكذلك فيها قول أبي موسى رضي اللّه عنه لعمرو: أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعلَ الأمر شورى بين المسلمين، وهنا يظهر لنا كذب هذه الرواية، لأن معاوية رضي اللّه عنه لم يكن خليفة باتفاق المسلمين ، و الخليفة الشرعي هو علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه فكيف يقول أبي موسى : أرى أن نخلع هذين الرجلين ؟؟ وكأنهما خليفتان بآن واحد ؛هذا على الشام وذاك على سائر الأقطار الأخرى !!!
وهذا كذب قطعا ، إذ لم يدعى معاويةٌ خليفةً إلا بعد استشهاد علي رضي اللّه عنه ، وتنازل الحسن بن علي رضي اللّه عنهما له عن الخلافة لأنه رآه أصلح لها من غيره .
وإذا سقطت هذه المقولة سقط جميع ما يترتب عليها من نتائج ، وبالتالي تنهار هذه الرواية الباطلة من الأساس ، وهذا هو الصحيح الذي يجب المصير إليه .
8- وكذلك قول أبي موسى الأشعري(وقد اجتمعنا على أمر واحد على خلع

علي ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيكون شورى بينهم يولون منهم من أحبوا عليهم)
فهذا القول باطل قطعاً، لأنه يقول: اجتمعنا وهذا يشير إلى ممثلين كثيرين من الطرفين والذي حصل في هذه الرواية المختلقة أن الذين اجتمعوا هما فقط عمرو وأبي موسى فأين بقية الوفد ؟ وما دورهم ؟ وهل استشيروا في هذا الأمر أم لا ؟؟!!
وإذا كان الأربعمائة من كل جانب لم نسمع عنهم شيئا فلماذا أرسلوا إذاً وهم لا قيمة لوجودهم ؟؟!!!
فهذا كذلك يكشف كذب هذه الرواية .
9- وكذلك قول أبي موسى رضي اللّه عنه (وإني قد خلعت عليا ومعاوية فولوا أمركم من رأيتم ثم تنحى)
فإذا افترضنا صحة هذه المقولة الباطلة فهل يملك أبو موسى رضي اللّه عنه أن يقول للناس هذا القول ؟؟
ومن الذي فوّضه به ؟؟
وما دور جميع من كان بدومة الجندل وهم من خيرة الصحابة ، لا نسمع لهم بهذه الرواية ذكرا فهم لم يأتوا إلا ليسمعوا ما يقول أبو موسى وعمرو (رضي اللّه عنهما ليس إلا) وهذا انتقاص كبير لهم ولدورهم ؟؟!!
والرواية باطلة من الأساس حيث لم يكن معاوية رضي اللّه عنه خليفة للمسلمين ، إذ يحرم وجود خليفتين بآن واحد ، فعـ ـنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا ». أخرجه مسلم
وفي الموسوعة الفقهية[137]:
عَقْدُ الْبَيْعَةِ لِإِمَامَيْنِ :
20 - ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ كَوْنُ إمَامَيْنِ فِي الْعَالَمِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ , وَلَا يَجُوزُ إلَّا إمَامٌ وَاحِدٌ . وَاسْتَدَلُّوا بِخَبَرِ : { إذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخِرَ مِنْهُمَا } . وقوله تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا } وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : حَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ التَّفَرُّقَ وَالتَّنَازُعَ , وَإِذَا كَانَ إمَامَانِ فَقَدْ حَصَلَ التَّفَرُّقُ الْمُحَرَّمُ , فَوُجِدَ التَّنَازُعُ وَوَقَعَتْ الْمَعْصِيَةُ لِلَّهِ تَعَالَى . فَإِنْ عُقِدَتْ لِاثْنَيْنِ مَعًا بَطَلَتْ فِيهِمَا , أَوْ مُرَتَّبًا فَهِيَ لِلسَّابِقِ مِنْهُمَا . وَيُعَزَّرُ الثَّانِي وَمُبَايِعُوهُ . لِخَبَرِ : { إذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخِرَ مِنْهُمَا } . وَإِنْ جُهِلَ السَّابِقُ مِنْهُمَا بَطَلَ الْعَقْدُ فِيهِمَا عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ , لِامْتِنَاعِ تَعَدُّدِ الْأَئِمَّةِ , وَعَدَمِ الْمُرَجِّحِ لِأَحَدِهِمَا . وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رِوَايَتَانِ : إحْدَاهُمَا : بُطْلَانُ الْعَقْدِ , وَالثَّانِيَةُ : اسْتِعْمَالُ الْقُرْعَةِ . وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إلَى أَنَّهُ إذَا تَبَاعَدَتْ الْبِلَادُ , وَتَعَذَّرَتْ الِاسْتِنَابَةُ , جَازَ تَعَدُّدُ الْأَئِمَّةِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ , وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ . .

[137] - الموسوعة الفقهية1-45 كاملة - (ج 2 / ص 2176)

وقال القرطبي[138] :
إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحَلّ والعَقد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّةً مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البَيعة لعُذْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبر وقُهر؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين ف الخليفة الأوّل وقتل الآخر؛ واختلف في قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكن عزله قتله وموْته . والأوّل أظهر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ أخرجه مسلم . وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : « ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم أيضاً؛ ومن حديث عَرْفجةَ : « فاضربوه بالسيف كائناً من كان » وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين؛ ولأن ذلك يؤدّي إلى النفاق والمخالفة و الشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأ ندلس وخراسان جاز ذلك؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .. أ

10- وقوله(وأقبل عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هذا قد قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وإني أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه)

وهذا القول باطل قطعا ، لم يحدث بتاتا ، فكيف يسوغ لمراوغ و مخادع أن يبدأ كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وهو يعلم أن الله يراه ومطلع على سره ونجواه ، كيف يحمده وهو يخالف أمره ويعصيه ؟؟؟!!

فهذا من أبين الكذب بلا شك

وكذلك من هم هؤلاء الحاضرون الذين يسمعون هذا الكذب المفضوح ثم يسكتون عليه ؟؟؟!

أليسوا خيرة الصحابة والتابعين ؟؟!!

فهل هم بهذه السذاجة حتى ينفق عليهم مثل هذا البهتان ؟؟!!

والله لا يصدق هذه الرواية بهذا الشكل المجانين من الناس ، يقوم أبو موسى الأشعري بخلع الرجلين أمام الناس ويقوم عمرو بعده فيقول للناس (إن هذا قد قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وإني أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية....)

أي أكذوبة هذه التي تقال في هذا المكان ويصدقها الناس ؟؟!!

لأن هذا لم يحدث قطعا وفيه تهمة لجميع الحاضرين ، وكيف يسكتون على مثل هذا الإفك المبين ؟؟؟!!!

ألم يؤمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ؟؟!!

علما أن المكان الذي جرى فيه التحكيم ليس فيه سيطرة لأهل الشام

[138] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - (ج 1 / ص 103)

فيكف يتجرأ عمرو بهذا القول الباطل ويسكتون عنه ؟؟
أو يصدقونه والكذبة واضحة جلية أمامهم ؟؟!!
فهذه المقولة لم تحدث في التاريخ كله، ولن تحدث إلا في أدمغة السبئية والرافضة المفترين على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى خيرة أصحابه بما فيهم علي رضي الله عنه ،
كما أن معاوية رضي الله عنه لم يطالب بالخلافة في هذا الاجتماع أصلا فكيف يقول عمرا هذا القول ويسكت الناس عليه ؟؟؟!!!
11- وأما قول سعد رضي الله عنه له (فقال سعد بن أبي وقاص ويحك يا أبا موسى ما أضعفك عن عمرو ومكائده فقال أبو موسى فما أصنع جامعني على أمر ثم نزع عنه)
فهذا يدل على ضعف شخصية سعد رضي الله عنه فلماذا لم يقم بالرد على عمرو وهو يعلم أنه كاذب فيما يقول ؟؟!!
وهل كان سعد رضي الله عنه جبانا حتى لا يتجرأ بالرد عليه ؟؟!!!
فهذه تهمة باطلة لسعد رضي الله عنه (إن صح حضوره) وهو الذي عرف عنه الصدع بالحق فحتى معاوية رضي الله لما صار خليفة لم يكن سعد يخافه أو يتملقه وهاك هذه الحادثة فقد روى الترمذي عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَمَّرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِى سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا تُرَابٍ قَالَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلاَثًا قَالَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَلَنْ أَسُبَّهُ لأَنْ تَكُونَ لِى وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ لِعَلِىٍّ وَخَلَفَهُ فِى بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِىٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخْلُفُنِى مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نُبُوَّةَ بَعْدِى ». وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ». قَالَ فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ « ادْعُ لِى عَلِيًّا ». فَأَتَاهُ وَبِهِ رَمَدٌ فَبَصَقَ فِى عَيْنِهِ فَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) الآيَةَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ « اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِى ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
فمن كان بهذه الصفة لا يسكت على باطل أبدا
ولكن مختلقوا هذه الرواية لا يهمهم اتهام جميع الصحابة بالجبن والضعف والسذاجة ، وذلك لأنهم في حقيقة الأمر حاقدون على هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين لولاهم لما وَصَلَنا هذا الدينُ ولمَا كنا مسلمين .
فتبا للكذابين والحاقدين
والصحيح أنه لم يحضر التحكيم أساسا ، وسيرد تفصيل ذلك عند ابن كثير بعد قليل
12- وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما (فقال ابن عباس لا ذنب لك

يا أبا موسى الذنب لغيرك الذي قدمك في هذا المقام فقال أبو موسى رحمك اللّه غدرني فما أصنع ؟)
فيه تهمة لمن جعل أبا موسى رئيسا للوفد المفاوض وهو إما علي رضي اللّه عنه ((وهو الصحيح)) وإما جماعة علي رضي اللّه عنه
فقد اتهمهم بالجهل فكيف يولون مغفلا وساذجا وجاهلا ؟؟!!!
وفيه اتهام لأبي موسى الأشعري بالغباء
وكذلك ضعف شخصية أبي موسى حيث قال له (رحمك اللّه غدرني فما أصنع ؟)
وكل ذلك في الحقيقة لم يحدث أصلا
13- وأما قول أبي موسى لعمرو (وقال أبو موسى لعمرو إنما مثلك ك الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث)
وقول عمرو له (فقال عمرو إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفارا)
فمن يصدق بمثل هذا الهراء ؟؟
ومن يقول ذلك هل هو مسلم حقا ؟؟!!
والمعروف من سيرة الرجلين أنهما من أبعد الناس عن هذا الكلام الباطل
فهذين المثلين قيلا في كتاب اللّه تعالى عن الكفار والفجار فهل انعدم الدين عند الرجلين حتى يتهم كل منهما الآخر بهذه التهمة الخطيرة ؟؟؟!!
وهذا طعن بأبي موسى وعمرو معا والنبي صلى اللّه عليه وسلم يقول « إِنّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِاللّعّانِ وَلَا ٍ الطّعّانِ وَلَا ٍ الْفَاحِشِ وَلَا ٍ الْبَذِيءِ »
أخرجه أحمد وهو صحيح
وكيف يسكت الحاضرون وهم من خيرة الناس على هذا الضلال المبين ؟؟!!!
فهذا اتهام لهم جميعا بالسكوت على الباطل ، وإذا كانوا كذلك فلم جاءوا إلى دومة الجندل ؟؟!!
14- وأما قول ابن عمر رضي اللّه عنهما (فقال ابن عمر إلى ما صيرت هذه الأمة إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف)
فهو اتهام للرجلين ، فالأول ليس عنده دين ولا خلق ومن ثم لا يبالي بما يصنع في سبيل الوصول إلى أهدافه
والثاني ضعيف الشخصية والرأي
ولكن هل كان الرجلان كذلك ؟؟!!
وهل قال ابن عمر رضي اللّه عهما هذا القول ؟؟
والصحيح أنه لم يقله بل هو مفترى عليه ، فلماذا لم يقم ابن عمر بالرد على عمرو بن العاص ؟!!
فهل كان جبانا ؟؟ وما الذي منعه من ذلك ؟؟
والمعروف من سيرته أنه كان لا يخاف في اللّه لومة لائم وقد كان يرد على الخلفاء والأمراء دون استثناء وكان نعم الناصح لهم والمنكر عليهم ما أخطئوا فيه

فهاهم دعاة ابن الزبير (رضي الله عنهما) قد أشاعوا الأكاذيب والأراجيف بعد مقتل الحسين (رضي الله عنه) على يزيد بن معاوية وطالبوا أهل المدينة بنقض بيعته وصدّقهم كثير من الناس ، وغلبت دعايتهم فماذا كان موقف ابن عمر رضي الله عنهما من ذلك ؟؟!!

فهل سكت ؟؟!!

أم أجابهم لنقض بيعة يزيد ؟؟!!

كل ذلك لم يكن بل وقف في وجههم وحذرهم وأنكر عليهم فعلتهم الشنعاء دون خوف ولا وجل إلا من الله تعالى ففي صحيح مسلم عَنْ نَافِعٍ قَالَ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ اطْرَحُوا لأَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً فَقَالَ إِنِّى لَمْ آتِكَ لأَجْلِسَ أَتَيْتُكَ لأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِىَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِى عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ».

وفي البخاري عَنْ نَافِعٍ قَالَ لَمَّا خَلَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوَلَدَهُ فَقَالَ إِنِّى سَمِعْتُ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّى لاَ أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ الْقِتَالُ وَإِنِّى لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ وَلاَ بَايَعَ فِى هَذَا الأَمْرِ إِلاَّ كَانَتِ الْفَيْصَلَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ.

فهذه المقولة على عبد الله كذب بلا شك

15- وأما قول عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما : (لو مات الأشعري من قبل هذا كان خيرا له)

فلماذا لم يرد على عمرو مقولته ، وهو الذي وصف في ترجمته بأنه أشجع رجال قريش فأين ذهبت شجاعته ؟؟!!!

والصواب أنه لم يتفوه بحرف من ذلك

كما أن فيه ذما لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه الذي أمّره واستقضاه من هو خير من عبد الرحمن أفكانوا لا يعرفونه ؟؟ وإلا فكيف يولون ويستقضون من هو بهذه الشاكلة ؟؟

وقد كان من القلائل الذين لم يعزلهم عمر رضي الله عنه أفكان غافلا عنه ؟؟!!

================

18- وأما الإمام ابن كثير رحمه الله في فقد خلط الغث بالسمين ، وكان بإمكانه التحقق من جميع الروايات الواردة في هذا الأمر ، وقد اعتمد على الطبري في غالب ما نقله

قال حول قصة التحكيم[139] :

ثم تراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات يطول ذكرها على التحكيم، وهو أن يحكّم كل واحد من الأميرين - علي ومعاوية - رجلا ً من جهته ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين.

فوكل معاوية عمرو بن العاص، وأراد علي أن يوكل عبد الله بن عباس - وليته فعل - ولكنه منعه القراء ممن ذكرنا، وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري.

((قلت : رددنا على هذه المقولة حول تأمير أبي موسى ، ونحن نطالب بـ الدليل الصحيح على أن عليا رضي الله عنه أكره على أبي موسى ، ولا يوجد دليل يعول عليه إلا من رواية الكذابين الأفاكين الذين لا يجوز تصديقهم ، والذي لا يستطيع أن يختار رجلا يمثله فليس بأهل أن يكون إماما للمسلمين ، ونحن نربأ بعلي رضي الله عنه عن هذه المرتبة ، ولكن الكذابين لا يربئون فيصفونه بكل الصفات القبيحة وهم يظنون بذلك أنهم يمدحونه وهو الذم الشديد دون أن يدروا !!!))

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج له: أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال.

((قلت : الهيثم بن عدي لا يجوز الاحتجاج به ولا بما يرويه من أخبار

ففي ميزان الاعتدال في نقد الرجال1 ج: 7 ص: 111

9046 9319 الهيثم بن عدي الطائي أبو عبد الرحمن المنبجي ثم الكوفي

قال البخاري ليس بثقة كان يكذب

قال يعقوب بن محمد حدثنا عبد الرحمن من أهل منبج وأمه من سبي منبج سكتوا عنه وروى عباس عن يحيى ليس بثقة كان يكذب

وقال أبو داود كذاب

وقال النسائي و غيره متروك الحديث

قلت كان أخباريا علامة روى عن هشام بن عروة و عبد الله بن عياش المنتوف و مجالد

وقال ابن عدي ما أقل ما له من المسند إنما هو صاحب أخبار

وقال ابن المديني هو أوثق من الواقدي ولا أرضاه في شيء

ومن مناكيره حدثنا مجالد عن الشعبي عن عدي بن حاتم مرفوعا إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه

داود بن رشيد حدثنا الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب عن عبد الملك بن عمير قال قال الحارث بن كلدة من بلغ الخمسين فلا يقربن الحجامة ولا يأخذ من الدواء إلا ما لا بد منه إنه لا يصلح شيئا إلا أفسده غيره

أحمد بن عبيد بن ناصح حدثنا الهيثم عن أبيه عن عائشة نهى رسول الله

---

[139] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 402) فما بعد

عن القران وأن تفتش التمرة عما فيها
قال عباس الدوري حدثنا بعض أصحابنا قال قالت جارية الهيثم بن عدي كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي فإذا أصبح جلس يكذب
مات الهيثم سنة سبع ومائتين عن ثلاث وتسعين و حديثه يقع في جزء أبي الجهم)) ومثله في اللسان 209/6
وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز، قال علي: فإني أجعل الأشتر حكماً.
فقالوا: وهل سعر الحرب وشعر الأرض إلا الأشتر ؟
قال: فاصنعوا ما شئتم.
فقال الأحنف لعلي: والله لقد رميت بحجر، إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً وثالثاً، فإنه لن يعقد عقدة إلا أحلها، ولا يحل عقدة عقدتها إلا عقدت لك أخرى مثلها أو أحكم منها.
قال: فأبوا إلا أبا موسى الأشعري فذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري - وكان قد اعتزل - فلما قيل له: إن الناس قد اصطلحوا.
قال: الحمد لله.
قيل له: وقد جعلت حكماً.
فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أخذوه حتى أحضروه إلى علي رضي الله عنه.
وكتبوا بينهم كتاباً هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين.
فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم وليس بأميرنا.
فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين.
فقال علي: امح أمير المؤمنين واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.
فكتب الكاتب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله وكتابه ونحيي ما أحيى الله، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله - وهما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص - عملا ً به، وما لم يجدا في كتاب الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة. (ج/ص: 307/7)
((قصة الكتاب والمحو وغير ذلك كلها كذب لأنها من رواية الهيثم بن عدي الكذاب))

ثم أخذ الحكمان من علي، ومعاوية، ومن الجندين، العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنهما على ما في هذه الصحيفة، وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك على تراض منهما.

وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح.

وقد ذكر الهيثم في كتابه في (الخوارج): أن الأشعث بن قيس لما ذهب إلى معاوية بالكتاب وفيه: هذا ما قاضى عبد الله علي أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان.

قال معاوية: لو كان أمير المؤمنين لم أقاتله، ولكن ليكتب اسمه وليبدأ به قبل اسمي لفضله وسابقته.

فرجع إلى علي فكتب كما قال معاوية.

((قلت : وهذا كذب أيضا لأنه من نفس الرواية السابقة، ومعاوية لم ينازع عليا الخلافة وإنما الخلاف حول إقامة الحد على قتلة عثمان رضي الله عنه))

وذكر الهيثم: أن أهل الشام أبوا أن يبدأ باسم علي قبل معاوية وباسم أهل العراق قبلهم حتى كتب كتابان كتاب لهؤلاء فيه تقديم معاوية على علي وكتاب آخر لأهل العراق بتقديم اسم علي وأهل العراق على معاوية وأهل الشام.

((وهذا كذب أيضا من أجل الهيثم الكذاب))

وهذه تسمية من شهد على هذا التحكيم من جيش علي: عبد الله بن عباس ، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، وعبد الله بن الطفيل المعافري، وحجر بن يزيد الكندي، وورقاء بن سمي العجلي، وعبد الله بن بلال العجلي، وعقبة بن زياد الأنصاري، ويزيد بن جحفة التميمي، ومالك بن كعب الهمداني، فهؤلاء عشرة.

وأما من الشاميين فعشرة آخرون وهم: أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومخارق بن الحارث الزبيدي، ووائل بن علقمة العدوي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، وحمزة بن مالك الهمداني، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، ويزيد بن الحر العبسي.

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب يقرؤه على الناس، ويعرضه على الطائفتين، ثم شرع الناس في دفن قتلاهم.

قال الزهري: بلغني أنه دفن في كل قبر خمسون نفساً، وكان علي قد أسر جماعة من أهل الشام.

(ج/ص: 7/308)
فلما أراد الانصراف أطلقهم، وكان مثلهم أو قريب منهم في يد معاوية وكان قد عزم على قتلهم لظنه أنه قد قتل أسراهم، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم أطلق معاوية الذين في يده.
ويقال: إن رجلا ً يقال له عمرو بن أوس - من الأزد -كان من الأسارى فأراد معاوية قتله فقال: امنن عليّ فإنك خالي.
فقال: ويحك! من أين أنا خالك؟
فقال: إن أم حبيبة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أم المؤمنين وأنا ابنها وأنت أخوها وأنت خالي.
فأعجب ذلك معاوية وأطلقه.
وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وذكر أهل صفين - فقال: كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنوهم.
قال الشعبي: هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد.

اجتماع الحكمين أبي موسى وعمرو بن العاص بدومة الجندل.
وذلك في شهر رمضان كما تشارطوا عليه وقت التحكيم بصفين.
وقال الواقدي: اجتمعوا في شعبان وذلك أن علياً رضي الله عنه لما كان مجيء رمضان بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانئ، ومعهم أبو موسى، وعبد الله بن عباس، وإليه الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام ومنهم عبد الله بن عمر، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح - وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام، بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل - وشهد معهم جماعة من رؤوس الناس، كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي.
وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري، وأبي جهم بن حذيفة.
وزعم بعض الناس أن سعد بن أبي وقاص شهدهم أيضاً، وأنكر حضوره آخرون.
وقد ذكر ابن جرير أن عمر بن سعد خرج إلى أبيه وهو على ماء لبني سليم بالبادية معتزل: فقال يا أبة: قد بلغك ما كان الناس بصفين، وقد حكم الناس أبا موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش، فأشهدهم فإنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد أصحاب الشورى ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة فاحضر إنك أحق الناس بـ الخلافة.
فقال: لا أفعل! إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنه

ستكون فتنة خير الناس فيها الخفي البقي)) والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً.
وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي عبد الكبير بن عبد المجيد، ثنا بكر بن سمار، عن عامر بن سعد أن أخاه عمر انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب.
فلما أتاه قال: يا أبة أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟
فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي))، وهكذا رواه مسلم في صحيحه.
وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الملك بن عمرو، ثنا كثير بن زيد الأسلمي، عن المطلب، عن عمر بن سعد، عن أبيه أنه جاءه ابنه عامر فقال: يا أبة: الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ههنا؟
فقال: يا بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً؟ لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنه، وإن ضربت به كافراً قتلته، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله يحب الغني الخفي التقي)).
وهذا السياق كان عكس الأول، والظاهر أن عمر بن سعد استعان بأخيه عامر على أبيه ليشير عليه أن يحضر أمر التحكيم لعلهم يعدلون عن معاوية وعلي ويولونه فامتنع سعد من ذلك وأباه أشد الأباء وقنع بما هو فيه من الكفاية والخفاء.
كما ثبت في (صحيح مسلم) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)).
وكان عمر بن سعد هذا يحب الإمارة، فلم يزل ذلك دأبه حتى كان هو أمير السرية التي قتلت الحسين بن علي رضي الله عنه، كما سيأتي بيانه في موضعه، ولو قنع بما كان أبوه عليه لم يكن شيء من ذلك.
والمقصود أن سعداً لم يحضر أمر التحكيم، ولا أراد ذلك، ولاهم به، وإنما حضره من ذكرنا. (ج/ص: 7/314)
((قلت : وهذا يكذب تلك الرواية المكذوبة التي تذكر حضوره وقوله))
فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما.
((قلت : معاوية لم يكن خليفة للمسلمين آنذاك حتى يعزل ، ولو قال: اتفقوا على أن يجعل أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، لكان كلامه صوابا ومعقولا ، وأما أن يخلعا الاثنين فغير صحيح قطعا كما بينا من قبل))
وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال له عمرو: فولِّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد.
فقال له أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك، وهو مع ذلك

رجل صدق.
((قلت : وبهذه الرواية يظهر أنهما كانا متفقين، وإنما اختلفا على من سيكون خليفة للمسلمين وأشار أبو موسى إلى ابن عمر رضي الله عنهما ، وعمرو لم يطرح نفسه ولا معاوية ولكنه طرح ولده عبد الله فقال له أبو موسى : قد غمسته في الفتنة، ولن نولي أحدا اشترك فيها مع أنه رجل صدق ، أقول : بالرغم أن عبد الله لم يقاتل وإنما كان معهم بسبب حديث ذكره أبوه له وهذه الرواية منطقية ومعقولة))
قال أبو مخنف: فحدثني محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال عمرو بن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم.
وكان ابن عمر فيه غفلة، فقال له ابن الزبير: افطن وانتبه.
فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، ثم قال: يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف، وتشاكت بالرماح، ف لا تردنهم في فتنة مثلها أو أشد منها ثم إن عمرو بن العاص حاول أبا موسى على أن يقر معاوية وحده على الناس فأبى عليه، ثم حاوله ليكون ابنه عبد الله بن عمرو هو الخليفة، فأبى أيضاً.
وطلب أبو موسى من عمرو أن يوليا عبد الله بن عمر فامتنع عمرو أيضاً، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعلياً ويتركا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على من يختاروه لأنفسهم.
ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس - وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى بل يقدّمه في كل الأمور أدباً وإجلالا ً - فقال له: يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.
فخطب أبو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على رسول الله صلى لله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألم لشعثها، من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت علياً ومعاوية.
ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وهو أحق الناس بمقامه - وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب.
ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ورد عليه عمرو بن العاص مثله.
((قت : في هذا الخبر أمور كثيرة :
1- أبو مخنف لوط بن يحيى ففي الجرح والتعديل ج: 7 ص: 182
1030 لوط بن يحيى أبو مخنف روى عن صقعب بن زهير ومجالد بن

سعيد روى عنه أبو زهير عبد الرحمن بن مغراء سمعت أبى يقول ذلك نا عبد الرحمن قال قرئ على العباس بن محمد الدوري قال سمعت يحيى بن معين يقول أبو مخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال سمعت أبى يقول أبو مخنف متروك الحديث

وفي ميزان الإعتدال في نقد الرجال1 ج: 5 ص: 508

6998 6832 لوط بن يحيى أبو مخنف أخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره وقال الدارقطني ضعيف وقال ابن معين ليس بثقة وقال مرة ليس بشيء وقال ابن عدي شيعي محترق صاحب أخبارهم قلت روى عن الصعق بن زهير وجابر الجعفي ومجالد روى عنه المدائني وعبد الرحمن بن مغراء مات قبل السبعين ومائة

وبما أن هذا التالف قد تفرد بهذه الرواية فخبره تالف مثله تماما فلا يعول عليه لا من قريب لا من بعيد))

2- وكذلك قول عمرو بن العاص (إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم.)

قلت : هذا قول باطل لا يمكن أن يقوله عمرو، فلسيت القوة وإطعام الناس كافية لرجل ما لأن يكون خليفة للمسلمين .

3- وقوله (وكان ابن عمر فيه غفلة، فقال له ابن الزبير: افطن وانتبه.)

فيه اتهام لابن عمر رضي الله عنهما بأنه فيه غفلة ، وهذا كذب قطعا فلم يكن ابن عمر رضي الله عنهما كذلك أبدا وسيرته وحياته تكذب هذه الفرية عليه ، وهل يحتاج ابن عمر لأن ينبهه ابن الزبير (رضي الله عنهما على ذلك) وهو الذي كان ينكر على ابن الزبير تصرفاته فيما حول الخلافة ولم يقبل مبايعته ؟؟!!

4- وقوله (فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، ثم قال: يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف، وتشاكت بالرماح، فلا تردنهم في فتنة مثلها أو أشد منها)

((وهل الخلافة تحتاج إلى رشوة حتى يصبح الإنسان خليفة ؟؟

أي أن المناصب تباع وتشرى ، وهذا كذب لم يحدث قطعا ،ثم تحذير ابن عمر لعمرو وهو لا يرتدع فهذا كذلك ليس صحيحا

5- وقوله (ثم إن عمرو بن العاص حاول أبا موسى على أن يقر معاوية وحده على الناس فأبى عليه، ثم حاوله ليكون ابنه عبد الله بن عمرو هو الخليفة، فأبى أيضاً.

وطلب أبو موسى من عمرو أن يوليا عبد الله بن عمر فامتنع عمرو أيضاً، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعلياً ويتركا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على من يختاروه لأنفسهم.)

أقول : من الذي فوضهما أن يختارا خليفة المسلمين من دون الحاضرين ؟؟!!

وما هو دور الحاضرين ؟؟!! وكأن المسالة بين عمرو وأبي موسى ولا أحد

معهما من الناس وهذا من الإفك المبين

6- وقوله (فخطب أبو موسى الناس فحمد اللّٰه وأثنى عليه، ثم صلى على رسول اللّٰه صلى لله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألم لشعثها، من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا ا لأمر فيولوا عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت علياً ومعاوية.

ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وهو أحق الناس بمقامه -)

((قلت : هذه الرواية كذب من وجوه بينتها من قبل منها أن معاوية لم يكن خليفة ومنها كيف يخطب أبو موسى أمام الناس ثم عمرو ويقول بعكس ما اتفق عليه علنا وأمام الناس ويسكت الناس ، فمن هم هؤلاء الذين يسكتون على هذا الإفك ؟؟!!!

وهذه الرواية لا تصدق إلا في حال واحدة وهي أن تكون تلك الخطبة على المقبرة يخاطب بها الأموات وليس الأحياء

كما أن أولها ينسف آخرها فكيف يتفاوض الرجلان على خليفة جديد قبل خلع القديم ؟؟!!

والتفاوض على الخليفة الجديد لا يكون إلا بعد الاتفاق على خلع القديم ، أي أنهما على حد زعم الرواية خلعا عليا ومعاوية ثم أخذ كل واحد منهما يطرح شخصا ليس نفسه كيف يكون هذا ؟؟!!

الشيء المنطقي هو أنهما بعد اتفاقهما أمام الناس على خلع الرجلين بعد ذلك يختاران شخصا آخر

والصحيح أن هذا لم يحدث ولم يكن إلا في دماغ ذاك الأفاك صاحب هذه الرواية لوط بن يحيى عليه من اللّٰه ما يستحق))

7- وأما تبرير ما قاله ابن كثير بقوله (وكان عمرو بن العاص رأي أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب.))

((قلت : كان الأجدر بك أن تبين أن هذه الرواية باطلة دون تكلف هذا التبرير وأنت الإمام المحدث الكبير فلا يخفى عليك مثلها !!!!

وقد كان علي رضي اللّٰه عنه خليفة للمسلمين ، فهذا التبرير ليس صحيحا لأنه يستند إلى رواية باطلة وما بني على باطل فهو باطل مثله لزاما))

8- وقوله (ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ورد عليه عمرو بن العاص مثله.)

((قلت : نعم ورد برواية موضوعة أخرى ذكرها ابن عساكر في ترجمة عمرو وقد فندناها سابقا وبينا بطلانها))

9- وذكر ابن جرير أن شريح بن هانئ - مقدم جيش علي - وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط، وقام إليه ابنٌ لعمر فضربه بالسوط، وتفرق الناس في كل وجه إلى بلادهم، فأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بتحية الخلافة.

((قلت : هذا كله من رواية ذاك الأفاك أبو مخنف فهي باطلة لا يعول عليها))

وأما أبو موسى فاستحيى من علي فذهب إلى مكة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو، فاستضعفوا رأي أبي موسى وعرفوا أنه لا يوازن عمرو بن العاص.

((وكذلك هذا بقية تلك الرواية الباطلة))

فذكر أبو مخنف عن أبي جناب الكلبي أن علياً لما بلغه ما فعل عمرو كان يلعن في قنوته معاوية، وعمرو بن العاص، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، والضحاك بن قيس، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والوليد بن عتبة. (ج/ص: 7/315)

فلما بلغ ذلك معاوية كان يلعن في قنوته علياً، وحسناً وحسيناً، وابن عباس ، والأشتر النخعي، ولا يصح هذا والله أعلم..

((قلت : هذا الخبر كذب لا شك فأبو مخنف متروك وشيخه أبو جناب واه وساقط منه روايان ولذلك عقب ابن كثير بقوله ولا يصح هذا ولكن قل بل هو باطل))

فأما الحديث الذي قال البيهقي في (الدلائل): أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا إسماعيل بن الفضل، ثنا قتيبة بن سعيد، عن جرير، عن زكريا بن يحيى، عن عبد الله بن يزيد وحبيب بن يسار، عن سويد بن غفلة قال: إني لأمشي مع علي بشط الفرات.

فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين، فضلا ً وأضلا ً، وإن هذه الأ مة ستختلف، فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين، فيضلا ّن ويضلا ّن من اتبعهما)).

فإنه حديث منكر ورفعه موضوع والله أعلم.

إذ لو كان هذا معلوماً عند علي لم يوافق على تحكيم الحكمين حتى لا يكون سبباً لإضلال الناس، كما نطق به هذا الحديث.

وآفة هذا الحديث هو: زكريا بن يحيى وهو الكندي الحميري الأعمى، قال ابن معين: ليس بشيء..

((قلت : نعم إنه خبر موضوع))

وقد ذكر ابن خلدون مع الأسف رواية الطبري دون أن يعقب عليها ، وبذا نكون قد رددنا على جميع الروايات المكذوبة في هذه القضية الجلل

================

الخوارج[140]

كانت مصيبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جيشه أضخم من مصيبته فيمن خالفه وحاربه في الجمل وصِفّين، فبينما كانت طائفةٌ كبيرة من هذا الجيش أهلَ شَغبٍ؛ اعترضوا على أميرهم، وأثاروا الفتن إشعالا للقتال بين أمير المؤمنين وبين مَنْ يُخالِفُه ـ كانت الجيوشُ المخالِفةُ لعليٍّ دائما تجنح للصلح وحقن الدماء ولزوم أبواب الحق إذا تبين لها.

وقد انصرف أمير المؤمنين من صفين وجيشُه في شِقاق واختلاف: فريق منه راضٍ بالتحكيم ظنا منهم أنه حاسم للخلاف وجامع لكلمة المسلمين، وفريق كاره له يقول: كيف تُحكّم في دين الله الرجالَ؟! وهؤلاء اعتزلوا إخوانهم، يقولون لهم: داهَنْتُم في دين الله، وأولئك يقولون: فارقتُم إمامَنا.

وسلك عليٌّ من صِفّين طريقَ البرّ على شاطئ الفرات حتى انتهى إلى هِيت، ثم جاوز النخيلة، فلما دخل الكوفة سمع رجلا يقول: والله ِ ما صنع عليٌّ شيئا، ذهب ثم انصرف في غير شيء!

فقال عليّ: "لَلذين فارقْناهم خيرٌ من هؤلاء".

ثم مضى ـ رضي الله عنه ـ فجعل يذكر الله ـ عز وجل ـ حتى دخل دار الإ مارة في الكوفة، وقبلها حين قارب دخول الكوفة، اعتزله من جيشه قريبٌ من اثني عشر ألفًا، وهم الخوارج، ورفضوا أن يُساكِنُوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له حَرُوراء، وأنكروا عليه أشياءَ يزعمون أنه أخطأ فيها، فبعث إليهم عبد الله بن عباس، فناظرهم فرجَع أكثرُهم، وبقي بعضهم على الخروج ، وظهر أمرُهم واشتدّ، وأفسدوا في الأرض، وتعاهدوا فيما بينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على الناس في ذلك.

وكانوا يُعلنون عن آرائهم ويَصيحون صيحتَهم: لا حُكْمَ إلا لله، فكان الإمام علي يقول: "كلمة حق أُرِيدَ بها باطلٌ". ثم جعلوا يعرّضون به في كلامهم، ويُسْمِعُونه شتمًا.

ولما بعث عليّ أبا موسى ومَنْ معه من الجيش إلى دُومَة الجَنْدَل في التحكيم، اشتد أمرُ الخوارج، وبالغوا في النكير على عليّ وصرّحوا بكفره، وفَشَا فيهم ذلك وجاهروا به الناسَ، وتعرضوا لعليٍّ أثناء خُطبة له، وأسمعوه السبّ والشتم والتعريض بآيات من القرآن، فصبر على أذاهم وقال: "إن لكم عندنا ثلاثا: لا نمنعُكم صلاةً في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبَكم من هذا الفَيْءِ ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا".

ولم يكتفوا بذلك حتى اجتمعوا في منزل أحدهم لاختيار أمير لهم، ثم اجتمعوا بعد ذلك للترتيب لخروجهم من الكوفة ليعتزلوا في مكان آخر؛ فخرجوا إلى موضع يقال له: النهروان، فسار إليهم أمير المؤمنين، ودارتْ موقعةُ النّهروان على رقاب الخوارج.

=========

[140] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 109) فما بعدها

مناظرة ابن عباس للخوارج

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْقَارِىِّ قَالَ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَنَحْنُ عِنْدَهَا جُلُوسٌ مَرْجِعَهُ مِنَ الْعِرَاقِ لَيَالِىَ قُتِلَ عَلِىٌّ فَقَالَتْ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ شَدَّادٍ هَلْ أَنْتَ صَادِقِى عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ تُحَدِّثُنِى عَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِىٌّ. قَالَ وَمَا لِى لاَ أَصْدُقُكِ قَالَتْ فَحَدِّثْنِى عَنْ قِصَّتِهِمْ. قَالَ فَإِنَّ عَلِيًّا لَمَّا كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ وَحَكَمَ الْحَكَمَانِ خَرَجَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ فَنَزَلُوا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا حَرُورَاءُ مِنْ جَانِبِ الْكُوفَةِ وَإِنَّهُمْ عَتَبُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ اللهُ تَعَالَى وَاسْمٍ سَمَّاكَ اللهُ تَعَالَى بِهِ ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِى دِينِ اللهِ فَلاَ حُكْمَ إِلاَّ لِلَّهِ تَعَالَى. فَلَمَّا أَنْ بَلَغَ عَلِيًّا مَا عَتَبُوا عَلَيْهِ وَفَارَقُوهُ عَلَيْهِ فَأَمَرَ مُؤَذِّنًا فَأَذَّنَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ. فَلَمَّا أَنِ امْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ دَعَا بِمُصْحَفٍ إِمَامٍ عَظِيمٍ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ أَيُّهَا الْمُصْحَفُ حَدِّثِ النَّاسَ. فَنَادَاهُ النَّاسُ فَقَالُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِى وَرَقٍ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ فَمَاذَا تُرِيدُ قَالَ أَصْحَابُكُمْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَرَجُوا بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ اللهِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ فِى امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- أَعْظَمُ دَماً وَحُرْمَةً مِنِ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ وَنَقَمُوا عَلَىَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ عَلِىُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشاً فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فَقَالَ سُهَيْلٌ لاَ تَكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ « كَيْفَ نَكْتُبُ ». فَقَالَ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « فَاكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ». فَقَالَ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَمْ أُخَالِفْكَ. فَكَتَبَ « هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قُرَيْشاً » يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ) فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِىٌّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ فَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْنَا عَسْكَرَهُمْ قَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ إِنَّ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ فَأَنَا أُعَرِّفُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا يَعْرِفُهُ بِهِ هَذَا مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ وَفِى قَوْمِهِ (قَوْمٌ خَصِمُونَ) فَرُدُّوهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَلاَ تُوَاضِعُوهُ كِتَابَ اللهِ. فَقَامَ خُطَبَاؤُهُمْ فَقَالُوا وَاللهِ لَنُوَاضِعَنَّهُ كِتَابَ اللهِ فَإِنْ جَاءَ بِحَقٍّ نَعْرِفُهُ لَنَتَّبِعَنَّهُ وَإِنْ جَاءَ بِبَاطِلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بِبَاطِلِهِ فَوَاضَعُوا عَبْدَ اللهِ الْكِتَابَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ فِيهِمُ ابْنُ الْكَوَّاءِ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى عَلِىٍّ الْكُوفَةَ فَبَعَثَ عَلِىٌّ إِلَى بَقِيَّتِهِمْ فَقَالَ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِ النَّاسِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ فَقِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ حَتَّى تَجْتَمِعَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ تَسْفِكُوا دَماً حَرَاماً أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلاً أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ يَا

ابْنَ شَدّادٍ فَقَدْ قَتَلَهُمْ. فَقَالَ وَاللهِ مَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ حَتّى قَطَعُوا السّبِيلَ وَسَفَكُوا الدّمَ وَاسْتَحَلّوا أَهْلَ الذّمّةِ. فَقَالَتْ آللهِ قَالَ آللهِ الّذِى لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ لَقَدْ كَانَ. قَالَتْ فَمَا شَىْءٌ بَلَغَنِى عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَتَحَدّثُونَهُ يَقُولُونَ ذُو الثُّدَىّ وَذُو الثُّدَىّ. قَالَ قَدْ رَأَيْتُهُ وَقُمْتُ مَعَ عَلِىّ عَلَيْهِ فِى الْقَتْلَى فَدَعَا النّاسَ فَقَالَ أَتَعْرِفُونَ هَذَا فَمَا أَكْثَرَ مَنْ جَاءَ يَقُولُ قَدْ رَأَيْتُهُ فِى مَسْجِدِ بَنِى فُلاَنٍ يُصَلِّى وَرَأَيْتُهُ فِى مَسْجِدِ بَنِى فُلاَنٍ يُصَلِّى وَلَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِثَبَتٍ يُعْرَفُ إِلاّ ذَلِكَ. قَالَتْ فَمَا قَوْلُ عَلِىّ حِينَ قَامَ عَلَيْهِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِرَاقِ. قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ. قَالَتْ هَلْ سَمِعْتَ مِنْهُ أَنّهُ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالَ اللّهُمّ لاَ. قَالَتْ أَجَلْ صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ يَرْحَمُ اللهُ عَلِيًّا إِنّهُ كَانَ مِنْ كَلاَمِهِ لاَ يَرَى شَيْئاً يُعْجِبُهُ إِلاّ قَالَ صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ فَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ فِى الْحَدِيثِ.أخرجه أحمد وغيره وهو حديث حسن

==============

الخروج إلى النهروان[141]

اجتمع الخوارج ووقع اختيارُهم على عبد الله بن وهب الراسبي أميرا لهم، وكانوا يجتمعون كثيرا في بيوتهم لتصريف شئونهم وتحديدِ أهدافِهم و التخطيط لتنفيذها، وفي أحدِ هذه الاجتماعات قال ابن وهب: اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنْفاذ حكم الله، فإنكم أهل الحق، فقال أحدهم: نخرج إلى المدائن فننزلها، فنتملكها، ونُخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيَقْدمون علينا.

فقال آخر: إنكم إنْ خرجْتم مجتمعين اتُّبِعتم ومُنعتم، ولكن اخرجُوا وحدانًا مستَخْفِين لئلا يفطَن بكم، فأما المدائن فإن بها مَنْ يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسرَ النّهْروان، وتكاتِبُوا إخواتكم من أهل البصرة، قالوا: هذا الرأيُ.

وكتب عبد الله بن وهب كتابا عاما إلى مَنْ هو على مذهبهم ومَسلكهم من أهل البصرة وغيرِها، وبعثُوا به إليهم ليوافُوهم، ويكونوا يدًا واحدة على الناس.

فلما عزموا على المسير تعَبّدُوا ليلتَهم ـ وكانت ليلة الجمعة ـ وساروا يوم السبت، ثم خرجُوا يتسلّلون فرادى لئلا يعلم أحد بهم فيمنعهم.

وقد تدَارَكَ جماعة من الناس بعضَ أولادهم وإخوانهم، فرَدُّوهم وأنبُوهم ووبّخُوهم، وذهب الباقون إلى ذلك الموضع، واجتمع إليهم مَنْ كانوا كتبوا إليه من أهل البصرة وغيرِها، واجتمع الجميع بالنّهْروان وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم جند مستقلون وفيهم شجاعة ونجدة، وعندهم أنهم متقربون بذلك إلى الله العلي العظيم، مع أنهم ارتكبوا الكثير من الباطل والفساد!

============

[141] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 115)

إفساد الخوارج في الأرض[142]

ظن الخوارج أنهم هم الأوصياء على الحق، وأنهم أهله دون الناس، وأعطوا أنفسهم أكثر مما تستحق.. ومع اجتهادهم في العبادة وقراءة القرآن، إلا أنهم لم يكن لهم فقه وعلم يضبط أعمالهم، فعاثوا في الأرض فسادًا، وسَفَكُوا الدماءَ الحرام، وقطعوا السُّبُلَ، واستحلوا المحارمَ، وكان من جمـلة مَنْ قتلـوه عبد اللَّه بن خبّاب صاحب رسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ ذبحوه ذبْحَ النِّعاج، وقتلوا زوجته معه،فعَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلاَلٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ كَانَ مَعَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ فَارَقَهُمْ قَالَ دَخَلُوا قَرْيَةً فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ ذَعِراً يَجُرُّ رِدَاءَهُ فَقَالُوا لَمْ تُرَعْ. قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رُعْتُمُونِى. قَالُوا أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَهَلْ سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثاً يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- تُحَدِّثُنَاهُ قَالَ نَعَمْ سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ ذَكَرَ فِتْنَةً الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى. قَالَ « فَإِنْ أَدْرَكْتَ ذَاكَ فَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ ». قَالَ أَيُّوبُ وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ قَالَ « وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْقَاتِلَ ». قَالُوا أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِيكَ يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَقَدَّمُوهُ عَلَى ضَفَّةِ النَّهَرِ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَسَالَ دَمُهُ كَأَنَّهُ شِرَاكُ نَعْلٍ مَا ابْذَقَرَّ وَبَقَرُوا أُمَّ وَلَدِهِ عَمَّا فِى بَطْنِهَا.أخرجه أحمد وفيه مبهم

وفي رواية الطبراني ، عَنْ حُمَيْدِ بن هِلالٍ ، حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ كَانَ يُجَالِسُنَا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، قَالَ : صَحِبْتُ أَصْحَابَ النَّهَرِ ، فَكُنْتُ فِيهِمْ ، ثُمَّ كَرِهْتُ أَمْرَهُمْ خَشِيتُ أَنْ يَقْتُلُونِي ، فَبَيْنَا أَنَا مَعَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ إِذْ أَتَيْنَا عَلَى قَرْيَةٍ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ نَهَرٌ إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْقَرْيَةِ مُرَوَّعًا ، فَقَالُوا لَهُ : كَأَنَّا رَوَّعْنَاكَ ؟ قَالَ : أَجَلْ ، قَالُوا : لا رَوْعَ لَكَ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ يَعْرِفُوهُ وَلَمْ أَعْرِفْهُ ، فَقَالُوا : أَنْتَ ابْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالُوا : هَلْ سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثًا تُحَدِّثُنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ذَكَرَ فِتْنَةً ، فَقَالَ : الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، فَإِنْ أَدْرَكْتَكَ فَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ " ، قَالَ : فَقَرَّبُوهُ إِلَى شَطِّ النَّهَرِ فَذَبَحُوهُ ، فَرَأَيْتُ دَمَهُ يَسِيلُ فِي الْمَاءِ مِثْلَ الشِّرَاكِ مَا ابْذَقَرَّ ، قَالَ : فَأَخَذُوا أُمَّ وَلَدِهِ فَقَتَلُوهَا وَكَانَتْ حُبْلَى فَبَقَرُوا بَطْنَهَا ، لَمْ أَصْحَبْ قَوْمًا هُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ صُحْبَةً مِنْهُمْ حَتَّى وَجَدْتُ خَلْوَةً فَانْفَلَتُّ.

فلما بلغ ذلك عليا أرسل إليهم رسولا، فلمّا قدِمَ عليهم عاجلوه بالقتل أيضا دون إمهال. فلما بلغ ذلك عليا عزم على المسير إليهم.

وقد كان الفهمُ المقلوبُ للدين لدى هؤلاء الخوارج باديًا لكل ذي بصيرة؛ فمن

---

[142] - الطبقات الكبرى لابن سعد - (ج 3 / ص 32) و245/5 وتاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 117 فما بعد)

والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 420) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج 1 / ص 476)

فعالهم أنهم لما خرجوا إلى النّهْروان لقوا مُسْلمًا ونصرانيا، فقتلوا المُسْلم وأوْصَوا! بالنصرانيّ خَيرا، وقالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم. ولقوا عبدَ اللّه بن خبّاب، وفي عُنقه المُصحف ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إنّ هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك؛ فقال لهم: أحيْوا ما أحْيا القرآن، وأميتوا ما أمات القرآن، قالوا: حَدّثنا عن أبيك؛ قال: حدّثني أبي قال: سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: تكون فتنة يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بدنه، يمسى مؤمناً ويُصبح كافرًا، فكُن عبدَ اللّه ˝ المقتول ولا تكن عبدَ اللّه ˝ القاتلَ؛ قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيرا؟ " قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وفي عثمان؟ فأثنى خيراً " ؟ قالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول: إنّ عليًا أعلمُ بكتاب اللّه ˝ منكم، وأشد توقّيا على دينه وأبعد بصيرة؛ قالوا: إنك لستَ تتبّع الهدى بل الرجالَ على أسمائها، ثم قرّبوه إلى شاطئ البَحر فذبحوه، فامذَقرّ دمُه، أي جَرى مستقيماً على دقة وساموُا رجلا ˝ نصْرانيا بنَخْلة، فقال: هي لكم هِبَة، قالوا: ما كنّا نأخذها إلا بثَمن؟ فقال: ما أعجبَ هذا! أتقتلون مثلَ عبد اللّه بن خبّاب، ولا تقبلون منا " جنَى " نخْلة إلا بثَمن![143]

===============

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الخوارج

روى البخاري عن سُوَيْدَ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ عَلِىٌّ - رضى الله عنه - إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - حَدِيثًا فَوَاللَّهِ ، لأَ نْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ ، وَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِى آخِرِ الزَّمَانِ ، حُدَّاثُ الأَ سْنَانِ ، سُفَهَاءُ الأَ حْلاَ مِ ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّ فِى قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وعَنْ أَبِى سَلَمَةَ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُمَا أَتَيَا أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ فَسَأَلاَ هُ عَنِ الْحَرُورِيَّةِ أَسَمِعْتَ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - . قَالَ لاَ أَدْرِى مَا الْحَرُورِيَّةُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « يَخْرُجُ فِى هَذِهِ الأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَ تَكُمْ مَعَ صَلاَ تِهِمْ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ - أَوْ حَنَاجِرَهُمْ - يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَيَنْظُرُ الرَّامِى إِلَى سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رِصَافِهِ ، فَيَتَمَارَى فِى الْفُوقَةِ ، هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَىْءٌ »

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - وَذَكَرَ الْحَرُورِيَّةَ - فَقَالَ قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - « يَمْرُقُونَ مِنَ الإِ سْلاَ مِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ »

و عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ بَيْنَا النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ

---

[143] - الكامل في اللغة والادب - (ج 1 / ص 243) والعقد الفريد - (ج 1 / ص 216) بدون سند

بْنُ ذِى الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِىُّ فَقَالَ اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ « وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ » . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دَعْنِى أَضْرِبْ عُنُقَهُ . قَالَ « دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يُنْظَرُ فِى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ، يُنْظَرُ فِى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِى رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِى نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ ثَدْيَيْهِ - مِثْلُ ثَدْىِ الْمَرْأَةِ - أَوْ قَالَ مِثْلُ الْبَضْعَةِ - تَدَرْدَرُ ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ » . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ ، جِىءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِى نَعَتَهُ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - . قَالَ فَنَزَلَتْ فِيهِ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ)

وعن يُسَيْرَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قُلْتُ لِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ هَلْ سَمِعْتَ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ فِى الْخَوَارِجِ شَيْئًا قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ - وَأَهْوَى بِيَدِهِ قِبَلَ الْعِرَاقِ - « يَخْرُجُ مِنْهُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ » .

وروى مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِى ثَوْبِ بِلاَلٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِى النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ. قَالَ « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضى الله عنه دَعْنِى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ. فَقَالَ « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّى أَقْتُلُ أَصْحَابِى إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ».

و عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ بَعَثَ عَلِىٌّ - رضى الله عنه - وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِى تُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِىُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِىُّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلاَثَةَ الْعَامِرِىُّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِى كِلاَبٍ وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِىُّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِى نَبْهَانَ - قَالَ - فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ فَقَالُوا أَتُعْطِى صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنِّى إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لأَتَأَلَّفَهُمْ » فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ. - قَالَ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « فَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيَأْمَنُنِى عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلاَ تَأْمَنُونِى » قَالَ ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِى قَتْلِهِ - يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ ».

وعَنْ أبِى سَلَمَةَ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أنهُمَا أتيَا أبَا سَعِيدٍ الخُدْرِىّ فَسَألا ـَهُ عَنِ الحَرُورِيّةِ هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَذْكُرُهَا قَالَ لا ـَ أدْرِى مَنِ الحَرُورِيّةُ وَلَكِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « يَخْرُجُ فِى هَذِهِ الأ ـُمّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تحْقِرُونَ صَلا ـَتكُمْ مَعَ صَلا ـَتِهِمْ فَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ. لا ـَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ - أوْ حَنَاجِرَهُمْ - يَمْرُقُونَ مِنَ الدّينِ مُرُوقَ السّهْمِ مِنَ الرّمِيّةِ فَيَنْظُرُ الرّامِى إلَى سَهْمِهِ إلَى نَصْلِهِ إلَى رِصَافِهِ فَيَتَمَارَى فِى الفُوقَةِ هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدّمِ شَىْءٌ ».

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أخْبَرَنِى أبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ وَالضّحّاكُ الهَمْدَانِىُّ أنّ أبَا سَعِيدٍ الخُدْرِىّ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ. قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إنْ لَمْ أعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إنْ لَمْ أعْدِلْ ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ رضى الله عنه يَا رَسُولَ اللهِ ائذَنْ لِى فِيهِ أضْرِبْ عُنُقَهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « دَعْهُ فَإِنّ لَهُ أصْحَابًا يَحْقِرُ أحَدُكُمْ صَلا ـَتَهُ مَعَ صَلا ـَتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا ـَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإ ـِسْلا ـَمِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنَ الرّمِيّةِ يُنْظَرُ إلَى نَصْلِهِ فَلا ـَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ثُمّ يُنْظَرُ إلَى رِصَافِهِ فَلا ـَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ثُمّ يُنْظَرُ إلَى نَضِيِّهِ فَلا ـَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ - وَهُوَ القِدْحُ - ثُمّ يُنْظَرُ إلَى قُذَذِهِ فَلا ـَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدّمَ. آيَتُهُمْ رَجُلٌ أسْوَدُ إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْىِ المَرْأةِ أوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النّاسِ ». قَالَ أبُو سَعِيدٍ فَأشْهَدُ أنّى سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأشْهَدُ أنّ عَلِىّ بْنَ أبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَاتَلَهُمْ وَأنَا مَعَهُ فَأمَرَ بِذَلِكَ الرّجُلِ فَالتُمِسَ فَوُجِدَ فَأُتِىَ بِهِ حَتّى نَظَرْتُ إلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- الّذِى نَعَتَ.

وعَنْ أبِى سَعِيدٍ أنّ النّبِىّ -صلى الله عليه وسلم- ذَكَرَ قَوْمًا يَكُونُونَ فِى أُمّتِهِ يَخْرُجُونَ فِى فُرْقَةٍ مِنَ النّاسِ سِيمَاهُمُ التّحَالُقُ قَالَ « هُمْ شَرّ الخَلْقِ - أوْ مِنْ أشَرّ الخَلْقِ - يَقْتُلُهُمْ أدْنَى الطّائِفَتَيْنِ إلَى الحَقّ ». قَالَ فَضَرَبَ النّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- لَهُمْ مَثَلا ـً أوْ قَالَ قَوْلا ـً « الرّجُلُ يَرْمِى الرّمِيّةَ - أوْ قَالَ الغَرَضَ - فَيَنْظُرُ فِى النّصْلِ فَلا ـَ يَرَى بَصِيرَةً وَيَنْظُرُ فِى النّضِىّ فَلا ـَ يَرَى بَصِيرَةً وَيَنْظُرُ فِى الفُوقِ فَلا ـَ يَرَى بَصِيرَةً ». قَالَ قَالَ أبُو سَعِيدٍ وَأنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ يَا أهْلَ العِرَاقِ.

وعَنْ أبِى سَعِيدٍ الخُدْرِىّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « تَكُونُ فِى أُمّتِى فِرْقَتَانِ فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِقَةٌ يَلِى قَتْلَهُمْ أوْلا ـَهُمْ بِالحَقّ ».

وعَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ قَالَ عَلِىٌّ إذَا حَدّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَلأ ـَنْ أخِرّ مِنَ السّمَاءِ أحَبُّ إلَىّ مِنْ أنْ أقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ وَإذَا حَدّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ فَإِنّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « سَيَخْرُجُ فِى آخِرِ الزّمَانِ قَوْمٌ أحْدَاثُ الأ ـَسْنَانِ

سُفَهَاءُ الأَ حْلاَ مِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِى قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».
وعَنْ عَلِىٍّ قَالَ ذَكَرَ الْخَوَارِجَ فَقَالَ فِيهِمْ رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ - أَوْ مُودَنُ الْيَدِ أَوْ مَثْدُونُ الْيَدِ - لَوْلاَ أَنْ تَبْطَرُوا لَحَدَّثْتُكُمْ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- - قَالَ - قُلْتُ آنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ إِى وَرَبِّ الْكَعْبَةِ إِى وَرَبِّ الْكَعْبَةِ إِى وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.
وعن زَيْدَ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِىُّ أَنَّهُ كَانَ فِى الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِىٍّ - رضى الله عنه - الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ فَقَالَ عَلِىٌّ رضى الله عنه أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَىْءٍ وَلاَ صَلاَ تُكُمْ إِلَى صَلاَ تِهِمْ بِشَىْءٍ وَلاَ صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَىْءٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لاَ تُجَاوِزُ صَلاَ تُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِ سْلاَ مِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ». لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِىَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ -صلى الله عليه وسلم- لاَ تَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلاً لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْىِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلاَ ءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِى ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَاللَّهِ إِنِّى لأَ رْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلاَ ءِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَغَارُوا فِى سَرْحِ النَّاسِ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ فَنَزَّلَنِى زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلاً حَتَّى قَالَ مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِىُّ فَقَالَ لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا فَإِنِّى أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ. فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ وَسَلُّوا السُّيُوفَ وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ - قَالَ - وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ رَجُلاَ نِ فَقَالَ عَلِىٌّ رضى الله عنه الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ. فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَامَ عَلِىٌّ - رضى الله عنه - بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ قَالَ أَخِّرُوهُمْ. فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِى الأَ رْضَ فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ اللَّهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ - قَالَ - فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِىُّ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهَ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ إِى وَاللَّهِ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.
حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلاَ ثًا وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ.
وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّ الْحَرُورِيَّةَ لَمَّا خَرَجَتْ وَهُوَ مَعَ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَالُوا لاَ حُكْمَ إِلاَّ لِلَّهِ. قَالَ عَلِىٌّ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَصَفَ نَاسًا إِنِّى لأَ عْرِفُ صِفَتَهُمْ فِى هَؤُلاَ ءِ « يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لاَ يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ مِنْهُمْ أَسْوَدُ إِحْدَى يَدَيْهِ طُبْىُ شَاةٍ أَوْ حَلَمَةُ ثَدْىٍ ». فَلَمَّا قَتَلَهُمْ عَلِىُّ بْنُ

أَبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَالَ انْظُرُوا. فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا فَقَالَ ارْجِعُوا فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلاَ كُذِبْتُ. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ثُمَّ وَجَدُوهُ فِى خَرِبَةٍ فَأَتَوْا بِهِ حَتَّى وَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَأَنَا حَاضِرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَقَوْلِ عَلِىٍّ فِيهِمْ زَادَ يُونُسُ فِى رِوَايَتِهِ قَالَ بُكَيْرٌ وَحَدَّثَنِى رَجُلٌ عَنِ ابْنِ حُنَيْنٍ أَنَّهُ قَالَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الأَسْوَدَ. وغير ذلك كثير

===============

المسير إلى الخوارج[144]

لما بلغ الناسَ صنيعُ الخوارج وإفسادُهم، خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهلِه أن يَخلُفَهم هؤلاء في أبنائهم وديارهم بهذا الصنع، وأشاروا على أمير المؤمنين بأن يبدأ بهؤلاء، ثم إذا فرغ منهم ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك والناس آمنون من شرهم، فاجتمع الرأي على هذا، وفيه خير عظيم لهم ولأهل الشام.

ونادَى منادِي عليٍّ في الناس بالرحيل، فعبَر بهم أميرُ المؤمنين الجسرَ فصلى ركعتين عنده، ثم سلك دير عبد الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم شاطئ الفرات، ثم سلك ناحيةَ الأنْبار، وبعث بين يديْه قيسَ بنَ سعد، وأمَرَه أن يأتي المدائن، وأن يلقاه بنائبها سعد بن مسعود الثقفي في جيش المدائن؛ فاجتمع الناسُ هنالك على عليٍّ، وبعث إلى الخوارج أنْ أخرجوا إلينا قَتَلَةَ إخوانِنا منكم حتى نقتلهم، ثم نحن تاركُوكم.. ثم لعل الله أن يُقبِل بقلوبكم، ويردّكم إلى خيرٍ مما أنتم عليه. فبعثوا إلى عليٍّ يقولون : كلّنا قَتَلَةٌ إخوانِكم، ونحن مستحِلُّون دماءَهم ودماءَكم.

فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة، فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم ، والخطب الجسيم، فلم ينفع، وكذلك أبو أيوب الأنصاري أنّبَهم ووبّخَهم فلم ينفع. وتقدم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فوعظهم وخوفهم، وأنذرهم وحذرهم وتوعدهم، لكن الخوارج أبَوْا إلا ما عزموا عليه، وامتنعوا عن تسليم مَنْ قتلَ عبدَ الله بن خباب، فعبأ لهم أمير المؤمنين جيشه ليقاتلهم، فجعل على ميمنته حُجرَ بن عدي، وعلى ميسرته شَبَثَ بن ربعي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرّجّالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة ـ قيسَ بن سعد، وتقدموا فاصطفّوا للقتال.

وعبّأت الخوارج، فجعلوا على ميمنتهم زيدَ بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شُرَيْح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم حمزةَ بن سنان الأسديّ، وعلى الرّجالة حُرْقُوص بن زهير السعدي، واصطفوا مواجهين أميرَ المؤمنين عليا وأصحابه.

=================

موقعة النهروان[145]

---

[144] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 119) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 421)

[145] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 120و121)

سار الخوارجُ مَعَبّئين إلى جيش عليٍّ، فقدّم أمير المؤمنين الخيل بين يديه دون الرجال، وصفّ الناس وراءَ الخيل صَفّيْن، وقدّم منهم الرماة، وقال لأ صحابه: كُفّوا عنهم حتى يبدءوكم. وأقبلت الخوارجُ يقولون: لا حُكْمَ إلا لله، الرّوَاحَ الرواحَ إلى الجنة! فحملوا على الخَيّالة الذين قدّمهم عليّ ففرّقوهم، حتى أخذت طائفةٌ من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فصار الخوارج صَرْعَى تحت سنابك الخيول ، وقُتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب، وحُرْقوص بن زهير، وشُرَيْح بن أوفى، وعبد الله بن شجرة. ولم يقتلْ من أصحاب عليّ إلا سبعة نفر،

وفي رواية أن علياً خرج في طلب ذي الثدية ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة، والريان بن صبر ابن هوذة، فوجده الريان بن صبرة بن هوذة في حفرة على شاطىء النهر في أربعين أو خمسين قتيلا ً. قال: فلما استخرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذى طول يده الأخر، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال علي: الله أكبر! والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم، عارفاً للحق الذي نحن عليه. قال: ثم مر وهم صرعى فقال: بؤساً لكم! لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، من غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفسٌ بالسوء أمارة، غرتهم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. ق ال: وطلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمائة رجل، فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة ، وخذوا ما في عسكرهم من شيء.

قال: وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم رده على أهله.

وكانت هذه الوقعة في التاسع من صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

ولم يكن هذا آخرَ قتالٍ بين أمير المؤمنين عليّ وبين الخوارج، فقد نَدِمَ الذين تخلّفوا عن إخوانهم من الخوارج في النهروان، وجدّدوا الحرب ضد الخليفة، فقاتلهم قتالا مريرا، وكان لذلك أثر كبير في عصيان أهل الكوفة لأ مير المؤمنين علي.

================

قتال الخوارج الذين لم يشهدوا النهروان [146]

بعد موقعة النّهْروان ندم من الخوارج مَنْ كانوا فارقوا أصحابَهم، ومَنْ لجأوا إلى راية أبي أيوب أثناء المعركة، ومن كان أقام بالكوفة منهم غيرَ مُنْحَازٍ، فتجمعوا آسِفِينَ على خذلانهم أصحابَهم، فقام فيهم أحد كبرائهم وخَطَبهم حاثًا لهم على قتال عليّ، فخرجوا إلى النُخَيْلة، فأرسل إليهم عليّ عبدَ الله

[146] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 121)

بن عباس ناصحا، فأبَوْا، فسار إليهم أمير المؤمنين، وطحنتهم جميعا الحربُ بالنُّخَيْلة، ولم يَنْجُ منهم إلا خمسة فقط.

==============

عصيان أهل الكوفة لعلي رضي الله عنه [147]

لما انتهى أمير المؤمنين من أمر الخوارج في النهروان أمر أصحابه بالمسير إلى الشام لقتال معاوية ومن معه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تفِدَتْ نِبالُنا وكلّتْ سيوفُنا.. فانصرفْ بنا إلى مِصْرِنا (أي بلدنا) حتى نستعد بأحسن عُدّتنا ، ولعل أمير المؤمنين يَزيد في عُدتنا عُدة مَنْ فارقنا وهلك منّا، فإنه أقوى لنا على عدوّنا.

فأقبل عليّ بالناس حتى نزلوا بالنُّخَيْلة فعسكر بها، وأمر الناس أن يلزموا مُعسكرَهم ويوطِّنوا أنفسهم على جهاد عدوهم، وأن يُقِلُّوا زيارة نسائهم وأبنائهم.

فأقاموا معه أياما متمسكين برأيه وقوله، ثم تسللوا حتى لم يَبْقَ منهم أحد إ لا رءوس أصحابه، وأمسى المعسكر خاليا، فلما رأى ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير إلى عدوهم، ووبّخهم وأنّبَهم وتوَعّدهم، وتلا عليهم آياتٍ في الجهاد من سُوَرٍ متفرقة، وحضّهم على المسير إلى عدوهم، فأبَوْا ذلك وخالفوه ولم يوافقوه، واستمروا في بلادهم، وتفرقوا عنه هنا وهناك.

لقد ضعُفت عزائمُهم، فملّوا من القتال، وإذا كانت هذه حال الجيش فلا عجب مما آل إليه حال أمير المؤمنين عليّ نفسِه، فإن سلطانه صار إلى نقصان يوما بعد يوم، وهو كل ساعة يحرّضهم بما آتاه الله من فصاحة اللسان وبلاغة القول، فما ازدادوا إلا فتورا، وقليل منهم الذي أخلص القول و العمل.

وكثرت عليه الخوارج بحجّتهم التي تأوّلوها، وهي أنه حكم الرجال في دين الله ولا حُكْمَ إلا لله.

================

اشتداد أمر معاوية رضي الله عنه [148]

بلغ عليا رضي الله عنه مقتلُ محمد بن أبي بكر، وما انتهى إليه الأمر بمصر، وسيطرة عمرو بن العاص عليها، وتسليم الناس على معاوية بالخلافة، فقام علي في الناس خطيبًا فحضّهم على الجهاد والصبر والمسير إلى أعدائهم من الشاميين والمصريين، فلم يُجيبوه، وانتهى أمر العراقيين إلى الخروج على عليّ ومخالفته فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، حتى طمع أهل فارس ومنعوا الخراج.

وبعد أن تم لمعاوية أمرُ مصرَ سيّرَ إلى البصرة عبدَ الله بن الحضرميّ، فاجتمع إليه جمعٌ كثير ممن يطلب بثأر سيدنا عثمان ومن نُكِبَ في الجمل،

[147] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 121)

[148] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 143) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 469)

ولم يصل معاوية بهذه المحاولة إلى نتائج مرضية له، فبدأ يجهز جيشه ليفرقه في الأنحاء الخاضعة لعليٍّ، خاصة بعدما رأى من عصيان جيوش أهل العراق لعلي، وصار معاوية يرى أنه أوْلى بأمر المسلمين من عليٍّ، فبعث في سنة تسع وثلاثين النعمانَ بن بشير في ألفيْ فارس إلى عين التمر، فانهزموا ولم يحققوا شيئا، وبعث ستة آلاف إلى هِيت، فلم يجد بها أحدا، فسار إلى ا لأنبار فأغار عليها واحتمل ما كان بها من أموال ثم عاد، كما بعث عبدَ الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة فارس إلى تيْمَاء، فانهزموا أمام جيش عليٍّ وفروا هربا إلى الشام، وصارت السرايا بعد ذلك تتردد بين الجبهتين وكلٌّ يريد كسْبَ أنصار له رغبة في إغلاق الباب في وجه الصراعات الطاحنة، حتى سيَّر معاوية إلى مكة أميرًا على الموسم، ولكن الناس اختاروا غيره أميرًا للحج، فأمّهم وقضيت المناسك في سلام.
كما سير معاوية إلى اليمن والحجاز بسر بن أرْطأة، فاستطاع أن يُدخِل اليمن في طاعته، وأرسَلَ عليٌّ سريةً ردّته عن الحجاز، وأصبحت دولة معاوية تتسع بمرور الوقت، في الوقت الذي تضيق فيه دولة عليٍّ.
وانتهى الأمر بأنْ جَرَتْ بينهما مهادنة بعد مفاوضات طويلة على وضْع الحرب بينهما، وكفِّ السيف عن هذه الأمة حقنا لدماء المسلمين، على أن يكون لعليٍّ العراق وبلاد فارس، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فيما تحت يده بجيش ولا غارة، وتراضيا على ذلك.
ولكن العراق كله كانت تضطرم فيه نار الخلاف والشقاق؛ ففريق هم شيعة عليٍّ، وآخرون خوارجُ لا يريدون عليا ولا معاوية، وفريق منافق يُظْهِر طاعة عليٍّ ويُخفي عداءه، فمَلَّهم أميرُ المؤمنين وسئِم إمارته عليهم، حتى خاطبهم بذلك في كثير من خطبه، وتمنّى أن يستريح منهم بلقاء الله تعالى،
عن جندب ، قال : ازدحموا على علي ، حتى وطئوا على رجله قال : « اللهم إني مللتهم وملوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني »
أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد وهو صحيح
و عن أبى صالح الحنفى قال : رأيت على بن أبى طالب أخذ المصحف فوضعه على رأسه ثم قال اللهم إنهم منعونى ما فيه فأعطنى ما فيه ثم قال اللهم إنى قد مللتهم وملونى وأبغضتهم وأبغضونى وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تكن تعرف لى فأبدلنى بهم خيرا منهم وأبدلهم بى شرا منى اللهم أمت قلوبهم ميت الملح فى الماء يعنى أهل الكوفة
أخرجه ابن عساكر (534/42) ، فلقي الله شهيدا بأيدي الخوارج البغاة.
===============

معاوية رضي الله عنه يستولي على مصر [149]

ازداد معاوية بن أبي سفيان بعد التحكيم قوة، واختلف الناس بالعراق على عليٍّ، ولم يدخل معاوية بعدَ صِفّين في حروب طاحنة، ولم يمر بالظروف

[149] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 459) فما بعدها

الحرجة التي مر بها جيش عليٍّ في صراعه ضد الخوارج، فلم يعد له همّ إلا مصر التي كان يخشاها وأهلَها لقربهم منه، فأراد أن يضمها إليه كي يأمن خطرها عليه، فأرسل إلى مَنْ لم يبايعْ عليا ولم يأتمر بأمر ثوّارِه يخبرهم بقدوم الجيش عليهم سريعا، وكان واليها من قِبَل عليٍّ حينئذٍ محمد بن أبي بكر، وكان يواجه اضطرابات داخلية بسبب معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد ومَن اعتزلوا معهما بخربتا من العثمانية، إذْ كان أمرهم يزداد قوة يوما بعد يوم، خاصة حين انصرف عليٌّ من صِفّين وكان ما كان مِنْ أمْرِ التحكيم، ثم حين نكل أهل العراق عن قتال أهل الشام، فخرج معاوية بن خديج ومن معه مطالبين بدم عثمان، فلما علم أمير المؤمنين عليٌّ بذلك رأى أن محمدا لا تمكنه المقاومة فولى على مصرَ الأشْتَرَ النّخَعيّ، فتُوُفِّي في الطريق، وشق على محمد بن أبي بكر عزله، فأرسل إليه عليٌّ يثبته عليها، ويأمره بالصبر على أعدائه والاستعانة بالله.

فلما كانت سنة ثمان وثلاثين من الهجرة أرسل معاوية عمرَو بن العاص في ستةِ آلافٍ، فسار بهم حتى نزل أدنى مصر، فجاءه مَنْ خالفَ عليا وطالب بدم عثمان في عشرة آلاف، فكتب محمد إلى عليٍّ بالخبر واستمدّه، فأرسل إليه أن يضم شِيعتَه إليه، ويأمره بالصبر ويَعِدُه بإنفاذ الجيوش إليه، فقام محمد في الناس وندبهم إلى الخروج معه، فقام معه قليل، لم يصمدوا أمام جيوش الشام وانهزموا، ودخل عمرو بن العاص الفسطاطَ، وهرب محمد وخرج معاوية بن خديج يطلبه حتى التقى به فقتله.

وبقتل محمد بن أبي بكر اشتد أمر معاوية وصارت مصرُ في طاعته، وبايع له أهلُها، أما المدد الذي أرسله أمير المؤمنين لمساعدة محمد فإنه بَلَغَهُم وهم في الطريق قَتْلُهُ فرجعوا إلى عليٍّ بالخبر!

===============

أهل فارس يمتنعون عن دفع الخراج[150]

اختلف الناس على عليٍّ، فطمع أهل فارس وأهل كرْمان في كسْر الخراج، فغلب أهلُ كلّ ناحية على ما يليهم، وأخرجُوا عُمّالَهم، وطردُوا سهلَ بن حنيف عاملَ عليٍّ هناك، فقال ابن عباس لعليٍّ: أكفيك فارسَ. فقدِم ابنُ عباس البصرة، ووجه زياد ابن أبيه إلى فارس في أربعة آلاف جندي، فدوّخ تلك البلاد، ولم يزل حتى عادوا بلا قتال إلى ما كانوا عليه من الطاعة والا ستقامة، فأدّوا الخراج وما كان عليهم من حقوق، فسكن الناس إلى ذلك بعدله وعلمه وصرامتِه.

وأتى زياد من قبل ابن عباس إصْطَخْر فنزلها وحصّن قلعة بها ما بين بيضاء إصطخر وإصطخر، فكانت تسمّى قلعة زياد.

وهكذا أعاد ابن عباس وزياد الأمنَ وضبَطا المنطقةَ، وأرْجعَاها طواعية إلى حكم أمير المؤمنين عليّ ـ رضي الله عنه.

---

[150] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 137) فما بعد

=================

التخطيط لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم[151]

أراد الله تعالى أن يُلحِق عليا ـ رضي الله عنه ـ بإخوانه السابقين شهيدا في زمرة الصالحين؛ فاجتمع ثلاثة من الخوارج، فتذاكرُوا ما حَلّ بأصحابهم في النهروان وغيرها، وعابوا على ولاتهم، وما صار إليه حال الأمة، ثم ذكروا أهل النهروان، فترحّموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا، إخوانُنا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شَرَيْنَا أنفسَنا فأتيْنا أئمة الضلالة فالتَمَسْنا قتْلهم، فأرحْنا منهم البلادَ وثأرْنا بهم لإخواننا!

ورأوا أن عليا ومعاوية وعَمْرًا من أسباب بلاء الأمة؛ لذا قرروا التخلص منهم، فاتفقوا على أن يذهب عبد الرحمن بن مُلْجَم المراديّ إلى الكوفة فيقتل عليا ، ويذهب البرك بن عبد الله التميميّ إلى الشام فيقتل معاوية بن أبي سفيان، ويذهب عمرو بن بكر التميميّ إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا بالله، أن لا يجبن رجل منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسمُّوها، وتواعدوا على صلاة فجر يوم السابع عشر من رمضان لتنفيذ الخطة تيَمُّنًا بيوم غزوة بدر الكبرى، حسب تصور نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة، وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأقبل كل رجل منهم إلى البلد الذي فيه صاحبه الذي يطلب قتله، ولما حان موعد تنفيذ الجريمة نجح الأول وفشِل الآخران.

ففي الليلة التي اتفقوا فيها على إيقاع القتل بالرجال الثلاثة، أخذ كل واحد منهم يعد سيفَه، ويهيئ نفسه، فخرج البرك بن عبد الله وقعد لمعاوية، فلما خرج ليصلي الفجر شد عليه بسيفه، فوقع السيفُ في إليته ولم يُمِتْه، فأخذ هذا الخارجي، وأُحضِر إلى معاوية، فأمر به فقُتل، واتخذ معاوية بعدها المقصورةَ.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج، وكان اشتكى بطنَه، فأمر خارجةَ بن حذافة بالصلاة، وكان صاحبَ شرطتِه، فخرج ليصلي فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو، فقال له عمرو: أردْتني وأراد اللهُ خارجةَ، وقدّمه فقُتل.

وأما علي فراح شهيدا بضربة ابن ملجم.

عن إِسْمَاعِيل بن رَاشِدٍ ، قَالَ : كانَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللهُ وَأَصْحَابَهُ ، أَنّ عَبْدَ الرّحْمَن بن مُلْجَمٍ ، وَالبَرْكَ بن عَبْدِ اللهِ ، وَعَمْرَو بن بَكْرٍ التّمِيمِيّ ، اجتمعوا بمكة ، فذكروا أمر الناس ، وعابوا عمل ولاتهم ، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم ، فقالوا : والله ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا ، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم الذين كانوا لا يَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، فَلَوْ شَرَيْنَا أَنْفُسَنَا ، فَأَتَيْنَا أَئِمّةَ الضّلالَةِ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ ، فَأَرَحْنَا مِنْهُمُ البِلادَ وَثَأَرْنَا

151

بِهِمْ إِخْوَانَنَا ، قَالَ ابْنُ مُلْجَمٍ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ : أَنَا أَكْفِيكُمْ عَلِيَّ بن أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ البَرْكُ بن عَبْدِ اللهِ أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بن أَبِي سُفْيَانَ ، وَقَالَ عَمْرُو بن بَكْرٍ التَّمِيمِيُّ : أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرَو بن العَاصِ ، فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا بِاللهِ ، لا يَنْكِصُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَنْ صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ حَتَّى يَقْتُلَهُ ، أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ ، فَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ ، فَسَمُّوهَا وَاتَّعَدُوا لِسَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ أَنْ يَثِبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، وَأَقْبَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى المِصْرِ الَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ الَّذِي يَطْلُبُ ، فَأَمَّا ابْنُ المُلْجَمِ المُرَادِيُّ ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ بِالكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرَهُ كَرَاهِيَةَ أَنْ يُظْهِرُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُ لَقِيَ أَصْحَابًا لَهُ مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ وَقَدْ قَتَلَ عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، مِنْهُمْ عِدَّةً يَوْمَ النَّهَرِ ، فَذَكَرُوا قَتْلاهُمْ فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِمْ ، قَالَ : وَلَقِيَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ يُقَالُ لَهَا قَطَامُ بِنتُ الشِّحْنَةِ وَقَدْ قَتَلَ عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَبَاهَا ، وَأَخَاهَا يَوْمَ النَّهَرِ ، وَكَانَتْ فَائِقَةَ الجَمَالِ ، فَلَمَّا رَآهَا الْتَبَسَتْ بِعَقْلِهِ وَنَسِيَ حَاجَتَهُ الَّتِي جَاءَ لَهَا ، فَخَطَبَهَا ، فَقَالَتْ : لا أَتَزَوَّجُ حَتَّى تَشْتَفِيَ لِي ، قَالَ : وَمَا تَشَائِينَ ؟ قَالَتْ : ثَلاثَةَ آلافٍ ، وَعَبْدٌ ، وَقَيْنَةٌ ، وَقَتْلُ عَلِيِّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ، فَقَالَ : هُوَ مَهْرٌ لَكَ ، فَأَمَّا قَتْلُ عَلِيٍّ فَمَا أَرَاكِ ذَكَرْتِيهِ لِي وَأَنْتِ تُرِيدِينَهُ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، فَالْتَمِسْ غِرَّتَهُ فَإِنْ أَصَبْتَهُ شَفَيْتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي ، وَنَفَعَكَ العَيْشُ مَعِي ، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِبْرِجِ أَهْلِهَا ، فَقَالَ : مَا جَاءَ بِي إِلَى هَذَا المِصْرِ إِلا قَتْلُ عَلِيٍّ ، قَالَتْ : فَإِذَا أَرَدْتَ ذَلِكَ فَأَخْبِرْنِي حَتَّى أَطْلُبَ لَكَ مَنْ يَشُدُّ ظَهْرَكَ ، وَيُسَاعِدُكَ عَلَى أَمْرِكَ ، فَبَعَثَتْ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهَا مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ ، يُقَالُ لَهُ : وَرْدَانُ ، فَكَلَّمَتْهُ ، فَأَجَابَهَا ، وَأَتَى ابْنُ مُلْجَمٍ رَجُلا مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ : شَبِيبُ بن نَجْدَةَ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؟ قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَتْلُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِدًّا ، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ ؟ قَالَ : أَكْمُنُ لَهُ فِي السَّحَرِ فَإِذَا خَرَجَ لِصَلاةِ الغَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ ، فَإِنْ نَجَوْنَا شَفَيْنَا أَنْفُسَنَا وَأَدْرَكْنَا ثَأْرَنَا ، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِبْرِجِ أَهْلِهَا ، قَالَ : وَيْحَكَ لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ ، قَدْ عَرَفْتُ بَلاءَهُ فِي الإِ سِلامِ ، وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا أَجِدُنِي أَنْشَرِحُ لِقَتْلِهِ ، قَالَ : أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهَرِ العُبَّادَ المُصَلِّينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَقَتْلُهُ بِمَا قَتَلَ مِنْ إِخْوَانِنَا ، فَأَجَابَهُ فَجَاءُوا حَتَّى دَخَلُوا عَلَى قَطَامِ وَهِيَ فِي المَسْجِدِ الأَ عَظَمِ مُعْتَكِفَةٌ فِيهِ ، فَقَالُوا لَهَا : قَدْ أَجْمَعَ رَأْيُنَا عَلَى قَتْلِ عَلِيٍّ ، قَالَتْ : فَإِذَا أَرَدْتُمْ ذَلِكَ فَائْتُونِي ، فَجَاءَ ، فَقَالَ : هَذِهِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْتُ فِيهَا صَاحِبِي أَنْ يَقْتُلَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَّا صَاحِبَهُ ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالحَرِيرِ فَعَصَّبَتْهُمْ ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ ، فَخَرَجَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِصَلاةِ الغَدَاةِ ، فَجَعَلَ يُنَادِي : الصَّلاةَ الصَّلاةَ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ شَبِيبٌ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ، فَوَقَعَ السَّيْفُ بِعِضَادَةِ البَابِ أَوْ بِالطَّاقِ فَشَدَّ عَلَيْهِ ابْنُ مُلْجَمٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فِي قَرْنِهِ ، وَهَرَبَ وَرْدَانُ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمِّهِ ، وَهُوَ يَنْزِعُ الحَرِيرَ وَالسَّيْفَ عَنْ صَدْرِهِ

، فَقَالَ : مَا هَذَا السَّيْفُ وَالحَرِيرُ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ ، فَذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَاءَ بِسَيْفِهِ فَضَرَبَهُ ، حَتَّى قَتَلَهُ وَخَرَجَ شَبِيبٌ نَحْوَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ ، وَشَدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ إِلا أَنَّ رَجُلا مِنْ حَضْرَمَوْتَ يُقَالُ لَهُ : عُوَيْمِرٌ ضَرَبَ رِجْلَهُ بِالسَّيْفِ فَصَرَعَهُ وَجَثَمَ عَلَيْهِ الحَضْرَمِيُّ ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسَ قَدْ أَقْبَلُوا فِي طَلَبِهِ ، وَسَيْفُ شَبِيبٍ فِي يَدِهِ خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَتَرَكَهُ ، فَنَجَا بِنَفْسِهِ وَنَجَا شَبِيبٌ فِي غِمَارِ النَّاسِ ، وَخَرَجَ ابْنُ مُلْجَمٍ فَشَدَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ هَمْدَانَ يُكَنَّى : أَبَا أَدمَا فَضَرَبَ رِجْلَهُ وَصَرَعَهُ ، وَتَأَخَّرَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَدَفَعَ فِي ظَهْرِ جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ بن أَبِي وَهْبٍ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ الغَدَاةَ ، وَشَدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَذَكَرُوا أَنَّ مُحَمَّدَ بن حُنَيْفٍ ، قَالَ : وَاللهِ إِنِّي لأ ُصَلِّي تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي ضُرِبَ فِيهَا عَلِيٌّ فِي المَسْجِدِ الأ َعْظَمِ ، قَرِيبًا مِنَ السُّدَّةِ فِي رِجَالٍ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ المِصْرِ مَا فِيهِمْ إِلا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ وَمَا يَسْأَمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ ، إِذْ خَرَجَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ لِصَلاةِ الغَدَاةِ ، فَجَعَلَ يُنَادِي : أَيُّهَا النَّاسُ ، الصَّلاةَ الصَّلاةَ ، فَمَا أَدْرِي أَتَكَلَّمَ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ أَوْ نَظَرْتُ إِلَى بَرِيقِ السُّيُوفِ ، وَسَمِعْتُ : الحُكْمُ للهِ ، لا لَكَ يَا عَلِيُّ وَلا لأ َصْحَابِكَ ، فَرَأَيْتُ سَيْفًا ، ثُمَّ رَأَيْتُ نَاسًا ، وَسَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ : لا يَفُوتَنَّكُمُ الرَّجُلُ ، وَشَدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى أُخِذَ ابْنُ مُلْجَمٍ فَأُدْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَدَخَلْتُ فِيمَنْ دَخَلَ مِنَ النَّاسِ ، فَسَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، إِنْ هَلَكْتُ فَاقْتُلُوهُ كَمَا قَتَلَنِي ، وَإِنْ بَقِيتُ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي ، وَلَمَّا أُدْخِلَ ابْنُ مُلْجَمٍ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : يَا عَدُوَّ اللهِ ، أَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ ؟ أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : شَحَذْتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَسَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَقْتُلَ بِهِ شَرَّ خَلْقِهِ ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ : مَا أَرَاكَ إِلا مَقْتُولا بِهِ ، وَمَا أَرَاكَ إِلا مِنْ شَرِّ خَلْقِ اللهِ ، وَكَانَ ابْنُ مُلْجَمٍ مَكْتُوفًا بَيْنَ يَدَيِ الحَسَنِ ، إِذْ نَادَتْهُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنتُ عَلِيٍّ وَهِيَ تَبْكِي : يَا عَدُوَّ اللهِ ، إِنَّهُ لا بَأْسَ عَلَى أَبِي ، وَاللهُ مُخْزِيكَ ، قَالَ : فَعَلامَ تَبْكِينَ ؟ وَاللهِ لَقَدِ اشْتَرَيْتُهُ بِأَلْفٍ ، وَسَمَّمْتُهُ بِأَلْفٍ ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الضَّرْبَةُ لِجَمِيعِ أَهْلِ المِصْرِ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سَاعَةً ، وَهَذَا أَبُوكِ بَاقِيًا حَتَّى الآنَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِلْحَسَنِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا : إِنْ بَقِيتُ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي ، وَإِنْ هَلَكْتُ مِنْ ضَرْبَتِي هَذِهِ فَاضْرِبْهُ ضَرْبَةً ، وَلا تُمَثِّلْ بِهِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَنْهَى عَنِ المُثْلَةِ وَلَوْ بِالكَلْبِ العَقُورِ وَذَكَرَ أَنَّ جُنْدُبَ بن عَبْدِ اللهِ دَخَلَ عَلَى عَلِيٍّ يَسْأَلُ بِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، إِنْ فَقَدْنَاكَ وَلا نَفْقِدُكَ فَنُبَايِعُ الحَسَنَ ؟ قَالَ : مَا آمُرُكُمْ ، وَلا أَنْهَاكُمْ أَنْتُمْ أَبْصَرُ ، فَلَمَّا قُبِضَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ إِلَى ابْنِ مُلْجَمٍ ، فَأُدْخِلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ : هَلْ لَكَ فِي خَصْلَةٍ ؟ إِنِّي وَاللهِ مَا أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْدًا إِلا وَفَّيْتُ بِهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْدًا أَنْ أَقْتُلَ عَلِيًّا ، وَمُعَاوِيَةَ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُمَا ، فَإِنْ شِئْتَ خَلَّيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَلَكَ اللهَ عَلَيَّ إِنْ لَمْ أَقْتُلْ أَنْ آتِيَكَ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِكَ ، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ : لا وَاللهِ أَوْ تُعَايِنُ النَّارَ ، فَقَدَّمَهُ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ أَخَذَهُ النَّاسُ فَأَدْرَجُوهُ فِي بَوَارِي ، ثُمَّ أَحْرَقُوهُ بِالنَّارِ ، وَقَدْ كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : يَا بني عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُلفِيَنَّكُمْ تخُوضُونَ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ ، تقُولُونَ : قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، أَلا لا يُقْتَلُ بِي إِلا قَاتِلِي ، وَأَمَّا البَرْكُ بن عَبْدِ اللهِ فَقَعَدَ لِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَخَرَجَ لِصَلاةِ الغَدَاةِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ وَأَدْبَرَ مُعَاوِيَةُ هَارِبًا ، فَوَقَعَ السَّيْفُ فِي إِلْيَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي خَبَرًا أُبَشِّرُكَ بِهِ ، فَإِنْ أَخْبَرْتُكَ أَنَافِعِي ذَلِكَ عِنْدَكَ ؟ قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : إِنَّ أَخًا لِي قَتَلَ عَلِيًّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، قَالَ : فَلَعَلَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، إِنَّ عَلِيًّا يَخْرُجُ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ يَحْرُسُهُ ، فَأَمَرَ بِهِ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقُتِلَ ، فَبَعَثَ إِلَى السَّاعِدِيِّ وَكَانَ طَبِيبًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ضَرْبَتَكَ مَسْمُومَةٌ ، فَاخْتَرْ مِنِّي إِحْدَى خَصْلَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ أُحْمِيَ حَدِيدَةً فَأَضَعَهَا مَوْضِعَ السَّيْفِ ، وَإِمَّا أَسْقِيَكَ شَرْبَةً تقطَعُ مِنْكَ الوَلَدَ ، وَتبْرَأُ مِنْهَا ، فَإِنَّ ضَرْبَتَكَ مَسْمُومَةٌ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَمَّا النَّارُ فَلا صَبْرَ لِي عَلَيْهَا ، وَأَمَّا انْقِطَاعُ الوَلَدِ فَإِنَّ فِي يَزِيدَ ، وَعَبْدِ اللهِ ، وَوَلَدِهِمَا مَا تقَرُّ بِهِ عَيْنَيَّ ، فَسَقَاهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الشَّرْبَةَ ، فَبَرَأَ فَلَمْ يُولَدْ بَعْدُ لَهُ ، فَأَمَرَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالمَقصُورَاتِ ، وَقِيَامِ الشُّرَطِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ عَلِيٌّ لِلحَسَنِ وَالحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ : أَيْ بنيَّ أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ لِوَقْتِهَا ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَحِلِّهَا ، وَحُسْنِ الوُضُوءِ ، فَإِنَّهُ لا يُقْبَلُ صَلاةٌ إِلا بِطَهُورٍ ، وَأُوصِيكُمْ بِغَفْرِ الذَّنْبِ ، وَكَظْمِ الغَيْظِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَالحِلمِ عَنِ الجَهْلِ ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ ، وَالتَّثَبُّتِ فِي الأَمْرِ ، وَتعَاهُدِ القُرْآنِ ، وَحُسْنِ الجِوَارِ ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَاجْتِنَابِ الفَوَاحِشِ ، قَالَ : ثمَّ نظَرَ إِلَى مُحَمَّدِ بن الحَنَفِيَّةِ ، فَقَالَ : هَلْ حَفِظْتَ مَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ ؟ قَالَ : نعَمْ ، قَالَ : فَإِنِّي أُوصِيكَ بِمِثْلِهِ ، وَأُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ لِعِظَمِ حَقِّهِمَا عَلَيْكَ ، وَتزْيِينِ أَمْرِهِمَا ، وَلا تقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا ، ثمَّ قَالَ لَهُمَا : أُوصِيكُمَا بِهِ ، فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا ، وَابْنُ أَبِيكُمَا ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ ، ثمَّ أَوْصَى فَكَانَتْ وَصِيَّتُهُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَوْصَى أَنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ، ثمَّ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ ، ثمَّ أُوصِيكُمَا يَا حَسَنُ ، وَيَا حُسَيْنُ ، وَجَمِيعَ أَهْلِي وَوَلَدِي ، وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ رَبِّكُمْ ، وَلا تمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ، وَلا تفَرَّقُوا ، فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ، يَقُولُ : إِنَّ صَلاحَ ذَاتِ البَيْنِ أَعْظَمُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ وَانْظُرُوا إِلَى ذَوِي أَرْحَامِكُمْ فَصِلُوهُمْ يُهَوِّنُ اللهُ عَلَيْكُمُ الحِسَابَ ، وَاللهَ اللهَ فِي الأَيْتَامِ لا يَضِيعُنَّ بِحَضْرَتِكُمْ ، وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ ، وَاللهَ اللهَ فِي الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَاللهَ اللهَ فِي الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ فَأَشْرِكُوهُمْ فِي مَعَايِشِكُمْ ، وَاللهَ اللهَ فِي القُرْآنِ فَلا يَسْبِقَنَّكُمْ بِالعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ ، وَاللهَ اللهَ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ لا يَخْلُوَنَّ مَا بَقِيتُمْ ،

فَإِنّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تَنَاظَرُوا ، وَاللّهَ اللّهَ فِي أَهْلِ ذِمّةِ نَبِيِّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، فَلا يُظْلَمُنّ بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ ، وَاللّهَ اللّهَ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنّهُمْ وَصِيّةُ نَبِيِّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، قَالَ : مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِهِمْ حَتّى ظَنَنْتُ أَنّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ وَاللّهَ اللّهَ فِي أَصْحَابِ نَبِيِّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، فَإِنّهُ وَصِيٌّ بِهِمْ ، وَاللّهَ اللّهَ فِي الضّعِيفَيْنِ : نِسَائِكُمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فَإِنّ آخِرَ مَا تَكَلّمَ بِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ ، قَالَ : أُوصِيكُمْ بِالضّعِيفَيْنِ : النِّسَاءُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الصّلاةَ الصّلاةَ ، لا تَخَافُنّ فِي اللّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، يَكْفِكُمْ مَنْ أَرَادَكُمْ وَبَغَى عَلَيْكُمْ ، وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْنًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللّهُ ، وَلا تَتْرُكُوا الأ َمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَيُوَلِّيَ أَمْرَكُمْ شِرَارَكُمْ ، ثُمّ تَدْعُونَ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ ، عَلَيْكُمْ بِالتّوَاصُلِ ، وَالتّبَاذُلِ ، وَإِيّاكُمْ وَالتّقَاطُعَ ، وَالتّدَابُرَ ، وَالتّفَرّقَ ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرّ وَالتّقْوَى ، وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإ ِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، حَفِظَكُمُ اللّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ ، وَحَفِظَ فِيكُمْ نَبِيّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، أَسْتَوْدِعُكُمُ اللّهَ وَأَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السّلامَ ، ثُمّ لَمْ يَنْطِقْ إِلا بِلا إِلَهَ إِلا اللّهَ حَتّى قُبِضَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَغَسّلَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللّهِ بن جَعْفَرٍ ، وَكُفِّنَ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ ، وَكَبّرَ عَلَيْهِ الْحَسَنُ تِسْعَ تَكْبِيرَاتٍ ، وَوَلِيَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَمَلَهُ سِتّةَ أَشْهُرٍ ، وَكَانَ ابْنُ مُلْجَمٍ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلِيًّا قَاعِدًا فِي بَنِي بَكْرِ بن وَائِلٍ ، إِذْ مُرّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةِ أَبْجَرَ بن جَابِرٍ الْعِجْلِيّ أَبِي حَجّارٍ ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا وَالنّصَارَى حَوْلَهُ ، وَأُنَاسٌ مَعَ حَجّارٍ بِمَنْزِلَتِهِ فِيهِمْ ، يَمْشُونَ فِي جَانِبٍ ، أَمَامَهُمْ شَقِيقُ بن ثَوْرٍ السُّلَمِيُّ ، فَلَمّا رَآهُمْ قَالَ : مَا هَؤُلاءِ ؟ فَأُخْبِرَ ، ثُمّ أَنْشَأَ يَقُولُ : لَئِنْ كَانَ حَجّارُ بن أَبْجَرَ مُسْلِمًا لَقَدْ بُوعِدَتْ مِنْهُ جِنَازَةُ أَبْجَرَ وَإِنْ كَانَ حَجّارُ بن أَبْجَرَ كَافِرًا فَمَا مِثْلُ هَذَا مِنْ كُفُورٍ بِمُنْكَرٍ أَتَرْضَوْنَ هَذَا إِنّ قِسًّا وَمُسْلِمًا جَمِيعًا لَدَى نَعْشٍ فَيَا قُبْحَ مَنْظَرٍ وَقَالَ ابْنُ أَبِي عَيّاشٍ الْمُرَادِيُّ : وَلَمْ أَرَ مَهْرًا سَاقَهُ ذُو سَمَاحَةٍ كَمَهْرِ قَطَامِ بَيِّنًا غَيْرَ مُعْجَمِ . ثَلاثَةُ آلافٍ ، وَعَبْدٌ ، وَقَيْنَةٌ وَضَرْبُ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُصَمّمِ وَلا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وَإِنْ غَلا وَلا قَتْلَ إِلا دُونَ قَتْلِ ابْنِ مُلْجَمِ ، وَقَالَ أَبُو الأ َسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ : أَلا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بن حَرْبٍ وَلا قَرّتْ عُيُونُ الشّامِتِينَا أَفِي الشّهْرِ الْحَرَامِ فَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النّاسِ طُرًّا أَجْمَعِينَا قَتَلْتُمُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَخَيْسَهَا وَمَنْ رَكِبَ السّفِينَا وَمَنْ لَبِسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِيَ وَالْمِئِينَا لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنّكَ خَيْرُهَا حَسَبًا وَدِينًا ، وَأَمّا عَمْرُو بن أَبِي بَكْرٍ فَقَعَدَ لِعَمْرِو بن الْعَاصِ رَحِمَهُ اللّهُ فِي تِلْكَ اللّيْلَةِ الّتِي ضُرِبَ فِيهَا مُعَاوِيَةُ ، فَلَمْ يَخْرُجْ وَكَانَ اشْتَكَى بَطْنَهُ ، فَأَمَرَ خَارِجَةَ بن أَبِي حَبِيبٍ ، وَكَانَ صَاحِبَ شُرْطَتِهِ ، وَكَانَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بن لُؤَيٍّ ، فَخَرَجَ يُصَلِّي بِالنّاسِ ، فَشَدّ عَلَيْهِ وَهُوَ يَرَى أَنّهُ عَمْرُو بن الْعَاصِ فَضَرَبَهُ بِالسّيْفِ فَقَتَلَهُ ، فَأُخِذَ وَأُدْخِلَ عَلَى عَمْرٍو ، فَلَمّا رَآهُمْ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ بِالإ ِمْرَةِ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : عَمْرُو بن الْعَاصِ ، قَالَ : فَمَنْ قَتَلْتُ ؟ قَالُوا : خَارِجَةَ ، قَالَ : أَمَا وَاللّهِ يَا فَاسِقُ مَا ضَمَدْتُ غَيْرَكَ ، قَالَ عَمْرٌو : أَرَدْتَنِي ، وَاللّهُ أَرَادَ خَارِجَةَ ، فَقَدّمَهُ فَقَتَلَهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : وَقَتْكَ

وَأَسْبَابُ الأ   ُمُورِ كثِيرَةٌ مَنِيّةٌ شَيْخٍ مِنْ لُؤَيّ بن غَالِبِ فَيَا عَمْرُو مَهْلا إِنّمَا أَنْتَ عَمّهُ وَصَاحِبُهُ دُونَ الرّجَالِ الأ   َقَارِبِ تجَوّتَ وَقدْ بَلّ المُرَادِيُّ سَيْفَهُ مِنَ ابْنِ أَبِي شَيْخِ الأ   َبَاطِحِ طَالِبِ وَيَضْرِبُنِي بِالسّيْفِ آخَرُ مِثْلهُ فَكَانَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ ضَرْبَةَ لازِبِ وَأَنْتَ تُنَاغِي كُلّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِمِصْرِكَ بِيضًا كالظِّبَاءِ الشّوَارِبِ ، وَكَانَ الّذِي ذَهَبَ بنعْيِهِ سُفْيَانُ بن عَبْدِ شَمْسِ بن أَبِي وَقّاصٍ الزّهْرِيُّ ، وَقدْ كَانَ الحَسَنُ بَعَثَ قيْسَ بن سَعْدِ بن عُبَادَةَ عَلَى تقدِمَتِهِ فِي اثنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ، وَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ حَتّى نَزَلَ إِيلِيَاءَ فِي ذَلِكَ العَامِ ، وَخَرَجَ الحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ ، حَتّى نَزَلَ فِي القصُورِ البِيضِ فِي المَدَائِنِ ، وَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ حَتّى نَزَلَ مَسْكنَ وَكَانَ عَلَى المَدَائِنِ عَمّ المُخْتَارِ لابْنِ أَبِي عُبَيْدٍ ، وَكَانَ يُقَالُ لهُ : سَعْدُ بن مَسْعُودٍ ، فَقَالَ لهُ المُخْتَارُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ غُلامٌ : هَلْ لكَ فِي الغِنَى وَالشّرَفِ ؟ قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : توثِقُ الحَسَنَ وَتسْتَأْمِنُ بِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لهُ سَعْدٌ : عَلَيْكَ لعْنَةُ اللهِ ، أَأَثِبُ عَلَى ابْنِ بنتِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأُوثِقُهُ ؟ ! بِئْسَ الرّجُلُ أَنْتَ ، فَلَمّا رَأَى الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ تفَرّقَ النّاسِ عَنْهُ بَعَثَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ يَطْلُبُ الصّلْحَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ عَبْدَ اللهِ بن عَامِرٍ وَعَبْدَ اللهِ بن سَمُرَةَ بن حَبِيبِ بن عَبْدِ شَمْسٍ فَقدِمَا عَلَى الحَسَنِ بِالمَدَائِنِ ، فَأَعْطيَاهُ مَا أَرَادَ وَصَالحَاهُ ، ثمّ قَامَ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي النّاسِ ، وَقَالَ : يَا أَهْلَ العِرَاقِ ، إِنّهُ مِمّا يُسْخِيُ بنفْسِي عَنْكُمْ ثلاثٌ : قتلُكُمْ أَبِي ، وَطَعْنُكُمْ إِيّايَ ، وَانتِهَابُكُمْ مَتَاعِي ، وَدَخَلَ فِي طَاعَةِ مُعَاوِيَةَ رَحِمَهُمَا اللّهُ ، وَدَخَلَ الكُوفَةَ فَبَايَعَهُ النّاسُ. أخرجه الطبراني في الكبير وهو مرسل حسن[152]

<u>قلت :</u>

<u>وهذا يؤكد أن هؤلاء الثلاثة كانوا على الحق وما سواهم كان على الباطل ، بدليل اتفاق الخوارج الذين هم في الأصل قتلة عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، على قتل الثلاثة ، وهذا من خطط أعداء الإسلام الجهنمية التي يكيدون بها لهذه الأمة الخاتمة</u>

===============

استشهاد علي رضي الله عنه

مَلّ أميرُ المؤمنين عليٌّ أهلَ العراق وسئِم إمارته عليهم، حتى صرّح لهم بذلك في كثير من خُطَبِه، وتمنّى من الله الموتَ إذا كان خيرًا له؛ لأن الفتن عظم أمرُها من حوله.

عَنْ عُبَيْدَةَ ، قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ : مَا يُحْبَسُ أَشْقاهَا أَنْ يَجِيءَ فَيَقْتُلُنِي , اللّهُمّ إِنّي قَدْ سَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ وَأَرِحْهُمْ مِنِّي .أخرجه ابن أبي شيبة (37100)بسند صحيح

وفي سنة أربعين من الهجرة تحقق ما صَبَتْ إليه نفس الإمام؛ إذ اجتمع ثلاثةٌ من الخوارج وخططوا لقتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص، وبيّتُوا لذلك، وبينما الخليفة الإمام يقترب من باب المسجد، وقيل: بل وهو يتهيأ للصلاة،

[152] - انظر البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 478) فما بعد

بعد أن عبر شوارع الكوفة يُوقِظ أهلَها لصلاة الفجر، ويُنادِيهم بصوته الجليل: "الصلاة، أيها الناس، الصلاة، يرحمكم الله"! اقترب منه في لجّة الظلام واحد من الخوارج اسمُه عبد الرحمن بن مُلْجَم مُنقِّدًا جريمتَه، وكان الإمامُ بلا حرس، فكان اغتياله عملا يسيرا.

ولم تكن الجريمة تتطلب أي جَلَدٍ أو قوة أو بطولة، إنما كانت تتطلب ضميرا ميتا وتفكيرا ضالا، وقلبا أعمى، وهوى مُتَّبَعًا، وإرادةً سَلِيبةً..!!

وفرغ الناس من صلاة الفجر، وجاءوا إلى أمير المؤمنين مسرعين، وأتوه بقاتلِه ابنِ مُلجم ماثلا ً بين يديه، فقال لهم: إن مُتُّ فاقتُلوه كما قتلني، وإن بقِيتُ رأيتُ فيه رأيي، ونهاهم عن المُثْلة به،

فعن إسماعيل بن راشد ، قال : ذكروا أن ابن الحنفية ، قال : والله إني لأصلي الليلة التي ضرب علي فيها في المسجد الأعظم ، في رجال كثير من أهل المصر (1) يصلون قريبا من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره ، إذ خرج علي لصلاة الغداة (2) ، فجعل ينادي : أيها الناس ، الصلاة ، الصلاة ، فما أدري : أخرج من السدة فتكلم بهذه الكلمات ، أو نظرت إلى بريق السيف ، وسمعت قائلا يقول : « الحكم لله لا لك يا علي ، ولا لأصحابك » فرأيت سيفا ، ثم رأيت ناسا ، وسمعت عليا يقول : « لا يفوتنكم الرجل ، وشد الناس عليه من كل جانب ، فلم أبرح حتى أخذ ابن ملجم ، وأدخل على علي ، فدخلت فيمن دخل من الناس ، فسمعت عليا يقول : » النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي « قال : وقد كان علي نهى الحسن عن المثلة (3) ، وقال : يا بني عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : » قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي ، انظر يا حسن ، إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة ، ولا تمثل بالرجل « فلما قبض علي رضوان الله عليه ، بعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن : » هل لك في خصلة (4) ؟ إني والله ما أعطيت عهدا إلا وفيت به ، إني كنت أعطيت الله عهدا عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية ، أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بيني وبينه ، ولك والله علي إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت ، أن آتيك حتى أضع يدي في يدك ، فقال له الحسن : « أما والله حتى تعاين النار فلا ، ثم قدمه فقتله ، ثم أخذه الناس فأدرجوه في بوار ، ثم أحرقوه بالنار »

(1) المصر : البلد أو القرية

(2) الغداة : الصبح

(3) المُثْلة : جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد تنكيلا، وقد تطلق على النذر بما يرهق النفس أو يشوهها

(4) الخصلة : خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة[153]

[153] - تهذيب الآثار للطبري - (ج 4 / ص 79) و تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 149)

و عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ ، قَالَ : دَعَاهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَجَاءَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن مُلْجَمٍ ، وَقَدْ كَانَ رَآهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : مَا يُحْبَسُ أَشْقَاهَا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَخْضِبَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ : اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكَ وَلا تَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَ .[154]

و عن أبي جعفر ، أن « الحسن بن علي رضي الله عنهما قتل ابن ملجم بعلي رضي الله عنه ، قال أبو يوسف : وكان لعلي أولاد صغار » قال أحمد : يشبه أن يكون الحسن بن علي رضي الله عنهما وقف على استحلال عبد الرحمن بن ملجم قتل أبيه فقتله لأجل ذلك ، واستدل بعض من قال ذلك من أصحابنا بما روينا عن أبي سنان الدؤلي أنه عاد عليا في شكوى له ، قال : فقلت له : لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لكني والله ما تخوفت لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق يقول : « إنك ستضرب ضربة ها هنا وضربة ها هنا » وأشار إلى صدغيه « فيسيل دمها حتى تخضب لحيتك ، ويكون صاحبها أشقاها كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود » ، قلت : ويحتمل أن يكون رآه من الساعين في الأرض بالفساد ، فقتله لذلك لا بولاية القصاص ، والله أعلم[155]

---

[154] - أخرجه الطبراني في الكبير برقم(167) وهو صحيح ومعرفة الصحابة برقم(314)

[155] - معرفة السنن والآثار للبيهقي - (ج 13 / ص 185) برقم(5093)

وفي مشكل الآثار للطحاوي - (ج 2 / ص 305)

باب بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام في قوله : « أقرؤهم ، يعني أمته لكتاب الله أبي بن كعب ، وأفرضهم زيد ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل »

686 - حدثنا ابن مرزوق ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب بن خالد ، حدثنا خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن أنس عن النبي عليه السلام قال : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأفرضهم (1) زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ألا وإن لكل أمة أمينا ألا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » حدثنا أبو أمية ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان ، عن خالد الحذاء ، وعاصم ، عن أبي قلابة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر مثله غير أنه لم يذكر في حديثه : « وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب » حدثنا أبو أمية ، حدثنا خلف بن الوليد العتكي ، حدثنا الأشجعي ، ثنا سفيان ، عن خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن أنس ، عن النبي عليه السلام مثله غير أنه قال : « وأفرضها زيد ، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ » فسأل سائل عن المراد بما ذكر به كل واحد من أبي ، وزيد ، ومعاذ في هذا الحديث ، وهل يوجب ذلك له أن يكون في معناه الذي ذكر به فوق الخلفاء الراشدين المهديين ومن سواهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين ؟ ، فكان جوابنا له في ذلك أن من جلت رتبته في معنى من المعاني جاز أن يقال إنه أفضل الناس في ذلك المعنى ، وإن كان فيهم من هو مثله أو من هو فوقه ، ومن ذلك ما قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قاله لعلي : « إنه يقتله أشقاها » يريد البرية

---

(1) أفرضهم : أكثرهم علما بالفرائض وهي المواريث

687 - كما حدثنا أحمد بن داود بن موسى ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي ، حدثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، وكما حدثنا أحمد بن شعيب ، أخبرني محمد بن وهب ، حدثنا محمد بن سلمة ، ثنا ابن إسحاق ، عن يزيد بن محمد بن خثيم ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن محمد بن خثيم ، عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلي ، رفيقين في غزوة ذكرها أحمد بن داود في حديثه ولم يذكرها أحمد بن شعيب فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام بها رأينا ناسا من بني مدلج يعملون في عين لهم أو في نخل ، فقال لي علي : يا أبا اليقظان هل لك أن نأتي هؤلاء فننظر كيف

ثم سألوه أن يَستخْلِف عليهم، ولكنه أبَى ذلك، ثم دعا بَنِيهِ وعلى رأسهم الحسنُ والحسينُ، وراح يملي عليهم وصيتَه.
كان الاعتداءُ على حياة الإمام قد وقع فجر يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة، وكانت وفاته يوم الأحد التاسع عشر من

يعملون ؟ قال : قلت إن شئت فجئناهم ، فنظرنا إلى عملهم ساعة ، ثم غشينا (1) النوم فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في ظل صور من النخل ، وفي دقعاء (2) من التراب فنمنا فوالله ما نبهنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها فيومئذ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « ما لك يا أبا تراب » لما يرى عليه من التراب ، ثم قال : « ألا أحدثكما بأشقى الناس ؟ » ، قلنا : بلى يا رسول الله قال : « أحيمر ثمود الذي عقر (3) الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه » ووضع يده على قرنه (4) حتى يبل منها هذه وأخذ بلحيته « ثم من ذلك أيضا ما قد روي عن علي مما لم يضفه إلى النبي عليه السلام غير أنا نعلم أنه لم يقله رأيا ، ولا استخراجا ، ولا استنباطا إذ كان مثله لا يقال بالرأي ، ولا بالاستخراج ، ولا بالاستنباط ، ونحيط علما أنه قال ذلك ؛ لأخذه إياه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) غشينا : غلبنا وأصابنا
(2) الدقعاء : التراب الدقيق على وجه الأرض
(3) العقر : ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم
(4) القرن : جانب الرأس

688 - كما حدثنا فهد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا فطر بن خليفة ، حدثنا أبو الطفيل قال : « دعا علي الناس إلى البيعة ، فجاء عبد الرحمن بن ملجم فرده مرتين ، ثم قال : ما يحبس أشقاها ليخضبن أو ليضعن هذا من هذه للحيته من رأسه ، ثم تمثل بهذين البيتين ، اشدد حيازيمك للموت فإن الموت آتيكا ولا تجزع من القتل إذا حل بواديكا » ونحن نعلم أن ابن ملجم قد كان من أهل التوحيد وإنما الذي كان منه حتى عاد به مطلقا عليه أنه أشقى الناس عظيم ما كان منه ، وجلالة جرمه ، وفتقه في الإسلام ما فتقه ، ونحن نعلم مع ذلك أن أشقى منه من لم يوحد الله ساعة قط ، وجعل لله ولدا ولقي الله على ذلك ، وهو في الشقوة فوق ابن ملجم ، ومن ذلك ما قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخوارج الذين منهم ابن ملجم

689 - كما حدثنا محمد بن سنان الشيزري ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الخولاني ، عن الأوزاعي ، عن قتادة ، عن أنس عن النبي عليه السلام في وصفه الخوارج بالصلاة والصوم ، ثم قال : « يمرقون (1) من الدين كما يمرق السهم من الرمية (2) شرار الخلق والخليقة » وكما حدثنا الربيع المرادي ، حدثنا بشر بن بكر ، عن الأوزاعي ، ثم ذكر بإسناده مثله وقد علمنا أن من نحل لله ولدا ، أو أشرك به ، وقتل أنبياءه وكذب رسله شر من هؤلاء ؛ لما عظم ما كان منهم وجل جاز بذلك أن يقال : هم شر الخلق والخليقة ، وجاز لمن تفرد منهم بما تفرد به في علي أن يقال : هو أشقى البرية وإن كان فيها من هو في الشقوة مثله أو من هو في الشقوة فوقه ، فمثل ذلك ما ذكرناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل واحد من أبي ، ومن زيد ، ومن معاذ في الحديث الذي رويناه في صدر هذا الباب جاز إطلاق ذلك له على ما في الحديث ؛ لجلالة مقداره في المعنى الذي أضيف إليه فيه ؛ ولعلو رتبته فيه وإن كان قد يجوز أن يكون في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من هو في ذلك المعنى مثله ، ومن هو فوقه في ذلك المعنى ؛ وهذا لسعة اللغة ولعلم المخاطبين بذلك مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما خاطبهم به فيه ، ولولا أن ذلك كذلك ما جاز أن يقال لمن عظمت رتبته في العلم وجل مقداره فيه : إنه أعلم الناس إذ كان الذي يقول ذلك له لا يعرف الناس جميعا ، ولا يقف على مقادير علومهم ، وإذا جاز له ذلك مع تقصيره عن معرفة الناس جميعا ، وعن معرفة مقدار علومهم إذ كان لا يعرف منهم مثل الذي وصفه مما وصفه به كان ذلك مما قد عقلنا به أن المراد بمثله من يعرفه قائل ذلك القول ، وأنه جاز له جمع الناس جميعا في قوله ، وأن ذلك على المجاز لا على الحقيقة

---

(1) يمرقون : يجوزون ويخرقون ويخرجون
(2) الرمية : الهدف الذي يرمى

شهر رمضان، لتنتهي بذلك دولة الخلفاء الراشدين، ولتبدأ دولة المُلك الموروث.
وقد غسّل أميرَ المؤمنين ابناه الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن جعفر، وكفنوه وصلّوْا عليه ودُفن، لكن قبره مجهول المكان.
===============

وصية علي رضي الله عنه

عَنْ أيوب أنه أخذ هذا الكتاب من عمرو بن دينار هذا ما أقر به وقضى في م اله علي بن أبي طالب تصدق بينبع ابتغاء مرضاة الله ليولجني الجنة ويصرف النار عني ويصرفني عن النار فهي في سبيل الله ووجهه ينفق في كل نفقة من سبيل الله ووجهه في الحرب والسلم والخير وذوي الرحم و القريب والبعيد لا يباع ولا يوهب ولا يورث كل مال في ينبع غير أن رباحا وأبا نيزر وجبيرا إن حدث بي حدث ليس عليهم سبيل وهم محررون موال يعملون في المال خمس حجج وفيه نفقاتهم ورزقهم ورزق أهليهم فذلك الذي أقضي فيما كان لي في ينبع جانبه حيا أنا أو ميتا ومعها ما كان لي بوادي أم القرى من مال ورقيق حيا أنا أو ميتا ومع ذلك الأذينة وأهلها حيا أنا أو ميتا ومع ذلك رعد وأهلها غير أن زريقا مثل ما كتبت لأبي نيزر ورباح وجبير وأن ينبع وما في وادي القرى والأذينة ورعد ينفق في كل نفقة ابتغاء بذلك وجه الله في سبيله يوم تسود وجوه وتبيض وجوه لا يبعن ولا يوهبن ولا يورثن إلا إلى الله هو يتقبلهن وهو يرثهن فذلك قضية بيني وبين الله الغد من يوم قدمت مسكن حيا أنا أو ميتا فهذا ما قضي علي في ماله واجبة بتلة ثم يقوم على ذلك بنو علي بأمانة وإصلاح كإصلاحهم أموالهم يزرع ويصلح كإصلاحهم أموالهم ولا يباع من أولاد علي من هذه القرى الأ ربع ودية واحدة حتى يسد أرضها غراسها قائمة عمارتها للمؤمنين أولهم وآخرهم فمن وليها من الناس فأذكر الله إلا جهد ونصح وحفظ أمانته هذا كتاب علي بن أبي طالب بيده إذ قدم مسكن وقد أوصيت ..... الفقيرين في سبيل الله واجبة بتلة ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناحيته ينفق في سبيل الله ووجهه وذي الرحم والفقراء والمساكين وابن السبيل يأكل منه عماله بالمعروف غير المنكر بأمانة وإصلاح كإصلاحه ماله يزرع وينصح ويجتهد هذا ما قضى علي بن أبي طالب في هذه الأموال التي كتب في هذه الصحيفة والله المستعان على كل حال
أما بعد فإن ولائدي اللاتي أطوف عليهن التسع عشرة منهن أمهات أولاد وأو لادهن أحياء معهن ومنهن حبالى ومنهن من لا ولد لها فقضيت إن حدث بي حدث في هذا الغزو أن من كان منهن ليس لها ولد وليست بحبلى عتيقة لوجه الله ليس لأحد عليها سبيل ومن كانت منهن حبلى أو لها ولد تمسك على ولدها فهي من حظه فإن مات ولدها وهي حية فليس لأحد عليها سبيل هذا ما قضيت في ولائدي التسع عشرة وشهد عبيد الله بن أبي رافع وهياج بن أبي هياج وكتب علي بيده لعشر ليال خلون من جمادى الأولى سنة تسع

وثلاثين سنة أخرجه عبد الرزاق في المصنف [156]
ولما احتضر عليٌ ـ رضي الله عنه ـ جعل يُكثِر من قول لا إله إلا الله، لا يتلفظ بغيرها، وقيل: إن آخر ما تكلم به هو: (فمَن يعملْ مِثْقالَ ذرّةٍ خيرًا يَرَه. ومَن يعملْ مِثْقالَ ذرّةٍ شرًا يَرَه).
وصورة الوصية: بسم الله الرحمن الرحيم!
هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. (ج/ص: 7/363)
أوصيك يا حسن وجميع ولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إ لا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام)) انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوا ليهوّن الله عليكم الحساب، الله الله في الأيتام فلا تعفو أفواهم ولا يضيعن بحضرتكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.
والله الله في القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا، والله الله في شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار.
والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب الرب، والله الله في ذمة نبيكم لا تظلمن بين ظهرانيكم.
والله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بهم، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: ((أوصيكم بالضعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم)).
الصلاة الصلاة لا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله.
ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع و التفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الآثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب.
حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ عليكم نبيكم، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله. [157]
وبالرغم من أن عليا أبى أن يوصي بالخلافة من بعده إلى ابنه الحسن أو

[156] - برقم (19415و19416)
[157] - تاريخ الرسل والملوك - (ج 3 / ص 150) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 8 / ص 481)

غيره، إلا أن أهل العراق بايعوا الحسن بالخلافة بعد موت علي ـ رضي الله عنه.

===============

خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما

قُتِل عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ولم يُوص لأحد من بعده، فاتّجه أهلُ العِراق إلى الحسن بن عليّ، فبايعوه، وقام أهلُ الشام فبايعوا معاوية بِبَيْتِ المقدس.

ثم سار الحسن في جنود العراق عن غير حب منه ولا إرادة لذلك، وسار معاوية في أهل الشام، فلما عسكر الحسنُ بإزاء جيش معاوية لاحت بوادر قتال، فكره الحسن حفيد نبي الرحمةِ العودة إلى إراقة دماء المسلمين بأيدي المسلمين، وقام في أهل العراق خطيبا يمهد لأمر الصلح، فلما رأى منه أهل العراق ذلك تطاولوا عليه، لكن نسل بيت النبوة أدرك أنه لابد من الإسراع بأمر الصلح وحقن دماء المسلمين، لإصلاح حال الأمة.

فلما تقابل الفريقان عَرَضَ معاوية على الحسن الصلحَ، وتبادل الحسن ومعاوية الرسل، وانتهى الأمر إلى اتفاق الفريقين، فأعْلَمَ الحسنُ أصحابه بأمر الصلح وتنازُلِه عن الخلافة في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين من الهجرة.

ورجع الحسنُ إلى الكوفة، والتَقى فيها بمعاوية في غرة جمادى الأولى من هذه السنة، وبايعه الحسن والحسين وأهل العراق، وخطب الحسن في الناس ، وتسلم بذلك معاوية بلادَ العراق، وأخذ يراوض قيسَ بن سعد على البيعة حتى بايعه، وترحّل الحسن بن علي ومعه إخوته وبقيةُ آلِ البيت المطهرين ـ عليهم رضوان الله ـ من أرض العراق إلى المدينة المنورة.

وجعل كلما مرّ بحيٍّ من شِيعتهم يلومُونه على ما صنع من نزوله عن الأمر لمعاوية، وهو في ذلك البارّ الراشد الممدوح، وليس يَجد في صدره حرجًا ولا تلوُّمًا ولا تدَما، بل هو راضٍ بذلك مستبشر به.

وما فعله الحسَنُ ابن بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عين ما أنبأ به النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن الله مصلح بابنه ذاك بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فمدحه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل على صنيعه هذا، ورغبته عن سلطان الدنيا ومتاعها، وحَقْنِهِ دماء الأ مة المسلمة.

وقد استبشر المسلمون خيرًا بتلك المصالحة، وترك صنيعُ الحسن صدى طيبا في نفوس المسلمين، وأثنى عليه كثير من علماء أهل السنة، ورأوا فيما فعل تحقيقا لبشرى جده النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

وحمد المسلمون ربّهم على كشف غمة الفتنة، وأصبح معاوية خليفةً للأمة الإ سلامية كلِّها، واستوثقت له الممالك شرقا وغربا، وبُعدا وقربا،وسمّى المسلمون هذا العام عامَ الجماعةِ؛ لاجتماع الكلمة فيه على أمير واحد بعد فرقة مُرّة، وثقلت عاصمة الخلافة من الكوفة إلى دمشق. واستقر الأمر

لمعاوية ـ رضي اللّٰه عنه ـ إلى أن مات سنة ستين من الهجرة.[158]
=================

بشارة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم بالصلح

عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ اسْتَقْبَلَ وَاللَّهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِىٍّ مُعَاوِيَةَ بِكَتَائِبَ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِنِّى لأَ رَى كَتَائِبَ لاَ تُوَلِّى حَتَّى تَقْتُلَ أَقْرَانَهَا . فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ - وَكَانَ وَاللَّهِ خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ - أَىْ عَمْرُو إِنْ قَتَلَ هَؤُلاَ ءِ هَؤُلاَ ءِ وَهَؤُلاَ ءِ هَؤُلاَ ءِ مَنْ لِى بِأُمُورِ النَّاسِ مَنْ لِى بِنِسَائِهِمْ ، مَنْ لِى بِضَيْعَتِهِمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِى عَبْدِ شَمْسٍ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ ، فَقَالَ اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَاعْرِضَا عَلَيْهِ ، وَقُولاَ لَهُ ، وَاطْلُبَا إِلَيْهِ . فَأَتَيَاهُ ، فَدَخَلاَ عَلَيْهِ فَتَكَلَّمَا ، وَقَالاَ لَهُ ، فَطَلَبَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِىٍّ إِنَّا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، قَدْ أَصَبْنَا مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُ مَّةَ قَدْ عَاثَتْ فِى دِمَائِهَا . قَالاَ فَإِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ وَيَسْأَلُكَ . قَالَ فَمَنْ لِى بِهَذَا قَالاَ نَحْنُ لَكَ بِهِ . فَمَا سَأَلَهُمَا شَيْئًا إِلاَّ قَالاَ نَحْنُ لَكَ بِهِ . فَصَالَحَهُ ، فَقَالَ الْحَسَنُ وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِىٍّ إِلَى جَنْبِهِ ، وَهْوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ « إِنَّ ابْنِى هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أخرجه البخاري[159]

ولعل الحسن ـ رضي اللّٰه عنه ـ ظل حياته كلها يتمنى تحقيق هذه البشارة، وظهر هذا من نصائحه المتكررة لوالده بترْكِ القتال.

وعندما بايع الناس الحسن على الخلافة اقتربت هذه البشارة من التحقق، وظهرت ملامح السلام في بيعته، وبوادر تحقيق بشرى النبي ـ صلى اللّٰه عليه وسلم ـ له.

---

[158] - البداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج 9 / ص 54) فما بعد

[159] -برقم(2702)

وفي عون المعبود - (ج 10 / ص 180)

قَالَ صَاحِبُ عَوْنِ الْمَعْبُودِ :

(إِنَّ اِبْنِي هَذَا سَيِّد): أَيْ حَلِيم كريم مُتَجَمِّل

(بَيْن فِئَتَيْنِ مِنْ أُمَّتِي) : هُمَا طَائِفَة الْحَسَن وَطَائِفَة مُعَاوِيَة وَكَانَ الْحَسَن رَضِيَ الله عَنْهُ حَلِيمًا فَاضِلًا وَرِعًا دَعَاهُ وَرَعه إِلَى أَنَّ ترك الْمُلك رَغْبَة فِيمَا عِنْد الله تعَالَى لَا لِقِلَّةٍ وَلَا لِعِلَّةٍ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُتِلَ عَلِيّ رَضِيَ الله عَنْهُ بَايَعَهُ أَكْثَر مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَبَقِيَ خَلِيفَة بِالْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ خُرَاسَان سِتَّة أَشْهُر وَأَيَّامًا ثُمَّ سَارَ إِلَى مُعَاوِيَة فِي أَهْل الْحِجَاز وَسَارَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَة فِي أَهْل الشَّام ، فَلَمَّا اِلْتَقَى الْجَمْعَانِ بِمَنْزِلٍ مِنْ أَرْض الْكُوفَة وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَة فِي الصُّلْح أَجَابَ عَلَى شُرُوط مِنْهَا أَنْ يَكُون لَهُ الْأَمْر بَعْده ، وَأَنْ يَكُون لَهُ مِنْ الْمَال مَا يَكْفِيه فِي كُلّ عَام كَذَا فِي السِّرَاج الْمُنِير

(وَلَعَلّ الله أَنْ يُصْلِح بِهِ) : أَيْ بِسَبَبِ تكرُّمه وَعَزْله نَفسه عَنْ الْأَمْر وَتَركه لِمُعَاوِيَةَ اِخْتِيَارًا

(بَيْن فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمَتَيْنِ) : فِيهِ دَلِيل عَلَى أَنَّ وَاحِدًا مِنْ الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يَخْرُج بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي تِلْكَ الْفِتْنَة مِنْ قَوْل أَوْ فِعْل عَنْ مِلَّة الْإِسْلَام لِأَنَّ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَهُمْ كُلّهمْ مُسْلِمِينَ مَعَ كَوْن إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مُصِيبَة وَالْأُخْرَى مُخْطِئَة ، وَهَكَذَا سَبِيل كُلّ مُتَأَوِّل فِيمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ رَأْي وَمَذْهَب إِذَا كَانَ لَهُ فِيمَا تَنَاوَلَهُ شُبْهَة ، وَإِنْ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ . وَاخْتَارَ السَّلَف تَرْك الْكَلَام فِي الْفِتْنَة الْأُولَى وَقَالُوا تِلْكَ دِمَاء طَهَّرَ الله عَنْهَا أَيْدِينَا فَلَا نُلَوِّث بِهِ أَلْسِنَتنَا كَذَا فِي الْمِرْقَاة نَقْلًا عَنْ شَرْح السُّنَّة .

وما هي إلا أيام قليلة حتى كان الصلحُ بينه وبين معاوية، وحقْنُ دماء المسلمين، ودخولُ الناس جميعا في الجماعة في ظل بَيْعةِ أميرٍ واحد.
وقد مدحه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صنيعه هذا قبل أن يصبح واقعا، إذْ ترك سلطان الدنيا الفانية رغبة في آخرة هي خير وأبقى، وحقنا لدماء هذه الأمة، فنزل عن الخلافة، وجعل المُلكَ بِيَدِ معاوية حتى تجتمع الكلمة على أمير واحد، وسمي ذلك العام "عام الجماعة".
=================

عام الجماعة

كان تسليم الحسن الخلافةَ لمعاوية رضي الله عنهما محققا لبشارة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له؛ إذْ هو السيد الذي أصلح الله به بين طائفتين عظيمتين، كذلك كان به انقضاء دور الفتن والشقاق الذي كان مبدؤه من النصف الثاني من خلافة عثمان رضي الله عنه.
وقد استمرت الفتنة مشتعلة بضع سنوات، ولو كانت في أمة أخرى لهدمت أركانها، وقوضت بنيانها، ولكن الله الرحمن الرحيم نظر إلى دينه القويم بعين عنايته، وبعظيم رحمته، وبجميل لطفه، فألف قلوب أهله، وحفظه كما وعد.
وكان عقد البيعة من الحسن لمعاوية في ربيع الأول، أو الآخر سنة إحدى وأربعين، وحرص الصحابة من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان على جمع الكلمة، ونبْذ الفُرقة، والدخول في الجماعة، فسُمّي ذلك العام عامَ الجماعة؛ لدخولهم جميعا في طاعة أمير واحد، واجتماعهم بعد الفُرقة، ولا ستئنافهم الجهادَ وتفرغِهم للفتوح ونشر دعوة الإسلام، بعد أن عطّل قَتَلَةُ عثمان سيوفَ المسلمين عن أداء هذه المهمة خمسَ سنوات، كان يستطيع المسلمون أن يسجلوا فيها أمجادا كبعض الذي حققوه من قبل في ظل الخلا فة الراشدة.
و عن ثابت مولى سفيان، سمعت معاوية، وهو يقول: إني لست بخيركم، وإن فيكم من هو خير مني: ابن عمر، وعبد الله ابن عمرو وغيرهما ، ولكني عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم، وأنعمكم لكم ولاية، وأحسنكم خلقا[160]
===============

استئناف حركة الفتوح

جاءت الفتنة فأوقفت حركة الجهاد وفتوح البلدان ونشر الإسلام في ربوع المعمورة حتى عام الجماعة، فلم يكن للمسلمين غزو منذ قُتِلَ عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى كان عام الجماعة، فغزا جند معاوية أرضَ الروم ستّ عشرةَ غزوةً، تذهب سَرِيّة في الصيف ويُشتُّون بأرض الروم، ثم تقفل وتعقبها أخرى، وكان في جملة مَنْ قاد الغزو يزيد بن معاوية ومعه خلق من الصحابة ، فقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها، ثم قفل بهم راجعا إلى الشام.
عن سعيد بن عبد العزيز قال : أغزا معاوية الناس الصوائف وشتاهم بأرض

---

[160] - سير أعلام النبلاء - (ج 3 / ص 150)

الروم ست عشرة صائفة بها وشتوا ثم يقفل ويدخل معقبتها ثم اغترهم فأغزاهم يزيد ابنه في جماعة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في البر والبحر حتى أجاز بهم الخليج وقاتلوا أهلها على بابها وقفل قالوا فلم يزل معاوية على ذلك حتى مضى لسبيله وكان آخر ما وصاهم به أن شدوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم أخرجه ابن عساكر[161]

****

سابعا- بعض الدروس والعبر من الفتنة

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ببعض ما حدث

المؤمنون ثلاثة أقسام :

وَبِتَحَقّقِ " هَذَا المَقَامِ " يَزُولُ الِاشْتِبَاهُ فِي هَذَا المَوْضِعِ وَيُعْلَمُ أَنّ فِي المُسْلِمِينَ قِسْمًا لَيْسَ هُوَ مُنَافِقًا مَحْضًا فِي الدّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النّارِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ المُؤْمِنِينَ الّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ : { إنّمَا المُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ } . وَلَا مِنْ الّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ : { أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّا } فَلَا هُمْ مُنَافِقُونَ وَلَا هُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الصّادِقِينَ المُؤْمِنِينَ حَقّا وَلَا مِنْ الّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنّةَ بِلَا عِقَابٍ . بَلْ لَهُ طَاعَاتٌ وَمَعَاصٍ وَحَسَنَاتٌ وَسَيّئَاتٌ وَمَعَهُ مِنْ الإِيمَانِ مَا لَا يَخْلُدُ مَعَهُ فِي النّارِ وَلَهُ مِنْ الكَبَائِرِ مَا يَسْتَوْجِبُ دُخُولَ النّارِ . وَهَذَا القِسْمُ قَدْ يُسَمّيهِ بَعْضُ النّاسِ : الفَاسِقُ الملي وَهَذَا مِمّا تَنَازَعَ النّاسُ فِي اسْمِهِ وَحُكْمِهِ . وَالخِلَافُ فِيهِ أَوّلُ خِلَافٍ ظَهَرَ فِي الإِسْلَامِ فِي مَسَائِلِ " أُصُولِ الدّينِ " . فَنَقُولُ : لَمّا قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عفان وَسَارَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إلَى العِرَاقِ وَحَصَلَ بَيْنَ الأُمّةِ مِنْ الفِتْنَةِ وَالفُرْقَةِ يَوْمَ الجَمَلِ ثُمّ يَوْمَ صفين مَا هُوَ مَشْهُورٌ : خَرَجَتْ (الخَوَارِجُ المَارِقُونَ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ جَمِيعًا وَكَانَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ أَخْبَرَ بِهِمْ وَذَكَرَ حُكْمَهُمْ قَالَ

---

[161] - تاريخ دمشق - (ج 59 / ص 158)

الإِمَامُ أحْمَد : صَحّ الحَدِيثُ فِي الخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أوْجُهٍ وَهَذِهِ العَشَرَةُ أخْرَجَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مُوَافَقَةً لِأحْمَدَ وَرَوَى البُخَارِيُّ مِنْهَا عِدّةَ أوْجُهٍ وَرَوَى أحَادِيثَهُمْ أهْلُ السُّنَنِ وَالمَسَانِيدِ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ . وَمِنْ أصَحّ حَدِيثِهِمْ حَدِيثُ عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ وَأبِي سَعِيدٍ الخدري فَفِي الصّحِيحَيْنِ { عَنْ عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ أنّهُ قَالَ : إذَا حَدّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَدِيثًا فَوَاللهِ لَأنْ أخِرّ مِنْ السّمَاءِ إلَى الأرْضِ أحَبُّ إلَيّ مِنْ أنْ أكْذِبَ عَلَيْهِ وَإِنْ حَدّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ وَإِنّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ : سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزّمَانِ أحْدَاثُ الأسْنَانِ سُفَهَاءُ الأحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيّةِ لَا يُجَاوِزُ إيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدّينِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ فَأيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنّ فِي قَتْلِهِمْ أجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ } . وَفِي الصّحِيحَيْنِ { عَنْ أبِي سَعِيدٍ قَالَ : بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أبِي طَالِبٍ إلَى النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أدَمٍ مَقْرُوضٍ لَمْ تُحَصّلْ مِنْ تُرَابِهَا فَقَالَ : فَقَسَمَهَا بَيْنَ أرْبَعَةِ نَفَرٍ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أصْحَابِهِ كُنّا أحَقّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ : ألَا تَأمَنُونِي وَأنَا أمِينُ مَنْ فِي السّمَاءِ يَأتِينِي خَبَرُ السّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرّأسِ مُشَمّرُ الإِزَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اتّقِ اللهَ فَقَالَ : وَيْلَك أوَلَسْت أحَقّ أهْلِ الأرْضِ أنْ يَتّقِيَ اللهَ قَالَ : ثُمّ وَلّى الرّجُلُ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ يَا رَسُولَ اللهِ ألَا أضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ فَقَالَ : لَا : لَعَلّهُ أنْ يَكُونَ يُصَلّي قَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّي لَمْ أومر أنْ أنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النّاسِ ؛ وَلَا أشُقّ بُطُونَهُمْ قَالَ ثُمّ نَظَرَ إلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ : إنّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدّينِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ قَالَ : أظُنُّهُ قَالَ : لَئِنْ أدْرَكْتهمْ لَأقْتُلَنّهُمْ قَتْلَ عَادٍ } . اللّفْظُ لِمُسْلِمِ . وَلِمُسْلِمِ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ عَنْ أبِي سَعِيدٍ { أنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ذَكَرَ قَوْمًا يَكُونُونَ فِي أُمّتِهِ يَخْرُجُونَ فِي فُرْقَةٍ مِنْ النّاسِ سِيمَاهُمْ التّحْلِيقُ ثُمّ قَالَ شَرُّ الخَلْقِ أوْ مِنْ شَرّ الخَلْقِ يَقْتُلُهُمْ أدْنَى الطّائِفَتَيْنِ إلَى الحَقّ } قَالَ أبُو سَعِيدٍ : أنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ يَا أهْلَ العِرَاقِ وَفِي لَفْظٍ لَهُ : { تَقْتُلُهُمْ أقْرَبُ الطّائِفَتَيْنِ إلَى الحَقّ } وَهَذَا الحَدِيثُ مَعَ مَا ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ { عَنْ أبِي بَكْرَةَ أنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيّ : إنّ ابْنِي هَذَا سَيّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ المُؤْمِنِينَ } فَبَيّنَ أنّ كِلَا الطّائِفَتَيْنِ كَانَتْ مُؤْمِنَةً وَأنّ اصْطِلَاحَ الطّائِفَتَيْنِ كَمَا فَعَلَهُ الحَسَنُ كَانَ أحَبّ إلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَرَسُولِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ اقْتِتَالِهِمَا وَأنّ اقْتِتَالَهُمَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَأمُورًا بِهِ فَعَلِيُّ بْنُ أبِي طَالِبٍ وَأصْحَابُهُ أقْرَبُ إلَى الحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابِهِ وَأنّ قِتَالَ الخَوَارِجِ مِمّا أمَرَ بِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَلِذَلِكَ اتّفَقَ عَلَى قِتَالِهِمْ الصّحَابَةُ وَالأئِمّةُ . وَهَؤُلَاءِ الخَوَارِجُ لَهُمْ أسْمَاءٌ يُقَالُ لَهُمْ : " الحرورية " لِأنّهُمْ خَرَجُوا بِمَكَانِ يُقَالُ لَهُ حَرُورَاءُ وَيُقَالُ لَهُمْ

(أهْلُ النهروان : لِأَنّ عَلِيًّا قَاتَلَهُمْ هُنَاكَ وَمِنْ أَصْنَافِهِمْ " الإباضية " أَتْبَاعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إبَاضٍ و " الأزارقة " أَتْبَاعُ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ و " النّجَدَاتُ " أَصْحَابُ نَجْدَةَ الحروري . وَهُمْ أَوّلُ مَنْ كَفّرَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِالذّنُوبِ بَلْ بِمَا يَرَوْنَهُ هُمْ مِنْ الذّنُوبِ وَاسْتَحَلّوا دِمَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَلِكَ فَكَانُوا كَمَا نَعَتَهُمْ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ " وَكَفّرُوا عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَعُثْمَانَ بْنَ عفان وَمَنْ وَالَاهُمَا وَقَتَلُوا عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مُسْتَحِلّينَ لِقَتْلِهِ قَتَلَهُ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ مُلْجِمٍ المرادي مِنْهُمْ وَكَانَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ الْخَوَارِجِ مُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ لَكِنْ كَانُوا جُهّالًا فَارَقُوا السّنّةَ وَالْجَمَاعَةَ ؛ فَقَالَ هَؤُلَاءِ : مَا النّاسُ إلّا مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ ؛ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ فَعَلَ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ جَمِيعَ الْمُحَرّمَاتِ ؛ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ ؛ مُخَلّدٌ فِي النّارِ . ثُمّ جَعَلُوا كُلّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ كَذَلِكَ فَقَالُوا : إنّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَنَحْوَهُمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللّهُ وَظَلَمُوا فَصَارُوا كُفّارًا . وَمَذْهَبُ هَؤُلَاءِ بَاطِلٌ بِدَلَائِلَ كَثِيرَةٍ مِنْ الْكِتَابِ وَالسّنّةِ فَإِنّ اللّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السّارِقِ دُونَ قَتْلِهِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا لَوَجَبَ قَتْلُهُ ؛ لِأَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : { مَنْ بَدّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ } . وَقَالَ { لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : كُفْرٍ بَعْدَ إسْلَامٍ وَزِنًى بَعْدَ إحْصَانٍ أَوْ قَتْلِ نَفْسٍ يُقْتَلُ بِهَا } وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجْلَدَ الزّانِي وَالزّانِيَةُ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَوْ كَانَا كَافِرَيْنِ لَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُجْلَدَ قَاذِفُ الْمُحْصَنَةِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَوْ كَانَ كَافِرًا لَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَكَانَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَجْلِدُ شَارِبَ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقْتُلْهُ بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيّ وَغَيْرِهِ : { أَنّ رَجُلًا كَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللّهِ حِمَارًا وَكَانَ يُضْحِكُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكَانَ كُلّمَا أُتِيَ بِهِ إلَيْهِ جَلَدَهُ فَأُتِيَ بِهِ إلَيْهِ مَرّةً فَلَعَنَهُ رَجُلٌ فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا تَلْعَنْهُ فَإِنّهُ يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ } فَنَهَى عَنْ لَعْنِهِ بِعَيْنِهِ وَشَهِدَ لَهُ بِحُبّ اللّهِ وَرَسُولِهِ مَعَ أَنّهُ قَدْ لَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ عُمُومًا . وَهَذَا مِنْ أَجْوَدِ مَا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى أَنّ الْأَمْرَ بِقَتْلِ الشّارِبِ فِي " الثّالِثَةِ " و " الرّابِعَةِ " مَنْسُوخٌ ؛ لِأَنّ هَذَا أُتِيَ بِهِ ثَلَاثَ مَرّاتٍ وَقَدْ أَعْيَا الْأَئِمّةَ الْكِبَارَ جَوَابُ هَذَا الْحَدِيثِ ؛ وَلَكِنّ نَسْخَ الْوُجُوبِ لَا يَمْنَعُ الْجَوَازَ فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : يَجُوزُ قَتْلُهُ إذَا رَأَى الْإِمَامُ الْمَصْلَحَةَ فِي ذَلِكَ فَإِنّ مَا بَيْنَ الْأَرْبَعِينَ إلَى الثّمَانِينَ لَيْسَ حَدًّا مُقَدّرًا فِي أَصَحّ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الشّافِعِيّ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرّوَايَتَيْنِ ؛ بَلْ الزّيَادَةُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ إلَى الثّمَانِينَ تَرْجِعُ إلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ فَيَفْعَلُهَا عِنْدَ الْمَصْلَحَةِ كَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ التّعْزِيرِ وَكَذَلِكَ صِفَةُ الضّرْبِ فَإِنّهُ يَجُوزُ جَلْدُ الشّارِبِ بِالْجَرِيدِ وَالنّعَالِ وَأَطْرَافِ الثّيَابِ بِخِلَافِ الزّانِي وَالْقَاذِفِ فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : قَتْلُهُ فِي الرّابِعَةِ مِنْ هَذَا الْبَابِ . و " أَيْضًا " فَإِنّ اللّهَ - سُبْحَانَهُ - قَالَ : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إنّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } . فَقَدْ وَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْأُخُوّةِ وَأَمَرَنَا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ . فَلَمّا شَاعَ فِي الْأُمّةِ أَمْرُ " الْخَوَارِجِ "

تكلمَتْ الصّحَابَةُ فِيهِمْ وَرَوَوْا عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْأَحَادِيثَ فِيهِمْ وَبَيّنُوا مَا فِي القرْآنِ مِنْ الرّدّ عَلَيْهِمْ وَظهَرَتْ بِدْعَتُهُمْ فِي العَامّةِ ؛[162]

الفرق بين من قبل عنه كافر وبين المرتد الأصلي

إنّ كثِيرًا مِنْ الفُقهَاءِ يَظنُّ أنّ مَنْ قِيلَ هُوَ كافِرٌ فَإِنّهُ يَجِبُ أنْ تجْرِيَ عَلَيْهِ أحْكامُ المُرْتدّ رِدّةً ظاهِرَةً فَلَا يَرِثُ وَلَا يُورَثُ وَلَا يُنَاكحُ حَتّى أجْرَوْا هَذِهِ الْأَحْكَامَ عَلَى مَنْ كفّرُوهُ بِالتّأْوِيلِ مِنْ أهْلِ البِدَعِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كذَلِكَ ؛ فَإِنّهُ قَدْ ثبَتَ أنّ النّاسَ كانُوا " ثلَاثَةَ أصْنَافٍ " : مُؤْمِنٌ ؛ وَكافِرٌ مُظْهِرٌ لِلْكُفْرِ وَمُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِسْلَامِ مُبْطِنٌ لِلْكُفْرِ . وَكانَ فِي المُنَافِقِينَ مَنْ يَعْلَمُهُ النّاسُ بِعَلَامَاتِ وَدَلَالَاتٍ بَلْ مَنْ لَا يَشُكّونَ فِي نِفَاقِهِ وَمَنْ نَزَلَ القرْآنُ بِبَيَانِ نِفَاقِهِ - كابْنِ أبَي وَأمْثالِهِ - وَمَعَ هَذَا فَلَمّا مَاتَ هَؤُلَاءِ وَرِثَهُمْ وَرَثتُهُمْ المُسْلِمُونَ وَكانَ إذَا مَاتَ لَهُمْ مَيّتٌ آتوْهُمْ مِيرَاثهُ وَكانَتْ تُعْصَمُ دِمَاؤُهُمْ حَتّى تقُومَ السّنّةُ الشّرْعِيّةُ عَلَى أحَدِهِمْ بِمَا يُوجِبُ عُقُوبَتَهُ . وَلَمّا خَرَجَتْ الحرورية عَلَى عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَاعْتَزَلُوا جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ قَالَ لَهُمْ : إنّ لَكُمْ عَلَيْنَا ألّا نَمْنَعَكُمْ المَسَاجِدَ وَلَا نَمْنَعَكُمْ نَصِيبَكُمْ مِنْ الفَيْءِ فَلَمّا اسْتَحَلّوا قَتْلَ المُسْلِمِينَ وَأخْذَ أمْوَالِهِمْ قَاتلَهُمْ بِأمْرِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَيْثُ قَالَ : { يُحَقّرُ أحَدُكُمْ صَلَاتهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ القرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ أيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنّ فِي قَتْلِهِمْ أجْرًا عِنْدَ اللّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ } . فَكانَتْ الحرورية قَدْ ثبَتَ قِتَالُهُمْ بِسُنّةِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَاتّفَاقِ أصْحَابِهِ وَلَمْ يَكُنْ قِتَالُهُمْ قِتَالَ فِتْنَةٍ كالقِتَالِ الذِي جَرَى بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ فِي المُسْلِمِينَ ؛ بَلْ قَدْ ثبَتَ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الحَدِيثِ الصّحِيحِ الذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ أنّهُ { قَالَ لِلْحَسَنِ ابْنِهِ : إنّ ابْنِي هَذَا سَيّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ } وَقَالَ فِي الحَدِيثِ الصّحِيحِ : { تمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ المُسْلِمِينَ فَتَقْتُلُهُمْ أدْنَى الطّائِفَتَيْنِ إلَى الحَقّ } فَدَلّ بِهَذَا عَلَى أنّ مَا فَعَلَهُ الحَسَنُ مِنْ ترْكِ القِتَالِ إمّا وَاجِبًا أوْ مُسْتَحَبّا لَمْ يَمْدَحْهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى ترْكِ وَاجِبٍ أوْ مُسْتَحَبّ وَدَلّ الحَدِيثُ الْآخَرُ عَلَى أنّ الذِينَ قَاتلُوا الخَوَارِجَ وَهُمْ عَلِيٌّ وَأصْحَابُهُ كانَ أقْرَبَ إلَى الحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابِهِ ؛ وَأنّ قِتَالَ الخَوَارِجِ أمَرَ بِهِ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَيْسَ قِتَالُهُمْ كالقِتَالِ فِي الجَمَلِ وصفين الذِي لَيْسَ فِيهِ أمْرٌ مِنْ النّبِيّ . وَ (المَقْصُودُ أنّ عَلِيّ بْنَ أبِي طَالِبٍ وَغَيْرَهُ مِنْ أصْحَابِهِ لَمْ يَحْكُمُوا بِكُفْرِهِمْ وَلَا قَاتلُوهُمْ حَتّى بَدَءُوهُمْ بِالقِتَالِ .[163]

الرد على الرافضة في زعمهم أن الإمام الحق هو علي رضي الله عنه دون سواه

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تقِيُّ الدّينِ عَمّنْ يَزْعُمُونَ أنّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ عَزّ وَجَلّ

---

[162] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 2 / ص 149)
[163] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 2 / ص 169)

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِمَامَ الْحَقَّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَّ عَلَى إمَامَتِهِ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ ظَلَمُوهُ وَمَنَعُوهُ حَقَّهُ وَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ . فَهَلْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ ؟ وَيَكْفُرُونَ بِهَذَا الِاعْتِقَادِ أَمْ لَا ؟ .

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . فَلَوْ قَالُوا : نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي أَوْ نُصَلِّي الْخَمْسَ وَلَا نُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَلَا الْجَمَاعَةَ أَوْ نَقُومُ بِمَبَانِي الْإِسْلَامِ الْخَمْسِ وَلَا نُحَرِّمُ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ أَوْ لَا نَتْرُكُ الرِّبَا وَلَا الْخَمْرَ وَلَا الْمَيْسِرَ أَوْ نَتَّبِعُ الْقُرْآنَ وَلَا نَتَّبِعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَعْمَلُ بِالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ أَوْ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى خَيْرٌ مِنْ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ أَهْلَ الْقِبْلَةِ قَدْ كَفَرُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ إلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ أَوْ قَالُوا : إنَّا لَا نُجَاهِدُ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّتِهِ وَمَا عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ . فَإِنَّهُ يَجِبُ جِهَادُ هَذِهِ الطَّوَائِفِ جَمِيعِهَا كَمَا جَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَجَاهَدُوا الْخَوَارِجَ وَأَصْنَافَهُمْ وَجَاهَدُوا الخرمية وَالْقَرَامِطَةَ وَالْبَاطِنِيَّةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَصْنَافِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ . وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } . فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . وَقَالَ تَعَالَى : { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } فَلَمْ يَأْمُرْ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِمْ إلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَبَعْدَ إقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ . وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا لَمْ تَنْتَهِ عَنْ الرِّبَا فَقَدْ حَارَبَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَمَا حَرَّمَهُ قَبْلَهُ أَوْكَدُ . وَقَالَ تَعَالَى : { إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ } . فَكُلُّ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَنْ الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ عَمِلَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فَقَدْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ؛ وَلِهَذَا تَأَوَّلَ السَّلَفُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْكُفَّارِ وَعَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ ؛ حَتَّى أَدْخَلَ عَامَّةُ الْأَئِمَّةِ فِيهَا قُطَّاعَ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يُشْهِرُونَ السِّلَاحَ لِمُجَرَّدِ أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَجَعَلُوهُمْ بِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْقِتَالِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . وَإِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ مَا فَعَلُوهُ وَيُقِرُّونَ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ . فَالَّذِي يَعْتَقِدُ حِلَّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَيَسْتَحِلُّ قِتَالَهُمْ . أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَاعِيًا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مِنْ هَؤُلَاءِ . كَمَا أَنَّ الْكَافِرَ الْحَرْبِيَّ الَّذِي يَسْتَحِلُّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ

وَأَمْوَالَهُمْ وَيَرَى جَوَازَ قِتَالِهِمْ : أَوْلَى بِالْمُحَارَبَةِ مِنْ الْفَاسِقِ الَّذِي يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ الَّذِي خَرَجَ عَنْ بَعْضِ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّتِهِ وَاسْتَحَلَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرِيعَتِهِ وَأَمْوَالِهِمْ : هُوَ أَوْلَى بِالْمُحَارَبَةِ مِنْ الْفَاسِقِ وَإِنْ اتَّخَذَ ذَلِكَ دِينًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ . كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَتَّخِذُ مُحَارَبَةَ الْمُسْلِمِينَ دِينًا تَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ . وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْبِدَعَ الْمُغَلَّظَةَ شَرٌّ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي يَعْتَقِدُ أَصْحَابُهَا أَنَّهَا ذُنُوبٌ . وَبِذَلِكَ مَضَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ عَنْ السُّنَّةِ وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْأَئِمَّةِ وَظُلْمِهِمْ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ مَعَ ذُنُوبِهِمْ وَشَهِدَ لِبَعْضِ الْمُصِرِّينَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى بَعْضِ الذُّنُوبِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَنَهَى عَنْ لَعْنَتِهِ وَأَخْبَرَ عَنْ ذِي الخويصرة وَأَصْحَابِهِ - مَعَ عِبَادَتِهِمْ وَوَرَعِهِمْ - أَنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } . فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرِيعَتِهِ فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَرْضَى بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَا يَشْجُرُ بَيْنَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَحَتَّى لَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ حَرَجٌ مِنْ حُكْمِهِ . وَدَلَائِلُ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ كَثِيرَةٌ . وَبِذَلِكَ جَاءَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ مِنْ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ : كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { : أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ } ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَلَمْ يَقُلْ إلَّا بِحَقِّهَا ؟ فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا . وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا . فَقَالَ عُمَرُ : فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت أَنَّ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ " . فَاتَّفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قِتَالِ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ إذَا امْتَنَعُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ . وَهَذَا الِاسْتِنْبَاطُ مِنْ صِدِّيقِ الْأُمَّةِ قَدْ جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا } فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ حَتَّى يُؤَدُّوا هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ . وَهَذَا مُطَابِقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ . وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْرَجَ مِنْهَا أَصْحَابُ الصَّحِيحِ عَشَرَةَ أَوْجُهٍ ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا الْبُخَارِيُّ غَيْرَ وَجْهٍ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد - رَحِمَهُ اللَّهُ - : صَحَّ

الحَدِيثُ فِي الخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ . يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَوْ يَعْلَمُ الذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ مَاذَا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ لَنَكَلُوا عَنْ العَمَلِ } . وَفِي رِوَايَةٍ { لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ } وَفِي رِوَايَةٍ : { شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ . خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ } . وَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَهُمْ بحروراء لَمَّا خَرَجُوا عَنْ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خباب وَأَغَارُوا عَلَى مَاشِيَةِ المُسْلِمِينَ . فَقَامَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَخَطَبَ النَّاسَ وَذَكَرَ الحَدِيثَ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا وَأَخَذُوا الأَمْوَالَ فَاسْتَحَلَّ قِتَالَهُمْ وَفَرِحَ بِقَتْلِهِمْ فَرَحًا عَظِيمًا وَلَمْ يَفْعَلْ فِي خِلَافَتِهِ أَمْرًا عَامًّا كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ قِتَالِ الخَوَارِجِ . وَهُمْ كَانُوا يُكَفِّرُونَ جُمْهُورَ المُسْلِمِينَ حَتَّى كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا . وَكَانُوا يَعْمَلُونَ بِالقُرْآنِ فِي زَعْمِهِمْ وَلَا يَتَّبِعُونَ سُنَّةَ رَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُخَالِفُ القُرْآنَ . كَمَا يَفْعَلُهُ سَائِرُ أَهْلِ البِدَعِ - مَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ وَوَرَعِهِمْ . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ نَحْوِ ثَمَانِينَ وَجْهًا أَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا : أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ . وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ حَرَّقَ غَالِيَةَ الرَّافِضَةِ الذِينَ اعْتَقَدُوا فِيهِ الإِلَهِيَّةَ . وَرُوِيَ عَنْهُ بِأَسَانِيدَ جَيِّدَةٍ أَنَّهُ قَالَ : لَا أُوتَى بِأَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلَّا جَلَدْته حَدَّ المُفْتَرِي . وَعَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَبَأٍ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لِيَقْتُلَهُ فَهَرَبَ مِنْهُ . وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجُلٍ فَضَّلَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُجْلَدَ لِذَلِكَ . وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِصَبِيغِ بْنِ عِسْلٍ ؛ لَمَّا ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ الخَوَارِجِ : لَوْ وَجَدْتُك مَحْلُوقًا لَضَرَبْت الذِي فِيهِ عَيْنَاك . فَهَذِهِ سُنَّةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَغَيْرُهُ قَدْ أَمَرَ بِعُقُوبَةِ الشِّيعَةِ : الأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ وَأَخَفُّهُمْ المُفَضِّلَةُ . فَأَمَرَ هُوَ وَعُمَرُ بِجَلْدِهِمْ . وَالغَالِيَةُ يُقْتَلُونَ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ وَهُمْ الذِينَ يَعْتَقِدُونَ الإِلَهِيَّةَ وَالنُّبُوَّةَ فِي عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِثْلَ النصيرية والإسماعيلِيَّةِ الذِينَ يُقَالُ لَهُمْ : بَيْتُ صَادٍ وَبَيْتُ سِينٍ وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ مِنْ المُعَطِّلَةِ الذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الصَّانِعِ أَوْ يُنْكِرُونَ القِيَامَةَ أَوْ يُنْكِرُونَ ظَوَاهِرَ الشَّرِيعَةِ : مِثْلَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ البَيْتِ الحَرَامِ وَيَتَأَوَّلُونَ ذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِمْ وَكِتْمَانِ أَسْرَارِهِمْ وَزِيَارَةِ شُيُوخِهِمْ . وَيَرَوْنَ أَنَّ الخَمْرَ حَلَالٌ لَهُمْ وَنِكَاحُ ذَوَاتِ المَحَارِمِ حَلَالٌ لَهُمْ . فَإِنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ أَكْفَرُ مِنْ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى . فَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ عَنْ أَحَدِهِمْ ذَلِكَ كَانَ مِنْ المُنَافِقِينَ الذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَمَنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ كَانَ أَشَدَّ مِنْ الكَافِرِينَ كُفْرًا . فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَرَّ بَيْنَ المُسْلِمِينَ لَا بِجِزْيَةٍ وَلَا ذِمَّةٍ وَلَا يَحِلُّ نِكَاحُ نِسَائِهِمْ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ مِنْ شَرِّ المُرْتَدِّينَ . فَإِنْ كَانُوا طَائِفَةً مُمْتَنِعَةً وَجَبَ قِتَالُهُمْ كَمَا يُقَاتَلُ المُرْتَدُّونَ كَمَا قَاتَلَ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ وَإِذَا كَانُوا فِي قُرَى المُسْلِمِينَ فُرِّقُوا وَأُسْكِنُوا بَيْنَ المُسْلِمِينَ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَأُلْزِمُوا بِشَرَائِعِ الإِسْلَامِ

الَّتِي تجبُ عَلَى المُسْلِمِينَ . وَلَيْسَ هَذَا مُخْتَصًّا بِغَالِيَةِ الرَّافِضَةِ بَلْ مَنْ غَلَا فِي أَحَدٍ مِنْ المَشَايِخِ وَقَالَ : إنَّهُ يَرْزُقُهُ أَوْ يُسْقِطُ عَنْهُ الصَّلَاةَ أَوْ أَنَّ شَيْخَهُ أَفْضَلُ مِنْ النَّبِيِّ أَوْ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ لَهُ إلَى اللَّهِ طَرِيقًا غَيْرَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ المَشَايِخِ يَكُونُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانَ الخَضِرُ مَعَ مُوسَى . وَكُلُّ هَؤُلَاءِ كُفَّارٌ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ وَقَتْلُ الوَاحِدِ المَقْدُورِ عَلَيْهِ مِنْهُمْ . وَأَمَّا الوَاحِدُ المَقْدُورُ عَلَيْهِ مِنْ الخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمَا - أَعْنِي عُمَرَ وَعَلِيًّا - قَتْلُهُمَا أَيْضًا . وَالفُقَهَاءُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي قَتْلِ الوَاحِدِ المَقْدُورِ عَلَيْهِ مِنْ هَؤُلَاءِ فَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي وُجُوبِ قَتْلِهِمْ إذَا كَانُوا مُمْتَنِعِينَ . فَإِنَّ القِتَالَ أَوْسَعُ مِنْ القَتْلِ كَمَا يُقَاتَلُ الصَّائِلُونَ العُدَاةُ وَالمُعْتَدُونَ البُغَاةُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إذَا قُدِرَ عَلَيْهِ لَمْ يُعَاقَبْ إلَّا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ . وَهَذِهِ النُّصُوصُ المُتَوَاتِرَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخَوَارِجِ قَدْ أَدْخَلَ فِيهَا العُلَمَاءُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى مَنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ الخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ ؛ بَلْ بَعْضُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الخَوَارِجِ الحرورية ؛ مِثْلُ الخرمية وَالقَرَامِطَةِ والنصيرية وَكُلِّ مِنْ اعْتَقَدَ فِي بَشَرٍ أَنَّهُ إلَهٌ أَوْ فِي غَيْرِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَقَاتَلَ عَلَى ذَلِكَ المُسْلِمِينَ : فَهُوَ شَرٌّ مِنْ الخَوَارِجِ الحرورية . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا ذَكَرَ الخَوَارِجَ الحرورية لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ خَرَجُوا بَعْدَهُ ؛ بَلْ أَوَّلُهُمْ خَرَجَ فِي حَيَاتِهِ . فَذَكَرَهُمْ لِقُرْبِهِمْ مِنْ زَمَانِهِ كَمَا خَصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَشْيَاءَ بِالذِّكْرِ لِوُقُوعِهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِثْلَ قَوْلِهِ : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلَاقٍ } . وَقَوْلُهُ : { مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَمِثْلَ تَعْيِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبَائِلَ مِنْ الأَنْصَارِ وَتَخْصِيصَهُ أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَجُهَيْنَةَ وَتَمِيمًا وَأَسَدًا وغطفان وَغَيْرَهُمْ بِأَحْكَامٍ ؛ لِمَعَانٍ قَامَتْ بِهِمْ وَكُلُّ مَنْ وُجِدَتْ فِيهِ تِلْكَ المَعَانِي أُلْحِقَ بِهِمْ ؛ لِأَنَّ التَّخْصِيصَ بِالذِّكْرِ لَمْ يَكُنْ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالحُكْمِ ؛ بَلْ لِحَاجَةِ المُخَاطَبِينَ إذْ ذَاكَ إلَى تَعْيِينِهِمْ ؛ هَذَا إذَا لَمْ تَكُنْ أَلْفَاظُهُ شَامِلَةً لَهُمْ . وَهَؤُلَاءِ الرَّافِضَةُ إنْ لَمْ يَكُونُوا شَرًّا مِنْ الخَوَارِجِ المنصوصين فَلَيْسُوا دُونَهُمْ ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ إنَّمَا كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَأَتْبَاعَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَقَطْ ؛ دُونَ مَنْ قَعَدَ عَنْ القِتَالِ أَوْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ . وَالرَّافِضَةُ كَفَّرَتْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَامَّةَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَكَفَّرُوا جَمَاهِيرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ المُتَقَدِّمِينَ والمتأخرين . فَيُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ اعْتَقَدَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ العَدَالَةَ أَوْ تَرَضَّى عَنْهُمْ كَمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَلِهَذَا يُكَفِّرُونَ أَعْلَامَ المِلَّةِ : مِثْلَ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني وَأُوَيْسٍ القَرْنِيِّ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَإِبْرَاهِيمَ النخعي وَمِثْلِ مَالِكٍ والأوزاعي وَأَبِي حَنِيفَةَ وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وفضيل بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الكرخي والجنيد بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

التستري وَغَيْرِ هَؤُلَاء . وَيَسْتَحِلُونَ دِمَاءَ مَنْ خَرَجَ عَنْهُمْ وَيُسَمُّونَ مَذْهَبَهُمْ مَذْهَبَ الْجُمْهُورِ كمَا يُسَمِّيهِ الْمُتَفَلسِفَةُ وَنَحْوُهُمْ بِذَلِكَ وَكمَا تُسَمِّيهِ الْمُعْتَزِلَةُ مَذْهَبَ الْحَشْوِ وَالْعَامَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ . وَيَرَوْنَ فِي أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْمَغْرِبِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ وَالْجَزِيرَةِ وَسَائِرِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ نِكَاحُ هَؤُلَاء وَلَا ذَبَائِحُهُمْ وَأَنَّ الْمَائِعَاتِ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنْ الْمِيَاهِ وَالْأَدْهَانِ وَغَيْرِهَا نَجِسَةٌ وَيَرَوْنَ أَنَّ كُفْرَهُمْ أَغْلَظُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . لِأَنَّ أُولَئِكَ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ أَصْلِيُّونَ وَهَؤُلَاء . مُرْتَدُّونَ وَكُفْرُ الرِّدَّةِ أَغْلَظُ بِالْإِجْمَاعِ مِنْ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ . وَلِهَذَا السَّبَبِ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْجُمْهُورِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيُعَاوِنُونَ التَّتَارَ عَلَى الْجُمْهُورِ . وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي خُرُوجِ جنكيزخان مَلِكِ الْكُفَّارِ إلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَفِي قُدُومِ هُولَاكُو إلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ ؛ وَفِي أَخْذِ حَلَبَ وَنَهْبِ الصالحية وَغَيْرِ ذَلِكَ بِخُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ ؛ لِمَا دَخَلَ فِيهِ مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرُ مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ . وَبِهَذَا السَّبَبِ نَهَبُوا عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِمْ وَقْتُ انْصِرَافِهِ إلَى مِصْرَ فِي النَّوْبَةِ الْأُولَى . وَبِهَذَا السَّبَبِ يَقْطَعُونَ الطُّرُقَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَبِهَذَا السَّبَبِ ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ التَّتَارِ وَالْإِفْرِنْجِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْكَآبَةِ الشَّدِيدَةِ بِانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ مَا ظَهَرَ وَكَذَلِكَ لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ السَّاحِلَ - عَكَّةَ وَغَيْرَهَا - ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ الِانْتِصَارِ لِلنَّصَارَى وَتَقْدِيمِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَدْ سَمِعَهُ النَّاسُ مِنْهُمْ . وَكُلُّ هَذَا الَّذِي وَصَفْت بَعْضَ أُمُورِهِمْ وَإِلَّا فَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ . وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَحْوَالِ ؛ أَنَّ أَعْظَمَ السُّيُوفِ الَّتِي سُلَّتْ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهَا وَأَعْظَمَ الْفَسَادِ الَّذِي جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ : إنَّمَا هُوَ مِنْ الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَيْهِمْ . فَهُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ وَأَبْعَدُ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلِهَذَا كَانُوا أَكْذَبَ فِرَقِ الْأُمَّةِ . فَلَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَى الْقِبْلَةِ أَكْثَرُ كَذِبًا وَلَا أَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِلْكَذِبِ وَتَكْذِيبًا لِلصِّدْقِ مِنْهُمْ وَسِيمَا النِّفَاقُ فِيهِمْ أَظْهَرُ مِنْهُ فِي سَائِرِ النَّاسِ ؛ وَهِيَ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ } وَفِي رِوَايَةٍ : { أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ } . وَكُلُّ مَنْ جَرَّبَهُمْ يَعْرِفُ اشْتِمَالَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ ؛ وَلِهَذَا يَسْتَعْمِلُونَ التَّقِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِيمَا الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَيَسْتَعْمِلونها مَعَ الْمُسْلِمِينَ { يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } وَيَحْلِفُونَ مَا قَالُوا وَقَدْ قَالُوا وَيَحْلِفُونَ بِاَللَّهِ لِيُرْضُوا الْمُؤْمِنِينَ وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ . وَقَدْ أَشْبَهُوا الْيَهُودَ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا سِيَّمَا السَّامِرَةُ مِنْ الْيَهُودِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَشْبَهُ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ : يُشَبِّهُونَهُمْ فِي دَعْوَى الْإِمَامَةِ فِي شَخْصٍ أَوْ بَطْنٍ بِعَيْنِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِكُلِّ مَنْ جَاءَ بِحَقِّ غَيْرِهِ يَدْعُونَهُ وَفِي اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ أَوْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْخِيرِ الْفِطْرِ وَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَحْرِيمِ ذَبَائِحِ غَيْرِهِمْ . وَيُشَبِّهُونَ النَّصَارَى فِي الْغُلُوِّ فِي الْبَشَرِ وَالْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ وَفِي الشِّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهُمْ يُوَالُونَ

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَذِهِ شِيَمُ الْمُنَافِقِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } . وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ وَلَا نَقْلٌ وَلَا دِينٌ صَحِيحٌ وَلَا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً - وَالْخَوَارِجُ كَانُوا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَجَمَاعَةً - وَهُمْ لَا يَرَوْنَ جِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ وَلَا طَاعَتَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا تَنْفِيذَ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِمْ ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ [أَنَّ ذَلِكَ] لَا يَسُوغُ إلَّا خَلْفَ إمَامٍ مَعْصُومٍ . وَيَرَوْنَ أَنَّ الْمَعْصُومَ قَدْ دَخَلَ فِي السِّرْدَابِ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً . وَهُوَ إلَى الْآنِ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا رَآهُ أَحَدٌ وَلَا عَلَّمَ أَحَدًا دِينًا وَلَا حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ بَلْ مَضَرَّةٌ . وَمَعَ هَذَا فَالْإِيمَانُ عِنْدَهُمْ لَا يَصِحُّ إلَّا بِهِ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلَّا أَتْبَاعُهُ : مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ الضُّلَّالِ مِنْ سُكَّانِ الْجِبَالِ وَالْبَوَادِي أَوْ مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ بِالْبَاطِلِ : مِثْلُ ابْنِ الْعُودِ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ قَدْ كَتَبَ خَطَّهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . مِنْ الْمَخَازِي عَنْهُمْ وَصَرَّحَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُمْ وَبِأَكْثَرَ مِنْهُ . وَهُمْ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ يُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكُلَّ مَنْ آمَنَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ : فَآمَنَ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَمَشِيئَتِهِ الشَّامِلَةِ وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ . وَأَكْثَرُ مُحَقِّقِيهِمْ عِنْدَهُمْ - يَرَوْنَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَكْثَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلِ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ؛ مَا آمَنُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ الْكُفْرُ عِنْدَهُمْ يَكُونُ بَاطِلًا مِنْ أَصْلِهِ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ فَرْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَامَعَ بِهِ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَمَسَّهُ النَّارُ لِيُطَهَّرَ بِذَلِكَ مِنْ وَطْءِ الْكَوَافِرِ عَلَى زَعْمِهِمْ ؛ لِأَنَّ وَطْءَ الْكَوَافِرِ حَرَامٌ عِنْدِهِمْ . وَمَعَ هَذَا يَرُدُّونَ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّابِتَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ عَنْهُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِثْلَ أَحَادِيثِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَيَرَوْنَ أَنَّ شِعْرَ شُعَرَاءِ الرَّافِضَةِ : مِثْلُ الْحِمْيَرِيِّ وكوشيار الدَّيْلَمِيِّ وَعِمَارَةَ الْيَمَنِيِّ خَيْرًا مِنْ أَحَادِيثِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحَابَتِهِ وَقَرَابَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْنَا مِنْ الْكَذِبِ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . وَهُمْ مَعَ هَذَا يُعَطِّلُونَ الْمَسَاجِدَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ فَلَا يُقِيمُونَ فِيهَا جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً وَيَبْنُونَ عَلَى الْقُبُورِ الْمَكْذُوبَةِ وَغَيْرِ الْمَكْذُوبَةِ مَسَاجِدَ يَتَّخِذُونَهَا مَشَاهِدَ . وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ اتَّخَذَ الْمَسَاجِدَ عَلَى الْقُبُورِ وَنَهَى أُمَّتَهُ عَنْ ذَلِكَ . وَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ : { إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ . أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ } . وَيَرَوْنَ أَنَّ حَجَّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْمَكْذُوبَةِ وَغَيْرِ الْمَكْذُوبَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ حَتَّى أَنَّ مِنْ مَشَايِخِهِمْ مَنْ يُفَضِّلُهَا عَلَى حَجِّ الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ .

وَوَصْفُ حَالِهِمْ يَطُولُ . فَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُمْ شَرٌّ مِنْ عَامَّةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَأَحَقُّ بِالْقِتَالِ مِنْ الْخَوَارِجِ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِيمَا شَاعَ فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ : أَنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ هُمْ الرَّافِضَةُ : فَالْعَامَّةُ شَاعَ عِنْدَهَا أَنَّ ضِدَّ السُّنِّيِّ هُوَ الرافضي فَقَطْ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُ مُعَانَدَةً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَائِعِ دِينِهِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ . وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ كَانُوا يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ بِمُقْتَضَى فَهْمِهِمْ وَهَؤُلَاءِ إنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْإِمَامَ الْمَعْصُومَ عِنْدَهُمْ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ . فَمُسْتَنَدُ الْخَوَارِجِ خَيْرٌ مِنْ مُسْتَنَدِهِمْ . وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ زِنْدِيقٌ وَلَا غَالٍ وَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الزَّنَادِقَةِ وَالْغَالِيَةِ مَنْ لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ . وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَبْدَأَ الرَّفْضِ إنَّمَا كَانَ مِنْ الزِّنْدِيقِ : عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ ؛ فَإِنَّهُ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ الْيَهُودِيَّةَ وَطَلَبَ أَنْ يُفْسِدَ الْإِسْلَامَ كَمَا فَعَلَ بولص النَّصْرَانِيُّ الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا فِي إفْسَادِ دِينِ النَّصَارَى . وَأَيْضًا فَغَالِبُ أَئِمَّتِهِمْ زَنَادِقَةٌ ؛ إنَّمَا يُظْهِرُونَ الرَّفْضَ . لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَتْهُ أَئِمَّةُ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ أذْرَبِيجَانَ فِي زَمَنِ الْمُعْتَصِمِ مَعَ بَابَك الخرمي وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ " الخرمية " وَ " الْمُحَمِّرَةَ " " وَالْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ " الَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ الْعِرَاقِ وَغَيْرِهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَأَخَذُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَبَقِيَ مَعَهُمْ مُدَّةً . كَأَبِي سَعِيدٍ الجنابي وَأَتْبَاعِهِ . وَاَلَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ ثُمَّ جَاوَزُوا إلَى مِصْرَ وَبَنَوْا الْقَاهِرَةَ وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ فَاطِمِيُّونَ مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ أَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ نَسَبَهُمْ مُتَّصِلٌ بِالْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِدِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ أَبْعَدُ عَنْ دِينِهِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . بَلْ الْغَالِيَةُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ إلَهِيَّةَ عَلِيٍّ وَالْأَئِمَّةِ . وَمِنْ أَتْبَاعِ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ أَهْلِ دُورِ الدَّعْوَةِ : الَّذِينَ كَانُوا بِخُرَاسَانَ وَالشَّامِ وَالْيَمَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ مَنْ أَعَانَ التَّتَارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ : بِالْمُؤَازَرَةِ وَالْوِلَايَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ لِمُبَايَنَةِ قَوْلِهِمْ لِقَوْلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَلِكُ الْكُفَّارِ هُولَاكُو " يُقَرِّرُ أَصْنَامَهُمْ . وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ كَانُوا مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَأَوْفَاهُمْ بِالْعَهْدِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ وأنقضهم لِلْعَهْدِ . وَأَمَّا ذِكْرُ الْمُسْتَفْتِي أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذَا عَيْنُ الْكَذِبِ ؛ بَلْ كَفَرُوا مِمَّا جَاءَ بِهِ بِمَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ : فَتَارَةً يُكَذِّبُونَ بِالنُّصُوصِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ . وَتَارَةً يُكَذِّبُونَ بِمَعَانِي التَّنْزِيلِ . وَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنْ مَخَازِيهِمْ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الثَّنَاءِ عَلَى الصَّحَابَةِ وَالرِّضْوَانِ عَلَيْهِمْ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِحَقِيقَتِهِ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْجُمُعَةِ وَالْأَمْرِ بِالْجِهَادِ وَبِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُوَادَّتِهِمْ وَمُؤَاخَاتِهِمْ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ مَا هُمْ عَنْهُ خَارِجُونَ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَمُوَادَّتِهِمْ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ تَحْرِيمِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَتَحْرِيمِ الْغِيبَةِ وَالْهَمْزِ وَاللَّمْزِ : مَا هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ اسْتِحْلَالًا لَهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْجَمَاعَةِ والائتلاف وَالنَّهْيِ عَنْ

الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ مَا هُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّتِهِ وَاتِّبَاعِ حُكْمِهِ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ حُقُوقِ أَزْوَاجِهِ مَا هُمْ بَرَاءٌ مِنْهُ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِ الْمُلْكِ لَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ . فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ تَعْظِيمًا لِلْمَقَابِرِ الَّتِي اُتُّخِذَتْ أَوْثَانًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ وَصْفُهُ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّهْيِ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ . وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ : مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ . وَلَا تَحْتَمِلُ الْفَتْوَى إلَّا الْإِشَارَةَ الْمُخْتَصَرَةَ . وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ إيمَانَ الْخَوَارِجِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ مِنْ إيمَانِهِمْ . فَإِذَا كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ قَتَلَهُمْ وَنَهَبَ عَسْكَرَهُ مَا فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ وَالْأَمْوَالِ فَهَؤُلَاءِ أَوْلَى أَنْ يُقَاتَلُوا وَتُؤْخَذَ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخَذَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمْوَالَ الْخَوَارِجِ . وَمَنْ اعْتَقَدَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّ قِتَالَ هَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الْبُغَاةِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ بِتَأْوِيلِ سَائِغٍ كَقِتَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِأَهْلِ الْجَمَلِ وصفين : فَهُوَ غالط جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَتَخْصِيصِهِ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْهَا . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَوْ سَاسُوا الْبِلَادَ الَّتِي يَغْلِبُونَ عَلَيْهَا بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ كَانُوا مُلُوكًا كَسَائِرِ الْمُلُوكِ ؛ وَإِنَّمَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْ نَفْسِ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّتِهِ شَرًّا مِنْ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلَيْسَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ ؛ فَإِنَّ التَّأْوِيلَ السَّائِغَ هُوَ الْجَائِزُ الَّذِي يُقَرُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ جَوَابٌ كَتَأْوِيلِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ . وَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَلَكِنَّ لَهُمْ تَأْوِيلٌ مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَتَأْوِيلُهُمْ شَرُّ تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ . وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَقِّهَةَ لَمْ يَجِدُوا تَحْقِيقَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي مُخْتَصَرَاتِهِمْ . وَكَثِيرٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْمُصَنِّفِينَ فِي الشَّرِيعَةِ لَمْ يَذْكُرُوا فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ قِتَالَ الْخَارِجِينَ عَنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ كَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَنَحْوِهِمْ إلَّا مِنْ جِنْسِ قِتَالِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ كَأَهْلِ الْجَمَلِ وصفين . وَهَذَا غَلَطٌ ؛ بَلْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ فَرَّقَ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ . وَأَيْضًا فَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ وَغَيْرَهُمْ ؛ مِثْلَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهِ : { مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ : مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عمية ؛ يَغْضَبُ لِلْعَصَبِيَّةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبِيَّةِ : فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي } فَقَدْ ذَكَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبُغَاةَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ وَعَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَذَكَرَ

أنّ أحَدَهُمْ إذَا مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيّةً ؛ فَإِنّ أَهْلَ الجَاهِلِيّةِ لَمْ يَكُونُوا يَجْعَلُونَ عَلَيْهِمْ أئِمّةً ؛ بَلْ كُلُّ طَائِفَةٍ تُغَالِبُ الْأُخْرَى . ثُمّ ذَكَرَ قِتَالَ أَهْلِ العَصَبِيّةِ كَالّذِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْأَنْسَابِ مِثْلَ قَيْسٍ وَيُمَنّ وَذَكَرَ أَنّ مَنْ قُتِلَ تَحْتَ هَذِهِ الرّايَاتِ فَلَيْسَ مِنْ أُمّتِهِ ثُمّ ذَكَرَ قِتَالَ العُدَاةِ الصّائِلِينَ وَالخَوَارِجَ وَنَحْوَهُمْ وَذَكَرَ أَنّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ . وَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا هَذِهِ الثّلَاثَةَ الْأَوْصَافَ وَزَادُوا عَلَيْهَا . فَإِنّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الطّاعَةِ وَالجَمَاعَةِ : يَقْتُلُونَ المُؤْمِنَ وَالمُعَاهِدَ لَا يَرَوْنَ لِأَحَدِ مِنْ وُلَاةِ المُسْلِمِينَ طَاعَةً سَوَاءٌ كَانَ عَدْلًا أَوْ فَاسِقًا ؛ إلّا لِمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ . وَهُمْ يُقَاتِلُونَ لِعَصَبِيّةٍ شَرّ مِنْ عَصَبِيّةِ ذَوِي الْأَنْسَابِ : وَهِيَ العَصَبِيّةُ لِلدّينِ الفَاسِدِ ؛ فَإِنّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الغِلّ وَالغَيْظِ عَلَى كِبَارِ المُسْلِمِينَ وَصِغَارِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ وَغَيْرِ صَالِحِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِ أَحَدٍ . وَأَعْظَمُ عِبَادَتِهِمْ عِنْدَهُمْ لَعْنُ المُسْلِمِينَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللّهِ : مُسْتَقْدَمِهُمْ وَمُسْتَأْخِرُهُمْ . وَأَمْثَلُهُمْ عِنْدَهُمْ الّذِي لَا يَلْعَنُ وَلَا يَسْتَغْفِرُ . وَأَمّا خُرُوجُهُمْ يَقْتُلُونَ المُؤْمِنَ وَالمُعَاهِدَ : فَهَذَا أَيْضًا حَالُهُمْ ؛ مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنّهُمْ هُمْ المُؤْمِنُونَ وَسَائِرُ الْأُمّةِ كُفّارٌ . وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمّدِ بْنِ شريح قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ { إنّهُ سَتَكُونُ هناة وهناة فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَفِي لَفْظٍ : فَاقْتُلُوهُ } وَفِي لَفْظٍ : { مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقّ عَصَاكُمْ وَيُفَرّقُ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ } . وَهَؤُلَاءِ أَشَدّ النّاسِ حِرْصًا عَلَى تَفْرِيقِ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ ؛ فَإِنّهُمْ لَا يُقِرّونَ لِوَلِيّ أَمْرٍ بِطَاعَةٍ سَوَاءٌ كَانَ عَدْلًا أَوْ فَاسِقًا ؛ وَلَا يُطِيعُونَهُ لَا فِي طَاعَةٍ وَلَا فِي غَيْرِهَا ؛ بَلْ أَعْظَمُ أُصُولِهِمْ عِنْدَهُمْ التّكْفِيرُ وَاللّعْنُ وَالسّبّ لِخِيَارِ وُلَاةِ الْأُمُورِ ؛ كَالخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ وَالعُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ وَمَشَايِخِهِمْ ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنّ كُلّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْإِمَامِ المَعْصُومِ الّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فَمَا آمَنَ بِاَللّهِ وَرَسُولِهِ . وَإِنّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ شَرّا مِنْ الخَوَارِجِ الحرورية وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لِاشْتِمَالِ مَذَاهِبِهِمْ عَلَى شَرّ مِمّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُ الخَوَارِجِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنّ الخَوَارِجَ الحرورية كَانُوا أَوّلَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ خُرُوجًا عَنْ السّنّةِ وَالجَمَاعَةِ ؛ مَعَ وُجُودِ بَقِيّةِ الخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ وَبَقَايَا المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَظُهُورِ العِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالعَدْلِ فِي الْأُمّةِ وَإِشْرَاقِ نُورِ النّبُوّةِ وَسُلْطَانِ الحُجّةِ وَسُلْطَانِ القُدْرَةِ ؛ حَيْثُ أَظْهَرَ اللّهُ دِينَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ بِالحُجّةِ وَالقُدْرَةِ . وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مَا فَعَلَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ وَعَلِيّ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ الْأَنْوَاعِ الّتِي فِيهَا تَأْوِيلٌ فَلَمْ يَحْتَمِلُوا ذَلِكَ وَجَعَلُوا مَوَارِدَ الِاجْتِهَادِ . بَلْ الحَسَنَاتِ ذُنُوبًا وَجَعَلُوا الذّنُوبَ كُفْرًا وَلِهَذَا لَمْ يَخْرُجُوا فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لِانْتِفَاءِ تِلْكَ التّأْوِيلَاتِ وَضَعْفِهِمْ .[164]

بين قتال التتار وقتال الخوارج

مَا تَقُولُ السّادَةُ الفُقَهَاءُ أَئِمّةُ الدّينِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَأَعَانَهُمْ عَلَى بَيَانِ الحَقّ المُبِينِ وَكَشْفِ غَمَرَاتِ الجَاهِلِينَ وَالزّائِغِينَ فِي هَؤُلَاءِ التّتَارِ الّذِينَ

---

[164] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 6 / ص 421)

يَقدَمُونَ إلى الشَامِ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ وَتكلمُوا بِالشَهَادتَيْنِ وَانتَسَبُوا إلى الإِسْلَامِ وَلَمْ يَبْقوْا عَلى الكُفرِ الذي كانُوا عَليْهِ فِي أوّلِ الأمْرِ فَهَلْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ أمْ لَا ؟ وَمَا الحُجّةُ عَلى قِتَالِهِمْ ؟ وَمَا مَذاهِبُ العُلمَاءِ فِي ذلِكَ ؟ وَمَا حُكمُ مَنْ كانَ مَعَهُمْ مِمّنْ يَفِرُّ إليْهِمْ مِنْ عَسْكرِ المُسْلِمِينَ : الأمَرَاءِ وَغيْرِهِمْ ؟ وَمَا حُكمُ مَنْ قدْ أخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكرَهًا ؟ وَمَا حُكمُ مَنْ يَكُونُ مَعَ عَسْكرِهِمْ مِنْ المُنْتَسِبِينَ إلى العِلْمِ وَالفِقهِ وَالفقرِ وَالتصَوّفِ وَنحْوِ ذلِكَ ؟ وَمَا يُقالُ فِيمَنْ زعَمَ أنهُمْ مُسْلِمُونَ وَالمُقاتِلُونَ لهُمْ مُسْلِمُونَ وَكِلاهُمَا ظالِمٌ فَلَا يُقاتِلُ مَعَ أحَدِهِمَا . وَفِي قوْلِ مَنْ زعَمَ أنهُمْ يُقاتَلُونَ كمَا تُقاتَلُ البُغاةُ المُتَأوّلُونَ ؟ وَمَا الوَاجِبُ عَلى جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ وَالدّينِ وَأهْلِ القِتَالِ وَأهْلِ الأمْوَالِ فِي أمْرِهِمْ ؟ أفْتُونَا فِي ذلِكَ بِأجْوِبَةٍ مَبْسُوطةٍ شَافِيَةٍ فَإِنّ أمْرَهُمْ قدْ أشْكلَ عَلى كثِيرٍ مِنْ المُسْلِمِينَ ؛ بَلْ عَلى أكْثَرِهِمْ . تارَةً لِعَدَمِ العِلْمِ بِأحْوَالِهِمْ . وَتارَةً لِعَدَمِ العِلْمِ بِحُكمِ اللهِ تعَالى وَرَسُولِهِ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ فِي مِثلِهِمْ . وَاللهُ المُيَسّرُ لِكُلّ خَيْرٍ بِقدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ أنهُ عَلى كُلّ شَيْءٍ قدِيرٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ .

الجَوَابُ

فَأجَابَ : الحَمْدُ لِلهِ رَبّ العَالمِينَ . نعَمْ يَجِبُ قِتَالُ هَؤُلَاءِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ رَسُولِهِ ؛ وَاتِفَاقِ أئِمّةِ المُسْلِمِينَ . وَهَذا مَبْنِيٌّ عَلى أصْليْنِ : أحَدُهُمَا المَعْرِفَةُ بِحَالِهِمْ . وَالثانِي مَعْرِفَةُ حُكمِ اللهِ فِي مِثلِهِمْ . فَأمّا الأوّلُ فَكُلُّ مَنْ بَاشَرَ القوْمَ يَعْلمُ حَالهُمْ وَمَنْ لمْ يُبَاشِرْهُمْ يَعْلمُ ذلِكَ بِمَا بَلغَهُ مِنْ الأخْبَارِ المُتَوَاتِرَةِ وَأخْبَارِ الصّادِقِينَ . وَنحْنُ نذكُرُ جُلّ أُمُورِهِمْ بَعْدَ أنْ نُبَيّنَ الأصْلَ الآخَرَ الذِي يَخْتَصُّ بِمَعْرِفتِهِ أهْلُ العِلْمِ بِالشّرِيعَةِ الإِسْلَامِيّةِ فَنَقُولُ : كُلُّ طَائِفَةٍ خَرَجَتْ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ الظاهِرَةِ المُتَوَاتِرَةِ فَإِنّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا بِاتِفَاقِ أئِمّةِ المُسْلِمِينَ ؛ وَإِنْ تكلمَتْ بِالشّهَادتَيْنِ . فَإِذا أقرّوا بِالشّهَادتَيْنِ وَامْتَنَعُوا عَنْ الصّلوَاتِ الخَمْسِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتّى يُصَلُوا . وَإِنْ امْتَنَعُوا عَنْ الزّكاةِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتّى يُؤَدّوا الزّكاةَ . وَكذلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ أوْ حَجّ البَيْتِ العَتِيقِ . وَكذلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ تحْرِيمِ الفَوَاحِشِ أوْ الزّنَا أوْ المَيْسِرِ أوْ الخَمْرِ أوْ غيْرِ ذلِكَ مِنْ مُحَرّمَاتِ الشّرِيعَةِ . وَكذلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الحُكمِ فِي الدّمَاءِ وَالأمْوَالِ وَالأعْرَاضِ وَالأبْضَاعِ وَنحْوِهَا بِحُكمِ الكِتَابِ وَالسُنّةِ . وَكذلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الأمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيِ عَنْ المُنْكرِ وَجِهَادِ الكُفّارِ إلى أنْ يُسْلِمُوا وَيُؤَدّوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَكذلِكَ إنْ أظهَرُوا البِدَعَ المُخَالِفَةَ لِلكِتَابِ وَالسُنّةِ وَاتِبَاعِ سَلفِ الأمّةِ وَأئِمّتِهَا ؛ مِثلَ أنْ يُظهِرُوا الإِلحَادَ فِي أسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ أوْ التكْذِيبَ بِأسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ أوْ التكْذِيبَ بِقدَرِهِ وَقضَائِهِ أوْ التكْذِيبَ بِمَا كانَ عَليْهِ جَمَاعَةُ المُسْلِمِينَ عَلى عَهْدِ الخُلفَاءِ الرّاشِدِينَ أوْ الطّعْنِ فِي السّابِقِينَ الأوّلِينَ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالذِينَ اتبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ أوْ مُقاتلةَ المُسْلِمِينَ حَتّى يَدْخُلُوا فِي طاعَتِهِمْ التِي تُوجِبُ الخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ وَأمْثالَ هَذِهِ الأمُورِ . قالَ اللهُ تعَالى : { وَقاتِلُوهُمْ حَتّى لَا تكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلهُ لِلهِ } فَإِذا كانَ بَعْضُ الدّينِ لِلهِ وَبَعْضُهُ لِغيْرِ اللهِ وَجَبَ القِتَالُ حَتّى يَكُونَ الدّينُ كُلهُ لِلهِ . وَقالَ تعَالى : { يَا أيُهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ

وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { فَإِنْ لَمْ تفعَلوا فَأذنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ } . وَهَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطائِفِ وَكانوا قدْ أسْلمُوا وَصَلوْا وَصَامُوا لكِنْ كانوا يَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا . فَأنزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ وَأَمَرَ المُؤْمِنِينَ فِيهَا بِتَرْكِ مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا . وَقَالَ : { فَإِنْ لَمْ تفعَلوا فَأذنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ } وَقدْ قُرِئَ (فَأْذَنُوا (وَآذِنُوا وَكِلَا المَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ . وَالرِّبَا آخِرُ المُحَرّمَاتِ فِي القرْآنِ وَهُوَ مَالٌ يُؤْخَذُ بِتَرَاضِي المُتَعَامِلِينَ . فَإِذَا كانَ مَنْ لمْ يَنْتَهِ عَنْهُ مُحَارِبًا لِلهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ غيْرِهِ مِنْ المُحَرّمَاتِ التِي هِيَ أسْبَقُ تحْرِيمًا وَأعْظمُ تحْرِيمًا . وَقدْ اسْتَفَاضَ عَنْ النّبِيّ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ الأحَادِيثُ بِقِتَالِ الخَوَارِجِ وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ أهْلِ العِلمِ بِالحَدِيثِ . قالَ الإِمَامُ أحْمَد صَحّ الحَدِيثُ فِي الخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أوْجُهٍ وَقدْ رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَرَوَى البُخَارِيُّ مِنْهَا ثلاثةَ أوْجُهٍ : حَدِيثَ عَلِيٍّ وَأبِي سَعِيدٍ الخدري وَسَهْلِ بْنِ حنيف . وَفِي السُّنَنِ وَالمَسَانِيدِ طرُقٌ أخَرُ مُتَعَدِّدَةٌ . وَقدْ قالَ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ فِي صِفتِهِمْ { يُحَقِرُ أحَدُكُمْ صَلاتهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ القرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ كمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ . أيْنَمَا لقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ؛ فَإِنّ فِي قتْلِهِمْ أجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قتَلهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ لئِنْ أدْرَكْتهمْ لأقتُلنّهُمْ قتْلَ عَادٍ } . وَهَؤُلَاءِ قاتلهُمْ أمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أبِي طالِبٍ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ الصّحَابَةِ وَاتفَقَ عَلى قِتَالِهِمْ سَلفُ الأمّةِ وَأئِمّتُهَا ؛ لمْ يَتَنَازَعُوا فِي قِتَالِهِمْ كمَا تنَازَعُوا فِي القِتَالِ يَوْمَ الجَمَلِ وصفين . فَإِنّ الصّحَابَةَ كانوا فِي قِتَالِ الفِتْنَةِ ثلاثةُ أصْنَافٍ : قوْمٌ قاتلوا مَعَ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَقوْمٌ قاتلوا مَعَ مَنْ قاتلهُ . وَقوْمٌ قعَدُوا عَنْ القِتَالِ لمْ يُقَاتِلُوا الوَاحِدَةَ مِنْ الطائِفَتَيْنِ . وَأمّا الخَوَارِجُ فَلمْ يَكنْ فِيهِمْ أحَدٌ مِنْ الصّحَابَةِ وَلا نَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ أحَدٌ مِنْ الصّحَابَةِ وَفِي الصّحِيحِ عَنْ أبِي سَعِيدٍ أنّ النّبِيّ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ قَالَ : { تمْرُقُ مَارِقةٌ عَلى حِينِ فُرْقةٍ مِنْ المُسْلِمِينَ تقتُلهُمْ أوْلى الطائِفَتَيْنِ بِالحَقّ } . وَفِي لفْظٍ { أدْنَى الطائِفَتَيْنِ إلى الحَقّ } فَبِهَذَا الحَدِيثِ الصّحِيحِ ثبَتَ أنّ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ كانوا أقْرَبَ إلى الحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابِهِ . وَإِنّ تِلكَ المَارِقةَ التِي مَرَقتْ مِنْ الإِسْلامِ ليْسَ حُكمُهَا حُكمَ إحْدَى الطائِفَتَيْنِ ؛ بَلْ أمَرَ النّبِيُّ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلمَ بِقِتَالِ هَذِهِ المَارِقةِ وَأكّدَ الأمْرَ بِقِتَالِهَا وَلمْ يَأمُرْ بِقِتَالِ إحْدَى الطائِفَتَيْنِ كمَا أمَرَ بِقِتَالِ هَذِهِ ؛ بَلْ قدْ ثبَتَ عَنْهُ فِي الصّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أبِي بَكرَةَ أنّهُ قالَ لِلحَسَنِ : { إنّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ طائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ } فَمَدَحَ الحَسَنَ وَأثنَى عَليْهِ بِمَا أصْلحَ اللهُ بِهِ بَيْنَ الطائِفَتَيْنِ حِينَ ترَكَ القِتَالَ وَقدْ بُويِعَ لهُ وَاخْتَارَ الأصْلحَ وَحَقنَ الدِّمَاءَ مَعَ نُزُولِهِ عَنْ الأمْرِ . فَلوْ كانَ القِتَالُ مَأمُورًا بِهِ لمْ يَمْدَحْ الحَسَنَ وَيُثنِي عَليْهِ بِترْكِ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ . وَالعُلمَاءُ لهُمْ فِي قِتَالِ مَنْ يَسْتَحِقُّ القِتَالَ مِنْ أهْلِ القِبْلةِ طرِيقانِ : مِنْهُمْ مَنْ يَرَى قِتَالًا عَلى يَوْمِ حَرُورَاءَ وَيَوْمِ الجَمَلِ وصفين كلّهُ مِنْ بَابِ قِتَالِ أهْلِ البَغْيِ وَكذَلِكَ يَجْعَلُ قِتَالَ أبِي بَكرٍ لِمَانِعِي الزّكاةِ وَكذَلِكَ قِتَالُ سَائِرِ مَنْ قوتِلَ مِنْ المُنْتَسِبِينَ إلى القِبْلةِ كمَا ذَكرَ

ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ لَيْسُوا فُسَّاقًا بَلْ هُمْ عُدُولٌ : فَقَالُوا إنَّ أَهْلَ الْبَغْيِ عُدُولٌ مَعَ قِتَالِهِمْ وَهُمْ مُخْطِئُونَ خَطَأَ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْفُرُوعِ . وَخَالَفَتْ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ كَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ فَذَهَبُوا إلَى تَفْسِيقِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَهَؤُلَاءِ نَظَرُوا إلَى مَنْ عَدُّوهُ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي زَمَنِهِمْ فَرَأَوْهُمْ فُسَّاقًا وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَا يُدْخِلُونَ الصَّحَابَةَ فِي ذَلِكَ - وَإِنَّمَا يُفَسِّقُ الصَّحَابَةَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ كَمَا يُكَفِّرُهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَذْهَبِ الْأَئِمَّةِ وَالْفُقَهَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - وَلَا يَقُولُونَ إنَّ أَمْوَالَهُمْ مَعْصُومَةٌ كَمَا كَانَتْ وَمَا كَانَ ثَابِتًا بِعَيْنِهِ رُدَّ إلَى صَاحِبِهِ وَمَا أُتْلِفَ فِي حَالِ الْقِتَالِ لَمْ يَضْمَنْ حَتَّى أَنَّ جُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : لَا يَضْمَنُ لَا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ فَأَجْمَعُوا أَنَّ كُلَّ مَالٍ أَوْ دَمٍ أُصِيبَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ هَدَرٌ . وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَانَ بِسِلَاحِهِمْ فِي حَرْبِهِمْ إذَا لَمْ يَكُنْ إلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : فِي مَذْهَبِ أَحْمَد يَجُوزُ وَالْمَنْعُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَالرُّخْصَةُ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ . وَاخْتَلَفُوا فِي قَتْلِ أَسِيرِهِمْ وَاتِّبَاعِ مُدْبِرِهِمْ وَالتَّذْفِيفِ عَلَى جَرِيحِهِمْ إذَا كَانَ لَهُمْ فِئَةٌ يَلْجَئُونَ إلَيْهَا . فَجَوَّزَ ذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَنَعَهُ الشَّافِعِيُّ وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَفِي مَذْهَبِهِ وَجْهٌ : أَنَّهُ يَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ فِي أَوَّلِ الْقِتَالِ . وَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ فَلَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ كَمَا رَوَاهُ سَعِيدٌ وَغَيْرُهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ : خَرَجَ صَارِخٌ لِعَلِيِّ يَوْمَ الْجَمَلِ لَا يُقْتَلَنَّ مُدْبِرٌ وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ . فَمَنْ سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فَقَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ التَّتَارَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمُتَأَوِّلِينَ وَيُحْكَمُ فِيهِمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ كَمَا أَدْخَلَ مَنْ أَدْخَلَ فِي هَذَا الْحُكْمِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجَ . وَسَنُبَيِّنُ فَسَادَ هَذَا التَّوَهُّمِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ : إنَّ قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَنَحْوِهِمْ لَيْسَ كَقِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ وصفين وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَهُوَ الذي يَذْكُرُونَهُ فِي اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَمَالِكِ وَغَيْرِهِ وَمَذْهَبُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ نَصُّوا عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ حَتَّى فِي الْأَمْوَالِ . فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَبَاحَ غَنِيمَةَ أَمْوَالِ الْخَوَارِجِ وَقَدْ نَصَّ أَحْمَد فِي رِوَايَةِ أَبِي طَالِبٍ فِي حرورية كَانَ لَهُمْ سَهْمٌ فِي قَرْيَةٍ فَخَرَجُوا يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلَهُمْ الْمُسْلِمُونَ فَأَرْضُهُمْ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَيُقَسَّمُ خُمُسُهُ عَلَى خَمْسَةٍ وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ لِلَّذِينَ قَاتَلُوا يُقَسَّمُ بَيْنَهُمْ أَوْ يَجْعَلُ الْأَمِيرُ الْخَرَاجَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَا يُقَسِّمُ مِثْلُ مَا أَخَذَ عُمَرُ السَّوَادَ عَنْوَةً وَوَقَفَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . فَجَعَلَ أَحْمَد الْأَرْضَ الَّتِي لِلْخَوَارِجِ إذَا غُنِمَتْ بِمَنْزِلَةِ مَا غُنِمَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ هِيَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ . فَإِنَّ النَّصَّ وَالْإِجْمَاعَ فَرَّقٌ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا وَسِيرَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا . فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْخَوَارِجَ بِنَصِّ رَسُولِ اللَّهِ وَفَرِحَ بِذَلِكَ وَلَمْ يُنَازِعْهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ . وَأَمَّا الْقِتَالُ يَوْمَ

صفين فَقَدْ ظَهَرَ مِنْهُ مِنْ كرَاهَتِهِ وَالذَّمِّ عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ . وَقَالَ فِي أَهْلِ الْجَمَلِ وَغَيْرِهِمْ : إخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا طَهَّرَهُمْ السَّيْفُ وَصَلَّى عَلَى قَتْلَى الطَّائِفَتَيْنِ . وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ { سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حِدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ : يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ . فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِي كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ الَّذِينَ سَارُوا إلَى الْخَوَارِجِ فَقَالَ عَلِيٌّ : أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : { يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءِ وَلَا صَلَاتُكُمْ إلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءِ وَلَا صِيَامُكُمْ إلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ . يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ . لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِمْ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ لَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ } . قَالَ فَيَذْهَبُونَ إلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَيَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ . وَاَللَّهِ إنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ . قَالَ : فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ رَئِيسًا . فَقَالَ لَهُمْ : أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ حُفُوفِهَا فَإِنِّي أُنَاشِدُكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ . فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ وَسَلُّوا السُّيُوفَ وَسَجَرَهُمْ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ . قَالَ : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أُصِيبَ مِنْ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إلَّا رَجُلَانِ . فَقَالَ عَلِيٌّ : الْتَمِسُوا فِيهِمْ الْمُخْدَجَ . فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ . فَقَامَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . قَالَ : أَخِّرُوهُمْ . فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ . فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللَّهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ . قَالَ : فَقَامَ إلَيْهِ عبيدة السلماني . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . اللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ أَسَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : إي وَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ أَيْضًا . فَإِنَّ الْأُمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَمِّ الْخَوَارِجِ وَتَضْلِيلِهِمْ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي تَكْفِيرِهِمْ . عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ وَأَحْمَد وَفِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَيْضًا نِزَاعٌ فِي كُفْرِهِمْ . وَلِهَذَا كَانَ فِيهِمْ وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُولَى : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ بُغَاةٌ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ كُفَّارٌ كَالْمُرْتَدِّينَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ ابْتِدَاءً وَقَتْلُ أَسِيرِهِمْ وَاتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ اُسْتُتِيبَ كَالْمُرْتَدِّ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ : كَمَا أَنَّ مَذْهَبَهُ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ إذَا قَاتَلُوا الْإِمَامَ عَلَيْهَا هَلْ يَكْفُرُونَ مَعَ الْإِقْرَارِ بِوُجُوبِهَا ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ قِتَالَ الصِّدِّيقِ لِمَانِعِي الزَّكَاةِ وَقِتَالَ عَلِيٍّ لِلْخَوَارِجِ لَيْسَ مِثْلَ الْقِتَالِ يَوْمَ الْجَمَلِ وصفين . فَكَلَامُ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ فِي الْخَوَارِجِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَيْسُوا كُفَّارًا كَالْمُرْتَدِّينَ عَنْ أَصْلِ

الإِسْلَامِ وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ الْأَئِمَّةِ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ وَلَيْسُوا مَعَ ذَلِكَ حُكْمُهُمْ كَحُكْمِ أَهْلِ الْجَمَلِ وصفين بَلْ هُمْ نَوْعٌ ثَالِثٌ . وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ فِيهِمْ . وَمِمَّنْ قَاتَلَهُمْ الصَّحَابَةُ - مَعَ إقْرَارِهِمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ - مَانِعِي الزَّكَاةُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا . فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : أَلَمْ يَقُلْ لَك : إلَّا بِحَقِّهَا . فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا . وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا . قَالَ عُمَرُ : فَمَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت أَنَّ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ " . وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَى قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَإِنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ . وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُبْهَةٌ سَائِغَةٌ فَلِهَذَا كَانُوا مُرْتَدِّينَ وَهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَى مَنْعِهَا وَإِنْ أَقَرُّوا بِالْوُجُوبِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ . وَقَدْ حُكِيَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَخْذِ الزَّكَاةِ بِقَوْلِهِ : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } وَقَدْ سَقَطَتْ بِمَوْتِهِ . وَكَذَلِكَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِتَالِ الَّذِينَ لَا يَنْتَهُونَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ . وَأَمَّا الْأَصْلُ الْآخَرُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ أَحْوَالِهِمْ . فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ جَازُوا عَلَى الشَّامِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى : عَامَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَأَعْطَوْا النَّاسَ الْأَمَانَ وَقَرَءُوهُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِدِمَشْقَ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَبَوْا مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ مَا يُقَالُ إنَّهُ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُ عَلَيْهِ وَفَعَلُوا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِجَبَلِ الصالحية ونابلس وَحِمْصَ وَدَارِيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ حَتَّى يُقَالَ إنَّهُمْ سَبَوْا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَجَعَلُوا يَفْجُرُونَ بِخِيَارِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا كَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَالْأُمَوِيِّ وَغَيْرِهِ وَجَعَلُوا الْجَامِعَ الَّذِي بِ العقيبة دَكًّا . وَقَدْ شَاهَدْنَا عَسْكَرَ الْقَوْمِ فَرَأَيْنَا جُمْهُورَهُمْ لَا يُصَلُّونَ وَلَمْ نَرَ فِي عَسْكَرِهِمْ مُؤَذِّنًا وَلَا إمَامًا وَقَدْ أَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ وَخَرَّبُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فِي دَوْلَتِهِمْ إلَّا مَنْ كَانَ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ . إمَّا زِنْدِيقٌ مُنَافِقٌ لَا يَعْتَقِدُ دِينَ الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ وَإِمَّا مَنْ هُوَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْبِدَعِ كَالرَّافِضَةِ والجهمية والاتحادية وَنَحْوِهِمْ وَأَمَّا مَنْ هُوَ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ وَأَفْسَقِهِمْ . وَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ لَا يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُصَلِّي وَيَصُومُ فَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ إقَامَ الصَّلَاةِ وَلَا إيتَاءَ الزَّكَاةِ . وَهُمْ يُقَاتِلُونَ عَلَى مُلْكِ جنكسخان . فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ جَعَلُوهُ وَلِيًّا لَهُمْ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَمَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ جَعَلُوهُ عَدُوًّا لَهُمْ وَإِنْ كَانَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا يُقَاتِلُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يَضَعُونَ الْجِزْيَةَ وَالصَّغَارَ . بَلْ غَايَةُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَنْ أَكَابِرِ أُمَرَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ كَمَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَا قَالَ أَكْبَرُ مُقَدِّمِيهِمْ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى الشَّامِ وَهُوَ يُخَاطِبُ رُسُلَ الْمُسْلِمِينَ وَيَتَقَرَّبُ إلَيْهِمْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . فَقَالَ هَذَانِ آيَتَانِ عَظِيمَتَانِ جَاءَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ

وجنكسخان . فَهَذَا غَايَةُ مَا يَتَقَرّبُ بِهِ أَكْبَرُ مُقَدّمِيهِمْ إلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُسَوّيَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وَأَكْرَمِ الخَلْقِ عَلَيْهِ وَسَيّدِ وَلَدِ آدَمَ وَخَاتَمِ المُرْسَلِينَ وَبَيْنَ مَلِكٍ كَافِرٍ مُشْرِكٍ مِنْ أَعْظَمِ المُشْرِكِينَ كُفْرًا وَفَسَادًا وَعُدْوَانًا مِنْ جِنْسِ بُخْتِ نَصّرَ وَأَمْثَالِهِ . وَذَلِكَ أَنّ اعْتِقَادَ هَؤُلَاءِ التّتَارِ كَانَ فِي جنكسخان عَظِيمًا فَإِنّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنّهُ ابْنُ اللهِ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْتَقِدُهُ النّصَارَى فِي المَسِيحِ وَيَقُولُونَ إنّ الشّمْسَ حَبّلَتْ أُمّهُ وَأَنّهَا كَانَتْ فِي خَيْمَةٍ فَنَزَلَتْ الشّمْسُ مِنْ كُوّةِ الخَيْمَةِ فَدَخَلَتْ فِيهَا حَتّى حَبِلَتْ . وَمَعْلُومٌ عِنْد كُلّ ذِي دِينٍ أَنّ هَذَا كَذِبٌ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنّهُ وَلَدُ زِنًا وَأَنّ أُمّهُ زَنَتْ فَكَتَمَتْ زِنَاهَا وَادّعَتْ هَذَا حَتّى تَدْفَعَ عَنْهَا مَعَرّةَ الزّنَا وَهُمْ مَعَ هَذَا يَجْعَلُونَهُ أَعْظَمَ رَسُولٍ عِنْدَ اللهِ فِي تَعْظِيمِ مَا سَنّهُ لَهُمْ وَشَرَعَهُ بِظَنّهِ وَهَوَاهُ حَتّى يَقُولُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ المَالِ . هَذَا رِزْقُ جنكسخان وَيَشْكُرُونَهُ عَلَى أَكْلِهِمْ وَشُرْبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَحِلّونَ قَتْلَ مَنْ عَادَى مَا سَنّهُ لَهُمْ هَذَا الكَافِرُ المَلْعُونُ المُعَادِي لِلهِ وَلِأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ . فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُقَدّمِيهِمْ كَانَ غَايَتُهُ بَعْدَ الإِسْلَامِ أَنْ يَجْعَلَ مُحَمّدًا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِمَنْزِلَةِ هَذَا المَلْعُونِ . وَمَعْلُومٌ أَنّ مُسَيْلِمَةَ الكَذّابَ كَانَ أَقَلّ ضَرَرًا عَلَى المُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا وَادّعَى أَنّهُ شَرِيكُ مُحَمّدٍ فِي الرّسَالَةِ وَبِهَذَا اسْتَحَلّ الصّحَابَةُ قِتَالَهُ وَقِتَالَ أَصْحَابِهِ المُرْتَدّينَ . فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ فِيمَا يُظْهِرُهُ مِنْ الإِسْلَامِ يَجْعَلُ مُحَمّدًا كجنكسخان وَإِلّا فَهُمْ مَعَ إظْهَارِهِمْ لِلْإِسْلَامِ يُعَظّمُونَ أَمْرَ جنكسخان عَلَى المُسْلِمِينَ المُتّبِعِينَ لِشَرِيعَةِ القُرْآنِ وَلَا يُقَاتِلُونَ أُولَئِكَ المُتّبِعِينَ لِمَا سَنّهُ جنكسخان كَمَا يُقَاتِلُونَ المُسْلِمِينَ بَلْ أَعْظَمُ . أُولَئِكَ الكُفّارِ يَبْذُلُونَ لَهُ الطّاعَةَ وَالِانْقِيَادَ وَيَحْمِلُونَ إلَيْهِ الأَمْوَالَ وَيُقِرّونَ لَهُ بِالنّيَابَةِ وَلَا يُخَالِفُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ إلّا كَمَا يُخَالِفُ الخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ لِلْإِمَامِ . وَهُمْ يُحَارِبُونَ المُسْلِمِينَ وَيُعَادُونَهُمْ أَعْظَمَ مُعَادَاةٍ وَيَطْلُبُونَ مِنْ المُسْلِمِينَ الطّاعَةَ لَهُمْ وَبَذْلَ الأَمْوَالِ وَالدّخُولَ فِيمَا وَضَعَهُ لَهُمْ ذَلِكَ المَلِكُ الكَافِرُ المُشْرِكُ المُشَابِهُ لِفِرْعَوْنَ أَوْ النمروذ وَنَحْوِهِمَا ؛ بَلْ هُوَ أَعْظَمُ فَسَادًا فِي الأَرْضِ مِنْهُمَا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ } . وَهَذَا الكَافِرُ عَلَا فِي الأَرْضِ : يَسْتَضْعِفُ أَهْلَ المِلَلِ كُلّهِمْ مِنْ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنّصَارَى وَمَنْ خَالَفَهُ مِنْ المُشْرِكِينَ بِقَتْلِ الرّجَالِ وَسَبْيِ الحَرِيمِ وَبِأَخْذِ الأَمْوَالِ وَبِهْلِك الحَرْثِ وَالنّسْلِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ . وَيَرُدُّ النّاسَ عَمّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سُنَنِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ إلَى أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا ابْتَدَعَهُ مِنْ سُنّتِهِ الجَاهِلِيّةِ وَشَرِيعَتِهِ الكفرية . فَهُمْ يَدّعُونَ دِينَ الإِسْلَامِ وَيُعَظّمُونَ دِينَ أُولَئِكَ الكُفّارِ عَلَى دِينِ المُسْلِمِينَ وَيُطِيعُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ أَعْظَمَ بِكَثِيرِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمُوَالَاةُ المُؤْمِنِينَ وَالحُكْمُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَ أَكَابِرِهِمْ بِحُكْمِ الجَاهِلِيّةِ لَا بِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ . وَكَذَلِكَ الأَكَابِرُ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَغَيْرِهِمْ يَجْعَلُونَ دِينَ الإِسْلَامِ كَدِينِ اليَهُودِ وَالنّصَارَى وَإِنّ هَذِهِ كُلّهَا طُرُقٌ إلَى اللهِ بِمَنْزِلَةِ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ . ثُمّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَجّحُ دِينَ اليَهُودِ أَوْ دِينَ النّصَارَى وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَجّحُ دِينَ المُسْلِمِينَ وَهَذَا القَوْلُ فَاشٍ غَالِبٌ فِيهِمْ حَتّى فِي فُقَهَائِهِمْ

وَعُبّادِهِمْ لَا سِيّمَا الجهمية مِنْ الِاتِّحَادِيّةِ الفِرْعَوْنِيّةِ وَنَحْوِهِمْ فَإِنّهُ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ الفَلسَفَةُ . وَهَذَا مَذْهَبُ كَثِيرٍ مِنْ المُتَفَلسِفَةِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ وَعَلَى هَذَا كَثِيرٌ مِنْ النّصَارَى أَوْ أَكْثَرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْ اليَهُودِ أَيْضًا ؛ بَلْ لَوْ قَالَ القَائِلُ : إنّ غَالِبَ خَوَاصّ العُلَمَاءِ مِنْهُمْ وَالعِبَادِ عَلَى هَذَا المَذْهَبِ لِمَا أَبْعَدَ . وَقَدْ رَأَيْت مِنْ ذَلِكَ وَسَمِعْت مَا لَا يَتّسِعُ لَهُ هَذَا المَوْضِعُ . وَمَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ المُسْلِمِينَ وَبِاتِّفَاقِ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ أَنّ مَنْ سَوّغَ اتِّبَاعَ غَيْرِ دِينِ الإِسْلَامِ أَوْ اتِّبَاعَ شَرِيعَةٍ غَيْرِ شَرِيعَةِ مُحَمّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ كَكُفْرِ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضِ الكِتَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إنّ الّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } { أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } . وَاليَهُودُ وَالنّصَارَى دَاخِلُونَ فِي ذَلِكَ وَكَذَلِكَ المُتَفَلسِفَةُ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . وَمَنْ تَفَلسَفَ مِنْ اليَهُودِ وَالنّصَارَى يَبْقَى كُفْرُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ وُزَرَائِهِمْ الّذِينَ يُصْدِرُونَ عَنْ رَأْيِهِ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الضّرْبِ فَإِنّهُ كَانَ يَهُودِيًّا مُتَفَلسِفًا ثُمّ انْتَسَبَ إلَى الإِسْلَامِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ اليَهُودِيّةِ وَالتّفَلسُفِ وَضَمّ إلَى ذَلِكَ الرّفْضَ . فَهَذَا هُوَ أَعْظَمُ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي الأَقْلَامِ وَذَاكَ أَعْظَمُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي السّيْفِ . فَلْيَعْتَبِرْ المُؤْمِنُ بِهَذَا . وَبِالجُمْلَةِ فَمَا مِنْ نِفَاقٍ وَزَنْدَقَةٍ وَإِلحَادٍ إلّا وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي اتِّبَاعِ التّتَارِ ؛ لِأَنّهُمْ مِنْ أَجْهَلِ الخَلقِ وَأَقَلِّهِمْ مَعْرِفَةً بِالدِّينِ وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ وَأَعْظَمِ الخَلقِ اتِّبَاعًا لِلظّنّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ . وَقَدْ قَسّمُوا النّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ : يال وَبَاعَ وداشمند وطاط - أَيْ صَدِيقُهُمْ وَعَدُوّهُمْ وَالعَالِمُ وَالعَامّيُّ - فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ الجَاهِلِيّةِ وَسُنّتِهِمْ الكفرية كَانَ صَدِيقَهُمْ . وَمَنْ خَالَفَهُمْ كَانَ عَدُوّهُمْ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ . وَكُلُّ مَنْ انْتَسَبَ إلَى عِلمٍ أَوْ دِينٍ سَمّوْهُ " داشمند " كَالفَقِيهِ وَالزّاهِدِ وَالقِسّيسِ وَالرّاهِبِ وَدَنّانِ اليَهُودِ وَالمُنَجِّمِ وَالسّاحِرِ وَالطّبِيبِ وَالكَاتِبِ وَالحَاسِبِ فَيُدْرِجُونَ سَادِنَ الأَصْنَامِ . فَيُدْرِجُونَ فِي هَذَا مِنْ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ وَأَهْلِ البِدَعِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ وَيَجْعَلُونَ أَهْلَ العِلمِ وَالإِيمَانِ نَوْعًا وَاحِدًا . بَلْ يَجْعَلُونَ القَرَامِطَةَ المَلَاحِدَةَ البَاطِنِيّةَ الزّنَادِقَةَ المُنَافِقِينَ كَ الطوسي وَأَمْثَالِهِ هُمْ الحُكّامُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ انْتَسَبَ إلَى عِلمٍ أَوْ دِينٍ مِنْ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنّصَارَى . وَكَذَلِكَ وَزِيرُهُمْ السّفِيهُ المُلَقّبُ بِالرّشِيدِ يَحْكُمُ عَلَى هَذِهِ الأَصْنَافِ وَيُقَدّمُ شِرَارَ المُسْلِمِينَ كَالرّافِضَةِ وَالمَلَاحِدَةِ عَلَى خِيَارِ المُسْلِمِينَ أَهْلِ العِلمِ وَالإِيمَانِ حَتّى تَوَلّى قَضَاءَ القُضَاةِ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ إلَى الزّنْدَقَةِ وَالإِلحَادِ وَالكُفْرِ بِـاللهِ وَرَسُولِهِ بِحَيْثُ تَكُونُ مُوَافَقَتُهُ لِلكُفّارِ وَالمُنَافِقِينَ مِنْ اليَهُودِ وَالقَرَامِطَةِ وَالمَلَاحِدَةِ وَالرّافِضَةِ عَلَى مَا يُرِيدُونَهُ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهِ . وَيَتَظَاهَرُ مِنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ بِمَا لَا بُدّ لَهُ مِنْهُ لِأَجْلِ مَنْ هُنَاكَ مِنْ المُسْلِمِينَ . حَتّى أَنّ وَزِيرَهُمْ هَذَا الخَبِيثَ المُلحِدَ المُنَافِقَ صَنّفَ مُصَنّفًا ؛ مَضْمُونُهُ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَضِيَ بِدِينِ اليَهُودِ وَالنّصَارَى وَأَنّهُ لَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُذَمّونَ وَلَا يُنْهَوْنَ عَنْ دِينِهِمْ وَلَا يُؤْمَرُونَ بِالِانْتِقَالِ

إلى الإسْلَامِ . وَاسْتَدَلَّ الْخَبِيثُ الْجَاهِلُ بِقَوْلِهِ : { قُلْ يَا أَيُّهَا الكافِرُونَ } { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ } { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } وَزَعَمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي أَنَّهُ يَرْضَى دِينَهُمْ قَالَ : وَهَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ ؛ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً . وَجَرَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ أُمُورٌ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا جَهْلٌ مِنْهُ . فَإِنَّ قَوْلَهُ : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } لَيْسَ فِيهِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ دِينُ الْكُفَّارِ حَقًّا وَلَا مَرْضِيًّا لَهُ ؛ وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَبَرُّئِهِ مِنْ دِينِهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : { إنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنْ الشِّرْكِ } كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : { وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } فَقَوْلُهُ : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } كَقَوْلِهِ : { لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } وَقَدْ اتَّبَعَ ذَلِكَ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ حَيْثُ قَالَ : { أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } . وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِتَرْكِ دِينِهِمْ فَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَبِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَأَنَّهُ جَاءَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ . وَقَدْ أَظْهَرُوا الرَّفْضَ وَمَنَعُوا أَنْ تُذْكَرَ عَلَى الْمَنَابِرِ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ وَذَكَرُوا عَلِيًّا وَأَظْهَرُوا الدَّعْوَةَ لِلِاثْنَيْ عَشَرَ ؛ الَّذِينَ تَزْعُمُ الرَّافِضَةُ أَنَّهُمْ أَئِمَّةٌ مَعْصُومُونَ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كُفَّارٌ وَفُجَّارٌ ظَالِمُونَ ؛ لَا خِلَافَةَ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ . وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ ؛ فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَشِيعَتِهِمَا . وَالرَّافِضَةُ تَكْفِيرُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالْإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ . وَالرَّافِضَةِ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا مِنْ الْعِزِّ مَا لَا يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ . وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إسْلَامِهِمْ إلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَكَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ حَرِيمِهِمْ . وَقَضِيَّةُ ابْنِ العلقمي وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتِهِمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ : مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ . وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ : قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلَادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عكة وَغَيْرِهَا مِنْ السَّوَاحِلِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ . وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ مِنْ " النصيرية " وَ " الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ " وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ " الْقَرَامِطَةِ " وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالرَّافِضَةُ جهمية قَدَرِيَّةٌ

وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ فِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ . وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَوَارِجَ قَوْلُهُ فِيهِمْ : { يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ } كَمَا أَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ ؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : { بَعَثَ عَلِيٌّ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ - يَعْنِي مِنْ أُمَرَاءِ نَجْدٍ - فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ . قَالُوا : يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا . قَالَ : إنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ . فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ . فَقَالَ : مَنْ يُطِعْ اللَّهَ إذَا عَصَيْته أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي ؟ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ فَمَنَعَهُ . فَلَمَّا وَلَّى قَالَ : إنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا - أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا - قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ ؛ لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ } وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ { : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَقْسِمُ قَسَمًا - أَتَاهُ ذُو الخويصرة - وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ . فَقَالَ : وَيْلك فَمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلُ قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذَنُ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ؟ فَقَالَ : دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ . يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَنْظُرُ إلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ . آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ . يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ } قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ . فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْت إلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَعَتَهُ . فَهَؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ مِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ وَذَكَرَ : أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ وَالْخَوَارِجُ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُونُوا يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّافِضَةِ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ فَكَانُوا أَعْظَمَ مُرُوقًا عَنْ الدِّينِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ بِكَثِيرِ كَثِيرٍ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَنَحْوِهِمْ إذَا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَاتَلَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَيْفَ إذَا ضَمُّوا إلَى ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ - كنائسا - وجنكسخان مَلِكِ الْمُشْرِكِينَ : مَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُضَادَّةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْعَسْكَرِ وَغَيْرُ

الْأُمَرَاءِ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ . وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ - مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ . وَيُصَلُّونَ وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ - فَكَيْفَ بِمَنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ لَوْ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُعَادُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدُرُوسِ شَرَائِعِهِ . أَمَّا الطَّائِفَةُ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَنَحْوِهِمَا فَهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُقَاتِلُونَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ دُخُولًا فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ عَنْهُ : { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ } وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمِ : { لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ } وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ بِمَدِينَتِهِ النَّبَوِيَّةِ فَغَرْبُهُ مَا يَغْرُبُ عَنْهَا وَشَرْقُهُ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا ؛ فَإِنَّ التَّشْرِيقَ وَالتَّغْرِيبَ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ ؛ إذْ كُلُّ بَلَدٍ لَهُ شَرْقٌ وَغَرْبٌ ؛ وَلِهَذَا إذَا قَدِمَ الرَّجُلُ إلَى الإسْكَنْدَرِيَّة مِنْ الْغَرْبِ يَقُولُونَ : سَافَرَ إلَى الشَّرْقِ وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُسَمُّونَ أَهْلَ الشَّامِ : أَهْلَ الْغَرْبِ وَيُسَمُّونَ أَهْلَ نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ : أَهْلَ الشَّرْقِ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ - وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : " أَهْلُ الْغَرْبِ " هُمْ أَهْلُ الشَّامِ - يَعْنِي هُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ - كَمَا أَنَّ نَجْدًا وَالْعِرَاقَ أَوَّلُ الشَّرْقِ وَكُلُّ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ الشَّرْقِ وَكُلُّ مَا يَغْرُبُ عَنْ الشَّامِ مِنْ مِصْرَ وَغَيْرِهَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْغَرْبِ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ : فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ : وَهُمْ بِالشَّامِ . فَإِنَّهَا أَصْلُ الْمَغْرِبِ وَهُمْ فَتَحُوا سَائِرَ الْمَغْرِبِ كَمِصْرِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْأَنْدَلُسَ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ غَرْبُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يَغْرُبُ عَنْهَا فَالْبِيرَةُ وَنَحْوُهَا عَلَى مُسَامَتَةِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا أَنَّ حَرَّانَ وَالرَّقَّةَ وسميساط وَنَحْوَهَا عَلَى مُسَامَتَةِ مَكَّةَ فَمَا يَغْرُبُ عَنْ الْبِيرَةِ فَهُوَ مِنْ الْغَرْبِ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي صِفَةِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ { أَنَّهُمْ بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ } وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ هِيَ الَّتِي بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ الْيَوْمَ . وَمَنْ يَتَدَبَّرُ أَحْوَالَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ هِيَ أَقْوَمُ الطَّوَائِفِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ : عِلْمًا وَعَمَلًا وَجِهَادًا عَنْ شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا ؛ فَإِنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الشَّوْكَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَمَغَازِيهِمْ مَعَ النَّصَارَى وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ وَمَعَ الزَّنَادِقَةِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ الدَّاخِلِينَ فِي الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ كالإسماعيليّة وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْقَرَامِطَةِ مَعْرُوفَةٌ : مَعْلُومَةٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَالْعِزُّ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ بِمَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ بِعِزِّهِمْ وَلِهَذَا لَمَّا هُزِمُوا سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ الذُّلِّ وَالْمُصِيبَةِ بِمَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . وَالْحِكَايَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا . وَذَلِكَ أَنَّ سُكَّانَ الْيَمَنِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ضِعَافٌ عَاجِزُونَ عَنْ الْجِهَادِ أَوْ مُضَيِّعُونَ لَهُ ؛ وَهُمْ مُطِيعُونَ

لِمَنْ مَلَكَ هَذِهِ الْبِلَادَ حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِهَؤُلَاءِ وَمَلِكُ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا جَاءَ إلَى حَلَبَ جَرَى بِهَا مِنْ الْقَتْلِ مَا جَرَى . وَأَمَّا سُكَّانُ الْحِجَازِ فَأَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الشَّرِيعَةِ وَفِيهِمْ مِنْ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالْفُجُورِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفُونَ عَاجِزُونَ ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ الْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ لِغَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِهَذِهِ الْبِلَادِ فَلَوْ ذَلَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ - وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى - لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْحِجَازِ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ ؛ لَا سِيَّمَا وَقَدْ غَلَبَ فِيهِمْ الرَّفْضُ وَمُلْكُ هَؤُلَاءِ التَّتَارِ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْآنَ مَرْفُوضٌ فَلَوْ غَلَبُوا لَفَسَدَ الْحِجَازُ بِالْكُلِّيَّةِ . وَأَمَّا بِلَادُ إفْرِيقِيَّةَ فَأَعْرَابُهَا غَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ ؛ بَلْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْجِهَادِ وَالْغَزْوِ . وَأَمَّا الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى فَمَعَ اسْتِيلَاءِ الْإِفْرِنْجِ عَلَى أَكْثَرِ بِلَادِهِمْ لَا يَقُومُونَ بِجِهَادِ النَّصَارَى هُنَاكَ ؛ بَلْ فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ النَّصَارَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصُّلْبَانَ خَلْقٌ عَظِيمٌ . لَوْ اسْتَوْلَى التَّتَارُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ لَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ مَعَهُمْ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ لَا سِيَّمَا وَالنَّصَارَى تَدْخُلُ مَعَ التَّتَارِ فَيَصِيرُونَ حِزْبًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ . فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الَّتِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ كَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ وَعِزُّهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ وَذُلُّهُمْ ذُلُّ الْإِسْلَامِ . فَلَوْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ التَّتَارُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ عِزٌّ وَلَا كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ وَلَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ يَخَافُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ تُقَاتِلُ مِنْهُ . فَمَنْ قَفَزَ عَنْهُمْ إلَى التَّتَارِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقِتَالِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ التَّتَارِ ؛ فَإِنَّ التَّتَارَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُ الْمُكْرَهِ وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ السُّنَّةُ بِأَنَّ عُقُوبَةَ الْمُرْتَدِّ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ . مِنْهَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ بِكُلِّ حَالٍ وَلَا يُضْرَبُ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ وَلَا تُعْقَدُ لَهُ ذِمَّةٌ ؛ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ . وَمِنْهَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ الْقِتَالِ ؛ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي لَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ كَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَد ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد . وَمِنْهَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا يَرِثُ وَلَا يُنَاكِحُ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ . إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْكَامِ . وَإِذَا كَانَتْ الرِّدَّةُ عَنْ أَصْلِ الدِّينِ أَعْظَمَ مِنْ الْكُفْرِ بِأَصْلِ الدِّينِ فَالرِّدَّةُ عَنْ شَرَائِعِهِ أَعْظَمُ مِنْ خُرُوجِ الْخَارِجِ الْأَصْلِيِّ عَنْ شَرَائِعِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَعْرِفُ أَحْوَالَ التَّتَارِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ فِيهِمْ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ شَرٌّ مِنْ الْكُفَّارِ الْأَصْلِيِّينَ مِنْ التُّرْكِ وَنَحْوِهِمْ وَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ تَرْكِهِمْ لِكَثِيرِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ خَيْرٌ مِنْ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِمَّنْ كَانَ مُسْلِمَ الْأَصْلِ هُوَ شَرٌّ مِنْ التُّرْكِ الَّذِينَ كَانُوا كُفَّارًا ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ الْأَصْلِيَّ إذَا ارْتَدَّ عَنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ كَانَ أَسْوَأَ حَالًا مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ مِثْلَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ قَاتَلَهُمْ الصِّدِّيقُ . وَإِنْ كَانَ الْمُرْتَدُّ عَنْ بَعْضِ الشَّرَائِعِ مُتَفَقِّهًا أَوْ مُتَصَوِّفًا أَوْ تَاجِرًا أَوْ كَاتِبًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ التُّرْكِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ وَأَصَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ . وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ عَلَى الدِّينِ مَا لَا يَجِدُونَهُ مِنْ ضَرَرِ أُولَئِكَ وَيَنْقَادُونَ لِلْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِنْ انْقِيَادِ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ بَعْضِ الدِّينِ وَنَافَقُوا فِي بَعْضِهِ وَإِنْ تَظَاهَرُوا بِالِانْتِسَابِ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ . وَغَايَةُ مَا يُوجَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَكُونُ مُلْحِدًا : نصيريا أَوْ إسْمَاعِيلِيًّا أَوْ رافضيا . وَخِيَارُهُمْ يَكُونُ جهميا اتِّحَادِيًّا أَوْ نَحْوَهُ فَإِنَّهُ لَا يَنْضَمُّ إلَيْهِمْ طَوْعًا مِنْ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ إلَّا مُنَافِقٌ أَوْ زِنْدِيقٌ أَوْ فَاسِقٌ فَاجِرٌ . وَمَنْ أَخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكْرَهًا فَإِنَّهُ يُبْعَثُ عَلَى نِيَّتِهِ . وَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ الْعَسْكَرَ جَمِيعَهُ إذْ لَا يَتَمَيَّزُ الْمُكْرَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ إذْ خُسِفَ بِهِمْ . فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : إنَّ فِيهِمْ الْمُكْرَهَ فَقَالَ : يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ } . وَالْحَدِيثُ مُسْتَفِيضٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَخْرَجَهُ أَرْبَابُ الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ . فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذْ كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ . فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا . قَالَ : يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ ؛ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : { عَبَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنَامِهِ . فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَنَعْت شَيْئًا فِي مَنَامِك لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ . فَقَالَ : الْعَجَبُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ هَذَا الْبَيْتَ بِرَجُلِ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَدْ لَجَأَ إلَى الْبَيْتِ حَتَّى إذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَتْ بِهِمْ . فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ . قَالَ : نَعَمْ ؛ فِيهِمْ الْمُسْتَنْصِرُ وَالْمَجْنُونُ وَابْنُ السَّبِيلِ فَيَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا ؛ وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نِيَّاتِهِمْ } وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ . قَالَتْ : قُلْت : يَا رَسُولَ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ قَالَ : يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ } وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ { : سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عِدَّةٌ يُبْعَثُ إلَيْهِمْ جَيْشٌ يَوْمَئِذٍ حَتَّى إذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ } . قَالَ يُوسُفُ بْنُ مَاهِكٍ : وَأَهْلُ الشَّامِ يَوْمَئِذٍ يَسِيرُونَ إلَى مَكَّةَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ : أَمَّا وَاَللَّهِ مَا هُوَ بِهَذَا الْجَيْشِ . فَاَللَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ الْجَيْشَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِكَ حُرُمَاتِهِ - الْمُكْرَهُ فِيهِمْ وَغَيْرُ الْمُكْرَهِ - مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ مَعَ أَنَّهُ يَبْعَثُهُمْ عَلَى نِيَّاتِهِمْ فَكَيْفَ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ أَنْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْمُكْرَهِ وَغَيْرِهِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بَلْ لَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّهُ خَرَجَ مُكْرَهًا لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ كَمَا رُوِيَ : { أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَسَرَهُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي كُنْت مُكْرَهًا . فَقَالَ : أَمَّا ظَاهِرُك فَكَانَ عَلَيْنَا وَأَمَّا سَرِيرَتُك فَإِلَى اللَّهِ } . بَلْ لَوْ كَانَ فِيهِمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ وَلَمْ يُمْكِنْ قِتَالُهُمْ إلَّا بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ لَقُتِلُوا أَيْضًا فَإِنَّ الْأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ تَتَرَّسُوا بِمُسْلِمِينَ وَخِيفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

إذَا لَمْ يُقَاتِلُوا ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ نَرْمِيَهُمْ وَنَقْصِدَ الْكُفَّارَ . وَلَوْ لَمْ نَخَفْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَازَ رَمْيُ أُولَئِكَ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا فِي أَحَدِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ . وَمَنْ قُتِلَ لِأَجْلِ الْجِهَادِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ - هُوَ فِي الْبَاطِنِ مَظْلُومٌ - كَانَ شَهِيدًا وَبُعِثَ عَلَى نِيَّتِهِ وَلَمْ يَكُنْ قَتْلُهُ أَعْظَمَ فَسَادًا مِنْ قَتْلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ . وَإِذَا كَانَ الْجِهَادُ وَاجِبًا وَإِنْ قُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا شَاءَ اللَّهُ . فَقَتْلُ مَنْ يُقْتَلُ فِي صَفِّهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِحَاجَةِ الْجِهَادِ لَيْسَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا ؛ بَلْ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُكْرَهَ فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ بِكَسْرِ سَيْفِهِ . وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَاتِلَ ؛ وَإِنْ قُتِلَ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتَنٌ : الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي . أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ - أَوْ وَقَعَتْ - فَمَنْ كَانَ لَهُ إبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْت مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ ؟ قَالَ : يَعْمِدُ إلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرِ ثُمَّ لِيَنْجُ إنْ اسْتَطَاعَ النَّجَاةَ . اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت . اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت . اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت . فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ . أَرَأَيْت إنْ أُكْرِهْت حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إلَى إحْدَى الصَّفَّيْنِ أَوْ - إحْدَى الْفِئَتَيْنِ - فَيَضْرِبُنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ بِسَهْمِهِ فَيَقْتُلُنِي ؟ قَالَ : يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِك وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } . فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ نَهَى عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ ؛ بَلْ أَمَرَ بِمَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْقِتَالُ مِنْ الِاعْتِزَالِ أَوْ إفْسَادِ السِّلَاحِ الَّذِي يُقَاتِلُ بِهِ وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُهُ . ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْمُكْرَهَ إذَا قُتِلَ ظُلْمًا كَانَ الْقَاتِلُ قَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ الْمَقْتُولِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ عَنْ الْمَظْلُومِ : { إنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ } وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا صَالَ صَائِلٌ عَلَى نَفْسِهِ جَازَ لَهُ الدَّفْعُ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ ؛ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الدَّفْعُ بِالْقِتَالِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد : (إحْدَاهُمَا يَجِبُ الدَّفْعُ عَنْ نَفْسِهِ وَلَوْ لَمْ يَحْضُرْ الصَّفَّ . وَ (الثَّانِيَةُ يَجُوزُ لَا الدَّفْعُ عَنْ نَفْسِهِ . وَأَمَّا الِابْتِدَاءُ بِالْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ فَلَا يَجُوزُ بِلَا رَيْبٍ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ إذَا كَانَ الْمُكْرَهُ عَلَى الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَاتِلَ ؛ بَلْ عَلَيْهِ إفْسَادُ سِلَاحِهِ وَأَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يُقْتَلَ مَظْلُومًا فَكَيْفَ بِالْمُكْرَهِ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الطَّائِفَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْمُرْتَدِّينَ وَنَحْوِهِمْ فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ إذَا أُكْرِهَ عَلَى الْحُضُورِ أَنْ لَا يُقَاتِلَ وَإِنْ قَتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَمَا لَوْ أَكْرَهَهُ الْكُفَّارُ عَلَى حُضُورِ صَفِّهِمْ لِيُقَاتِلَ الْمُسْلِمِينَ وَكَمَا لَوْ أَكْرَهَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ مَعْصُومٍ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَإِنْ أَكْرَهَهُ بِالْقَتْلِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ حِفْظُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ ذَلِكَ الْمَعْصُومِ أَوْلَى مِنْ الْعَكْسِ . فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَظْلِمَ غَيْرَهُ فَيَقْتُلَهُ لِئَلَّا يُقْتَلَ هُوَ ؛ بَلْ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ الْقَوَدُ عَلَى الْمُكْرَهِ وَالْمُكْرِهِ جَمِيعًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ كَأَحْمَدَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَفِي الْآخَرِ يَجِبُ الْقَوَدُ عَلَى الْمُكْرِهِ فَقَطْ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ . وَقِيلَ : الْقَوَدُ عَلَى الْمُكْرَهِ الْمُبَاشِرِ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ زُفَرَ . وَأَبُو يُوسُفَ يُوجِبُ

الضَّمَانَ بِالدِّيَةِ بَدَلَ الْقَوَدِ وَلَمْ يُوجِبْهُ . وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَفِيهَا : { أَنَّ الْغُلَامَ أَمَرَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ ظُهُورِ الدِّينِ } وَلِهَذَا جَوَّزَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ أَنْ يَنْغَمِسَ الْمُسْلِمُ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ ؛ إذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَفْعَلُ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْجِهَادِ مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ نَفْسَهُ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ لِغَيْرِهِ : كَانَ مَا يُفْضِي إلَى قَتْلِ غَيْرِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ إلَّا بِذَلِكَ وَدَفْعِ ضَرَرِ الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا الَّذِي لَا يَنْدَفِعُ إلَّا بِذَلِكَ أَوْلَى . وَإِذَا كَانَتْ السُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مُتَّفِقَيْنِ عَلَى أَنَّ الصَّائِلَ الْمُسْلِمَ إذَا لَمْ يَنْدَفِعْ صَوْلُهُ إلَّا بِالْقَتْلِ قُتِلَ وَإِنْ كَانَ الْمَالُ الَّذِي يَأْخُذُهُ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ حُرْمَةِ فَهُوَ شَهِيدٌ } فَكَيْفَ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ صَوْلُهُمْ وَبَغْيُهُمْ أَقَلُّ مَا فِيهِمْ . فَإِنَّ قِتَالَ الْمُعْتَدِينَ الصَّائِلِينَ ثَابِتٌ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَهَؤُلَاءِ مُعْتَدُونَ صَائِلُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ : فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَحُرَمِهِمْ وَدِينِهِمْ . وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ يُبِيحُ قِتَالَ الصَّائِلِ عَلَيْهَا . وَمَنْ قُتِلَ دُونَهَا فَهُوَ شَهِيدٌ فَكَيْفَ بِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا كُلِّهَا وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ الظَّالِمِينَ . لَكِنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ كَمَا تُقَاتَلُ الْبُغَاةُ الْمُتَأَوِّلُونَ فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً قَبِيحًا وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ؛ فَإِنَّ أَقَلَّ مَا فِي الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ خَرَجُوا بِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : إنَّ الْإِمَامَ يُرَاسِلُهُمْ فَإِنْ ذَكَرُوا شُبْهَةً بَيَّنَهَا وَإِنْ ذَكَرُوا مَظْلِمَةً أَزَالَهَا . فَأَيُّ شُبْهَةٍ لِهَؤُلَاءِ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ السَّاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا الْخَارِجِينَ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ إنَّهُمْ أَقْوَمُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَعَمَلًا مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ ؛ بَلْ هُمْ مَعَ دَعْوَاهُمْ الْإِسْلَامَ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ أَعْلَمُ بِالْإِسْلَامِ مِنْهُمْ وَأَتْبَعُ لَهُ مِنْهُمْ . وَكُلُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُنْذِرُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ فَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شُبْهَةٌ بَيِّنَةٌ يَسْتَحِلُّونَ بِهَا قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ وَهَمَ قَدْ سَبَوْا غَالِبَ حَرِيمِ الرَّعِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى أَنَّ النَّاسَ قَدْ رَأَوْهُمْ يُعَظِّمُونَ الْبُقْعَةَ وَيَأْخُذُونَ مَا فِيهَا مِنْ الْأَمْوَالِ وَيُعَظِّمُونَ الرَّجُلَ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ وَيَسْلُبُونَهُ مَا عَلَيْهِ مِنْ الثِّيَابِ وَيَسْبُونَ حَرِيمَهُ وَيُعَاقِبُونَهُ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي لَا يُعَاقَبُ بِهَا إلَّا أَظْلَمُ النَّاسِ وَأَفْجَرُهُمْ وَالْمُتَأَوِّلُ تَأْوِيلًا دِينِيًّا لَا يُعَاقِبُ إلَّا مَنْ يَرَاهُ عَاصِيًا لِلدِّينِ وَهُمْ يُعَظِّمُونَ مَنْ يُعَاقِبُونَهُ فِي الدِّينِ وَيَقُولُونَ إنَّهُ أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْهُمْ . فَأَيُّ تَأْوِيلٍ بَقِيَ لَهُمْ ثُمَّ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ مُتَأَوِّلُونَ لَمْ يَكُنْ تَأْوِيلُهُمْ سَائِغًا ؛ بَلْ تَأْوِيلُ الْخَوَارِجِ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ أَوْجَهُ مِنْ تَأْوِيلِهِمْ . أَمَّا الْخَوَارِجُ فَإِنَّهُمْ ادَّعَوْا اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ وَإِنَّ مَا خَالَفَهُ مِنْ السُّنَّةِ لَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِهِ . وَأَمَّا مَانِعُوا الزَّكَاةِ فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } وَهَذَا خِطَابٌ لِنَبِيِّهِ فَقَطْ فَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَدْفَعَهَا لِغَيْرِهِ . فَلَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَهَا لِأَبِي بَكْرٍ وَلَا يُخْرِجُونَهَا لَهُ . وَالْخَوَارِجُ لَهُمْ عِلْمٌ

وَعِبَادَةٌ وَلِلْعُلَمَاءِ مَعَهُمْ مُنَاظَرَاتٌ كمُنَاظَرَتِهِمْ مَعَ الرَّافِضَةِ والجهمية . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَلَا يُنَاظِرُونَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَلَوْ كَانُوا مُتَأَوِّلِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَأْوِيلٌ يَقُولُهُ ذُو عَقْلٍ . وَقَدْ خَاطَبَنِي بَعْضُهُمْ بِأَنْ قَالَ : مَلِكُنَا مَلِكٌ ابْنُ مَلِكٍ ابْنُ مَلِكٍ إلَى سَبْعَةِ أَجْدَادٍ وَمَلِكُكُمْ ابْنُ مَوْلَى . فَقُلْت لَهُ : آبَاءُ ذَلِكَ الْمَلِكِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ وَلَا فَخْرَ بِالْكَافِرِ ؛ بَلْ الْمَمْلُوكُ الْمُسْلِمُ خَيْرٌ مِنْ الْمَلِكِ الْكَافِرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ } . فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا حُجَجُهُمْ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ الْمُسْلِمَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا وَلَا يُطِيعَ الْكَافِرَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَدِينَ الْإِسْلَامِ } . إنَّمَا يُفَضَّلُ الْإِنْسَانُ بِإِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ لَا بِآبَائِهِ ؛ وَلَوْ كَانُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ شَرِيفًا قُرَشِيًّا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { لَا فَضْلَ لِعَرَبِيِّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيِّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إلَّا بِالتَّقْوَى . النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ } . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِقَبِيلَةِ قَرِيبَةٍ مِنْهُ : { إنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي إنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ } فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مُوَالَاتَهُ لَيْسَتْ بِالْقَرَابَةِ وَالنَّسَبِ ؛ بَلْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي قَرَابَةِ الرَّسُولِ فَكَيْفَ بِقَرَابَةِ جنكسخان الْكَافِرِ الْمُشْرِكِ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ إيمَانًا وَتَقْوَى كَانَ أَفْضَلَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَسْوَدَ حَبَشِيًّا وَالثَّانِي عَلَوِيًّا أَوْ عَبَّاسِيًّا .[165]

وجوب قتال التتار ومن كان على شاكلتهم

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ عَنْ أَجْنَادٍ يَمْتَنِعُونَ عَنْ قِتَالِ التَّتَارِ وَيَقُولُونَ : إنَّ فِيهِمْ مَنْ يَخْرُجُ مُكْرَهًا مَعَهُمْ وَإِذَا هَرَبَ أَحَدُهُمْ هَلْ يُتْبَعُ أَمْ لَا ؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قِتَالُ التَّتَارِ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى بِلَادِ الشَّامِ وَاجِبٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ لَمَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ ؛ لَكِنْ امْتَنَعُوا مِنْ تَرْكِ الرِّبَا . فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ إذَا لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ الرِّبَا .

---

[165] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 6 / ص 426)

وَالرِّبَا هُوَ آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَهُوَ مَالٌ يُؤْخَذُ بِرِضَا صَاحِبِهِ . فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يَجِبُ جِهَادُهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتْرُكُ كَثِيرًا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَكْثَرَهَا كَالتَّتَارِ . وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا امْتَنَعَتْ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ أَوْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَوْ عَنْ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْخَمْرِ أَوْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَوْ عَنْ اسْتِحْلَالِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ الرِّبَا أَوْ الْمَيْسِرِ أَوْ عَنْ الْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ أَوْ عَنْ ضَرْبِهِمْ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ عُمَرَ لَمَّا نَاظَرَ أَبَا بَكْرٍ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : كَيْفَ لَا أُقَاتِلُ مَنْ تَرَكَ الْحُقُوقَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ كَالزَّكَاةِ وَقَالَ لَهُ : فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا . وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا . قَالَ عُمَرُ : فَمَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الْخَوَارِجَ وَقَالَ فِيهِمْ : { يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ : يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ . أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ } . وَقَدْ اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ . وَأَوَّلُ مَنْ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ يُقَاتِلُونَ فِي صَدْرِ خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ مَعَ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً وَكَانَ الْحَجَّاجُ وَنُوَّابُهُ مِمَّنْ يُقَاتِلُونَهُمْ . فَكُلُّ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ يَأْمُرُونَ بِقِتَالِهِمْ . وَالتَّتَارُ وَأَشْبَاهُهُمْ أَعْظَمُ خُرُوجًا عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنْ تَرْكِ الرِّبَا . فَمَنْ شَكَّ فِي قِتَالِهِمْ فَهُوَ أَجْهَلُ النَّاسِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَحَيْثُ وَجَبَ قِتَالُهُمْ قُوتِلُوا وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ . كَمَا قَالَ الْعَبَّاسُ لَمَّا أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي خَرَجْت مُكْرَهًا . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَمَّا ظَاهِرُك فَكَانَ عَلَيْنَا وَأَمَّا سَرِيرَتُك فَإِلَى اللَّهِ } . وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ جَيْشَ الْكُفَّارِ إذَا تَتَرَّسُوا بِمَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَخِيفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ إذَا لَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ ؛ وَإِنْ أَفْضَى ذَلِكَ إلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَتَرَّسُوا بِهِمْ . وَإِنْ لَمْ يُخَفْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَفِي جَوَازِ الْقِتَالِ الْمُفْضِي إلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ . وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ إذَا قُتِلُوا كَانُوا شُهَدَاءَ وَلَا يُتْرَكُ الْجِهَادُ الْوَاجِبُ لِأَجْلِ مَنْ يُقْتَلُ شَهِيدًا . فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إذَا قَاتَلُوا الْكُفَّارَ فَمَنْ قُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَكُونُ شَهِيدًا وَمَنْ قُتِلَ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ لَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ كَانَ شَهِيدًا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ

جَيْشٌ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ إذْ خُسِفَ بِهِمْ . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفِيهِمْ الْمُكْرَهُ . فَقَالَ : يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ } فَإِذَا كَانَ الْعَذَابُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِالْجَيْشِ الَّذِي يَغْزُو الْمُسْلِمِينَ يُنْزِلُهُ بِالْمُكْرَهِ وَغَيْرِ الْمُكْرَهِ فَكَيْفَ بِالْعَذَابِ الَّذِي يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِهِ أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا } . وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ الْمُكْرَهَ وَلَا نَقْدِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ . فَإِذَا قَتَلْنَاهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ كُنَّا فِي ذَلِكَ مَأْجُورِينَ وَمَعْذُورِينَ وَكَانُوا هُمْ عَلَى نِيَّاتِهِمْ فَمَنْ كَانَ مُكْرَهًا لَا يَسْتَطِيعُ الِامْتِنَاعَ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ عَلَى نِيَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا قُتِلَ لِأَجْلِ قِيَامِ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَعْظَمَ مِنْ قَتْلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ . وَأَمَّا إذَا هَرَبَ أَحَدُهُمْ فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ قِتَالَهُمْ بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ . وَهَؤُلَاءِ إذَا كَانَ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ . فَهَلْ يَجُوزُ اتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَقَتْلُ أَسِيرِهِمْ وَالْإِجْهَازُ عَلَى جَرِيحِهِمْ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ مَشْهُورَيْنِ . فَقِيلَ : لَا يُفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مُنَادِيَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَادَى يَوْمَ الْجَمَلِ لَا يُتْبَعُ مُدْبِرٌ وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ . وَقِيلَ : بَلْ يُفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ . وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ الْقِتَالِ دَفْعُهُمْ فَلَمَّا انْدَفَعُوا لَمْ يَكُنْ إلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ ؛ بِمَنْزِلَةِ دَفْعِ الصَّائِلِ . وَقَدْ رُوِيَ : أَنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ وصفين كَانَ أَمْرُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ . فَمَنْ جَعَلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ جَعَلَ فِيهِمْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ . وَالصَّوَابُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ أَصْلًا وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ جِنْسِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَأَهْلِ الطَّائِفِ والخرمية وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ قُوتِلُوا عَلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ . وَهَذَا مَوْضِعٌ اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ الْفُقَهَاءِ ؛ فَإِنَّ الْمُصَنِّفِينَ فِي " قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ " جَعَلُوا قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقِتَالَ الْخَوَارِجِ وَقِتَالَ عَلِيٍّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقِتَالَهُ لمعاوية وَأَتْبَاعِهِ : مِنْ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَأْمُورٌ بِهِ وَفَرَّعُوا مَسَائِلَ ذَلِكَ تَفْرِيعَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ وَقَدْ غَلِطُوا ؛ بَلْ الصَّوَابُ مَا عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ؛ كالأوزاعي وَالثَّوْرِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ : أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا . فَقِتَالُ عَلِيٍّ لِلْخَوَارِجِ ثَابِتٌ بِالنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا الْقِتَالُ " يَوْمَ صفين " وَنَحْوِهِ فَلَمْ يَتَّفِقْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ ؛ بَلْ صَدَّ عَنْهُ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ ؛ مِثْلَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ مسلمة وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِمْ . وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي الْعَسْكَرَيْنِ مِثْلَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ . وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ تينك الطَّائِفَتَيْنِ ؛ لَا الِاقْتِتَالُ بَيْنَهُمَا كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ وَالْجَيْشَ مَعَهُ فَقَالَ : { إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ } فَأَصْلَحَ اللَّهُ بِالْحَسَنِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ : فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِصْلَاحَ بِهِ مِنْ فَضَائِلِ الْحَسَنِ مَعَ أَنَّ الْحَسَنَ نَزَلَ عَنْ الْأَمْرِ وَسَلَّمَ الْأَمْرَ إلَى مُعَاوِيَةَ . فَلَوْ

كانَ القِتَالُ هُوَ المَأمُورُ بِهِ دُونَ تركِ الخِلَافَةِ وَمُصَالحَةِ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَمْدَحْهُ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى تركِ مَا أمَرَ بِهِ وَفَعَلَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَا مَدَحَهُ عَلَى تركِ الأوْلَى وَفَعَلَ الأدْنَى . فَعُلِمَ أنّ الذي فَعَلَهُ الحَسَنُ هُوَ الذي كانَ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولهُ ؛ لَا القِتَالَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصّحِيحِ أنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كانَ يَضَعُهُ وَأُسَامَةَ عَلَى فَخِذَيْهِ وَيَقُولُ : { اللهُمّ إنّي أحِبُّهُمَا فَأحِبّهُمَا وَأحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا } وَقَدْ ظَهَرَ أثرُ مَحَبّةِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَهُمَا بِكرَاهَتِهِمَا القِتَالَ فِي الفِتْنَةِ ؛ فَإِنّ أُسَامَةَ امْتَنَعَ عَنْ القِتَالِ مَعَ وَاحِدَةٍ مِنْ الطّائِفَتَيْنِ وَكَذَلِكَ الحَسَنُ كانَ دَائِمًا يُشِيرُ عَلَى عَلِيّ بِأنّهُ لَا يُقَاتِلُ وَلَمّا صَارَ الأمْرُ إلَيْهِ فَعَلَ مَا كانَ يُشِيرُ بِهِ عَلَى أبِيهِ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِينَ . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الصّحِيحِ أنّهُ قَالَ : { تمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينَ فُرْقَةٍ مِنْ المُسْلِمِينَ تقْتُلُهُمْ أوْلَى الطّائِفَتَيْنِ بِالحَقّ } فَهَذِهِ المَارِقَةُ هُمْ الخَوَارِجُ وَقَاتَلهُمْ عَلِيُّ بْنُ أبِي طَالِبٍ . وَهَذَا يَصَدُقُهُ بَقِيّةُ الأحَادِيثِ التِي فِيهَا الأمْرُ بِقِتَالِ الخَوَارِجِ وَتبَيّنَ أنّ قتْلَهُمْ مِمّا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولهُ وَأنّ الذِينَ قَاتَلوهُمْ مَعَ عَلِيّ أوْلَى بِالحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأصْحَابِهِ مَعَ كوْنِهِمْ أوْلَى بِالحَقّ . فَلَمْ يَأمُرْ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالقِتَالِ لِوَاحِدَةٍ مِنْ الطّائِفَتَيْنِ كمَا أمَرَ بِقِتَالِ الخَوَارِجِ ؛ بَلْ مَدَحَ الإصْلَاحَ بَيْنَهُمَا . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ كرَاهَةِ القِتَالِ فِي الفِتَنِ وَالتّحْذِيرِ مِنْهَا . مِنْ الأحَادِيثِ الصّحِيحَةِ مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ كقَوْلِهِ : { سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ القَائِمِ وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ المَاشِي وَالمَاشِي خَيْرٌ مِنْ السّاعِي } وَقَالَ : { يُوشِكُ أنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الفِتَنِ } . فَالفِتَنُ مِثْلُ الحُرُوبِ التِي تكُونُ بَيْنَ مُلُوكِ المُسْلِمِينَ وَطَوَائِفِ المُسْلِمِينَ مَعَ أنّ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطّائِفَتَيْنِ مُلْتزِمَةٌ لِشَرَائِعِ الإسْلَامِ . مِثْلَ مَا كانَ أهْلُ الجَمَلِ وصفين ؛ وَإِنّمَا اقْتَتَلُوا لِشُبَهٍ وَأُمُورٍ عَرَضَتْ . وَأمّا قِتَالُ الخَوَارِجِ وَمَانِعِي الزّكَاةِ وَأهْلِ الطّائِفِ الذِينَ لَمْ يَكُونُوا يُحَرّمُونَ الرّبَا فَهَؤُلَاءِ يُقَاتَلُونَ حَتّى يَدْخُلُوا فِي الشّرَائِعِ الثّابِتَةِ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَهَؤُلَاءِ إذَا كانَ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ فَلَا رَيْبَ أنّهُ يَجُوزُ قتْلُ أسِيرِهِمْ وَاتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَالإِجْهَازُ عَلَى جَرِيحِهِمْ ؛ فَإِنّ هَؤُلَاءِ إذَا كانُوا مُقِيمِينَ بِبِلَادِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ فَإِنّهُ يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أنْ يَقْصِدُوهُمْ فِي بِلَادِهِمْ لِقِتَالِهِمْ حَتّى يَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لِلهِ . فَإِنّ هَؤُلَاءِ التّتَارَ لَا يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِ الإسْلَامِ ؛ بَلْ يُقَاتِلُونَ النّاسَ حَتّى يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِمْ فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ كَفّوا عَنْهُ وَإِنْ كانَ مُشْرِكًا أوْ نصْرَانِيًّا أوْ يَهُودِيًّا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ كانَ عَدُوًّا لَهُمْ وَإِنْ كانَ مِنْ الأنْبِيَاءِ وَالصّالِحِينَ . وَقَدْ أمَرَ اللهُ المُسْلِمِينَ أنْ يُقَاتِلُوا أعْدَاءَهُ الكُفّارَ وَيُوَالُوا عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ . فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ مِنْ جُنْدِ الشّامِ وَمِصْرَ وَاليَمَنِ وَالمَغْرِبِ جَمِيعِهِمْ أنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ عَلَى قِتَالِ الكُفّارِ وَلَيْسَ لِبَعْضِهِمْ أنْ يُقَاتِلَ بَعْضًا بِمُجَرّدِ الرّيَاسَةِ وَالأهْوَاءِ . فَهَؤُلَاءِ التّتَارُ أقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أنْ يُقَاتِلُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ الكُفّارِ وَأنْ يَكُفّوا عَنْ قِتَالِ مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ المُسْلِمِينَ وَيَتَعَاوَنُونَ هُمْ وَهُمْ عَلَى قِتَالِ الكُفّارِ . وَأيْضًا لَا يُقَاتِلُ مَعَهُمْ غَيْرُ مُكرَهٍ إلَّا

فَاسِقٌ أَوْ مُبْتَدِعٌ أَوْ زِنْدِيقٌ كَالْمَلَاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَكَالرَّافِضَةِ السَّبَّابَةِ وكالجهمية الْمُعَطِّلَةِ مِنْ النفاة الْحُلُولِيَّةِ وَمَعَهُمْ مِمَّنْ يُقَلِّدُونَهُ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ التَّتَارَ جُهَّالٌ يُقَلِّدُونَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ بِهِ الظَّنَّ وَهُمْ لِضَلَالِهِمْ وَغَيِّهِمْ يَتْبَعُونَهُ فِي الضَّلَالِ الَّذِي يَكْذِبُونَ بِهِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُبَدِّلُونَ دِينَ اللَّهِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ . وَلَوْ وَصَفْت مَا أَعْلَمُهُ مِنْ أُمُورِهِمْ لَطَالَ الْخِطَابُ . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَذْهَبُهُمْ وَدِينُ الْإِسْلَامِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَوْ أَظْهَرُوا دِينَ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيِّ الَّذِي بَعَثَ رَسُولَهُ بِهِ لَاهْتَدَوْا وَأَطَاعُوا : مِثْلَ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ } وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : { لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ } وَأَوَّلُ الْغَرْبِ مَا يُسَامِتُ الْبِيرَةَ وَنَحْوَهَا ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ فَمَا يَغْرُبُ عَنْهَا فَهُوَ غَرْبٌ كَالشَّامِ وَمِصْرَ . وَمَا شَرَقَ عَنْهَا فَهُوَ شَرْقٌ كَالْجَزِيرَةِ وَالْعِرَاقِ . وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الشَّامِ " أَهْلَ الْمَغْرِبِ " . وَيُسَمُّونَ أَهْلَ الْعِرَاقِ " أَهْلَ الْمَشْرِقِ " . وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي ذَكَرْتهَا فِيهَا مِنْ الْآثَارِ وَالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .[166]

===============

رأي العلامة ابن حزم رحمه الله بالفتنة والمفاضلة بين الصحابة

قال أبو محمد: ثم وجب القول فيمن هو أفضل الصحابة بعد نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلم نجد لمن فضل ابن مسعود أو عمر أو جعفر بن أبي طالب أو أبا سلمة أو الثلاثة إلا سهليين على جميع الصحابة حجة يعتمد عليها ووجدنا من يوقف لم يزد على أنه لم يلح له البرهان أنهم أفضل ولو لا ح له ل قال به ووجدنا العدد والمعارضة في القائلين بأن علياً أفضل أكثر فوجب أن أتى بما شغبوا به ليلوح الحق في ذلك وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وجدناهم يحتجون بأن علياً كان أكثر الصحابة جهاداً وطعناً في الكفار وضرباً والجهاد افضل الأعمال.

قال أبو محمد: هذا خطأ لأن الجهاد ينقسم أقساما ثلاثة أحدها الدعاء إلى الله عز وجل باللسان والثاني الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير والثالث الجهاد باليد في الطعن والضرب فوجدنا الجهاد في اللسان لا يلحق فيه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر أما أبو بكر فإن أكابر الصحابة رضي الله عنهم أسلموا على يديه فهذا أفضل عمل وليس لعلي من هذا كثير حظ وأما عمر فإنه من يوم أسلم عز الإسلام وعبد الله تعالى بمكة جهراً وجاهد المشركين بمكة بيديه فضرب وضرب حتى ملوه فتركوه فعبد الله تعالى علانية وهذا أعظم الجهاد فقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين الذين لا نظير لهما ولا حظ لعلي في هذا أصلا ً وبقي القسم

[166] - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج 6 / ص 427)

الثاني وهو الرأي والمشورة فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر وبقي القسم الثالث وهو الطعن والضرب والمبارزة فوجدناه أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شك عند كل مسلم أنه المخصوص بكل فضيلة فوجدنا جهاده عليه السلام إنما كان في أكثر أعماله وأحواله القسمين الأولين من الدعاء إلى الله عز وجل والتدبير والإرادة وكان أقل عمله صلى الله عليه وسلم الطعن والضرب والمبارزة لا عن جبن بل كان عليه السلام أشجع أهل الأرض قاطبة نفساً ويداً وأتمهم نجدة ولكنه كان يؤثر الأفضل فالأفضل من الأفعال فقدمه عليه السلام ويشتغل به ووجدناه عليه السلام يوم بدر وغيره كان أبو بكر رضي الله عنه معه لا يفارقه إيثاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك واستظهاراً برأيه في الحرب وأنساً بمكانه ثم كان عمر ربما شورك في ذلك أيضاً وقد انفرد بهذا المحل دون علي ودون سائر الصحابة إلا في الندرة ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد الذي هو الطعن والضرب والمبارزة فوجدنا علياً رضي الله عنه لم ينفرد بالنسوق فيه بل قد شاركه في ذلك غيره شركة العنان كطلحة والزبير وسعد وممن قتل في صدر الإسلام كحمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب ومصعب بن عمير ومن الأنصار سعد ابن معاذ وسماك ابن خرسة وغيرهما ووجدنا أبا بكر وعمر قد شاركاه في ذلك بحظ حسن وإن لم يلحقا بحظوظ هؤلاء وإنما ذلك لشغلهما بالأفضل من ملازمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموازرته في حين الحرب وقد بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على البعوث أكثر مما بعث علياً وقد بعث أبا بكر إلى بني فزارة وغيرهم وبعث عمر إلى بني فلان وما نعلم لعلي بعثاً إلا إلى بعض حصون خيبر ففتحه وقد بعث قبله أبا بكر وعمر فلم يفتحاه فحصل أربع أنواع الجهاد لأبي بكر وعمر وقد شاركا علياً في أقل أنواع الجهاد مع جماعة غيرهم.

قال أبو محمد: واحتج أيضاً من قال بأن علياً كان أكثرهم علماً.

قال أبو محمد: كذب هذا القائل وإنما يعرف علم الصحابي لأحد وجهين لا ث الث لهما أحدهما كثرة روايته وفتاويه والثاني كثرة استعمال النبي صلى الله عليه وسلم له فمن المحال الباطل أن يستعمل النبي صلى الله عليه وسلم من لا علم له وهذه أكبر شهادات على الهلم وسعته فنظرنا في ذلك فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم قد ولي أبا بكر الصلاة بحضرته طول علته وجميع أكابر الصحابة حضور كعلي وعمرو ابن مسعود وأبي وغيرهم فآثره بذلك على جميعهم وهذا خلاف استخلافه عليه السلام إذا غزا لأن المستخلف في الفزوة لم يستخلف إلى على النساء وذو الأعذار فقط فوجب ضرورة أن نعلم أن أبا بكر أعلم الناس بالصلاة وشرايعها وأعلم المذكورين بها وهي عمود الدين ووجدناه صلى الله عليه وسلم قد استعمله علىالصدقات فوجب ضرورة أن عنده من علم الصدقات كالذي عند غيره من علماء الصحابة لا أقل وربما كان أكثر إذ قد استعمل عليه السلام أيضاً عليها

غيره وهو عليه السلام لا يستعمل إلا عالماً بما استعمله عليه والزكاة ركن من أركان الدين بعد الصلاة وبرهان ما قلنا من تمام علم أبي بكر رضي الله عنه بـ الصدقات أن الأخبار الواردة في الزكاة أصحها والذي يلزم العلم به ولا يجوز خلافه فهو حديث أبي بكر ثم الذي من طريق عمر وأما من طريق علي فمضطرب وفيه ما قد تركه الفقهاء جملة وهو أن في خمس وعشرين من الإ بل خمس شياه فوجدناه عليه السلام قد استعمل أبا بكر على الحج فصح ضرورة أنه أعلم من جميع الصحابة بالحج وهذه دعايم الإسلام ثم وجدناه عليه السلام قد استعمله على البعوث فصح أن عنده من أحكام الجهاد مثل ما عند سائر من استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على البعوث في الجهاد إذ لا يستعمل عليه السلام على العمل إلا عالماً به فعند أبي بكر من الجهاد من العلم به كالذي عند علي وسائر أمراء البعوث لا أكثر ولا أقل فإذ قد صح التقدم لأبي بكر على علي وغيره في علم الصلاة والزكاة والحج وساواه في علم الجهاد فهذه عمدة العلم ثم وجدناه عليه السلام قد ألزم نفسه في جلوسه ومآمرته وظعنه وإقامته أبا بكر مشاعد أحكامه عليه السالم وفتاويه أكثر من مشاهدة علي لها فصح ضرورة أنه أعلم بها فهل بقيت من العلم بقية إلا وأبو بكر المتقدم فيها الذي لا يلحق أو المشارك الذي لا يسبق فبطلت دعواهم في العلم والحمد لله رب العالمين وأما الرواية و الفتوى فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يعش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سنتين وستة أشهر ولم يفارق المدينة غلا حاجاً أو معتمراً ولم يحتج الناس إلى ما عنده من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأ ن كل من حواليه أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ذلك كله فقد روي عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مائة حديث واثنان وأربعون حدثناً مسندة ولم يرو عن علي إلا خمس مائة وست وثمانون حديثناً مسندة يصح منها نحو خمسين وقد عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أزيد من ثـ لاثين سنة وكثر لقاء الناس إياه وحاجتهم إلى عنده لذهاب جمهور الصحابة رضي الله عنهم وكثر سماع أهل الأفاق منه مرة بصفين وأعواماً بالكوفة ومرة بالبصرة والمدينة فإذا نسبنا مدة أبي بكر من حياته وأضفنا تقري على البلاد بلداً بلداً وكثرة سماع الناس منه إلى لزوم أبي بكر موطنه وأنه لم تكثر حاجة من حواليه إلى الرواية عنه ثم نسبنا عدد حديث من عدد حديث وفتاوي من فتاوي علم كل ذي حظ من العلم إن الذي كان عند أبي بكر من العلم أضعاف ما كان عند علي منه وبرهان ذلك أن من عمر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمراً قليلا ً قل النقل عنهم ومن طال عمره منهم كثر النقل عنهم إلا اليسير من اكتفى بنيابة غيره عنه في تعليم الناس وقد عاش علي بعد عمر بن الخطاب سبعة عشر عاماً غير أشهر ومسند عمر خمسماية حديث وسبعة وثلاثون حديثاً يصح منها نحو خمسين كالذي عن علي سواء بسواء فكلما زاد حديث علي على حديث عمر تسعة وأربعين حديثاً في هذه المدة الطويلة ولم يزد عليه في الصحيح إلا

حديثنا أو حديثين وفتاوي عمر موازنة لفتاوي علي في أبواب الفقه فإذا نسبنا مدة من مدة وضربنا في البلاد من ضرب فيها وأضفنا حديثا إلى حديث وفتاوي إلى فتاوي علم كل ذي حس علما ضروريا أن الذي كان عند عمر من العلم أضعاف ما كان عند علي من العلم ثم وجدنا الأمر كل ما طال كثرت الحاجة إلى الصحابة فيما عندهم من العلم فوجدنا حديث عائشة رضي الله عنها ألفي مسند ومائتي مسند وعشرة مسانيد وحديث أبي هريرة خمسة آلاف مسند وثلثماية مسند وأربع وسبعين مسندا ووجدنا مسند بن عمر وأنس قريبا من مسند عائشة لكل واحد منهما ووجدنا مسند جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس لك واحد منهما أزيد من ألف وخمسماية ووجدنا لابن مسعود ثمان ماية مسند ونيف ولكل من ذكرنا حاشا أبا هريرة وأنس بن مالك من الفتاوي أكثر من فتاوي علي أو نحوها فبطل قول هذه الوقاح الجهال فإن عاندنا معاند في هذا الباب جاهل أو قليل الحيا لاح كذبه وجهله فإنا غير مهتمين على حط أحد من الصحابة رضي الله عنهم عن مرتبته ولا على رفعه فوق مرتبته لأننا لو انحرفنا عن علي رضي الله عنه ونعوذ بالله من ذلك لذهبنا فيه مذهب الخوارج وقد نزهنا الله عز وجل عن هذا الضلال في التعصب ولو غلونا فيه لذهبنا فيه مذهب الشيعة وقد أعاذنا الله تعالى من هذا الأفك في التعصب فصار غيرنا من المنحرفين عنه أو الغالين فيهم هم المتهمون فيه إما له وإما عليه وبعد هذا كله وليس يقدر من ينتمي إلى الإسلام أن يعاند في الاستدلال على كثرة العلم باستعمال النبي صلى الله عليه وسلم وبمن استعمله منهم على ما استعمله عليه من أمور الدين فإن قال وا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل عليا على الأخماس وعلى القضا باليمن قلنا لهم نعم ولكن مشاهدة أبي بكر لا قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى في العلم وأثبت مما عند علي وهو باليمن وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على بعوث فيها الأخماس فقد ساوى علمه علم علي في حكمها بلا شك إذ لا يستعمل عليه السلام إلا عالما بما يستعمله عليه وقد صح أن أبا بكر وعمر كانا يفتيان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام يعلم ذلك ومحال ذلك أن يبيح لهما ذلك إلا وهما أعلم ممن دونهما وقد استعمل عليه السلام أيضا على القضاء باليمن مع علي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري فلعلي في هذا شركاء كثير منهم أبو بكر وعمر ثم انفرد أبو بكر بالجهور الأ غلب من العلم على ما ذكرنا. و قال هذا القائل أن علينا كان إقرا الصحابة.ل ما طال كثرت الحاجة إلى الصحابة فيما عندهم من العلم فوجدنا حديث عائشة رضي الله عنها ألفي مسند ومائتي مسند وعشرة مسانيد وحديث أبي هريرة خمسة آلاف مسند وثلثماية مسند وأربع وسبعين مسندا ووجدنا مسند بن عمر وأنس قريبا من مسند عائشة لكل واحد منهما ووجدنا مسند جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس لك واحد منهما أزيد من ألف وخمسماية ووجدنا لابن مسعود ثمان ماية مسند ونيف ولكل من ذكرنا

حاشا أبا هريرة وأنس بن مالك من الفتاوي أكثر من فتاوي علي أو نحوها فبطل قول هذه الوقاح الجهال فإن عاندنا معاند في هذا الباب جاهل أو قليل الحيا لاح كذبه وجهله فإنا غير مهتمين على حط أحد من الصحابة رضي الله عنهم عن مرتبته ولا على رفعه فوق مرتبته لأننا لو انحرفنا عن علي رضي الله عنه ونعوذ بالله من ذلك لذهبنا فيه مذهب الخوارج وقد نزهنا الله عز وجل عن هذا الضلال في التعصب ولو غلونا فيه لذهبنا فيه مذهب الشيعة وقد أعاذنا الله تعالى من هذا الأفك في التعصب فصار غيرنا من المنحرفين عنه أو الغالين فيهم هم المتهمون فيه إما له وإما عليه وبعد هذا كله وليس يقدر من ينتمي إلى الإسلام أن يعاند في الاستدلال على كثرة العلم باستعمال النبي صلى الله عليه وسلم وبمن استعمله منهم على ما استعمله عليه من أمور الدين فإن قال وا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل علياً على الأخماس وعلى القضا باليمن قلنا لهم نعم ولكن مشاهدة أبي بكر لا قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى في العلم وأثبت مما عند علي وهو باليمن وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على بعوث فيها الأخماس فقد ساوى علمه علم علي في حكمها بلا شك إذ لا يستعمل عليه السلام إلا عالماً بما يستعمله عليه وقد صح أن أبا بكر وعمر كانا يفتيان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام يعلم ذلك ومحال ذلك أن يبيح لهما ذلك إلا وهما أعلم ممن دونهما وقد استعمل عليه السلام أيضاً على القضاء باليمن مع علي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري فلعلي في هذا شركاء كثير منهم أبو بكر وعمر ثم انفرد أبو بكر بالجهور الأغلب من العلم على ما ذكرنا. و قال هذا القائل أن علينا كان إقرا الصحابة.

قال أبو محمد: وهذه القحة المتجردة والبهتان لوجوه أولها أنه رد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه عليه السلام قال يوم القوم اقرؤهم فإن استووا فافقهم فإن استووا فأقدمهم هجرة ثم وجدناه عليه السلام قد قدم أبا بكر على الصلاة مدة الأيام التي مرض فياه وعلي بالحضرة يراه النبي صلى الله عليه وسلم غدوة وعشية فما رأى لها عليه السلام أحداً أحق من أبي بكر بها فصح أنه كان اقرؤهم وأفقهم وأقدمهم هجرة وقد يكون من لم يجمع حفظ القرآن كله على ظهر قلب اقرأ ممن جمعه كله عن ظهر قلب فيكون ألفظ به وأحسنهم ترتيلا ً هذا على أن أبا بكر وعمر وعلي لم يستكمل أحد منهم حفظ سوار القرآن كله ظاهراً إلا أنه قد وجب يقيناً بتقديم النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر على الصلة وعلي حاضر إن أبا بكر أقرأ من علي وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقدم إلى الإمامة الأ قل علماً بالقراة على الأقرأ أو الأقل فقهاً على الأفقه فبطل أيضاً شغبهم في هذا الباب والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: كذب هذا الأفك ولقد كان علي رضي الله عنه تقياً إلى أن الفاضل بتفاضل فيها أهلها وما كان أتقاهم لله إلا أبا بكر والبرهان على ذلك

أنه لم يسوء قط أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلمة ولا خالف إرادته عليه السلام في شيء قط ولا تأخر عن تصديقه ولا تردد عن الائتمار له يوم الحديبية إذ تردد من تردد وقد تظلم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر إذ أراد علي نكاح ابنة أبي جهل بما قد عرف وما وجدنا قط لأبي بكر توقفاً عن شيء أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة واحدة عذره فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاز له فعله وهي إذ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبا فوجده يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر تأخر فأشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن أقم مكانك فحمد الله تعالى أبو بكر على ذلك ثم تأخر فصار في الصف وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس فلما سلم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منعك أن تثبت حين أمرتك ف قال أبو بكر ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو محمد: فهذا غاية التعظيم والطاعة والخضوع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنكر عليه السلام ذلك عليه وإذ قد صح بالبرهان الضروري الذي ذكرنا أن أبا بكر أعلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وجب أنه أخشاهم لله عز وجل قال الله عز وجل " إنما يخشى الله من عباده العلماء " والتقي هو الخشية لله عز وجل و قال قائلون علي كان أزهدهم.

قال أبو محمد: كذب هذا الجاهل وبرهان ذلك أن الزهد إنما هو غروب النفس عن حب الصوت وعن المال وعن اللذات وعن الميل إلى الولد و الحاشية ليس الزهد معنى يقع عليه اسم الزهد إلا هذا المعنى فأما غروب النفس عن المال فقد علم كل من له أدنى بصر بشيء من الأخبار الخالية أن أبا بكر أسلم وله مال عظيم قيل أربعين ألف درهم فأنفقها كلها في ذات الله تعالى وعتق المستضعفين من العبيد المؤمنين المعذبين في ذات الله عز وجل ولم يعتق عبيداً جلداً يمنعونه لكن كل معذب ومعذبة في الله عز وجل حتى هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق لأبي بكر من جميع ماله إلا ستة ألف درهم حملها كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق لبنيه منها درهم ثم أنفقها كلها في سبيل الله عز وجل حتى لم يبق له شيء في عباءة له قد خللها بعود إذا نزل افترشها وإذا ركب لبسها إذ تمول غيره من الصحابة رضي الله عن جميعهم واقتنوا الرباع الواسعة والضياع العظيمة من حلها وحقها إلا أن من آثر بذلك سبيل الله عز وجل أزهد ممن أنفق وأمسك ثم ولي الخلافة فما اتخذ جارية ولا توسع في مال وعد عند موته ما أنفق على نفسه وولده من مال الله عز وجل الذي لم يستوف منه إ لا بعض حقه وأمر بصرفه إلى بيت المال من صلب ماله الذي حصل له من شهامة في المغازي والمقاسم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو الزهد في اللذات والمال الذي لا يدانيه فيه أحد من الصحابة لا علي ولا غيره إلا أن يكون أبا ذر وأبا عبيدة من المهاجرين الأولين فإنهما جريا على

هذه الطريقة التي فارقا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوسع من سواهم من الصحابة رضي الله عنهم في المباح الذي أحله الله عز وجل لهم إلا أن من أثر على نفسه فضل ولولا أن أبا ذر لم يكن له سابقة غيره لما تقدمه إلا من كان مثله فهذا هو الزهد في المال واللذات ولقد تلا أبو بكر عمر رضي الله عنهما في هذا الزهد فكان فوق علي في ذلك يعني في إعراضه عن المال واللذات وأما علي رضي الله عنه فتوسع في هذا الباب من حله ومات عن أربع زوجات وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد وتوفي عن أربعة وعشرين ولداً من ذكر وأنثى وترك لهم من العقار والضياع ما كانوا به من أغنياء قومهم وماسيرهم هذا أمر مشهور لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار ومن جملة عقاره التي تصدق بها كانت تغل ألف وسق تمراً سوى زرعها فأين هذا من هذا وأما حب الولد والميل إليهم وإلى الحاشية فالأمر في هذا أبين من أن يخفى على أحد له أقل علم بالأ خبار فقد كان لأبي بكر رضي الله عنه من القرابة والولد مثل طلحة بن عبيد الله من المهاجرين الأولين والسابقين من ذوي الفضائل العظيمة في كل باب من أبواب الفضل في الإسلام ومثل ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وله مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبة قديمة وهجرة سابقة وفضل ظاهر فما استعمل أبو بكر رضي الله عنه منهم أحداً على شيء من الجهات وهي بلاد اليمن كلها على سعتها وكثرة استعمالها وعمان وحضرموت والبحرين و اليمامة والطايف ومكة وخيبر وسائر أعمال الحجاز ولو استعملهم لكانوا لذلك أهلا ً ولكن خشي المحاباة ويوقع أن يميله إليهم شيء من الهوى ثم جرى عمر على مجراه في ذلك فلم يستعمل من بني عدي بن كعب أحداً على سعة البلاد وكثرتها وقد فتح الشام ومصر وجميع مملكة الفرس إلى خراسان إلا النعمان بن عدي وحده على ميسان ثم أسرع عزله وفيهم من الهجرة ما ليس في شيء من اتخاذ قريش لأن بني عدي لم يبق منهم أحد بمكة إلا هاجر وكان فيهم مثل سعيد بن زيد أحد المهاجرين الأولين ذوي السوابق وأبي الجهم ابن حذيفة وخارجة بن حذافة ومعمر بن عبد الله وابنه عبد الله بن عمر ثم لم يستخلف أبو بكر ابنه عبد الرحمن وهو صاحب من الصحابة ولا استعمل عمر ابنه عبد الملك على الخلافة وهو من فضلاء الصحابة وخيارهم وقد رضي له الناس وكان لذلك أهلا ً ولو استخلفه لما اختلف عليه أحد فما فعل ووجدنا علياً رضي الله عنه إذ ولي قد استعمل أقاربه عبد الملك بن عباس على البصرة وعبيد الله بن عباس على اليمن وخثعم ومعبدا ابني العباس على مكة والمدينة وجعدة بن نميرة وهو ابن أخته أم هاني بنت أبي طالب على خراسان ومحمد بن أبي بكر وهو ابن امرأته وأخو ولده على مصر ورضي ببيعة الناس للحسن ابنه بالخلافة ولسنا ننكر استحقاق الحسن للخلافة ولا استحقاق عبد الله بن العباس للخلافة فكيف أمارة البصرة لكنا نقول أن من زهد في الخلافة لولد مثل عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والناس متفقون عليه وفي تأمير مثل طلحة

بن عبد الله وسعيد بن زيد فلا شك في أنه أتم زهد أو أعرب عن جميع معاني الدنيا نفساً ممن أخذه منها أبيح له أخذه فصح بالبرهان الضروري أن أبا بكر أزهد من جميع الصحابة ثم عمر بن الخطاب بعده و قال هذا القائل وكان علي أكثرهم صدقة.ر استحقاق الحسن للخلافة ولا استحقاق عبد الله بن العباس للخلافة فكيف أمارة البصرة لكنا نقول أن من زهد في الخلافة لولد مثل عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والناس متفقون عليه وفي تأمير مثل طلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد فلا شك في أنه أتم زهد أو أعرب عن جميع معاني الدنيا نفساً ممن أخذه منها أبيح له أخذه فصح بِ البرهان الضروري أن أبا بكر أزهد من جميع الصحابة ثم عمر بن الخطاب بعده و قال هذا القائل وكان علي أكثرهم صدقة.

قال أبو محمد: وهذه مجاهرة بالباطل لأنه لم يحفظ لعلي مشاركة ظاهرة بِ المال وأما أمر أبي بكر رضي الله عنه في إنفاق ماله في سبيل الله عز وجل فأشهر من أن تخفى على اليهود والنصارى فكيف على المسلمين ثم لعثمان بن عفان رضي الله عنه في هذا المعنى من تجهيز جيش العسرة ما ليس لغيره فصح أن أبا بكر أعظم صدقة وأكثر مشاركة وغنا في الإسلام بماله من علي رضي الله عنه و قال وا علي هو السابق إلى الإسلام ولم يعبد قط وثنا.

قال أبو محمد: أما السابقة فلم يقل قط أحد يعتد به أن علياًمات وله أكثر من ثلاث وستين سنة ومات بلا شك سنة أربعين من الهجرة فصح أنه كان حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ابن ثلاث وعشرين سنة وكانت مدة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في النبوة ثلاث عشرة سنة فبعث عليه السلام ولعلي عشرة أعوام فإسلام ابن عشرة أعوام ودعاؤه إليه إنما هو كتدريب المرء ولده الصغير على الدين لا أن عنده غناء ولا أن عليه إثماً إن أبى فإن أخذ الأمر على قول من قال أن علياً مات وله ثمان وخمسون سنة فإنه كان إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن خمسة أعوام وكان إسلام ابي بكر ابن ثمان وثلاثين سنة وهو الإسلام المأمور به من عند الله عز وجل وأما من لم يبلغ الحلم فغير مكلف ولا مخاطب فسابقة أبي بكر وعمر بلا شك أسبق من سابقة علي. وأما عمر فإنه كان إسلامه تأخر بعد البعث بستة أعوام فإن عناءه كان أكثر من عناء أكثر من أسلم قبله ولم يبلغ على حد التكليف إلا بعد أعوام من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أن أسلم كثير من الصحابة رجال ونساء بعد أن عذبوا في الله تعالى ولقوا فيه الألاقي وأما كونه لم يعبد وثناً فنحن وكل مولود في الإسلام لم يعبد قط وثناً وعمار والمقداد وسلمان وأبو ذر وحمزة وجعفر رضي الله عنهم قد عبدوا الأوثان أفترانا أفضل منهم من أجل ذلك معاذ الله من هذا فإنه لا يقوله مسلم فبطل أن يكون هذا يوجب لعلي فضلا ً زائداً وإلا لكانت عائشة سابقة لعلي رضي الله عنهما في هذا الفضل لأنها كانت إذ هاجر النبي صلى الله عليه وسلم بنت ثماني سنين وأشهر ولم تولد إلا بعد إسلام أبيها بسنين وعلي ولد وأبوه عابد وثن قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنين

وعبد الله بن عمر أيضاً أسلم أبوه وله أربع سنين لم يعبد قط وثناً فهو شريك لعلي في هذه الفضيلة. و قال بعضهم علي كان أسوسهم.
قال أبو محمد: وهذا باطل لا خفاء به على مؤمن ولا كافر فقد دري القريب والبعيد والعالم والجاهل والمؤمن والكافر من سائر الإسلام إذ كفر من كفر من أهل الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وأذعن الجميع للبقية وقبول ما ادعت إليه العرب حاشا أبا بكر فهل ثبت أحد ثبات أبي بكر على كلب العدو وشدة الخوف حتى دخلوا في الإسلام أفواجاً كما خرجوا منه أفواجاً وأعطوا الزكاة طائعين وكارهين ولم تهله جموعهم ولا تضافرهم ولا قلة أهل الإسلام حتى أنار الله الإسلام وأظهره ثم هل ناطح كسرى وقيصر على أسرة ملكها حتى أخضع حدود فارس والروم وصرع حدودهم ونكس راياتهم وظهر الإسلام في أقطار الأرض وذل الكفر وأهله وشبع جائع المسلمين وعز ذليلهم واستغنى فقيرهم وصاروا إخوة لا اختلاف بينهم وقرؤوا القرآن وتفقهوا في الدين إلا أبو بكر ثم ثنى عمر ثم ثلث عثمان ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله وافتراق كلمة المؤمنين وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف وشكت بعضهم قلوب بعض بالرماح وقتل بعضهم من بعض عشرات الألوف وشغلهم بذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية أو يذعر لهم سرب أو يجاهد منهم أحد حتى ارتجع أهل الكفر كثيراً مما صار بأيدي المسلمين من بلادهم فلم يجتمع المسلمون إلى يوم القيامة فأين سياسة من سياسة.
قال أبو محمد: فإذ قد بطل كلما ادعاه هؤلاء الجهال ولم يحصلوا إلا على دعاوي ظاهرة الكذب لا دليل على صحة شيء منها وصح بالبرهان كما أوردنا أن أبا بكر هو الذي فاز بالقدح المعلى والسبق المبرز والحظ الأسنى في العلم والقرآن والجهاد والزهد والتقوى والخشية والصدقة والعتق و المشاركة والطاعة والسياسة فهذه وجوه الفضل كلها فهو بلا شك أفضل من جميع الصحابة كلهم بعد نساء النبي صلى الله عليه وسلم.
قال أبو محمد: ولم يحتج عليهم بالأحاديث لأنهم لا يصدقون أحاديثنا ولا نصدق أحاديثهم وإنما اقتصرنا على البراهين الضرورية بنقل الكواف فإن كانت الإمامة تستحق بالتقدم في الفضل فأبو بكر أحق الناس بها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يقيناً فكيف والنص على خلافته صحيح وإذ قد صحت إمامة أبي بكر رضي الله عنه فطاعته فرض في استخلافه عمر رضي الله عنه فوجبت إمامة عمر فرضاً بما ذكرنا وبإجماع أهل الإسلام عليهما دون خلاف من أحد قطعاً ثم أجمعت الأمة كلها أيضاً بلا خلاف من أحد منهم على صحة إمامة عثمان والدينونة بها وأما خلافة علي فحق لا بنص ولا بإجماع لكن ببرهان سنذكره إن شاء الله في الكلام في حروبه.
قال أبو محمد: ومن فضائل أبي بكر المشهورة قوله عز وجل " إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا " فهذه فضيلة منقولة بنقل الكافة لا خلاف بين أحد في أنه أبو بكر

فأوجب الله تعالى له فضيلة المشاركة في إخراجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه خصه باسم الصحبة له وبأنه ثانيه في الغار وأعظم من ذلك كله أن الله معهما وهذا ما لا يلحقه فيه أحد.
قال أبو محمد: فاعترض في هذا بعض أهل القحة ف قال قد قال الله عز وجل " إذ قال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا ً " قال وقد حزن أبو بكر فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلو كان حزنه رضا لله عز وجل لما نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال أبو محمد: وهذه مجاهره بالباطل أما قوله تعالى في الآية لصاحبه وهو يحاوره قد أخبر الله تعالى بأن أحدهما مؤمن والآخر كافر وبأنهما مختلفان فإنما سماه صاحبه في المجاورة والمجالسة فقط كما قال تعالى وإلى مدين أخاهم شعيباً فلم يجعله أخاهم في الدين لكن في الدار والنسب فليس هكذا قوله تعالى إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا بل جعله صاحبه في الدين والهجرة وفي الإخراج وفي الغار وفي نصرة الله تعالى لهما وإخافة الكفار لهما وفي كونه تعالى معهما فهذه الصحبة غاية الفضل وتلك الأخرى غاية النقص بنص القرآن. وأما حزن أبي بكر رضي الله عنه فإنه قبل أن ينهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غاية الرضا لله لأنه كان إشفاقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كان الله معه وهو تعالى لا يكون مع العصاة بل عليهم وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن ولو كان لهؤلاء الأرذال حياء أو علم لم يأتوا بمثل هذا إذ لو كان حزن أبي بكر عيباً عليه لكان ذلك على محمد وموسى رسول الله صلى الله عليه وسلم عيباً لأن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام " سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون " ثم قال تعالى عن السحرة أنهم قال وا لموسى " إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخلف أنك أنت الأعلى " فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكليمه قد كان أخبره الله عز وجل بأن فرعون وملأه لا يصلون إليه وأن موسى ومن اتبعه هو الغالب ثم أوجس في نفسه خيفة بعد ذلك إذ رأى أمر السحرة حتى أوحى الله عز وجل إليه لا تخف فهذا أمر أشد من أمر أبي بكر وإذا لزم ما يقول هؤلاء الفساق أبا بكر وحاشا لله أن يلزمه من أن حزنه لو كان رضا لما نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لزم أشد منه لموسى عليه السلام وأن إيجاسه الخيفة في نفسه لو كان رضا لله تعالى ما نهاه الله تعالى عنه ومعاذ الله من هذا بل إيجاس موسى الخيفة في نفسه لم يكن إلا نسيان الوعد المتقدم وحزن أبي بكر رضي الله عنه رضاً لله تعالى قبل أن ينهى عنه ولم يكن تقدم إليه نهي عن الحزن وأما محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قال " ومن كفر فلا يحزنك كفره " و قال تعالى " ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق " و قال تعالى " ولا يحزنك قولهم أن العزة لله جميعاً " و قال

تعالى " ولا تذهب نفسك عليهم حسرات " و قال تعالى " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً " ووجدناه عز وجل قد قال " ولقد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون " و قال ه أيضاً في الأنعام فهذا الله تعالى أخبرنا أنه يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنه الذي يقولون ونهاه عز وجل عن ذلك نصاً فيلزمهم في حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نهاه الله تعالى عنه كالذي أرادوا في حزن أبي بكر سواء سواء ونعم إن حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كانوا يقولون من الكفر كان طاعة لله تعالى قبل أن ينهاه الله عز وجل وما حزن عليه السلام بعد أن نهاه ربه تعالى عن الحزن كما كان حزن أبي بكر طاعة لله عز وجل قبل أن ينهاه الله عز وجل عن الحزن وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه عليه السلام عن الحزن فكيف وقد يمكن أن يكون أبو بكر لم يحزن يمئذ لكن نهاه عليه السلام عن أن يكون منه حزن كما قال تعالى لنبيه عليه السلام " ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً " فنهاه عن أن يطيعهم ولم تكن منه طاعة لهم وهذا إنما يعترض به أهل الجهل والسخافة ونعوذ بالله من الضلال.
قال أبو محمد: واعترض علينا بعض الجهال ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب خلف أبي بكر رضي الله عنهما في الحجة التي حجها أبو بكر وأخذ برآءة من أبي بكر وتولى علي تبليغها إلى أهل الموسم وقرائتها عليهم.
قال أبو محمد: وهذا من أعظم فضائل أبي بكر لأنه كان أميراً على علي بن أبي طالب وغيره من أهل الموسم لا يدفعون إلا بدفعه ولا يقفون إلا بوقوفه ولا يصلون إلا بصلاته وينصتون إذا خطب وعلي في الجملة كذلك وسورة برآءة وقع فيها فضل أبي بكر رضي الله عنه وذكره في أمر الغار وخروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم وكون الله تعالى معهما فقراءة علي لها أبلغ في إعلان فضل أبي بكر على علي وعلى سواه وحجة لأبي بكر قاطعة وب الله تعالى التوفيق.
قال أبو محمد: إلا أن تراجع الروافض إلى إنكار القرآن والنقص منه والزيادة فيه فهذا أمر يظهر فيه قحتهم وجهلهم وسخفهم إلى كل عالم وجاهل فإنه لا يمتري كافر ولا مؤمن في أن هذا الذي بين اللوحين من الكتاب هو الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرنا بأنه أوحاه الله تعالى إليه فمن تعرض هذا فقد أقر بعين عدوه.
قال أبو محمد: وما يعترض إمامة أبي بكر إلا زار علي رسول الله صلى الله عليه وسلم راد لأمره في تقديمه أبا بكر إلى الصلاة بأهل الإسلام مريد لإز الته عن مقام أقامه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال أبو محمد: ولسنا من كذبهم في تأويلهم " ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً " وإن المراد بذلك علي رضي الله عنه بل هذا لا يصح بل الآية على عمومها وظاهرها لكل من فعل ذلك.
قال أبو محمد: فصح بما ذكرنا فضل أبي بكر على جميع الصحابة رضي الله

عنهم بعد نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالبراهين المذكورة وأما الأ حاديث في ذلك فكثيرة كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبي بكر دعوا لي صاحبي فإن الناس قال وا كذبت و قال أبو بكر صدقت وقوله صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً خليلا ً لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخي وصاحبي وهذا الذي لا يصح غيره وأما أخوة علي فلا تصح إلا مع سهل بن حنيف ومنها أمره صلى الله عليه وسلم بسد كل باب وخوخة في المسجد حاشا خوخة أبي بكر وهذا هو الذي لا يصح غيره ومنها غضبه صلى الله عليه وسلم على من خارج أبا بكر وعلى من أشار عليه بغير أبي بكر للصلاة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم إن أمن الناس علي في ماله أبو بكر وعمدتنا في تفضيل أبي بكر ثم عمر على جميع الصحابة بعد نساء النبي صلى الله عليه وسلم هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سئل من أحب الناس إليك يا رسول الله قال عائشة قيل فمن الرجال قال أبوها قيل ثم من يا رسول الله قال عمر.
قال أبو محمد: فقطعنا بهذا ثم وقفنا ولو زادنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لزدنا لكنا لا نقول في شيء من الدين إلا بما جاء به النص.
قال أبو محمد: واختلف الناس فيمن أفضل أعثمان أم علي رضي الله عنهما.
قال أبو محمد: والذي يقع في نفوسنا دون أن نقطع به ولا نخطئ من خالفنا في ذلك فهو أن عثمان أفضل من علي والله أعلم لأن فضائلهما تتقاوم في ا لأكثر فكان عثمان اقرء وكان أكثر فتيا ورواية ولعلي أيضاً حظ قوي في القراءة ولعثمان أيضاً حظ قوي في الفتيا والرواية ولعلي مقامات عظيمة في الجهاد بنفسه ولعثمان مثل ذلك بماله ثم انفرد عثمان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ليساره المقدسة عن يمين عثمان في بيعة الرضوان وله هجرتان وسابقة قديمة وصهر مكرم محمود ولم يحضر بدراً فألحقه الله عز وجل فيهم بأجره التام وسهمه فألحقه بمن حضرها فهو معدود فيهم ثم كانت له فتوحات في الإسلام عظيمة لم تكن لعلي وسيرة في الإسلام هادية ولم يتسبب بسفك دم مسلم وجاءت فيه آثار صحاح وأن الملائكة تستحي منه وأنه ومن أتبعه على الحق والذي صح من فضائل علي فهو قول النبي صلى الله عليه وسلم أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وقوله عليه السلام لأعطين الراية غداً رجلا ً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وهذه صفة واجبة لكل مؤمن وفاضل وعهده عليه السلام أن علياً لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق وقد صح مثل هذه في الأنصار رضي الله عنهم أنه لا يبغضهم من يؤمن بالله واليوم الآ خر وأما من كنت مولاه فعلي مولاه فلا يصح من طريق الثقات أصلا ً وأما سائر الأحاديث التي تتعلق بها الرافضة فموضوعة يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلتها.
قال أبو محمد: ونقول تفضل المهاجرين الأولين بعد عمر بن الخطاب قطعاً إ لا أننا لا نقطع بفضل أحد منهم على صاحبه كعثمان بن عفان وعثمان بن

مظعون وعلي وجعفر وحمزة وطلحة والزبير ومصعب بن عمير وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وسعد وزيد بن حارثة وأبي عبيدة وبلال وسعيد بن زيد وعمار بن ياسر وأبي سلمة وعبد الله بن جحش وغيرهم من نظرائهم ثم بعد هؤلاء أهل العقبة ثم أهل بدر ثم أهل المشاهد كلها مشهداً مشهداً فأهل كل مشهد أفضل من أهل المشهد الذي بعده حتى بلغ الأمر إلى الحديبية فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم إلى تمام بيعة الرضوان فإننا نقطع على غيب قلوبهم وأنهم كلهم مؤمنون صالحون ماتوا على الإيمان والهدى والبر وكلهم من أهل الجنة لا يلج أحد منهم النار البتة لقول الله تعالى " والسابقون أولئك المقربون في جنات النعيم " وكقوله عز وجل " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم " قال أبو محمد: فمن أخبرنا أن الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم رضي الله عنهم وأنزل السكينة عليهم فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم ولا الشك فيهم البتة ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر ولإخباره عليه السلام أنه لا يدخل النار أحد شهد بدراً ثم نقطع على أن كل من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنية صادقة ولو ساعة فإنه من أهل الجنة لا يدخل النار لتعذيب إلا أنهم لا يلحقون بمن أسلم قبل الفتح وذلك لقول الله عز وجل " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " و قال تعالى " وعد الله لا يخلف الله وعده " و قال تعالى " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون " فصح بالضرورة أن كل من أنفق قبل الفتح وقاتل فهو مقطوع على غيبه لتفضيل الله تعالى إياهم والله تعالى لا يفضل إلا مؤمناً فاضلاً وأما من أنفق بعد الفتح وقاتل فقد كان فيهم منافقون لم يعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نحن قال الله تعالى " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم " .

قال أبو محمد: فلهذا لم نقطع على كل امرئ منهم بعينه لكن نقول كل من لم يكن منهم من المنافقين فهو من أهل الجنة يقيناً لأنه قد وعدهم تعالى الحسنى كلهم وأخبر أنه لا يخلف وعده وإن من سبقت له الحسنى فهو مبعد من النار لا يسمع حسيسها ولا يحزنه الفزع الأكبر وهو فيما اشتهى خالد وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: لقد خاب وخسر من رد قول ربه عز وجل أنه رضي عن المبايعين تحت الشجرة وعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وقد علم كل أحد له أدنى علم أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعمار و

المغيرة بن شعبة رضي الله عنهم من أهل هذه الصفة والخوارج والروافض قد انتظمت الطائفتان الملعونتان البرئة منهم خلافاً لله عز وجل وعناداً له ونعوذ ب الله من الخذلان.
قال أبو محمد: فهذا قولنا في الصحابة رضي الله عنهم فأما التابعون ومن بعدهم فلا نقطع على غيبهم واحداً واحداً إلا من بان منه احتمال المشقة في الصبر للدين ورفض الدنيا لغير غرض استعجله إلا أننا لا ندري على ما ذا مات وإن بلغنا الغاية في تعظيمهم وتوقيرهم والدعاء بالمغفرة والرحمة و الرضوان لهم لكن نتولاهم جملة قطعاً ونتولى كل إنسان منهم بظاهره ولا نقطع على أحد منهم بجنة ولا نار لكن نرجو لهم ونخاف عليهم إذ لا نص في إنسان منهم بعينه ولا يحل الإخبار عن الله عز وجل إلا بنص من عنده لكن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيركم القرن الذي بعثت فيهم ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم ومعنى هذا الحديث إنما هو كل قرن من هذه القرون التي ذكر عليه السلام أكثر فضلا ً بالجملة من القرن الذي بعده لا يجوز غير هذا البتة وبرهان ذلك أنه قد كان في عصر التابعين من هوا أفسق الفاسقين كمسلم بن عقبة المري وحبيش بن دلحة القيني و الحجاج بن يوسف الثقفي وقتلة عثمان وقتلة ابن الزبير وقتلة الحسين رضي الله عنهم ولعن قتلتهم ومن بعثهم فمن خالفنا قولنا في هذا الخبر لزمه أن يقول أن هؤلاء الفساق الأخابث أفضل من كل فاضل في القرن الثالث ومن بعده كسفيان الثوري والفضيل بن عياض ومسعر بن كدام وشعبة ومنصور بن المعتمر ومالك والأوزاعي والليث وسفيان بن عيينة ووكيع وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه وداود بن علي رضي الله عنهم وهذا ما لا يقوله أحد وما يبعد أن يكون في زماننا وفيمن يأتي بعدنا من هو أفضل رجل من التابعين عند الله عز وجل إذ لم يأت في المنع من ذلك نص ولا دليل أصلا ً والحديث المأثور في أويس القرني لا يصح لأن مداره على اسيد بن جابر وليس بالقوى وقد ذكر شعبة أنه سأل عمرو بن مرة وهو كوفي قرني مرادي من أشرف مراد وأعلمهم بهم عن اويس القرني فلم يعرفه في قومه وأما الصحابة رضي الله عنهم فبخلا ف هذا ولا سبيل إلى أن يلحق أقلهم درجة أحد من أهل الأرض وب الله تعالى التوفيق.
قال أبو محمد: وذهب بعض الروافض إلى أن لذوي قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا ً بالقرابة فقط واحتج بقول الله تعالى " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض " وبقوله عز وجل " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " وبقوله تعالى " وأبعث فيهم رسولا ً منهم " .
قال أبو محمد: وهذا كله لا حجة فيه أما إخباره تعالى بأنه اصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين فإنه لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما إما أن يعني كل مؤمن فقد قال ذلك بعض العلماء أو يعني مؤمني أهل بيت

إبراهيم وعمران لا يجوز غير هذا لأن آزر ولد إبراهيم عليه السلام كان كافراً هدواً لله لم يصطفه الله تعالى إلا لدخول النار فإن أراد الوجه الذي ذكرنا لم نمانعه ولا ننازعه في أن موسى وهارون من آل عمران وآل إسماعيل وإسحاق ويوسف ويعقوب من آل إبراهيم مصطفون على العالمين فأي حجة هاهنا لبني هاشم فإن ذكروا الدعاء المأمور به وهو اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد فالقول في هذا كما قلنا ولا فرق وهذا دعاء لكل مؤمن وقد قال تعالى " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم " و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أو في هذا الدعاء لهم بالصلاة على كل مؤمن ومؤمنة بلا خلاف وكذلك الدعاء في التشهد المفترض في كل صلاة من قول المصطفى السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهذا السلام على كل مؤمن ومؤمنة فاستوى بنوا هاشم وغيرهم في اطلاق الدعاء بالصلاة عليهم وبالسلام عليهم ولا فرق و قال تعالى " وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قال وا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أولئك هم المهتدون " فوجبت صلوات الله تعالى على كل مؤمن صابر فاستوى في هذا كله بنوا هاشم وقريش والعرب والعجم من كان جميعهم بهذه الصفة وأيضاً فيلزم من احتج بقوله تعالى " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين " أن يقول إن من أسلم من الهارونيين من اليهود أفضل من بني هاشم وأشرف وأولى بالتقديم لأنه من آل عمران ومن آل إبراهيم وفيهم ورد النص.

قال أبو محمد: فصح يقيناً أن الله عز جل إنما أراد بذلك الأنبياء عليهم السلام فقط وبين هذا بياناً جلياً قول الله عز وجل حاكياً عن إبراهيم عليه السلام أنه قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين من ذرية إبراهيم عليه السلام الظالمين من ذرية غيره و قال عز وجل إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا فخص الله تعالى بولاية إبراهيم عليه السلام من اتبع إبراهيم كائناً من كان فدخل في هذا كل مؤمن ومؤمنة ولا فضل وأما قول الله عز وجل " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " فهذا حق على ظاهره وإنما أراد عليه السلام من قريش أن يودوه لقرابته منهم ولا يختلف أحد من الأمة في أنه عليه السلام لم يرد قط من المسلمين أن يودوا أبا لهب وهو عمه ولا شك في أنه عليه السلام أراد من المسلمين مودة بلال وعمار وصهيب وسلمان وسالم مولي أبي حذيفة وأما قوله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام " وابعث فيهم رسولاً منهم " فقد قال عز وجل " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير " و قال تعالى " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم " فاستوت الأمم كلها في هذه الدعوة بأن يبعث فيهم رسولاً منهم ممن هم قومه فإن احتج محتج بالحديث الثابت الذي فيه أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم فمعناه ظاهر وهو

أنه تعالى اختار كونه عليه السلام من بني هاشم وكون بني هاشم من قريش وكون قريش من كنانة وكون كنانة من بني إسماعيل كما اصطفى أن يكون موسى من بني لاوي وأن يكون بنوا لاوي من بني إسحاق عليه السلام وكل نبي من عشيرته التي هو منها ولا يجوز غير هذا البتة ونسأل من أراد حمل هذا الحديث على غير هذا المعنى أيدخل أحد من بني هاشم أو من قريش أو من كنانة أو من إسماعيل النار أم لا فإن أنكروا هذا كفروا وخالفوا الإ جماع والقرآن والسنن وقد قال عليه السلام أبي وأبوك في النار وإن أبا ط الب في النار وجاء القرآن بأن أبا لهب في النار وسائر كفار قريش في النار كذلك قال الله تعالى " تبت يد أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب " فإذا أقر بأنه قد يدخل النار منهم من يستحق أن يدخلها صحت المساواة بينهم وبين سائر الناس.

قال أبو محمد: ويكذب هذا الظن الفاسد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً وأبين من هذا كله قول الله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقوله تعالى " لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم " وقوله تعالى " واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً " و قال تعالى وذكر عاداً وثموداً وقوم نوح وقوم لوط ثم قال " اكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر " فصح ضرورة أنه لا ينتفع أحد بقرابته من رسول الله صلى الله عليه ولا من نبي من الأنبياء والرسل عليهم السلام ولو أن النبي ابنه أو أبوه وأمه نبية وقد نص الله تعالى في ابن نوح ووالد إبراهيم وعم محمد على رسل الله الصلاة والسلام ما فيه الكفاية وقد نص الله تعالى على أن من أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا فصح ضرورة أن بلال وصهيا والمقداد وعمار وسالماً وسلمان أفضل من العباس وبنيه عبد الله والفضل وقم ومعبد وعبيد الله وعقيل بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعهم بشهادة الله تعالى فإذ هذا لا شك فيه ولا جزاء في الآخرة إلا على عمل ولا ينتفع عند الله تعالى بالأرحام ولا بالولادات وليست الدنيا دار جزاء فلا فرق بين هاشمي وقرشي وعربي وعجمي وحبشي وابن زنجية والكرم والفوز لمن اتقى الله عز وجل حدثنا محمد بن سعيد بن بيان أنبأنا أحمد بن عبد الله البصير حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا عبد السلام ابن الخثن حدثنا محمد بن المثني حدثنا عبد الرحمن مهدي حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن حسان بن فايد العبسي قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كرم الرجل دينه وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً.

الكلام في حرب علي ومن حاربه من الصحابة رضي الله عنهم

قال أبو محمد: اختلف الناس في تلك الحرب على ثلاث فرق ف قال جميع الشيعة وبعض المرجئة وجمهور المعتزلة وبعض أهل السنة أن علياً كان المصيب في حربه وكل من خالفه على خطاء و قال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل وطوائف من المعتزلة أن علياً مصيب في قتاله معاوية وأهل النهر ووقفوا في قتاله مع أهل الجمل و قال وا إحدى الطائفتين مخطئة ولا نعرف أيهما هي و قال ت الخوارج علي المصيب في قتاله أهل الجمل وأهل صفين وهو مخطئ في قتاله أهل النهر وذهب سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وجمهور الصحابة إلى الوقوف في علي وأهل الجمل وأهل صفين وبه يقول جمهور أهل السنة وأبو بكر بن كيسان وذهب جماعة من الصحابة وخيار التابعين وطوائف ممن بعدهم إلى تصويب محاربي علي من أصحاب الجمل وأصحاب صفين وهم الحاضرون لقتاله في اليومين المذكورين وقد أشار إلى هذا أيضاً أبو بكر بن كيسان.
قال أبو محمد: أما الخوارج فقد أوضحنا خطاؤهم وخطاء أسلافهم فيما سلف من كتابنا هذا حاشا احتجاجهم بإنكار تحكيم علي الحكمين فسنتكلم في ذلك إن شاء الله تعالى كما تكلمنا في سائر أحكامهم والحمد لله رب العالمين وأما من وقف فلا حجة له أكثر من أنه لم يتبين له الحق ومن لم يتبين له الحق فلا سبيل إلى مناظرته بأكثر من أن نبين له وجه الحق حتى يراه وذكروا أيضاً أحاديث في ترك القتال في الاختلاف سنذكر لكم جملتها إن شاء الله تعالى فلم يبق إلا الطائفة المصوبة لعلي في جميع حروبه و الطائفة المصوبة لمن حاربه من أهل الجمل وأهل صفين.
قال أبو محمد: احتج من ذهب إلى تصويب محاربي علي يوم الجمل ويوم صفين بأن قال إن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً فالطلب بأخذ القود من قاتليه فرض قال عز وجل " ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً " و ق ال تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " قال وا ومن آوى الظالمين فهو إما مشارك لهم وإما ضعيف عن أخذ الحق منهم ق ال وا وكلا الأمرين حجة في إسقاط إمامته على من فعل ذلك ووجوب حربه قال وا وما أنكروا على عثمان إلا أقل من هذا من جواز إنفاذ أشياء بغير علمه فقد ينفذ مثلها سراً ولا يعلمها أحد إلا بعد ظهورها قال وا وحتى لو أن كل ما أنكر على عثمان يصح ما حل بذلك قتله بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام لأنهم إنما أنكروا عليه استيثاراً بشيء يسير من فضلات الأ موال لم يجب لأحد بعينه فمنعها وتولية أقاربه فلما شكو إليه عزلهم وأقام الحد على من استحقه وأنه صرف الحكم بن أبي العاص إلى المدينة ونفي رسول الله صلى الله عليه وسلم للحكم لم يكن حداً واجباً ولا شريعة على التأييد وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفي والتوبة مبسوطة فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام وصارت الأ رض كلها مباحة وأنه ضرب عمارا خمسة أسواط ونفي أبا ذر إلى الربذة وهذا كله لا يبيح الدم قال وا وايوآء على المحدثين أعظم الأحداث من

سفك الدم الحرام في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيما دم الإ
مام وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم والمنع من غنفاذ الحق
عليهم أشد من كل ما ذكرنا بلا شك قال وا وامتناع معاوية من بيعة علي
كامتناع علي من بيعة أبي بكر فما حاربه أبو بكر ولا أكرهه وأبو بكر أقدر
على علي من علي على معاوية ومعاوية في تأخره عن بيعة علي أعذر
وأفسح م قال ا من علي في تأخره عن بيعة أبي بكر لأن علياً لم يمتنع من
بيعة أبي بكر أحد من المسلمين غيره بعد أن بايعه الأنصار والزبير وأما بيعة
علي فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه وإما لا له ولا عليه وما تابعه
فيهم إلا الأقل سوى أزيد من مائة ألف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز
كلهم امتنع من بيعته فهل معاوية إلا كواحد من هؤلاء في ذلك وأيضاً فإن
بيعة علي لم تكن على عهد من النبي صلى الله عليه وسلم كما كانت بيعة
أبي بكر ولا عن إجماع من الأمة كما كانت بيعة عثمان ولا عن عهد من
خليفة واجب الطاعة كما كانت بيعة عمر ولا بسوق بائن في الفضل على
غيره لا يختلف ولا عن شورى فالقاعدون عنها بلا شك ومعاوية من جملتهم
أعذر من علي في قعوده عن بيعة أبي بكر ستة أشهر حتى رآى البصيرة
وراجع الحق عليه في ذلك قال وا فإن قلتم خفي على علي نص رسول الله
صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قلنا لكم لم يخف عليه بلا شك تقديم
رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر إلى الصلاة وأمر علياً بأن يصلي
ورآه في جماعة المسلمين فتأخره عن بيعة أبي بكر سعي منه في حطه عن
مكان جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً لأبي بكر وسعي منه في
فسخ نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على تقديمه إلى الصلاة وهذا
أشد من رد إنسان نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لذنب ثم تاب منه
وأيضاً فإن علياً قد تاب واعترف بالخطأ لأنه إذا بايع أبو بكر بعد ستة أشهر
تأخر فيها عن بيعته لا يخلو ضرورة من أحد وجهين إما أن يكون مصيباً في
تأخره فقد أخطأ إذ بايع أو يكون مصيباً في بيعته فقد أخطأ إذ تأخر عنها ق
ال وا والممتنعون من بيعة علي لم يعترفوا قط بالخطأ على أنفسهم في
تأخرهم عن بيعته قال وا فإن كان فعلهم خطأ فهو أخف من الخطأ في تأخر
علي عن بيعة أبي بكر وإن كان فعلهم صواباً فقد برئوا من الخطأ جملة قال
وا والبون بين طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعلي خفي جداً فقد
كانوا في الشورى معه لا يبدو له فضل شفوق عليهم ولا على واحد منهم
وأما البون بين علي وأبي بكر أبين وأظهر فهم من امتناعهم عن بيعته أعذر
لخفاء التفاضل قال وا وهلا فعل علي في قتلة عثمان كما فعل بقتلة عبد
الله بن خباب بن الارت فإن القصتين استويا في التحريم فالمصيبة في قتل
عثمان في الإسلام وعند الله عز وجل وعلى المسلمين أعظم جرماً وأوسع
خرقاً وأشنع إثماً وأهول فيقاً من المصيبة في قتل عبد الله بن خباب قال وا
وفعله في طلب دم عبد الله بن خباب
يقطع حجة من تأول على علي أنه يمكن أن يكون لا يرى قتل الجماعة بـ

الواحد.ع حجة من تأول على علي أنه يمكن أن يكون لا يرى قتل الجماعة بـ الواحد.
قال أبو محمد: هذا كلما يمكن أن تحتج به هذه الطائفة قد تقصيناه ونحن إن شاء الله تعالى متكلمون على ما ذهبت إليه كل طائفة من هذه الطوائف حتى يلوح الحق في ذلك بعون الله تعالى وتأييده.
قال أبو محمد: نبدء بعون الله عز وجل بإنكار الخوارج للتحكيم.
قال أبو محمد: قال وا حكم على الرجال في دين الله تعالى والله عز وجل قد حرم ذلك بقوله " إن الحكم إلا لله " وبقوله تعالى " وما اختلفتم فيه شيء فحكمه إلى الله " .
قال أبو محمد: ما حكم علي رضي الله عنه قط رجلا ً في دين الله وحاشاه من ذلك وإنما حكم كلام الله عز وجل كما افترض الله تعالى عليه وإنما اتفق القوم كلهم إذ رفعت المصاحف على الرماح وتداعوا إلى ما فيها على الحكم بما أنزل الله عز وجل في القرآن وهذا هو الحق الذي لا يحل لأ حد غيره لأن الله تعالى يقول " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " فإنما حكم علي رضي الله عنه أبا موسى وعمرو رضي الله عنهما ليكون كل واحد منهما مدلياً بحجة من قدمه وليكونا متخاصمين عن الطائفتين ثم حاكمين لمن أوجب القرآن الحكم له وإذ من المحال الممتنع الذي لا يمكن الذي لا يفهم لغط العسكرين أو أن يتكلم جميع أهل العسكر بحجتهم فصح يقيناً لا محيد عنه صواب علي في تحكيم الحكمين والرجوع إلى ما أوجبه القرآن وهذا الذي لا يجوز غيره ولكن أسلاف الخوارج كانوا أعراباً قرؤا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمر ولا أصحاب علي ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبي موسى ولا أصحاب معاذ بن جبل ولا أصحاب أبي الدرداء ولا أصحاب سليمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند اقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها فظهر ضعف القوم وقوة جهلهم وأنهم أنكروا ما قام البرهان الذي أوردنا بأنه حق ولو لم يكن من جهلهم لأقرب عهدهم بخير الأنصار يوم السقيفة وإذعانهم رضي الله عنهم مع جميع المهاجرين لوجب الأمر في قريش دون الأنصار وغيرهم وأن عهدهم بذلك قريب منذ خمسة وعشرين عاماً وأشهر وجمهورهم أدرك ذلك بسنة وثبت عند جميعهم كثبات أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولا فرق لأن الذين نقلوا إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقلوا إليهم القرآن والشرائع فدانوا بكل ذلك هم بأعيانهم لا زيادة فيهم ولا نقص نقلوا إليهم خبرة السقيفة ورجوع الأنصار إلى أن الأمر لا يكون إلا في قريش وهم يقرون ويقرؤن قوله تعالى " لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " وقوله تعالى " محمد رسول الله والذين معه

أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً " الآية وقوله تعالى " لقد رضي الله على المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً " ثم أعماهم الشيطان وضلهم الله تعالى على علم فحلوا بيعة مثل علي واعرضوا عن مثل سعيد بن زيد وابن عمر وغيرهم ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل واعرضوا عن سائر الصحابة الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ووعدهم الله الحسنى وتركوا من يقرون بأن الله تعالى عز وجل علم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ورضي عنهم وبايعوا الله وتركوا جميع الصحابة وهم الأشداء على الكفار الرحماء بينهم الركع السجد المبتغون فضلا ً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود المثني عليهم في التوراة والإنجيل من عند الله عز وجل الذين غاظ الله بهم الكفار المقطوع على أن باطنهم في الخير كظاهرهم لأن الله عز وجل شهد بذلك فلم يبايعوا أحداً منهم وبايعوا شيث بن ربعي مؤذن سجاح أيام ادعت النبوة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى تداركه الله عز وجل ففر عنهم وتبين لهم ضلالتهم فلم يقع اختيارهم إلا على عبد الله بن وهب الراسبي أعرابي بوال على عقبيه لا سابقة له ولا صحبة ولا فقه ولا شهد الله له بخير قط فمن أضل ممن هذه سيرته واختياره ولكن حق لمن كان أحداً يمينه ذو خويصرة الذي بلغه ضعف عقله وقلة دينه إلى تجويره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكمه والاستدراك ورأى نفسه أورع من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وهو يقر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وبه اهتدى وبه عرف الدين ولولاه لكان حماراً أو أضل ونعوذ بالله من الخذلان وأما الطائفة المصوبة للقاعدين فإن من لم يلح له الحق منهم فإنما يكلم حتى يبين له الحق فيلزمه المصير إليه فنقول وبالله تعالى التوفيق أنه قد صح ووجب فرض الإمامة بما ذكرنا قبل في إيجاب ا لإمامة وإذ هي فرض فلا يجوز تضييع الفرض وإذ ذلك كذلك فالمبادرة إلى تقديم إمام عند موت الإمام فرض واجب وقد ذكرنا وجوب الايتمام بالإمام فإذ هذا كله كما ذكرنا فإذ مات عثمان رضي الله عنه وهو الإمام ففرض إقامة إمام ياتم به الناس لئلا يبقوا بلا إمام فإذ بادر علي فبايعه واحد من المسلمين فصاعداً فهو إمام قائم ففرض طاعته لا سيما ولم يتقدم ببيعته بيعة ولم ينازعه الإمامة أحد ما فهذا أوضح وواجب في وجوب إمامته وصحة بيعته ولزوم أمرته للمؤمنين فهو الإمام بحقه وما ظهر منه قط إلى أن مات رضي الله عنه شيء يوجب نقض بيعته وما ظهر منه قط إلا العدل والجد والبر والتقوى كما لو سبقت بيعة طلحة أو الزبير أو سعد أو سعيد أو من يستحق الإمامة لكانت أيضاً بيعة حق لازمة لعلي ولغيره ولا فرق فعلي مصيب في الدعاء إلى نفسه وإلى الدخول تحت أمامته وهذا برهان لا محيد عنه وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة رضي الله عنهم ومن كان معهم فما أبطلوا قط إمامة علي ولا طعنوا فيها ولا ذكروا فيه جرحة تحطه عن الإ مامة ولا أحدثوا إمامة أخرى ولا جددوا بيعة لغيره هذا ما لا يقدر أن يدعيه

أحد بوجه من الوجوه بل يقطع كل ذي علم على أن كل ذلك لم يكن فإذ لا شك في كل هذا فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب علي ولا خلافاً عليه ولا نقضاً لبيعته ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته هذا ما لا شك فيه أحد ولا ينكره أحد فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلماً وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الاراغة والتدبير عليهم فبينوا عسكر طلحة و الزبير وبذلوا السيف فيهم فدفع القوم عن أنفسهم في دعوى حتى خالطوا عسكر علي فدفع أهله عن أنفسهم وكل طائفة تظن ولا شك أن الأخرى بدأ بها بالقتال واختلط الأمر اختلاطاً لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه والفسقة من قتلة عثمان لا يغترون من شن الحرب وإضرامه فكلتي الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها مدافعة عن نفسها ورجع الزبير وترك الحرب بحالها وأتى طلحة سهم غاير وهو قائم لا يدري حقيقة ذلك الا ختلاط فصادف جرحاً في ساقه كان أصابه يوم أحد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف ومات من وقته رضي الله عنه وقتل الزبير رضي الله عنه بوادي السباع على أقل من يوم من البصرة فهكذا كان الأمر وكذلك كان قتل عثمان رضي الله عنه إنما حاصره المصريون ومن لف لفهم يديرونه عن إسلام مروان إليهم وهو رضي الله عنه يأبى من ذلك ويعلم أنه إن أسلمه قتل دون تثبت فهو على ذلك وجماعات من الصحابة فهم الحسن والحسين أبناء علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم في نحو سبعماية من الصحابة وغيرهم معه في الدار يحمونه وينفلتون إلى القتال فيردعهم تثبتاً إلى أن تسوروا عليه من خوخة في دار ابن حزم الأنصاري جاره غيلة فقتلوه ولا خبر من ذلك عند أحد لعن الله من قتله والراضين بقتله فما رضي أحد منهم قط بقتله ولا علموا أنه يراد قتله لأنه لم يأت منه شيء يبيح الدم والحرام وأما قوله من قال أنه رضي الله عنه أقام مطروحاً على مزبلة ثلاثة أيام فكذب بحت وأفك موضوع وتوليد من لا حياء في وجهه بل قتل عشية ودفن من ليلته رضي الله عنه شهد دفنه طائفة من الصحابة وهم جبير بن مطعم وأبو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن الزبير ومكرم بن نيار وجماعة غيرهم هذا مما لا يتمادى فيه أحد ممن له علم بالأخبار ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برمي أجساد قتلا الكفار من قريش يوم بدر في القليب وألقى التراب عليهم وهم شر خلق الله تعالى وأمر عليه السلام أن يحفر أخاديد لقتلى يهود قريظة وهم شر من وارته الأرض فمواراة المؤمن والكافر فرض على المسلمين فكيف يجوز لذي حياء في وجهه أن ينسب إلى علي وهو الإمام ومن بالمدينة من الصحابة أنهم تركوا رجلا ً ميتاً ملقى بين أظهرهم على مزبلة لا يوارونه ولا نبالي مؤمناً كان أو كافراً ولكن الله يأبى إلا أن يفضح الكذابين بألسنتهم ولو فعل هذا علي لكانت جرحة لأنه لا يخلو أن يكون

عثمان كافراً أو فاسقاً أو مؤمناً فإن كان كافراً أو فاسقاً عنده فقد كان فرضاً على علي أن يفسخ أحكامه في المسلمين فإذا لم يفعل فقد صح أنه كان مؤمناً عنده فكيف يجوز أن ينسب ذو حياء إلى علي أنه ترك مؤمناًمطروحاً ميتاً على مزبلة لا يأمر بمواراته أم كيف يجوز أن يظن به أنه أنفذ أحكام كافراً أو فاسق على أهل الإسلام ما أحد أسوأ ثناء على علي من هؤلاء الكذبة الفجرة. يأمر بمواراته أم كيف يجوز أن يظن به أنه أنفذ أحكام كافراً أو فاسق على أهل الإسلام ما أحد أسوأ ثناء على علي من هؤلاء الكذبة الفجرة.

قال أبو محمد: ومن البرهان على صحة ما قلناه أن من الجهل الفاضح أن يظن ظان أن علياً رضي الله عنه بلغ من التناقض في أحكامه وإتباع الهوى في دينه والجهل أن يترك سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت ورافع بن خديج ومحمد بن مسلمة وكعب بن مالك وسائر الصحابة الذين لم يبايعوه فلا يجهزهم علياً وهم معه في المدينة وغيرها نعم والخوارج وهم يصيحون في نواحي المسجد بأعلا أصواتهم بحضرته وهو على المنبر في مسجد الكوفة لا حكم إلا الله لا حكم إلا الله فيقول لهم رضي الله عنه لكم علينا ثلاث لا نمنعكم المساجد ولا نمنعكم حقكم من الفيء ولا نبدؤكم بقتال ولم يبدءوهم بحرب حتى قتلوا عبد الله بن خباب ثم لم يقاتلهم بعد ذلك حتى دعاهم إلى أن يسلموا إليه قتلة عبد الله بن خباب فلما قال وا كلنا قتله قاتلهم حينئذ ثم يظن به مع هذا كله أنه يقاتل أهل الجهل لامتناعهم من بيعته هذا أفك ظاهر وجنون مختلف وكذب بحت بلا شك.

قال أبو محمد: وأما أمر معاوية رضي الله عنه فبخلاف ذلك ولم يقاتله علي رضي الله عنه لامتناعه من بيعته لأنه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره لكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره في جميع أرض الشام وهو الإمام الواجبة طاعته فعلي المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه عن ولد عثمان وولد الحكم بن أبي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن سهل أخا عبد الله بن سهل المقتول بخيبر بالسكوت وهو أخو المقتول و قال له كبر كبر وروى الكبر الكبر فسكت عبد الرحمن وتكلم محيصة وحويصة أبناء مسعود وهما ابنا عم المقتول لأنهما كان أسن من أخيه فلم يطلب معاوية من ذلك إ لا ما كان له من الحق أن يطلبه وأصاب في ذلك الأثر الذي ذكرنا وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط فله أجر الاجتهاد في ذلك ولا إثم عليه فيما حرم من الإصابة كسائر المخطئين في اجتهادهم الذين أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لهم أجراً واحداً وللعصيب أجرين ولا عجب أعجب ممن يجيز الاجتهاد في الدماء وفي الفروج والأنساب والأموال والشرائع

التي يدان الله بها من تحريم وتحليل وإيجاب ويعذر المخطئين في ذلك ويرى ذلك مباحاً لليث والبتي وأبي حنيفة والثوري ومالك والشافعي وأحمد وداوود وإسحاق وأبي ثور وغيرهم كزفر وأبي يوسف ومحمد بن الحسن و الحسن بن زياد وابن القاسم وأشهب وابن الماجشون والمزني وغيرهم فواحد من هؤلاء يبيح دم هذا الإنسان وآخر منهم يحرمه كمن حارب ولم يقتل أو عمل عمل قوم لوط وغير هذا كثير وواحد منهم يبيح هذا الفرج وآخر منهم يحرمه كبكر أنكحها أبوها وهي بالغة عاقلة بغير إذنها ولا رضاها وغير هذا كثير وكذلك في الشرائع والأوامر والأنساب وهكذا فعلت المعتزلة بشيوخهم كواصل وعمرو وسائر شيوخهم وفقهائهم وهكذا فعلت الخوارج بفقهائهم ومفتيهم ثم يضيقون ذلك على من له الصحبة والفضل والعلم و التقدم والاجتهاد كمعاوية وعمرو ومن معهما من الصحابة رضي الله عنهم وإنما اجتهدوا في مسائل دماء كالتي اجتهد فيها المفتون وفي المفتيين من يرى قتل الساحر وفيهم من لا يراه وفيهم من يرى قتل الحر بالعبد وفيهم من لا يراه وفيهم من يرى قتل المؤمن بالكافر وفيهم من لا يراه فأي فرق بين هذه الاجتهادات واجتهاد معاوية وعمرو وغيرهما لولا الجهل والعمى و التخليط بغير علم وقد علمنا أن من لزمه حق واجب وامتنع من أدائه وقاتل دونه فإنه يجب على الإمام أن يقاتله وإن كان منا وليس ذلك بموثر في عدالته وفضله ولا بموجب له فسقاً بل هو مأجور لاجتهاده ونيته في طلب الخير فبهذا قطعنا على صواب علي رضي الله عنه وصحة إمامته وأنه صاحب الحق وإن له أجرين أجر الاجتهاد وأجر الإصابة وقطعنا أن معاوية رضي الله عنه ومن معه مخطئون مجتهدون مأجورون أجراً واحداً وأيضاً في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر عن ماوقة تمرق بين طائفتين من أمته يقتلها أولى الطائفتين بالحق فمرقت تلك المارقة وهم الخوارج من أصحاب علي وأصحاب معاوية فقتلهم علي وأصحابه فصح أنهم أولي الطائفتين بالحق وأيضاً الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتل عمارا الفئة الباغية.

قال أبو محمد: المجتهد المخطي إذا قاتل على ما يرى أنه الحق قاصداً الله تعالى نيته غير عالم بأنه مخطئ فهو فئة باغية وإن كان مأجوراً ولا حد عليه إذا ترك القتال ولا قود وأما إذا قاتل وهو يدري أنه مخطئ فهذا محارب تلزمه المحاربة والقود وهذا يفسق ويخرج لا المجتهد المخطي وبيان ذلك قول الله تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله " إلى قوله " إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم " فهذا نص قولنا دون تكلف تأويل ولا زوال عن موجب ظاهر الآية وقد سماهم الله عز وجل مؤمنين باغين بعضهم أخوة بعض في حين تقاتلهم وأهل العدل المبغي عليهم والمأمورين بالإصلاح بينهم وبينهم ولم يصفهم عز وجل بفسق من أجل ذلك التقاتل ولا بنقص إيمان وإنما هم مخطئون فقط باغون

ولا يريد واحد منهم قتل آخر وعمار رضي الله عنه قتله أبو العادية يسار ابن سبع السلمي شهد بيعة الرضوان فهو من شهداء الله له بأنه علم ما في قلبه وأنزل السكينة عليه ورضي عنه فأبو العادية رضي الله عنه متأول مجتهد مخطي فيه باغ عليه مأجور أجراً واحداً وليس هذا كقتلة عثمان رضي الله عنه لأنهم لا مجال للاجتهاد في قتله لأنه لم يقتل أحداً ولا حارب ولا قاتل و لا دافع ولا زنا بعد احصان ولا ارتد فيسوغ المحاربة تأويل بل هم فساق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون.

قال أبو محمد: فإذ قد بطل هذا الأمر وصح أن علياً هو صاحب الحق فالأ حاديث التي فيها التزام البيوت وترك القتال إنما هو بلا شك فيمن لم يلح له يقين الحق أين هو وهكذا نقول فإذا تبين الحق فقتال الفئة الباغية فرض بنص القرآن وكذلك إن كانت معاً باغيتين فقتالهما واجب لأن كلام الله عز وجل لا يعارض كلام نبيه صلى الله عليه وسلم لأنه كله من عند الله عز وجل قال الله عز وجل " وما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي يوحى " و ق ال عز وجل " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " فصح يقيناً أن كل ما قال ه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو وحي من عند الله عز وجل وإذ هو كذلك فليس شيء مما عند الله تعالى مختلفاً والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: فلم يبق إلا الكلام على الوجوه التي اعترض بها من رأى قتال علي رضي الله عنه.

قال أبو محمد: فنقول وبالله تعالى التوفيق أما قولهم إن أخذ القود واجب من قتلة عثمان رضي الله عنه المحاربين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم الساعين في الأرض بالفساد والهاتكين حرمة الإسلام والحرم والإمامة والهجرة والخلافة والصحبة والسابقة فنعم وما خالفهم قط علي في ذلك و لا في البرآءة منهم ولكنهم كانوا عدداً ضخماً جماً لا طاقة له عليهم فقد سقط عن علي رضي الله عنه ما لا يستطيع عليه كما سقط عنه وعن كل مسلم ما عجز عنه من قيام بالصلاة والصوم والحج ولا فرق قال الله تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ولو أن معاوية بايع علياً لقوي به على أخذ الحق من قتلة عثمان فصح أن الاختلاف هو الذي أضعف يد علي عن إنفاذ الحق عليهم ولولا ذلك لأنفذ الحق عليهم كما أنفذه على قتلة عبد الله بن خباب إذ قدر على مطالبة قتلته وأما تأسي معاوية في امتناعه من بيعة علي بتأخر علي عن بيعة أبي بكر فليس في الخطأ أسوة وعلي قد است قال ورجع وبايع بعد يسير فلو فعل معاوية مثل ذلك لأصاب ولبايع حينئذ بلا شك كل من امتنع من الصحابة من البيعة من أجل الفرقة وأما تقارب ما بين علي وطلحة والزبير وسعد فنعم ولكن من سبقت بيعته وهو من أهل الا ستحقاق والخلافة فهو الإمام الواجبة طاعته فيما أمر به من طاعة الله عز

وجل سوآء كان هنالك من هو مثله أو أفضل كما سبقت بيعة عثمان فوجبت طاعته وإمامته على غيره ولو بويع هنالك حينئذ وقت الشورى علي أو طلحة أو الزبير أو عبد الرحمن أو سعد لكان الإمام وللزمت عثمان طاعته ولا فرق فصح أن علياً هو صاحب الحق والإمام المفترضة طاعته ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد وقد يخفى الصواب على الصاحب العالم فيما هو أبين وأوضح من هذا الأمر من أحكام الدين فربما رجع إذا استبان له وربما لم يستبن له حتى يموت عليه وما توفيقنا إلا بالله عز وجل وهو المسئول العصمة والهداية لا إله إلا هو.

قال أبو محمد: فطلب علي حقه فقاتل عليه وقد كان تركه ليجمع كلمة المسلمين كما فعل الحسن ابنه رضي الله عنهما فكان له بذلك فضل عظيم قد تقدم به إنذار رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من أمتي فغبطه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ومن ترك حقه رغبة في حقن دماء المسلمين فقد أتى من الفضل بما لا وراء ولا لوم عليه بل هو مصيب في ذلك وبالله تعالى التوفيق.

الكلام في إمامة المفضول

قال أبو محمد: ذهبت طوائف من الخوارج وطوائف من العتزلة وطوائف من المرجئة منهم محمد بن الطيب الباقلاني ومن اتبعه وجميع الرافضة من الشيعة إلى أنه لا يجوز إمامة من يوجد في الناس أفضل منه وذهبت طائفة من الخوارج وطائفة من المعتزلة وطائفة من المرجئة وجميع الزيدية من الشيعة وجميع أهل السنة إلى أن الإمامة جائزة لمن غيره أفضل منه.

قال أبو محمد: وأما الرافضة فقالوا إن الإمام واحد معروف بعينه في العالم على ما ذكرنا من أقوالهم الذي قد تقدم إفسادنا لها والحمد لله رب العالمين وما نعلم لمن قال أن الإمامة لا تجوز إلا لأفضل من يوجد حجة أصلا ً لا من قرآن ولا من سنة ولا من إجماع ولا من صحة عقل ولا من قياس ولا قول صاحب وما كان هكذا فهو أحق قول بالاطراح وقد قال أبو بكر رضي الله عنه يوم السقيفة قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين يعني أبا عبيدة وعمر وأبو بكر أفضل منهما بلا شك فما قال أحد من المسلمين أنه قال من ذلك بما لا يحل في الدين ودعت الأنصار إلى بيعة سعد بن عبادة وفي المسلمين عدد كثير كلهم أفضل منه بلا شك فصح بما ذكرنا إجماع جميع الصحابة رضي الله عنهم على جواز إمامة المفضول ثم عهدهم عمر رضي الله عنه إلى ستة رجال ولا بد أن لبعضهم على بعض فضلا ً وقد أجمع أهل الإسلام حينئذ على أنه إن بويع أحدهم فهو الإمام الواجبة طاعته وفي هذا إطباق منهم على جواز إمامة المفضول ثم مات علي رضي الله عنه فبويع الحسن ثم سلم الأمر إلى معاوية وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل فكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية ورأى إمامته وهذا إجماع متيقن بعد إجماع على جواز إمامة من

غيره أفضل بيقين لا شك فيه إلى أن حدث من لا وزن له عند الله تعالى فخرقوا الإجماع بآرائهم الفاسدة بلا دليل ونعوذ بالله من الخذلان.
قال أبو محمد: والعجب كله كيف يجتمع قول الباقلاني أنه لا تجوز الإمامة لمن غيره من الناس أفضل منه وهو قد جوز النبوة والرسالة لمن غيره من الناس أفضل منه فإنه صرح فيما ذكره عنه صاحبه أبو جعفر السمناني الأعمى قاضي الموصل بأنه جائز أن يكون في الأمة من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين بعث إلى أن مات.
قال أبو محمد: ما في خذلان الله عز وجل أحق من هاتين القضيتين لا سيما إذا اقترنتا والحمد لله على الإسلام فإن قال قائل كيف تحتجون هنا بقول الأنصار رضي الله عنهم في دعائهم إلى سعد بن عبادة وهو عندكم خطأ وخلاف للنص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تحتجون في هذا أيضاً بقول أبي بكر رضيت لكم أحد هذين وخلافة أبي بكر عندكم نص من رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين له أن يترك ما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا وبالله تعالى التوفيق إن فعل الأنصار رضي الله عنهم انتظم حكمين أحدهما تقديم من ليس قرشياً وهذا خطأ وقد خالفهم فيه المهاجرون فسقطت هذه القضية والثاني جواز تقديم من غيره أفضل منه وهذا صواب وافقهم عليه أبو بكر وغيره فصار إجماعاً فقامت به الحجة وليس خطأ من أخطأ في قول وخالفه فيه من أصاب الحق بموجب أن لا يحتج بصوابه الذي وافقه فيه أهل الحق وهذا ما لا خلاف فيه وبالله تعالى التوفيق وأما أمر أبي بكر فإن الحق كله له بالنص وللمرء أن يترك حقه إذا رأى في تركه إصلاح ذات بين المسلمين ولا فرق بين عطية أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين منزلة صبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان فكان له أن يتجافى عنها لغيره إذ لم يمنعه من ذلك نص ولا إجماع وبالله تعالى التوفيق.
قال أبو محمد: وبرهان صحة قول من قال بأن الإمامة جائزة لمن غيره أفضل منه وبطلان قول من خالف ذلك أنه لا سبيل إلى أن يعرف الأفضل إلا بنص أو إجماع أو معجزة تظهر فالمعجزة ممتنعة هاهنا بلا خلاف وكذلك الإجماع وكذلك النص وبرهان آخر وهو أن الذي كلفوا به من معرفة الأفضل ممتنع محال لأن قريشاً مفترقون في البلاد من أقصى السند إلى أقصى الأندلس إلى أقصى اليمن وصحاري البربر إلى أقصى أرمينية وأذربيجان وخراسان فما بين ذلك من البلاد فمعرفة أسمائهم ممتنع فكيف معرفة أحوالهم فكيف معرفة أفضلهم وبرهان آخر وهو أنا بالحس والمشاهدة ندري أنه لا يدري أحد فضل إنسان على غيره ممن بعد الصحابة رضي الله عنهم إلا بالظن والحكم بالظن لا يحل قال الله تعالى ذاماً لقوم " إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين " و قال تعالى " ما لهم بذلك من علم أن هم إلا يخرصون " و قال تعالى " قتل الخراصون " و قال تعالى " إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى " و

قال تعالى " إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً " و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وأيضاً فإننا وجدنا الناس يتباينون في الفضائل فيكون الواحد أزهد ويكون الواحد أورع ويكون الآخر أسوس ويكون الرابع أشجع ويكون الخامس أعلم وقد يكونون متقاربين في التفاضل لا يبين التفاوت بينهم فبطل معرفة الأ فضل وصح أن هذا القول فاسد وتكليف ما لا يطاق وإلزام ما لا يستطاع وهذا باطل لا يحل والحمد لله رب العالمين ثم قد وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قلد النواحي وصرف تنفيذ جميع الأحكام التي تنفذها الأ ئمة إلى قوم كان غيرهم بلا شك أفضل منهم فاستعمل على أعمال اليمن معاذ بن جبل وأبا موسى وخالد بن الوليد وعلي عمان عمرو بن العاص وعلى نجران أبا سفيان وعلى مكة عتاب ابن أسيد وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي ولا خلاف في أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعمار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة وابن مسعود وبلال وأبا ذر أفضل ممن ذكرنا فصح يقيناً أن الصفات التي يستحق بها الإمامة والخلافة ليس منها التقدم في الفضل وأيضاً فإن الفضائل كثيرة جداً منها الورع والزهد والعلم و الشجاعة والسخاء والحلم والعفة والصبر والصرامة وغير ذلك ولا يوجد أحد يبين في جميعها بل يكون بائناً في بعضها ومتأخراً في بعضها ففي أيها يراعي الفضل من لا يجيز إمامة المفضول فإن اقتصر على بعضها كان مدعياً بلا دليل وإن عم جميعها كلف من لا سبيل إلى وجوده أبداً في أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذ لا شك في ذلك فقد صح القول في إمامة المفضول وبطل قول من قال غير ذلك وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وذكر الباقلاني في شروط الإمامة أنها أحد عشر شرطاً وهذا أيضاً دعوى بلا برهان وما كان هكذا فهو باطل فوجب أن ينظر في شروط ا لإمامة التي لا تجوز الإمامة لغير من هن فيه فوجدناها أن يكون صليبة من قريش لإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الإمامة فيهم وأن يكون بـ الغاً مميزاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاثة فذكر الصبي حتى يحتلم والمجنون حتى يفيق وأن يكون رجلا ً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة وأن يكون مسلماً لأن الله تعالى يقول " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " والخلافة أعظم السبيل ولأمره تعالى باصغار أهل الكتاب وأخذهم بأداء الجزية وقتل من لم يكن من أهل الكتاب حتى يسلموا وأن يكون متقدماً لأ مره عالماً بما يلزمه من فرائض الدين متقياً لله تعالى بالجملة غير معلن بـ الفساد في الأرض لقول الله تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " لأن من قدم من لا يتق الله عز وجل ولا في شيء من الأشياء أو معلناً بالفساد في الأرض غير مأمون أو من لا ينفذ أمراً أو من لا يدري شيئاً من دينه فقد أعان على الإثم والعدوان ولم يعن على البر و

التقوى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمل ليس عليه أمرنا فهو رد و قال عليه السلام يا أبا ذر إنك ضعيف لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم و قال تعالى " فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً " ا لآية فصح أن السفيه والضعيف ومن لا يقدر على شيء فلا بد له من ولي ومن لا بد له من ولي فلا يجوز أن يكون ولياً للمسلمين فصح أن ولاية من لم يستكمل هذه الشروط الثمانية باطل لا يجوز ولا ينعقد أصلا ً ثم يستحب أن يكون عالماً بما يخصه من أمور الدين من العبادات والسياسة وا لأحكام مؤدياً للفرائض كلها لا يخل بشيء منها مجتنباً لجميع الكبائر سراً وجهراً مستتراً بالصغائر إن كانت منه فهذه أربع صفات يكره أن يلي الأمة من لم ينتظمها فإن ولي فولايته صحيحة ونكرهها وطاعته فيما أطاع الله فيه واجبة ومنعه مما لم يطع الله فيه واجب والغاية المأمولة فيه أن يكون رفيقاً بالناس في غير ضعف شديداً في إنكار المنكر من غير عنف ولا تجاوز للواجب مستيقظاً غير غافل شجاع النفس غير مانع للمال في حقه ولا مبذر له في غير حقه ويجمع هذا كله أن يكون الإمام قائماً بأحكام القرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا يجمع كل فضيلة.
قال أبو محمد: ولا يضر الإمام أن يكون في خلقه عيب كالأعمى والأصم وا لأجدع والأجذم والأحدب والذي لا يدان له ولا رجلان ومن بلغ الهرم ما دام يعقل ولو أنه ابن مائة عام ومن يعرض له الصرع ثم يفيق ومن بويع أثر بلوغه الحلم وهو مستوف لشروط الإمامة فكل هؤلاء إمامتهم جائزة إذ لم يمنع منها نص قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا نظر ولا دليل أصلا ً بل قال تعالى " كونوا قوامين بالقسط " فمن قام بالقسط فقد ادى ما أمر به ولا خلا ف بين أحد من أهل الإسلام في أنه لا يجوز التوارث فيها ولا في أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض فإنهم أجازوا كلا الأمرين ولا خلاف بين أحد في أنها لا تجوز لامرأة وبالله تعالى نتأيد.

الكلام في عقد الإمامة بماذا تصح

قال أبو محمد: ذهب قوم إلى أن الإمامة لا تصح إلا بإجماع فضلاء الأمة في أقطار البلاد وذهب آخرون إلى أن الإمامة إنما تصح بعقد أهل حضرة الإ مام والموضع الذي فيه قرار الأئمة وذهب أبو علي بن عبد الوهاب الجبائي إلى أن الإمامة لا تصح بأقل من عقد خمس رجال ولم يختلفوا في أن عقد ا لإمامة تصح بعهد من الإمام الميت إذا قصد فيه حسن الاختيار للأمة عند موته ولم يقصد بذلك هوي وقد ذكر في فساد قول الروافض وقول الكيسانية ومن ادعى إمامة رجل بعينه وأنبأ أن كل ذلك دعاو لا يعجز عنها ذو لسان إذا لم يتق الله ولا استحياء من الناس إذ لا دليل على شيء منها.
قال أبو محمد: أما من قال أن الإمامة لا تصح إلا بعقد فضلاء الأمة في أقطار البلاد فباطل لأنه تكليف ما لا يطاق وما ليس في الوسع وما هو أعظم الحرج والله تعالى لا يكلف نفساً و قال تعالى " وما جعل في الدين من حرج ".

قال أبو محمد: ولا حرج ولا تعجيز أكثر من تعرف إجماع فضلاء من في المولتان والمنصورة إلى بلاد مهرة إلى عدن إلى أقاصي المصامدة إلى طنجة إلى الأشبونة إلى جزائر البحر إلى سواحل الشام إلى أرمينية وجبل القبج إلى اسبنجاب وفرغانة واسروسنه إلى أقاصي خراسان إلى الجوزجان إلى كابل المولتان فما بين ذلك من المدن والقرى ولا بد من ضياع أمور المسلمين قبل أن يجمع جزء من مائة جزء من فضلاء أهل هذه البلاد فبطل هذا القول الفاسد مع أنه لو كان ممكناً لما لزم لأنه دعوى بلا برهان وإنما قال تعالى " تعاونوا على البر والتقوى وكونوا قوامين بالقسط " فهذان الأمران متوجهان أحدهما إلى كل إنسان في ذاته ولا يسقط عنه وجوب القيام بـ القسط انتظار غيره في ذلك وأما التعاون على البر والتقوى فمتوجه إلى كل اثنين فصاعداً لأن التعاون فعل من فاعلين وليس فعل واحد ولا يسقط عن الاثنين فرض تعاونهما على البر والتقوى انتظار ثالث إذ لو كان ذلك لما لزم أحداً قيا بقسط ولا تعاون على بر وتقوى إذ لا سبيل إلى اجتماع أهل الأرض على ذلك أبداً لتباعد أقطارهم ولتخلف من تخلف عن ذلك لعذر أو على وجه المعصية ولو كان هذا لكان أمر الله تعالى بالقيام بالقسط وبالتعاون على البر والتقوى باطلا ً فارغاً وهذا خروج عن الإسلام فسقط القول المذكور وب الله تعالى التوفيق وأما قول من قال أن عقد الإمامة لا يصح إلا بعقد أهل حضرة الإمام وأهل الموضع الذي فيه قرار الأئمة فإن أهل الشام كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام.

قال أو محمد: وهو قول فاسد لا حجة لأهله وكل قول في الدين عرى عن ذلك من القرآن أو من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من إجماع الأ مة المتيقن فهو باطل بيقين قال الله تعالى " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " فصح أن من لا برهان له على صحة قوله فليس صادقاً فيه فسقط هذا القول أيضاً وأما قول الجبائي فإنه تعلق فيه بفعل عمر رضي الله عنه في الشورى إذ قلدها ستة رجال وأمرهم أن يختاروا واحداً منهم فصار الاختيار منهم بخمسة فقط.

قال أبو محمد: وهذا ليس شيء لوجوه أولها أن عمر لم يقل أن تقليد الا ختيار أقل من خمسة لا يجوز بل قد جاء عنه أنه قال إن مال ثلاثة منهم إلى واحد وثلاثة إلى واحد فاتبعوا الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف فقد أجاز عقد ثلاثة ووجه ثان وهو أن فعل عمر رضي الله عنه لا يلزم الأمة حتى يوافق نص قرآن أو سنة وعمر كسائر الصحابة رضي الله عنهم لا يجوز أن يخصه بوجوب اتباعه دون غيره من الصحابة رضي الله عنهم و الثالث أن أولئك الخمسة رضي الله عنهم قد تبرؤا من الاختيار وجعلوه إلى واحد منهم يختار لهم وللمسلمين من رآه أهلا ً للإمامة وهو عبد الرحمن بن عوف وما أنكر ذلك أحد من الصحابة الحاضرين ولا الغائبين إذ بلغهم ذلك فقد صح إجماعهم على أن الإمامة تنعقد بواحد فإن قال قائل إنما جاز

ذلك لأن خمسة من فضلاء المسلمين قلدوه قيل له إن كل هذا عندك اعتراضاً فالتزم مثله سواء سواء ممن قال لك إنما صح عقد أولئك الخمسة لأن الإمام الميت قلدهم ذلك ولولا ذلك لم يجز عقدهم وبرهان ذلك أنه إنما عقد لهم الاختيار منهم لا من غيرهم فلو اختاروا من غيرهم لما لزم الانقياد لهم فلا يجوز عقد خمسة أو أكثر إلا إذا قلدهم الإمام ذلك أو ممن قال لك إنما صح عقد أولئك الخمسة لإجماع فضلاء أهل ذلك العصر على الرضا بمن اختاروه ولو لم يجمعوا على الرضا به لما جاز عقدهم وهذا مما لا مخلص منه أصلا ً فبطل هذا القول بيقين لا إشكال فيه والحمد لله رب العالمين فإذ قد بطلت هذه الأقوال كلها فالواجب النظر في ذلك على ما أوجبه الله تعالى في القرآن والسنة وإجماع المسلمين كما افترض علينا عز وجل إذ يقول " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إماماً بعد موته وسواء فعل ذلك في صحته أو في مرضه وعند موته إذ لا نص ولا إجماع على المنع من أحد هذه الوجوه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وكما فعل أبو بكر بعمر وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة وانتظام أمر الإسلام وأهله ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة فوضى ومن انتشار الأمر وارتفاع النفوس وحدوث الأطماع.

قال أبو محمد: إنما أنكر من أنكر من الصحابة رضي الله عنهم ومن التابعين بيعة يزيد بن معاوية والوليد وسليمان لأنهم كانوا غير مرضيين لا لأن الإمام عهد إليهم في حياته والوجه الثاني إن مات الإمام ولم يعهد إلى أحد أن يبادر رجل مستحق للإمامة فيدعوا لي نفسه ولا منازع له ففرض أتباعه والا نقياد لبيعته والتزام إمامته وطاعته كما فعل علي إذ قتل عثمان رضي الله عنهما وكما فعل ابن الزبير رضي الله عنهما وقد فعل ذلك خالد بن الوليد إذ قتل الأمراء زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة فأخذ خالد الراية عن غير أمره وصوب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بلغه فعله وساعد خالداً جميع المسلمين رضي الله عنهم أو أن يقوم كذلك عند ظهور منكر يراه فتلزم معاونته على البر والتقوى ولا يجوز التأخر عنه لأ ن لك معاونة على الإثم والعدوان وقد قال عز وجل " وتعاونوا على البر و التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " كما فعل زيد بن الوليد ومحمد بن هارون المهدي رحمهم الله والوجه الثالث أن يصير الإمام عند وفاته اختيار خليفة المسلمين إلى رجل ثقة أو إلى أكثر من واحد كما فعل عمر رضي الله عنه عند موته وليس عندنا في هذا الوجه إلا التسليم لما أجمع عليه المسلمون حينئذ ولا يجوز التردد في الاختيار أكثر من ثلاث ليال للثبات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله من بات ليلة ليس في عنقه بيعة و

لأن المسلمين لم يجتمعوا على ذلك أكثر من ذلك والزيادة على ذلك باطل لا يحل على أن المسلمين يومئذ من حين موت عمر رضي الله عنه قد اعتقدوا بيعة لازمة في أعناقهم لازمة لأحد أولئك الستة بلا شك فهم وإن لم يعرفوه بعينه فهو بلا شك واحد من أولئك الستة فبأحد هذه الوجوه تصح الإمامة و لا تصح بغير هذه الوجوه البتة.

قال أبو محمد: فإن مات الإمام ولم يعهد إلى إنسان بعينه فوثب رجل يصلح للإمامة فبايعه واحد فأكثر ثم قام آخر ينازعه ولو بطرفة عين بعده فالحق حق الأول وسواء كان الثاني أفضل منه أو مثله أو دونه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فوابيعة الأول فالأول من جاء ينازعه فاضربوا عنقه كائناً من كان فلو قام اثنان فصاعداً معاً في وقت واحد ويئس من معرفة أيهما سبقت بيعته نظر أفضلهما وأسوسهما فالحق له ووجب نزع الآخر لقول الله تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " ومن البر تقليد الاسوس وليس هذا بيعة متقدمة يجب الوفاء بها ومحاربة من نازع صاحبها فإن استويا في الفضل قدم الأسوس نعم وإن كان أقل فضلا ً إذا كان مؤدياً للفرائض والسنن مجتنباً للكبائر مستتراً بالصغائر لأن الغرض من الإمامة حسن السياسة والقوة على القيام بالأمور فإن استويا في الفضل والسياسة اقرع بينهما أو نظر في غيرهما والله عز وجل لا يضيق على عباده هذا الضيق ولا يوقفهم على هذا الحرج لقوله تعالى " وما جعل عليكم في الدين من حرج " وهذا أعظم الحرج وبالله تعالى التوفيق.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال أبو محمد: اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم لقول الله تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " ثم اختلفوا في كيفيته فذهب بعض أهل السنة من القدماء من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وهو قول سعد بن أبي وقاص وأسامة ابن زيد وابن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم إلى أن الغرض من ذلك إنما هو بالقلب فقط ولا بد أو باللسان إن قدر على ذلك ولا يكون باليد ولا بسل السيوف ووضع السلاح أصلا ً وهو قول أبي بكر بن كيسان الأصم وبه قال ت الروافض كلهم ولو قتلوا كلهم إلا أنها لم تر ذلك إلا ما لم يخرج الناطق فإذا خرج وجب سل السيوف حينئذ معه وإلا فلا واقتدى أهل السنة في هذا بعثمان رضي الله عنه وممن ذكرنا من الصحابة رضي الله عنهم وبمن رأى القعود منهم إلا أن جميع القائلين بهذه الم قال ة من أهل السنة إنما رأوا ذلك ما لم يكن عدلا ً فإن كان عدلا ً وقام عليه فاسق وجب عندهم بلا خلاف سل السيوف مع الإمام العدل وقد روينا عن ابن عمر أنه قال لا أدري من هي الفئة الباغية ولو علمنا ما سبقتني أنت ولا غيرك إلى قتالها.

قال أبو محمد: وهذا الذي لا يظن بأولئك الصحابة رضي الله عنهم غيره

وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر المعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك قال وا فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييئسون من الظفر ففرض عليهم ذلك وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير وغيرهم ممن معهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وهو قول عبد الله بن الزبير ومحمد والحسن بن علي وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار القائمين يوم الحرة رضي الله عن جميعهم أجمعين وقول كل من أقام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة رضي الله عن جميعهم كأنس بن مالك وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبد الرحمن ابن أبي ليلى وسعيد بن جبير وابن البحتري الطائي وعطاء السلمي الأزدي والحسن البصري ومالك بن دينار ومسلم بن بشار وأبي الحوراء والشعبي وعبد الله بن غالب وعقبة بن عبد الغافر بن صهبان وماهان والمطرف بن المغيرة ابن شعبة وأبي المعدو حنظلة بن عبد الله وأبي سح الهنائي وطلق بن حبيب والمطرف بن عبد الله ابن السخير والنصر بن أنس وعطاء بن السائب وإبراهيم بن يزيد التيمي وأبي الحوسا وجبلة بن زحر وغيرهم ثم من بعد هؤلاء من تابعي التابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر وكعبد الله بن عمر ومحمد بن عجلان ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر ومطر الوراق ومن خرج مع إبراهيم بن عبد الله وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة والحسن بن حي وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه وإما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رأوه منكراً.

قال أبو محمد: احتجت الطائفة المذكورة أولا ً بأحاديث فيها انقاتلهم يا رسول الله قال لا ما صلوا وفي بعضها إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان وفي بعضها وجوب الضرب وإن ضرب ظهر أحدنا وأخذ ماله وفي بعضها فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فاطرح ثوبك على وجهك وقل إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وفي بعضها كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل وبقوله تعالى " واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر " الآية.

قال أبو محمد: كل هذا لا حجة لهم فيه لما قد تقصيناه غاية التقصي خبراً خبراً بأسانيدها ومعانيها في كتابنا الموسوم بالاتصال إلى فهم معرفة الخصال ونذكر منه إن شاء الله هاهنا جملا ً كافية وبالله تعالى نتأيد أما أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر على أخذ المال وضرب الظهر فإنما ذلك بلا شك إذا تولى الإمام ذلك بحق وهذا ما لا شك فيه أنه فرض علينا الصبر له

وإن امتنع من ذلك بل من ضرب رقبته إن وجب عليه فهو فاسق عاص لله تعالى وإما أن كان ذلك بباطل فمعاذ الله أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك برهان هذا قول الله عز وجل " وتعاونوا على البر و التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " وقد علمنا أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام ربه تعالى قال الله عز وجل " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " و قال تعالى " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " فصح أن كل ما قال ه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو وحي من عند الله عز وجل لا اختلاف فيه ولا تعارض ولا تناقض فإذا كان هذا كذلك فبيقين لا شك فيه يدري كل مسلم أن من أخذ مال مسلم أو ذمي بغير حق وضرب ظهره بغير حق إثم وعدوان وحرام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم فإذ لا شك في هذا ولا اختلاف من أحد من المسلمين فالمسلم ماله ل لأخذ ظلماً وظهره للضرب ظلماً وهو يقدر على الامتناع من ذلك بأي وجه أمكنه معاون لظالمه على الإثم والعدوان وهذا حرام بنص القرآن " وأما سائر الأحاديث التي ذكرنا وقصة ابني آدم فلا حجة في شيء منها أما قصة ابني آدم فتلك شريعة أخرى غير شريعتنا قال الله عز وجل " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً " وأما الأحاديث فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ليس وراء ذلك من الإيمان شيء وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا طاعة في معصية إنما الطاعة في الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وإنه عليه السلام قال من قتل دون ماله فهو شهيد والمقتول دون دينه شهيد والمقتول دون مظلمة شهيد و قال عليه الس لام لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده فكان ظاهر هذه الأخبار معارضاً للآخر فصح أن إحدى هاتين الجملتين ناسخة للأخرى لا يمكن غير ذلك فوجب النظر في أيهما هو الناسخ فوجدنا تلك الأحاديث التي منها النهي عن القتال موافقة لمعهود الأصل ولما كانت الحال عليه في أول الإسلام بلا شك وكانت هذه الأحاديث الأخر واردة بشريعة زايدة وهي القتال هذا ما لا شك فيه فقد صح نسخ معنى تلك الأ حاديث ورفع حكمها حين نطقه عليه السلام بهذه الأخر بلا شك فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمنسوخ ويترك الناسخ وأن يؤخذ الشك ويترك اليقين ومن ادعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هي الناسخة فعادت منسوخة فقد ادعى الباطل وقفا ما لا علم له به ف قال على الله ما لم يعلم وهذا لا يحل ولو كان هذا لما أخلا الله عز وجل هذا الحكم عن دليل وبرهان يبين به رجوع المنسوخ ناسخاً لقوله تعالى في القرآن تبياناً لكل شيء وبرهان آخر وهو أن الله عز وجل قال " وإن طايفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء " لم

يختلف مسلمان في أن هذه الآية التي فيها فرض قتال الفئة الباغية محكمة غير منسوخة فصح أنها الحاكمة في تلك الأحاديث فما كان موافقاً لهذه الآ ية فهو الناسخ الثابت وما كان مخالفاً لها فهو المنسوخ المرفوع وقد ادعى قوم أن هذه الآية وهذه الأحاديث في اللصوص دون السلطان.
قال أبو محمد: وهذا باطل متيقن لأنه قول بلا برهان وما يعجز مدع أن يدعي في تلك الأحاديث أنها في قوم دون قوم وفي زمان دون زمان و الدعوى دون برهان لا تصح وتخصيص النصوص بالدعوى لا يجوز لأنه قول على الله تعالى بلا علم وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سائ لا ً سأله عن من طلب ماله بغير حق ف قال عليه السلام لا تعطه قال فإن قاتلني قال قاتله قال فإن قتلته قال إلى النار قال فإن قتلني قال فأنت في الجنة أو كلاماً هذا معناه وصح عنه عليه السلام أنه قال المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه وقد صح أنه عليه السلام قال في الزكاة من سألها على وجهها فليعطها ومن سألها على غير وجهها فلا يعطها وهذا خبر ثابت رويناه من طريق الثقات عن أنس بن مالك عن أبي بكر الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا يبطل تأويل من تأول أحاديث القتال عن المال على اللصوص لا يطلبون الزكاة وإنما يطلبه السلطان فاقتصر عليه السلام معها إذا سألها على غير ما أمر به عليه السلام ولو اجتمع أهل الحق ما قاوا هم أهل الباطل نسأل الله المعونة والتوفيق.
قال أبو محمد: وما اعترضوا به من فعل عثمان فما علم قط أنه يقتل وإنما كان يراهم يحاصرونه فقط وهم لا يرون هذا اليوم للإمام العدل بل يرون القتال معه ودونه فرضاً فلا حجة لهم في أمر عثمان رضي الله عنه و قال بعضهم إن في القيام إباحة الحريم وسفك الدماء وأخذ الأموال وهتك الأ ستار وانتشار الأمر ف قال لهم الآخرون كلا لأنه لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يهتك حريماً ولا أن يأخذ مالا ً بغير حق ولا أن يتعرض من لا يقاتله فإن فعل شيئاً من هذا فهو الذي فعل ما ينبغي أن يغير عليه وأما قتله أهل المنكر قلوا أو كثروا فهذا فرض عليه وأما قتل أهل المنكر الناس وأخذهم أموالهم وهتكهم حريمهم فهذا كله من المنكر الذي يلزم الناس تغييره وأيضاً فلو كان خوف ما ذكروا مانعاً من تغيير المنكر ومن الأمر بالمعروف لكان هذا بعينه مانعاً من جهاد أهل الحرب وهذا ما لا يقوله مسلم وإن ادعى ذلك إلى سبي النصارى نساء المسلمين وأولادهم وأخذ أموالهم وسفك دمائهم وهتك حريمهم ولا خلاف بين المسلمين في أن الجهاد واجب مع وجود هذا كله ولا فرق بين الأمرين وكل ذلك جهاد ودعاء إلى القرآن والسنة.
قال أبو محمد: وي قال لهم ما تقولون في سلطان جعل اليهود أصحاب أمره والنصارى جنده وألزم المسلمين الجزية وحمل السيف على أطفال المسلمين وأباح المسلمات للزنا أو حمل السيف على كل من وجد من المسلمين وملك نساءهم وأطفالهم وأعلن العبث بهم وهو في كل ذلك مقر بالإسلام معلن به

لا يدع الصلاة فإن قال وا لا يجوز القيام عليه قيل لهم أنه لا يدع مسلماً إلا قتله جملة وهذا أن ترك أوجب ضرورة ألا يبقى إلا هو وحده وأهل الكفر معه فإن أجازوا الصبر على هذا خالفوا الإسلام جملة وانسلخوا منه وإن قال وا بل يقام عليه ويقاتل وهو قولهم قلنا لهم فإن قتل تسعة أعشار المسلمين أو جميعهم إلا واحداً وسبي من نسائهم كذلك وأخذ من أموالهم كذلك فإن منعوا من القيام عليه تناقضوا وإن أوجبوا سألناهم عن أقل من ذلك ولا نزال نحطهم إلى أن نقف بهم على قتل مسلم واحد أو على امرأة واحدة أو على أخذ مال أو على انتهاك بشرة بظلم فإن فرقوا بين شيء من ذلك تناقضوا وتحكموا بلا دليل وهذا ما لا يجوز وإن أوجبوا إنكار كل ذلك رجعوا إلى الحق ونسألهم عمن غصب سلطانه الجائر الفاجر زوجته وابنته وابنه ليفسق بهم أو ليفسق به بنفسه أهو في سعة من إسلام نفسه وامرأته وولده وابنته للفاحشة أم فرض عليه أن يدفع من أراد ذلك منهم فإن قال وا فرض عليه إسلام نفسه وأهله أتوا بعظيمة لا يقولها مسلم وإن قال وا بل فرض عليه أن يمتنع من ذلك ويقاتل رجعوا إلى الحق ولزم ذلك كل مسلم في كل مسلم وفي المال كذلك.
قال أبو محمد: والواجب أن وقع شيء من الجور وإن قل أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام كما كان لا يحل خلعه فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع وبالله تعالى التوفيق.

============

المراجع والمصادر الهامة

1- القرآن الكريم
2- صحيح البخاري
3- صحيح مسلم
4- سنن ابي داود
5- سنن الترمذي
6- سنن النسائي
7- سنن البيهقي
8- سنن الدارقطني
9- مسند الإمام أحمد
10- مصنف عبد الرزاق
11- مصنف ابن أبي شيبة
12- فضائل الصحابة عبد الله بن أحمد

13- المطالب العالية لابن حجر
14- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم
15- معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني
16- معرفة السنن والآثار للبيهقي
17- صحيح ابن حبان
18- المستدرك للحاكم
19- مجمع الزوائد للهيثمي
20- معجم الطبراني الكبير
21- البداية والنهاية لابن كثير
22- تاريخ الطبري
23- تاريخ ابن خلدون
24- سير أعلام النبلاء للذهبي
25- تاريخ الإسلام للذهبي
26- الفصل في الملل والنحل لابن حزم
27- العواصم من القواصم لابن العربي
28- الفتنة وموقعة الجمل لسيف بن عمر التميمي
29- منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
30- مختصر منهاج السنة النبوية
31- الموسوعة الفقهية
32- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
33- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
34- تاريخ ابن عساكر وهو أجمعها وفيه الغث والسمين
35- نظم المتناثر في الحديث المتواتر
36- دراسات قرآنية محمد قطب
37- منهج التربية الإسلامية محمد قطب
38- واقعنا المعاصر محمد قطب
39- الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير
40- معالم من تاريخ الخلفاء الراشدين محمد بن صامل السلمي
41- الرياض النضرة في مناقب العشرة
42- طبقات ابن سعد
43- فتح الباري للحافظ ابن حجر
44- شرح صحيح مسلم للنووي
45- تهذيب الآثار للطبري
46- الكامل في اللغة للمبرد
47- العقد الفريد لابن عبد ربه
48- في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب
49- الشريعة للآجري

50- مشكل الآثار للطحاوي
51- وقفات في سيرة عثمان خالد بن محمد الشارخ
52- عون المعبود شرح سنن أبي داود
53- تاريخ الجنس العربي محمد عزت دروزة
54- التاريخ الإسلامي محمود شاكر
55- موسوعة الأسرة المسلمة للمؤلف

الفهرس العام